نشريات وقف الديانة التركي
رقم النشر ٧٦٦-١
نشريات إسام ٢٢٧
سلسلة عيون التراث الإسلامي ٣٧

كشف الأسرار وهتك الأستار
يوسف بن هلال الصفدي

المجلد الأول

تحقيق أ.د. بَهاء الدّين دارتْما

المراجعة أ.د. بَكر طوپال أوغلي

لقد تم إعداد كتاب كشف الأسرار وهتك الأستار بإشراف اللجنة العلمية للتحقيق بمركز البحوث الإسلامية (İSAM) التابع لوقف الديانة التركي.
İcadiye - Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
الهاتف: 50 08 474 216 90+ www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

إدارة النشر محمد سَعادْ مَرْتْ أوغلو
إشراف الطبع أردال جَسار
تحرير قسم التحقيق أوقانْ قَدير يِلْماز، أورخان أنْجَقار
التدقيق النهائي لقسم الدراسة (التركي) مصطفى دَميرآي
التصحيح (العربي) أورخان أنْجَقار، أوقانْ قَدير يِلْماز
(التركي) عيسى قايا ألْبْ، إسماعيل أزْيلْكين
التصميم علي حيدر أولوصوي، حسن حسين جان (غلاف)،
رمزي حاج مصطفى (خط الغلاف)
سكرتير النشر سماء دوغان

تم إعداد هذا الكتاب
من قبل مركز البحوث الإسلامية (إسام/ İSAM)
في إطار مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية.
منسق المشروع طونْجاي باش أوغلو

تم طبع هذا الكتاب بقرار مجلس إدارة إسام
رقم ٢٠١٨/١٨ وتاريخ ٢٠١٨/١٢/٢١.

الطبعة الأولى: إستانبول - بيروت، آذار ٢٠١٩م / ١٤٤٠هـ
الطبعة الثالثة: أنقرة، أغسطس ٢٠٢٣م / ١٤٤٥هـ
ISBN 978-625-7672-69-6 (مجموعة)
978-625-7672-70-2 (المجلد الأول)

الطباعة والنشر والتوزيع
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.
Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No: 11 Yeni Mahalle / Ankara
الهاتف: 9131 354 312 90+ الفاكس: 9132 354 312 90+ bilgi@tdv.com.tr

يوسف بن هلال الصفدي
كشف الأسرار وهتك الأستار / يوسف بن هلال الصفدي؛ التحقيق: بَهاء الدّين دارتْما. الطبعة الثالثة – إستانبول؛ أنقرة: مركز البحوث الإسلامية (إسام)؛ وقف الديانة التركي، ٢٠٢٣.
المجلد الأول، ٥٧١، ٢٥ صفحة؛ ٢٤ سم. – (نشريات وقف الديانة التركي؛ ٧٦٦-١. نشريات إسام؛ ٢٢٧. سلسلة عيون التراث الإسلامي؛ ٣٧)
يحتوي على الفهارس والمصادر
(المجلد الأول) 978-625-7672-70-2 (مجموعة) ISBN 978-625-7672-69-6

فهرس المحتويات

كشف الأسرار وهتك الأستار

يوسف بن هلال الصفدي (ت. ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م)

الرموز والاختصارات

ش	نسخة المكتبة السليمانية، شهيد علي باشا (١٥٧)
ن	نسخة مكتبة نور عثمانية (٤١٦)
ك	نسخة المكتبة السليمانية، رئيس الكُتّاب (٦٣-٦٤)
ر	نسخة المكتبة السليمانية، رستم باشا (٤٥-٤٦)
م	نسخة المكتبة السليمانية، مراد ملا (١٥٩-١٦٢)
+	إشارة إلى كلمة أو عبارة زائدة في النسخة
-	إشارة إلى كلمة أو عبارة ناقصة في النسخة
:	إشارة إلى الاختلاف بين النسخ في كلمة أو عبارة
[ ]	إشارة إلى ما أضافه المحقق على نص الكتاب

ص	الصفحة
صح هـ	مصحح في الهامش
ظ	ظهر الورقة
م	الميلادي
و	وجه الورقة
هـ	الهجري

تقديم

نشر هذا الكتاب الذي بين أيدينا في إطار مشروع العصور المتأخرة من الحضارة الإسلامية الذي أطلقه مركز البحوث الإسلامية (إسام) التابع لوقف الديانة التركي عام ٢٠١٢م بهدف إظهار التراكم المعرفي للحضارة الإسلامية في العصور المتأخرة (٧-١٣هـ/١٣-١٩م) بأبعادها العلمية والفكرية. وإحدى أهم مساعي هذا المشروع -الذي يهدف إلى تشكيل أرضية محكمة من أجل إنشاء عهد جديد وتسليط الضوء على تراثنا المعرفي القديم- هي نشر مخطوطات هذه العصور والتي ما زال قسمٌ كبيرٌ منها ينتظر الخروج للنور بشكل يتناسب مع الأسس العلمية للتحقيق والنشر. ومن الجليّ جدًّا أنّه لا يمكن كتابة تاريخ العلوم الإسلامية والفكر الإسلامي كتابة سليمة راسخة دون الرجوع خاصة للمؤلفات المخطوطة، وستبقى كل التقييمات والدراسات دون تحليل ومراجعة هذه المخطوطات سطحية عامة.

كتاب كشف الأسرار وهتك الأستار الذي يُنشر لأول مرة في إطار المشروع هو كتابٌ في تفسير القرآن الكريم لأبي البركات يوسف بن هلال الصفدي (ت. ٦٩٦هـ/١٢٩٦م) الطبيب والأديب والمفسّر وأحد فقهاء القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي الذي لا نعرف شيئًا كثيرًا عن حياته.

إن الجهود الرامية لفهم وتفسير وتأويل القرآن الكريم -وهو المصدر الرئيسي للإسلام- استمرت عبر التاريخ دون انقطاع. وقد عُلِم بأن هذه الجهود أنتجت مؤلفات كثيرة جدًّا أُلّفت لتلبية احتياجات مختلفة في فترات مختلفة، والتي قدّمت فنونًا متنوعة، وأصبحت نتاجًا لآراء مختلفة ومعتقدات مختلفة. وكتاب كشف الأسرار هو أحد أمثلة هذه المؤلفات التي ظلّت بعيدة عن الأنظار إلى يومنا هذا. وهذا الكتاب الذي يلفتُ النظرَ بصدوره من مؤلِف مهنته الطبابة، والذي أتقن مؤلفه بعض لغات الكتب المقدسة السابقة من أمثال السريانية والعبرية، وحث على أهمية العقل وأظهر المعارضة للتقليد،

قد يقال عنه إنه كتاب يخالف عادة أهل عصره بتعبيراته وأساليبه البسيطة، حتى يخيل لقراء عصرنا أنه نصٌّ معاصر.

يتميَّزُ منهج الصفدي عند تفسيره للآيات في هذا الكتاب بقبوله للعقل والنقل كدليلين أساسيين في الدين، وباستشهاده من التوراة والإنجيل مع اعتقاده بتحريفهما. كما يتميّز أيضًا بآرائه الخاصة في بعض المسائل الأساسية في علوم القرآن وعلى رأسها مصطلحات النسخ والمتشابه والحروف المقطعة كما يمثِّل أحيانًا قناعات خاصة قابلة للنقاش مثل إنكار النسخ والتي لا نصادف نماذج مشابهة لها كثيرًا عند المفسرين في عصور ما قبل العصور الحديثة، ويفسر الآيات في إطار هذه الآراء.

وقد يُتصور أنَّ من أسباب عدم الالتفات لكشف الأسرار ما احتواه من أمثال هذه الآراء الجدلية، وعدم اعتماد تفسيره في التدريس، وأيضًا لم يُعرَف مؤلِّفه كعالمٍ من علماء العلوم الشرعية، ولم يذع صيته في زمانه، واختفى كتابه في ظِلِّ كتاب معاصره الشهير القاضي البيضاوي (ت. ٦٨٥/١٢٨٦) الذي بلغ كتابه الشهرة الواسعة في علم التفسير. ويلفت مركز البحوث الإسلامية (إسام) أنظار الباحثين بنشره كتاب كشف الأسرار إلى ثراء مؤلّفات التفسير وتاريخه، آمِلًا أن يكون قد عوّض جانبًا من الإهمال الذي تعرّض له الكتاب وغيره من أمثاله.

في طليعة الأسماء التي بذلت قصارى جهدها في سبيل نشر كتاب كشف الأسرار نشرًا علميًا هو أستاذُنا المرحوم بكر طوبال أوغلي (١٩٣٢-٢٠١٦) الرئيس السابق للجنة العلمية للتحقيق في إسام (İSAM) صاحب الإسهامات المهمة في إنشاء وتطوير أعمال التحقيق في مركزنا. وأستاذنا رحمه الله مع حثّه على نشر هذا الكتاب محققًا من قِبل إسام، وقيامه بالمراجعة العلمية للنص المحقَّق بقراءته سطرًا سطرًا أكثر من مرة إلا أنه فارقنا وللأسف الشديد قبل أن يرى الكتاب مطبوعًا. وبهذه المناسبة نسأل الله تعالى يتغمده بواسع رحمته، ويجازيه أحسن الجزاء على مساعيه.

وهناك أسماء كثيرة غير أستاذنا المرحوم تكبّدوا أعباء التحضير والتجهيز التي استمرت لفترة طويلة في سبيل نشر هذا الكتاب ولا نستطيع ذكرهم جميعًا. ولكني أودّ أن أذكر على وجه الخصوص أُورْخان أَنْجَقَارْ وأُوقَانْ قَدير بِلْمَازْ أعضاء اللجنة العلمية للتحقيق في إسام، اللذين أعدّا الكتاب للنشر، والدكتور أُورْخان موسى خان أُوزْ

الذي قام مع هذين الأستاذين بمراجعة بعض المواضع في نسخة مكتبة مراد ملا لكشف الأسرار التي لم يُعتمد عليها في التحقيق لكونها مسودة، والتي رأى أعضاء اللجنة العلمية للتحقيق فائدتها في حل بعض المواضع المشكلة لأنها مسودة المؤلف رغم كونها الإبرازة الأولى، والأستاذ الدكتور عبد الرحمن خَجْقَهلِي الذي قام بمراجعة الرسوم التوضيحية لمسائل الفرائض، وأيضًا الدكتور عبد الجبّار الزيدي والأستاذ الدكتور أسامة الحموي اللذان ساهما في مراحل التصحيح، ومحمد شاهين الذي وضع كشافات الكتاب الموضوعية، وعلي حيدر أُولُوصُويْ مصمم الكتاب. بهذه المناسبة أتقدّم بجزيل الشكر لهذه الأسماء ولكل من ساهم في إخراج الكتاب في مراحله العلمية والفنية. على أمل أن يكون لهذا العمل مساهمة في كشف خبايا تراثنا العلمي والفكري.

الأستاذ المشارك محمد سُعَادْ مَرْت أُوغْلُو

رئيس هيئة التحرير في إسام

يوسف بن هلال الصفدي وتفسيره

الأستاذ الدكتور: بَهَاء الدّين دَارْتْمَا

مؤلف الكتاب

هو يوسف بن هلال بن أبي البركات جمال الدين الحلبي الحنفي أبو الفضائل الطبيب الصفدي. كانت له معرفة بالأدب والفقه. وكان يؤثر الفقراء ويطبهم ويصلهم بالشراب والطعام في مرضهم. وأنشد لنفسه بالكاملية يوم الأحد تاسع المحرم سنة إحدى وثمانين وستمائة:

بكمال حسنك يا مخاطِب ذاتي ... بلوائحَ أخفى من اللَّحَظات
أنعمْ عليّ بترك ما هو عكس ما ... قد جلّ عن حصر وعن كلمات
يا قهوة مني إلي شربتها ... عندي إذا حظرت على الأموات
ارتجّت الأَرَضُون ثم تشققت ... عن كل ميت فيه كل حياة
هي روح سر السر فَهْي إذا بدت ... تستغرق الأرواح في الأوقات
من دونها موتٌ وفيها عيشةٌ ... فالروح أول نَقْدةٍ يا آتِ
ماذا أقول وما أصرّح واصفاً ... قد قلت في الحركات والسّكنات
فوصفت ظاهرها بما أظهرتُه ... والسر في سري ولا بصفات

كان أديبا عالمًا، له أرجوزة في الخلاف بين أبي حنيفة والشافعي، وكتاب سماه **كشف الأسرار وهتك الأستار**.

وتوفي -رحمه الله- بالقاهرة ثالث عشري المحرم سنة ست وتسعين وستمائة.[١]

---

١ تاريخ الإسلام للذهبي، ٣١٤/٥٢؛ أعيان العصر للصفدي، ٦٧١/٥-٦٧٢؛ الوافي بالوفيات له أيضا، ١٦٤/٢٩؛ الأعلام للزركلي، ٢٥٦/٨؛ Brockelmann, *Geschichte der Arabischen Litteratur (GAL), Suppl.*, Leiden, E. J. Brill, 1937, 1/738.

خصائص التفسير

١. يوضح الكلمات الغريبة من كتاب الله تعالى، ويشير إلى أصول هذه الكلمات.

٢. نادرا ما يذكر إعراب الكلمات والجمل.

٣. أحيانا يشير إلى القراءات المختلفة للآية ويختار من بينها قراءة واحدة. ونرى بين هذه القراءات التي ذكرها بعض القراءات غير المتواترة.

٤. يرد النَّسخ ويوضح هذا الرأي بقوله: "لا ينسخ القرآن بأي شيء من الكلام".

٥. يذكر آراء كلامية وفلسفية في كتابه في مواضع مختلفة منه، كما يدافع عن آراء أهل السنة والجماعة.

٦. يقل ذكره للأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والتابعين؛ كما أنّ بين هذه الروايات أحاديث ضعيفة.

٧. ويدفع التناقض بين القرآن وأحاديث الرسول؛ ويقول: الحديث الذي يناقض القرآن ليس بحديث". وإذا وجد التناقض الظاهري بين الآيات والأحاديث فينبغي تأويل الأحاديث أو الجمع بينها لتكون موافقة للآيات. كما يرى أن السنة توضح القرآن ولا تناقضه.

٨. يبين التناسب بين الآيات والسور.

٩. ويرى أن الوحي مقدم على العقل.

١٠. يذكر الآراء الفقهية عند ورود موضعها.

١١. ينقل نصوصًا من التوراة والإنجيل، مع بيان تحريفهما.

١٢. أبرز خصوصية لهذا التفسير أن صاحبه يستخدم النقل والعقل كدليلين أصليين.

١٣. يبين الفرق بين الألفاظ المترادفة.

١٤. يرد التناقض بين الآيات، ويبين أن الآيات -التي يظن بعض أصحاب الآراء أنها متناقضة في الحقيقة- ليس بينها التناقض؛ بل الآيات يوضح بعضَها بعضًا.

١٥. ويرى أن لكل متشابهٍ محكمٌ؛ ويفسر الآيات المتشابهات بالمحكمات.

١٦. يستدل بالأشعار العربية لكافة الشعراء. وقد سعينا للوقوف على هذه الأشعار في مظانها، غير أنّا لم نوفق في الوقوف على بعضها. ومن محتمل أن تكون بعض هذه الأشعار للمؤلف؛ على ما هي عادة بعض المؤلفين.

نسخ الكتاب

قمنا في تحقيق هذا الكتاب بإتمام المتن من النسخ المختلفة الموجودة لدينا. وقد استخدمنا في هذا أربعة نسخ موجودة في المكتبات:[١]

١- نسخة شهيد علي باشا: ١٥٧ (رمزها: ش).

المكتبة: السليمانية، (إستانبول-تركيا). **القسم والرقم**: شهيد علي باشا: ١٥٧، (من سورة الفاتحة إلى سورة الناس). **عدد الأوراق**: ٥٢٠. **اسم الناسخ**: لم يذكر فيها. **تاريخ الاستنساخ**: ١٠٨٩هـ. **عدد الأسطر**: ٣٣. **الخط والأوصاف**: كتبت بخط النسخ. وقد كتبت أسماء السور فيها بمداد أحمر وسائر الكلام بالأسود. **قيد التصحيح**: على هوامشها تصحيحات نادرة قيمة تدل على أن هذه النسخة مقروءة من بعض العلماء. **رمزها في التحقيق**: ش. **ملاحظات**: واعتبرتها أصلا في التحقيق للإشارة إلى عدد أوراقها.

٢- نسخة نور عثمانية: ٤١٦ (رمزها: ن).

المكتبة: نور عثمانية: (إستانبول-تركيا). **الرقم**: ٤١٦ (من سورة الفاتحة إلى سورة الناس). **عدد الأوراق**: ٤٢٠. **اسم الناسخ**: إسماعيل بن رجب الحساني الحلبي. **تاريخ الاستنساخ**: ١١٥٩هـ. **عدد الأسطر**: ٣٩. **الخط والأوصاف**: كتبت بنسخ واضح. ولم يتطرق إليها بِلى أو تلف. الآيات المفسرة مكتوبة بمداد أحمر. وقد كتبت أسماء السور فيها بالحمرة وسائر الكلام بالحبر الأسود. **قيد التصحيح**: على هوامشها تصحيحات نادرة قيمة تدل على أن هذه النسخة مقروءة من بعض العلماء. **رمزها في التحقيق**: ن.

٣- نسخة رئيس الكُتّاب: ٦٣-٦٤ (رمزها: ك)

المكتبة: السليمانية، (إستانبول-تركيا). **القسم والرقم**: رئيس الكُتّاب: ٦٣-٦٤، (من سورة الفاتحة إلى سورة الناس). **وعدد الأوراق**: ٩١٧، (٦٣: عدد أوراقها ٤٦٧،

---

[١] ملاحظة الناشر: بعد الانتهاء من التحقيق تبين أن نسخة مكتبة مراد ملا (رقم ١٥٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢) -التي لم تُستخدم في التحقيق لكونها مسودة- مفيدة في حل مواضع الإشكال التي اتفقت عليها النسخ الأربع المستخدمة في التحقيق، مع كونها الإبرازة الأولى من مسودة المؤلف. وعلى هذا قامت أعضاء اللجنة العلمية للتحقيق في إسام بمقابلة هذه المواضع المشكلة على نسخة مراد ملا، ورمزت لهذه النسخة بـ"م". وأضافت أعضاء اللجنة أيضا صورة نسخة مراد ملا بين صور النسخ المستخدمة في التحقيق. (مركز البحوث الإسلامية، إسام/İSAM).

و٦٤: عدد أوراقها ٤٥٠). اسم الناسخ: لم يذكر فيها اسم الناسخ. تاريخ النسخ: لم يذكر فيها تاريخ النَّسْخ. عدد الأسطر: ٢١. الخط والأوصاف: كتبت بخط تعليق. قيد التصحيح: وعلى هوامشها تصحيحات نادرة قيمة تدل على أن النسخة مقروءة من بعض العلماء. رمزها في التحقيق: ك.

٤- نسخة رستم پاشا: ٤٥-٤٦ (رمزها: ر).

المكتبة: السليمانية، (إستانبول-تركيا). القسم والرقم: رئيس الكُتّاب: ٦٣-٦٤، (من سورة الفاتحة إلى سورة الناس). وعدد الأوراق: ٥١٤، (٤٥: عدد أوراقها ٢٨٦ -من سورة البقرة إلى سورة النساء-؛ و٤٦: عدد أوراقها ٢٢٨ -من سورة مريم إلى سورة الزمر-). اسم الناسخ: لم يذكر فيها. تاريخ النسخ: لم يذكر فيها. عدد الأسطر: ١٩. الخط والأوصاف: كتبت بخط نسخ سميك عادي، ومضبوطة بالشكل. قيد التصحيح: وعلى هوامشها تصحيحات قيمة تدل على أن النسخة مقروءة من بعض العلماء. رمزها في التحقيق: ر.

النسخ غير المستخدمة في التحقيق

١- نسخة سليمانية: ١٣٣.

تحتوي على سورة الأعراف حتى سورة الشعراء. وتتميز الآيات بخطوط حمراء فوقها، وتحتوي على أوراقٍ بعضها بيضاء تليها أوراق حمراء، وليست النسخة بكاملها كذلك. وهي ٢٤٩ ورقة، وكتبت بخط عربي، وكل ورقة منها ٢٥ سطرا، وأبعاد الصفحات فيها ٢٧٨×١٧٨، ١٨٣×١٢٣ مم.

٢- نسخة فاتح: ٣٩٠.

تحتوي على سورة الفاتحة حتى سورة آل عمران. وكتبت الآيات بالمداد الأحمر، وقسم التفسير من النسخة مشكولة بالحركات. هذه النسخة ٢١٨ ورقة، وكتبت بخط النسخ، وكل ورقة منها ١٩ سطرا، وأبعاد الصفحات فيها ٢٦٥×١٧٥، ١٩٠×١١٨ مم.

٣- نسخة فاتح: ٣٩١.

تحتوي على سورة النساء حتى سورة الأعراف. وكتبت الآيات بالمداد الأحمر،

وقسم التفسير من النسخة مشكولة بالحركات. هذه النسخة ٢٣٠ ورقة، وكتبت بخط النسخ، وكل ورقة منها ١٩ سطرا، وأبعاد الصفحات فيها ٢٦٥×١٧٥، ١٦٢×١٢٢ مم.

٤- نسخة فاتح: ٣٩٢.

تحتوي على سورة الأنفال حتى سورة الكهف. وكتبت الآيات بالمداد الأحمر، وقسم التفسير من النسخة مشكولة بالحركات. هذه النسخة ١٩٨ ورقة، وكتبت بخط النسخ، وكل ورقة منها ١٩ سطرا، وأبعاد الصفحات فيها ٢٦٠×١٧٥، ١٩٠×١٢٠ مم.

٥- نسخة فاتح: ٣٩٤.

تحتوي على سورة ياسين حتى سورة الحديد. وكتبت الآيات بالمداد الأحمر، والآيات وقسم التفسير من النسخة مشكولة بالحركات. وهي ١٩٨ ورقة، وكتبت بخط النسخ، وكل ورقة منها ١٩ سطرا، وأبعاد الصفحات فيها ٢٦٥×١٧٨، ١٩٠×١٢٠ مم.

٦- نسخة فاتح: ٣٩٥.

تحتوي على سورة المجادلة حتى سورة الناس. وكتبت الآيات بالمداد الأحمر. والآيات وقسم التفسير من النسخة مشكولة بالحركات. وهي ١٧٢ ورقة، وكتبت بخط النسخ، وكل ورقة منها ١٩ سطرا، وأبعاد الصفحات فيها ٢٩٢×١٧٢، ١٩٢×١٢٠ مم.

٧- نسخة نور عثمانية: ٤١٥.

تحتوي على سورة الفاتحة حتى سورة الناس. وهي ٥٣٧ ورقة، وكتبت بخط النسخ، وكل ورقة منها ٣٣ سطرا، وأبعاد الصفحات فيها ٢٨٦×١٦٩، ١٩٥×٠٨٨ مم.

٨- نسخة عاطف أفندي: ٢٦٠.

تحتوي على سورة الفاتحة حتى سورة الناس. وهي ٥٤١ ورقة، وكتبت بخط التعليق، وكل ورقة منها ٣١ سطرا، وأبعاد الصفحات فيها ٣٢٠×٢٠٠، ٢٢٥×١٠٧ مم.

٩- نسخة مراد ملا: ١٥٨.

تحتوي على سورة الفاتحة حتى سورة الناس. وكتبت الآيات بالمداد الأحمر، هذه النسخة ٣١١ ورقة، وكتبت بخط النسخ، وكل ورقة منها ٣١ سطرا، وأبعاد الصفحات فيها ٣٣٠×٢٤٥، ٢٠٥×١٤٠ مم.

١٠- نسخة مراد ملا: ١٥٩.

تحتوي هذه النسخة على سورة الفاتحة حتى سورة الناس. وكتبت الآيات بالمداد الأحمر، وأكثر صفحاتها فيها مواضع مشطوبة، وعلى بعض الأسطر تسويدات تشير إلى حذف تلك الأسطر، وبعض الصفحات فيها أسطر مشطوبة بكاملها، وأخرجت على الهوامش لحاق لهذه التسويدات، وأيضا هناك شطب على التعليقات الموجودة في الهوامش ثم كتبت تعليقات جديدة أشير إليها بالأسهم، وعلى هوامش بعض الصفحات توجد تعليقات تصل قدرها إلى الصفحة. ولا يشبه خط المتن والتعليقات على الهوامش في بعض المواضع، ولهذا يبدو أن هذه النسخة نسخة مسودة.[١]

هذه النسخة ٢٩٠ ورقة، وهي المجلد الأول للكتاب، وكل ورقة منها ٢٠ سطرا، وكتبت بخط النسخ، وأبعاد الصفحات فيها ٢٦٠×١٨٥، ١٩٥×١٣٥ مم.

١١- نسخة مراد ملا: ١٦٠.

هذه النسخة المجلد الثاني للكتاب. تحتوي على سورة المائدة حتى سورة الكهف. وهي ٢٩٤ ورقة، وكل ورقة منها ٢٠ سطرا. وأبعاد الصفحات فيها ٢٦٠×١٨٥، ١٩٥×١٣٥ مم.

يبدو أن هذه النسخة هي نسخة مسودة مثل نسخة مراد ملا رقم ١٥٩، علما أن في معظم صفحات هذه النسخة شطب على بعض الأسطر فيها إشارة إلى إلغائها، كما كتبت تعليقات في الهوامش، بل شطب على التعليقات الموجودة في تلك الهوامش أحيانًا.

١٢- نسخة مراد ملا: ١٦١.

هذه النسخة المجلد الثالث للكتاب. تحتوي على سورة مريم حتى سورة ص. وهي ٢٣٥ ورقة، وكل ورقة منها ٢٠ سطرا. وأبعاد الصفحات فيها ٢٦٠×١٨٥، ١٩٥×١٣٥ مم.

يبدو أن هذه النسخة كذلك نسخة مسودة مثل نسخة مراد ملا رقم ١٥٩ و١٦٠.

---

[١] ملاحظة الناشر: أن نسخة مراد ملا (رقم ١٥٩-١٦٢) هي مسودة المؤلف من الإبرازة الأولى لكشف الأسرار، خلافا للنسخ الأربع المستخدمة في التحقيق، التي تمثل الإبرازة الثانية للكتاب، فليتنبه. راجع أيضا التعليق السابق. (مركز البحوث الإسلامية، إسام/İSAM).

١٣- نسخة مراد ملا: ١٦٢.

هذه النسخة المجلد الرابع للكتاب. تحتوي على الآية السابعة من سورة زمر حتى سورة الناس. وهي ٢٥٣ ورقة. وكل ورقة منها ٢٠ سطرا. وأبعاد الصفحات فيها ١٨٥×٢٦٠، ١٣٥×١٩٥ مم.

يبدو أن هذه النسخة كذلك نسخة مسودة مثل نسخة مراد ملا رقم ١٥٩، ١٦٠ و١٦١.

وهناك دليل مهم آخر على كون هذه النسخ المسجلة في مكتبة مراد ملا برقم ١٥٩، ١٦٠ و١٦١ أنها نسخ مسودة هو أن عدد الأسطر في كل ورقة في هذه النسخ ٢٠ سطرًا وهو من الأرقام الشفع، والأمر أن عدد الأسطر في المخطوطات الإسلامية تكون غالبا من الأرقام الوتر، ونعني أن الآحاد تكون فيها إما ١ أو ٣ أو ٥ أو ٧ أو ٩. وبعبارة أدق أن آخر رقم من عدد الأسطر لا تكون إلا من الأرقام الوتر مثل ٢١، ٢٥، ٣٣، ٣٩ و٤١.

١٤- نسخة طوب قابو سراي، قسم كُوغُوشْلار: ٦٠٣.

هذه النسخة المجلد الثالث من الكتاب. تحتوي على من سورة مريم حتى سورة الناس، وكتبت الآيات فيها بالمداد الأحمر. وهي ٢٥٣ ورقة، وكل ورقة منها ٣١ سطرا، والنسخة مكتوبة بخط النسخ في ٦٩١هـ/١٢٩٢م.

١٥- نسخة طوب قابو سراي، قسم روان: ١٧٨.

هذه النسخة المجلد الأول من الكتاب. تحتوي على من سورة الفاتحة حتى سورة الكهف. وكتبت الآيات فيها بالمداد الأحمر. وهي ٢٦٩ ورقة، وكل ورقة منها ٣١ سطرا، والنسخة مكتوبة بخط النسخ.

١٦- نسخة طوب قابو سراي، قسم روان: ١٧٩.

هذه النسخة هي المجلد الأول من الكتاب. تحتوي على من سورة مريم حتى سورة الزمر. وكتبت الآيات فيها بالمداد الأحمر. وهي ٢٢٢ ورقة، وكل ورقة منها ١٩ سطرًا، والنسخة مكتوبة بخط النسخ.

المنهج المتبع في التحقيق

١. اعتمدنا مبدئيًا على أُسُسِ مركز البحوث الإسلامية (İSAM) في التحقيق. وأكملنا المتن بوضع أصح الحروف أو الكلمات أو الجمل من بين النسخ المختارة على حسب موضعه. وقد حاولنا قدرَ المستطاع أن نخرج نص الكتاب على أقرب صورة وضعها عليه المؤلف.

٢. وكتبنا متون الآيات بخط نسخ سميك.

٣. خرجنا الآيات بإرجاعها إلى سورها وذكر أرقامها في تلك السور. وأكملنا الآية إن كان ثمة ضرورة. ووضعنا الآيات القرآنية في الهامش بين القوسين هكذا ﴿...﴾.

٤. خرجنا الأحاديث والآثار التي وردت في الكتاب مشيرين إلى موضعها في الهامش. ووضعنا الأحاديث النبوية بين علامتي التنصيص هكذا «...». وأكملنا الأحاديث إن كان ثمة ضرورة. وعملنا على تخريج ما أومأ أو أشار إليه المؤلف من أحاديث (بالهامش مع إثبات مصادرها).

٥. عرفنا ببعض الأعلام الواردة في الكتاب بإيجاز مع العزو إلى المصادر.

٦. عرفنا ببعض الطوائف والفرق والمدن والأماكن والقبائل التي ورد ذكرها في الكتاب.

٧. شرحنا بعض المفردات اللغوية والاصطلاحية شرحا موجزا.

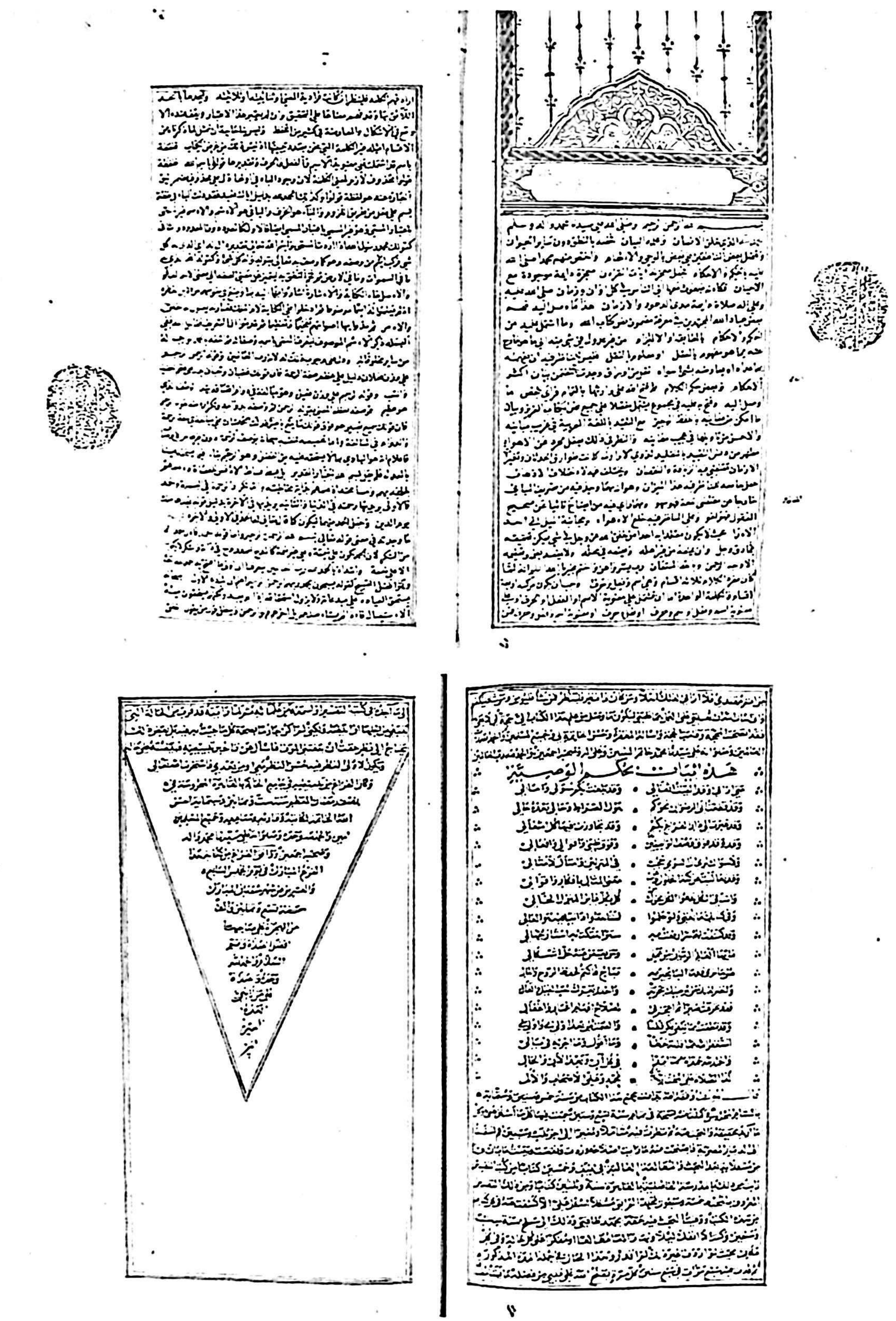
٨. صححنا الأخطاء الواردة في الكتاب.

٩. إذا اقتضى سياق الكلام زيادة كلمة أو عبارة زدناها ووضعناها بين معقوفين هكذا [...].

١٠. ضبطنا بالشكل ما يلزم شكله من الكلمات الصعبة.

١١. ذكرنا أحيانا المراجع والمصادر مختصرة في الهامش. وذكرنا المؤلفين في الهامش بالمشهور من أسمائهم دون أسمائهم الكاملة.

١٢. ختمنا التحقيق بفهرس الآيات والأحاديث والأشعار والأسماء والأعلام.

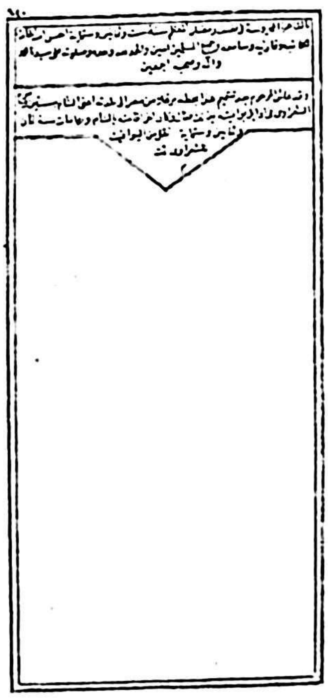


صورة اللوحتين الأولى والأخيرة من نسخة شهيد علي باشا في المكتبة السليمانية: ١٥٧ (رمزها "ش")

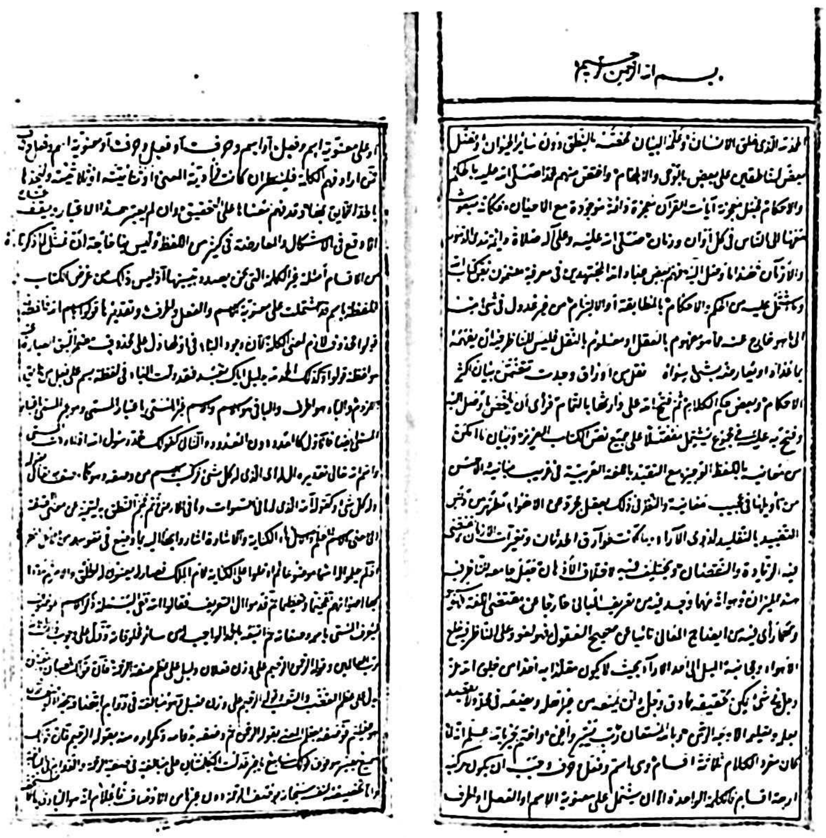


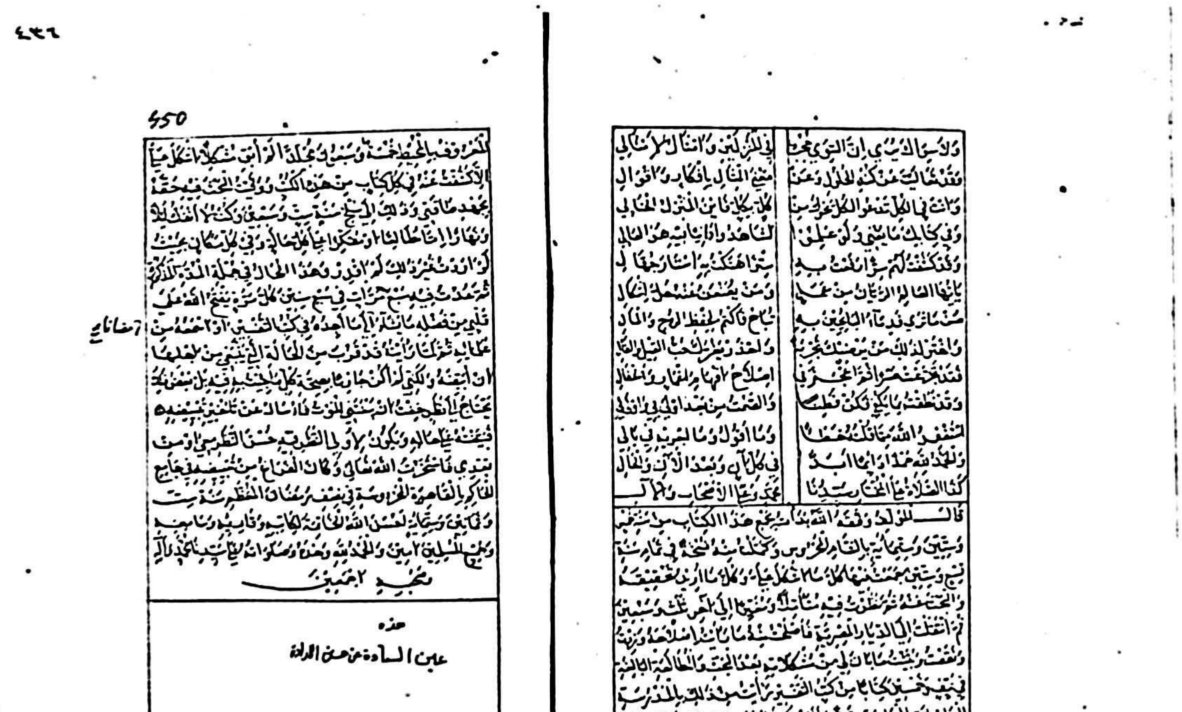




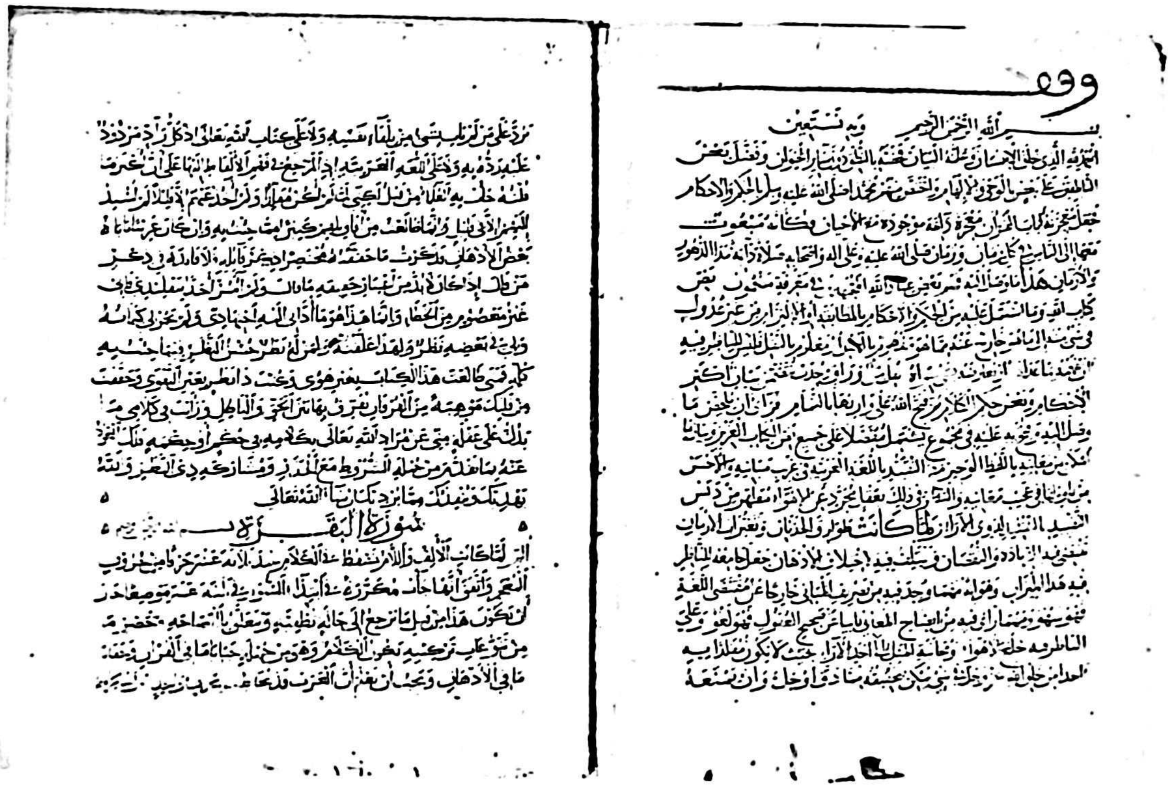


صورة اللوحتين الأولى والأخيرة من نسخة مكتبة نوري عثمانية: ٤١٦ (رمزها "ن")



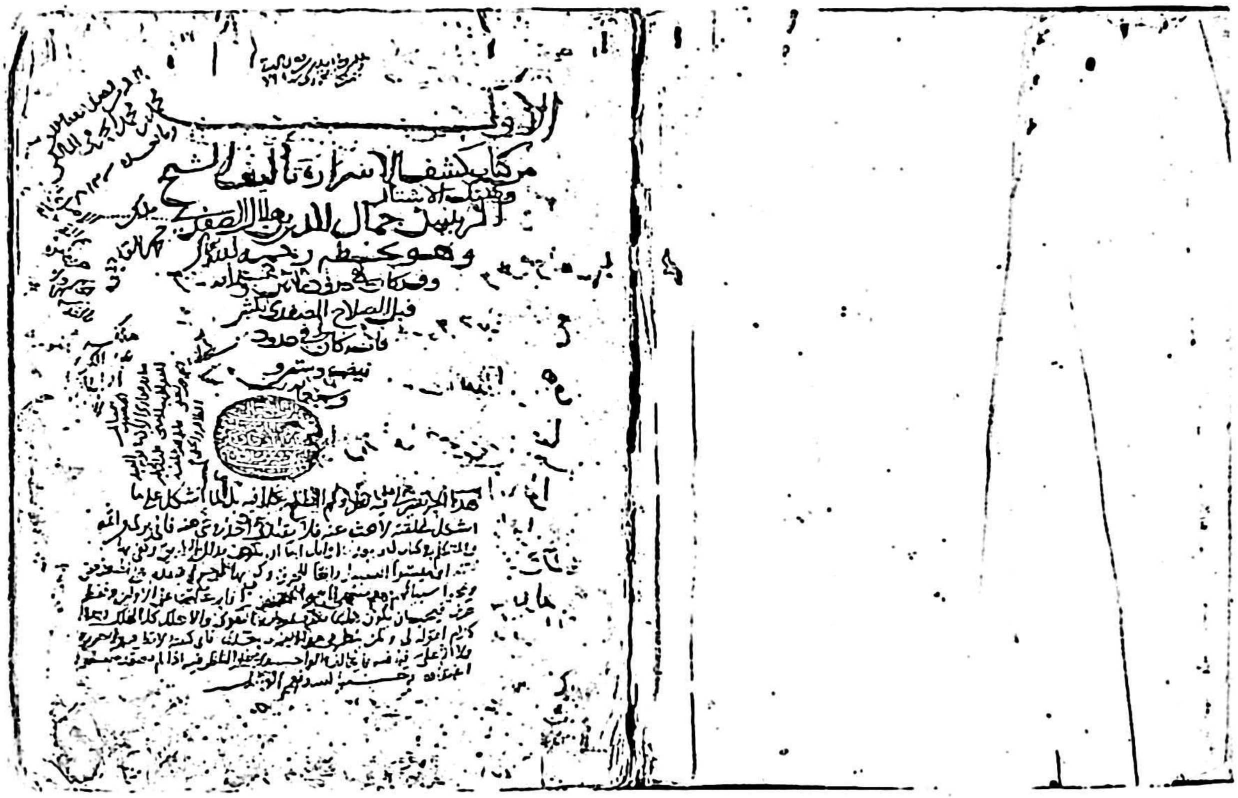


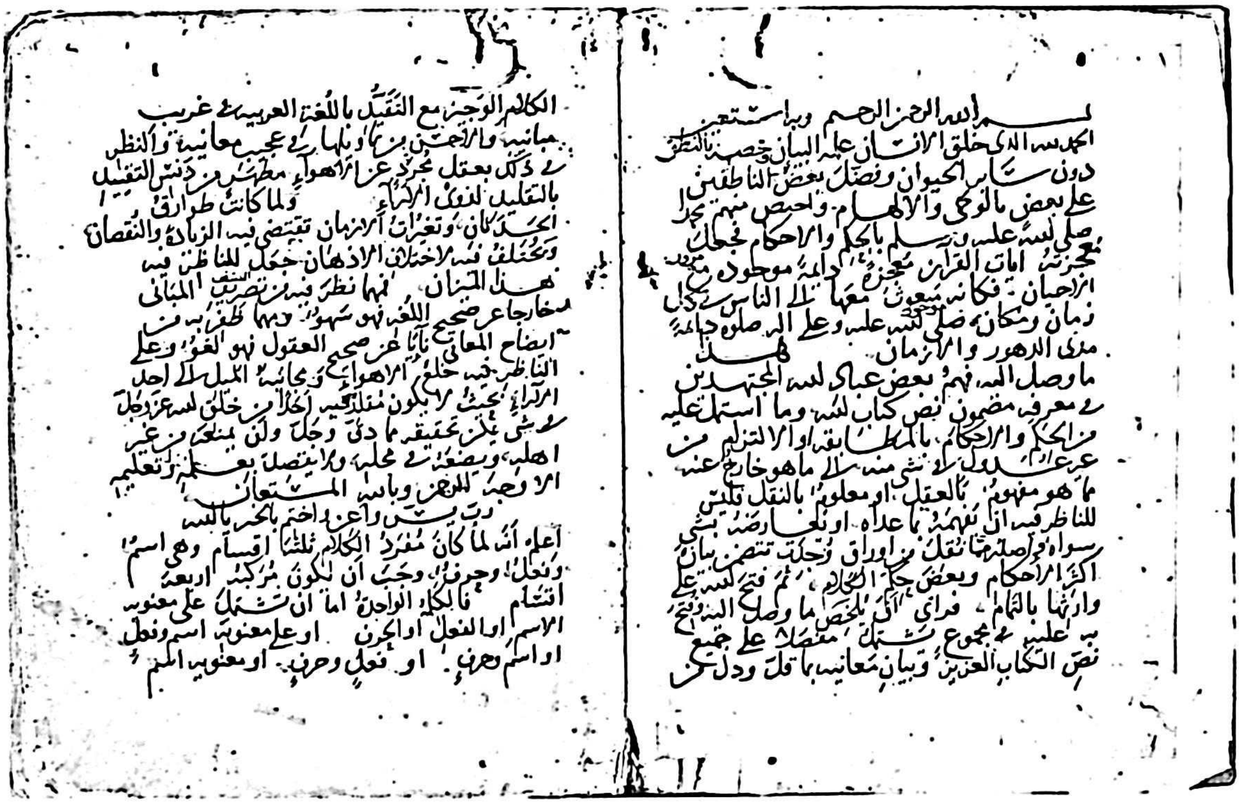
صورة اللوحتين الأولى والأخيرة من نسخة رئيس الكُتّاب في المكتبة السليمانية: ٦٣-٦٤ (رمزها "ك")





صورة اللوحتين الأولى والأخيرة من نسخة رستم باشا في المكتبة السليمانية: ٤٥-٤٦ (رمزها "ر")





صورة الظهرية واللوحة الأولى من نسخة مراد ملا في المكتبة السليمانية: ١٥٩ (رمزها "م")

كشف الأسرار وهتك الأستار

يُوسُف بن هِلَال الصَّفَدِي

(ت.٦٩٦هـ/١٢٩٦م)

تحقيق:

أ. د. بَهَاء الدّين دَارْتْمَا

[المقدمة]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الإنسانَ وعلّمه البيانَ،[1] فخصه بالنطق دون سائر الحيَوان. وفضّل بعض الناطقين على بعض بالوحي والإلهام، واختص منهم محمدا صلى الله عليه وسلم بالحِكَم والأحكام. فجعلَ معجزاته آيات القرآن معجزة دائمة موجودةً مع الأحيان، فكأنه مبعوث معها إلى الناس في كل أوان وزمان.[2] صلى الله عليه وعلى آله صلاة دائمة مدى الدهورِ والأزمان.

هذا ما وصل فهمُ بعضِ عباد الله المجتهدين في معرفة مضمون نص كتاب الله وما اشتمل عليه من الحِكم والأحكام، بالمطابقة أو الالتزام، من غير عدول في شيء منه إلى ما هو خارجٌ عنه مما هو مفهومٌ بالعقل أو معلوم[3] بالنقل. فليس للناظر فيه أن يَفهمه بما عداه أو يعارضَه بشيء سواه. نُقل من أوراق وُجدت تتضمن بيانَ أكثر الأحكام وبعض حِكَم الكلام. ثم فتح الله على وارثها بالتمام؛ فرأى أن[4] يُلخّص ما وصل إليه وفُتح به عليه في مجموع يشتمل مفصّلا على جميع نص الكتاب العزيز، وبيانِ ما أمكن من معانيه باللفظ الوجيز مع التقيد باللغة العربية في غريب مبانيه، والأحسنِ من تأويلها في عجيب معانيه، والنظرِ في ذلك بعقلٍ مجرَّد عن الأهواء مطهَّرٍ من دنس التقييد بالتقليد لذوي الآراء. ولمّا كانت طوارق الحدَثَان وتغيرات الأزمان تقتضي فيه الزيادة والنقصان ويُختلَف فيه لاختلاف الأذهان جعل جامعُه للناظر فيه هذا الميزان. وهو أنه مهما وَجَد فيه من تصريف المباني خارجا عن مقتضى اللغة فهو سهو، ومهما رأى فيه من إيضاح المعاني[5] نائيا عن صحيح العقول فهو لغو. وعلى الناظر فيه خلع الأهواء ومجانبةُ الميل إلى أحد الآراء، بحيث لا يكون مقلِّدا به أحدا من خلق الله عز وجل في شيء يمكن تحقيقه مما دَق أو جلّ،[6]

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ (سورة الرحمن، ٥٥/٣-٤).

٢ ر: في كل زمان وزمان.

٣ ر: ومعلوم.

٤ ش – أن، صح هـ.

٥ ش – المعاني، صح هـ.

٦ ش ك: وجل.

وأن يمنعه من غير أهله ويضعَه في محله ولا يقصِدَ بعلمه وتعليمه إلا وجهَ الرحمن. وبالله المستعان. رب يسِّرْ وأَعِنْ واختمْ بخير يا الله!

اعلم أنه لمّا كان مفردُ الكلام ثلاثة أقسام -وهي اسمٌ وفعل وحرف- وجب أن يكون مركّبُه أربعة أقسام؛ فالكلمة الواحدة إما أن يشتمل على معنويّة الاسم أو الفعل أو الحرف؛ أو على معنوية اسم وفعل، أو اسم وحرف، أو فعل وحرف، أو معنوية اسم وفعل وحرف. فمن / أراد فهم الكلمة فلينظر إن كانت فراديّة المعنى أو ثُنائيتَه أو ثلاثيته [٢و] وَلْيَحِدَّها بالحد اللائق بها وقد فَهِم معناها على التحقيق. وإن لم يعتبر هذا الاعتبار ويقفْ عنده إلا وقع في الإشكال والمعارضة في كثير من اللفظ. وليس بنا حاجةٌ أن نُمثّل لِما ذكرناه من الأقسام أمثلةً غيرَ الكلمة التي نحن بصدد تبيينها؛[١] إذ ليس ذلك من غرض الكتاب.

١ أي كلمة "بسم" التي ستأتي.

[سورة الفاتحة]

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾

فلفظة، بسم، قد اشتملت على معنوية الاسم والفعل والحرف، وتقديرها قولوا: بسم الله. فلفظة "قولوا" محذوفٌ لازمٌ لمعنى الكلمة؛ لأن وجود الباء في أولها دل على محذوفٍ مضمر أليقُ العبارة عنه هو لفظة "قولوا"... وكذلك، الحمد لله، بدليلِ، إياك نعبد. فقد دلت الباءُ في لفظة "بسم" على فعل من طريق اللزوم. والباء هو الحرف والباقي هو الاسم. والاسم غير المسمى باعتبار المسمى وهو غير المسمى باعتبار المسمِّي[١] أيضا؛ فالأول كالعدد دون المعدود، والثاني كقولك:[٢] "محمد رسول الله" إذا أردتَ المسمى.

واسم الله تعالى تقديره "ال له"، أي الذي له كلُّ شيء؛ فركَّب الاسم من وصفه، وهو كما وصف به نفسَه[٣] تعالى بقوله: وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ،[٤] وكقوله: ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ.[٥] ثم فخَّم النطق به ليتميز عن معنى الصفة إلى معنى الاسم العَلَم. والأصل هاء الكناية والإشارةِ[٦] أشاروا بها إليه بما وُضِع في نفوسهم من دلائل الفطرة، إذ لم يعلموا له اسما موضوعا. ثم أدخلوا على الكناية لامَ المُلك فصار "له"، يَعْنُون له الخلق والأمر.[٧] ثم مَدّوا بها أصواتَهم تفخيما وتعظيما، ثم قدَّموا "ال" التعريف فقالوا: "الله". ففي البسملة ذكر الاسم الموصوف ليُعرف المسمَّى باسمه وصفاته؛ ثم أتبعه بالحمد الواجب له من سائر مخلوقاته، ودل على وجوب ذلك له لأنه رب العالمين.

وقوله: الرحمن،[٨] على وزن فَعلان، دليلٌ على عظم صفة الرحمة. فإن قولك "غَضبان" و"تَعْبان" يدل على عِظَم الغضب والتعَب. وقوله: الرحيم، على وزن فعيل،

---

١ ك – باعتبار المسمّي.

٢ ر – والاسم غير المسمى باعتبار المسمى وهو غير المسمى باعتبار المسمي أيضا فالأول كالعدد دون المعدود والثاني كقولك، صح هـ.

٣ ك – نفسه.

٤ سورة النمل، ٢٧/٩١.

٥ سورة إبراهيم ١٤/ ٢؛ وسورة الشورى ٤٢/٥٣.

٦ أي والأصل في هاء لفظة الله أن تكون هاء الكناية والإشارة.

٧ لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ (سورة الأعراف، ٧/٥٤).

٨ ش ك + الرحيم.

وهو[1] مبالغة في دوام اتّصافه بهذا الوصف الذي هو عظيمٌ. فوَصفه بعظم المعنى بقوله: الرحمن، ثم وصفه بدوامه وتكراره منه بقوله: الرحيم؛ فإن قولك "سميعٌ بصير" هو فوق قولك "سامعٌ باصر"، فدلت الكلمتان على مبالغة في صفة الرحمة والدوام في المبالغة. وأما تخصيصه لنفسه سبحانه بوصف الرحمة دون غيرها من الأوصاف فإعلامُ أن البادئ بما لا نستحقه[2] عليه من الفضل وهو الرحيم بنا فيما يستحقه علينا بالعدل. فلم يقل "باسم الله الجبَّار القدير" بل بسط بساط الأُنس للعصاة، فأعلمهم بلطفه بهم ومسامحته، إذ علّمهم بداية مخاطبته. وأما تكرار الرحمة في البسملة والحمدِ فالأُولى يريد بها رحمتَه في الدنيا، والثانيةُ يريد بها في الآخرة بدليل قوله بعدها: مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ،[3] وجعل الحمد بينهما ليكون كما قال تعالى: لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ.[4] فهذا ما وجدتُه في معنى قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم.

وأما قوله: الحمد، فإن الحمد أعم من الشكر، لأن الحمد يكون على نعمة وعلى غير نعمة كالمدح للممدوح في ذاته، والشكرَ لا يكون إلا على نعمة. وابتدأ بالحمد لله رب العالمين ليعرّفنا أن أَولى ما افتُتِح به حمدُ الله تعالى، وهو من أفضل التسبيح، كقوله: يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ.[5]

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾

الرحمن الرحيم. اعلم أن المبدع الأولَ سبحانه يستحق العبادة على مبدَعاته ولا يزول استحقاقه إذا لم يُعبَد. ولكنهم يستحقون منه الاستئصال، فإذا لم يستأصلهم بل أخّرهم فهو الرحمن. ويَبطل قول من يقول: خلق / بعضهم للنار والكفر والعذابِ [٢ظ]
المؤبَّد؛ لأنه لا يستحق العبادة ممن لم يُرِد به إلا الكفر والخلود في الجحيم، ولا يصح أن يقال: هو عابدٌ بالكفر، فيكون عابدا بأن لا يكون عابدا؛ إلا أن تكون اللام في قولهم: "خلقهم للنار" لامَ العاقبة والصيرورة، أو أن يكون ذلك الفريقُ غير المكلفين.

وقوله: ملِكِ، بلا ألف أَولى من القراءة بالألف،[6] لأن الأول مشتق من الملك بضم الميم، والثاني من الملك بكسرها، والأولُ أتم وأعم. وقوله: يومِ الدين، هو يومُ الجزاء.

---

[1] ر: هو.

[2] ش ك: بما لا يستحقه.

[3] الآية ٤ من هذه السورة.

[4] سورة القصص، ٧٠/٢٨.

[5] ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۚ﴾ (سورة الزمر، ٧٥/٣٩).

[6] قرأ عاصم والكسائي "مالك" بألف، وقرأ الباقون "ملك" بغير ألف (الحجة للقراء السبعة للفارسي، ١/٧-٨).

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾

وقوله: **إياك نعبد**، هذا إقرارٌ بالكسب، **وإياك نستعين**، براءةٌ من الاستقلال بالفعل. وأما تكرار لفظة "إياك"، فهو لنفي الاشتراك، فلو أُسقط "وإياك"، لم يمتنع أن تكون الاستعانة بغيره أيضا. وفيه أن قوله: **إياك نعبد**، متعلق بالرب، أي كما خلقْتَنا[1] عابدين، لقوله: وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ[2] وتمامِه، وكقوله تعالى: وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ[3] وتمام الآية، فهو إقرارٌ بما صدر منه إليهم. وقوله: **وإياك نستعين**، متعلق بالعبد، أي في حوائجنا وعلى أنفسنا ومثل ذلك، فهو اعترافٌ منهم بما يُضطرُّون إليه منه فحَسُن التكرارُ.[4] ويجب على العابد أبدا أن يستعين بربه على نفسه، فإنها مأوى كلِّ شرٍّ.[5] وقدم العبادة قبل السؤال تعليما للعباد أن يقدِّموا بين يدَيْ حوائجهم أداءَ حقوقه. وكذلك يُخاطبُ الملوك بالثناء والتعظيم والتواضع، ثم يُسألون. ومن فهم هاتين الكلمتين وعمل بمضمونهما برئ من الجبر[6] والقدر.[7]

ولما قدّم ذكر، **العٰلمين**، أمرهم بأن يقولوا:[8] **إياك نعبد**، وفيه إشعارٌ بفضل صلاة الجماعة. ولمّا كانت الرحمة عامة والاستعانة به سبحانه على كل مطلوب كانت الفاتحةُ رُقْيةً بل أولى رقية. واعلم أنه لا يجوز أن نستعين به على ما ليس منّا، فإن الإعانة لا تكون إلا لمن بدأ بفعل فعجز عن تمامه، ولا يقال: أعان الله الكافرَ على كفره، كما لا يقال للوالد إذا أعطى الولدَ سكينا لبَرْي القلم: إنه[9] أعانه على قتل نفسه أو غيره. ولا تجوز الاستعانة على فعل يُجبَر العبد عليه، لأن ذلك موقوف على المجبَر وهو غني عن المُعين سبحانه.

---

١ ش ك: كما خلقنا.

٢ ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات، ٥١/٥٦).

٣ ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ (سورة الرعد، ١٣/١٥).

٤ أي تكرار "إياك".

٥ لعل الصفدي رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ (سورة يوسف، ١٢/٥٣).

٦ الجبر عند أهل الكلام يستعمل كثيرا بمعنى إسناد فعل العبد إلى الله سبحانه، وهو خلاف القدر. فالجبر إفراط في تفويض الأمر إلى الله تعالى بحيث يصير العبد بمنزلة الجماد لا إرادة له ولا اختيار، لأن الله قدر عليه أعماله تقديرا، وإنما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز (كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، «الجبر»؛ والمورد لمنير البعلبكي، «الجبرية والقدرية»؛ والفِرَق للحفني، «الجبرية»).

٧ القدر: إسناد فعل العبد إليه لا إلى الله تعالى. وهو تفريط في ذلك بحيث يصير العبد خالقا لأفعاله بالاستقلال. ويطلق اسم القدرية أكثر ما يطلق على المعتزلة، لأنهم قالوا: إن الله ليست له قدرة ولا إرادة على أفعال العباد، وأفعال العباد مخلوقة لهم، وليس الله خالقا لأفعالهم (كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، «القدر»؛ والمورد لمنير البعلبكي، «الجبرية والقدرية»؛ والفرق للحفني، «القدرية»).

٨ ر: أن يقولوا.

٩ ش ك - إنه.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾

وقوله: اهدنا، العرب تجعل الخير كلَّه هدىً[1] والشرَّ كله ضلالةً. وقوله: "السراط"، بالسين[2] [و]هو الطريق المستقيم، هو الأقرب إلى المطلوب، لأن أقربَ خطٍّ وصل بين نقطتين هو المستقيم، فهذا دعاء تام عام. ولما كان قد يكون صراط مستقيم ولكن إلى غير الواجب الآن كالتوراة خصصه فقال: صرٰط الذين أنعمت عليهم، وهو القرآن لقوله: وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي.[3] ولمّا كان المنعَم عليه قد يكون غير مرضي عند الله وإن كان في نِعمٍ مّا قال: غير المغضوب عليهم، كاليهود، ولا الضالين، كالنصارى. على أن كل فريق منهما يطلق عليه الضلال والغضب، غير أن اليهود أحق بصفة الغضب[4] والنصارى بالضلال[5] كما بين في النص. واعلم أن، المغضوب عليهم، مالوا عن تعمد، والضالين، مالوا عن غفلة، فحُصر بهذا جملة القصد. والله أعلم. وقيل: وجه النظم أنه لمّا ذكر في الفاتحة، اهدنا الصرٰط، بين في أول البقرة أن ذَٰلِكَ هو ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى،[6] وهذا حسن[7] وإن كان غير المراد.

فصل

[منهج المؤلف في التفسير]

اعلم أنني متى قصدت بيان حكم من الأحكام أو معنى من المعاني عُدْتُ إلى اعتبار الأحسن لا الحسن مما في العقل إن كان عقليا، أو مما في الوجود إن كان وجوديا، أو منهما معا، ثم أعود إلى اعتبار اللفظ الدال على ذلك المعنى فأقصِدُ أحسنه لا حَسنَه. ثم أطابق بين / أحسن المعاني وبين أحسن اللفظ الدالّ عليه المحيطِ به، [٣و]

[1] ر – كله هدى، صح هـ.

[2] روي عن ابن كثير السين والصاد، وروي عن أبي عمرو السين والصاد والمضارعة بين الزاي والصاد. والباقون بالصاد، غير أن حمزة يلفظ بها بين الصاد والزاي (الحجة للقراء السبعة للفارسي، ٤٩/١).

[3] ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ (سورة الأنعام، ١٥٣/٦).

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى في اليهود: ﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ (سورة البقرة، ٦١/٢).

[5] انظر على سبيل المثال: سورة المائدة، ١٧/٥، ٦٤، ٧٣، ٨٢؛ وسورة النساء، ١٥٧/٤.

[6] ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢).

[7] ش ك: أحسن.

فأظفَرَ بحقيقة المعنى المقصود من اللفظ مع الوقوف على[١] تحرير العبارة، وآخُذُ مفهومَها الخاص بها. ولم أكن من يقلد في العربية كل قائل نقلا وأنا أجد تحقيق ألفاظها عقلا، مع موافقة أرباب أصولها تصريفا. وإنما نبّهني على سلوك هذه الطريقة حسنُ ظني واعتقادي بصحة ما قاله تعالى في كتابه، وأنه أتى بأفضل المعاني وأفضل الكلام.[٢] أما في المعاني فمن قوله تعالى: إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ،[٣] ولم يقل: للمقوَّم؛ وأما في الألفاظ فمن قوله: ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا.[٤]

فصل

اعلم أن أصل الخلاف نشأ في الأمة من ثمان صور. الأُولى[٥] اشتراك الألفاظ والمعاني، الثانية الحقيقة والمجاز، الثالثة الإفراد والتركيب، الرابعة الخصوص والعموم، الخامسة الرواية والنقل، السادسة الاجتهاد فيما لا نص فيه، السابعة الناسخ والمنسوخ، الثامنة الإباحة والتوسيع. ولو رجع جميع هؤلاء إلى أصل واحد وهو الكتاب العزيز واتفقوا على حل مشكلاته وفهم آياته لما اختلفوا.

فصل

اعلم أن الإشكال قد يكون من جهة الاشتراك، أو من جهة التصريف، أو من جهة نص آخر، أو من جهة تمام الآي فيَضطرّ إلى التغيير، أو من جهة زيادة حكمة، أو من جهة مخالفة الوجود[٦] فيحتاج إلى التأويل، أو من جهة مخالفة العقل لظاهر النص فيجب التأويل أيضا، أو من جهة حذف المقدَّر وهو كثير جدا، أو لغموض الإعراب، أو من جهة موضع الكلام، أعني التقديم والتأخير ولا يكون إلا لحكمة يجب أن تُعلم؛ أو من جهة أن اللفظ قد اشتمل على سر خفيّ لا يدركه إلا الشاذُّ من الناس. وذلك إذا كان اللفظ فيه رمز وإشارة إلى معنًى[٧] خفيّ، لأنه لم يحصل منه معنًى ظاهرٌ،

---

١ ر ك: مع.

٢ في أسلوب المؤلف هذا نقد وإشارة إلى بعض المفسرين، خصوصا منهم من كان من أهل التصوف، لأنهم يذهبون إلى تأويلات باطلة لا يحتمل أن تكون مرادا من طرف الله تعالى وأن تكون موافقة مع ألفاظ القرآن ومعانيها.

٣ سورة الإسراء، ٩/١٧.

٤ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ (سورة الزمر، ٢٣/٣٩).

٥ ر: فالأولى.

٦ ش: للوجود. | أي من جهة مخالفة الواقع في عموم الوحي أو في سنة الله للعالم.

٧ ش – خفي لا يدركه إلا الشاذ من الناس وذلك إذا كان اللفظ فيه رمز وإشارة إلى معنى، صح هـ.

فيتيقن العارف أنه مودعٌ سرا فيجب الوقوف عنده وأن يَكِلَه إلى عالمه، قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾، ثم أتبعه بقوله: ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾.[1] فهذه -مع النظر إلى الأحسن لفظا والأحسن معنى- أحدَ[2] عشرَ ميزانا، فافهمها لِتَزِنَ بها.

فصل

اعلم أن اللفظ لا تكون له حقيقتان، والمراد هو حقيقة اللفظ لا ما يحتمله من المعاني. وقولنا: "حقيقة اللفظ" نريد [به] المعنى الذي هو أحق بهذا اللفظ من غيره من المعاني كما أن هذا اللفظ أحق بهذا من غيره من الألفاظ، فافهم ذلك.

فصل

اعلم أنني إن أخذت أن أوسّع في الكلام عند ذكر جميع الحِكَم والأحكام وأُقيم الحجج والبرهان وأذكرَ الرد على جميع من يظن أنه ظَفِر بالحق طال الكتاب وفني العمر قبل أن أستوعبَ ما يمكن أن يوعَى سمعا، فكيف أطمع في بسط ذلك جمعا ووضعا. وقد دوّن المتقدمون ما كَفَوْنا به كثيرا من التعب على أن منهم المصيب والمخطئ، والنظر يُخرج حق ذلك من باطله. فلم يبق لمتأخر مقالٌ إلا أن يتفق لِمُدَّخَر له بحسن توفيق الله اطّلاعٌ على بعض ما خَزَن الله تعالى له إرادةَ اختصاصه به، فأفاض ذلك على قلبه ولسانه، ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾،[3] وذلك قليل في الأنام. فقد جمعتُ من ذلك ومثلِه ما قدرت عليه في بيان معاني القرآن ونبّهت على بعض الحِكَم ليكون ذلك لك أُنْمُوَذجا تَعلم به مثلَه، فلا تَظُنّ أني أغفلت ما لم تجد ذكره. وكذلك قد أتكلم ببرهان في موضع فأكتفي به في مواضع، فإذا رأيتها مجردة عن الأدلة والبراهين فطالعْ أمثالها. مع أني أثبتّ أدلة الأحكام في أكثر الأمر إلا ما ظهر فاستغنى العقل بظهوره[4] عن دليل وإن خالف قول الغير، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.[5]

[٣ظ] /وقد ذكرت كل وصية في الموضع اللائق بذكرها واجتهدت أن لا أفسر آية ولا كلمة ولا حرفا بالرأي إذ لا رأي في كتاب الله، ولا بقياس إذ القياس يرجع إلى ذهن القائس؛ ولِكُلٍّ مقدارٌ فتتعدَّد المقاصد بتعدد القياسات لتفاوت الأذهان والحق واحد،

---

[1] سورة العنكبوت، ٤٩/٢٩.

[2] ر: إحدى.

[3] سورة المائدة، ١٦/٥.

[4] ر: لظهوره.

[5] ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة البقرة، ٢١٣/٢)؛ وانظر: سورة النور، ٤٦/٢٤.

فاختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات. ولم أقلد قائلا فيما أمكنني تحقيقه إذ التقليد يُبنَى على الشكّ والتحقيقُ على اليقين. وإنما ذكرت ما دل عليه مفهوم اللفظ إما بمطابقته، أو بلازمه،[١] أو لازم اللازم كما في الفرائض.[٢] وبينتُ غريب الألفاظ بلغة العرب، ودقيق المعاني بجليلها، ومتشابِهَ الآيات بمحكمها. فشرحت القرآن بالقرآن، إذ لم أجد فيه نقصا فأُتَمِّمه من غيره. وليس لِرَادّ أن يرد على من لم يأت بشيء من تلقاء نفسه، ولا على كتاب الله تعالى، إذ كلُّ رادٍّ مردود عليه رَدُّه به؛ ولا على اللغة العربية إذ المرجع في فهم الألفاظ إليها؛ على أن أكثر ما قلته[٣] جاءت به العلماء من قبل. لكنني لما لم أكن مقلِّدا ولم آخُذْ عنهم إلا قليلا لم أُسنِدْ إليهم إلا في قليل. وإنما طالعت من أقاويلهم كثيرا مما جئت به وإن كان غريبا تأباه بعض الأذهان، فذكرت ما حققته مختصِرا ذكرَ قائلِه. فلا فائدة في ذكر مَن قال إذا كان لا بد من اعتبار حقيقة ما قال. ولم آمُرْ أحدا بتقليدي، فإني غير معصوم من الخطأ. وإنما هذا هو ما أدّاني إليه اجتهادي، ولم يجز لي كتمانه، ولي في بعضه نظر[٤] ولهذا علّقتُه، ولمن له نظر حَسُنَ النظر فيما جئت به كُلِّه. فمتى طالعتَ هذا الكتاب بغير هوى، وكنتَ ذا نظر بعين التقوى، وحقّقتَ من قلبكَ مَوْهبة من الفرقان تُفرّق بها بين الحق والباطل. ورأيتَ في كلامي ما يدل على غفلة مني عن مراد الله تعالى بكلامه في حُكم أو حكمة، فلك العَوْد عنه بما تقدم من جملة الشروط مع الحذر ومشاركة ذي النظر. والله يهديك ويُنقذك مما يُرديك إن شاء الله تعالى.

---

١ ش ك: أو بملازمه.

٢ أي في علم الفرائض أثناء تقسيم الميراث وغيره.

٣ ش: ما قلت.

٤ ش – نظر، صح هـ.

سورة البقرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ①﴾

الم، لمّا كانت الألف واللام تَسقط في الكلام عند ثلاثةَ عشرَ حرفا من حروف المعجم، واتفق أنها جاءت مكررة في ابتداء السور في ثلاثةَ عشرَ موضعا جاز أن يكون هذا من قبيل ما يرجع إلى حالة نطقية، ويتعلق بالفصاحة وحَصْرٍ مّا من تنوعات تركيبِه يكون الكلام. وهو من جملة خبايَا ما في القرآن وخفايا ما في الأذهان. ويجب أن تعلم أن العرب قد تُخاطب بحرف واحد، قال شاعرهم:

نَادَوهـــم أن أَلْجِمــوا أَلَا تَـــا قـالـوا جـميـعا كـلـهـم: ألا فـا.[1]

أي ألا تركَبوا ألا فاركبوا.

وقد علمت أن الأمر من وقى يقي "قِ"، ومن وفى يفي "فِ"، وكذلك من يرى ويلي. وقد يكون الحرف إذا نطقتَ به له معنى كلمةٍ، مثل "نون" الذي هو سمكة ودواة على ما وقع اصطلاحهم عليه.[2] لكن يجب أن تتحقق[3] أن الله سبحانه لا يخاطبنا بما لا يكون حكم خطابه حكمَ خطاب العرب في جملته وتفصيله؛ ولم تكن العرب ولا واحد من العقلاء يخاطب بمجهول لا وصول للمخاطب إلى فهمه وإن كانوا قد يخاطبون بالمشكل الغَلِق إرادةَ اجتهاد المخاطَب في فهمه. لكنهم لابد أن يُضيفوا قرينة ولو بالحال تدل، ولو لم يكن كذلك لجاز أن يخاطب العربي بالعجمي، وكان يكون الخطاب به أقربَ من الخطاب بما لا يُفهم معناه، لأن ذلك وإن جهله قوم فقد[4] عرفه آخَرون.

---

[1] انظر: معاني القرآن للزجاج، ٦٢/١؛ وزاد المسير لأبي الفرج ابن الجوزي، ٢١/١.

[2] النون: الدواة، وبه فسِّر قوله عز وجل ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ عن الحسن وقتادة؛ وقيل: الحوت، وبه فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما الآية (لسان العرب، «نون»؛ وتاج العروس للزبيدي، «نون»).

[3] ش ك: أن يتحقق.

[4] ر – فقد.

واعلم أن أحرف "أبجد"[1] يقال لها حروف المعجم، لأن "أبجد" حروف العبريّ،[2] فهو معجم عند العرب، فهي بلا شك حروف / المعجم. وأما الأحرف التي عندنا [٤و]
أعني ا ب ت ث الحروف المعجمة، لأنها لا تُعْرَب مفرداتٍ بل إذا تركبت وأُعربت أُعربت كما نبين ذلك في موضعه. ولما كان في طبع الإنسان الإصغاءُ إلى ما يتعجب منه وإلى الغريب في بابه، حتى إذا فرغ[3] سمعه وقلبُه لتأمّله والبحثِ عنه فَهِمَ مما جُمِعَ به وجاوزه[4] ما عسى أن يكون انطوى عليه من المنافع التي لم يكن ليُصغي إليها قبل ذلك الإصغاء ولا قريبا منه. ثم إذا حسن ذلك في العقل عند المخاطب الذي قصدُه من المخاطب ما ذكرناه فأَولى ما كان[5] ذلك [هو الذي يكون] مقدّما بين يدي كلامه. ثم إذا كان من غرض المخاطِب تحريض المخاطَب على النظر في أمور جُمَليّة من كلامه يجب أن يقدّم له جملة من جنس غرضه. وكذلك إن كان غرضه تأمل ما ألقاه كلمةً بعد كلمة قدم له على كلامه كلمة، فإن قصد أدقّ من ذلك قدم حرفا إشارة إلى تحريض السامع على تأمل المسموع حرفا حرفا. لكنه لا بد أن يكون للحرف المقدم اختصاص بذلك الكلام دونِ غيره فهو مقيَّد به ليُعْلَم المجهول بالمعلوم، وهذا مما يجب أن يُدَّخر إلى حين الاحتياج إليه.

[الحروف المقطعة]

واعلم أن من الأحرف ما جاء على حرف مثلَ ص، ق، ن، وعلى حرفين مثل طه، يس، حم، وعلى ثلاثة مثل الم، الر، طسم، وعلى أربعة مثل المص، المر، وعلى خمسة مثل كهيعص، حم عسق. وقد يدل هذا الموضع على أمر مخصَّص أيضا كما يحتمل ما قيل حِسابا؛ وهو أن هذه الأحرف إذا أسقطتَ المكرَّر منها بقي ما حسابه

---

[1] وحساب الأبجد اسم حسابٍ مخصوص ويسمى بالجُمَل أيضا، وذلك أنهم عينوا من حروف أَبْجَدْ هَوَّزْ حُطِّي كَلَمَنْ سَعْفَصْ قَرَشَتْ ثَخَذْ ضَظَغْ، من الألف إلى الطاء المهملة للآحاد التسعة المتوالية على الترتيب المذكور، ومن الياء المثناة التحتانية إلى الصاد المهملة للعشرات التسعة المتوالية على الترتيب ومن القاف إلى الظاء المعجمة لآحاد المآت التسع كذلك، وعينوا الغين المعجمة للألف (كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، «الحساب»؛ ومعجم علوم اللغة لعبد الله الأشقر، «الأبجدية»).

[2] ش: العربي. | اللغة العبرية/العبرانية/العبري: لغة سامية كان ينطق بها العبرانيون في فَلَسْطين ثم استعاضوا عنها بعد الأَسْر البابلي باللغة الآرامية، ولكنها ظلت تُعتبر عندهم لغةَ الدين والأدب. العبرية تكتب من اليمين إلى الشمال ويبلغ عدد الحروف التي تتألف منها أبجديتها ٢٢ حرفا (المورد لمنير البعلبكي، «العبرية»).

[3] ك: إذا قرع.

[4] ر: وجاوره.

[5] ش – ما كان، صح هـ.

ستّمائةٍ وثلاثةٌ وتسعون، ويوشِك أن تكون هذه العِدّةُ مدة انقضاء دولة،[1] أو وقوعَ أمر، أو ظهوره، وهذه الجملة يحتوي[2] عليها، -أعني في العدة- اسمٌ واجد وهو "المتكبر".

واعلم أنك إذا تأملت هذه الأحرف وجدتها نصفَ حروف المعجم، وإن تكرر بعضها وهي[3] أربعةَ عشرَ حرفا، رباطها: "صُن سرا يقطعْك حملُه"، ومثله "علي ناصر حكمه قسط".[4] وقد وردت هذه الأربعةَ عشرَ في تسعٍ وعشرين سورةً بعدد حروف المعجم. ثم إذا تأملت هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على عدد أنصاف أجناس صور الحروف، ولهذا ومثلِه قلنا فيما سيأتي: إنها دالة عليها ومشيرة إليها. ومَن علم حكمة الوضع الأول في صور الحروف وكونَ بعضها في المعجم فرادَى وبعضِها ثُلاثَ وأكثرِ صورها مَثْنى، والنُّقَطُ تنقلها[5] عن مخارج أخواتها، وهي بالصورة متفقة وبالنطق مفترقة في النطق، وغيرُ المنقوط مقدم على المنقوط، وهذا المقدَّم في حروف المعجم على مثله هو المقدم أمام السور يُوشِك[6] أن يطّلع على ما يشرح الله به صدرَه. وقد أكثر المفسرون في تأويل هذه الأحرف. فمن تأول تأويلا يحتمله ظاهر اللفظ ولا يردّه شرع ولا عقلٌ فهو جائز. وبعد ما سمعتَ هذه الجملة فاعلم أن الحروف هي مباني الكَلِم، وإنما سميت حروفا لأن حرف الشيء طرفه، فهي ومثانيها أطراف الكَلِم كلِّه بكل لغة.

وأما تكرارها فإن الألف واللام تكررت في ثلاثَ عشرةَ سورةً: في البقرة وآل عمران والأعراف[7] ويونسَ وهودٍ ويوسفَ والرعدِ والحِجْر وإبراهيمَ والعنكبوت[8] والروم ولقمانَ والسجدة. وأما الميم فهي مكرَّرةٌ في سَبعَ عشرة سورة: في البقرة وآل عمران والأعراف والرعد والشعراء والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة والحواميم السبع. وأما الراء فهي / مكررة في ست سور: في يونس وهود ويوسف [٤ظ]
والرعد والحجر وإبراهيم. وأما الصاد فهي مكررة في ثلاث سور: في الأعراف ومريم، و ص. وأما السين فهي مكررة في خمس سور: في الشعراء والنمل والقصص، ويس، وحم عسق. وأما الطاء فهي مكررة في أربع سُورٍ: في طه والشعراء والنمل والقصص.

---

[1] انظر: غرائب التفسير للكرماني، ١/١١٠.

[2] ر: تحتوي.

[3] ر ك: فهي.

[4] لم أجده بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر، وورد نحوه في البرهان للزركشي، ١/١٦٧.

[5] ك: ينقلها.

[6] هذا القسم من الكلام جزاء قسم "ومن علم...".

[7] ر - والأعراف، صح هـ.

[8] ش - ويونس وهود ويوسف والرعد والحجر وإبراهيم والعنكبوت، صح هـ.

وأما العين فهي مكررة في سورتين: في مريم، وفي حم عسق.[1] وأما القاف ففي سورتين: في حم عسق، وفي سورتها.[2] وأما الحاء ففي السبع الحواميم. وأما الهاء ففي سورتين: في مريم، وطه. وأما الياء ففي سورتين: في مريم، ويس.[3] والكاف والنون لم يتكررا.

فجملة الحروف بما كُرر ثمانية وسبعون حرفا. وإنما طوَّلْتُ في جمع ذلك تسهيلا لمن يختار النظر فيه، فإني أحببت أن أضع من كل ما وصل إليّ علمُه نُبْذة. فمن ذلك ما هو من باب الاتفاق أنك إذا عددت حروف الأسبوع تكون[4] ثمانية وعشرين حرفا بعدد حروف المعجم ومنازل القمر، وهي: أحد، اثنين، ثُلاثاء، أَرْبِعاء، خميس، جمعة، سبت. وكذلك عدة حروف الكواكب السبعة وهي: زُحل، مشتري، مِرّيخ، شمس، زُهرَة، عُطارِد، قمر، وحرف راء المريخ مشدد فهو حرفان. ومما انتزعته من كتاب معروف باللُّمْحة.[5] والعلم[6] المقتضِي لمقصد جمع الست في واحدِ السبع به يُعلَم مقصد الحروف.

[تفصيل الكلام في الحروف]

الحروف جوامع وحدودٌ لما ينتقل[7] معناه من الكَلم، والكلم جوامعُ وأفراد لما يتفصل معناه في الكلام، والكلام على مقتضَى تفصيله وبيانه. ولمّا كانت الحروف أجزاء الكَلِم قيل: هي مرآة جميع الكلم في معنى حروف "ا"، "و"، "ي". فالألف[8] ساكنةً دليل الذات التي عجزت العقول عن نيل هويته،[9] فأقرت الفِطَر والجِبِلّات بوجوده غيبا فلا يتطرق إليه اشتراك. ولمّا تعالى تدانَى فظهر في الهمزة بفتحة فكان الظاهر والخفي في نصف اسم "آدم"، ففيه المعرَّب والمعرِّب، وحرف الإعجام وهو الدال وآخره ميم التمام. فالألف اسم للقائم الأعلى المحيط الذي منه

---

[1] ر – وأما الطاء فهي مكررة في أربع سور في طه والشعراء والنمل والقصص وأما العين فهي مكررة في سورتين في مريم وفي حم عسق، صح هـ.

[2] أي سورة قٓ.

[3] وقع تقديم وتأخير في بعض الكلمات في نسخة "ر"، فأثبتّ الترتيب حسبما جاء في النسختين الأُخريين: ش ك.

[4] ك: يكون.

[5] ر ش: العلم.

[6] انظر: اللحمة في علم الحروف لأبي الحسن علي ابن أحمد بن الحسن الحرالي التجيبي، الورقة ٤و-١٢٢و.

[7] ر: لما يتفصل.

[8] جميع النسخ: ألف، والمثبت من م.

[9] يشير المؤلف رحمه الله إلى الحرف الأول من لفظة "الله".

اسم الله. ثم لكل مستخلَف في القيام في كل محل جامع أو مفصَّلٌ؛ وحكمُه في المصنوعات حكمُ ما لَطُف وخفي، كالروح فِي كل صنف من العالمين -كما في المَغْنَطِيس- سواء خفي علينا أو ظهر لنا. والهمزة اسم لأول ظهور ذلك الخفي القائم، ومنه[1] يتنزل إلى سائر ما سواه كالحواس والمحسوسات، فهو أول الحركات وأول الظهور. والياء آخر الظهور ومنتهى النِّسَب، فهي كسرة تحت الألف. وأما الواو فهو اسم لقيام الألف متعاليا مرفوعا، وعليه يُعطَف ما سواه من رُتَبٍ تنزلت منه ثم تعود إليه. ولهذا كانت الألف مبدأَ الآحاد، والياء مبدأ عقود الأعداد بعد نهايةِ الآحاد.[2] فكل قائم بالأمر لا يظهر إلا محتجبا فمن عالم الألف، وكل ظاهر بالقيام كالملوك فمن عالَم الهمزة، وكلٌ عليٍّ في بابه فمن عالم الواو، وكل متناه منتسِبٍ فمن عالم الياء.

حرف النون اسم لما به[3] يكون التمام في المرفوع فهو الأول والآخر، ومثله ميم في المخفوض، ومثله واو في المتوسط. ففي هذه الثلاث حروف الحركات الثلاث مع ظهور السكون في باقي هَجائها. اللام اسم لما يكون به التمليك وهو أول هجائه، وفيه بعده اسم الذات العلية وهو الألف، واسمُ التمام والإحاطة وهو الميم.[4] فإشارة اللام إلى الألف التي لها الميم. وعلى هذا تجد[5] الألف مع كل حرف بعد ما ظهرت أولا في الهمزة لضرورة الفتحة، ثم في الباقي على ثلاثة أنحاء: إما ساكنةً، أو مكسورة وهي الياء،[6] / أو مرفوعة فهي الواو. وأما الساكنة [٥و]
فكما في الراء من رؤية الألف. ك هي كاف الكفاية المطلقة، ولهذا كان معها النون، فتم بها جملة ما كان ويكون.[7] ب هي باء السبب التي تقدم عليها ألف المكوِّن وتأخر عنها ما سواها من كل مكوَّن، والدال دالٌّ عليه[8] من الدلالة، والذالّ فاعل من الذّل كالصادّ من الصدّ. فافهمْ من الاسم فهما مطلقا وتفقه وقِسْ بقيةَ الحروف. ثم ما علقتُه أُنمُوذَجا يفتح على الناظر فيه من قبيله ويُعْلمه أنْ ليس هذا ولا مثلُه

---

١ أي من الألف.

٢ أي في حساب الجمل الأبجدية.

٣ ش ك – به.

٤ ش: وهو للميم.

٥ ش: نجد.

٦ ش: وهي الباء.

٧ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة يس، ٨٢/٣٦).

٨ ر ش – عليه.

هو المقصودَ بالحروف المفردة أمام السور وإن كان كل ذلك يمكن أن يحمل[1] على ما تحتمله الحروف.

* * *

فأقول وبالله التوفيق: تكلم في الحروف كثير من الناس. فمنهم من تكلم بحسب حاله ككلام الصوفية، ومنهم من نظر بحسب مقصوده، ومنهم من نطق بحسب الغالب في ظنه، ومنهم من قال رَجْمًا بالغيب وغير ذلك من أقسام يطول شرحها. فما منهم إلا من يَرِد على قوله فيها إشكالٌ ولو كان قد ظَفِر بالحق. وذلك لكونه لم يبين ما يجب بيانه لينتفيَ من العقول الصحيحة سوى ما أثبته فيصحَّ برهانُه، فصار أيضا من أجل ذلك كأحد القائلين، إلا عند مَن عرف الحقَّ من نفسه أو ممن عرفه. وأكثرُ ما رأيتُ غلطا غلطُ مَن ظن أنه وصل إلى فهمها. وذلك أنه لم يتكلم على نفس الحروف المعجمة أولا، ثم بعد ذلك يتكلمُ على الكتابية المقدَّمة أمام السور، فخلط الكلام ووقف عند غيرِ طائل. فأحببت أن أضع ما فُتح فيها عليّ مضافا إلى ما استحسنتُه مما وصل إليّ، فجعلت الكلام على قسمين. القسم الأول أَثبتُّ فيه فصولا في الحروف المعجمة وما يتعلق بها. والقسم الثاني حققت فيه أمر الحروف الكتابية وما صح عندي أو حَسُن مما قيل بسببها. ولم أُلزم نفسي بحسن نظام، والتزمت[2] بحذف ما يتكرر من كلام. بل سردت فصولا وجعلتها أصولا، شاهدتُ[3] بعضها عقلا وأكثرَها نقلا، فأَثبتُّها ليؤخذ منها ولو بعضُ المرام، وعلى الله التمام.

[القسم الأول]

[الحروف المعجمة]

فأقول: الحروف ما لم تعرب فهي معجمة،[4] فإذا أُعربت أعرِبت، فافهم هذا جيدا ولا تطلب من المعجم غير ما في طاقته. ولمّا كان قد يوجد الحرف بلا إعراب ولا يوجد الإعراب بلا حرف لزم تقدم الحروف المعجمة على المُعْرَبَة المركبة ذوات المعاني، أعني تقدمها في باب التعريف، فاعرف جيدا. وقولهم عن حروف "أبجد":

[1] ر: أن تحمل.
[2] ر ش: أو التزمت.
[3] ش: مشاهدة.
[4] أي ما لم تركّب كلمةً وتستعمل في إفادة المعاني فهي باقية بلا معان.

إنه حروف المعجم، لأنه كما قدمنا حروف التوراة، والتوراة معجمة على العرب، فهو حروف الكلام المعجم بلا شك. لكن هذا غلطٌ من وجه آخر، وهو أن الإشارة ههنا إلى الترتيب والوضع المخالف: ا، ب، ت، ث، لا غير؛ وإلا فالحروف هي لسائر اللغات أصل، وهي معجمة ما لم تُعْرَب، فهي حروف كل معجم من العبري وغيره وحروف كل معرب من العربي وغيره.[1] لكنها ما لم تعرب هي حروف دالةٌ على معانٍ في ذواتها غير مفصلة ولا مبيّنة. فإذا أعربت أبانت عن لغات إما عربية، أو عجمية فتعود العجمية في اللغة لا في الحروف نفسها. وأما قبلُ فكانت العُجْمَة في الحروف. فلما وُجد لها الإعراب بالشكل زال الإعجام عنها. فهذا وجه التسمية لها بحروف المعجم.

ويجب أن تعلم أن الحروف سواكنُ ما لم تعرب، وهي بمنزلة الأعداد كقولك: واحدْ اثنانْ ثلاثة، تَعُدّ بذلك كلَّ شيء وضده، وهي على حالها لا يخرجها عن ذلك كونُها قد عَدّ بها أحدٌ فلوسا وقد كان عد بها ذهبا أو خيلا. وأما الكتابية[2] فسميناها معرَّبة لكونها أعربت لنا عن / مثانيها خاصة، كما نبين في القسم الثاني، ودخلت في [٥ظ] الكتاب العربي أعني القرآن من طريق أنها دلت على بقيتها، فسميت الحروفَ المُعْرَبة وبقي الباقي على حاله معجما. وذلك أن الواضع أعرب بها عن بقيتها فصارت من كونها معربة عن أخواتها مُعْرَبَةً في نفسها، ولكن ليس بإعراب أعني الشكل. وأما من حيث إن الحروف جملةً في هذا القسم الأول لا من جهة الكلام في القسم الثاني، فيقال لجملتها: "حروف المعجم"، ولا جائز أن يقال: "الحروف المعجمة"، فإنها أَفصحت وأَعربت عن إياها كل حرف أبان عن حقيقته فانفصل عن غيره من إخوته. بل لمّا لم يَبِن لنا منه بغير الإعراب إلا المعجمُ من كل لغةٍ ومعنىً كانت هذه حروف الأشياء المعجمةَ في الأذهان، هذا ما لم تعرب، فإنها أسماء الحروف المنطوق بها في صِيَغ الكلام بمنزلة الأعداد، فلا تصريف لها ولا إعراب ولا تثنية ولا جمع ولا اشتقاق. فإذا ألقي عليها الإعراب بقيت مخارجها في النطق على ما كانت عليه، ثم ظهر معنى آخرُ لم يظهر لنا منها قبلُ، وليس ذلك منها بمفردها بل بما أضيف إليها من النَّقْط والإعراب وبالتقديم والتأخير وغيره، وليس لها ذلك بمفردها.

---

[1] ر – وحروف كل معرب من العربي وغيره، صح هـ.

[2] أي الحروف المقطعة في القرآن.

وإذا كان الأمر كذلك فقد لزم أن لا يراد بها غيرها ما لم تعرب، لأن الخط ليس له تعلقٌ بالفصحاء ولا عنهم يؤخذ.[1] ويؤكد ذلك أن واضع حروف المعجم وضعها ورسمها لنا منثورة غير منظومة ولا مشكولة. فلو كان غرضه أن يرينا اجتماع "لا" للزم أن يرينا كيف اجتماع خط مثلا، وإنما غرضه ما يوصِل إلى النطق فقط. وقد علمت أنه لما لم يكن النطق بالسواكن ممكنا إلا أن يتقدمها محرَّكٌ وكان لنا في النطق همزة وألف ساكنة تقدمت الهمزة أولا وتأخرت الألف الساكنة أخيرا فوضعت مرة ثانية وأضيفت إلى لامٍ تقدمتها لام قبلُ وتقدمت عليها بعدُ توصلا إلى النطق بها ساكنة. ولمّا كانت زوائد الحروف في النطق بها تُظهر بُعْدَ المخرج كقولنا: ألف، وليس لهذه مخرج وهي ضرورية في الكلام جُعل زائد هذه قبلُ لضرورة التعريف بدخولها في الكلام. فافهم هذه اللطيفة. وأما لِمَ كان المتقدم عليها اللام دون غيرها ولِم وضعت في هذا الموضع فسيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

فصل

[خط الحروف وابتداؤها وكيفية وضعها]

وإذ قد فهمت هذه الجملة فلنبدأ بالكلام في خط الحروف وابتدائها وكيفية ما يستنبط العقل في وضعها فنقول: إنه لما كان يجب أن يكون في أول الوضع نقطةٌ ضروريةٌ، فإذا صار منها خط مستقيم وجب أن يكون أولا فكانت الألف كذلك، لأنها في نفسها تألفت من نُقط أُلِّف بينها بنقط فَاسْتَدَّتْ خطّا. ولزم أن يكون القائم سابقا للمبطوح فوجب وجود الألف على صورتها أولا، ثم جُعلت بعدها الباء وهي هي؛ لكنها رجعت بصورة المفعول المنصوب للفاعل المرفوع القائم فكان الأول خطا والثاني سطحا،[2] فإذا جمعت بينهما بالنطق فهو "أب" يقتضي في الذهن تقدُّم ما يأتي بعده. وإذا قلبت ذلك أعنى أنه لما كان مجموع الأول والثاني "أب" كان في حرف "ب" عند النطق بها "باء وألف" أعنى هجاءً،[3] ومعناها لغةً رجع، كأنه يقول بالمعنى: "ألف باء"، فكان الألف أولا رجع ثانيا. ثم صار الحرف الثالث فيه معنى الأول وهو بالصورة أشبه بالثاني، لأنه بعده كأنه عنه وُجد. وذلك أن الثاني واسطة بين الأول والثالث،

[1] ك: ولا يؤخذ عنهم.

[2] جميع النسخ: فكان الأول خط والثاني سطح.

[3] جميع النسخ: هجاءة. | الهجاء: تقطيع اللفظة بحروفها (لسان العرب، «هجو»).

فالثالث أولى بمشابهة الثاني. لكنه احتاج إلى تعريف يَفصل بينه وبين ما سميناه فاعله الذي هو الباء، كما احتاج الباء إلى صورة تفصل بينه وبين الألف / بعد ما وجب [٦و] أن تكون مبطوحة، فعُرِّفت الباء وهي مفعول الألف بنقطة هي أصل الألف كأنها عرفت بإشارة منبئة عن صدورها عما صدرت عنه الألفُ لكنها ثانية لها. وكل ثان فهو كالمفعول لما قبله، والكل مفعول بالوسائط للأول القبل الذي هو وجود نقطة ضرورية. فلزم أن يعرَّف الثالث وهو التاء بنقطتين، لأنه ثاني مفعول، والثاء بثلاث نقط لمثل ذلك، إذ الأول الفاعل لا يعرف بغيره لاستغنائه بذاته، وغيره عُرف به.

ومن الجائز أن نجعل[١] هذا مثالا فنقولَ: إن النقطة فيها مثال لواجب الوجود جل عن المثال، والألف كآدم، لأنه عن النقطة بغير واسطة وإن كانت النقطة تتقدم على كل حرف، لكنه بعد وجود ما وُجد قبلها من وسائط. والباء كحَوَّاءَ، لأنها ضِلع من أضلاعه،[٢] فهي هو، لكنه تقدم. فهو فاعل بصورة الاستيلاء عليها، وهي مفعولة منه خلقة، وله سُخْرة وبه نقطة فوجب لها أعني الباء نقطةٌ. وأما كونها منقوطة من تحتُ فلئلا تشتبه بنون، لأن هذه الأحرف خمسة تُكتَب في الخط بصورة واحدة: الباء والتاء والثاء والنون والياء، وتفرِّق[٣] بينهن في النطق النُّقَطُ. وكما أن المكتوب رأس الحرف وباقيه يحذف في الكتابة، فكذلك المنطوق به هو أول المخرج منه،[٤] وباقيه يحذف في النطق عند القراءة. والكتابة في اللغة هي جمع الحروف خطا. والقراءة في اللغة جمع الحروف نطقا، فلا أحصرَ من هذا النَّمَط من الخطوط كلِّها ولا أدلَّ من هذه الصور على هذا النطق بهذا اللسان العربي. وأما الياء جُعلت بنقطتين تحتها لئلا تشتبه بالباء. وكل ما ذكرناه لازم في باب التعريف، إذ المقصود من الخط إنما هو تعريف.

ولمّا كان كل ما يعبر[٥] به ليُظهر خفيا في النفس فيجعلَه جليّا للحس إنما هو بهذه الحروف الناشئة عن النقطة لزم أن تكون النقطة تغير الحروف إذا أضيفت إليه.

---

١ ش ن ر ك: أن يجعل، والمثبت من م.

٢ لعل المؤلف يشير هنا إلى ما ورد في التوراة: «وبنى الربُّ الإلهُ الضِلعَ التي أخذها مِن آدمَ امرأةً وأحضرها إلى آدمَ» (التَكْوِين، ٢/٢٢). عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «المرأة كالضِلع إن أقمتها كسرتها وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج» (صحيح البخاري، النكاح ٨١). وانظر أيضا: صحيح مسلم، الرضاع ٦٥.

٣ جميع النسخ: ويفرق.

٤ ر – وباقيه يحذف في الكتابة فكذلك المنطوق به هو أول المخرج منه، صح هـ.

٥ ر ش: ما يعتبر.

والنقطة أول الشكل الذي هو إعراب الحروف[1] فلزم أن يكون الإعراب أيضا يغير الحرف. وأنت تعلم أن الإعراب هو بمنزلة حروف صغار خَفِيت، ولو أُظهرت لظهرت فتحة ألفا وكسرة ياء وضمةٌ واوا؛ وهذه هي[2] حروف الاعتلال التي يتبدل بعضها ببعض، وأصلها الألف التي أصلها النقطة. ولزم من هذا أن يكون لهذه الحروف ما شاء الله تعالى من اعتباراتٍ، كلُّ صورة منها إذا أُخذت من أصل تفرعت على صحة، ولا يلزم أن تكون تلك[3] الصورةُ الواحدة هي المقصودةَ بالحروف لا غير.

ولمّا كانت هذه الحروف كالجنس العالي الذي تحته أجناس كثيرة تحتها أنواع فلا جائز أن يُفهَم المراد بها منفردةً من طريق التضمن، إذ هذا باب لا ينحصر. فالحرف في نفسه لا يجب أن يكون له جهة مخصوصة به فيكون بمفرده بها حقيقة لئلا يكون[4] بمفرده بغيرها مجازا، وإنما المقصود به راجع إلى الناطق. ولهذا قال المهندس: الخط لسان اليد.[5] وهو الذي يفيد الباقين حكم الماضين، وهو المخاطِب للعيون بسرائر القلوب على لغات مختلفة في معان معقودة بحروف معلومة مختلفات الصور متباينات الجهات، لقاحها[6] التذكير ونتائجها التأليف. تَخرَس منفردة وتنطِق مزدوجة بلا أصوات مسموعة ولا ألسن مشحوذة. وقال أفلاطون: الخط عقال العقل،[7] والقلم لسان اليد[8] وتَرْجُمان القلب.[9] والخط أصيل في الروح ظهر بحواس الجسد.[10] فهو دليل على ما في القول، وما في القول دليل على ما في النفوس، وما في النفوس دليل على ما في الأشياء ذوات المعاني، وما في الأشياء ذوات المعاني مدلول عليه. فاثنان لا يتغيران، واثنان يتغيران وهما القول والخط بتغير اللغات / والبلدان.[11] وللخط [٦ظ] فائدتان: يبلغ الحاضر والغائب، وليس ذلك لِلَّفظ. وكون الأمي لا يفهم فهو من نقصان آلة الجسم لا الخط. لكن الكتابة كما قال جالينوس: كلام ميت يتناوله قارؤه كيف شاء، وكلام المخاطِب حيّ يمكّن صاحبَه أن يبصره[12] حتي يبلغ به غرضه.

---

١ ش ك: الحرف.
٢ ر – هي.
٣ ر – تلك.
٤ ش – بمفرده بها حقيقة لئلا يكون، صح هـ.
٥ قاله عبيد الله بن العباس. انظر: نهاية الأرب للنويري، ١/١٤.
٦ ش: نتاجها.
٧ انظر: الفهرست لابن النديم، ص ٢٢.
٨ كتاب الصنعتين للعسكري، ص ٣١١؛ وجواهر العقود لأحمد الأسيوطي، ص ١٢.
٩ قال الجاحظ: اللسان ترجمان القلب. انظر: رسائل الجاحظ، ١/١٠٢.
١٠ قاله النظام. انظر: الفهرست لابن النديم، ص ٢٢.
١١ أدب الكتاب للصولي، ص ٤٢.
١٢ جميع النسخ: أن ينصره. وفي أدب الكتاب للصولي: أن يبصره، ص ٤٣.

فصل

الحرف طرف، وإنما هو حرفُ كلمةٍ لا كلمةٌ؛ فإن قُصد به كلمة فإما أن يكون ذلك على سبيل الاستعارة والمجاز فهو اصطلاح بحسب إرادة المصطلِح، وإما أن يكون له أصل في اللغة، كما قيل في نون: إنها سمكة أو دواة؛ فنقول: إن السمكة إنما أريد باسمها ثلاث حروف[١] لا حرف واحد، ولكنه اتفق حرف النون هو عند النطق به يكون بهذه المثابة، وليس بموافق في الخط.[٢] وقد علمت أن نون النعمة هي نون النقمة، وإنما يتميز أحد الحرفين من أحد الكلمتين بما جاوره، فهو لمجرد التركيب الموجب لظهور معنىً آخرَ غيرُ معنى مفرداتِ ذلك المركب. ولهذا لو قدمت النون من "حسن" لانقلب قبيحا في معناه.[٣] ولا يلزم من كون أحدِ المتكلّمين[٤] أخذ أحد الاعتبارات الموافقة لغرضه ونسب الحروف إليها أن يكون ما قاله هو المقصودَ بالحروف، بل الحروف قُصد بها حروف لا غير؛ إذ ما قصده ذلك المتكلم وإن ناسب فقد يناسب غيرُه غيرَ ما قصد الأول، وكذلك الثالث والرابع وهَلُمَّ جَرًا. والجميع نِسبٌ اتفقت لا واجباتٌ في العقل تحققت. كمن قال: إن كل حرف تكرر من الدال إلى الغين[٥] فإنما أريد به برج من بروج الفلك لكون هذه الأحرف ستةً مكرَّرة؛ فقال آخر: بل شهور السنة، فكانت حجة الثاني أقوى بدليل ربيع وربيع وجُمادَى وجمادى؛ وهذا باب فيه مجال. وكله محال إلى أن يظهر دليل دائر في الأحرف كلها يصح في العقل أنه واجب ضروري، ويكون أصله من جهة مرجعها إلى النطق الإنساني والكلام العربيّ ليصح صدقُ مدعيها كما بيناه في آخر القسم[٦] الثاني مما هو مقول بسائر الألسن مشاهد بالأعين، ولم يُعِد[٧] أحدٌ ولا تنبه عليه ولا أشار إليه فيما سمعناه.

فصل

[الخاصيّة للتركيب لا للحروف]

لمّا كان الخط الأول المستقيم البارز عن نقطة ضروريةً في الوجود[٨] وكان ميلانه يدل على سطح كانت الباء هي الثاني كما تقدم. وهذا هو الأصل، أعني الخط والسطح.

---

١ أي السين والميم والكاف.

٢ أي ليس شكل النون في الخط شبها بشكل السمك.

٣ النحس: الجهد والضر. يقال: أمر نحس: أمر مظلم. ويوم نحس: لم يصادَف فيه خير.

٤ جميع النسخ: الكلمتين، والمثبت من م.

٥ أي دذ، رز، س ش، ص ض، ط ظ، ع غ.

٦ ر: قسم.

٧ أي لم يكرر ولم يقل أحد هذا الكلام.

٨ أي الألف.

فصارت اللام باسمها وصورتها قد لأَمَتْ[1] بين ألف وباء، فكانت الألفُ أولَ الاسم في الاسم الأعظم[2] ثم اللام الجامعة، وحصل بهذا تعريف فصارت "ال" للتعريف فيه عُرِف كل شيء. ثم إن الهاء هي التي تستعمل للإشارة إلى الغائب فكانت أدل على الغائب من الألف، والألف أدل منها على الحاضر. فالألف الأول والهاء الآخر وهما واحد، فهو[3] الظاهر بالألف والباطن بالهاء. ولما كانت "ال" التعريف تعطي إثباتَ كل ما يأتي بعدها كان عكسها -وهو لا يعطي- نفيَ كل ما يأتي بعدها. فقد علمت أن الوضع وحده غيرٌ بل عكس. ولو كانت الحروف نفسها لها خواص بذاتها لَمَا تغيرت، وإنما خاصيتها ما يظهره بها التركيب، فالخاصية له لا لها.

فصل

لما كانت الباء في عدد المعجم اثنين جعلت بعد الألف ثانية، لأنها ثاني صورةٍ؛ ثم كانت الصورة الثالثة جيما وهي في العدد ثلاثة، لأنها ثالث صورة؛ ثم الصورة الرابعة دال، إذ هي أربعة في العدد. ثم لمّا كانت العناصر التي نشأ منها العالم أربعة حصل ههنا نسبة يُحتمل أنها قُصدت. فلما تم هذا النظام تغير وتنوع لفوائد أُخَر. ولا شك أن لمواضعِ وضعِ الحروف على ما هي عليه من الترتيب فائدة ضرورية. وكذلك كون بعضها منقطعا عند[4] الكتابة، وهو ا د ذ ر ز و. والسبب في ذلك أن جميع الحروف تُكتب في الكلام مختصَرة، وهذه لو اختُصرت / لم تَبِن،[5] بل كان يقع فيها الاشتباه [٩٧] لا البيان ووجب أن تكون[6] صورها[7] على ما هي عليه، فلم يمكن أن تغير فجعلت مقطوعة تامة. وكذلك لما تكررت صورة الباء ثلاثا وبعدها صورة الجيم ثلاثا جاز أن يَئول المعنى أن الباء والتاء والثاء أطراف كَلِم مِن "بادٍ تام ثابت"، وينسرد على هذا المنوال بقية الحروف. ولا فائدة لنا [من هذا] ولا برهان على ذلك. وجاز أن تكون الحروف الثلاثة المذكورة بمنزلة الثلاثِ حركاتِ الوجودية وهي الطبيعية والقسرية[8] والدورية. والجيم والحاء والخاء بمنزلة الحركات النطقية، وهي رفع وخفض ونصب. وقد علمت أن صورة الدال نصف ألف ونصف باء؛ وكان ظهور الألف أولا قائما،

[1] أي جمعت.
[2] أي في لفظة الله.
[3] أي الله تعالى.
[4] ر: عن.
[5] ر: لم تبين.
[6] ش ك: أن يكون.
[7] ش: قصورها.
[8] ك: والقسيرية.

ثم ظهر في ثلاث صور مسطوحا، ثم ظهر أثلاثا في ج في ثلاث صور، ثم في د نصفين، ثم في ر ثُلُثا وثلثين،[١] ثم ظهر أسداسا في س؛ فكأنها سُدُس أَلِف وسُدُس باء تكرر ثلاث مرات بهذه الصورة: ررن،[٢] ومعناها لغةً شعبة، لأنها صورة متشعِّب.

فلما فرغت أصول الحركات القائمة والسطحية بدأ بالحركات الدورية، وهي ص، والأصل مخرجها المنطوق به والمكتوب وهو الحلقة لا غير. وإنما زيدت صورتها كزيادة ما زاد على مخرجها عند النطق بها مفردة دون القراءة بها. ثم جاءت ط، فكانت الصاد ألفا مطوية أعنى ما ظهر منها في الجمع عند الكتابة، وهي الحلقة، وكذلك بقية الحروف. ولهذا لا تظهر إلا عند الانقطاع كما في كتابة أواخر الكلم كأنها فَضَلت عن المعنى فحسُنت بها الصورة، فجاءت بقية الحرف المكتوب ولم يغير المعنى، إذ لم يزد[٣] في النطق شيئا. فجاءت الطاء وفيها صورة الألف ولفظها، وظهرت للعيان في الخط بمعنى أن هذه الصورة المدوَّرة المتقدمة التي هي ص هي ألف أيضا، فكانت علامتها في الطاء ظاهرة كأنها لسان ناطق بأنها ألف. والعين هي الصاد. وإنما فُتح من الدورة قليل ليتميز الحرف، ولهذا جاء في الكتابة مطبوقا، وسمي بهذا الاسم ليُعلَم أنه في أعلى مكان من الحروف وأشرفه، وأنه آخر المثاني المصورة بصورتين المدلول عليها بالنقط. إذ كل صورة ثانية كأنها جسم لروحها الأولة، ولهذا تقدمت أمام السور على الأكثر، أعني الأحرف غير المنقوطة، وكأنها عين الإنسان التي يجب أن يعاين بها ما قبل وما بعدُ. ولهذا بعده من الحروف ما إذا تأملتَ التالي للغين التي هي جسم العين إلى آخر الحروف ونظمته كالمركب وقفت منه على معنًى عجيبٍ صحيح، وهو فوق[٤] كل من هؤلاء، أي كل شيء ينطق به هو من هذه الأحرف لا غير، وهذا لا شك فيه. وجُعل قبل هذا الكلام كل حرفين بصورة واحدة لنَعلم[٥] أن الجميع مثاني. فنستدلّ[٦] على معنى الحرف الذي لم يَبِنْ لنا بالصورة كبيان العين بما في هجائه؛ كما بان لنا غيره بالصورة والهجاء كالجيم، فإنها مثنى الميم، ولهذا خالفت الحاء والخاء. فافهم ذلك. وسيأتيك في القسم الثاني سائرُ الحروف وتحتها المثاني، أعني كل حرف ومَثْناه وغيرَ ذلك مما لم أُتمِّم ههنا الكلام فيه.

---

١ جميع النسخ: ثلث وثلثان.
٢ ش: درن.
٣ ش: لم يرد.
٤ ش: قوة.
٥ ش: لتعلم.
٦ ر: فلنستدل.

فصل

يحتمل أن يقال: النفس لوح العقل، فقرأ فيها صورته أولا وهي الألف. وذلك صورة المرتبة الذهنية التي لا اشتراك فيها، بقي ما سواها وهو ثلاث مراتب. والمراتب إما روحانية وإما جسمانية. فالروحانية هي العلوية الباطنة، وهي بمنزلة واحدة، لأنها كلها روحانية، وهي ب، ت، ث. والجسمانية هي الظاهرة السُّفْلية ذوات الأبعاد الثلاث، وهي بمنزلة واحدة، وهي ج، ح، خ. ففي المرتبة الروحانية ثلاث، وكذلك في الجسمانية. كل مرتبة / انقسمت إلى لفظي وخطي وعيني. فالمرتبة الباطنة قريبة من [٧ظ] الألف، فهي بصورتها، لكنها مبطوحة للمباينة؛ والظاهرة بصورة الجسم، فهي صورة كاملة. وقد علمت أن كل حرف فيه ما تقدمه بالقوة. والألف دائرة في الكل. وفي ذلك مثال منظوم وهو:

تألفت الأشياء بالألِف التي ... بنقطتها كلٌّ ونقطتها أنتا،
ففي كل حرف كل حرف وإنما ... ترائى لك المعنى على صُوَرٍ شَتَّى.[١]

فصل

[الحروف لا معنى لها على حِدَتِها]

قد بان لك من جملة ما تقدم أن الحروف مخارجُ نطقية الإنسان من حيث هو إنسان لا من جهة لغته العربية، أو العجمية،[٢] ولا من حيث المعاني المثبوتة في نفس كل إنسان. ولهذا كانت هذه الكلمة في هذه اللغة لها معنى غيرها في الأخرى. فلزم أنها من حيث الإنسانُ لا غير، ولا تتعلق[٣] صورها وترتيبها الأولَ، أعني في وضع مفرداتها لا يتعلق ذلك بالمعاني المدرَكة من تركيب الكَلِم. وكل تركيب بحسب لغة. ولو لم يكن كذلك للزم أن لا يظهر ذلك المعنى إلا بتلك الحروف بعينها وبذلك التركيب الذي هو كلمة مّا. ولهذا أيضا عُبّر بالكلمة الواحدة في الأمر والنهي والخبر والاستخبار والوعد والوعيد وغير ذلك. وإنما قد تختص بعض اللغات بصور معلومة وترتيب مخصوص لحكمة الواضع الأوّل، كما في العربية التي تجد[٤] صورَ حروفها أولى بها،

---

١ لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.
٢ العَجَمية/العجمي: الذي نسبته إلى العجم [أي غير العرب] وإن كان يفصح، يعني إذا كان من الأعاجم، فصيحا كان أو غير فصيح (تهذيب اللغة للأزهري، «عجم»).
٣ ش ك: ولا يتعلق.
٤ ر ك: نجد.

وكذلك أسماؤها ومواضعها، كما إذا تأملت تجده. فالأحرف خُرْس تنطق بالمتكلم وأموات تحيا به. والمراد بها إنما هو البيان والنطق دون سائر الاعتبارات التي تُحمَل عليها. فإن احتملتْها كبعض ما قدمناه مثالا فليس شيئا إلا أنها أصول العبارات ومادتُها. وسميت العبارةُ عبارةً لعبور المعنى فيها من القائل بها إلى السامع لها. فالمعاني سبقت الحروفَ إلى الضمير أولا، وجاءت الحروف المركبة لتخبر عما تقدم في الضمير؛ ولا تعكس إلا بعد قول القائل للسامع من طريقِ أنها دلت السامعَ على ما في ضمير القائل لا أنها في نفسها لها رتبة سوى التعريف. وإذ قد علمنا أن المقصود بالحروف إنما هو المعاني التي تَصدر عن أنواع تركيبها بطريق دلالتها عليها، وذلك المعنى هو العلم. فنحن نعلم أن بعض المعلومات له في الوجود أربعُ رُتبٍ: ذهنية وعينية ولفظية وخطيةٍ. فاللفظ والخط موضوعان للدلالة والتفهيم، وهما في المقصود واحد بالحقيقة؛ لأن "سعد" اللفظي والخطي إنما هو س ع د رَقْما أو لفظا،[1] ما له يمين ولا شمال ولا يتنزل إلا من حيث الدلالةُ بشرط نفي الاشتراك إما بقالٍ أو حال، إذ لا بد من زيادة. وأما العيني ففيه بعض ما قررناه من احتمال المشاركة لأسباب. وأما الذهني فلا شركة فيه بوجه أصلا. فافهم الحروف بهذا المثل تجدْها حروفا لا غير.

فصل

هو تتمة لما تقدم، وفيه تكرير للإيضاح وبُعدِ العهد بمثله.

لمّا كانت الهمزة أَلِفًا ظاهرة في النطق وجب أن تكون أَوَّلةً لظهورها نطقا وكثرة استعمالها، ولأن ابتداءها من القلب[2] وغير ذلك. ولمّا كان لا بد للنطق من ألف ليّنة ولا يمكن أن يظهر إلا بعد حرف جعلت بعد لام، لأنها أَوْلَى بها نُطقا وهَجاءة وصورة وغيرَ ذلك كما سنبين. والمقصود هو الإعلام بأن في الحروف ألفا لينة فظهرت الألف أولا مفردةً وخفيت مع غيرها ثانية. ولمّا كان لنا في النطق صورةٌ أخرى هي لام مُفخَّمةٌ -لا في اسم الله فقط- جاءت لام أخرى ووجب تقدّمُها أولا لتتأخر الألف، وثانيا ليعلم من اللام بالفتحة صورة تفخيم. إذا تأملت بخلاف ما لو جاءت اللام مع حرفٍ آخر أو جاء حرفٌ آخر معها فإنه لم يكن ليظهر لنا منه ما ظهر / من اللام مع الألف. [٨و]

[1] ك: ولفظا.

[2] أي من قلب النُّقَط.

فجمع بيْن الحرفين ليُعلَم أن في العربية مثلَ هذين الحرفين. وقد نطق بهما بصورة ما غير الصورة المتقدمة، لكنهما جاءا[1] مكررتين؛ لأنهما في الأصل واجبان. فلم يجز أن يوضع لهما صورتان غير صورتيهما، فهما في الحقيقة جاءا[2] مفردين، لكنه لزم اجتماعهما ليبين كل منهما صاحبه، وتكون الحروف حينئذ ثلاثين حرفا باعتبار، وتسعةً وعشرين باعتبار، وثمانية وعشرين باعتبار. وأما وضع "لا" في موضعها من الحروف فقد تقدم، وهو عجيب جدا.

فصل

اعلم أن الحروف إذا جُمعت على مراتبها في الاطِّراد والتتابع من جهة نطقية الإنسان تكون أولى بهذا الترتيب، كما يظهر في الاستقراء. وهي سبع كلمات، كل كلمة أربعة أحرف، وهي "أهحع غخقك طصرن شجيس بدزل تذضظ قويم". وأما ترتيب ا، ب، ت، ث، فهو أمر آخر، أحسبه[3] وحيا، لأن الأول إنما هو وُضع بحسب مخارج نطقية الإنسان من حيث الجسم اضطرارا، والثاني بحسب روحانية الإنسان تعقلا واختيارا.

فصل

جعلناه خاتمَ القسم الأول، لأنه قريب في المعنى من الثاني.

اعلم أن الحرف لا تكون له حقيقتان، كما أن اللفظ الواحد لا تكون له حقيقتان. وكما أن المراد حقيقة اللفظ لا ما يحتمله من المعاني فكذلك الحرف. وقولنا "حقيقة اللفظ" نريد[4] [به] المعنى الذي هو أحق بهذا اللفظ من غيره من سائر المعاني. وإذا كان الغرض من الوضع الفهمَ فلو قصد الحكيم الغرض مما لا يوجب الغرض ولا يعطيه لكان قبيحا، خصوصا إذا كان قادرا على الإيضاح من غير مشقة. ولا شك أنه يجب على المتكلم الحكيم سلوكُ ما تحصل به الكفاية في تحقيق الغرض. فإذًا هو اقتصر على شيء دلّ على أنه كاف. فافهم هذا في القسم الأول والثاني تصب إن شاء الله تعالى.

---

[1] ش: جاء.
[2] ش: جاء.
[3] ش: أجسه.
[4] ش: يريد.

القسم الثاني

[الحروف الكتابية أو المقطعة]

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين.

أقول وبالله التوفيق: إنه لمّا فتح الله تعالى عليّ بشيء من فهم معاني الكتاب العزيز بقيتُ زمانا طويلا أتعب في فهم معاني الحروف المفردة المتقدمة أمام السور لأنال منها حظا بالفكر كما نلته من معاني الكتاب فيما عبّر.[1] فكنت أجد من التأويلات كثيرا بعضه سُبِقتُ عليه وبعضه لم أُسْبَقْ إليه. وقد كنت أُنكر على غيري ما يقوله رجما بالغيب، ثم نظرت إلى نفسي فوجدتها أولى بالعيب، إذ كنت فيما أقوله كأحد النَاس آتي بما لا يجوز في القياس. فلم أَرْضَ لي ما لم أرض لأحدهم مع اختلاف أقاويلهم وكثرةِ عددهم، إذ لم أجد لِما جئت به برهانا يصدّقه ولا دليلا يحققه. فعدت إلى أصحاب الكشف من الرجال فرأيت كلا منهم يَذكر حاله ويصوّب مقالَه. ووقع في نفسي أنني لو انفردت بنفسي [و]بذاتي وصَفَتْ من اتباع الأهواء مرآتي ربما فتح الله عليّ ما يَثلَج به صدري ويَقِرّ بمعرفته فكري. ولم أزل كذلك حتى اتفقت لي خلوة قهرا من مَلِك[2] الوقت مدةَ ثلاثِ سنين، ففتح الله علي من ذلك ببعض ما سطرته. ثم أضفت إليه مثله مما في كتب التفاسير [الذي] عاينته. وإنما وضعته وجمعته لينظر فيه أولو النظر بموازين العقول والفِكَر، فما كان صحيحا فهو من فضل الله على عباده، إذ سخرني من أجلهم لمراده،[3] وما كان سقيما فهو[4] من سوء نظري، إذ يعرض للبصيرة كما يعرض للبصر من أنواع الأمراض. وما أنا ممن يعتقد أن المُكاشِف سوى الأنبياء عليهم السلام يسلم من الخطأ في نظره، فكيف أنا؟ لكني إن لم أكنَ أتيت بالغرض فقد نبهت عليه وأشرت إليه.

فأقول وبالله أهتدي / حين أبتدئ: الحروف أُسُّ الكلام ومادة النطق والواسطةُ بين الحق والخلق. فمفرداتها صور كلية تشير إلى ذوات سائر الموجودات، ومركباتها صور جزئية تدل على المعاني المعقولات والأجسام المحسوسات بحسب التركيب الطارئ عليها والإعرابِ وغيره مما يضاف إليها.[5] ولها شأن وأي شأن، [٨ظ]

---

١ ش: فيما غبر.

٢ أو "مِن مَلْك"، أي امتلاك الوقت.

٣ ر: لمرادهم.

٤ ش – فهو، صح هـ.

٥ ش: إليه.

وعليها في كل رتبة برهان. فأول بروزها غَيب في صورة الإنسان، ثم تجلى بها القلب وترجم بها اللسان لِتعيَ بها الأذهان في سائر الأحيان ما يستقيم به شأن المعادن والنبات والحيوان، فهي مكاييل يكال بها كل ما يكون. وكان خاطب الله بها خلْقَه وأوجب حقه في سائر الأزمان. والحمد لله المنّان، والصلاة والسلام على النبي المُنطَق بأخص مفرداتها، وهي السبع المثاني، وأشرفِ مركباتها وهو القرآن، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

فصل

لما كانت المعاني ثابتة في النفوس، وكانت إنما تظهر بالنطق، والنطق إنما تظهر به المعاني بكَلِم، والكلم ذوات حروف. فكما أن حرف الكلمة كالأخرس إذا كان مفردا، فكذلك إذا ازدوج بآخر[1] أو أكثر نطق، فإذا نَطَق خصّص معنى من المعاني الكامنة في النفس بنفس الازدواج وترتيبه في مواضعه وإعرابه لا بمجرد الحروف، إذ لو غُيرت صيغة تلك الحروف بعينها في وضعها أو في إعرابها لكان المفهوم عن الثاني غير المفهوم الأول من الوضع. وهذا تَفَنُّنٌ عظيم جدا لا تَحصُره الأذهان من جهة فروعه بل من جهة أصوله، كعلم الحساب الذي تُعْرَف آحاده وعَشَراته ومِئُونه وأُلوفه، ثم لا يتناهي. وكما أن فيه من النكت في المسائل والطرائق ما شاء الله تعالى فكذلك هذا بل أكثر تفننا؛ لأنه في تغير الكلم عن مواضعه تغيرٌ للمعاني، وفي تغير الأحرف عن مواضعها من الكلم[2] تغير للكلم الموجبة بتغيرها تَغَيُّر المعاني، وكذلك في تغير الإعراب، وكذلك في حال المتكلم. فإن قول القائل لزيد استفهاما:[3] "أنت زيد؟" غيرُ قوله لو قال معترِفا: "أنت زيد". وكذلك لو قال له: "أنت زيد" مثبتا لما ينكره زيد من نفسه أنه هو زيد. وكذلك لو قال له: أنت زيد إن صدقتَ، وذلك بصورة الإغراء له بالصدق، وكذلك قد يريد شرطا لتحقق ما يزيل الشك، وغيرُ ذلك من صور كثيرة متغايرة في الأقوال والأحوال التي تَصحَب الأقوال من القائل ومرجعِ سائر الأقوال من جهة اللفظ إلى الحروف. ولكنه لما ضاقت الحروف عن حصر هذه المعاني الكثيرة أضيف إليها جملة ما ذكرناه من تغايرها في مواضعها من الكلمة

[1] ر – بآخر، صح هـ.

[2] ر – من الكلم، صح هـ.

[3] ش + ما.

تقديما وتأخيرا وإعرابا، ثم تغاير أحوال الناطق وغير ذلك، كل ذلك لِيُظْهِرَ[1] باللفظ وما انضاف إليه معنى خفيا في النفس. فكما أن الحرف الواحد هو طرف كلمةٍ لا كلمةٌ، ويحتمل أن يكون منها أولا أو أخيرا أو وسطا، ويحتمل الإعراب وغيره مما يغيّر المعنى الذي قُصد به في غير تلك الصورة فقد عُلم أنه إنما قُصد بالحرف الواحد أن يكون آلة مُفهِمة لمعان كثيرة كلية يَحتمل ذلك الحرف أن يُحمل عليه كلٌّ من تلك بمخصِّص. فحكمه حكم الجنس العالي الذي تحته سائر الأجناس التي تحتها سائر الأنواع العائدة إلى ذلك الجنس الأول من حيث إنه جنس أول لا غير.

ولما كانت سائر المعاني إنما يعبر عنها بهذه المباني المسماة بالمثاني، وكان أوجز الكلام وأعجزه ما قل ودلّ، وكانت سائر الحروف العربية مثانيَ جاء القرآن بالخفيف منها على النطق وهو أربعةَ عشرَ حرفا وسماها سبع المثاني،[2] وتقدير الكلام
﴿وَلَقَدْ / ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾،[3] فكل حرف[4] يدل بمفرده قوة على كل ما يمكن أن [٩و]
يدل عليه بالشروط المذكورة له، فتكون هذه الحروف من أجل أنها مثانٍ[5] دالةٌ بنصفها على نصفها الآخر. فيكون النصف دالا على ما دل عليه الكل، لأن كل حرف دال على ما يدل عليه من حيث هو هو ومن حيث هو دال على مَثْناه، فيدل أيضا مَثْناه من حيث هو مثنى، كما دل الحرف الكتابي من حيث هو حرف. فتكون جملة الحروف دالة على جملة ما في النفوس وجملةِ ما في العوالم، أعني في قوتها ذلك وإن قصر الناطق بها عن كيفية ما يجب لها من الترتيب والوضع، حتى تصير بصورة تُبرز المعنى الخفي في النفس فتجعله جليا للحس. وهذا عالم بذاته هو عالَم النطق، ومثله بعينه عالم هو الوجود. فمجموع الوجود نطقا هو القرآن، ومثبوت القرآن وجودا هو العالم؛ وجملة العالم صور هي الحروف، وجملة الحروف صور هي القرآن جمعا، والقرآن منها مفردةً.

---

[1] ر: لتظهر.

[2] المثاني: يطلق على القرآن كله، لاشتماله على الوعد والوعيد، وعلى ذكر الجنة والنار، وعلى المبدأ والمعاد، وعلى الأمر والنهي، وعلى الأحكام الاعتقادية والعملية، وعلى مراتب السعداء ومنازل الأشقياء، وعلى سورة منه وهو فاتحة الكتاب لاشتمالها على الوعد والوعيد، وعلى أحوال الأبرار والفجار ولأنها تثنى في الصلاة (كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، «المثاني»).

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ (سورة الحجر، ١٥/٨٧).

[4] هذا القسم جواب "ولما كانت...".

[5] ر: مثاني.

فصل

اعلم أن الأفق هو الجهة، والجهة التي تبين الشيء بيانا لا شك فيه يجوز[1] أن يقال: إنها لذلك الشيء هي الأفق المبين. ولهذا قال بعضهم: هو العقل، وقال: إن أعلى صورةٍ في العقل يتصورها العقل في شيء مّا هو الأفق الأعلى. فمن رأى الأحرف في الأفق المبِين الأعلى فهو الذي لم يتكلم عليها من جهة واحدة أو جهات بل رآها من سائر جهاتها عموما يدخل فيه الخصوص. وهذا يحتاج إلى برهان تشهد به السُّوَر على تلك[2] الحروف المتقدمة عليها شهادة تُثبت وتنفي ما عدا المثبَت ليُعلَم المعلوم من طرفي الإثبات والنفي إن شاء الله تعالى.

فصل

اعلم أن قوله: كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ، أي في حروفه خاصة وإن جاز العموم، لكن أشار إلى أنه حروف هي مثاني، ولهذا لم يقل: تَقْشَعِرُّ منها، بل مِنْهُ.[3]

فصل

اعلم أنه لا جائز أن يكون المراد بهذه الأحرف الكتابية معاني ألفاظ تشتمل على أمر أو نهي، لأن هذا لا يكون للأحرف إلا عن الترتيب بعد التركيب ومع الإعراب، فإذا خلت عن ذلك فلا جائزٌ أن يكون المراد بها ما ليس من لازمها ولا في قوة العقل أن يدركه منها بمفردها. ولا تكون هذه سِيرة منصِف فاضل في كلامه إذا حمل على الحرف ما لا يجوز حمله عليه، أو حَمَل العقولَ فوق طاقتها من إلزامها بفهمٍ ما لا تصل إليه. فلزم أن يكون المراد ما هو غير ذلك مثلَ إظهار المخارج أو ما يمكن حمله على غير المركب. فهذا حدٌّ وقف العقلُ عنده فقَفَّ.[4] ولهذا لما جُمعت آلمٓ خَطًّا لم يُنطَق بها إلا مفردة هجاءةً ليعلم أنها حروف، وأن كل حرف هو قائم بذاته.

فصل

اعلم أن الأحرف الكتابية يقال لها المعربة ومثانيها هي المُعْجَمة، وهذا أصل ذكره أرباب اللغة، وتجده عند الاستقراء في اللغة العبرية وغيرها. وهو عجيب عند التأمل،

---

[1] ر- يجوز، صح هـ.

[2] ش - السور على تلك، صح هـ.

[3] ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ (سورة الزمر، ٢٣/٣٩).

[4] قَفَّ فلان: أرعدَ واقشعرَ.

فيقال في العربية: "الشين المعجمة" لئلا تشتبه بالسين، وكذلك في غيرها. ومما يجب أن تعلمه أن أكثر ما تجده يتركب من الأحرف المعجمة -وهي الأربعةَ عشرَ حرفا التي هي مثاني المعربة الكتابية- إنما يأتي غير مفهوم، أو يُفهَم منه معنى غير جميل مثل خدش،[1] أو ما ليس له معنى. وأما بقية الكلمات المفهومة والجهيلة، حتى أكثرُ ما يُسمع من أصوات الحيوانات فإنه يشبه بعض الحروف المفردة المعربة، وهي الكتابية. ومن عجيب أمر هذه الحروف الكتابية أن عِدَّتها بحساب الجُمَّل أقل من عدة مثانيها المعجمة، فعدة هذه المعربة ٦٩٣ يجمعها "المتكبر"، وعدة الباقي وهي المعجمة ٤١٩٢ سوى "لا". فانظر إلى هذا العُجاب المقصود لحكمة[2] بغير شك. فالكتابية خِفاف في النطق معربة قليلة في الحساب، ومثانيها بالعكس منها في جميع ما وصفناها به. / وأنت تعلم أنه إذا أتت مثل هذه الحِكَم في حروف من "أمّيّ" لا [٥٩ظ] يَعرف الكتابةَ،[3] ثم يأتي بعد مئين من السنين من يظهر من حكمها ما لم يَظهر قبل فذلك من جملة المعجزات له والمثبتةِ لنا على ما هو فوق ذلك. ومن ذلك أنها إذا جمعت من غير تكرير على حروف "أبجد" خرج منها ما يكون اسما واحدا، إذ ليس فيها حرف يقطع سوى الأول والآخر، فيكون الاسم هذا "اهحطيكلمتسعصقر".[4] ومن تأمله[5] مستقرئا رأى فيه فنونا جميعُها فيما علمناه يرجع إلى حساب وإعجاز في الفصاحة، ويحتمل غيرَ ذلك.

وقد أثبتُّ لك المعربة ومثانيها واستدللت لك على ما وضعته، فانظره وانظر بمثله، وهي هذه. فانظر ما أعجبها لمن تأمل ا/ب، ح/خ، ر/ز، س/ش، ص/ض، ط/ظ، ع/غ، ف/ق؛ كلٌّ مِن هي. وذلك أنك إذا أخذت الموجود منها في كتاب الله وهو الأحمر[6] ونسقتَ بعضه على بعض لكن على أصله الذي هو ا، ب، ت، ث، تجد هذه الحروف في الأكثر قد أغنت عما تحتها. حتى لو كان إنسان يريد أن يعلم آخر الخط الجيد فكتب[7] له هذه لكان قد أتى على أكثر الحروف. وانظر النسبة التي وقعت لنا في آخرها

---

١ الخَدْش: مزق الجلد قل أو كثر (لسان العرب، «خدش»).

٢ ش ك: بحكمة.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ (سورة الأعراف، ١٥٨/٧). وانظر أيضا: سورة العنكبوت، ٤٨/٢٩.

٤ ر – اهحطيكلمتسعصقر، صح هـ.

٥ ر: ومن تأمل.

٦ أي مخطوط كل منها بالحبر الأحمر.

٧ ش ك: وكتب.

مما قد كتبناه مركبا كأنه نسبة ما رأيناه في الأم الأُولى، أعني في جملتها التي هي ا، ب، ت، ث بكمالها. إذ آخر تلك هو ما قدمناه فق كل من هؤلاء، وآخر هذه المختصرة من تلك كلٍّ من هي، فالمعنى هو المعنى، لكنه مختصر. لأنه ما كان يمكن أن يختصر غير هذا الذي اختصره إلا ويذهب المعنى فاختصر فق، وإلا كانت[1] تلك العبارة في قوله مِن هؤلاء أولى، لأن الجميع حاضر. وهذه العبارة ههنا أولى، لأنها أشارت إلى تلك التامة المتقدمة التي هي أصلُ هذه وأمُّها والجامعة لها ولمثانيها. ولا جرم أحال عليها في الكتاب بلفظ الغائب فقال: ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ، تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ.[2] فأشار بالبعض المتقدم على السورة من الحروف إلى بقية الحروف فظنوا أنه أشار بها إلى غيرها فأبعدوا. والأمر بين أعينهم وفي قلوبهم وألسنتهم ظاهر[3] مبيَّن بقوله تعالى في موضع بعد موضع: لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ،[4] إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا،[5] إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ.[6] فافهم هذا الأمر. فإني لم أجد مَن وصل إلى ههنا في البيان عليه. ولكني بعدما فَتح الله عليّ وجدت الأوائل رحمهم الله تعالى نصّوا على شيء من ذلك، حكمهم فيه حكم مَن حرث الأرض وأودعها الحَبَّ فنبت ولم يفطَن به أحد. فجئت أنا فحصدته وغَرْبَلْتُه وطحنته وعَجَنْته، وها هو خبز لمن يأكل. وستأتيك أدلة وبراهين مما جمعته عنهم رحمهم الله تعالى ومما أضفته إلى قِيلهم مبيّنا منبها. والله أعلم.

فأما كوني ذكرت أن الألف مثنى الباء والتاءُ[7] مثْناها فقد ظهر بما قدمناه من كون أول المخرج هو المرادَ من الحرف في الخط والنطق، وأن أول ألف هو آخر باء، فحصل بعد مخرج باء من باقيها ما دل على ألف مضافا إلى ما ذكرناه آنفا، فافهمه. ولو كانت أخواتها التاء والثاءُ قد ذكرت في القرآن[8] لاشتبه ذلك ولم تظهر الأولوية. وأنت إذا تنبهت فهمت أكثر مما قد فتحت لك الباب فيه من أدلة تُحقق لك صحة المراد. وأما حاء فإن مَثناها خاء، ولهذا جاء هجاؤها مثلها دون قولك جيم، فهي أولى بدليل التسمية مع الصورة. وأما الراء والسين والصاد والطاء والعين فظاهر بغير شك. ولا يمكن أن تكون كل واحدة إلا مثنى للأخرى بدليل الصورة والنطق،

١ ش ك: فق ولا وكانت.
٢ انظر مثلا: سورة البقرة، ٢/٢؛ وسورة يونس، ١/١٠؛ وسورة يوسف، ١/١٢.
٣ ر + بين.
٤ الآية ٢ من هذه السورة.
٥ سورة الزخرف، ٣/٤٣.
٦ سورة يوسف، ٢/١٢.
٧ ش ك: والباء.
٨ أي في صدد الحروف المقطعة.

وتقدمِ غير المنقوط على المنقوط. وأما القاف فمثناها الفاء بالدليل المطّرد المذكور، وهو أن آخر قافٍ فاءٌ. وأما الكاف واللام فإن مَثْناهما دال ذال بدليل أن دال / مثنى ذال، [١٠و] لأنها كالصورة والنطق، لكنهما لم يُذكَرا في الكتاب فعادا كحرف غائب. ورأينا أول لام آخر دال في الهِجاء. وقوي ذلك بحرف الألف في اللام وفي الدال. وكانت الكاف تُكتَب كاللام والدال والذال في الخط كذلك، لكنهما قُصِّرا لئلا يقع اشتباه. فلزم من طريق الأولوية أن يكون الحرف الأول مثنى الكاف، والثاني -وهو الذال- مثنى الثاني للكاف وهو اللام. ومن وجد نسبة أولى مما قلناه فعليه البيان صورةً[١] ونطقا وخطا، أعني مجيئها في الخط المنتظَم في كلام بعد صورتها المفردة. وأما الميم فلشدة بعدها عُرفت بالقاعدة المطردة فهي مثنى جيم. فلما بعدت في الصورة قرُبت في الهِجاء حتى لا خلاف بينهما إلا في المخرج فقط، فكان قولك: جيم، ميم مثل سين، شين، وعين، وغين. وأما النون فلما كان أولُها وآخرها واحدا، وهو مخرجها وطرفها كلها، ورأينا ليس في الحروف ما[٢] له هذه الصورة بعينها سوى واو، ووجدناها أيضا في وسط النون تَحقّق الأولى بأنها مثناها.[٣] وأما الهاء فقد علمت أنها تنقلب[٤] في النطق تاء عند كتابتك "توبة" وقراءتِك حتى إنك مع القراءة تَنقُطها بنقطتين وليست في الأصل بنقط. ولم يبق إلا الياء ثم الثاء، وكلاهما في الخط واحد يُفرّق بينهما بنقط. والسلام.

فافهم ما فائدة اللواحق بعد المخارج لئلا تظن أن ههنا اتفاقا، أو عبثا، أو اصطلاحا غير واجب عقلا. غرس الله ذلك في ذات آدم وجَبَلها في طِينته وقلبها في قلبه، فكانت بمتعلَّقاتها خَبأً في ذات آدم.[٥] ولكل حرفٍ اسمٌ. والكل أعني كل المسميات هي من تركيب هذه الأسماء. فصَدَق الله أنه ﴿عَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾[٦] وهذه فائدة لفظة "كلَّها"، فافهم، إذ لم يبق شيء. ولهذا ترجم في الأم بقوله: "كل" مِن هؤلاء، وفي الكتابية بما هو "كل" مِن هي.

وأما تكرار الحروف في سور فكل حرف كرِّر بعدد ما تحته: ا، ل، م، ر، ح، ط، ص، ع، ي، س، ق، هـ، ك، ن. وأما تفصيل مجيئها في الكتاب العزيز[٧] مفردةً ومركبة،

[١] ك: صورتا.
[٢] جميع النسخ: من.
[٣] أي تحقق عندنا بأن الأولى مثنى الثانية.
[٤] ك: أنها تتقلب.
[٥] ش - وجبلها في طينته وقلبها في قلبه فكانت بمتعلقاتها خبأ في ذات آدم، صح هـ.
[٦] الآية ٣١ من هذه السورة.
[٧] ر - وأما تفصيل مجيئها في الكتاب العزيز، صح هـ.

فهذا الفُراديات (ص، ق، ن = ٢٤٠) وتحته عدد عنه[١] الثنائيات (طه، طس، يٓس، الحواميم = ٤٤١).[٢] عدد الثلاثيات (الم، الر، طسم = ١٧٩٩)،[٣] عنه الرباعيات (المص، المر = ٤٣٢).[٤] الخماسيات (كهيعص، حم عسق = ٤٧٣).[٥] وعُدَّت حم عسق مع الخماسيات لكونها جاءت في سورة واحدة، وقد تعد[٦] مع الثنائيات منها "حم" لكونها جاءت مفصولة، مع أن الخط لا يمنع وصلها، فتعد "عسق" مع الثلاثيات. وهذا إنما وضعناه لئلا يتعب فيه من ربما يطلبه ولتظهر بوضعه[٧] فائدة.

واعلم أن الكلام العربي لا يكون كلاما إلا أن يكون مخدودا، وحدُّه ما أفاد. فلو فرضنا حروفا موصولة لا يمكن أن يُستثمَر[٨] من جملتها فائدة عربية ولا عجمية علمنا أن هذه ليست بكلام. فإن انضاف إلى ذلك أن هذه عند النطق بها الذي هو فائدة الخط وبُعده وغايته لا نقرأها إلا حروفا سواكن مفردة هِجائية، فقد خدعنا عقولنا بعد ذلك إذا فهمنا[٩] أو طلبنا منها غير ذلك، إذ الحروف لا تفيد كلاما إلا بنظم وغيره. فالنظم كأنه حروف أخرى، ولا يفيد[١٠] إلا بنقط، فالنُّقط كأنها حروف زائدة أيضا على الحروف العاطلة. ولهذا تغيرت المخارج به فكانت الغين غير العين وإن كانت هي بعينها. ثم لا يفيد ذلك إلا بالإعراب، فكأنه أيضا حروف أخرى زائدة. وكذلك وضع الكلم من التقديم والتأخير. فإنه فرقٌ بين قولك: "زيد ضرب عَمرا"[١١] وبين قولك: "عَمرا[١٢]
[١٠ظ] ضرب زيدٌ" إذا / فهمت. لأن العرب تقدم الشيء للاهتمام به. فكل هذه هي بمنزلة الحروف، إذ لا يكون الكلام مفهَما إلا بذلك. ويجب أن تُعلم أن الحروف المكتوبة هي لأجل الكتابة لا لأجل النطق. فإن النطق مستغن عن الكتابة ولا ينعكس.

ولما كانت الحروف هي أصلَ الكتابة، ثم أضيف إلى بعضها نَقْطٌ مبيّنٌ، ثم شكلٌ موضِّحٌ، ثم وضع كذلك فخُصص ما كان عامّا منها وقيّد ما كان مطلقا،

---

١ ش: عدد تحت.

٢ طه = ١٤، طس = ٦٩، يٓس = ٧٠، حم = ٤٨؛ ٦×٤٨ (الحواميم) = ٢٨٨؛ ١٤+٦٩+٧٠+٢٨٨ = ٤٤١. "حم" كررت ست مرات.

٣ الم = ٧١؛ ٧١×٦ = ٤٢٦؛ الر = ٢٣١. ٢٣١×٥ = ١١٥٥؛ طسم = ١٠٩. ١٠٩×٢ = ٢١٨؛ ٤٢٦+١١٥٥+٢١٨ = ١٧٩٩ و"الم" كررت ست مرات و"الر" كررت خمس مرات و"طسم" جاءت في سورتين.

٤ المص = ١٦١؛ المر = ٢٧١؛ ١٦١+٢٧١ = ٤٣٢.

٥ كهيعص = ١٩٥؛ حم عسق = ٢٧٨؛ ١٩٥+٢٧٨ = ٤٧٣.

٦ ر ك: وقد يعد.

٧ ش: بوصفه.

٨ ش ك: أن تستمر؛ وفي ش هـ "تستتم".

٩ ش ر: إذ فهمنا.

١٠ ش: ولا تفيد.

١١ ش: عمروا.

١٢ ش: عمروا.

وكان كل واحد من ذلك هو بمنزلة الحروف، لكنه جاء بعد الأصل. ذكر الله في الكتاب العزيز الاصل الأول بل أصلَ الأصل، وهو الدالّ على مثانيه المدلول عليها بالنطق والشكل والوضع اللازم عنه، [و]بعد ذلك فهم المعاني. فأوحى الله تعالى إليه صلى الله عليه وسلم أولَ كل شيء مما هو أصل الكتابة بأوجزِ ما يكون، وآخرَ كل شيء مما هو ثمرة وغاية عنها بأعجز ما يكون، هذا وهو أميّ. كما قال تعالى في أول سورة يوسف: الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ،[1] وقوله: تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ، أي علاماته، وقوله: وَكِتَابٍ مُّبِينٍ،[2] يريد به الكتابة ههنا وإن كان كل كتاب فهو داخل في هذا، فههنا معناه وعلامات الكتابة. ولا شك أن المنطوق والمكتوب إنما علامته هذه الحروف المشار إليها ببعضها. فلهذا [قال] بعده في يوسف: إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا، أي من أحرف مكتوبة ومنطوق بها عجمية، بمعنى أن هذه أحرفكم وهذه لغتكم لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.[3] فكُرِّرت هذه الحروف الكتابية لا للتحديد -والله أعلم- بل للتكثير بصورة المَثَل إشارةً إلى أن هذه الحروف في النطق أكثر من غيرها، وقلبت وكررت إشارة إلى مثل ذلك، لأنها تأتي كل تارة بصورة. وجاء بعضها مفردا وبعضها مَثنى وثلاث ورُباعَ. ولم يتعدَّ خمسة أحرف ليُعلَم أن هذه العدة نهاية التركيب في الأصول اللفظية. فكأنه قال بهذه الصور: إن كتابكم ككلامكم، وهما من هذه الصور التي تأتي كذا وكذا، فهو مثان تحتوي على معان.

وبالجملة فكل اعتبار يعتبر من جهة هذه الحروف لا جائز أن يُرَدّ إلى غير ما يتعلق بالنطق والكتابة. فإنها علامات النطق وعلامات الكتابة لا غير، وإن اتفق موافقةُ أمور أُخَرَ فذلك من جهة الاتفاق لا القصد. ولهذا تجد السورة التي فيها بعض الحروف، وتجد مثلها في أكثر ألفاظها ومعانيها سورة أخرى لم تتقدمها حروف.[4] وتجد بعض الحروف قد زاد في سورة أخرى حروفا أخرى والمعاني مختلفةٌ تارة ومتفقة تارةً. وذلك مع الصورة الواحدة، مثل حم، وتجدها متفقة مع اختلاف الحروف. ولما ثبت ما قلناه في العقل لزم أن يأتي به الوحي، وإن كان سابقا في النطق فهو وحي من الناطق الأول الذي أنطقه بها الذى أنطق كل شيء، وجاء هذا مقررا له ومخصِّصا.

[1] سورة يوسف، ١/١٢.

[2] ﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة النمل، ١/٢٧).

[3] سورة يوسف، ٢/١٢.

[4] ك - حروف، صح هـ.

فمجيئه في الكتاب العزيز من الواجب الضروري. إذ هو أصل النطق. ولو جاء ممن يعرف الكتابةَ لكان في محل التهمة.[1] فلهذا هو في محل الإعجاز.

فصل

اعلم أنه لمّا كانت هذه الحروف ضرورية في النطق واجبة في الهِجاء لازمة التقدم في الخط والنطق -إذ المفرد يتقدم على المركب- تقدمت هذه مفرداتٍ على مركباتها في الكتاب. فليس في المفرد ما ليس في المركب، بل في المركب ما في المفرد وزيادة. ولمّا كان نزول هذا القرآن في أزمنة ومُدَدٍ متطاولة تزيد على عشرين سنة،[2] وكان باقيا إلى آخر الزمان،[3] لأنه ناسخ لِما قبله ولا كتاب بعده[4] جعل الله حروفا كالعلائم منبئة أن هذه السورة هي من قبيل تلك التي أنزلت من عشر سنين مثلا حتى كأنها تتمة لها وإن كان بينهما مدة. وأما نزول ذلك في مدد وأزمنة، أو نزول سور خالية عن الحروف فبحسب تلك / الوقائع. [١١و]

وأما ترتيب وضعها في المصحف -أعني السور- فتارة بحسب الحروف كما في الحواميم، وتارة لموافقة أول هذه السورة لآخر ما قبلها كآخر "الحمد"[5] في المعنى وأولِ "البقرة"، وتارة للوِزان واللفظ كآخر "تبت" وأولِ "الإخلاص". وأما لمشابهة جملة السورة لجملة أخرى مثل الضحى، وألم نشرح، ولمثل ذلك لما وقع[6] من الأولوية عند جامعه رضي الله عنه. وأما زيادة بعض الحروف في بعض السور وتغيير بعضها فَلْيعلَمْ أن المرادَ الإعلامُ بالحروف فقط وأن الكتاب هو من هذه الحروف. وذلك أنه متى فَرض الإنسانُ في بعضها شيئا في مثل "الم السجدة" لزمه في مثلها مثلُه كألف لام ميم البقرة. فلما لم يجد دله[7] ذلك الثاني على بطلان الأول وتحقق أن هذه الحروف هي علامات المكتوب والمنطوق. وأما كونها اختصت بهذه السور فيحتمل أن ذلك تنبيه على السور، وأنها قد احتوت على ما احتوى عليه جملة الكتاب،

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (سورة العنكبوت، ٤٨/٢٩).

٢ ومن أراد التفصيل وزيادة بيان في هذا المبحث فعليه بكتاب المرشد الوجيز لأبي شامة المقدسي، ص ٣١-٤٠.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (سورة الحجر، ٩/١٥).

٤ لعل المؤلف يشير هنا إلى قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (سورة الأحزاب، ٤٠/٣٣).

٥ أي آخر سورة الفاتحة.

٦ ك: ولما وقع.

٧ ش ك: دلت.

كما أن الحروف احتوت على جملة المنطوق به من جهة الدلالة. ولهذا جعلت في تسعة وعشرين سورة بعدد جملة الحروف. ولو كان القصد الاحتواءَ على نصف الكتاب لجاءت في أربع عشرَة سورةً. وهذا الاحتواء ليس من كل وجه، بل من وجه يرجع إلى النطق والفصاحة وتركيب ألفاظ اللغة العربية وما يقتضي أن يقع به التعجيز. ويحتمل أن يكون لمعانٍ أُخَر يجدها من يفتح الله عليه بالتأمل والفكر، أو هبةٍ من لدنه سبحانه. ولا يمنع أن يكون في بقية السور أيضا كما في ذات الحروف، بل هذه خصصت بعلامات لفضيلة وجب من أجلها أن يُعْلَم[1] عليها لتُعلَم السور ويتنبه على فضيلتها لا من أجل فضيلة الحروف بل فضيلة السور، كما يُعلِم النجار بأحرف على قطع مختلطة وغرضه بالعلائم نفسُ القطعِ، وأن هذه أخت هذه لأنفس العلائم. والله أعلم. ولما كانت هذه العلائم من الضروري وَضَعه أصلا، ومن الواجب وضعُه علامة ليُخَصِّص بعض السور عن بعض وينبه على ما يجب من حِكَم وأحكام مودَعةٍ في السور. كانت هذه الأحرف أيضا من جملة الكتاب المبين، لأنها أبانت عن كتاب مبين. والله أعلم. وهذا الكلام قد بيّنا[2] أنه من باب الاحتمال. والأَولى أن الأحرف إنما جاءت في تسعٍ وعشرين سورةً لتعود عدة السور دالة لنا على عدة الحروف؛ فتكون السور من جهة العدة تردنا إلى الحروف من جهة[3] العدة فنعلم[4] أن الأربعة عشر عوض عن تسعة وعشرين.

فصل

[ماهية الحروف المقطعة وحكمة وجودها في القرآن]

[قال] ابن عَزْرَة:[5] ليست الحروف المفردة من جهة المفردة في القرآن هِجاءً، لهذا لم تكن في الوضع مفردة خطا بل هي حروف متهَجًّى. فلما دلت على متهجى وصلت في الخط إشعارا بهذا. قال آخر: لا يقال إنها حروف متهجى ههنا، أعني في مواضعها، لأنها غير مفهِمة لغة عربية ولا عجميةً، بل هي بوصلها دالة على أنها من متهجَ

[1] أعلمه: جعل له علامة .

[2] ر: قد قدمنا.

[3] ش- العدة تردنا إلى الحروف من جهة، صح هـ.

[4] ش ر: فتعلم.

[5] هو شُبَيْل بن عزرة بن عمير الضبعي: راوية، خطيب، شاعر، نسابة. من أهل البصرة. له كتاب "الغريب" في اللغة. كان يرى رأي الخوارج ثم رجع عنه. وله في كلا الحالين شعر. توفي سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م (الأعلام للزركلي، ٣/١٥٧).

ومركّب متفنّن[١] كتركيبها. فلشبهها بالمتهجّى كتبت موصولة بصور لا تنطوي على معنى لشبهها بالهجاء، ورُدَّت سواكنَ في النطق لتعود بالتركيب المخطوط منها إلى المفرد[٢] المنطوق بها لا إلى ما بعده؛ إذ النطق يزيد على الخط فكانت زيادةُ هذا النطق بها أن رُدَّت إلى أصلها الذي برزت عنه بهذا التركيب لئلا يُطمع[٣] فيما بعد التركيب إلى كشف ما يلزم عن التركيب من المعاني المفيدة في الكلام، وليفرَّق بين ما وُجد ليدل على نفسه وبين ما يدل على غيره، وكذلك بين ما وُجد ليدل بنفسه على معنى كما دل [١١ظ] / مفهوم الكلام[٤] وبين ما وجد ليدل بتقدير[٥] وإضمار، كما صنع أصحاب الحساب، إذ كتبوا الحروف مجموعة في أَيْق.[٦] [وقال] أبو عُبيدة:[٧] إنها حروف هجاء لافتتاح كلام،[٨] يقال بها وبأخواتها. [وقال] قُطْرُب:[٩] هي أخرف ا، ب، ت، ث، أي ذلك هو الكتاب بحروفكم التي تعلقونها، لا ريب فيه، يُعجزكم الإتيان بمثله[١٠] مع أن الآتي[١١] بها لا يعرف الكتابة ولا التقريض اللذَين بهما تفضلتم. والتقريض من القَرْض كما قُرض من جملة النظم قطعة، وهو اسم لسائر الشعر، وبالظاء اسم لما يمدح به الحي غيره.[١٢]

---

١ ش: متفننين.

٢ ر – معنى لشبهها بالهجاء وردت سواكن في النطق لتعود بالتركيب المخطوط منها إلى المفرد، صح هـ.

٣ ر ك: لئلا نطمع.

٤ ر – وبين ما يدل على غيره وكذلك بين ما وجد ليدل بنفسه على معنى كما دل مفهوم الكلام، صح هـ.

٥ ش: بتقديره.

٦ الأَيْق: الوظيف وقيل عَظْمه، وقال الخليل: الأيق الوظيف، وهو موضع القيد من الفرس (معجم مقاييس اللغة لابن فارس، «أيق»؛ ولسان العرب، «أيق»).

٧ هو مَعمَر بن المثنى التيمي البصري أديب لغوي نحوي عالم بالشعر والغريب والأخبار والنسب، صاحب التصانيف. روى عنه علي بن المديني وعمر بن شبة وأبو عثمان المازني وأبو العيناء وخلق. مولده وفاته في البصرة. ومن تصانيفه: مجاز القرآن الكريم، وغريب القرآن، ومعاني القرآن، وغريب الحديث، والديباج، والتاج، والحدود، وخراسان. توفي سنة ٢١٠هـ/٨٢٥م (إنباء الرواة للقفطي، ٢٧٦/٣-٢٨٧؛ وتذكرة الحفاظ للذهبي، ٣٧٢/١؛ ووفيات الأعيان لابن خلكان، ٢٣٥/٥-٢٤٣؛ ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، ٩٠١/٣؛ والأعلام للزركلي، ٢٧٢/٧).

٨ مجاز القرآن لأبي عبيدة، ٢٨/١.

٩ قطرب، هو أبو علي محمد بن المستنير بن أحمد، الشهير بقطرب، نحوي، عالم بالأدب واللغة، من أهل البصرة. من الموالي. كان يرى رأي المعتزلة النظامية. وهو أول من وضع المثلث في اللغة. وقطرب لقب دعاه به أستاذه سيبويه فلزمه. وكان يؤدب أولاد أبى دُلَف العِجْلى. من كتبه: معاني القرآن، والنوادر لغة، والاضداد، وخلق الانسان، وغريب الحديث. توفي سنة ٢٠٦هـ/٨٢١م (الأعلام للزركلي، ٩٥/٧).

١٠ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٢٣٨/١-٢٣٩؛ والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ١٥٧/١.

١١ لعله يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

١٢ والتقريض مثل التقريظ: المدح، أو الذم فهو ضد. ويقال: التقريض في الخير والشر والتقريظ في المدح والخير (تاج العروس للزبيدي، «قرض»).

الحروف أسماء الكتاب المبين الذي كل شيء فيه، لكنها أسماء كلية لا يميزها إلا التركيب ولا تُعرَب عن المسمى بها إلا بالإعراب نطقا أو خطا. فركّبها معجمة خطا، ونطق بها مفردة سِمطا، وجعلها قرآنا معجزا للأنام إعلاما أن هذا المؤَخر المعَرَّب الغيرَ معروف هو من هذا المقدَّم المعجم المعروف المألوف في سائر الكلام.

أبو مسلم[١] أورد كثيرا، ومن كلامه قال: قال ابن الزبيري:[٢] يحتمل أن يكون تعالى أنزل الحروف لعلمه أنه يحدث في الأمة مبتدعة، يقولون: ليس كلام الله بحروف، كما قال مَن قال: إنه قديم.[٣] فدلنا سبحانه أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف وأنه مؤلف. فقدح أبو مسلم في سائر الأقوال وأبطلها. من ذلك أنه قال: إن كانت بعضَ كلام[٤] هو أسماءُ الله تعالى فليس بأن يقال: إنها من أسماء الله تعالى أولى من أن يقال: إنها من أسماء سائر المسميات؛ لأن الحروف المقطعة منها تأتلف الأسماء أجمع، وإن كانت كما هي أسماء فيجب أن تدعو بها فتقول: آلم إلٰهنا وخالقنا.[٥] وإن قيل: قَسَمٌ،[٦] فقد أجرى الله العادة أن يُقسم بما يفيد من أفعاله وأسمائه الحسنى.[٧] وإن كانت أسماء السور[٨] فإما أن تكون اسم الذات أو اسم الصفة، وكلاهما لا يقوم به دليل.

وقال عبد الجبار المعتزلي[٩] صاحب المحيط بالتفسير:[١٠] أحسن ما قيل في ذلك ما قاله ابن الزبيري، وهو أنه قال: الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ،[١١] فلا بد من تعلق بينهما. ويمكن أن يكون التعلق أن الكتاب مؤلَّف من ذلك، ويكون 'الم' تنبيها على كل الحروف، كما يقال للصبي: قد تعلّم ا، ب، ت، ث إشارة إلى جميع الحروف. ولهذا جاء بها في مركَّب

---

١ هو محمد بن بحر الإصفهاني، سبقت ترجمته.

٢ لم يتبين لي من هو.

٣ لم أجد هذا القول فيما بين يدي من المصادر التي أمكنني الوقوف عليها.

٤ أي من الحروف المقطعة.

٥ لم أعثر على هذا القول فيما بين يدي من المصادر والمراجع التي أمكنني الوقوف عليها.

٦ أي آلم قسم.

٧ عن ابن عباس، قال: هو قسم أقسمه الله، وهو من أسماء الله (جامع البيان للطبري، ١/٢٠٧).

٨ عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال أُبَيّ: إنما هي أسماء السور. انظر لزيادة الإيضاح: جامع البيان للطبري، ١/٢٠٦، ٢١٣-٢١٥؛ والنكت والعيون للماوردي، ١/٦٣؛ والمحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي، ١/٨٢.

٩ هو أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار القاضي الهمداني، كان شيخ المعتزلة في عصره، وهم يلقبونه قاضي القضاة ولا يطلقون هذا اللقب على غيره، له تصانيف كثيرة. عاش دهرا طويلا وسار ذكره. وكان فقيها شافعي المذهب، ولي قضاء الري وأعمالها ورحلت إليه الطلبة. توفي سنة ٤١٥هـ/١٠٢٤م (طبقات المفسرين للسيوطي، ص ٤٨؛ وطبقات المفسرين للأدنه وي، ص ١٠٤؛ والأعلام للزركلي، ٣/٢٧٣-٢٧٤).

١٠ جميع النسخ + قال.

١١ الآيتان ١ و٢ من هذه السورة.

لتدل[1] على مركب لا على مفردات. وإنما قرئت مفرداتٍ ليُعلَم أن الإشارة بها إلى جملة الحروف التي منها تركّبُ الكتاب كله بصور من الأوضاع تقديما وتأخيرا. وكذلك كرّر في بعض وغيّر وزاد ونقص حتى لا يستقيم لأحد أن يَنسِب ذلك إلى وجه فيضطر حينئذ أن يُقِرَّ بما ذكرناه.[2] وأما كونه في بعض السور لم يذكر [فيه] "الكتاب" كَالرُّوم،[3] فنقول: لمّا بيّن في البعض استغني في الباقي، ولتعلم أنه ليس الحروف شيئا مقيدا بالسور بل منفصل.

فصل

الإعراب أحرف صغار. فإذا أشبع ظهر حرفه وهو "ا و ي". والأحرف المفردة الغيرُ المُعرَبةِ بإعراب لا تُعرِب عن معنى. فإذا أُعربت بان المقصود بها فأَعربت عن المعنى. فالحرف لا يسبقه الإعرابُ كما لا تسبق الصفة للموصوف، إذ هي قائمة به وهو علة وجودها. والألف الساكن غير المهموز بهذه الصورة تكون الألف مضروبَ الأربع صورٍ من الإعراب، أعني الرفع والنصب والتسكين والكسر في ثمانية وعشرين حرفا، وهو ١١١، وهذه مجموع "ألف"، لأن الهمزة غير الحرف اللين. ولهذا كرر في "لا"، فهو زائد عليه. فجميع الحروف بجميع الحركات النطقية هي[4] في الألِف حسابا. وأصل الحساب آحاد وعشرات ومِئُون وأُلوف. فمِن اسم أَلِف الألْف ومن تهجّيها مائة وعشرة وأحد فتم بها سائر أصول العدد.

فصل

لو نقيم كل اسم رباعي أو خماسي غير ذي زوائد لا يخلو من أحد هذه الستة. [١٢و] فمتى خلا فاقض بأنه دخيل / في لغة العرب.

فصل

[موقع الحروف المقطعة من معاني كلام الله تعالى]

يجب أن تعلم أنه لما كانت سائر العبارات المنطوق بها عن قديم ومحدَثٍ وبسيط ومركب وظاهر وباطنٍ إنما تَظهر المعاني بها من هذه الحروف صارت الحروف أصلا

---

[1] ك: ليدل.

[2] وقال القاضي عبد الجبار: وقد قيل في ذلك: إنه عز وجل أراد بهذه الحروف المقطعة أن يبين أن كتابه المنزل مركب من هذه الحروف، وأنه ليس بخارج عن هذا الجنس المعقول، وأنه مع ذلك قد اختص من الفصاحة بما عجز الخلق عنه. وذلك يبين قوة إعجازه، ويبطل قول من يظن أن كلامه عز وجل مخالف لكلامنا (متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار، ص ١٧).

[3] ﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ (سورة الروم، ٣٠/١-٢).

[4] ش: فهي.

يُرجع إليه من حيث النطق الإنسانيُّ. ولهذا كان النطق في الإنسان أصلا وفصلا يَفصله عن الحيوان غير الناطق. ولهذا مخارج هذه الحروف مركوزة من قلبه إلى شفتيه.[1] فإذا كان جملة المنطوق به يرجع إلى هذه الحروف فقد تحققت أن الألف لها -من جملة سائر ما يمكن أن ينطق به في كل آن بكل قلب ولسان- نصيبٌ مخصوص لا يكون إلا لها نُطِق به أو لم ينطق به، وكذلك لكل حرف من الحروف.

وإذا عُدتَ إلى ذاتك ناظرا في مرآتك بالعقل المبرَّأ عن الهوى وجدتَ جملة المعاني كلية مختلطة[2] قائمة في النفس يشار إليها إشارةً من غير تفصيل وإيضاح مخصِّص لشيء يدخل في الفهم منه ما يُثمر، وتجد الأحرف المفردة كذلك مشتملة بجملتها على تلك الجملة اشتمالَ العلامات المشيرة بالكل إلى الكل عن بعدٍ كثيرٍ جدا. إذ فائدة هذه الإشارات لا تَظهر إلا بعد التركيب وما يتعلق به. فلهذا تشير من غير تفصيل ولا إيضاح مثمر بل كما رأيت في المعاني. فتلك روحانياتٌ هذه جسمانياتها. والجزء من المعنى لا يفيد إلا أن يكون تاما، ولا يكون تاما إلا بأحرف لا بحرف، إذ الحرف يدل على جزء غير مخصِّص ولا مفيد. فلما تفصّلت الحروف بتقديم وتأخير وإعراب وغيره فُصّلت من المعاني بحسبها. فأوحى الله إليه صلى الله عليه وسلم الأصولَ المجملة[3] نطقا بالحروف ومعنًى بالمشاهدة، ثم فَصَل له بالتقديم والتأخير وغير ذلك من تلك المجملة حروفا قرآنا، أي جمعا مقروء يَفصل من مجموع تلك المعاني المجملة بحسب الحروف مقدارا محكما، فيه لسائر العقول هدايةٌ وبسائر المنافع كفاية. ولهذا قال تعالى: كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا، أي بيِّنا، لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ[4] مَعانِيَه البينة بمبانيه المبيّنة.

وأما تكرار الحروف فليُعلَم أنها لم تشتمل على غير أنها حروف فقط، إذ لو كانت في سورة واحدة فنظر بعضُ أولي النظر فيها فاستخرج لها بقوة فكرية من المعاني ما رآه لائقا بها من جهة مناسبة لَظنّ هو أو غيره أن ما وصل إليه هو المراد. فلما تكررت في سور تكررا متنوعا: تارةً تكرر بعضها على حالة واحدة مثل "الم"، وتارة على غير ذلك كما يجده المتأمل، وكان الناظر فيما عسى أن يظنه المرادُ بها إذا فهمه بزعمه في سورة جاءت[5] في سورة[6] أخرى مبطلة له، إذ لا موافقة بينهما.

---

[1] ش ك: إلى شفته.

[2] ش ك: لمختلطة.

[3] ش ك: الجميلة.

[4] سورة فصلت، ٣/٤١.

[5] هذا القسم جواب "فلما تكررت".

[6] ر – في.

وذلك مع موافقة الأحرف المتقدمة عليهما[١] صار هذا التكرار مُنبِّئًا لنا عن وجوب الإعراض عن موطن الظن والقول به. وأما تداخل بعضها في بعض وتكرار الحرف[٢] الواحد في ثلاثة مواضع مثل "ص"[٣] فإعلامٌ بهذه الصورة أن هذا الكتاب هو بهذه الحروف المعلومة لكم، فتارة تتقدم وتارة تتأخر وتارة تتوسط، وتأتي مركبة في مثنى وثُلاث ورباعَ وخماس بعدد من التنوعات لا حصر لها. ولما كان قد يُظن في مجيئه -أعني "ص" مثلا- مع غيره فائدةٌ جاء به وحده ليُعلم أنه مع غيره أيضا هو وحده، ولهذا قرئ وحده. وتجد عِدَّة الحروف المكررة ثمانية وسبعين حرفا. وقد علمت ما في السبعة وما في السبعين من المراد بين / العرب في مخاطباتهم، وأنها للتكثير لا للتحديد بدليلِ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً،[٤] ولعلها جاءت ثمانية[٥] لتدل على العودة كأن الإشارة إلى أن الثامن هو الأول. وعلى كل حال[٦] فإن الأرجح في العقول أن العدة للتكثير لا للتحديد كما قلناه. [١٢ظ]

وأما لم اختصت هذه السورة دون غيرها بالحروف فذلك يحتمل أنها جُعلت لها كالعلامات لتَفصِلها عن بقية السور إشارةً إلى عظمِ ما فيها حتى كأنها بمفردها أمّ الكتاب -أعني هذه التسعة وعشرين سورة- كما أن التسعة وعشرين حرفا تشتمل على سائر الكلام. وهذا كما قدمناه أنه من باب المحتمَل. وإنما لما كان لا بد من سور تسعةٍ وعشرين تتقدم هذه الحروفُ عليها لتدل على عدة الحروف بعدتها، فتعلم أن هذه الحروف الأربعةَ عشَرَ تشتمل على معنوية تسعة وعشرين حرفا جاءت أمام تسعة وعشرين سورة، فعادت السور دالة على فضيلة هذه الحروف لا هذه الحروف على فضيلة السور. ولهذا إن هذه السور منها قصارٌ وطوال، وبعضَها ذوات أحكام. فلو كان تقدم الحروفِ هو لفضيلة السور لكانت سورة النساء أولى بها من أحد السور ذوات الحروف.

وأما تشابه بعض حروف هذه لبعض حروف هذه مثل "الر" فليُعلم من كونهما في المعنى ليس من أسلوب واحد والحروفُ واحدة أن المراد ما قلناه.[٧]

---

١ ش ك: عليها.

٢ ش: الحروف.

٣ في أول سورة الأعراف وسورة مريم وسورة ص.

٤ ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ (سورة التوبة، ٩/٨٠).

٥ أي ثمانية وسبعين.

٦ ش: حالة؛ ك - حال، صح هـ.

٧ "إن المراد ما قلناه" هذا القسم من العبارة نائب الفاعل لكلمة "فَلْيُعْلَمْ".

وأما تقديم الألف فإعلامٌ بعد ما قلناه أن أَولى الرُّتَب بها أن تكون أولة، كما أن أولى الرتب باللام أن تكون ثانية، وبالنون أن تكون أخيرة كنون الجمع.

وأما مقادير التكرار فيُحتمل أن تكون لكل مقدار نسبةٌ ترجع إلى الفصاحة والإعجاز وإظهار مكنون خفي أصله موجود في النطق. كما لما تكررت الألف واللام في ثلاثةَ عشرَ موضعا فهمنا أنها تسقط في الكلام عند ما يتلوها ثلاثةَ عشرَ حرفا من الحروف وأنه بيّن الأقل ليدل به على أنها تظهر في الأكثر. وهذا أنموذج وأسلوب إذا تأملته فهمت به من مثله ما شاء الله تعالى. وإذا فهمت ما في هذا الفصل من أن الحروف المفردة تشير بذواتها إلى كليات سائر المعاني والذوات، وإلى كل ما يمكن أن يعبر عنه بها من سائر الموجودات والمعدومات فقد دخل فيما قلناه كلُّ ما قيل من[1] أن الحاء من الرحمن بل أضعاف ذلك مما قيل ويقال. وأما أن تدل الحاء بمفردها على معنى كامل فليس ذلك في قوتها. ولو كان يمكن أن تدل مفردة كما يمكن أن تدل مركبة لذهبت فائدة التركيب وعادت فُضلةً ولغوا. بل حكمها في الانفراد كحكم عضو ميت منفصل عن الإنسان، وحكمها مع التركيب كحكم عضو حي ساعده عضو آخر من الأعضاء بحركة عن روح فاضت على الأعضاء فأكْسَبتْها الحركة المنتظمة إلى نيل المرام كما نجد المعنى كأنه روح للحروف.[2] فافهم ذلك.

فصل

[الحروف المقطعة لها فضائل]

وأزيدك بيانا فأقول: غلط الناس في الحروف المفردة أمام السور لكونهم جعلوا أفكارهم تغوص في فضيلتها. وإنما الفضيلة للمتكلم بها، فهي آلة عُمل بها صناعة؛ والفضيلة ظهرت للصانع في الصِناعة لا للآلة. ثم قدّم الآلة والمصنوع بها وتحدى بالصفة دون الآلة؛ إذ الاقتدار هو أن يعملها بآلات المخاطبين ويعجزون عن العمل مع وجود الآلة. فتحمَّل الناس من المشقات لكونهم أرادوا أن يستدلوا بالحرف على كلمة، وقالوا كلماتٍ ليس في إخفائها ولا إلغازها طائل حتى يكونَ البارئ تعالى قد أخفاها وأشار إليها بالحروف.

[1] ش – من، صح هـ.

[2] ش ك: للحرف.

[١٣و] فإن قيل: رياضة للأذهان. / فالرياضة بما يُجدي أولى. وفي فهم الآيات للمستنبط رياضة كافية، ولا دليل على ما قالوه سوى الاستحسان والحزَر.[١] وإن وافق من وجه خالف من آخر. ولو علموا أن الشيء يجب أولا أن يدل على نفسه ما قالوا شيئا، إذ أولى الدلالة دلالة المطابقة. وما أحد يقول: "فرس" وهو يريد سِنَّوْرا[٢] وحبلا، ويدّعي أنه قد بين كتابه في غاية البيان. فكذلك لا يقول: ق، وهو يريد معها حرفا آخر حتى يقال: إنه أشار إلى قريش. فالمقصود بالشيء عين الشيء، ومن تعدى الحدود أضاع عين[٣] المقصود.

فصل

حقيقة الكتاب[٤] ضمُّ[٥] بعض الحروف إلى بعض، فلا يلزم أن يكون ذلك الضم دالا على معنى. وأما الكلام فهو ما دل بتأليف الحروف على معنى. فافهم جيّدا لتعلم أنه تعالى قدم أحرفا هي علامات الكتاب، فجعلها خالية عن المعنى لتدل على أنها علامات الكتابة التي[٦] تُفرد وتثنّى وتجمَع بحسب المقاصد. ثم ألف منها القرآن الذي هو جمع المقروء، فقال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ﴾.[٧] فالكتاب أعني الكتابة خَطَره جليل ونفعه عظيم، إذ لا فائدة إلا ويجوز أن يتضمنها[٨] ويستدل منه عليها فهو العام؛ فلزم تقديم الأعم ويتلوه الأخص ذو المعاني. ويجب على المُعلِّم الحكيم أن يأتي أولا بالأسهل المعروف القريب المشهور المستعمل، ثم يترقى منه إلى مراده على تدريج، ولا يجوز ضد ذلك إذا كان غرضه منه[٩] التفهيم. فدلت الحروف أمام السور بتكريرها وجمعِها وإفرادها وتقليبها من تقديم وتأخير وغير ذلك، كل ذلك دل على معنى واحد، وهو الكتابة، أعني جمع الحروف. أي هذه في ذواتها علامات الكتابة إن قدمت، أو أخرت، أو كررت، أو جمعت، أو أُفردت. فإذا أُلف منها ما يعجز البشر فهو معجز أبلغ. ولهذا لم يقل "على أن يأتوا بمثل هذا الكتاب" وإن جاز، لكن ﴿بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾.[١٠]

١ الحزر: أن تقدر الشيء بالحدس والتخمين (لسان العرب، «حزر»).

٢ السنور: الهِرّ، (لسان العرب، «سنر»).

٣ ر: ضاع عن.

٤ أي حقيقة الكَتْب والكتابة.

٥ جميع النسخ: الضم.

٦ ش – التي.

٧ سورة النمل، ١/٢٧.

٨ ش ك: أن تتضمنها.

٩ ر – منه.

١٠ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (سورة الإسراء، ٨٨/١٧).

فلفظ "القرآن" أخص بجمع المعاني المدلول عليها بنفس تأليف الحروف المجموعة بالكتابة. فافقه ذلك وانظر إلى هذا الفصل ما أتم معناه!

فصل مفيد

[ردود على الحروفيين]

كل عاقل يَعلم أن الحرف الواحد إنما يدل أولا بمفرده على نفسه، أعني على مخرجه المنطوق به. وإذا لم يدل على نفسه فيكون معلوما فقد انتفى أن يدل على غيره، إذ المجهول غير المعلوم، وغير المعلوم لا يُعلَم به المجهول. فلو قلنا: إن "الصاد" مثلا تدل على حاء لَمَا جاز ذلك إلا أن يكون عن اصطلاح، فيكون الاصطلاح هو الدالَّ إلى نفس الحاء. وإذا لم يدل الحرف على حرف واحد غيرِه فكيف يدل على حرفين أو أكثر ليُفهم منه بمفرده ما يُفهم من التركيب العربي المبيِّن للعاقل معنًى هو المقصود من كلام محدود، فذلك محال.

فالحروف كالأواني التي تُستعمل فيوضَع فيها شيءٌ وضده. والمقصود بها ما يوضع فيها لا نفس الآنية فقط. وليس لها فضيلة في ذاتها لذاتها ولا غايةٌ إلا لأجل ما يوضع فيها لا غير، فحكمها كحكم الأكيال فهي مكاييل المعاني المقصودة. ومن الناس من ظن أن البارئ تعالى نبه بالأحرف المفردة أمام السور على رموز غريزة، أو على[1] خواص الحروف، أو غير ذلك من مثله. فيا لَلْعَجَب من قوم حملهم ميلهم عن مراد الله تعالى من فهم معاني كتابه الذي هو شفاء لأمراض[2] نفسانية إذا علم وعُمل به، فمالوا إلى أهوائهم وظنوا أن المقصود الأعظم إنما هو في الحروف المفردة دون الكتاب، وأن هذه هي السر المكتوم والغرض الخاص للخواص من العالم. ثم إنهم اليومَ يزعمون أنهم وصلوا إلى جُلّه أو كله وتقدموا بذلك على الصدر الأول. فإذا سُئلوا وأفصحوا بعد الجهد لم يظهر تحت ما قالوه طائل. ولو أنصفوا أنفسهم علموا أنهم رضوا بما هو دون ما يزعمون في الحروف. وعلامة نقصهم أنهم يُسألون عن آية من الكتاب فيقولون فيها بالرأي والقياس والظن والخَرْص، / أو النقل[3] الذي لا يشفي غليلا إن رضوا أن [١٣ظ]
يكونوا نقلة، لأنهم يدّعون الكشفَ. هذا مع إعراضهم عن التأمل في نظم الكلام،

---

١ ش ك – على.
٢ ش: الأمراض.
٣ ر: والخوض والنقل.

وإقبالهم على استنباط الحروف وما يتعلق بها كأنها هي المقصود. ولو كان الأمر كما زعموا لكان الأَولى أن يكون التحدي بها دون القرآن. فإن التحدي[1] بحروف أو بكلمة أبلغ من التحدي[2] بسورة.

وما مثل هؤلاء إلا كمَثَل مريض ظن أن المقصود من كلام الطبيب إذا وصف له دواء لدائه[3] إنما هو شيء يفهم من مفردات المركب لا نفسِ المركب، وأن الطبيب أودع المفردات سرا ملغوزا فذكرها وهو يريد بذكرها شيئا آخر غيرها وغير المركب. وربما قال: هذا السر يختص بالطبيب لا يعلمه غيره، أو قال: هذا السر يعلمه آحاد من المرضَى لا غير. وكل هذا خُباط[4] واختلال دالٌّ على مرضٍ آخرَ زائدٍ على مرض هذا المريض، إذ خرج عن مقصود الطبيب من كل وجه وعُدمَ الانتفاع به وبما جاء به وبقي بدائه وجهله. وربما ظن هذا المريض أن المقصود هو تلاوة لفظ هذا الطبيب بعينه، وذكرُ مفردات المركَّب، والمركِّب والاقتصارُ على ذكره دون تركيبه واستعماله. فهو دائما يتلو ورقة الطبيب ويُعظمها ويرجِّع ألفاظَها بأصوات مرتَّلة وغير ذلك، ويعتقد فيها أنها شفاء. ولكن لا يعمل بها، وكيف يعمل وهو لا يعلم المقصود بها بل يهوي أبدا في مهاوي هواه وحرصه. ولو تحقق أن مقصود الطبيب هو معالجة الداء بذلك المركَّب، وأن المركب له مفردات يقوم منها، وأنها ليست مقصودة بالذكر للطبيب إلا لأجل المركب ليَعلَم أنه من هذه المفردات المعلومة المشهورة الموجودة دائما في كل قوم. ولكن هذا التركيب العجيب اختص[5] به هذا الطبيب فلا يقدر أحد أن يركِّب من مثلِها مثلَه مع وجودها في منزل كل واحد[6] واستعمالِ كل أحد لها في سائر المركبات الدوائية والغذائية. ولهذا إنما تحدى هذا الحكيم بالمركب. فلو علم المريض ذلك لتحقق أن الغاية هي الشفاء ولَرجع إلى فهم المركب الذي مفرداته -لا شك- معلومة. فلما فهمه استعمله فشُفي وكُفي وعوفي.

فصل

قد تحققت أن الحروف المكتوبة هي علاماتُ المنطوقة، والمنطوقة علامات المقاصد التي في الضمير، وأن المقاصد[7] المضمَرة لا تتغير بتغير المنطوقة في اللغات

---

[1] ر ش: فإن المتحدي.
[2] ر ش: من المتحدي.
[3] ك: الداء به.
[4] الخُبَاط: داء كالجنون (لسان العرب، «خبط»).
[5] ش ك: اخص.
[6] ر: أحد.
[7] ش ك: وأن المقاصد.

المختلفة ولا بتغير[1] المكتوبة الاصطلاحية. فلزم أن الحروف إشارات وعلامات لا ذوات لها ولا حقائقَ سوى هذا القدر الذي يمكن أن ينال بغيرها. لكنه لا بد من المخارج الحَلْقية ولو لم ينطق الناطق بها إلا رمزا، ففهم وأفهم غيره بلغته. فقد عادت الحروف في حقيقة الأمر هي المخارج النطقيةَ لا الصور المكتوبة ولا التصويتَ بها. إذ قد يعبر[2] في بعض اللغات بالسين[3] عن الواو مع اختلاف المخرجين، لكنه لا بد من مخارج وإن اختلفت العبارات وتنوع التصويت. فإذا فهمنا في لغة واحدة مقصودا فمثلُه هو المفهوم في غيرها. وإذا كان كذلك فلا شك أن بهذه المخارج عُبِّر عن كل شيء. وقد أهملنا الأصوات والحروف إلا من جهة الدلالة. وذلك يختلف مع كوننا نتحقِق أنها من جهة الدلالة إشارات بالكل الى الكل. وهذا فائدة معنى الحروف المركبة في المفردة. وهي من الفاء إلى الباء كما تقدم.

تتمة

ومن اعتقد أنه تعالى أشار بالحروف الكتابية إلى بعض مدلولاتها المجملة فقد بخسها حقَّها[4] وأسقط فضيلتها ونزعها حِلْيتها؛ لأنها تدل دلالة كلية فكيف يعيدها جزئية، وكيف يجوز أن يقيدها وهي المطلقة. فمتى قرنها بما يدل على جزء أو أجزاء كثيرة فقد قيّدها بذلك وأخرجها عن الدلالة على كل. والتلاوة المنقولة تخالفه، والعقل يعاديه ويمنعه، لأنها تُتلى مفردةً، ولا يُتعقل من تلاوتها تركيبٌ، ولا يكون المقصود بالشيء ضده. فذلك جهل وعناد.

وأما / ما حملوها من التأويلات وما وجدوا فيها من الاتفاقات والعجائب فذلك [١٤و] وأضعاف أضعافه في قوتها، لكنه لا يجوز أن يكون المقصود بها شيئا[5] من ذلك. ولهذا وقع الاختلاف فيها، إذ الحق لا يرتاب العقل فيه ولا يتوقف إلا عن حجابِ هَوًى أو قصور. فترك الناسُ القريب الحاضر وذهبوا إلى البعيد الغائب فخابوا. وما هذا إلا لجهلهم بغرض المتكلم ورحمته، فجعلوا له أغراضا بحسب أغراضهم المختلفة الفاسدة، وجعلوه بخيلا. تعالى عما نسبوه إليه بأغراضهم وأفكارهم وظنونهم ولسان حال مقاصدهم. ولا شك أن الرامي إذا وضع سهمه بعينه وقوسه وتحدّى

---

[1] ش: ولا تتغير؛ ك: ولا يتغير.
[2] ش: قد يعتبر.
[3] ر: بالشين.
[4] ر: حظها.
[5] ر: شيء.

بأنه لا يقدر أحد أن يماثله في الرَّماية كانت الفضيلة للرامي لا للقوس، إذ القوس هي المستعمَلة بين الناس كلِّهم، فمن جعل الفضيلة للآلة فقد تاه عن الرامي. وحسبنا الله.

فصل

[كون الحروف المقطعة معجزة]

اعلم بعد ما سمعتَه أني قد آتيتك برهانا ومنحتك بيانا، فافهمه جيدا. لا شك أن المتحدي من الصُّنّاع إذا[1] نَجَر سفينة مثلا أو صُنْدوقا وأحضر تلك العُدّة التي بها نجر وتحدى كان ذلك أبلغَ في الإعجاز، خصوصا إذا أحضر العُددَ التي هي بعينها عُدد الصنّاع الباقين خصوصا إذا أحضر نصف عُددهم، وقال ما معناه: إن بنصف العدة عملت أكثر هذه القطعة، فاعملوا أنتم كذلك بكلها. ودليل ما قلناه أنك إذا تأملت سائر القرآن فإنك تجد كل كلمة فيه -سواء كانت اسما أو فعلا أو حرفا- لا تخلو عن حرف من هذه الحروف الأربعة عشر الكتابية، أو حرفين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة، وتجد بعض الحروف منها في الكلمة الواحدة يتكرر مرتين أو أكثر. وهذا من أعجب العجيب[2] الذي لم أرَهُ مذكورا بل عثرتُ عليه، فهو برهان كثير لمن تأمله. ولم أجد خاليا من هذه الحروف في جميع القرآن سوى ما مقداره ثلاثون كلمة مع تكرار بعضها. فبعضها من حرفين مثل وَدَّ، خُذْ، فَجّ، وأكثرها من ثلاثة، مثل فَوْج، جُدَد، زَبَد،[3] خَوْف، خَوْض، ثَوْب، تَخَفْ، خَبَثْ، بَدَتْ، وَدَّت، خَبُثْ،[4] ثبت. ولم أجد رباعية سوى واحدة وهي وَجَبت، وخماسيةً سوى واحدة وهي فتُخْبِتَ. فانظر إلى هذا العجب الظاهر الذي خفي، فلم يشتهر للناس منذ مِئِين من السنين، ولم يذكره أحد فيما سمعنا أو رأينا. وذلك مما يتحقق به الإعجاز. وإذا نظرت وجدت أكثر كلام العرب هو بهذه الحروف، ولعل الخالي[5] من حرف منها في كلمة من كلامهم كالمعدوم، فهو سر النطق العربي بل وغير العربي. فإنك تجد العبري والعجمي وغيرَه حتى تصويتَ بعض الحيوان وقَرْعَ الأجسام المحاكي بحروف أكثرُه من هذه. ولهذا كان القرآن معجزا للإنس والجن. فتجد هذه الحروف دائرةً في سائر الألسن كأنها روح الكلام وغيرُها جسم، بل كأنها حجارة الدار وبقية الحروف كالطين والحشو

---

[1] ش - إذا، صح هـ.
[2] ش: العجب.
[3] ش ك: زيد.
[4] ش - بدت ودت خبث، صح هـ.
[5] ش: الحال.

الذي يقتصر منه على اليسير لتمهيد الحجارة وإسنادها. وإنما البِناية بالحقيقة هي بالأحجار. وأي معجز يكون أبلغ ممن لا يعرف الكتابة[1] أتى بحروف هي نصف المستعمل، وهي دائرة في سائر الألسن بها جُلّ كلامهم، ثم أتى بكلام أكثره منها، فنبّه على أن هذه هي ذوات المعاني المنطوقُ بها في سائر الألسن وفي هذا الكتاب.

وقد علمت أن الغرض إما الإعجاز أو التفهيم. والتفهيم لا يكون بالمفرد بل بالمركب. والإعجاز لا يكون بما لا يُعلم، بل إذا علم المفرد والمركب وعَجِز الغير عن تركيب مثله من هذا المفرد المعلوم الذي لا يَعْجَز عنه أحد كان أبلغ. فكأنه لما أحضر مثلا صُنْدوقا عجيبَ[2] الصنعة وأحضر معه قَدُوما ومِنشارا كأنه قال بهذه العُدّة عمل هذا. فالقدوم يشير إلى بقية العدة لا إلى عمله المخصوص به في الصندوق، إذ في الصندوق من سائر العدة أثر. والتحدي بجملة الصندوق لا بأثر القدوم منه فقط. ولهذا كرر بعض الحروف، لأن أثرها في الكلام أكثر مثل م. ولما / كانت [١٤ظ] هذه الأربعةَ عشرَ حرفا هي أُسّ الكلام وسرّ النطق في جميع اللغات، والأكثر فيما يستعمله كل ناطق، ومع هذا فقد قُلّبت وجمعت وأفردت وقُدّمت وأخرت حتى وصلت إلى ثمانية وسبعين حرفا، ولم يظهر عنها ما يفهم عنه معنى، وبها يفهم كل معنى كان هذا من جهة الإعجاز. وإذا وضع رب البيان آلات البيان على وضع لا يدرَك منه شيء من البيان كان نفسُ الوضع معجزا أو مُبيّنا أن المراد بيان آلات البيان،[3] لا بيان البيان بالآلات.

وأما من قال: كرر الله هذه الحروف وقرنها ببعض دون بعض لنعلم أن للحروف خواصّا، إذا كُرّرت هذا القدرَ من التكرار أو جمعت نطقا أو خطّا بالصورة المجموعة في الكتاب أثرت كيت وكيت؛ فهذا ومثله[4] ليس من مَلازِم الكتاب العزيز. وإن كان من خواص الحروف فلا يكون هذا غرضا ههنا، إذ الغرض ههنا لا يكون إلا إما الإعجاز بالقرآن أو بالحروف وهو الأولى، وإما حكم أو حكمة. وليس كذلك لأن ذلك المقصود لايجوز للحكيم أن يأتي به إلا على أسهل الطرق ليكون حجة له.

---

[1] يشير المؤلف رحمه الله إلى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم.

[2] ش ك: عجب.

[3] ر – على وضع لا يدرك منه شيء من البيان كان نفس الوضع معجزا أو مبينا أن المراد بيان آلات البيان، صح هـ.

[4] ر: أو مثله.

فافهم ذلك. ولا يكون الأسهل ولا الضروري في المفردات. وإذا انتفى أن يكون من باب الضروري فكيف يكون من باب الأشرف. إذ ما هذه صفة الهادي.

ويجب أن تعلم علما مطلقا أن الحروف علامات النطق. فإذا حصل النطق زال المقصود بصور الحروف. ولهذا لو اصطلحت على صورة غير تلك الصورة نطقا أو خطا جاز وأغنى. ومن هذا القبيل اختلاف الأقلام. وكذلك لما علمت أن النطق بحروف هي علامات ما في الضمير من مقصود: إما ذات أو صفةٍ لذات. فإذا وصلتَ إلى ما في الضمير لم يبق للنطق بالحروف مزيةٌ سوى ما بقي للخط بعد النطق. ومن هذا القبيل اختلاف اللغات. والذي في الضمائر هو المشار إليه من صورة خارجة مثل زيدٍ، أو فعل لزيد، أو معنى يتعلق بالتصور والفكر لا غير. فالحروف خطًا أو النطقُ بها تصويتا إشارة إلى ما في الضمائر. وأما هي[1] في نفسها بمفردها لا تدل على غيرها في الخطّ أو النطق، إذ لا يكون ذلك إلا عن مركبها لا عن مفردها. وإذا علمت أن الحروف تدل بالتضمن على كل ما يمكن أن يُنطَق به، فهل لعاقل أن يدل بدلالة التضمن ويدّعي غاية البيان، أو لعاقل أن يستدل من التضمن على لازم مفهوم منه؟ وذلك كله محال.

فعاود[2] خاطرك فيما أثبتُّه، فإن فتح الله عليك بشيء شذّ عني علمُه فالله يفتح ما يشاء. وأنا أستغفر الله من قولي هذا كله على أنني لم أقله إلا خوفا من أنني أستغفره عن الصمت، فلا أكون طامعا بذلك منه سبحانه. والسلام على من اتبع الهدى.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾

ذٰلك، مبتدأ يشير به إلى ما تقدمه. وقال: **ذٰلك**، ولم يقل: "هذا" لأنه أراد الم وبقيةَ حروف الهجاء، ومثله[3] ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾[4] كما نبين. **الكتٰب**، خبر. **لا ريب فيه**، لا شك فيه. ثم تلا ذلك الوصف بقوله: **هدًى للمتقين**، دون غيرهم. ثم ذكر مِن وصفهم ما لا بد لهم منه فقال: **الذين يؤمنون بالغيب**، ما غاب علمه عن العباد، وهو عام يدخل فيه الخاص. **ويقيمون الصلوٰة**، من قولك: "قام الحق"، إذا ظهر وثبت،

---

[1] ش ك – هي.

[2] ر ك: فعاوذ.

[3] ش – الهجاء ومثله.

[4] سورة النمل، ١/٢٧.

ومثله ﴿وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْ﴾.[١] ويقال أيضا: قام السوق، والحرب قائمة على ساق، إشارةً إلى قيام المحاربين بها. والصلاة الدعاء، وقد أوضحنا هذه اللفظة في سورة الأحزاب.[٢]

واعلم أن بعض الألفاظ يُفهم به المقصود الدال على العمل به فلا حاجة إلى إثبات ما يلزم من اشتقاقه وتصريف لغته إذا لم يكن إهمال ذلك يوجب خللا في المعنى، فالقصد بيان ما لا بد من العمل به. فالوقت أضيق والعمر أقصر، وعجائب القرآن أكثر. ولك أن تَفهم[٣] بما قلتُه ما لم أَقُلْهُ، ولكن بلازم لفظ الكتاب العزيز تصريفا مع مطابقة اللفظ للمعنى على ما يقتضيه سياق / الكلام وسباقه. ولا تظنَّ أن كل ما [١٥و]
قلته هو كل ما علمته، ولا أن كل ما علمته هو كل ما جاء في كتاب الله تعالى. وقوله: **ومما رزقنٰهم ينفقون**، وصفٌ مشعر بالأمر بالإنفاق.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤﴾

والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما -وبما- أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾

أولٰئك علىٰ هدى من ربهم، في الدنيا، **وأولٰئك هم المفلحون**، في الأخرى. في زيادة هم، تخصيص؛ فإنك لو قلت: الإنسان ضاحك لا يمنع أن يكون غيره ضاحكا أيضا، وذلك بخلاف ما لو قلت: الإنسان هو الضاحك فهذا يفيد أن الضاحكية لا تحصل إلا له. والذين، الثانية عائدة على قوم بأعيانهم، هم المشار إليهم بالذين الأُولى، ودليله تكرار ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾.[٤] والجميع هناك عائد إلى واحد سبحانه. ولو قلنا: إنه قصد إثبات فريقين لعاد المدح على الأواخر دون الأوائل. وإنما كرر لفظة "أولٰئك" تفخيما لا تقسيما. وكذلك زادها الواو، فكما أنها في "أولٰئك" ليست للتقسيم، فكذلك هي في "والذين" لِيَتِمَّ نظم الكلام بين الموصوفين والوصف. فليس المقصود ههنا إثبات فريقين من المؤمنين بل إثبات أعلى رتبة من المؤمنين،

---

١ الآية ٢٠ من هذه السورة.

٢ انظر في ذلك تفسيرَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ (سورة الأحزاب، ٥٦/٣٣).

٣ ك: أن يفهم.

٤ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ۝ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/٧٨-٧٩).

ولهذا أتبعها بذكر أعلى رتبة من الكفار فقال: **إن الذين كفروا**، أي بعد إيمانٍ تقدم بمحمد صلى الله عليه وسلم، إذ الإنذار لهم منه لقوله: **سواء عليهم ءأنذرتهم**، أَلِفُ "أنذرتهم"، مِثلَها بيّنا في سورة يسٓ،[1] **أم لم تنذرهم لا** -يمكن أنهم- **يؤمنون**.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾

ثم ذكر تعليل ذلك فقال: ما عاقبهم به على كفرهم فهم كفروا [أولا] وهو عاقبهم بأن، **ختم الله علىٰ قلوبهم وعلىٰ سمعهم**.[2] كما أن الختم يمنع أن يخرج شيء من المختوم عليه وأن يدخل إليه شيء غيره، كذلك لا يخرج الكفر من قلوبهم ولا يدخل الإيمان إليها. **وعلىٰ أبصٰرهم غشٰوة**. وأنت تعلم أن الختم والغشاوة ههنا أمورٌ معنوية لا جسمانية، فافهم بذلك مثله. فذلك في الدنيا عقابهم، **ولهم**، أيضا في الدنيا والآخرة، **عذاب عظيم**، لأنه لم يخصصه. وهذا الكلام في حق من ختم على قلبه بكسبه ولا سبيل له إلى الإيمان. ومتى لم يكن الإضلال عقابا أمكن الإيمان. والختم ههنا دليل على أن هذا الكفر عقاب وأنه بعد إيمان، كقوله: ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ.[3] وهؤلاء ههنا كقوله: وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ، ثم قال: وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ.[4] وهذا فضيلة قوله على الأخيرة ههنا والقدرة موجودة على كل حال، لكن منعها مانع آخر، فافهم.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩﴾

ثم ذكر الصنف الآخر وهم المنافقون فقال: **ومن الناس من يقول ءامنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين**، بقلوبهم. **يخدعون الله والذين ءامنوا وما يخدعون إلا أنفسهم**، لأنها[5] أعمالهم تُرَدُّ عليهم، فهم يَخدعون وهم يُخدعون، فبقدر ما يبدو منهم يعود عليهم. **وما يشعرون**، أنهم إنما يخادعون أنفسهم. والشعور ابتداء العلم من وجه يَدِقُّ، ومنه الشعائر وهي المعابد[6] التي يَشعر القلب فيها بصورة القبول، ومنه الشِّعْر والشِّعْرَة: علم يحصل بطريق الحواس الخمس.

---

[1] انظر في ذلك تفسيرَ قوله تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ (سورة يسٓ، ١٠/٣٦).

[2] ش + وعلى أبصارهم.

[3] ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ (سورة المنافقون، ٣/٦٣).

[4] سورة الجاثية، ٢٣/٤٥.

[5] أي لأن أقوالهم.

[6] ك: المعايد.

﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾

فى قلوبهم مرض، والفاء في قوله: **فزادهم الله مرضا**، لولاها لجاز أن يكون ذلك دعاءً عليهم. وهذه الزيادة عقاب على ما تقدم منهم، فعاقبهم بوصفهم على وصفهم، فحصلت الزيادة. وهذه[1] زيادة متصلة لا تنقطع في الدنيا إلا إن تابوا، لأن هؤلاء تُمكنهم التوبة بخلاف مَن قبلهم. **ولهم عذاب أليم**، وبيّن الجميع[2] بقوله: **بما كانوا يكذبون**.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾

وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولٰكن لا يشعرون، في الدنيا.

مسألة. إن قيل: أي ذنب لمن لا يَشْعُر؟ الجواب[3] ذنبه هو الذي بدأ به من التكذيب حتى عوقب بالفساد الذي لا يشعر به. ومن لم يعتصم بحبل الكتاب فإنه لا يَشعر بفساد أحوال باطنه ولا بإفساده في ظاهره. وهذه الأوصاف جميعها لنوع من المنافقين، وهم قوم أظهروا الكفر وأسروا / النفاق، فهم منافقون -مع إظهار دينهم يقولون بأفواههم للمؤمنين: آمنا- سرا. [١٥ظ]

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤﴾

وإذا قيل لهم ءامنوا كما ءامن الناس، جهرا، **قالوا أنؤمن كما ءامن السفهاء، ألا إنهم هم السفهاء ولٰكن لا يعلمون**.

وإذا لقوا الذين ءامنوا قالوا ءامنا، معكم، أي بمحمد صلى الله عليه وسلم. وقوله أولا: وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا، بيّنه[4] بقوله: بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ،[5] وإن لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، فعرّفنا الله بقوله: وما هم بمؤمنين، أي وهم يكذّبون

---

١ ك: وهي.

٢ ش ك: الجمع.

٣ جميع النسخ: جواب، والمثبت من م.

٤ ك: بنية.

٥ الآية ٨ من هذه السورة.

محمدا صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال بعده بآيتين: بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ.[1] **وإذا خَلَوْا إلى،** أي أسروا ولَقُوا[2] إلى[3] شيٰطينهم، والمعنى خلوا[4] من حضور المؤمنين، **قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون،** بالمؤمنين.

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١٥﴾

الله يستهزئ بهم، جزاءُ استهزائهم كما يظهر لهم في الدنيا خلافٌ لما أعد لهم في الأخرى. **ويمدّهم،** "مد" في الشر[5] و"أمد" في الخير والشر،[6] وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا،[7] وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ،[8] ولهذا قال: نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ،[9] فافهم. لأنه بين أنه خير في الظاهر وهو فتنة لهم. ويقال: "أمد" في الخير والشر، كقوله: كُلًّا نُّمِدُّ.[10] **فى طغيٰنهم يعمهون،** العَمَى للعين والقلب، والعَمَهُ يختص بعَمَى القلب دون العين.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ۝١٦﴾

أولٰئك الذين اشتروا الضلٰلة بالهدىٰ. إن قيل: كيف وما زالوا ضالّين؟ الجواب أنهم عرفوا الهدى، ثم آثروا عليه ما هم عليه من الضلال إيثارَ مَن رضي به كرضا المشتري. **فما ربحت تجٰرتهم،** لأنه من استبدل[11] سِلْعة رَدِئة من جيدة فما ربحت تجارته. وقوله: **وما كانوا مهتدين،** أخَر آخر الآية لأجل الوزان، وتقديره أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى وما كانوا مهتدين قبل ذلك، لأن الكلام مشعر بأن المشتري إنما يشتري بما يملكه، فنفى ذلك بما قاله. فافهمه جيدا كما قدمنا.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝١٧ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾

مثلهم كمثل، أي كصفة الذى استوقد نارا، ليستضيء[12] بها، **فلما أضاءت ما حوله،** وأعرض عنها ذهب الله بنوره الذي يبصر به، كذلك، **ذهب الله بنورهم.** وهذا كلام

---

[1] الآية ١٠ من هذه السورة.
[2] ر: أي أسروا أو ألقوا.
[3] ر – إلى، صح هـ.
[4] ش ك + إلى.
[5] ر – مد في الشر، صح هـ.
[6] ر – والشر، صح هـ.
[7] سورة مريم، ٧٩/١٩.
[8] سورة الطور، ٢٢/٥٢.
[9] ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ (سورة المؤمنون، ٥٥/٢٣).
[10] ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (سورة الإسراء، ٢٠/١٧).
[11] ش – من استبدل، صح هـ.
[12] ش ك: يستضيء.

يشير به إلى أهل الكتاب، ولم يقل: بنور نارهم، فالنار التي كانوا يستوقدونها هي[١] انتظارُهم مجيء الرسول بالكتاب، لأنه نور يضيء لهم ويُخرجهم من الظُّلمات، فشبهه في المثل بنور النار في الظُّلَم الظاهرة. **فلما أضاءت ما حوله**، أي لما جاءهم الكتاب فآمن مَن حولهم وكفروا هم به **ذهب الله بنورهم**، الذي به يبصرون عقابا لهم؛ فهم كما يقال في المثل: كان ينتظر الصبح فلما طلع الصبح عَمِيَ. والدليل عليه قوله بعد ذلك: **وتَرَكَهم فى ظلمٰت**. الظلمة مانعة البصر، والظلم مشتق من الظلمة، وهو[٢] المنع، لأن الظالم مانع الحق والواجب، فالأصل واحد في المعنى مشارك في اللفظ. والحواسّ نِعم الله تعالى، وإذا لم يستعملها صاحبها فيما يحق استعمالها فيه فهو بمنزلة عادمها، فهو ظالم لنفسه، فهو في زمرة من قيل في حقهم: **لا يبصرون**، والأبصار موجودة، بل لا يبصرون الحق.

صُمٌّ بكم عمى فهم لا يرجعون، عما هم عليه؛ وهذا إخبار بصورة حالهم، ولا يلزم منه الختم والطبع، ولهذا لم يقل: "صما"[٣] بالنصب على الحال. واعلم أن الأُطْرُوش[٤] هو الذي لا يسمع إلا بالصوت القوي، والأصمَّ هو الذي لا يسمع بالصوت القوي[٥] ولكن يفهم بالإشارة ولا يكون هذا إلا أخرسَ في أكثر الأمر، فإذا كان هذا حاله وهو أعمى فهو كالحجر. فأخبر الله تعالى أنهم لا يسمعون بآذانهم، ولا يفقهون بقلوبهم، ولا يبصرون بعيونهم[٦] معانيَ كلام الله تعالى وعجائبَه ومعجزاتِه مع بقاء الجارحة.

واعلم أن المَثَل في اللغة كلمة تقال[٧] على معنيين: فالمثل ما يضرب به من الأمثال، والمثل أيضا الصفة وهو المراد ههنا، فقال الله تعالى: صفتهم مثل صفة الذي استوقد.[٨]

١ ك : في.

٢ ر ش: فهو.

٣ ش: ختما.

٤ ش ك: الطروش. | الطَّرَش: هو نقصان السمع وقد يطلق على آفاته، قد تكون بعدم التجويف الكائن في داخل الأذن المشتمل على الهواء الراكد الذي به يسمع الصوت بتموجه وتسمى صَمَما. وقد تكون بسبب مبطل للقوة السامعة مع سلامة العضو وتسمى وَقْرا. وقد تكون بسبب مُنْقِص لها وتسمى طَرَشًا مثل أن يسمع من القريب لا من البعيد. وقد يطلق الصمم على القسمين الآخرين، وقد يراد بالطرش مطلق آفة السمع سواء كان لفساد الآلة أو لغيره وسواء كان بطلانا أو نقصانا (كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، «الطرش»). وانظر أيضا: لسان العرب، «طرش».

٥ ر ش - والأصم هو الذي لا يسمع بالصوت القوي، صح هـ.

٦ ر: بأعينهم؛ ك: بعيوبهم. | يقول الله تعالى في آية أخرى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (سورة الأعراف، ١٧٩/٧).

٧ ك: يقال.

٨ ر - واعلم أن المثل في اللغة كلمة تقال على معنيين... فقال الله تعالى صفتهم مثل صفة الذي استوقد، صح هـ.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

أو كَصَيّب من السماء، وهو بوزن سيّد وليّن، وتقديره أو / كمثل[1] أصحاب صيّب، [١٦و]
أي قوم في صيب، وهو السحاب ذو الصَّوْب، والصوب نزول المطر، [مِن] صاب أي نزل، وصاب السهم إذا قصد قصد استواءٍ، والصيّب قاصدٌ قصْدَ استواء في حدوره.[2] وهذا الصيب فيه **ظلمٰت**، أعني بعضها فوق بعض، ولهذا لم يقل: ظلمة، **ورعد وبرق. يجعلون أصٰبعهم فى ءاذانهم من الصوٰعق حذر الموت**، إشارةٌ إلى صواعقَ تميت. **والله محيط بالكٰفرين**، أي عذابه[3] محيط فلا مخرج لهم منه.

﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

يكاد البرق يخطف،[4] قرئت[5] بكسر الطاء[6] لأنه متعدٍ، وأصله خطف بفتح الطاء يخطف بكسرها، وأما عكسه في الإعراب فهو لازم. والأول أولى بالمراد ههنا، والله أعلم.

فالمثل الأول يدل على فقد نور الأبصار مع وجود النور الذي جاءهم من خارج فلا ينتفعون به. والمَثَل الثاني يدل على فقد النور الخارج كمن هو في ظلمات مع وجود نور الأبصار فلا ينتفعون به. وأولئك مثّلهم بقوم ذهب الله بنورهم الذي به يُبصرون لا بنور نارهم. يدلّك قوله في الأول إخبارا عنهم بما هم متصفون به: صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ،[7] وفي الثاني قوله: **يَخْطَف أبصٰرهم**، وذلك يدل على إبصار.

كلما أضاء لهم مشوا فيه، أي بالإبصار. **وإذا أظلم عليهم قاموا**، بمعنى أقاموا وثبتوا. ثم يزيدك بيانا قوله: **ولو شاء الله**، أي لو شاء إجبارهم على الكفر، **لذهب بسمعهم وأبصٰرهم**،

---

١ جميع النسخ: مثل صفة، والمثبت من م.

٢ ر - في حدوره.

٣ جميع النسخ: عذابهم.

٤ الخطفُ الأخذُ في سرعة واستلاب (لسان العرب، «خطف»).

٥ ك + يخطف.

٦ قال ابن مجاهد: وقد روي عن مجاهد والحسن: يخطف، ولم يبلغنا أن أحدا قرأ خطف بكسر الطاء فيقرأ هذا الحرف يخطف، وأحسب أن هذا غلط ممن رواه (المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات لابن جني، ١٤٣/١؛ والتبيان في إعراب القرآن للعكبري، ٣٦/١). راجع أيضا: إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس، ١٩٥/١؛ والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ٨٩/١.

٧ الآية ١٨ من هذه السورة.

فهو دليل ظاهر على وجود الإبصار في ظلمات. والأول دل على عَمىً [وإن] أضاءت النار ما حولهم. فكأنه قال: صفتهم مثل صفة مَن ذهب بَصَرُه مع وجود النور، أو مثلُ صفة من ذهب نوره مع وجود البصر، فعلى كلا القسمين لا يُبصر. وإذا فهمت هذا لم يبق إشكال في قوله: أَوْ كَصَيِّبٍ،[١] لأن الغاية الحاصلة من المَثَلين شيء واحد وهو عدم الإبصار. فهذا جميعه إخبار عن حالهم مع القدرة والتمكين، ولولا ذلك لسقط الاحتجاج. ولهذا تمام الكلام بعد ذكر المشيئة: **إن الله على كل شيء قدير.**

والإشارة بالصيب إلى القرآن الذي نزل من السماء، فأحيا الله به قلوب المؤمنين كما أحيا الأرض بعد موتها بالصيب. وما جاء فيه من المتشابه والغامض والشكوك كالظلمات على الكفار كما قال تعالى: وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى،[٢] وما فيه من الزجر والوعيد بالرعد والصواعق، وما فيه من الأدلة الظاهرة والبراهين الباهرة كالبرق الذي لشدة ظهوره وقوة نوره يكاد أن يخطف[٣] الأبصار.

وقوله: **كلما أضاء لهم**، ما يهديهم فهو كلمح[٤] البرق سرعةً، ثم يعودون إلى ظلمات الكفر.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾

ولما لم يكونوا مجبَرين على الكفر بل قد مُكِّنوا من العبادة قال بعده: **يٰأيها الناس اعبدوا ربكم**، نداء عام بأمر عام[٥] يفهم منه كل صورة هي عبادة في الحركات والسكنات، كلٌّ بحسب استطاعته. ولما ذكر الرب سبحانه وَصَفَه بما لا سبيل إلى جحوده فقال: **الذى خلقكم والذين من قبلكم [لعلكم تتقون]**، المعنى قائلين: لعل الله يَقِينا نارَ جهنم، وغيّر للوِزان فقال: **لعلكم تتقون**. وفيه من الاحتمال ما معناه اعبدوا ربكم بما استعبدكم به، فإذا استمريتم[٦] على العبادة صرتم أتقياء. فهو تنبيه على فضيلة من فضائل العبادة التي هي بالأفعال، نحو الصلاة، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر،[٧] وتوجب أثرا في النفس هو التقوى لله.

١ الآية ١٩ من هذه السورة.
٢ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥٓ... قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ (سورة فصلت، ٤١/٤٤).
٣ ر: أن يختطف.
٤ ر ش: كلمحة.
٥ ش - بأمر عام، صح هـ.
٦ استمريم، أي استمررتم.
٧ يشير المؤلف رحمه الله إلى قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٤٥)

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

الذى جعل لكم الأرض فرٰشا والسماء بناء وأنزل من السماء، العلوّ، **ماء فأخرج به** من، أنواع، **الثمرٰت**، ما أخرجه، **رزقا لكم. فلا تجعلوا لله أندادا**، واحدها نِدّ بالكسر وهو المِثلُ، **وأنتم تعلمون**، أن الأنداد لم يَجعلوا لكم شيئا مما جعله لكم ربُّكم.

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

[١٦ظ] / **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا علىٰ عبدنا فأتوا بسورة من** -عَبْدٍ- **مثله**، ولو حذف من لكانت الإشارة إلى القرآن كما سيأتي في يونسَ[١] وهودٍ،[٢] يدلك على ذلك ما تقدم في الموضعين. **وادعوا شهداءكم**، كقوله: هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ.[٣] وليس كقوله: وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم،[٤] فذلك يدل على الدعاء إلى الإيمان بالمدعو إليه، وهذا إلى الشهادة بأن ما أتى به من هو بزَعْمهم مثلَ عبدنا هو كما أنزلنا على عبدنا.[٥] وقوله: **من دون الله**، أي من سوى الله، والمراد كل مخلوق. **إن كنتم صٰدقين**، في دعواكم، المقصود أنه ما أحدَ يشهد لكم. فاعلم أنهم تحققوا أنه لا أحد[٦] يشهد أن عبدا يأتي بمثل ما أتى به عبدُ الله هذا محمدٌ صلى الله عليه وسلم، ولا بسورة مِن عبدٍ مثلِه، ولا بسورة تُفترَى فيستجيبَ لمن يدعو بها أحدٌ مِن كل مَن هو سوى الله تعالى.

وأما قوله في يونسَ: "بِسُورَةٍ" وفي هودٍ: "بِعَشْرِ سُوَرٍ"، فاعلم أنه تعالى فصّل بما قاله تفصيلا يدل على الإعجاز في الموضعين. أما في سورة يونس فإنه نفى عنهم القدرة على الإتيان بسورة مثل القرآن. ومتى عجزوا عن الإتيان بالقليل فهم عن الإتيان بالكثير أعجز.

---

١ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (سورة يونس، ٣٨/١٠).

٢ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (سورة هود، ١٣/١١).

٣ ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ (سورة الأنعام، ١٥٠/٦).

٤ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (سورة يونس، ٣٨/١٠). وانظر أيضا: سورة هود، ١٣/١١.

٥ ش - كما هو أنزلنا على عبدنا، صح هـ.

٦ ش - يشهد لكم فاعلم أنهم تحققوا أنه لا أحد، صح هـ.

وأما في هود فإنه نفى أن يستجيب لهم أحد ولو أتوا بعشر سور. وعيّن الافتراء فقال: "مُفۡتَرَيَٰتٖ" لاحتمال أنهم يفترون سُوَرا ويدّعون أنها مثل القرآن بزعمهم. فعرّفهم أنهم لو افتروا ذلك لا يستجيب لهم أحدٌ فيؤمن بما يفترونه. فالمقصود في هود أنه عجّزهم بما لا يسعهم تكذيبُه؛ إذ أخبرهم أنهم[١] مع كونهم لا يمكنهم أن يأتوا بسورة واحدة مثل هذا القرآن لو أتوا بعشر سور يزعمون أنها مثله ودعوا الناس لا يؤمن أحد بما جاءوا به، وجعل ذلك حجة له عليهم يُلزمهم إن فعلوه ولا يستجاب لهم أن يُسلموا، فلهذا قال بعده في هود: فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ،[٢] أي بعد ذلك إن افتريتم ودعوتم ولا يستجاب لكم. وهذا مِن أبلغ الحِجاج المُسكِت والتنبيهِ لمن أراد الإسلام. وأما في يونس فإنه لم يَحُجَّهم بذلك بل عرّفهم عجزهم عن الإتيان بسورةٍ مثله، ولهذا قال في يونس بعد ذلك: كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ،[٣] ومن لم يعلم الشيء كيف يقدر أن يأتي بمثله، فافهم ذلك. وكرّر النصوصَ متأنيا يتضحْ إن شاء الله تعالى.

وأما قوله في البقرة: **من مثله**، فليست من زائدة بل الإشارةُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم لقوله قبلها: **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا علىٰ عبدنا**، فعرّفنا أنه لا أحد يكون مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كتابَ مثل كتاب الله.

وقوله: **فإن لم تفعلوا**، أي الآن؛ والعمل أخص من الفعل، فكل عامل فاعل ولا ينعكس. وقوله: **ولن تفعلوا**، أي في المستقبل أبدا، وهو إخبار لهم وللمؤمنين بالغيب. والفرق بين لفظة "لا" و"لن"، أن "لا" تنفي، و"لن" تمنع فلها إطلاق المنع على الاستمرار، كقوله: لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ.[٤] وأما لفظة "لا" فإنها تنفي في الحالة الراهنة، ولهذا لما أراد بها استمرار النفي قرنها بلفظة أخرى فقال: وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدًا،[٥] فافهم ذلك. ثم قال ههنا ما معناه: وإذا كان كذلك، **فاتقوا النار التى وقودها**، بفتح الواو وهو اسم لما يوقَد، فهذه، **وقودها الناس والحجارة**، الأصنام التي نَحَتوها، لقوله: قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ،[٦] فقرنهم بآلهتهم الحجارة مُحماةً في نار جهنم مبالغةً في إيلامهم.

---

١ ك – أنهم.

٢ سورة هود، ١٤/١١.

٣ سورة يونس، ٣٩/١٠.

٤ ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ (سورة هود، ٣٦/١١).

٥ ﴿وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ (سورة الجمعة، ٧/٦٢).

٦ .﴿قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾ (سورة الصافات، ٩٥/٣٧). هو من جملة أقوال إبراهيم عليه السلام لقومه.

وقوله: أعدت، أي لا تحتاج[١] إلى إشعال[٢] ولا تنقطع[٣] أو تنطفئ أو تَخمُد فتحتاج إلى مُعِدٍّ يُعدّها في وقت دون وقت بل هي في كل وقت، أعدت للكٰفرين.

[١٧و] وفي قوله: وإن / كنتم في ريب... فأتوا بسورة من مثله، دليل على بطلان دعوى مَن حرّم النظر والحجاج والبحث عن حقيقة ما يجب وأمر بالوقوف مع محض التقليد مع القدرة على التحقيق. فإنه تعالى دلهم بعقولهم على أنهم إن لم يقدروا على مثل ذلك علموا بعقولهم أنه كلام الله تعالى، وأن هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعجزوا عن ذلك مع أنهم أرباب اللغة والفصاحة، وغيرهم ينقل عنهم. ولقد كانوا يجتهدون ويبذلون أرواحهم وأموالهم في الرد عليه أو تبكيته فما وجدوا، ولو وجدوا لقالوا، ولو قالوا لسُطر أو نُقل ولو نقله اليهود أو غيرهم. وهذا هو معنى الاحتجاج بالعقول، فيجب أن يكون صحيحا من كل أحد. فاعلم ذلك.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾

وبشر الذين ءامنوا، البِشارة مأخوذة من البِشْرَة، وهي ظاهر الجلد لتغيرها بأول خبر. ولأجل ذلك لفظ البشارة يدل على الخير وضده، لأن كلا[٤] القسمين يغير البشرة خصوصا أول مرة بقدر المسموع. وعملوا الصٰلحٰت أن لهم جنّٰت، ما يَجُنّ ويستر. وجمعُ الجنات في القرآن[٥] لتنوعها ولسعة الرحمة بسعتها. ولم يجمع النار لأنها جنس واحد ولشدة الغضب بضيقها. ولم يجمع الكأس[٦] لأن الكأس عبارة عما في القدح إذا كان فيه، وهو أيضا جنس واحد. وقوله: تجرى من تحتها الأنهٰر، أي من تحت أشجارها التي هي ساترة من الحر وغيره.

كلما رُزقوا منها، أي من الجنات، من ثمرة رزقا، من لتبيين الجنس، أي من أيّ نوع من ثمر على اختلافه. واختلافه بحسب ما تشتهي الأنفس على اختلافها واختلافِ

---

١ ش ك: لا يحتاج.
٢ ر: إلى اشتعال.
٣ ش: ولا ينقطع.
٤ ر ك: لأن كلي.
٥ ر – في القرآن، صح هـ.
٦ انظر مثلا: سورة الصافات، ٤٥/٣٧؛ وسورة الطور، ٢٣/٥٢؛ وسورة الواقعة، ١٨/٥٦؛ وسورة الإنسان، ٥/٧٦، ١٧.

شهواتها في الآباد، لقوله: وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ.[١] قالوا هٰذا الذى رُزقنا من قبلُ، إشارة إلى أن الذي يُرزقونه يكون في غاية الحسن واللّذاذة، والذي يرزقونه بعده لا يكون دونه وما فوقه شيء في الوصف المخصوص به، إذ هو غاية في فنه، فلزم أن يكون الثاني كالأول[٢] بعينه، ويدلك قوله: وأُتوا به متشٰبها ولهم فيها أزوٰج مطهرة وهم فيها خٰلدون.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

إن الله لا يستحيِۦ أن يضرب مثلا مّا، وهذا كما تقول: أعطني كتابا مّا. ولو قلت: أعطني كتابا لجاز لك أن تقول: ما أردت هذا الكتاب؟ وليس كذلك إذا قلت: كتابا مّا. واعلم أن الله تعالى خاطبنا بالأمثال ليدلنا على الحاضر عنده بالغائب عندنا. فالأسماء متفقة[٣] للدلالة والمعاني مختلفة. ولولا ذلك لما بقي في النار شيء من شجرة الزقوم والسلاسل وغير ذلك بل كانت تأكله النار، وما في الجنة من فُرُشها وأنهارها كذلك، فهو مَثَلٌ فقط. ونصب، بعوضةً، لفقدان الخافض، وتقديره ببعوضة فما فوقها، يعني في الصغر؛ كما تقول: فلان حقير دنيّ الهمة، فيقول من يسمع: هو فوق ذلك يعني فوق ما ذكرت من الذم، والله تعالى قد ذكر الذرة وهي أصغر من البعوضة. وسميت بعوضة لأنها أصغر البَقّ،[٤] كأنها بعضُ بَقّة. وكونه، لا يستحيِۦ أن يضرب مثلا مّا، ببعوضة وأصغرَ، فأكبرُ من ذلك لازم ولا ينعكس، وقد ذكر الله تعالى ما هو أصغر من البعوضة في مَثَل، وهو قوله تعالى: وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ.[٥]

فأما الذين ءامنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم، فلا يسألون لما أُوتُوه من العلم بالمسئول عنه. وأما الذين كفروا، جهلوا فسألوا، فيقولون ماذا، "ما" استفهام، و"ذا" بمعنى هذا، أي ماذا الذي، أراد الله بهٰذا مثلا، أي فضربه مثلا. والإشارة إلى جميع الأمثال

١ سورة الزخرف، ٧١/٤٣.
٢ ر: الثاني كأنه الأول.
٣ ك: مشتقة.
٤ البق: عظام البعوضة، الواحدة البقة (تهذيب اللغة للأزهري، «بق/بقق»).
٥ سورة الحج، ٧٣/٢٢.

لقوله أولا: **مثلا مّا**. ثم قال تعالى مجيبا لسؤالهم: **يُضل به**، يحتمل أنها باء السبب، أي بسبب التكذيب به أضلهم، وهو نظير قوله: فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ،[١] نسب ذلك إلى السورة لما كفروا بها، والفعل لهم لا لها. فهو تعالى، **يُضل به كثيرا ويهدى به**
[١٧ظ] **كثيرا**. ثم بين / من يُضل وأوضح بالنفي والاستثناء فقال: **وما يضل به إلا الفٰسقين، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثٰقه**، أي بعد ما أوثق عهده معهم. وفيه غاية الذم بهذه العبارة، لأن لفظة "مِنْ" تدل على ابتداء الغاية، فلولاها لاحتمل أنهم ينقضون بعد مدة. **ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل**، أفهمه مطلقا. **ويفسدون فى الأرض أولٰئك هم الخٰسرون**. إذا وقفت عند هذا الكلام[٢] انحلّ لك أكثر المشكلات في هذا المعنى.

[الهدى والإضلال]

فقد علمت في هذا الموضع ومثلِه أن الإضلال والهدى من الله تعالى، وقد علمت لمن يُضل وأنه لا يكون الإضلال منه سبحانه أولا، ولا يكون إلا عقابا، كقوله[٣] تعالى: وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ، أي بعد الإنذار، فإن لم يؤمنوا كان عقابهم هو أن يبقيهم على حالهم كقوله في تمام الآية: وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ،[٤] أي نجبرهم[٥] على ما هو منهم. فالعالِم نظر إلى الإضلال بعد الهدى أول مرة فنسب الإضلال إلى الله تعالى وهو صحيح، فسمع ذلك الجاهل فغلط. ثم سمع خصمُه -ومواضعُ من الكتاب العزيز تصدّقه- فسلك في أول مرةٍ هذا المسلكَ. وليس كذلك، إذ الإضلال بعد الهدى لا يكون إلا عقابا، إذ العقاب يَعقُب الذنب. وهذا موضع لا يحتاج إلى زيادة ظهور لشدة ظهوره، فلا يخفى إلا على من شاء الله أن يُضله عنه لكونه لم يؤمن به أول مرة. وها أنا أَزيدك برهانا تقطع به الحجة لك [أو] عليك. فالمقصود أن تعلم أنت الحق، فلا ينازعْك فيه منك منازع. فاسمع أن الله جل ثناؤه قال وهو أصدق القائلين: إنه لا يُضل إلا الفاسق، أي عقابا له على ما جاء به من الفسق، ونقضِ عهد الله، والإفسادِ في الأرض كما قال تعالى.[٦] ولا شك أن الفاسق الذي فعل مثل هذه الأفعال لم يفعلها عن هدى[٧] بل عن جهل وضلال.

---

١ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ (سورة التوبة، ١٢٥/٩).

٢ أي في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗا﴾

٣ ك: لقوله.

٤ سورة الأنعام، ١١٠/٦.

٥ ش: أي يجبرهم.

٦ أي معنى قوله تعالى: ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ في دوام الآية.

٧ ش: على هدى.

فإن قلت: إن الضلال الذي تقدم على الفسق لم يكن من الفاسق بل من الله تعالى، أضله به لفسقٍ آخرَ تقدم على الضلال لزمك أن الفسق الآخر تقدمه ضلال آخر،[١] والضلال أيضا تقدمه فسق، والفسق أيضًا تقدّمه[٢] ضلال إلى ما لا نهاية له، وهذا محال. فإن قلت: أضله الله بغير فسق فقد خالفتَ كلام الله تعالى ونسبته إلى أنه فَعَلَ ضِدَّ ما قال، إذ[٣] اعتقدت أنه أضل من لم يكن فاسقا، وقد قال: وما يضل به إلا الفٰسقين، فثبت أنه لا يعاقب بالضلال لغير فاسق فلا يكون إضلاله إلا للفاسقين. والذي اشتبه على الناس هو أنهم لم يفرقوا بين قدرة قادرٍ مقدورٍ وقدرة قادرٍ غير مقدور. فلا تجادلْ جاهلا قصدُه الغلبة لا الحق، بل وإذا[٤] رأيت الذين يخوضون في آياتنا بغير علم، أي فهم يخوضون بجهل فأعرض عنهم.[٥] فقد علمت أن الإنسان إنما يَضل أولا من نفسه، فإذا ضل فَسَق فظلم نفسه بفسقه، فعُرض عليه الهدى فاستحب العَمَى، فأضله الله عقابا له على ظلمه لنفسه، ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛[٦] ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.[٧] فإن قلت كيف يُضله وهو ضال؟ قلنا[٨] يبقيه على حالته ويسدّ عليه باب الهدى فيضله عن رؤية ضلاله، كقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾؛[٩] ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾،[١٠] وأمثال ذلك كثيرة.[١١] وهذا حَدُّ الجهل وهو أن يجهل أنه يجهل، وأبلغ العقاب أن يعاقَب العبد بما يستحق عليه العقابَ.

وهنا مسائل قد بينا كثيرا منها في مواضعه اللائقة به. ومنها قول القائل: علم الله لا يتغير، وصدور الإيمان ممن قال الله في حقه: "لا يؤمن" محالٌ، والتكليف بالأمر له بالإيمان أمر بالمحال. الجواب أن الله تعالى خلق الإنسان على هيئة يمكّنه معا فِعل الشيء وضدَّه من الإيمان والكفر، ولم يجبره أولا على أحدهما. لكنه علم من بعض الناس أنه لا يفعل ما يمكنه من الإيمان، فعلم الله لا يتغير. والظالم هو الذي لم يفعل مع التمكين.

---

١ ش – على الضلال لزمك أن الفسق الآخر تقدمه ضلال آخر، صح هـ.

٢ جميع النسخ – أيضًا تقدّمه، والمثبت من م.

٣ ش: إذا.

٤ ش: بل إذا.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ (سورة الأنعام، ٦٨/٦).

٦ سورة إبراهيم، ٢٧/١٤.

٧ سورة آل عمران، ١١٧/٣.

٨ ر – قلنا، صح هـ.

٩ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (سورة الأنعام، ١١٠/٦).

١٠ ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٣٠/٧)؛ و﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (سورة الزخرف، ٣٧/٤٣).

١١ جميع النسخ: كثير. | انظر مثلا: سورة الأعراف، ١٨٦/٧؛ وسورة يونس، ١١/١٠؛ وسورة الكهف، ١٠٤/١٨.

[١٨و] وأما تكليفه / فذلك لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ.[١] ومن قال: أنا أقول بالكسب وهو بين الجبر والقدر. قلنا: إن قلت بالاستقلال بالكسب فهو القدر، وإن لم تقل فهو الجبر، وقد أوضحنا ذلك في مواضعه. فحاشا الله أن يُضل غير فاسق أو أن يفعل ضدَّ ما قال، وهو غني عن عذاب العباد، مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ.[٢] وجلّ أن يَجْبُرنا على ضد ما يريده بنا، يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ.[٣] وحَسْبُ الجاهِل جهْلُه وكفى به أنّ أفعالَه[٤] وأقواله تكذّب دعواه، وأفعال جميع البشر وأقوالهم وأقوال الرسل وكلام الله في كتبه وما أجد ذلك إلا تنبيها للمؤمن على قوله تعالى: وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ.[٥]

واعلم أن قوله تعالى: **ينقضون عهد الله من بعد ميثٰقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل**، هو كلام عام كقطع الرَّحِم وغير ذلك؛ وهو خاص باليهود، فإن الله تعالى عهد إليهم في التوراة أن يؤمنوا برسول يبعثه ويجعل كلامه في فيه،[٦] وذكر علائم محمد صلى الله عليه وسلم،[٧] فنقضوا هذا العهد وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل من حبل النبوة. والهاء في **ميثٰقه** عائدة على الله سبحانه كقوله تعالى: وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦ.[٨]

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: **كيف تكفرون بالله وكنتم أموٰتا فأحيٰكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون**. نبه على هذه بقوله: أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ،[٩] وتمامه، وقوله:

---

١ ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (سورة النساء، ١٦٥/٤).

٢ ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ (سورة النساء، ١٤٧/٤).

٣ الآية ١٨٥ من هذه السورة.

٤ ش ك: إذ أفعاله.

٥ سورة الرعد، ٣٣/١٣؛ وسورة الزمر، ٢٣/٣٩، ٣٦؛ وسورة المؤمن، ٣٣/٤٠.

٦ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «قال لي الرب: قد أحسنوا في ما تكلموا. أقيمُ لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه» (التّثنية ١٨/١٧-١٩).

٧ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (سورة الأعراف، ١٥٧/٧).

٨ ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ (سورة المائدة، ٧/٥).

٩ ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ (سورة القيامة، ٣٧/٧٥-٣٩)

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ،[١] قُدم الموت، فالموصوف بأنه ميت هو ما وُجد الموت فيه، وإيجاده ميّتا إماتة من الله تعالى له. وأَخَّر هناك الحياة[٢] ليعطف عليها الابتلاء. وقد ظن بعض المتأخرين أن قوله تعالى حاكيا عن الكفار وهم في النار، إذ قالوا: رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ،[٣] ظن أنه يلزم عنه موته بعد البعث، فأثبت البعث بالأجساد لكنه قال: إنها تموت بعده، ويكون الحشر بالأرواح، فيكون البعث على صورة الإعجاز، لِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ.[٤] وقال: فرقٌ بين قوله: وكنتم أموٰتا، وبين قوله: أَمَتَّنَا. فإن قوله:[٥] أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ، يدل على تقدم حياتين حصل بعد كل واحدة إماتة من الله سبحانه، ثم زعم أن الكفار يموتون موتتين، ولكن المؤمنين لا يموتون إلا موتة واحدة، لقوله: لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ،[٦] وأمثال ذلك. فلزمه أن المؤمنين لا يُبعَثون، وعارضه قوله تعالى: وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا.[٧] وقد أثبتُّ[٨] لك الحق من غير إطالة، وذلك بعد البحث وبذلِ الجهد، ولم أُثبت جميع ما قاله لئلا أحتاج إلى إثبات الأدلة على نقضه خوفَ التطويل، وفيما ذكرته كفاية.

فاعلم أن المراد بقوله تعالى: وكنتم أموٰتا، إشارة إلى موجود لا روح فيه. وليس مفهوم قوله: وكنتم أموٰتا،[٩] أنه كنتم عَدَما خصوصا. ونحن نجد حالةً كنا موجودين بها بغير حياة، وهي ما ذكره سبحانه بقوله: ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً.[١٠] فقبل نفخِ الروح في ذلك الشيء الذي لم يك من قبلُ شيئا مذكورا[١١] كنا أمواتا، فَجَعْلُه سبحانه إيانا كذلك أمواتا هو أحد الموتتين، لكنها موتة غير مَذُوقة، فهي أُولَى غير مذوقة، وذلك لكونها لم تتقدمها حياة. والثانية عبور الإنسان إلى القبر، وهي أيضا أول موتة مذوقة، وبينهما حياة أولى والبعث حياة ثانية لا موت بعدها

---

١ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (سورة الملك، ٢/٦٧).

٢ ك: الحيات.

٣ ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ (سورة المؤمن، ١١/٤٠).

٤ ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۞ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ﴾ (سورة النحل، ٣٨/١٦-٣٩).

٥ ش – أمتنا فإن قوله، صح هـ.

٦ سورة الدخان، ٥٦/٤٤.

٧ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ (سورة مريم، ١٥/١٩).

٨ ك: وقد أتيت.

٩ ش – إشارة إلى موجود لا روح فيه وليس مفهوم قوله وكنتم أمواتا، صح هـ.

١٠ سورة المؤمنون، ١٣/٢٣-١٤.

١١ يشير المؤلف رحمه الله إلى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ (سورة الإنسان، ١/٧٦).

للجسد المبعوث. فخرج حساب قوله: **وكنتم أموٰتا فأحيٰكم ثم يميتكم ثم يحييكم**، وحسابُ قوله: رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ. ولهذا قدم قوله: "أَمَتَّنَا" على قوله: "أَحۡيَيۡتَنَا" لسبق الموت وتأخير الحياة في الموتتين والحياتين، فافقه ذلك. ومما يؤكِّد ذلك قوله تعالى: ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ،[1] فقدم ذكر الموت على الحيوة لتقدمه، وهو بعينه معنى قوله تعالى: **وكنتم أموٰتا**.

[الموتة الأولى والموتة الثانية]

وأما الذي استلزم هذا الغالط من قوله: "أَمَتَّنَا" من أنه يدل على تقدم حياة، فاعلم أن الله تعالى قد سمى الأرض ميتة مجازا بقوله: وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا.[2] ويصح أن يقال: إنه سبحانه أماتها من قبل الإحياء، وذلك كونه جَعَلها ميتة لا روح فيها. وإلى هذا المعنى ذهب / من قال في قوله تعالى: **وكنتم أموٰتا**، أي: وكنتم ترابا، أخذه من قوله تعالى:[3] هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ.[4] فأول خِلْقَتِه سبحانه للشيء مَيْتا هو إماتةٌ له لا مَحالةَ، ولا[5] يلزم أن يكون قد تقدم الموتَ حياة، ومن ألزم ذلك لزمه أن يتقدم الحياة موتٌ، وهذا يلزم عنه التسلسل، وهو محال لمناقضة النص له والعقل أيضا. فلزم أن يتقدم الجميعَ أولا إما حياة لا موت قبلها -وهذا بخلاف الكتاب فلا يصح- أو موتٌ لا حياة قبله وهو الصحيح لقوله تعالى: **وكنتم أموٰتا**. ويُفهم[6] من ذلك أن ذلك الموت تقدمه عدم سابق، ثم أوجد الله أجساما أولها آدم من طين[7] ثم نُطَفًا[8] هي أموات، فإماتته لها أَنْ خلقها أمواتا فكانت كذلك ثم أحياها، وهي قوله تعالى: **وكنتم أموٰتا فأحيٰكم**. وأما ما استلزمه من قوله: **ثم إليه ترجعون**، فإن الأموات إذا قاموا لا يُتركون مكانهم بل يُرجعون إلى أمر الله أحياءَ، وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا.[9] فهذا الرجوع لا يدل على موت بعد البعث، وإنما يدل على رجوع إلى من إِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ،[10] [١٨ظ]

١ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ (سورة الملك، ٢/٦٧).

٢ سورة يس، ٣٣/٣٦.

٣ ش – وكنتم أمواتا أي وكنتم ترابا أخذه من قوله تعالى، صح هـ.

٤ ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ (سورة المؤمن، ٦٧/٤٠).

٥ ر – محالة ولا، صح هـ.

٦ ش: فيفهم.

٧ انظر: سورة الأنعام، ٢/٦؛ وسورة الأعراف، ١٢/٧؛ وسورة المؤمنون، ١٢/٢٣ وغير ذلك.

٨ انظر: سورة النحل، ٤/١٦؛ وسورة الكهف، ٣٧/١٨؛ وسورة الحج، ٥/٢٢ وغير ذلك.

٩ سورة مريم، ٩٥/١٩.

١٠ ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ (سورة هود، ١٢٣/١١).

فإذا قُضي بينهم بالحق[١] وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ،[٢] وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ.[٣]

وأما معارضته بقوله: لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ،[٤] قال: إن كانت الموتة الأولى هي العبورَ في القبور فما الموتة الثانية؟ وإن كانت الأولى مأخوذة من قوله: وكنتم أموٰتا، فقد ماتوا موتة ثانية،[٥] أعني المؤمنين. فالجواب أنه تعالى لم يقل عن المؤمنين: لا يموتون إلا الموتة الأولى بل لا يذوقون. فلهم في الدنيا موتتان، يذوقون إحداهما فهي الأُولى المَذُوقة، فاندفع الإشكال بقوله: لَا يَذُوقُونَ وبقوله: فِيهَا. أما قوله "يَذُوقُونَ" فهو يدل على تقدم حياة يصح معها ذوقٌ. ولما كانوا نُطَفا ومضغة لا روح فيها لا يصح أن يقال: إن لهم ذوقا، فهذه الموتة التي نموتها[٦] في الدنيا بعد الحياة فيها هي الأُولى بالذوق المتعقَّل بتقدم حياة فهي أَولى بالحقيقة، والتي قبلها أولى بالمجاز، فيصح أن يقال: إنها ثانية لقوله: [وكنتم] أموٰتا. فقد فهمت أن الأُولى هي أَولى[٧] بالمجاز والثانيةَ أولى بالحقيقة والذوق، وبذلك زال الإشكال. وأما قوله: فِيهَا، فهو إشارة إلى الجنة. وذلك أن أهل النار يذوقون الموت في النار أبدا لقوله تعالى: وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ،[٨] فإن كان الموت يأتيه ولا يذوقه فلا فائدة[٩] في ذلك التخويف، وإنما يدل على أنه يذوقه من كل مكان يأتيه منه.

ولما كان من المألوف المعروف عند الأحياء أن الميت لا يحس بالعذاب الجسماني عرّفنا الله تعالى أن هذا الشقي في النار مع كونه يأتيه الموت من كل مكان أنه يُحسّ ويذوق الموت إذا أتاه من مكان بعد مكان أولا وثانيا وثالثا وهلم جرا، فقال: وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ، أي كالأموات الذين لا يُحَسُّون في العرف والعادة عند الأحياء. ولولا أن هذا الشقي في النار غير ميت فيها لما أفاد قوله: وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ، لأن الموت إذا أتاه من مكان واحد عُدم أن يُحسّ به من مكانٍ غيره، ثم لم يكتف بذلك إلى أن قال: وَمِن وَرَآئِهِۦ، والضمير عائد على الموت، أي ومن وراء الموت عَذَابٌ غَلِيظٌ،

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٦٩، ٧٥).

٢ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٧١).

٣ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾ (سورة الزمر، ٧٣/٣٩).

٤ سورة الدخان، ٥٦/٤٤.

٥ ر – ثانية، صح هـ.

٦ ك: التي تموتها.

٧ ر ك – أولى.

٨ ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ۝ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/١٦-١٧).

٩ ر + فيه.

فهو أيضا يذوق العذاب الذي وراء الموت بلا شك، فكيف لا يذوق ما قبله وهو الموت. فهو ذائق للموت أبدا ذوقا مستمرا آتيا إليه من كل مكان،[1] أي شدته ومرارته، وما هو بميت حتى يستريح. ولما كان قد يَسبِق[2] إلى الفهم من قوله: وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ، أنه حي قال تعالى: ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ.[3] فافهم جيدا، وهو كما تصف عن فلانٍ المريضِ إذا أردت المبالغة في وصف ما يكابده من الشدة فتقول: لا هو ميت ولا هو حي، أي لا ميت مع الأموات ولا حيٌّ مع الأحياء. ويُحتمل -وهو الأولى- أن يكون معنى قوله: ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ، أي لا يموت فيبقى ميتا على الدوام، لأنه لا يذوق العذاب بعد موته في النار، ولا يحيى فيبقى حيا على الدوام، لأن ذلك من صفات أهل الجنة. بل المراد أن الموت لا يزال متكررا عليه ليذوق عذابه / أبدا من كل مكان. فلزم [١٩و] من ذلك[4] تكرُّر الحياة، فهو لا يموت موتا بلا حياة بعده، ولا يحيى حياة بلا موت بعدها. وهذا لا يناقض الحديث[5] عند من يفهم، وإنما يناقض لو كان الموت بلا حياة بعده. فتَأَنَّ لتفهم، والله أعلم.[6]

واعلم أنك إذا تأملت وجدت ذكر العذاب مع الموت في أكثر المواضع. فقوله: وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ،[7] إخبارٌ عن أهل النار. وجاء[8] بضده عن أهل الجنة: لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ، أي كما يذوق أهل النار فيها، وعرّفنا معنى آخر بقوله: إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ، والاستثناء منقطع، ثم قال: وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ،[9] فذكر الموت بعد العذاب لأهل النار، ونفى الموت مع العذاب عن أهل الجنة.

---

١ ك - مكان، صح هـ.

٢ ش: قد سبق؛ ر: قد يستبق.

٣ سورة الأعلى، ١٣/٨٧.

٤ ش ك - من ذلك، صح هـ.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الأحاديث النبوية المتعلقة بهذا الموضوع. منها ما روي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى عليه وسلم: «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار، ثم يذبح ثم ينادي مناد: يا أهل الجنة لا موت، يا أهل النار لا موتَ، فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم» (صحيح البخاري، الرقاق، ٥١). وانظر أيضا: صحيح مسلم، الجنة ٤٢. وعن أبي سعيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يَحْيَون. ولكنْ ناسٌ أصابتهم النار بذنوبهم (أو قال بخطاياهم) فأماتهم إماتةً حتى إذا كانوا فَحما أذن بالشفاعة، فجيء بهم ضَبائرَ ضَبائرَ فبُثُّوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فيَنْبُتُون نبات الحبَّة تكون في حَمِيل السيل» (صحيح مسلم، الإيمان ٣٠٦).

٦ ر - ويحتمل وهو الأولى أن يكون معنى قوله... لو كان الموت بلا حياة بعده فتأن لتفهم والله أعلم، صح هـ.

٧ ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (سورة إبراهيم، ١٧/١٤).

٨ ر ك: جاء.

٩ سورة الدخان، ٥٦/٤٤.

وأما ما عارضه بقوله في الصافات: أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ،[١] فإنه اعتقد أن هذا كلامُ المؤمن في الجنة للكافر في النار، وليس الأمر كذلك، وإنما هو[٢] كلام المؤمن لنفسه وللمؤمنين متعجبا فَرِحا حين رأى الكافرَ في النار يأتيه الموت من كل مكان ومن وراء الموت عذابٌ، قال لقومه المؤمنين مستعظما لما هم[٣] فيه من النعمة: أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ، ثم قال معترفا بالنعمة: إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ،[٤] أي ما نحن فيه وهو ما نرى[٥] الكفار في ضده. وهذا هو بعينه اعتراف بذلك الوعد الذي وعدهم في سورة الدخان، فقوله فيها: لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ، وقوله: وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ كقوله في الصافات: أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ، ثم قال: وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ، ولأجل هذا قال بعده ذلك المؤمن مادحا لحاله التي هو فيها: إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ، فهو أيضا كما وعده الله في سورة الدخان بقوله: فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ.[٦] وأما قوله تعالى: رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ، فذلك اعتراف، ولهذا نبه عليه بقوله بعده: فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا،[٧] لأن أكبر ذنوبهم كان جحودَ البعث.

وأنت إذا تأملت وجدت أن قوله في البقرة: **كيف تكفرون بالله**، هو مخاطبة للكفار، وقوله في سورة المؤمن: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ[٨] إخبار عن أهل النار، وهم الكفار بأعيانهم. فقوله: **وكنتم أموٰتا فأحيٰكم**، هو أمر قد وقع وهم معترفون به. وقوله: **ثم يميتكم ثم يحييكم**، وعد يحتمل وقوعه عندهم ويحتمل أن لا يقع، وهذا الاحتمال الثاني هم مصرّون عليه ومعتقدونه. فلما صار هؤلاء الكفار إلى البعث وهو الحياة الثانية ورجعوا إلى الله لقوله:[٩] **ثم إليه ترجعون**، ولم يجدوا مَصرِفا[١٠] عن النار اعترفوا بذنوبهم وأقروا بما كانوا يجحدونه من البعث وصدّقوا ما وعدهم الله به في سورة البقرة، فقالوا معترفين: ربّنا صدق وعدك، رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ،

---

١ سورة الصافات، ٣٧/٥٨-٥٩.

٢ ش ك - هو.

٣ ش ك - هم.

٤ سورة الصافات، ٣٧/٥٨-٦٠.

٥ ش: ما ترى.

٦ سورة الدخان، ٤٤/٥٧.

٧ سورة المؤمن، ٤٠/١١.

٨ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/١٠).

٩ ر - لقوله، صح هـ.

١٠ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (سورة الكهف، ١٨/٥٣).

أي كما وعدت، فهذا هو بعينه اعترافهم بما وعدهم به في سورة البقرة. والمؤمنون أيضا قد أماتهم اثنتين وأحياهم اثنتين. والموتة الواحدة لم يذقها المؤمن ولا الكافرُ كما قدمنا؛ فهي وإن كانت أُولى مجازا فليست أولى بالذوق حقيقةً، إذ ليست الأولى المذوقة بل الأولى المذوقةُ[1] هي الولوج في القبر. وقد فهمت العبارة بالذوق، ومما يزيدك بيانا أن في الأُولى يريد بها الموتة المذوقة التي ماتوها في الدار الأولى. إن بعض المؤمنين مات في الدنيا وبُعث، ثم مات أيضا، كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ،[2] وكأهل الكهف،[3] وكقوله: فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا،[4] وكقوله: ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ.[5] فهؤلاء كلهم إنما ماتوا في الدار الأولى، ولو ماتوا وبُعثوا فيها ألف مرة في الدنيا لا يقال: إنهم ماتوا[6] إلا الموتة الأولى، ولا تكون لهم حياة إلا الحياة الأولى ما داموا في الدنيا، لأن جنس تلك الموتة والحياة -وإن تكررت- واحد، وهي في دار واحدة.

فلو قلت: "ذقتُ حلاوة الشَّهْد"[7] لا يلزم أنك ذقته مرة واحدة فقط، وإن قصدت عدد المرّات عبّرت / بلفظٍ آخرَ[8] زائدٍ. فكأنه قال: لا يذوقون فيها الموت لكن الموتة الأولى ذاقوها في الدنيا، فالجميع موتة أُولى، أي في الدار الأولى. وإن لم تفهم كذلك وإلا لزم التناقض بهؤلاء[9] وبقوله:[10] إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ، لأنهم ماتوا بعد حياة في الدنيا مرتين، وكانوا من قبلُ أمواتا، وعاشوا في الدنيا حياتين، وبعد ذلك حياةُ البعث. فافهم جيدا وتأمل جميع ما بسطته، وبعد ذلك تزول المعارضات. [١٩ظ]

واعلم بعد جميع ما سمعته أن هذه الأجساد تُبعَث لقوله تعالى: وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ،[11] وقولِه: يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ،[12] وقولِه: قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ.[13]

---

١ ش – بل الأولى المذوقة، صح هـ.
٢ الآية ٢٥٩ من هذه السورة.
٣ انظر: سورة الكهف، ١٨/ ٩ وما بعدها.
٤ الآية ٧٣ من هذه السورة.
٥ الآية ٥٦ من هذه السورة.
٦ ش – في الدار الأولى ولو ماتوا وبعثوا فيها ألف مرة في الدنيا لا يقال إنهم ماتوا، صح هـ.
٧ الشهد: العسل ما دام لم يعصر من شمعه (تهذيب اللغة للأزهري، «شهد»؛ ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس، «شهد»).
٨ ر ش – آخر.
٩ ش: التناقض بها.
١٠ ر ك: من قوله.
١١ سورة الحج، ٢٢/٧.
١٢ سورة القمر، ٥٤/٧؛ وسورة المعارج، ٧٠/٤٣.
١٣ سورة يس، ٣٦/٧٨-٧٩.

فإن قيل: إن الله تعالى خاطب الناس على قدر عقولهم،[١] وضرب لهم الأمثال؛ وإنهم لما كانوا لا يعرفون النفس إلا بواسطة الجسد في أكثر الأمر خاطبهم بما يصل إلى أفهامهم من الأمثال، وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾.[٢]

قلنا: هذا وإن كان حسنا في العقل لا يجوز لنا أن نقف معه، ولا جناح علينا لو كان الأمر كما زعم القائل؛ لأن الله تعالى ضرب لنا الأمثال في الدنيا بالأجساد، أعني أمثال البعث في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾،[٣] وبقوله: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾،[٤] وتمامه، وبقوله: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾.[٥] وهذه النصوص تدل على قيام هذه الأجساد. وأيضا إن الله تعالى وجّه الخطاب بالأمر والنهي إلى الإنسان وأخبر أن الإنسان من سلالة من طين[٦] ومن نطفة،[٧] والمخلوق من نطفة هو هذا الجسد. غير أن ههنا نكتة يجب أن تفهمها، وهي أن البعث عبارة عن بعث الأرواح بالأجساد، لكنه[٨] لا يكون البعث إلى هذه الدار، فافهم ذلك، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، ثم قال: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.[٩] وأيضا إن هذه الدار دار الامتحان، فلو كانت الإعادة إليها لاحتاج الخلْقُ إلى معاد آخر يُستَوْفَون فيه ما استوجبوه ههنا. وأيضا إن هذه دار الفناء وتلك دار البقاء، وهذه دار الموت وتلك لهي الحيوان.[١٠] فلما لم يكن البعث إلى دار الفناء وأخبر تعالى أنهم لا يذوقون فيها الموت دل على دوام البقاء. وغير بعيد في عقلِ مَن يَصعُب عليه الإيمان بالغيب ولم يَرسَخ في قلبه تصديقُ المرسلين أن هذه الأجساد تُنقل عن الطبائع الأربع إلى حالة بسيطة تقتضي البقاء في عالم البقاء بإذن[١١] ربها. على أن القادر سبحانه يفعل ما شاء كما شاء. ولا يلزم أن تعلم كيف يفعل ولا أن لا يفعل[١٢] إلا كما تعلم، لأنه الفاعل المطلق، وهو قادر بذاته غير مطبوع من غيره.

---

١ راجع لذلك المعنى فيما روي عن ابن عباس: «أُمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم» (كنز العمال للهندي، ٢٤٢/١٠). وانظر أيضا: عمدة القاري للعيني، ٤٠٣/٣.

٢ سورة العنكبوت، ٤٣/٢٩.

٣ الآية ٧٣ من هذه السورة.

٤ ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (سورة الإسراء، ٥٠/١٧-٥١).

٥ الآية ٢٥٩ من هذه السورة.

٦ انظر مثلا: سورة الأنعام، ٢/٦؛ وسورة الأعراف، ١٢/٧؛ وسورة المؤمنون، ١٢/٢٣.

٧ انظر مثلا: سورة النحل، ٤/١٦؛ وسورة الكهف، ٣٧/١٨؛ وسورة الحج، ٥/٢٢.

٨ ش ك: ولكنه.

٩ سورة إبراهيم، ٤٨/١٤.

١٠ يشير المؤلف رحمه الله إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة العنكبوت، ٦٤/٢٩).

١١ ن: البقاء دون.

١٢ ن: ولا أن يفعل.

وإذ قد علمت أن المعاد حق، ولكنه لا إلى هذه الدار، وأن الأرض والسماوات تُبدَّل،[1] وهذه الأجساد في هذه الأرض بل هي الأرض.[2] فالذي يبدِّل الأرض يبدل الأجساد الأرضية بما شاء ويورثها الأرض المبدَّلة، لقوله: وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ،[3] ثم قال: نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ.[4] والجنة ليست في هذه الأرض بل عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ،[5] وذكر العرض لِمَا يلزم من أن الطول أكثر. وهذا بحث يجب أن يكون المرجع فيه إلى النصوص بالعقول لا إلى العقول دون النصوص. والله على كل شيء قدير، فتنبه جيدا.

واعلم أنني بحثت عن هذه[6] المسألة وتأويل هذه الآية أكثر من سنة إلى أن اتضح لي حلُّ هذه المشكلات. وَادْرِ أن النعمة الأولى أن يلوح لك الإشكال ثم النعمةَ الكبرى أن ينحلّ ذلك الإشكال. والله الهادي بنوره إن شاء الله تعالى.

وقوله: **كيف تكفرون**، دال على أنه تعالى لم يخلقهم كفارا، وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ.[7] وقد تحققت أن لا يَحسنُ أن[8] يخاطبهم فيقولَ: كيف كنتم سُودا أو بِيضا أو قُصارا، إذ ذلك ليس إليهم، فافهم.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا، اعلم أنه إذا أشار إلى المخلوقات كقوله: ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ،[9] أشار إلى مثل هذه / الآية[10] لا إلى أعراض وأفعال البشر وإن جاز [٢٠و] أن يقال: الكل مخلوق له. واعلم أن كلَّ إبداع خلقٌ وما كل خلق إبداع إلا أن يضاف إلى الله تعالى. فقوله: بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ،[11] أي خالقُهما، وقوله: وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ،[12]

---

١ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ (سورة إبراهيم، ٤٨/١٤).

٢ ك ن: أرض.

٣ ك – هي أرض فالذي يبدل الأرض يبدل الأجساد الأرضية بما شاء ويورثها الأرض المبدلة لقوله وأورثنا الأرض، صح هـ.

٤ ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ (سورة الزمر، ٧٤/٣٩).

٥ ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة آل عمران، ١٣٣/٣).

٦ جميع النسخ: على هذا، والمثبت من م.

٧ سورة الزمر، ٧/٣٩.

٨ ن: أنه.

٩ سورة الرعد، ١٦/١٣؛ وسورة الزمر، ٦٢/٣٩.

١٠ انظر مثلا: سورة الأنعام، ١٠٢/٦؛ وسورة المؤمن، ٦٢/٤٠.

١١ الآية ١١٧ من هذه السورة.

١٢ ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي﴾ (سورة المائدة، ١١٠/٥).

لا يكون ذلك الخلق إبداعا؛ فالخلق مجاز إذا نسب إلى غير الله وحقيقةٌ إذا نسب إليه. وبهذا يعلم قوله: ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وإن كان بعض الأشياء من خلق العباد لكنه[1] لا خلقُ إبداع، وبه يزول التناقض من قوله: أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ،[2] لأن الإبداع الحقيقي أحسن من المجاز التأليفي وإن كان يسمى خلقا.

ثم استوىٰ، أي ثم هو الذي استوى، إلى السماء، ولا تَفهم أنه خلق الأرض أوّلا، وقد بينا ذلك في سورة فصلت،[3] فسوىٰهن سبع سمٰوٰت، وهنّ الطباق. وهو بكل شيء عليم.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾

وإذ قال ربك للملٰئكة إنى جاعل فى الأرض خليفة، نبه الملائكة على تعظيمه قبل وجوده.[4] وقد قيل: إنه سمِّي أيضا خليفة لأنه يخلف من تقدمه ويخلفه من تأخر عنه،[5] فهو أيضا خليفة. ويلزم أن الخليفة الثاني ومن بعده يكون به سائرُ أوصاف الأول، أعني التي بها سمي خليفة. وهو مشتق مِن خَلَف يَخلُف وهو خالف، والجمع: فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ،[6] والمؤنث خالفة: رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ،[7] [أي] النساء، فافهمها في موضعها مثل جارحة وجوارح وغيرها مما يماثلها. وأما خليفة فجمعُه خلفاء، وليس الهاء فيه مثلَ ما هي في لطيفة وقطيفة، أعني للتأنيث. ولما نُقلت لفظة "خليفة" من التذكير إلى التأنيث نُقل جمعها إلى مثل الجمع، وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ،[8] ومنه سمي الخَلَف الذي هو خَلْف القُدّام. واعلم أنك إن قصدت بلطيفةِ أنها صفة المرأة ولم تقصد نفس الصفة التي هي أحد اللطائف فجمعُها لطيفاتٌ لا لطائف ولا شرائف، إذ ليس هو جمع اسم الصفة، فافهم مثل ذلك في موضعه. ويجب أن تعلم أن الخليفة

---

١ ك: ولكن.

٢ ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ (سورة المؤمنون، ١٤/٢٣)؛ و﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ (سورة الصافات، ١٢٥/٣٧).

٣ انظر في ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ (سورة فصلت، ١١/٤١).

٤ أي بسبب وصفه تعالى آدم خليفة.

٥ قال ابن الأثير: الخَلِيفة مَن يقوم مَقام الذاهب ويَسُدّ مَسَدَّه والهاء فيه للمبالغة (لسان العرب، «خلف»).

٦ ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ (سورة التوبة، ٨٣/٩).

٧ سورة التوبة، ٨٧/٩، ٩٣.

٨ سورة الأنعام، ١٦٥/٦.

إنما يعمل ما كان يعمله مَن قبله كله أو بعضَه، كقوله: اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى، وأوصاه بقوله: وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ،[1] لعلمه بقدرته على الحالتين.

وكذلك الإنسان لمَا علم الله تعالى وقوع ما يقع منه بكسبه ولم يمنع ذلك قيل: أراد من العالَم ما هم فاعلوه، بمعنى أنه لم يَجْبُرهم على ترك الفعل ولا على الفعل نفسه. فمن فهم أن الإرادة من البارئ تعالى ههنا لا تُجبر العبدَ على الفعل والترك نجا من كل مشكل يَرِد في هذا الباب. ولست أعني كل ما ينطلق عليه لفظ الإرادة بل الإرادةَ التي معناها الإذن كما نبين في موضعه. وإذا أراد الله من العبد أن تكون[2] له إرادة من نفسه وقلنا: ليس للعبد إرادة كان ذلك ردا على الرب سبحانه في قوله: مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ[3] وفي أمثاله.[4] فهذا الخليفة صرفه الله بإرادة في أمور مخصوصة مكّنه منها ليسأله عنها ويجزيه بحسب كسبه. وهو عظيم الشأن لا تُكيّفه الأذهان ويَعجز عن حصر فضائله البيان واللسان والجَنان. شعر:[5]

فـالأرض كالبيت العتيق وحولَه الـ ـأفـلاك والأمـــلاك كـالـطُّـوّاف،
وبــه الـخـلـيـفـة ظـاهـرا وفـؤاده بـيـت بـه ذاك الـخـلـيـفـة خـافِ،
ولأجْـلـه كـان الـجـمـيـع لأنـه هـو صاحب الأسـمـاء والأوصـاف،
فـاعـرفـه مـخـلـوقـا، تـعـالـى ربـه عـنـه وهـذا فـي الـعـبـارة كـافِ.[6]

واعلم أن المَلِك أو النبي إذا استُخلف خليفة فإنما يجعله عِوضَه فيما استخلفه فيه، كقوله تعالى: وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي.[7] فالله تعالى استخلف الإنسان في الأرض على الإصلاح، كقوله: إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ.[8] فمتى مال عن [٢٠ظ] الإصلاح في ذرة أو خَطْرة فقد مال عما خُلق له. / ولما علمت الملائكة قدرة الحق سبحانه على ما يشاء وقال لها: إني جاعل في الأرض خليفة، تحققت قدرة المصنوع لتحقيقها[9] قدرةَ الصانع على الشيء وضده. فذكرت[10] ضده، ويَظهر لك صحة ما قلته

---

[1] ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة الأعراف، ١٤٢/٧).

[2] ش: أن يكون.

[3] ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ (سورة الشورى، ٢٠/٤٢).

[4] انظر لنسبة الإرادة للعبد في القرآن الكريم: المعجم المفهرس لمحمد فؤاد عبد الباقي، «ورد».

[5] ر – شعر.

[6] شجون المسجون لابن عربي، ص ١٠٠.

[7] سورة الأعراف، ١٤٢/٧.

[8] سورة هود، ٨٨/١١. | وهو من قول شعيب عليه السلام.

[9] جميع النسخ: لتحققها.

[10] أي الملائكة.

بقول الملائكة[١] من قبلُ إشارةً إلى تمكينه وقدرته على الفعل، إذ، **قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك**. المعنى أن الله تعالى أخبرنا في كتابه العزيز بما يجب أن تنتفع به من الأخبار من أول العالَم إلى آخره.

ولمّا لم يكن لنا إلى علم ما أراد أن يُعلمنا سبيلٌ إلا بضرب الأمثال والأمثال تنقسم إلى قسمين: أحدهما يَفرِضه المتكلم وإن لم يكن وقع في الوجود، والآخر قد كان في الوجود وجرى؛ فالأَوْلى أن يضرب الأمثال بما وقع في الوجود لنعلم من ذلك مِثله لا لمجرد الحكاية عما وقع. فهذا كتاب[٢] يشتمل على الأمثال التي يحتاج إلى علمها الإنسانُ من أول إبداعه إلى آخر مرجعه إلى الله سبحانه. والمراد بالأمثال ما يستقر بالأمثال في النفوس من الهيئات، ولهذا قال: وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ،[٣] فافهم ذلك.

فعرّفنا سبحانه أن أَكْرهَ ما إلى الله سبحانه هو الفساد في الأرض وسفْكُ الدماء، لهذا أخبر من قول الملائكة في أول الأمر بهذا الكلام وإن كانوا قد قالوا[٤] هذا وغيره. وقال لهم سبحانه أشياء غير ذلك، جاء في التوراة بعضُها لما يقتضي أن يعرف به أهل التوراة في ذلك الزمان من الأمثال التي ينتفعون بها في وقتهم وبحسبهم. فهو سبحانه أخبرنا ههنا بما لنا في سماعه قصدٌ منه. فتنبّهْ لذلك ولمثله[٥] في مواضعه ولا تُهمل كلمة ولا حرفا، ولا تتجاوزه إلى أن تعلم مراد الله به منك، فتعمل إن شاء الله.

قال إني أعلم ما لا تعلمون، هذا جواب للملائكة، إذ ادَّعَوا علْمَ ما سيكون من آدم فأبدَوا البعض وكتموا في أنفسهم ما لم يبدوه[٦] من أمر آدم أو من غيره، يدلك ما سيأتي.

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢﴾

وعلم ءادم الأسماء كلها. اعلم -هداك الله- أن جميع ما يعبّر عنه الإنسان من كل لغة بلفظ له معنى لا[٧] كالصفير والسَّقْسَقَة[٨] ومثلِ ذلك، إذ ذلك قد يشير به مُبديه

---

١ ر: للملائكة.

٢ أي القرآن الكريم.

٣ سورة الروم، ٥٨/٣٠؛ وسورة الزمر، ٢٧/٣٩.

٤ ر - قد قالوا، صح هـ.

٥ ش ك: ومثله.

٦ جميع النسخ: ما يبدوه، والمثبت من م.

٧ ش ك - لا.

٨ جميع النسخ: السوسقة. | سقسق العسفور: صوّت بصوت ضعيف (لسان العرب، «سقق»). والسقسقة: صوت العصفور (الرّافد للأمير أمين آل ناصر الدين، ١٨٠/٢).

إلى لفظ يَفهم به معنى وإن لم يكن له في نفسه من جهته معنى يُفهَم، فهو[1] غير لفظ ولا عبارة فما سوى ذلك. ومثله ينقسم إلى ثلاثة أقسام كما علمت، وهي اسم وفعل وحرف. فاعلم أن الجميع أسماء. فإن الأفعال الماضية وما يَتصرف منها هي أسماء في نفس الأمر، أعني أسماء تلك الأفعال. فإن قولك: فَعَلَ هو اسم فعلٍ ماض عرفته باسمه وقس على ذلك، وكذلك الحرف؛ فليس في الوجود إلا أسماء فقط. فافهم وتذهَّن وتبحر فيما قلته لتعلم مما أوضحته ومثَّلتُه ما أمسكتُ عنه اعتمادا على[2] ذهن صحيح يُتم ما بدأت به ويفهم بجزئه كلَّه ويفهم غيره باللسان ما لا يُحتمل أن يُخَطَّ بالبَنان.

واعلم أن الله -جلّ اسمه- إذا عَلّم لا يحتاج إلى زمان، فعلْم آدم من لدنه تعالى، إذ شقّ لسانه بالنطق بجملة الحروف التسعة والعشرين وإن[3] زادت أو نقصت في بقية اللغات. فهي أوائلُ وأُسٌّ لكل تركيب، فهي[4] الأسماء كلها مضافا إلى ما خلقه فيه من الاقتدار على التصرف فيها وبها. وذلك بأَنْ آتاه من الفهم والتمكين قدرة باقية مختصة به يُخلفها[5] في ذريته، فآدم بها عَلِم الأسماء كلها، وانظر ولا تغفل عن قوله: [وعلم ءادم الأسماء] كلها. وما المقصود بآدم آدم وحده، وقد سماه باسم الصفة المقصودة به حقيقة وهو "خليفة". وأما اسم "آدم" فهو مشتق من الأدمَة وهي الأرض، وهذا مقلوب لفظ التوراة[6] من العبري إلى العربي.

[٢١و] / اعلم[7] أن الله جل اسمه أوجد[8] في آدم ما يحتاج إليه من كونه خَلقَه على ما هو عليه من القوة الناطقة، وهداها بنور العقل وأشهده بذلك النور ما يجب لكل مسمىً من[9] اسم. وقد علمت أن كل منطوق به اسم فعلّمه علما لا جهل معه. وهذا العلم في جِبِلّة ذريته موجود لا يزول، فهو علْم كل شيء بالقوة، وكأنه بُزُرٌ إذا أجيدت[10] فَلاحتُه صار كلَّ شيء بالفعل. عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ.[11] فظهر من هذا العلم في كل زمن وقوم بحسب ما أراد الله. فأتمُّ الظهور مخصوص بأتم اللغات وأوسعها وأبينها.

---

[1] أي المعنى المفهوم.

[2] ر ك + ذي.

[3] ك: وإذ؛ ش: وإذا.

[4] ش – أوائل وأس لكل تركيب فهي، صح هـ.

[5] ش: به بخلفها.

[6] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «وجَبَل الربُّ الإلهُ آدمَ ترابا من الأرض، ونَفخ في أنفه نَسمةَ حياةٍ فصار آدمُ نفسًا حيّةً» (التَكْوين، ٢/٧).

[7] ر: فاعلم.

[8] ك: أوحد.

[9] ر – من، صح هـ.

[10] ك: إذا أحيدت.

[11] سورة العلق، ٩٦/٥.

وأهل تلك اللغة أوفر نصيبا من العلم اللدني الآدميّ، وهم الناس ومَن دونهم بالنسبة إليهم في رُتَب الحيوان الغير الناطق.[١] على أن لكل رتبة لا بد من وجوده بها على ما هو عليه ليتم الوجود، مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ.[٢] ويَندُر[٣] في كل زمن واحدٌ من رتبة في أمة لأمر عظيمٍ نفعُه. فانظر إلى محلِّ من اختاره الله من سائر الناس وأرسله رحمة إلى سائر الناس بأبين معان من أفصح كلام في أفضل لغة وأبينها وأوسعها. وآتاه فيما آتاه من القوة الناطقة ما تقصُر الأفهام عن حصر ما برز عنها، وتستمد العقول السليمة من أنوارها فتهتدي لأرشد لُقَم باليسير المستفاد منها، فهو كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ.[٤] وإذ قد بان أن معجزة[٥] آدم فَتْقُ لسانه بما لا تعلمه الملائكة من علم الأسماء، فمفتتح الآيات ومختتمها في آدم ومحمد عليهما السلام بالكلام. ولما لم يكن مع آدم من البشر أحد كان الإعجاز منه للملائكة، ثم جاء محمد صلى الله عليه وسلم فأعجز مَن أعجز الملائكة، وهذا من أبلغ الإعجاز.

ثم عرضهم على الملٰئكة، أي عرض المسميات، ولهذا لم يقل عرضها، **فقال أنبئونى بأسماء هٰؤلاء إن كنتم صٰدقين**، أي فيما ادعيتم من علم ما سيكون من آدم من الفساد. واعلم أن الملائكة لا يقدرون على الكسب بما علّمهم الله، ولهذا، **قالوا سبحٰنك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم**.

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قال يٰادم أنبئهم، أي أنبئ الملائكة، **بأسمائهم**، بأسماء المسميات. فوضع آدمُ لكل مسمى اسما يليق به ويجب له كما أراد الله مما علمه الله جملة بالموهبة الإلٰهية. **فلما أنبأهم بأسمائهم**، ولم يعلّمه الله إلا أسماءً فقط كما كان قد علّم الملائكة، فوضعها آدم على مسمياتها من تلقاء نفسه بتصرفه كما كان يجب لها عند الله سبحانه. ولما استعظمت الملائكة ما خلق الله تعالى من طين، **قال ألم أقل لكم**، أي ألم أقل: إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ،[٦]

١ ر: ناطق.
٢ سورة الأنعام، ٣٨/٦.
٣ ش ك: وينذر.
٤ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ (سورة إبراهيم، ٢٤/١٤).
٥ ش: مفخرة.
٦ الآية ٣٠ من هذه السورة.

من آدم. ثم قال تعالى مخبرا عن نفسه سبحانه: **إني أعلم غيب السمٰوٰت والأرض وأعلم ما تبدون، قبل أن تبدوه، وما كنتم تكتمون.**

فإن قيل: كيف جاز للملائكة أن تنكر على الصانع أو تفتخر على مصنوعه بين يديه، والقدح في المصنوع قدح في الصانع؟ الجواب أن قدحهم[1] في آدم لم يكن من قصدهم، وإنما كان[2] قصدهم الاطلاعَ على حكمة الصانع في كونه يخلق مَن عَلم منه أنه يفسد في الأرض، إذ من فعل من يفعل الخير كالملائكة كيف يفعل من يفعل[3] الشر كالبشر. فسألوا متعجبين، وذلك لعظمة الصانع في أنفسهم وأنه يَجِلّ[4] عن ذلك؛ ولا حرج على المتعجب إذا سأل سؤال المنكر وليس بمنكِر. وهذا كقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾؟[5] فأجابهم سبحانه: **إني أعلم ما لا تعلمون**، أي ليس كما تظنون لأني لا أعمل إلا بعلم. فأجعل هذا المخلوق متمكنا من الفساد لا لأجل الفساد بل لما يترتب من الصلاح على تمكينه من الفساد، فما هو في علمكم سبب قدح هو في علمي سبب مدح.

وبيان ذلك أن آدم لما كان يقدر على ما يقدرون عليه من الصلاح وعلى ما لا يقدرون عليه من الفساد كان ترك ما يقدر على تركه من الفساد مثلَ فعل ما يقدرون على فعله من الصلاح؛ فله الترقي بالشيء وضده، وليس ذلك للملائكة. ولمّا كان لا يقدر / على ترك الفساد إلا بعد أن يقدر على فعله لزم أن يُجعل قادرا على الفساد من أجل الصلاح الذي يحصل بتركه لا بفعله. ولمّا تحققت الملائكة قدرته على الشيء وعلى ضده لزم وصح أنه خليفة، إذ القادر لا يستخلف عاجزا، ومن ههنا قيل: أفعال العباد أفعال الله، لأنهم كلهم خلفاؤه في الأرض لا يفعلون إلا بإذنه. فكما أن بعضهم ساجد لله وبعضهم ساجد لهواه، والكل ساجدون لله، كذلك بعضهم خليفة الله وبعضهم خليفة هواه، وكل منهم خليفة الله.[6] فلما لم تعلم الملائكة المراد من خلق من يقدر على الفساد وعَلِمَه الله قال: **إني أعلم ما لا تعلمون**، وبين لهم صحة هذا الدعوى بفعل آدم، إذ أنبأهم بالأسماء. والمعنى إذا كان المخلوق[7] المصنوع يعلم ما لا تعلمون فقد صح أن صانعه أحق بهذه الصفة، فلهذا قال لهم أولا: **إني أعلم**، ولم يقل: إنه يعلم. [٢١ظ]

---

[1] ش ك: في الصانع اعلم أن قدحهم.
[2] ر ك – كان.
[3] ك – من يفعل.
[4] ك: وأنه يحل.
[5] أي كقول زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ (سورة آل عمران، ٤٠/٣). وانظر أيضا: سورة مريم، ٨/١٩.
[6] ش – وبعضهم خليفة هواه وكل منهم خليفة الله، صح هـ.
[7] ر – المخلوق.

فلما ظهر لهم بالمصنوع صفةُ الصانع تحققوا أنه خليفة في الوصف وفيما يشاء الله. ولما كان الفساد من أقبح صفات البشر -لأنه من صفات الخلق- والعلمُ من أفضل صفات البشر -لأنه من صفات الحق- تحققت الملائكة أنه تعالى لم يخلق آدم لما عَلِموه من الفساد بل لما علّمه من العلم الذي به يَكمُل الصلاح. وقد كانت الملائكة تعلم أنه تعالى يفعل الصلاح، ولكنها لم تعلم أنه يفعله حتى بالفساد، فعاد قوله أخيرا: **إني أعلم غيب السمٰوٰت**، وتمامُه صحيحا عندهم. وبرهانه ما ظهر عن آدم من العلم، فأسجدهم له تعريفا لهم بمكانته منه وإعلاما أن ما خفي عنكم من شرف قدره أضعافُ ما ظهر لكم بالعلم من عظم أمره. ولما لزم من تعظيم المصنوع تعظيم الصانع في صدور الملائكة فضلا عن صدور البشر كان هذا الكلام أدلَّ على أجلِّ أثر يحصل في أنفس الأنام، ولعظم الانتفاع به كُرّر في القرآن لِيَلِج بالتكرار في الأذهان.[١]

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

ثم أمرهم بالسجود، فقال: **وإذ قلنا للملٰئكة اسجدوا لآدم**. اعلم أن الأمر من الله تعالى ينقسم إلى قسمين: أمرُ نَدْبٍ كقوله لإبليس: "اسجد"، فله أن يفعل وأن لا يفعل؛ وأمرُ حتمٍ كقوله: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾،[٢] ولولا ذلك لأبى أيضا. ومن فهم من القضاء والإرادة والمشيئة مثل هذا انحلت عنه مشكلات الخبر وخلص من تشابهه. **فسجدوا إلا إبليس أبىٰ واستكبر وكان**، ولم يقل: "فكان" التي تدل على المستقبل بل وكان من قبلُ، **من الكٰفرين**. وذلك إخبار من الله عز وجل لذي لب عن رتبة العلم وشرفه، وأن الأنوار الظاهرة الصافية من الدنس، المسبِّحة المقدِّسة عند رب العالمين قد أسجدها الله لمن خلقه من طين[٣] من حمأ مسنون، من صلصال[٤] لما تشرف بفضيلة العلم.

فانظر ماذا يجب للعالِم على غيره من التواضع والانخفاض والاستكانة الذي مُثّل بالسجود، إذ ما بعده تواضع-فلا يعامَل به إلا الله سبحانه. وحقيقٌ بصفة لا تكون

---

[١] ر - فإن قيل كيف جاز للملائكة أن تنكر على الصانع... كرر في القرآن ليلج بالتكرار في الأذهان، صح هـ.

[٢] ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ (سورة الأعراف، ١٨/٧).

[٣] ورد هذا اللفظ في آيات كثيرة، منها ما ورد في سورة الأنعام، ٢/٦؛ وسورة الأعراف، ١٢/٧؛ وسورة المؤمنون، ١٢/٢٣ وغير ذلك.

[٤] وردت هذه الكلمات في آيات عديدة، منها ما ذكر في سورة الحجر، ٢٦/١٥، ٢٨، ٣٣؛ وسورة الرحمن، ١٤/٥٥.

إلا من الله تعالى أن يكون حاملها بهذه المنزلة، وأن من استكبر على العالِم ولم يُوفِه حقَّه فهو من حزب إبليسَ المطرود عن ربه وعن جنته. وهذا جميعه رحمة من الله على عباده ليرغّبهم في اقتباس العلم ويعرِّفهم أن شرف العلم خير من شرف الأصل والنسب وغير ذلك. فما ضَرّ آدمَ مع علمه أن أصله كان من طين[1] كما لم ينفع إبليسَ أنه كان خيرا منه مع جهله بفضيلة العلم، وكما لم ينفع ابنَ نوحٍ نوحٌ عليه السلام وهو أصل لابنه قريب؛[2] ولأن المستكبر لا سبيل له إلى التعلم. فلا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال. ولقد دلت هذه الأية على أنه لا علم لملك أو بشر إلا مما علمه الله تعالى، فاعلم أن ما عداه جهل؛ وإذ قد عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ.[3] فإذا عرفته عرفت العلم منه وبه مِن سواه.

وقوله: إلا إبليس، بين في موضع آخر أنه كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ،[4] فهو ممن كان مع الملائكة المأمورين بالسجود ولم يكن منهم.[5] ومثلَ ذلك تقول:[6] أمر أهل القلعة أن يخرجوا منها، فخرجوا جميعا إلا واحدا من أهل المدينة، فذلك يدل على أنه كان معهم لا منهم.

[٢٢و] فإن قيل: قد شهد الله أن إبليس كان من الجن، فكيف يتوجه / عليه اللوم إذا لم يسجد، لأن الله إنما أمر الملائكة وهو ليس منهم وإن كان فيهم؟ فالجواب أنك إذا نظرت إلى جميع فقلت: اسجدوا فقد عم الأمر لمن فيهم وإن لم يكن منهم؛ والدليل على أنه أمَر قوله تعالى له: قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ،[7] فطرده للمخالفة.[8]

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾

وقلنا يَٰٓـَٔادم اسكن، وقوله: **أنت**، تأكيد الضمير المستتر ليصح العطف عليه بقوله: **وزوجُك الجنةَ وكُلَا**، وفي الأعراف: فَكُلَا. المعنى أن ما جاء في البقرة حكاية، لهذا قبله:

---

[1] ورد هذا اللفظ في آيات كثيرة، منها ما ذُكر في سورة الأنعام، ٦/٢؛ وسورة الأعراف، ٧/١٢؛ وسورة المؤمنون، ٢٣/١٢ وغير ذلك.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير هنا إلى هذه الآيات الكريمة: سورة هود، ١١/٤٢-٤٧.

[3] ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ (سورة الرحمن، ٥٥/١-٢).

[4] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ (سورة الكهف، ١٨/٥٠).

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ (سورة الأعراف، ٧/١١).

[6] ر: نقول.

[7] سورة الأعراف، ٧/١٢.

[8] ر - فإن قيل قد شهد الله أن إبليس كان من الجن... فطرده للمخالفة، صح هـ.

وقلنا، وما جاء في الأعراف أمر، لهذا قبله: وَيَـٰٓـَٔادَمُ. والكلام في البقرة مفصول ليبين فيما حكاه أن الدخول نعمة والأكل نعمة أخرى، وفي الأعراف تعلُّقَ الثاني بالأول تعلقَ الجواب بالابتداء فوجب العطف بالفاء التي تفيد السرعة. فإنه فرقٌ بين قولك: ادخل وكل، وبين قولك: ادخل فكل؛ فالأول يدل على أمرين يجوز أن يكون بينهما مهلة، والثاني أمر واحد بشيئين لا مهلةَ بينهما، وهو أمر إباحة تم به السرور لتعجيله. وأما زيادة "من"، فإن قوله ههنا: وكلا منها رغدا حيث شئتما، يدل على إباحة أكل الشيء في غير مكانه، وفي الأعراف: فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا[1] يدل على أكل الشيء[2] في مكانه.[3] وهذان القسمان غاية الإباحة. فافهم قوله: منها رغدا، أي في رغد، وهو السعة، حيث شئتما ولا تقربا هٰذه الشجرة فتكونا من الظٰلمين، ومن نُهي عن القرب كيف يجوز له[4] أكثر.

[الشجرة الممنوعة]

وقد قيل: في الشجرة عدة أقوال، أُثبت لك بعضها ههنا لتعلم. فمن ذلك ما هو مكتوب في التوراة إلى يومنا هذا أنها "شجرة المعرفة"، فقال: "إن الله عز وجل غرس جنة عدنٍ، وجعل آدم الذي خلقه من الأرض هناك، وأنبت الله في الجنة من كل شجر حَسَنِ المنظر شَهِيِّ الأكل، وجعل شجرة الحياة في وسط الجنة، وشجرة المعرفة خيرا وشرا. وحذّر الله آدم وزوجته أن يأكلا من شجرة المعرفة وأباحهما ما سواها. والثُّعبان كان خبيثا، فقال للمرأة: أحقٌّ قال لكما الله: لا تأكلا شيئا من جميع الجنة؟ قالت: بل من الجميع نأكل إلا من الشجرة التي في وسطها فإنا نموت. فقال: وحياةِ[5] الله لا تموتون، بل كما تأكلون منها تنفُض أعينكم وتعودون كالإلٰه تعرفون الخير والشر. فأكلت المرأة وأعطت بعلها فأكل، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عاريان، فاستترا بورق التين. وسمعا صوت الله تعالى سالكا في الجنة آخرَ النهار فاختبأ آدم وزوجته في وسط شجر، ونادى الله: يا آدم أين أنت؟ قال: سمعت صوتك في الجنة، فخفت كَوْني عريانا. قال من أخبرك أنك عريانٌ، أمن الشجرة التي نهيتك عنها أكلت؟ قال: المرأة أطعمتني، وقالت المرأة: الثعبان أطغاني. فلعن الله الثعبان ولعن الأرض التي أُخذ منها آدم بسبب آدم.

---

١ ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ (سورة الأعراف، ١٩/٧).

٢ ش + في مكانها.

٣ ر ش: الشيء من مكانه.

٤ ك – له، صح هـ.

٥ ش: وحيات.

وقال الله: ها قد صار آدم كواحد منا في معرفة الخير والشر، وربما يمد يده ويأكل من شجرة الحياة ويحيا إلى الأبد، فأخرجه إلى الأرض التي أخذ منها".[١] هذا مقلوبُ لفظ العبري إلى العربي، وهو أولى لفظ مبيّن.

وذلك أن الخير والشر شعبتان، ولما حصلت المعرفة بهما وجب على العارف اجتنابُ أحدهما أعني جملة الشر وما يتفرع منه، لأنه متمكن بإرادة، ولولا ذلك لما أنزلت إليه الكتب وأرسلت الرسل بمثل قوله: فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ.[٢] فالشجرة هي جملة الشر، وإنما نسبت إلى المعرفة لأنه إن لم تكن معرفةٌ فلا شجرةَ. ووجب أن يكون للشر مقابل وهو الخير، فأضاف ذلك إلى المعرفة وقال: شجرة المعرفة خيرا وشرا كأنهما في شجرة واحدة ذات فرعَين، لكن ذو الاختيار باختياره يأكل من أيهما شاء. وقد شاء الله للمختار أن يشاء، بقوله: فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ.[٣] ولم يأكل آدم جميع الشجرة بل منها. وإنما عرّفنا الله زلة آدم بقوله: فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا،[٤] ليَحْذَر أبناؤه مما جرى عليه.

فقوله في التوراة "شجرة المعرفة"، معناه شجرة تُثمر المعرفة بالخير والشر[٥] كما تقول: "شجرة التفاح" فتسميها باسم ثمرتها. وليس لنا شجرة تُثمر هذه الثمرة سوى الإنسان، / لأن بدنه مزرعة الأنوار. ولم تقع الوصية إلا بعد خلقه حواءَ. فهذا ظاهر الكلام. وأما باطنه اللازم له فاعلم أن إبليس بميله عن الأمر الإلٰهي إلى المعرفة عصا. وكذلك آدم وكل كافر إنما كفر بميله إلى عقله ومعرفته المخالِفة لأمر الله في كتبه، ومنهم الفلاسفة. وهذا حقيقة شجرة المعرفة التي نهى الله آدم وسائرَ بنيه عن الأكل منها، ولهذا قال: فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ،[٦] فافهم ذلك. والله أعلم. [٢٢ظ]

وقال بعض الصالحين: هي الهوى، فإنه شجرة ذات شُعَب كثيرة، وهي لذيذة، والميل معه هو الأكل منها، ولا يدل عليها إلا الشيطان. والآكل منها تبدو له سَوْءة بقدر ما أكل، فينزع[٧] الله عنه بمخالفته لباسَ التقوى فيرى سوءة ما منه بدا، ويتستر من الندم والحياء. ويُهبطه من سماء العقل إلى أرض الحسّ من جنة كانت تَجُنُّه عن آفاتِ

---

١ التوراة، التكوين، ٢/٨-٩، ١٥-١٧، ٣/١-١٣، ٢٢-٢٣.

٢ الآية ٣٨ من هذه السورة.

٣ سورة الكهف، ١٨/٢٩.

٤ ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ (سورة طه، ٢٠/١٢١).

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما جاء في التوراة: «وأنبت الربُ الإلٰهُ من الأرض كلَّ شجرةٍ شهيّةٍ للنظر وجيّدةٍ للأكل، وشجرةَ الحياة في وسط الجنة، وشجرةَ معرفةِ الخير والشر» (التكوين، ٢/٩).

٦ الآية ٣٨ من هذه السورة.

٧ ش: فنزع.

ما يعاديه منه ويجعلُ بعضه لبعضه عدوا. فيناديه رب الجسد وهو العقل بلسان القرآن حجة عليه: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾.[١] وكون المخاطبة لآدم وحواءَ إشارة إلى الرجال والنساء من نسلهما. واستدل بقوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾.[٢] وإن من تبع الهدى من أولاد آدم عاد إلى الجنة، وقد قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.[٣] وحقيق بشيء إذا أُطِيعَ أمرُ الله تعالى بتركه أُدخل الجنةَ أن يكون هو الذي لمّا عُصي أمرُه بمفارقته أُخْرِجَ منها. هذا مختصر كلامه فما أَقْرَبَه.

وقال بعض العارفين: إن المقصود من ذكر الشجرة في القرآن امتثال الأمر وترك المخالفة. لهذا لم يعيّن الله لنا به علائمها بل كانت شجرةً مّا، ولا حاجة بنا إلى البحث عن معرفة الشجرة إذا امتثلنا ما أمر الله به وانتهينا عما نهى عنه في كتابه. وهذا قد اختصر المقصود حسنا.

وقال بعض العلماء: هي الفاحشة، واستدل بقوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾.[٤] وإن أول الخطيئة كانت من طريق الوسواس، وإنه لم يدل بأكثر من الوسوسة. ثم قال: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾، ولفظ "دلّا" تثنية دل، وذلك أن كل واحد منهما دل صاحبه بهوى وغرور فدلاهما،[٥] ثم قال: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾.[٦] وقد علمت أن آدم من جملة النبات، ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾،[٧] وكذلك حواء، إذ هي ضِلْعه[٨] وفرع منه، فكلٌّ شجرة.

وفي التوراة مكتوب أن حواء أطعمت آدمَ،[٩] وأن الثعبان هو الذي بطريقه أخطأ آدم،[١٠] فهذا معنى ما فيها. وفي تأويل الرؤيا قيل: إن الثُّعبان لمن يراه في النوم هو خاطر الباه وما يتعلق به. وكثير من الألفاظ التي وردت على ألسنة الأنبياء عليهم السلام

---

١ ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (سورة الأعراف، ٢٢/٧).

٢ الآية ٣٨ من هذه السورة.

٣ سورة النازعات، ٧٩/٤٠-٤١.

٤ ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ (سورة طه، ١٢٠/٢٠).

٥ يقال: أدلى دلوَه: أرسلَها. ودلّاها: أخرجها. وقيل: ﴿دَلَّىٰهُمَا﴾ أي دلّلهما، من الدَّالّة وهي الجُرأة. أي جرّأهما على المعصية فخرجا من الجنة. انظر: تهذيب اللغة للأزهري، «دلّ»؛ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ١٧٩/٩؛ وعمدة الحفاظ للسمين الحلبي، «دلو».

٦ سورة الأعراف، ٢٢/٧.

٧ سورة نوح، ١٧/٧١.

٨ لعل المؤلف رحمه الله يشير هنا إلى ما ورد في التوراة: «وبنى الربُّ الإلهُ الضِّلْعَ التي أخذها مِن آدمَ امرأةً وأحضرها إلى آدمَ» (التَّكوين، ٢٢/٢). وفي الحديث: «إن الله تعالى لمّا خلق آدم خُلِقَت حواء من ضلعه القصير» (سنن ابن ماجه، الطهارة ٧٧).

٩ «فرأت المرأةُ أن الشجرة جيدةٌ للأكل، وأنها بَهِجَةٌ للعيون، وأن الشجرةَ شهيّةٌ للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رَجُلَها أيضا معها فأكل» (التوراة، التَّكوين، ٦/٣).

١٠ التوراة، التَّكوين، ١٣/٣.

يكون تأويلها كتأويل الرؤيا، لأن الرؤيا بحسب الرائي، وكذلك خاطب الله تعالى بني إسرائيل في مبدأ الأمر بلسان التوراة فسمى الشيطان الثُّعبان.[1] وفي آخر الأمر بلسان القرآن سمّى الثعبان الشيطان.[2] ومن تفكر فَقِه من ذلك ومثلِه حِكَما.

ثم استدل هذا العالم بقوله تعالى: فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا،[3] فافهم ذلك في "لام" لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا، ثم في قوله تعالى: يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا. وقوله "أَنزَلْنَا" بمعنى بوّأنا، كقوله: وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ،[4] والزينة للمرأة والرجل كالريش للطائر. وقوله: وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ، يعنى الذي كان على آدم من قبلُ خَيْرٌ من هذا اللباس، ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ،[5] وقوله: هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ.[6] وقد وصف اللباس أنه يواري السوءة، فافهم لِم خصه بمواراة السوءة وإن كان من شأن اللباس أن يواري سائر الجسم؟ فافهم كيف سمى كل واحد من الزوجين لباسا لكونه يواري سوءة الآخر عن الحرام. ومن ذلك قوله تعالى: يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ، ثم أتبعه بقوله: وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا / عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ.[7] وقد علمت قوله تعالى: وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً،[8] وإن مثله قوله: ولا تقربا هذه الشجرة، بلفظ القرب. [٢٣و]

وكون الشيطان سماها شجرة الخلد فإن بها صار آدم خالدا في الأرض، أعني بُشَره[9] ونَسله، إذ أكل من الشجرة، ولعله لو لم يأكل من شجرة هي أحق باسم الخلود لَما كان له نسل خالدٌ بهذه الصورة، وعرّفنا أن اللباس الذي كان عليهما كان تقوى الله. وقوله: ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ،[10] فافهم متى أنشأنا من الأرض، وهل إلا آدم من الأرض،

---

[1] أشيرَ إلى ذلك في التكوين: ٣/١-٥، ١٣.

[2] فيه نظر، لأنه ليس له في القرآن الكريم نص صريح يفيد ذلك.

[3] سورة الأعراف، ٢٠/٧.

[4] ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ (سورة الزمر، ٦/٣٩).

[5] ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٢٦/٧).

[6] الآية ١٨٧ من هذه السورة.

[7] سورة الأعراف، ٢٧/٧-٢٨.

[8] سورة الإسراء، ٣٢/١٧.

[9] البُسْر: الشّاب والشابة (القاموس للفيروزابادي، «بسر»؛ وتاج العروس للزبيدي، «بسر»).

[10] ﴿... وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ (سورة النجم، ٣٢/٥٣).

ونحن فرع شجرة هي هو، فافهم هذه الصور الأربع. وإنما ذكرتها دون غيرها لاشتراك بيّن بينهم يدلك على المقصود، إذ في كل قولٍ نسبة، وفي إخفاء ما أخفاه الله من تبيين ذلك حكمة، فتفكر، فإذا عرفت فتدبر. فهنا سر بيّنّا طريق الوصول إليه، فَقِفْ وَاقْفُ تجده إن شاء الله تعالى، وهو منبئ عن معصية آدم وكيفيتها ليَحذر أبناؤه ما وقع فيه ظاهرا[1] بسبب كونه خالف الأمر باطنا؛ إذ مال عن أمر الله إلى ما حسن عنده من المعرفة، فبهذه المعرفة هبط إلى الأرض وكان ميتا، وبتركها وامتثال الأمر يعود حيا. وفي التوراة ذكر شجرة أخرى سماها قال: "ولَمِيعَ سيفٍ متقلِّب ليحفظ طريق شجرة الحياة"،[2] هذا نصها، وكأنه إشارة إلى أنه لا يقدر عليها إلا من قَدِم على مثل[3] ذلك. والله أعلم. وذكر فيها أن آدم إذا أكل منها يحيا أبدا. فتخلّص من ذلك أن رجوع الإنسان إلى معرفته المخالفة للأمر هي الشجرة المنهي عنها، وبها عصى آدم، وميله عن معرفته إلى الأمر هو شجرة الحياة. وسمى ذلك شجرةً لأن هذه تثمر كل خير وهذه تُثمر كل شر. والله أعلم. وشجرة الخلد كقولك: شجرة البستان.

والذي يبقى به الإنسان في ذلك العالَم هو العلم، لأنه حياة النفس الناطقة والجهل موتها. فشجرة المعرفة هي شجرة الخلد كما جاء في التوراة وبيناه، فظاهرها الجسم وباطنها العلم، ولهذا[4] بعده: وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ،[5] لأن الأجسام بالية والعلم لا يبلى. والعلم يطلق على قسمين. أحدهما ما يرجع إلى العقول ويخالف الشرائع وهذا هوالمنهي عنه. والثاني ما يرجع إلى الشرائع، ثم تَتْبعه العقول الصحيحة العريّة عن الهوى، وهذا هو المأمور به، وبه يكون الإنسان باقيا وبما عداه فانيا. ومن ههنا نشأ الخطأ الأول المطلق، حتى طمِع العارف بمعرفته أن يدرك ما لا يُدرك إلا حقيقة العجز عن إدراكه، فرأى بقدر معرفته ما رآه من نفسه، فظن أنه الله تعالى.[6] وهذا العارف بزعمه لو سجد شيطان وَهْمِه لآدميةِ علمِه المنزلِ من ربه برمسه سلم من إثمه، فلمثله يقال: شعر[7]

١ ش ك: وظاهرا.

٢ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «فطردَ الإنسانَ، وأقام شرقيّ جنةِ عدنٍ الكَرُوبِيمَ، وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِراسَةِ طريقِ شجرةِ الحياة» (التكوين، ٣/٢٢).

٣ ك – مثل، صح هـ.

٤ ش – لهذا، صح هـ.

٥ ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ (سورة طه، ٢٠/١٢٠).

٦ ر + الله.

٧ ر – شعر.

لما غدت جملةُ الأفعال عائدُها عليك من كل فعل أنت فاعله،
ظننت إذ أنت معبود لذاتك أنْ نَ الله أنت فأنت الآن جاهله.[1]

واعلم أنني إنما[2] ساقني إلى هذا الكلام ما رأيته قد حدث في العصر بسبب كونهم لم يقفوا مع الأمر.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾

فأزلهما الشيطٰن عنها، أي عن الجنة، ولهذا بعده: **فأخرجهما مما كانا فيه**، أي من التقوى عقابا من الله لهما وإن كان بواسطة الشيطان. ولمّا كان الشيطان لِما أزلهما عن الجنة قد أزلهما عن الشجرة، قلنا يتضح ما قلناه من أنها شجرة واحدة، إذا أُكل منها بالأمر كانت شجرة الحياة، وإن أكل بغير الأمر كانت شجرة الموت، ويتضح ذلك بما قدمناه مما في التوراة.

[الشجرة الممنوعة]

ونَزيده الآن إيضاحا لعظم الفائدة به وإن تكرر فنقول: المذكور في التوراة شجرتان: شجرة الحياة وشجرة المعرفة خيرا وشرا، وهما شجرة واحدة سميت بالاسمين. ولهذا لم يذكر في القرآن سوى شجرة واحدة. وأما في التوراة فإنه قال: إن الله أباح آدم جميع ما في الجنة إلا شجرةَ المعرفة، فكانت حينئذ شجرة الحياة مباحة له، ولما أكل / من شجرة المعرفة صارت له معرفةٌ يعرف بها شجرة الحياة، لأنها[3] خير،[4] فأُهبط من الجنة. وجعل الله من الملائكة من يحفظ طريق شجرة الحياة لئلا يأكل منها فيحيا أبدا مخالفا للأمر.[5] ثم امتحنه ههنا بالأمر وفتح له باب التوبة، فمخالفته ههنا[6] [٢٣ظ]

[1] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.

[2] ش: أنني لما.

[3] ش ك: ولأنها.

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «وأوصى الربُّ الإلٰهُ آدمَ قائلا: مِن جميعِ شجرِ الجنة تأكل أكلا، وأمّا شجرةُ معرفةِ الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يومَ تأكل منها موتا تموت» (التكوين، ٢/١٦-١٧).

[5] لعل المؤلف يشير إلى ما جاء في التوراة: «فأخرجه الربُّ الإلٰهُ من جنة عدنٍ ليعمل الأرضَ التي أُخِذ منها. فطردَ الإنسانَ، وأقام شرقيَّ جنةِ عدنٍ الكَرُوبِيمَ، ولَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لحراسة طريق شجرة الحياة» (التكوين، ٣/٢٣-٢٤).

[6] أي في الدنيا.

مقرونة بالعفو إلا أن مات عليها، وأما هنالك فمقرونة بالعقاب والإخراج. فانظر إلى حكمة الإبداع ولطف المبدع لهذا العالم سبحانه. وقد لزم مما قدمناه أن آدم له ههنا سبيل إلى شجرة الحياة، لكن الطريق إليها محفوظ بملائكة ولَمِيع سيف متقلِّب. والمراد أن نعلم[١] أن الحياة هناك، فنطلبها ونعمل[٢] على الانتقال إليها باتباع الأمر الذي لو لم يخالفه أبونا لما فارقها.

فاعلم أن جملة القصد ضربُ الأمثال للأمر والنهي، فلا تقف[٣] مع صورة واحدة بل تلك وكل ما يناسبها ويتفرع منها. ولهذا سمى الله المنهي عنه شجرة لأنها ذات فروع؛ كما نبه في التوراة على كون آدم لم يأكل من الشجرة بيده بل أكل ما أكله منها من يد المرأة، وذلك بصورة الفتوى من العقل المحجوب بالهوى. وهذا مثال لفرع من فروع الشجرة، نبه الله عليه في الكتب المنزلة وجعله أصلا، لِنتَّقِيَ فروعه ولنعلم أن الحياة الأبدية إنما هي فوق طَور العقل، وإن كان هو مبدأَها، لأن ذلك العلم إنما حصل لنا بالعقل، لكن العقل اعترف بقصوره وافتقاره إلى امتثال الأمر. ومن عرف هذا فقد اعترف بفضيلة الشرع. فالعقل بما بيناه إذا مال إليه[٤] فقد مال عنه، وإذا مال عنه فقد[٥] مال إليه. وإيضاح ذلك أنه من مال بالعقل عن العقل إلى الشرع فقد ظفِر بالعقل حقيقة، ومن مال بالعقل عن الشرع إلى العقل فقد مال عن العقل حقيقةً. وبهذا الإيضاح يتحقق لك من أمر الشجرة والشيطان أنه بنفس دلالته لهما عليها أزلّهما عنها،[٦] ولهذا قال أولا: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ﴾،[٧] وقال أخيرا: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾. فلينظر اللبيب إلى هذه الدلالة الشرعية المنبِّهة على دلال[٨] الشيطان ودقة مكره، ولا يَقرُبِ الشجرةَ في مدة عمره وَلْيَتَوَقَّ أدقَّ ما يعرض من فروعها في فكره ليظفر بها حيّا آمنا دائما في دار مَقَرِّه.

---

١ جميع النسخ: أن يعلم.

٢ ش: فيطلبها ويعمل.

٣ جميع النسخ: فلا يقف، والمثبت من م.

٤ جميع النسخ: إذا مال إلى إياه.

٥ ش – فقد.

٦ أي إن الشيطان بنفس دلالته لآدم وحواء على الشجرة أزلهما عنها.

٧ ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ (سورة طه، ٢٠/١٢٠).

٨ جميع النسخ: دلالة. | دَلُّ المرأةِ ودَلالُها: تَدَلُّلها على زوجها، وذلك أن تُريه جَراءةً عليه في تَغنُّج وتَشكُّل كأنها تخالفه وليس بها خلاف (لسان العرب، «دلل»).

وفي التوراة مكتوب أن آدم بعد[1] ما أكل من شجرة المعرفة عرف حواءَ زوجتَه أي وَاقَعَها فحملت بقابيلَ،[2] وهو أول[3] القاتل.[4] هذا نصها بلفظة عُرِف.

ولما كان مَن زلّ أُخرج من مكانه قال الله تعالى: فأخرجهما، أي بإزلاله لهما وإنما أزلهما باتباعهما له؛ ثم قال تعالى: وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر، لا يريد في بطنها بل يريد مدة الحياة، ولهذا بعده: ومتٰعٌ إلىٰ حين، الوفاة، ودليله[5] وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ.[6] وهبوط آدم لم يكن عقوبة بل تكليفا، وفيه تعريض للثواب العظيم، ولهذا تجد التوبة على آدم إنما كانت قبل الهبوط. فافقه ذلك لتعلم أن الهبوط الأول حكاية عن الثاني قبل وقوع الثاني.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾

فتلقىٰ ءادم من ربه كلمٰت فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم، والكلمات: رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا،[7] وتمامُ الآية. والتوبة الرجوع. وقوله: هو التواب، إشارة إلى تقدمه بالرجوع إلى عبده الراجع إليه، وأن هذه صفته سبحانه. وكذلك فافهم من قوله: وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ،[8] افهم معنى قوله "هُمْ" فإنه إشارة إلى أنهم يغفرون قبل أن يستغفرهم الجاني عليهم، فهم يسبقونه بالمغفرة، إذ هي صفة لهم؛ فافهم لفظة "هُم" في مواضعها، وكذلك لفظة "هو" وأمثالَها. وقوله: فتلقىٰ، يدل على أن آدم كان مستقبلا للكلمات قاصدا منتظرا لها، فلهذا عبر بهذه العبارة، لأن اختلاف العبارات يوجب اختلاف الاعتبارات.

---

[1] ر – بعد، صح هـ.

[2] لعل المؤلف يشير إلى ما وَرد في التوراة: «وقال الرب الإله: «هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد». فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها. فطرد الإنسان، وأقام شرقي جنة عدن الكَرُوبِيمَ، وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّب لحراسة طريق شجرة الحياة. وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين، وقالت: «إقتنيت رجلا من عند الرب» (التكوين، ٣/٢٢-٢٤، ٤/١).

[3] ر ش: الأول.

[4] قال النبي صلى الله وسلم: «لا تُقتَل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كِفلٌ من دمها، لأنه أول من سن القتل» (صحيح البخاري، الجنائز، ٣٣، والاعتصام، ١٥، والديات، ٢، والأنبياء، ١؛ وصحيح مسلم، القسامة، ٢٧). ومن أراد التوسع في هذه القصة فليرجع إلى جامع البيان للطبري، ٨/٣١٧ وما بعدها.

[5] ر + ومتاع إلى حين ومثله.

[6] ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ (سورة يونس، ١٠/٩٨).

[7] ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ (سورة الأعراف، ٧/٢٣).

[8] سورة الشورى، ٤٢/٣٧.

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾

وليس لفظ الهبوط مكررا، لأن الأول[1] حكاية، ولهذا جاء بالواو، والثاني أمرٌ حَتْمٌ لا بد من وقوعه. والهبوط ليس من عُلُوّ إلى سِفْلٍ، بل كقوله: ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا.[2] وهو أيضا مثال للهبوط الأول ههنا، إذ هو إنباء عن غضب، لا لأنه حتم، فتأمل ذلك. وأما الحتم فهو قوله: **قلنا اهبطوا منها جميعا**، آدم وحواء وإبليس، والخطاب لذرية آدم بعده، وتقديره فهبطوا. وقيل: / كان موضع الهبوط عند الشجرة. **فإما يأتينكم منى هدى** [٢٤و]
فمن تبع هداى فلا خوف، يتضمن السلامة من سائر الآفات،[3] **عليهم ولا هم يحزنون**، يتضمن بلوغ سائر الإرادات.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾﴾

ولمّا ذكر المكذبين تلاهم بقوله: **يٰبنى إسرٰءيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإيّٰىَ فارهبون**، المعنى وإياي فارهبوا، أي لا ترهبوا سواي، يدل[4] على ذلك تقدم "إياي"، وألحقت النون بقوله "فارهبوا" لأجل أواخر الآي. وتحقيقها فارهبوني، وحذفت الياء لأجل الجزم الذي هو إعراب الأمر وبقيت الكسرة في النون عوضا عن الياء.[5] ولهذا بعده عَطف على الأمر بمثله فقال:

وءامنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به، إنباء في نهيهم عن وصفهم. وذلك[6] لأن صفة النبي صلى الله عليه وسلم وكتابه وأمته وغير ذلك مكتوب عندهم في التوراة وغيرها من كتب أنبيائهم بعلائمَ صحيحةٍ حتى الأراضي التي يقوم فيها ويَظهر بها، فكان الواجب أن يكونوا أول من يؤمن به، ومن حيث لم يفعلوا

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية ٣٦ من هذه السورة.

[2] الآية ٦١ من هذه السورة.

[3] ر – يتضمن السلامة من سائر الآفات، صح هـ.

[4] ك: تدل.

[5] ش – لأجل الجزم الذي هو إعراب الأمر وبقيت الكسرة في النون عوضا عن الياء، صح هـ.

[6] ر – وذلك، صح هـ.

فهم أول كافر من سائر نسلهم وأتباعهم. وذلك أنه متى كفر الآباء واتبعهم الأبناء فأول كافر به الآباء من بني إسرائيل، وعليهم وزر مَن يأتي منهم بعدهم إلى يوم القيامة ووزرُ أتباعهم،[١] فافهم جيدا. ولا تشتروا بـٔايٰتي ثمنا قليلا، إشارة إلى أنه مهما اشترى بآياته من الدنيا كان ثمنا قليلا، لأن الدنيا بأسرِها مَتاعٌ قليل[٢] وحياتها غُرُورٌ،[٣] ولَهْوٌ ولَعِبٌ،[٤] فلا شك في قلتها؛ وكيف لا يَقِلّ ما يفنى ولو كثر ويؤثر عليه ما يبقى ولو قَلّ. وإيّٰيَ فاتقونِ.

﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾

ولا تلبسوا، من اللَّبس، الحق بالبٰطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون، أنه حق، أي وأنتم علماء وعَدل به للوِزان.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

وأقيموا الصلوٰة، مع المؤمنين بهذا النبي، وءاتوا الزكوٰة. اعلم أنه لما كان الشاهد يُطلب منه من يزكيه، ولا يزكّيه[٥] إلا من عرفه وحقق من أفعاله ما يوافق الصدق من أقواله التي هي كلها صِدْقٌ. فالصلاة أقوال بمنزلة الشهود، والزكاة أفعال[٦] تزكي[٧] ذلك الشاهد. فالذي فرض في الأموال هو ما قيل ونقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وتقليدنا في ذلك هو كتقليدنا في أن اليوم الأحدُ أو الجمعةُ؛ فذلك أمر غير مشكوك فيه، وهو مستفاض بين الخاص والعامّ، وليس في كتاب الله ما ينقضه. لأن الأمر بالصلاة والزكاة جاء عاما مجملا غير مفصل، ولا بد من حدود يوقف عندها مفصَّلةٍ، فلزم في العقل أن نتبع[٨] النقل في تفصيل جملته في الكتاب العزيز، ولا يلزم مثل ذلك فيما يناقضه الكتاب. ولنا أن نفعل من الزكاة أكثر مما نقل؛ ولهذا لم يعينه النص،

---

[١] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «من سنّ في الإسلام سنّة حسنة فله أجرها وأجرُ من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومن سن في الأسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزرُ من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» (صحيح مسلم، الزكاة ٦٩؛ وسنن النسائي، الزكاة ٦٤).

[٢] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ (سورة النساء، ٤/٧٧).

[٣] يشير المؤلف إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٨٥؛ وسورة الحديد، ٢٠/٥٧).

[٤] ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٦٤).

[٥] ش ك – ولا يزكيه.

[٦] ر + والزكاة.

[٧] ش ك: ولا يزكي.

[٨] ش ك: أن تتبع.

وهذا بعض فوائده، ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾.[١] ويجب أن تكون الزكاة في سائر الأفعال لتكون موافِقة ومزكية لسائر الأقوال.

[الزكاة ونصابها]

اعلم أن الزكاة فيما يَزْكو، فهي في الأموال النامية. ففي الحيوان والنبات بالذات وفي الجماد بالعَرَض، فهذا أصل يُرجَع إليه. فالزكاة دفع الفضل إلى ذي الحاجة الأصلية. فما لا فضل فيه لا زكاة عليه، ولهذا حيوان التجارة يُزكَّى بالقيمة. ولما كان وضع الزكاة لدفع الحاجة الأصلية فما لا[٢] يدفعها لا زكاة فيه كالخَضْراوات، فإنها لا تُقتات في حال اختيار. ولما كان الحيوان يُنتج في الحول، والنباتُ المقتات كذلك، والتجارة في الغالب كذلك جعلت الزكاة على الحَوْل. والأصل في قدرها العُشر، أعني عشر القدر الزائد، لأن الله تعالى يجزي على الواحد بعشرة،[٣] فله أجر من أخرج الكل. فأما ما يُزكَّى من النبات ففيه العشر إن كان سَيْحًا،[٤] ونصفُ العشر في النَّضْح[٥] لأجل ما يُغرَم عليه.

وأما المال فإنه ينقسم إلى قسمين: ما تتفق فيه التجارة وما لا تتفق.[٦] فهو قسمان [أيضا]، أحدهما لا نماء فيه، والذي تتفق[٧] فيه التجارة قد يربح وقد لا، فعاد المعتبر في ربع المال، ففيه العُشر وهو ربع العشر. وهذا في الغنم متحقق، فإن الأربعين منها ذَكَرٌ ومنها أنثى، والأنثى قد تلد وقد لا، فالنماء في الربع. فبقي عشرة فيها الواحدة من أربعين، ووجب في المائة وأحد وعشرين شاتان. وذلك لأن أصل النصاب لا تتخذ[٨] فيه السِّخال[٩] / ففي الأربعين واحدة. بقي ثمانون مستفادة ومستزادةً على الأصل، ففيها الصغير والكبير، سقط نصفها بقي أربعون فيها الذكر والأنثى، سقط نصفها بقي عشرون [فيها] ما يتفق لها ولادة وفيها ما لا يتفق، بقي عشرة فيها واحدة. [٢٤ظ]

---

١ الآية ١٨٤ من هذه السورة.

٢ ش – فضل فيه لا زكاة عليه ولهذا حيوان التجارة يزكى بالقيمة ولما كان وضع الزكاة لدفع الحاجة الأصلية فما لا، صح هـ.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ (سورة الأنعام، ١٦٠/٦).

٤ يقال: هذه الأرض تُسقى بالماء سيحا، أي بالماء الجاري الظاهر.

٥ أي نبات الأرض التي تُسقى من ماء الحوض.

٦ ر ك: وما لا يتفق.

٧ ش ك: يتفق.

٨ ر: لا تتخذ.

٩ يقال لولد الغنم ساعة تَضَعُه أمه من الضأن والمعز جميعا، ذكرا كان أو أنثى: سَخْلَة، وجمعها: سخال (تهذيب اللغة للأزهري، «سخل»).

وكذلك أحد وعشرون ومائة بالنسبة إلى مائتين وواحدة كالأربعين بالنسبة إلى أحد وعشرين ومائة، فإن الزائد ثمانون كما تقدم. فإذا انتقلت إلى أربعمائةٍ انتقلت[1] إلى ضابط مطّرد وهو عُشر العَشر، لأن أجزاء القليل من الشيء الكثير شيء كثير، ولأن الماشية إذا كثرت تحتاج إلى مغارمَ فخُفِّفت الزكاة لذلك.

وأما الإبل والبقر إنما كان نصابه أقل وواجبه أكثر، لأن لها منافع زائدةً على منافع الغنم، فلَحِق الذكرُ بالأنثى منها لِحرث البقر وحمْلِ الجِمال على الظَّهر بعد حمل البطن والدَّرّ.[2]

وأما الذهب والفضة فكذلك أيضا، لأن الزكاة هي في العشرة النامية واحدةٌ من أربعين شاةً، والعشرةُ دراهمَ عند أبي حنيفة دينار، وعند الشافعي اثنا[3] عشر [درهما]،[4] والواحد يكفيه في يومه نصف درهم. ولهذا في أكثر البلاد أجرة الفاعل نصف درهم، لأنه لا يعمل إلا لدفع حاجته، فلو لم يدفع حاجته لما عمل به. فأربعمائةِ نصفِ منها حاجةُ سنةٍ يبقى عشرون درهما هو رأس المال الذي يمكن صاحبَه أن يكسب عليه في اليوم نصفَ درهم، فربع العشرين بخمسة دراهم. فكما أن ربع عشر المائتين خمسة دراهم، كذلك ربع عشر الأربعين شاة واحدة، وفي الغالب قيمتها خمسة دراهم. ولم يمكن جعل النصاب أقل من مائتين لما تقدم من ضرورة الواحد إلى ذلك، فهذا تعليل الحكم.

ولما كان الخطاب لأهل الكتاب عُيّن أن هذه الصلاة والزكاة ليست من صلاتهم، أعني اليهود لقوله: **واركعوا مع الرّٰكعين**، واليهود لا يركعون.

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

أتأمرون الناس بالبر، وهو ضد العقوق، **وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتب**، التوراة؛ والتلاوة ما يتلو بعضه بعضا، والقراءة الجمع. فالكلام ههنا لعلماء[5] اليهود ممن يتلو الكتاب ويأمر قومه بالبر. **أفلا تعقلون**، ما تتلون وتأمرون به. و"العقل" المنع،

---

[1] ر ك: انتقل.

[2] الدَّرّ: اللبن أو الكثير منه. دَرّ دَرُّه: كثر خيره (لسان العرب، «درر»؛ والمعجم الوسيط، «در»).

[3] ر ش: اثني.

[4] انظر لتفصيل ذلك: الحاوي الكبير لابن حبيب الماوردي، ٢٢٩/١٢.

[5] ك: العلماء.

وهو مثل عَقْل البعير، أعني بالعِقال. فالعقل لعقله عما يقبح وعلى ما يحسن سمي عقلا؛ و"النُّهَى" لكونه ناهيا عن القبائح؛ و"الحِجْر" لجعله صاحبَه في حَجْرٍ عما لا يجوز؛ و"اللُّبُّ" لكون ذلك الجزء من الإنسان بالإضافة إلى سائر أجزائه كلُبِّ الشيء إلى أجزائه.[1] والأسماء الأربعة للعقل، واللب أشرفها.

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾

وقدم الصبر فيما يأتي بعموم نفعه وإن كانت الصلاة أرفعَ منزلة، لأنها تَجمع ضَرْبَي الصبر، وهما حبس الحواسّ على العبادة والأفكارِ على الطاعة، ومتى لم تَنْهَ عن الفحشاء والمنكر فليست بصلاة.[2] وهي كثيرة بالإضافة إلى غيرها من العبادات، وذلك معنًى غير ما نوضحه[3] عند الاستثناء فيما سيأتي. وتأثير الصبر في إزالة ما لا ينبغي، وتأثير الصلاة في حصول ما ينبغي، والنفي مقدم على الإثبات فقال: **واستعينوا بالصبر والصلوٰة**، أي في جميع الأمور. وذلك أن الصبر يُحتاج إليه في جميع الأمور، وكذلك الصلاة لِما فيها من الدعاء والطلب من الله سبحانه، فهي[4] دعاء ولكن بأفضل الصور. فكأنه قال: اصبروا وسَلُوا الله الإعانة على إقامة الصلاة وسائر الحاجات. **وإنها لكبيرة**، تقول: كَبُرَ عليه هذا الأمر الذي جرى، أي ثقل، ولم يقل: "ثقيلة" لكونها في نفسها كبيرة القدر وعلى غير الخاشعين ثقيلةً بالمعنى. **إلا على الخٰشعين**.

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

الذين يظنون، اعلم أن هذه اللفظة[5] في حقيقة الأمر هي التي يجب أن يعبر بها في هذا الموضع وأمثاله، وقد تكرر مثلها في مواضع من القرآن. ومن المفسرين من قال: **يظنون**، بمعنى يحققون،[6] وقد قيل: إن الظن ضد اليقين، وليس كذلك، وإنما الشك ضد اليقين. والشك ما استوى طرفاه، تقول: أنا على شك هل صليت أم لا، وتقول:

---

[1] ش – كلب الشيء إلى أجزائه، صح هـ.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٤٥).

[3] ك: ما توضحه.

[4] ش ك: وهي.

[5] أي لفظة الظن.

[6] انظر مثلا: جامع البيان للطبري، ٦٢٤/١-٦٢٥؛ ومعاني القرآن للزجاج، ١٢٦/١؛ وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، ١٠٣/١؛ والعمدة في غريب القرآن لمكي بن أبي طالب، ص ٧٤؛ وزاد المسير لأبي الفرج ابن الجوزي، ٧٦/١، ٢٩٨، ٢٨٣/٣، ٢٩٦/٤، ٤٦/٥.

أظن أنني صليت، فهو مرتبة بين الشك واليقين هي أقرب إلى اليقين وأولى به، يدلك على ذلك الاستعمالُ ولا يدلك على مثله في الشك. ولما كانت جميع الأمور الغيبية لا سبيل لنا إلى[1] أن نَتَيَقّنها ولا يجوز لنا[2] أن نشك فيها وجب أن / تكون عندنا على [٢٥و]
صورة ظن نبني[3] عليه الأفعال كما نبني[4] على اليقين. فكل ظن هو أميل إلى اليقين وأولى به نبني[5] عليه، وهذا أمر نجد[6] الناس يسلكونه. فمتى كان ذلك الظن قد أسنده العقل بالإيمان إلى أصل صحيح مثل كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه السلام فلا غلط في ذلك الظن بل هو كاليقين ولو كان ظنا، إذ لا سبيل أن يكون[7] في جميع المواطن الغيبية التي ذكرها الله لنا ووصفها من أمور الآخرة إلا على صورة تقليد له وظنٍ أنه هو الصحيح. وإلا فقد كُلِّفْنا علمَ الغيب وأُلزمنا بما لا تقضي به بديهة عقولنا، إذ نأتي إلى أمور غيبية ونلتزم أنا نراها عيانا، سوى أن من الأشياء ما شهد له البرهان فهو أبلغ من العيان.[8] غير أن الله تعالى أكرمُ مِن أن يُهلِك من لم يصل إلى ذلك اليقين وهو غير مثال. وإذا وعد الله سبحانه بالسلامة للذين يظنون فكيف للذين يحققون؟ فإن عارضتَ بقوله تعالى عن الكفار: إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ،[9] وقوله: وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا،[10] فاعلم أن الظن واحد من الفريقين، غير أن المؤمنين ظنوا خيرا وبنوا عليه والكفارَ ظنوا شرا وبنَوا عليه، وذلك مثل تكذيب الرسول وما جاء به. وأنت تعلم أن الكفار لا يظنون أنهم ملاقو ربهم، والمؤمنين،[11] يظنون أنهم ملٰقوا ربهم. وهنا فائدة يجب أن تفقهها[12] وتعلمَها، وهو أنك لا تظنَّ أن الصلاة هي عبارة عن ألفاظ معلومة في أوقات مخصوصة مع حركات محصورة بل ذلك من لوازمها، ولكن يجب أن تفرض في خاطرك أنك قد جعلتَ لك وقتا تَخلُص[13] وتتخلى عن شواغلك وتقف بين يدي الله، طاعةً له فارغا من سواه وإن لم تنطق بشيء ولم تأت بحركة، وهذا من معنى قوله: وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا.[14] وإذا[15] كان كذلك

---

[1] ش – إلى.

[2] ر ك – لنا.

[3] ش: يبنى.

[4] ش: يبنى.

[5] ش: يبنى.

[6] ر: تجد.

[7] ر: أن تكون؛ ك: أن نكون.

[8] ك: من الأعيان.

[9] ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (سورة الأنعام، ١١٦/٦).

[10] سورة النجم، ٢٨/٥٣.

[11] ش ك: والمؤمنون.

[12] ش ك: أن تفهمها.

[13] ش ك: يخلص.

[14] سورة المزمل، ٨/٧٣.

[15] ش ك: فإذا.

فأولى ما شغلتَ به لسانك الذكرُ في ذلك الوقت، وأولى ما شغلتَ به[١] قلبَك التأملُ له والاعتبار مضافا إلى ما يعلّمك الله تعالى.

واعلم أن قوله: الذين يظنون، يفهم منه أي حين الصلاة، أنهم ملقوا ربهم، ولم يقل: سيلقَون ربهم بل قال: ما يفهم منه الحال وبعده المآلَ بقوله: وأنهم إليه رٰجعون، وقد يقع اللقاء دون الجزاء، فذكرُ الرجوع كقوله: تُرْجَعُونَ... ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ.[٢]

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧﴾

فضلهم بكثرة الأنبياء فيهم والمعجزات والمَنّ والسَّلْوى ومثل ذلك. وأصله من التفضيل لا من الفضيلة، والكلام على ما مضى ومن مضى، لهذا قال: اذكروا.

واعلم أن هذا القول ذم لهم، لأن الإنسان إذا أُعطي قسما كبيرا من الخير والبِرّ فكفر النعمة ولم يشكر من أنعم بها عليه فقد دل على أنه موضع اللوم والمقت، بخلاف من أنعم عليه ببعض ذلك فشكر وأثنى. وقد قال الله تعالى في التوراة ما هذا مقلوبُ عِبْرِيّه[٣] عربيا[٤] عند ما وعد بني إسرائيل بالأرض المقدسة، وهم في ذلك الوقت أفضل بني إسرائيل الماضين والآتين، فقال: إذ ليس بصلاحك واستقامة قلبك أنت آتٍ لترث هذه الأرض، بل بظلم هؤلاء الأمم الله مُبيدُهم من بين يديك.[٥] وهذا خطاب للجميع[٦] بلسان الفِراد، وهذا إلى يومنا هذا في التوراة. ومن كان في وقت الرضا عند الله على هذا الحال فكيف حاله بعد ما غضب[٧] الله عليه ولعنه؟ وإنما حاله الآن كما قال تعالى: مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا،[٨] وتمام الآية. وأما من حملها فليس منهم، لأنه أسلم، وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ.[٩]

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨﴾

١ ش – لسانك الذكر في ذلك الوقت وأولى ما شغلت به.

٢ ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٨١).

٣ ش ك: عبرية.

٤ ش: عربية.

٥ راجع لتفصيل القصة في التوراة: التَّثْنِيَة: ٨/١-٢٠، ٩/١-١٥.

٦ ر ك: للجمع.

٧ ش ك: بعد غضب.

٨ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (سورة الجمعة، ٦٢/٥).

٩ سورة طه، ٢٠/٤٧.

الشفاعة مشتقة من الشفع الذي هو إضافة ثانٍ إلى أول، كأن[1] سؤالا من الشافع تَقدمه سؤالٌ من المشفوع فيه. والإشارة ههنا إلى نفس ظالمة. وقوله: وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ[2] بمعنى يجاب، لأن الإجابة إلى مقصود الشفيع طاعةٌ له، والمعنى أنه لو كان لهم شفعاء من المؤمنين فلا يطاعون. وقوله: فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ،[3] أي لو شفع فيهم سائر الشافعين، لأن الملائكة والمؤمنين[4] لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله أن يُشفَع فيه.[5]

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

[٢٥ظ] **وإذ نجينٰكم من ءال فرعون**، معطوف / على قوله: ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ.[6] واذكروا، إذ نجينٰكم. والنجاة مشتقة من النجوة، فهي ههنا ارتفاع من الهلاك. **يسومونكم**، من السائمة، يقال: سامت الماشية تسوم سَوما إذا رعت مرسَلة، وسُمتُها سُقْتها مرسلة. فهم كانوا يسوقونهم جَلْمَةً[7] كالسائمة. **سوءَ**، بسوء، **العذاب**، من ذلك أنهم، **يذبّحون أبناءكم**، وفي سورة إبراهيم: وَيُذَبِّحُونَ[8] بزيادة واو. المعنى أن الكلام في البقرة من جهة الله لقوله: **نجينٰكم**، وفي إبراهيم جاء الكلام من جهة موسى، فحسن فيه زيادة الواو، لأنه[9] حكى ما تقدم، ولهذا قبله: إِذْ أَنجَىٰكُم. وفيه معنى آخر غير مناقض وهو أنه لو لم يذكر الوصف بزيادة الواو التي في سورة إبراهيم لكان جملة معنى[10] قوله: سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ، هو ذبح الأبناء واستحياء النساء لا غير. فلما زاد الواو بيّن أن سوء العذاب كان بعدة صُورٍ غير الذبح والاستحياء، ففهمنا ما في البقرة بما[11] في إبراهيم. ولما كان الذبح والاستحياء من أشد العذاب جاء في البقرة بصورة التفصيل وفي إبراهيم بصورة الزيادة، فافهم. وهنا نكتتان. أحدهما أنه عد استحياء النساء مصيبة كذبح البنين،

---

١ شن: كان.

٢ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ (سورة المؤمن، ١٨/٤٠).

٣ سورة المدثر، ٤٨/٧٤.

٤ وقع تقديم وتأخير في بعض الكلمات في نسخة "ر"، فأثبت الترتيب حسبما جاء في النسختين الأخريين: ش ك.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير هنا إلى قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ٢٨/٢١).

٦ الآية ٤٧ من هذه السورة.

٧ الجَلْمة جميعُ الشيء، يقال: أخَذَه بجَلْمَتِهِ، أي بأجْمعه (تاج العروس للزبيدي، «جلم»).

٨ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (سورة إبراهيم، ٦/١٤).

٩ ش ك: ولأنه.

١٠ ر – معنى.

١١ ش: كما.

والثانية أن الوصف بغير الواو أبلغ من الوصف بالواو وأشد فصاحة، تقول:[١] فلان فاضل يعرف النحو، يعرف اللغة، ينظّم[٢] القريض.[٣] فجعل الله أعلى الوصفين، أعني ما هو بغير الواو في الكلام الذي هو لنفسه. ولهذا في الأعراف: يُقَتِّلُونَ[٤] موضع يذبحون، وهما بغير واو. ويستحيون نساءكم وفى ذٰلكم بلٰؤا من ربكم عظيم.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾

وإذ فرقنا بكم البحر فأنجينٰكم وأغرقنا ءال فرعون وأنتم تنظرون، إلى أنفسكم في النجاة وإلى آل فرعون في الغَرَق.

﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۝٥١ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝٥٣﴾

وإذ وٰعدنا موسىٰ أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظٰلمون، في موضع نصب على الحال وغُيّر للوزان.[٥] ثم عفونا عنكم من بعد ذٰلك لعلكم تشكرون. وإذ ءاتينا موسى الكتٰب والفرقان، ما يُفرَق به بين الحق والباطل، وهو ههنا وصف من أوصاف الكتاب، لعلكم تهتدون.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٤﴾

وإذ قال موسىٰ لقومه يٰقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلىٰ بارئكم، هو المبدئ بخلق الشيء، فاقتلوا أنفسكم، أي بعضكم بعضا،[٦] كأنه قال: فإذا تبتم فاقتلوا من لم يتب. وذكر الأنفس المضافة إليهم وهم الأقارب ليلزم عن ذلك قتل الأباعد. ذٰلكم خير لكم عند بارئكم، للقاتل والمقتول، أي ففعلتم، فتاب عليكم

---

١ ش: وتقول؛ ر: ونقول.

٢ ك: ينضم.

٣ القريض: الشعر، من قرض إذا مدحه أو ذمه (لسان العرب، «قرض»).

٤ ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ (سورة الأعراف، ١٤١/٧).

٥ أي ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ في موضع نصب على كونه حالا لضمير ﴿ٱتَّخَذْتُمُ﴾، لكن جاء مرفوعا ﴿ظَٰلِمُونَ﴾ للموازنة بما قبله من الفاصلة القرآنية.

٦ ش ك - بعضا.

إنه هو التواب الرحيم، هذا لفظ مجمل مفصله في التوارة.[1] والغرض أن يعدد جملا من نعمه عليهم،[2] ثم يوبّخهم[3] بعد ذلك على ما بدا من كفرهم ليكون عقابه لهم بحقٍ معلوما[4] عندهم وحجة واضحة عليهم.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦﴾

وإذ قلتم يٰموسىٰ لن نؤمن لك حتىٰ نرى الله جهرة، الجهرة مؤنثة جَهْر وهو ضد السر. والمعاينة تعود على المدرِك الرائي والجهرة على المدرَك المرئيّ. **فأخذتكم الصٰعقة**، وهي ههنا صاعقة الموت، من قوله: فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ،[5] وهو موت مخصوص، كما قال: وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ.[6] والمراد بلفظة "الصاعقة" هو الصوت الشديد. ثم قد يكون معه الموت تارة وتصحبه النار تارة، فإذًا الموت والنار لم يستفادا من لفظ "الصاعقة". ويجب أن لا يلتبس علينا المعنى الذي وُضع له اللفظ بالمعنى الذي[7] يتّبعه ويقتضيه وليس بموضوع له بالقصد الأول. وهؤلاء هم المخبَر عنهم بقوله تعالى: وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا.[8] **وأنتم تنظرون**، نظرَ المغشيّ عليه من الموت. ويدلك على أنهم ماتوا، قوله: **ثم بعثنٰكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون**.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧﴾

وظللنا عليكم الغمام، ظلا مضاعَفا يَقيهم من حر الشمس، إذ لم يكن في التيه[9] ما يستظل به هذا الجمع. **وأنزلنا عليكم المن**، لأن الله تعالى منّ به على بني إسرائيل

---

[1] راجع لتفصيل القصة في التوراة، الخُرُوج: ٣٢/١-١٠، ١٩-٢٤، ٣٥.

[2] ش ك - عليهم.

[3] ش: ثم لم يوبخهم.

[4] جميع النسخ: معلوم.

[5] ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (سورة الزمر، ٦٨/٣٩).

[6] سورة الرعد، ١٣/١٣.

[7] ش ك - وضع له اللفظ بالمعنى الذي.

[8] ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ (سورة الأعراف، ١٥٥/٧).

[9] التيه: هو الموضع الذي ضل فيه موسى عليه السلام مع بني إسرائيل بين أَيْلَة ومصر وبحر القُلْزُم وجبال السراة أربعون فرسخاً في أربعين فرسخاً. لما امتنعوا من دخول الأرض المقدسة حبسهم الله تعالى في هذا التيه أربعين سنة. كانوا يسيرون في طول نهارهم، فإذا انتهى النهار نزلوا بالموضع الذي رحلوا عنه، وكان مأكولهم المن والسلوى، ومشروبهم من ماء الحجر الذي كان مع موسى عليه السلام، ينفجر منه اثنتا عشرة عيناً، على عدد الأسباط، كل سبط يأخذ منه ساقية (آثار البلاد لزكريا القزويني، «التيه»).

في أصعب المواضع، والسلوىٰ، من التسلي عما كان لهم في مصر من اللحوم وغيرها.
لأنهم طلبوا اللحم من موسى فأوحى الله إليه أنْ سأُطعمهم / لحما إلى أن يخرج من [٢٦و]
آنافهم،[١] هذا لفظ التوراة. وهو كما تَضرب المَثَل لصاحبك في محادثته. ثم حذف "وقلنا لكم": كلوا من طيبٰت ما رزقنٰكم، أي واشكروا، فكفروا فعاقبناهم بظلمهم، وما ظلمونا ولٰكن كانوا أنفسهم يظلمون.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾

وإذ قلنا ادخلوا هٰذه القرية، الجامعة،[٢] [مِن] قَرَى،[٣] أي جمع، ومنه ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ.[٤] فكلوا منها حيث شئتم رغدا، رَغَد العيش سعته وطِيبته. وادخلوا الباب سجدا، يقال: دخل فلان المسجد مصليا، أي لأجل الصلاة لا للتفرج مثلا، ويشير إلى التأهب من عند الباب. وقولوا حطة، مثل حدة، وهو[٥] قول مأخوذ من الانحطاط، إذ المخطئ المعترف إذا قال: أخطأت فقد حط نفسه، فأمرهم بالتواضع قولا وفعلا. نغفر، نستر، لكم خطٰيٰكم، أي لمن كان خاطئا، وهو جمعُ كثيرٍ و"خطيئٰتكم" جمع قليل، فغفر الكثير والقليل، وأضاف[٦] الكثير إلى نفسه، وقدم السجود على الحطّة في أحد الموضعين وأخره في الآخر[٧] لِيُعلَم أنه ليس المقصودُ الترتيبَ بل المجموع. وسنزيد المحسنين، إحسانا إذا قالوا ذلك.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «وللشعب تَقول: تَقدَّسوا للغدِ فتأكلوا لحما، لأنكم قد بكيتم في أُذُنَي الرب قائلين: مَن يُطعِمنا لحما، إنه كان لنا خيرٌ في مصر؟ فيعطيكم الربُّ لحما فتأكلون؛ تأكلون لا يوما واحدا، ولا يومين، ولا خمسةَ أيام، ولا عشرةَ أيام، ولا عشرين يوما، بل شهرا من الزمان، حتى يَخرُج من مَناخركم» (العَدَد، ١١/١٨-٢٠).

٢ ش - الجامعة، صح هـ.

٣ ك ر: قرأ. | قرى: يدل على جمع واجتماع، من ذلك القرية، سميت قرية لاجتماع الناس فيها. وإذا همز هذا الباب كان هو والأول سواء. والقرء وقت يكون للطهر مرة وللحيض مرة (معجم مقاييس اللغة لابن فارس، «قرى»).

٤ ش - الجامعة قرى أي جمع ومنه ثلاثة قروء، صح هـ. | الآية ٢٢٨ من هذه السورة.

٥ ش ك: حدة وقوله هو.

٦ ش ك: أو أضاف.

٧ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٦١).

فبدل الذين ظلموا، يعم كل ظالم وسمى المبدّلين ظلمة، ولما زاد في سورة الأعراف "مِنْهُمْ"[1] خصّص، والخاص داخل في العام. لكنه ههنا أشار في العام إلى الخاص. **قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا**، الرجز سيذكر وهو عذاب الظاهر، والرجس إثم ينجّس النفس، **من السماء بما كانوا يفسقون**.

﴿۞وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾

وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر، أي فضرب، **فانفجرت**؛ والانبجاس يكون أولا وهو أقل من الانفجار للضيّق والواسع، الانبجاس في الواسع فقط، فكل انبجاس انفجار ولا ينعكس، فصح أن يقال في أحد المكانين انبجاس[2] وفي الآخر انفجار، لأن العامّ يدخل فيه الخاص. **منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم**، لأنهم كانوا اثني[3] عشر سِبْطا، فتحققوا أن كل عين لسبط بلا شك أو اتفاق. **كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا**، من عاث،[4] أي أهلك وآذى بفساده، ومنه عُثّ[5] الثوب إذا سرى فيه الفساد، وعاث وعثى مثل سار وسرى. **فى الأرض مفسدين**.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

---

١ ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ (سورة الأعراف، ١٦٢/٧).

٢ يشير المؤلف رحمه الله إلى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ (سورة الأعراف، ١٦٠/٧).

٣ ش ك: اثنا.

٤ قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، القراء كلهم قرءوه: ولا تعثوا بفتح التاء من عَثِيَ يَعْثَى عُثُوًّا وهو أشد الفساد. وفيه لغتان أخريان لم يقرأ بواحدة منهما عثا يعثو مثل سما يسمو، قال ذلك الأخفش وغيره. ولو جازت القراءة بهذه اللغة لقرئ 'ولا تَعْثُوا' ولكن القراءة سنّة، ولايقرأ إلا بما قرأ به القراء. واللغة الثالثة عاث يعيث، قال الليث: العيث: مصدر عاث يعيث، وهو الإسراع في الفساد. والذئب يعيث في الغنم فلا يأخذ منه شيئا إلا قتله (تهذيب اللغة للأزهري، «عثا»، «عاث»).

٥ العُثَّةُ السُوسَةُ أو الأَرَضَةُ التي تَلْحَسُ الصُوفَ، وعَثَّت الصُوفَ والثَوْبَ تَعُثُّهُ عَثًّا أَكَلَتْه، وعُثَّ الصُوفُ أَكَلَه العُثُّ، والعُثُّ دُويبة تأكل الجُلود (لسان العرب، «عثث»).

وإذ قلتم يٰموسىٰ لن نصبر علىٰ طعام وٰحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها. هذه الأسماء، كل اسم على مسماه المشهورِ الآن. قال أتستبدلون الذى هو أدنىٰ بالذى هو خير اهبطوا مصرا، كلامُ مستهزئ ذي غضب، أي اهبطوا إن شئتم ذلك، فإن لكم، فيها، ما سألتم. وكما أن الأمر ههنا لا يدل على أنهم هبطوا بل دل على غضب وتهديد، فكذلك قوله: ٱهۡبِطُواْ،[١] لآدم وحواء وإبليس، ولا يكون هناك مكررا.

وضُربت عليهم الذلة والمسكنة، أي ذلة الافتقار إلى ما سألوه. بقيت عليهم تلك الذلة دائما مضروبةً كما تضرب الخيمة المحيطة بمن ضُربت عليه. والمسكنة، من لفظ المسكين ومن معناه. وباءو، أي رجعوا، وهو بالمعنى ليس فيه ذهاب ولا رجوع، بغضب من الله. ذٰلك، جزاؤهم، بأنهم، باء السبب، كانوا يكفرون بئايٰت الله، وهم مستمرون فالجزاء مستمر، وتقديره ههنا، وكانوا يعتدون، وأخَّره للوِزان. وبيّن بعض الاعتداء بقتل الأنبياء فقال: ويقتلون النبيين بغير الحق، أي بغير حق عندهم بل هم يعلمون أنه لا يجوز قتلهم إلا بذنب يستحقون القتل به، وأنهم لم يأتوا بذلك، ثم يقتلونهم ظلما بعد ذلك العلم. ثم كرر لفظة "ذلك"، لأنها سبب السبب، أي وإنما فعلوا، ذٰلك بما عصوا، فافهم ذلك، وعطف على قوله أولا: كانوا، وكانوا يعتدون.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾

ولما ذكر الذم لأهل الكتاب في هذه الآية وكان المفهوم منها / إطلاق الذم على [٢٦ظ] جميعهم في ذلك الزمان وما بعده عرّفنا أن الذم إنما هو لمن [لا] يؤمن بالله واليوم الآخر، فأخرج الخصوص من العموم بقوله بعدها: إن الذين ءامنوا، أي قبل نزول التوراة بالأنبياء، والذين هادوا. قيل: نُسبوا إلى يهوذا[٢] وهو أكبر أولاد يعقوب قدرا وهو شريف، فنسبوا إلى أشرفهم. والنصٰرىٰ، قيل: من النَّصر، لأنهم نصروا المسيح لقوله:

---

١ الآية ٣٨ من هذه السورة.

٢ يهوذا: الابن الرابع من أبناء يعقوب. وهو الذي اقترح على إخوته أن يبيعوا يوسف إلى بعض التجار بدلا من أن يعمدوا إلى قتله (المورد لمنير البعلبكي، «يهوذا»).

مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ.[1] وقيل: نسبوا إلى قريته الناصرة[2] بالشام. وإنما سميت[3] بذلك لنصرة أهلها له. والصٰبئين، الخارجين عن متابعة الملتين المذكورتين،[4] ويريد بقية الناس من مؤمن وكافر إعلاما أن المجوسي والمشرك إذا آمن له أجره. وليس المراد أن الصابئ له أجره وهو صابئ، ولهذا ذكر "الصابئين" ههنا بعد، النصٰرىٰ، وفي المائدة[5] والحج[6] قبلهم لئلا نظن أنهم أرباب ملة مؤمنة معينة. بل لما كان الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالحُ لا يكون إلا بواسطة نبي لعجز العقول عن رُتب الأنبياء، وكان الناس منهم التابعون لنبي ومنهم الكافرون، والتابع قد يكون تابعا بالاسم[7] أو الظن[8] كاليهود والنصارى. الآنَ بيّن الله سبحانه لنا أن أتباع الأنبياء بالحقيقة من كل طائفة في كل زمان[9] لهم أجرهم، سواء كانوا من ملة[10] نبي الوقت أو من غيرها، ثم اتبعوا نبي الوقت. والصابئ ههنا لا يلزم أنه كان في ملة وخرج عنها بل هو خارج عن أن يكون من المعيَّنَيْن. ويقال: صبأ بالهمز إذا خرج من دينه، وصبأت النجوم من مطلعها، وصبأ نابُه أي خرج. قال المشركون لأبي طالب: سَلّمْ إلينا ابن أخيك هذا الصابئَ. وأما غير المهموز فهو بمعنى مال، يقال صبا يصبو، ومنه الصبي لفرط ميله، فهو بوزن فَعيل. وفي الحج ذَكر الأمم على الترتيب، وأضاف إليهم ملتين، وذكر الفضل دون الأجر ليدل في الحج على أن هذه الطوائف هم جميع مَن في العالم. فأراد بقوله في المائدة: مَنۡ ءَامَنَ،[11] أي من آمن[12] الآن مع محمد صلى الله عليه وسلم فلا خوف عليه. وقوله ههنا: من ءامن، أي من قبلُ إلى الآن، أي كان[13] قد آمن بنبيه في وقته وزمنه إلى أن جاء محمد صلى الله عليه وسلم. وقد بينا مثل ذلك في المائدة فطالعه لئلا يشتبه عليك أو تظن

١ ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٥٢).

٢ الناصرة: هي مدينة في الجزء الشمالي من فلسطين، فيها ولد عيسى عليه السلام وقضى سنوات طفولته الأولى (المورد لمنير البعلبكي، «الناصرة»). وانظر أيضا: آثار البلاد لزكريا القزويني، «ناصرة».

٣ ش ك: وإنما نسبت.

٤ يعني اليهود والنصارى.

٥ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ (سورة المائدة، ٥/٦٩).

٦ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ (سورة الحج، ٢٢/١٧).

٧ ك: بالإثم.

٨ ش ك: والظن.

٩ ر ش: زمن.

١٠ ك: من مثله.

١١ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ (سورة المائدة، ٥/٦٩).

١٢ ر – آمن.

١٣ ر – كان.

أنه كرّر لغير فائدة. ولهذا نصب الجميعَ ههنا عطفا[١] على "إن"، وتقديره ههنا، من، كان قد، ءامن بالله واليوم الآخر وعمل صٰلحا، من سائر الخلق، ولا يكون هذا إلا باتباع نبي.

فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وجُمع لأجل الوِزان. وهذا جميعه كان كذلك إلى أن جاء النبي صلى الله عليه وسلم، [فـ]ـرجع الحكم في المستقبل من مجيئه إلى قوله تعالى: وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ.[٢] فالحكم في الآيتين مطلق، غير أن الفرق بينهما أن هذه لتابع الأنبياء من آدم إلى محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين، والتي في المائدة من محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة كما أوضحناه فيها.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

ولما أفرد ههنا من لم يلحقه الذم من المذكورين عاد إلى بقية ذمهم فقال: وإذ أخذنا ميثٰقكم، الميثاق مفعال من الوثيقة، ورفعنا فوقكم الطور، كقوله: وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ.[٣] وتقديره وقلنا: خذوا ما ءاتينٰكم بقوة، أي بقوة إيمان ويقين، وإلا أطبقناه عليكم. واذكروا ما فيه، أي ما فيما آتيناكم، وهو الكتاب وفيه الميثاق باتباع النبي عليه السلام، لعلكم تتقون، بالذكر ما نهيناكم عنه من الكفر.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

ثم توليتم، الخطاب لأولئك، وهو لتُبّاعهم وأمثالهم، من بعد ذٰلك فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخٰسرين.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾

ولقد علمتم، قضية، الذين اعتدوا منكم فى السبت، إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا،[٤] وهو بيِّن هناك، فقلنا لهم / كونوا قردة خٰسئين، إشارة[٥] إلى قضية كانت معلومة عندهم [٢٧و]
بصورة لا يمكن إنكارها. وعطف هذه الآية على ما قبلها لأن الأولى ذكر فيها

---

[١] ر – عطفا، صح هـ.
[٢] سورة آل عمران، ٣/٨٥.
[٣] سورة الأعراف، ٧/١٧١.
[٤] ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٦٣).
[٥] ر: أشار.

ثُمَّ تَوَلَّيْتُم،[1] وهذه يلزم عنها من معنى اللفظ أيضا مثل ذلك من التولي والاعتداء. والسبت لفظة عبرانية، وهي عندهم "شبث"، ومعناها عُطْلَة، وفي العربية أصلها من السُّبات. والمعنى أن الله تعالى فرض عليهم أن يكون هذا اليوم لهم يوم عطلة تتعطل به الحواس عن المعائش كما تتعطل حواس النائم مثلا. والقصد أن لا يشتغلوا عن ذكر الله تعالى، فشغلوا أنفسهم في ذلك اليوم باللهو واللعب وشربِ الخمر، وظنوا أن المقصود بهم الراحة فقط. وليس كذلك بل المقصود بالراحة أيضا أمر آخر، وهو التوفر على الذكر، فتنوعوا في أكل الأطعمة اللذيذة وأنواع الراحات واللعب الذي هو أشد شاغل عن ذكر الله تعالى، فهذا حالهم الآن. فمعنى الآية وإن كان لأولئك[2] بالصورة فهو لهؤلاء بالمعنى بل هؤلاء أحق به، فإنهم قِرَدَة ليس لهم نصيب من الإنسانية سوى المحاكاة والصورةِ فقط. وقوله: خٰسئين، أي كما يخسأ الكلب. هذا وما بعده يدلك على أن ظواهرهم غُيِّرت فكانت قردة.

﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

فجعلنٰها، أي جعلناها قردة كذلك، ثم قال: نكٰلا، والهاء في "فجعلناها"، عائدة على القردة. والمعنى أنا قلنا لهم: كونوا قردة خاسئين فكانوا، فوضع قوله: فجعلنٰها، موضع "فكانوا"، ولهذا أخبر بالفاء. واعلم أن كل ما يعاقب به المذنب على صورة إشهار يمنع الرائي لذلك أو السامع به أن يفعل كذلك يقال له نكال؛ وهو مشتق من النكْل، ومعناه القيد المانع عن ذلك. وقوله: لِمَا،[3] معناه للذي، كقوله: وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ.[4] وقوله: بين يديها، أي يدي القردة، وهذه العبارة تقال عما تقدم، مثل قوله: مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ،[5] وعما هو حاضر. وههنا يريد ما هو حاضر بين يديها من بني إسرائيل، إذ ليس يجوز أن يكون الضمير عائدا على من تقدم. وعُدم قبل أن تصير القردةُ قردةً، وإنما هو ههنا عبارة عما هو حاضر. لكنه لما كان وجود الذي بين يديها من الحاضرين المعتبرين متقدما على كيان القردة عبّر بهذه العبارة التي تقع على الماضي والحاضر، ولهذا قال: فجعلنٰها نكٰلا، ولم يقل: فجعلناهم نكالا لما بين يديهم، فإن الكلام كان يعود على الذين صاروا قردة، ولكن قبلَ كيانهم قردة، أي حين كانوا أناسيَّ،

---

[1] الآية ٦٤ من هذه السورة.
[2] ك – لأولئك.
[3] ر – لما.
[4] سورة الليل، ٣/٩٢.
[5] ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ (سورة المائدة، ٤٦/٥).

وليس في كونهم من قبل أناسيّ نكالٌ، وإنما النكال بعد الجعل فلزم أن يقول: **فجعلنٰها**، وأن يقول: **لما بين يديها وما خلفها**، أي والذي تأخر خلفها من أصحاب السبت. وهذا مثل قوله تعالى: وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا،[1] أي من بعد موتهم.

واعلم أن ما بين الأيدي يدل على المستقبل وعلى الحال، ومثله يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وقوله: وَمَا خَلْفَهُمْ،[2] فإن[3] لفظة "خَلْف" تقال على الماضي وعلى المستقبل، فافهمها في كل موضع بحسب ما يجب فيه. فأما على الماضي فكقوله: إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ،[4] لا جائز أن يكون ههنا وَمِنْ خَلْفِهِمْ إلا عن الماضي، فافهمه. وأما عن المستقبل فكما ههنا، إذ لا جائزٌ أن يكون الكلام عن الماضي. وإنما قيلت[5] هذه الكلمة وهي الخلف وأريد بها الماضي تارة والمستقبل تارة لأن الاعتبار المتوجه[6] فيه يعود ما قُدّامُه خلفَه وبالضد. وأما قوله تعالى: مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا، ثم قال: وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ،[7] فقد بينا في سورة مريم أن المراد بقوله: وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ، هو[8] عمر الدنيا، وقوله: مَا بَيْنَ أَيْدِينَا، هو[9] من حين كلام الملائكة في الجنة إلى مستقبل لا آخر له، وقوله: وَمَا خَلْفَنَا، هو إشارة إلى قبل إيجادهم متصل بما لا أول له. ولو كان قوله: مَا بَيْنَ أَيْدِينَا يدل على الماضي والحال لَمَا احتاج أن يقول: وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ، فافهم هذا جيدا، خصوصا وقوله: وَمَا خَلْفَنَا، هو أدل على الماضي من دلالته على المستقبل.

واعلم أن الله تعالى[10] / أخر لفظ الموعظة وجعله مفصولا عن النكال لئلا يعود [٢٧ظ] النكال على المتقين، ولا فائدة في عودته عليهم كما ستعلم، فقال: **فجعلنٰها**، أي مستمرة قردة لئلا يَظن[11] الظان أنها عادت أناسِيّ بعد ذلك، ثم قال ما تقديره "نكالا وموعظة"، أي نكالا للذي هو الآن بين يديها من أصحاب السبت ومن الذين خلفها منهم، أي ممن يسمع، فهو معنى [قوله:] **وما خلفها**، لئلا يعتديَ كما اعتدت في السبت فيجري عليه كما جرى عليها. ثم قال: **وموعظةً للمتقين**، أي من غير أصحاب السبت، فلهذا لم يقل: نكالا وموعظة معا بل قدم النكال لقوم أشار إليهم بقوله:

---

١ ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ﴾ (سورة النساء، ٤/٩).

٢ الآية ٢٥٥ من هذه السورة.

٣ ر ش: فاعلم أن.

٤ ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ (سورة فصلت، ٤١/١٤).

٥ ك: وإنما قبلت.

٦ ر ك: للمتوجه.

٧ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (سورة مريم، ١٩/٦٤).

٨ ك – هو.

٩ ش: وهو.

١٠ ر: واعلم أنه تعالى.

١١ ك: لئلا تظن.

لِما بين يديها وما خلفها، أي ممن يحتاج إلى النكال[1] المانع له عن التعدي في السبت، وأخر الموعظة وجعلها للمتقين. ولو كان المعنى في قوله: لِما، أي لأجل ما قدّمت، بين يديها، من عملها وما أخرت، خلفها، من دنياها فلم تُقدّمه ثم قال: نكَلا، لها لجعل موضع اللام في لِما باء السبب، ولا جائز أن يكون النكال لها، إذ لا فائدة في امتناعها عن العدوان في السبت بعد أن صارت قردة.

وإنما الفائدة لغيرها من أصحاب السبت خاصة إذا امتنعوا بما يرونه بين يديها أو يسمعونه خلفها عنها، فالنكال والمنع لهم، وغيرُ أصحاب السبت من المتقين لهم بما جرى موعظةٌ، ولهذا قيل: هم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم. ويحتمل أن يقال: إن النكال والموعظة هي للمتقين من بني إسرائيل في ذلك الزمان، إذ غير المتقي لا يفيد فيه النكال ولا تؤثر فيه الموعظة. وأما قوله: لما بين يديها وما خلفها، فلو قلنا: إنه لِما بين يديها من عملها لعاد جعلُها قردةً إنما[2] هو لأجل ما قدمت وأخرت، لا لأجل الاعتداء في السبت؛ وليس كذلك، بل المراد أن الجعل هو قُبالةَ الاعتداء وإلا يعود الاعتداء[3] غير محذور إذا كان وحده، فافهم ذلك.

واعلم أنه لو لم يكن جعْلهم في ظاهر الأمر قردة لما كان ظهر ذلك ولم[4] يكن نكالا ولا موعظة ولَمَا قال: وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ.[5] فإن قلت: لِم لا سُطر هذا في التوراة؟ قلنا: يحتمل أنه جرى بعد نزولها، ويحتمل أنه من جملة ما أسقطوه وبدّلوه بغيره. وأما الآن فاليهود بهذه المثابة بالمعنى وإن لم يكونوا بالصورة، ويجب ذلك لأن اليهود اعتدوا لونا واحدا في فريضة واحدة، وهؤلاء ألوانا كثيرة في عِدّة فرائضَ فهم أحق، ولهذا أخبر الله تعالى بحال أولئك لنعلم منه حالَ هؤلاء.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾

وإذ قال موسىٰ لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، مشتقة من بقرَ الأرضَ أي شقّها. واعلم أن في التوراة إلى يومنا هذا أن موسى عليه السلام أمر بني إسرائيل عن أمر الله تعالى أن يتخذوا بقرة، وأن تلك البقرة تذبح ويحرقها الإمام هارون أخو موسى عليهما السلام

---

[1] ش ك: إلى نكال.
[2] ش: وإنما.
[3] ش – وإلا يعود الاعتداء، صح هـ.
[4] ش ك: ولو لم.
[5] من الآية السابقة.

أو مَن بعده مِن نسله في الإمامة، ثم يبقى رمادها عند الإمام. وفرض عليهم إذا ما أرادوا أن يتطهروا من أنواع النجاسات يأتون إلى الإمام في وقت معلوم بعد أيام معدودة عندهم بحسب تلك النجاسة. إذ للحائض عدة، ولمن يكون قد دنا من مَيّت عدة أخرى، ولمن به مرض مخصوص غير ذلك، فلكل متطهرٍ من نجاسة مّا مدةٌ مخصوصة به معيَّنةٌ في التوراة له. فإذا قضى المدة أتى إلى الإمام فينضِح[١] عليه رماد البقرة المذكورة أولا. وبعد ذلك يَطهرُ وإلا فلا طُهْر له أوّلا بوجه. ومتى لصق ذلك النجس بشيء طاهر عاد ذلك الطاهر نجسا بنفس دُنوّ النجس منه. ومن حين عُدموا هذا الرمادَ وإلى الآن كلهم أنجاسٌ باعترافهم. ولا سبيل لهم إلى جحود هذه القضية إذا حاقّهم خبيرٌ بالتوراة.[٢] فاعلم ذلك.

فإن قيل: إن ذلك إنما أمرهم الله به لكونهم عبدوا من البقر[٣] معبودا دون الله تعالى. فصيّر الله تعالى ذلك فيهم تذكرة وإشارة لهم لكي لا يَنْسَوا ما جرى من آبائهم / ليتوبوا [٢٨و] ويتذكروا عند كل طهر ويبعدوا عن الشرك، فتَطْهر بواطنهم كما طَهُرت ظواهرهم، فذلك حسن. ولا حاجة لنا إلى معرفة السبب الذي من أجله تعبدهم الله بهذا ولا بمثله لِما أغنانا الله عن جميع ما في أيديهم بالقرآن العظيم.

وأما ما قيل عن البقرة التي أُمروا بها من أجل القتيل فتلك بقرة أخرى ذُكرت في التوراة أيضا. وهو أن يَجمع كبارُ القوم المتهومين بقتل القتيل الذي وُجد في موضع ولم يُعلَم قاتله فتُذبَح البقرة في موضعه، ويغسلون أيديهم عليها بالماء، ويقولون: إن يدَينا نقية من دم هذا القتيل وأعيُنَنا لم تر سافكَه،[٤] هذا معنى نص التوراة. وقيل في كلام حكمائهم:

---

[١] نَضَحَ البَيْتَ يَنْضِحُهُ، بالكسر نَضْحاً: رَشَّه، وقيل: رَشَّه رَشًا خفيفا، (تاج العروس للزبيدي، «نضح»).

[٢] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: العَدَد ١٩/١-٢٢.

[٣] ر: من البقرة.

[٤] لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «إذا وجد قتيل في الأرض التي يعطيك الرب إلٰهك لتمتلكها واقعا في الحقل، لا يعلم من قتله، يخرج شيوخك وقضاتك ويقيسون إلى المدن التي حول القتيل. فالمدينة القربى من القتيل، يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها، لم تجر بالنير. وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة إلى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع، ويكسرون عنق العجلة في الوادي. ثم يتقدم الكهنة بنو لاوي، لأنه إياهم اختار الرب إلٰهك ليخدموه ويباركوا باسم الرب، وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة، ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم على العجلة المكسورة العنق في الوادي، ويصرحون ويقولون: أيدينا لم تسفك هذا الدم، وأعيننا لم تبصر. اغفر لشعبك إسرائيل الذي فديت يا رب، ولا تجعل دم بريء في وسط شعبك إسرائيل. فيغفر لهم الدم. فتنزع الدم البريء من وسطك إذا عملت الصالح في عيني الرب» (التَّثْنِيَة ٢١/١-٩).

إن تلك البقرة كانت بعد ثلاثة أيام تَدُود[1] ويسعى الدُّود فيدخل إلى بيت القاتل فيفتضح. ويحتمل أن الإشارة ههنا إلى البقرة الثانية ذات القتيل.

قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجٰهلين، هذا تنبيه على أن[2] من اتخذ غيره هزوا فهو[3] من الجاهلين. والفرق بين المزاح[4] والاستهزاء أن المزاح[5] ظاهره كذب وباطنه صدق؛ والاستهزاء بالضد، فهو كذبٌ حرام ولا يصدر إلا من جاهل.

﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض، أي لا تكون قد فَرَضت الأرض لقوله: **تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ**،[6] **ولا بكر**، لم تُفْرَض. ثم قال: **عوان بين ذٰلك**، أي بين[7] البكر والفارض. قيل لرُؤْبَة بن العَجّاج:[8] لِم قلت:

كأنه في الجلد توليعُ[9] البَهَقِ،[10]

وقد قلتَ قبله:

فيها خطوط من سواد وبلق.[11]

فإن أردتَ الخطوط وجب أن تقول: كأنها، وإن أردت السواد والبلق[12] وجب أن تقول: كأنهما؟ قال: عنيتُ كأن ذلك.

والعَوان في اللغة النصف من كل شيء. وقد فسرها بقوله: **لا فارضٌ ولا بكر**، وبيّنها بقوله: **بين ذٰلك**، لئلا يبقى حرج لكوننا لا نعرف عمرها على التحقيق. ولما بين الله كثيرا من الأمور في التوراة أعرض عما لا يضر الإعراضُ عن تفصيله في الكتاب العزيز.

---

[1] أي يصير فيها الدود.

[2] ر – أن، صح هـ.

[3] ر – فهو، صح هـ.

[4] جميع النسخ: المزح.

[5] جميع النسخ: المزح.

[6] الآية ٧١ من هذه السورة.

[7] ش + ذلك.

[8] هو رؤبة بن عبد الله العجاج بن رؤبة التميمي السعدي، أبو الجحاف، أو أبو محمد، راجز، من الفصحاء المشهورين، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. كان أكثر مُقامه في البصرة، وأخذ عنه أعيان أهل اللغة، وكانوا يحتجون بشعره ويقولون بإمامته في اللغة. مات سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م في البادية. وله ديوان رجز. لما مات رؤبة قال الخليل: دفنّا الشعر واللغة والفصاحة (الأعلام للزركلي، ٣٤/٣).

[9] التوْلِيعُ التلْمِيعُ من البرَصِ وغيره، وفرسٌ مُوَلَّعٌ تَلْمِيعُه مُستطيل وهو الذي في بَياضِ بلَقِه استِطالة (لسان العرب، «ولع»).

[10] البَهَق: بياض يعتري الجسد بخلاف لونه (لسان العرب، «بهق»).

[11] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٣١٦/١٦-٣١٧؛ والبحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ١٧٥/٣، ٢٨٥/٤. | البلق: سواد وبياض (لسان العرب، «بلق»).

[12] البَلَق سواد وبياض (لسان العرب، «بلق»).

فأشار إلى ما لا بد من علمه بلفظ يدل على جملة ما قاله في التوراة عند من فهمه وعلمها. ولهذا قال: أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ.[١]

ومن تدبر فَهِم حقيقة اللفظ من حيث العربيةُ وتصريفها لا[٢] من حيث نقْل النقلة المدعين أنهم فهموا كلام العرب فتكلموا فيه على ما تخالفه أصولُ العربية؛ كمن استشهد بشعر بعض الجهال، أو المعتوهين، أو ذي لثغة،[٣] و ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ.[٤] فلا تسلِّم إلى كل قائل[٥] أو ناقل[٦] عن العرب، قال: كذب[٧] عليهم كثير. وإذا بان لك المعنى الأحسن مطابقا للفظِ أفصحَ على تصريفٍ أولى فأنت العربي الذي يجب أن يُنقل عنه. والمحققون من أهل اللغة يشهدون[٨] بما أوصيتك به. **فافعلوا ما تؤمرون.**

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾

قالوا ادع لنا ربك يبين لنا، مفصول. ثم سألوا: **ما لونها**، وذلك من جملة ما بَيّن به. وهذا فائدة قوله: ما. ولو قال يبين لنا لونها لكان السؤال عن بيان اللون فقط. وإنما سألوا البيان واللون، من أجله، **قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها**، الفاقع يدل على شدة الصفرة، ويقال للمبالغة: أصفرُ فاقعٌ[٩] وأحمر ناصع[١٠] وأسود حالِكٌ[١١] وأبيض يَقِقٌ[١٢] وأخضر نَضِر[١٣] وأزرقُ سماويٌّ. وعرَّفنا الله تعالى أن[١٤] البقرة الموصوفة بهذه الصفات هي خيار البقر.[١٥] **تسر النّظرين**، أي ليس فيها عيب. فإن ذا العيب لا يسرّ ناظرا. وقيل في التوراة: صحيحة،[١٦] وهو قوله تعالى: مُسَلَّمَةٌ.[١٧]

---

[١] سورة الشعراء، ٢٦/١٩٧.
[٢] ش ك: وتصريفها إلا.
[٣] اللُّثْغةُ ثِقَلُ اللسانِ بالكلام (لسان العرب، «لثغ»).
[٤] ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٢٣).
[٥] ر: إلى كل قابل.
[٦] ش: وناقل.
[٧] ر: فالكذب.
[٨] ر: شهدوا.
[٩] الفاقِعُ الخالِصُ الصفرةِ (لسان العرب، «فقع»).
[١٠] الناصِعُ البالغُ من الألوان الخالص منها الصافي أيّ لون كان (لسان العرب، «نصع»).
[١١] حالك: شديد السواد (تاج العروس للزبيدي، «ظلم»).
[١٢] أبيض يَقَقٌ ويَقِقٌ بكسر القاف الأولى شديد البياض (لسان العرب، «يقق»).
[١٣] النضر/الناضِر: الأخضر الشديدُ الخُضْرة (تاج العروس للزبيدي «نضر»).
[١٤] ر - أن.
[١٥] ر ك: البقرة.
[١٦] لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «وكلم الرب موسى وهارون قائلا: هذه فريضة الشريعة التي أمر بها الرب قائلا: كلم بني إسرائيل أن يأخذوا إليك بقرة حمراء صحيحة لا عيب فيها، ولم يعل عليها نير» (العَدَد ١٩/١-٢).
[١٧] الآية ٧١ من هذه السورة.

﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ٧٠﴾

قالوا ادع لنا ربك يبين لنا، مفصول، ما هي، والمعنى يزيدنا بيانا يزيل التشابه، فما هي هذه من البقر.[١] إن البقر تشبه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون.

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ٧١﴾

قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها، أي لا علامة من لونٍ مّا. وأصل الشية من الوشي. قالوا الـٰٔن جئت بالحق، أي الذي لا يشتبه علينا؛ لأنهم قالوا من قبل: إن البقر تشبه علينا. والحق لا يشبه الباطل. وقيل: في لفظة "تشابه" سبع قراءات.[٢] / فذبحوها وما كادوا يفعلون. [٢٨ظ]

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٧٢﴾

ويدلك على أن البقرة هي الثانية المذكورة في التوراة قولُه بعده: وإذ قتلتم نفسا فادّٰرأتم، تقديره فاتدارأتم، من الدرء، ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾،[٣] فادفعوا. فكأن كل واحد يدفع القتل عن نفسه إلى غيره، أو عن نفسه[٤] فقط، فيها، والله مخرج ما كنتم تكتمون، ولم يقل: تجهلون، فدل على أنهم علموا وكتموا أمر القاتل.

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٧٣﴾

فقلنا اضربوه ببعضها، أمرٌ للذين كتموا. والمضروب القتيل، والبعض هو بعض البقرة كائنا ما كان.[٥] فافهم هذا،[٦] دون ما قيل فحذف [هنا]،[٧] فضربوه فتكلم وعيّن قاتله. وأظهر ما أضمر بقوله: كذٰلك يحي الله الموتىٰ ويريكم ءايٰته لعلكم تعقلون، ما وعدكم به من أمر البعث.

---

[١] ش ر: من البقرة.

[٢] لم أعثر على هذه القراءات فيما بين يدي من كتب القراءات المعتمدة.

[٣] ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (سورة آل عمران، ١٦٨/٣).

[٤] ش – لا غيره أو عن نفسه، صح هـ.

[٥] انظر لتفصيل القصة في التوراة: التثنية ١/٢١-٩.

[٦] ر – هذا.

[٧] أي ولا تتبع ما قيل في هذه المسألة من الروايات السخيفة فحذفناها.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾

ثم أتبع هذا المعجز العظيم من إحياء القتيل ورؤيةِ ذلك الذي تلين له القلوبُ بقوله: **ثم قست قلوبكم من بعد ذٰلك**، أي الذي وصفناه وعددناه. **فهي كالحجارة**، في اليبس والقساوة، **أو أشد قسوة**. ولا يفهم من قوله: أو، أنها شك فإن ذلك لا يكون في مِثْلٍ. بل لو قال: "فهي حجارة أو حديد" ولم يكن المعنى كالحجارة لكان شكا. ولهذا بعده: **وإن من الحجارة لما**، أي للذي -وهي كقوله: لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ-[1] **يتفجر منه الأنهٰر**، أي وما في قلوبكم كذلك. **وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء**، مَثَّلَ بالكثير وأتبعه بذكر القليل، أي ليس في قلوبكم من اللين الذي يعرض للحجارة لا كثير ولا قليل. **وإن منها لما يهبط من خشية الله**، أشار إلى التواضع، أي وأنتم مستكبرون. **وما الله بغٰفل عما تعملون**.

وأما تصور الخشية من الجماد فاعلم أن الغرض إنما هو التمثيل، كما مثَّل الضالين بقوله: كَٱلْأَنْعَٰمِ،[2] ولهذا لم يقل: الأنعام أهدى. وكذلك لم يقل: الحجارة ألين. فافهم الفرق، ولا تحمل التمثيل على صورة من الحقيقة فيلزم أن الحجارة تَخشى كما يخشى الإنسان أو أنها تعقل، ولو كان الأمر كذلك لسقط الذم. ولهذا أشار إلى أصلب الحجارة وجعل قلوبهم أشد. وذكر مع ذلك ما هو من الحجارة ألين، فجعل وصْفَ الأشد مع القلوب ووصف الألين مع الحجارة مبالغة في سبّهم. واعلم أنه تعالى لو كان قد أجبرهم على هذه الأوصاف لَمَا جاز أن يعنّفهم لولا أنه فرق بينهم وبين الحجارة. وأما قوله: أَوْ يَزِيدُونَ،[3] أي في رأي[4] عين الرائي لا في نفس الأمر. فالذي يراهم يعلم أنهم مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ، وأما "أو ينقصون" فلا.

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

---

[1] ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (سورة يس، ٣٦/٣٢).

[2] ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٧٩).

[3] يقول الله تعالى في قصة يونس: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (سورة الصافات، ٣٧/١٤٧).

[4] ر - رأي.

أفتطمعون، خطابٌ للمسلمين، **أن يؤمنوا لكم**، يصدقوا. ومثله: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ﴾[1] أي أقر له بالتصديق. **وقد كان فريق منهم**، وهم العلماء من أهل الكتاب، **يسمعون كلم الله**، القرآن، وهو كقوله: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[2] ولهذا لم يقل: يقرون. **ثم يحرفونه**، في التأويل. وهذا الذم يلحق بالأواخر، لأنهم على سنن الأوائل، **من بعد ما عقلوه وهم يعلمون**، بمعنى وهم علماء، وغيّر للوزان.

﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٧٦﴾

وتمم وصفهم بقوله: **وإذا لقوا الذين ءامنوا قالوا ءامنا**، معكم بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا هو النبي المكتوب عندنا في التوراة. **وإذا خلا بعضهم إلى بعض**، يريد بعض الفريق إلى بعض الفريق بعينه لا إلى بقية إسرائيل بل الذين إذا لقوا الذين ءامنوا قالوا آمنا خاصة. وهو بيان لِما تقدم في البقرة[3] أنهم على دين اليهودية في الباطن والظاهر كما تقدم. وأعاد قصتهم ههنا على صورة الحكاية والتعريف لهم بوصفهم. أي أفتطمعون بإيمانهم وهم الذين قلنا من وصفهم كيت وكيت. فالكلام عنهم وإن شمل لأمثالهم. فهم إذا خلوا من المؤمنين ألقى بعضهم إلى بعض ما يلومه به. **قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم**، به من علم التوراة الذي تتضمن[4] صدق[5] ما هم عليه. **ليحاجوكم به**، اللام[6] في "ليحاجوكم" لام العاقبة والصيرورة.[7] / وقوله: **عند ربكم**، لأنه متى قامت الحجة عند الله سبحانه من التوراة عليهم فقد صارت حجة المؤمنين قائمةً عليهم لاعتراف أهل الكتاب بما في كتابهم. **أفلا تعقلون**. [٢٩و]

﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٧﴾

﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨﴾

---

[1] سورة العنكبوت، ٢٦/٢٩. | أي أقرّ لوط لإبراهيم عليهما السلام بالتصديق.

[2] ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥ﴾ (سورة التوبة، ٦/٩).

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ (سورة البقرة، ١٤/٢).

[4] ر: يتضمن.

[5] ك – صدق، صح هـ.

[6] ر ك: واللام.

[7] ك – والصيرورة.

ولما ذم العلماء منهم ذكر حال الأميين فقال مخاطبا للمؤمنين بما معناه: كيف تطمعون ومنهم علماء منافقون؟ **ومنهم أميون لا يعلمون الكتٰب**، أي لا يعلمون من الكتاب، وهو التوراة، **إلا أماني**، تلاوة يتلون التوراة ولا يعلمون مفهومها. فكما أن الأماني التي يتمناها الإنسان لا يحصل منها إلا الألفاظ فقط فكذلك تلاوتهم للكتاب من غير[1] أن يفقهوا. فلمّا كان لا يحصل لهم إلا ما يحصل لذي الأماني وهو اللفظ فقط قال: **إلا أماني**. والأماني إذا كانت من المَنْي فأصله التقدير، كما يقدّر الإنسان في نفسه ويتصور ما لا حقيقة له. ولهذا أجاز أن يعبر بالتمني عن الكذب، لأنه تصورُ ما لا حقيقة له. ولهذا بعده: **وإن هم إلا يظنون**، أي يظنون أن معنى ما يتلونه كيت وكيت فيتبعون ظنونهم. ثم لعن العلماء منهم، لأنهم أُسّ الضلال.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

فويل للذين يكتبون الكتٰب بأيديهم، يريد العلماء المحرِّفين، لأنهم يحرفون معاني كَلِم التوراة للأميين. **ثم يقولون**، للأميين منهم عما حرفوه: **هٰذا من عند الله**. فافهم كيف لم يقل ههنا: كتابا منكّرا ليشير إلى قوم مخصوصين. والكتاب ههنا التوراة، ولهذا لم يقل: يفترون كتابا بل هم، **يكتبون الكتٰب بأيديهم**، فهو شاهد عليهم، ويحرّفونه في التأويل. ومثله ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.[2] وبين سبب فعلهم لذلك بقوله: **ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم**، التوراة إذا شهدت عليهم يوم القيامة. **وويل لهم مما يكسبون**، من السُّحت والثمن القليل.

[تحريف التوراة]

واعلم أنهم لو كتبوا كتابا وقالوا: هذا هو التوراة لَمَا صدّقهم الناس. وإنما يقولون لِمَا يحرفونه من تأويلها: هذا من عند الله. والدليل على أن قولهم "هذا من عند الله" يريدون[3] به[4] ما حرّفوه[5] أنهم لو كتبوا التوراة بأيديهم[6] وقالوا عنها: هذا من عند الله لَمَا أثموا.

---

[1] ك - غير، صح هـ.

[2] ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة آل عمران، ٧٨/٣).

[3] جميع النسخ: يريد.

[4] ر - به، صح هـ.

[5] ش - ما حرفوه، صح هـ.

[6] ر ك: بأيديكم.

ثم إن موسى عليه السلام كتب جميع التوراة بيده.[1] وهذا[2] مقلوب نص التوراة مما هو مكتوب بها إلى يومنا هذا. وهو، وكتب موسى بيده جميع كلام التوراة التي أنزلت عليه لبني إسرائيل؛ فجاء هؤلاء الكَذَبَة لأجل التقدم والثمن القليل الذي اشتروه بآيات التوراة فكتبوا فقها، ونقلوا أحاديث، وقالوا: هذه نقلناها نقلا صحيحا ثقة عن ثقة[3] عن السبعين عن لفظ موسى وعما أنزل إليه ربه بطور سينين. ثم خلطوا الفاسد بالجيد، وكانوا هم علماء القوم يومئذ، وحرّموا بعد ذلك البحثَ والاحتجاج بالعقول، وأمروا بالتقليد واتّباع النقل خاصة. وحذّروا من الكلام في مفهوم نص التوراة وتأويلها. فاستمر بينهم ذلك الباطل وغلبت عليهم التربية والعوائد، إذ هي الدين المألوف. فكان من جملة ما نقلوه في كذبهم ونقلوه للأميين منهم أن كل من أتى من كل من يدعي النبوةَ بغير ما جاء في التوراة كذِّبوه أو اقتلوه، فهو كاذب. فقيل لمن ينقل ذلك: هذا ضد ما في التوراة، فقالوا: هذا نقلناه [بطريق] الثقة عن الثقة مما أُنزل على موسى بطور سينين. فأبطلوا ما جاء في التوراة بذلك الحديث، ومثلَه بمثله، وقالوا عما جاءوا به: هذا من عند الله. وصار الدين عندهم عبارة عن نقل النَّقَلَة لا غير ذلك. إذ الجُهّال منهم لا سبيل لهم إلى علم ما جاء في التوراة. ولو علم بعضهم بعضَ ما فيها مما يخالف كلامَهم لَمَا استطاع أن يجزم بتكذيب المتقدمين. والعلماء حرّفوا وأمروا بنبذ آيات التوراة وراء ظهورهم، أعني العمل / بمضمون الآيات كأنهم لا يعلمون أنها حق، وأسقطوا منها ما أمكنهم، وبدلوا[4] من نفس نصها. وأبى الله إلا أن يبقي فيها إلى يومنا هذا حجةً بل حججا واضحة عليهم يهدي الله بها من يشاء. فلما استمروا على تكذيب ما في التوراة فعلا ودعواهم أنهم يصدقونها قولا، وهم لا يتبعون ما فيها ويعلمون ذلك، والأميون يظنون أنهم يتبعون التوراة وإنما يتبعون أحبارهم اتخذوهم[5] أربابا من دون الله،[6] إذ أطاعوهم فيما قالوه كما كان يجب عليهم أن يطيعوا الله باتباع ما في التوراة؛ وكذبوا نصها بالفعل إذ هم عالمون[7] بنقلهم المخالفِ لنصها إلى أن رسخ في أذهانهم[8] جيلا بعد جيل. [٢٩ظ]

---

١ «فكتب موسى جميع أقوال الرب» (التوراة، الخُرُوج ٤/٣٤).

٢ ر ك: وهو.

٣ ش: ثقة من ثقة.

٤ ش: وأبدلوا.

٥ جميع النسخ: قد اتخذوهم. | هذا القسم جواب "فلما استمروا..."

٦ لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (سورة التوبة، ٣١/٩).

٧ ر: عاملون.

٨ ر: في آذانهم.

فصارت الأنبياء والعلماء كلما جاءت إليهم بما لا تهوى أنفسهم من ذلك الكلام المسطور عندهم الذي يعتقدون أنه كلام موسى وهو عن هوى نفوسِ المحرفين يقتلون مَن أمكنهم قتلَه، وإن عجزوا كذّبوه وكفروه،[١] وهذا حالهم. ومَثَلُ هذا بعينه حالُ من أشبههم من مبتدعة المسلمين، وهو قوله عليه السلام: «لَتَتَّبِعُنَّ سُنن مَن قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جُحْرَ ضبٍ تتبعونه». قيل: يا رسول الله! آليهودَ والنصارى؟ قال: «فمن؟».[٢]

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة، وقال في آل عمران: مَّعْدُودَٰتٍ،[٣] يدل على أنْ[٤] لا أقلَّ من تسعة، لأن كل ثلاثة هي أيام معدودة، وثلاث في ثلاث هي أيام معدودات. ففي آل عمران بيّن ما جاء في البقرة، لأن الذي في البقرة[٥] يحتمل الكثير والقليل. ولمّا كان المراد بكلامهم القلةَ فهمنا أنه لا أقل من ثلاثة ولا أكثر من تسعة وإن جاز.[٦] **قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون**، ليس كذلك.

﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

بلىٰ من كسب سيئة، ولم يتب فاستمر، **وأحٰطت به خطيٓئته**، أي ما بقي يقدر أن يتوب، وهو معلوم من قوله: ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا،[٧] **فأولٰئك أصحٰب النار هم فيها خٰلدون**. وهذا دليل على أن من لم تُحِط به خطيئته لا يكون خالدا في النار. وبهذا تزول المعارضة

---

١ لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ (سورة المائدة، ٥/٧٠).

٢ عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم»، قلنا: يا رسول الله! آليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» (صحيح البخاري، الأنبياء ٥٠، والاعتصام ١٤؛ وصحيح مسلم، العلم ٦).

٣ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٢٤)

٤ ر – أن.

٥ ش ك – لأن الذي في البقرة.

٦ أي وإن كان هذا من قبيل التخمين والجواز.

٧ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٩٠).

بقوله: وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ.[1] فهؤلاء لم يشأ الله أن يغفر لهم عقابا لهم. وفيه إشعار بأنه قد يمكن[2] أن تحيط به خطيئة واحدة ويخلَّد بها في النار، ولهذا لم يقل: خطاياه. والخطيئة تقال على الصغيرة والكبيرة. فأراد ههنا الصغيرة ولكنها تكررت. ولهذا تقدم قوله: سيئة، ثم قال: وأحْطت. ومعنى الإحاطة أنها صارت كالحائط الدائر عليه، ولا يقدر أن يخرج منها ولا يتوبُ، فاستمر حتى صار كافرا. ولهذا أعقبه[3] بذكر المؤمنين فقال: والذين ءامنوا وعملوا الصّٰلحٰت أولٰئك أصحٰب الجنة هم فيها خٰلدون. ومن هذا الموضع يُفهَم أن لفظ الخطيئة يقع على أكثر شيء وأعظمه من الذنوب. ومن قوله: وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ،[4] يفهم أن لفظ الخطيئة يقع على أقل ما يكون، ولكن أحدهما ما لا تَعمده القلبُ، فافهمه.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾

وإذ أخذنا ميثٰق بنى إسرٰءيل، وقلنا لهم في الميثاق: لا تعبدون إلا الله، المعنى أن لا تعبدوا، فلمّا حذف الناصب رفع، ومثله أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ،[5] المعنى[6] أن أعبدَ، فلمّا حذف "أن" رفع. ومن قرأ "لا يعبدون" بالياء[7] لم يحتج إلى تقدير "أن" المحذوفة، لكنه بالتاء أولى لقوله بعده: لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ.[8] وبالوٰلدين إحسانا، أمرٌ بلفظ المصدر، كأنه قال: وأن تحسنوا إحسانا كثيرا، فافهم كذلك في الأوامر بالمصادر. وذى القربىٰ، قربى على وزن فُعلى، وقربى مصدر من قرُب يقرُب. واليتٰمىٰ والمسٰكين وقولوا للناس حسنا، إشارة إلى كل قول لكل من الناس. وهذا فرض مؤكد، لكنه مضيَّع بين كثير من الناس، ووجوبه في / الدين والدنيا. ومن ذلك قوله: وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.[9] وليست [٣٠و]
"حُسْنَى"، ههنا بالياء،[10] فتلك وأمثالها تأتي بالألف واللام [مثل] الحسنى والكبرى.

---

[1] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ (سورة النساء، ١١٦/٤).

[2] ر: قد تمكن.

[3] ر ك: عقبه.

[4] سورة الأحزاب، ٥/٣٣.

[5] سورة الزمر، ٦٤/٣٩.

[6] ش: والمعنى.

[7] قرأ ابن كثير والأخوان بالياء (كتاب العنوان لإسماعيل بن خلف الأندلسي، ص ٧٠).

[8] من الآية التالية.

[9] ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (سورة النحل، ١٢٥/١٦).

[10] أي هي حسنى.

وأقيموا الصلوٰة وءاتوا الزكوٰة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون، عن الحق. ويكون الجمع الماضي هو القليلَ، وهو الذي آمن بموسى. وقوله: **معرضون**، حال، أي توليتم وحالكم الإعراضُ. وإنما صار خبرا لما كان مبتدؤه وأنتم، وذلك لأجل الوِزان. فذلك كما تقول: مر بي زيد راكبا، أو تقول:[1] وهو راكب. والمتولي عن الشيء يجوز[2] أن يكون في نفسه عَوْدٌ إليه، والمعرض لا يكون إلا عن جملة الشيء من غير عود. والتولي بالظاهر والإعراضُ بالباطن في الأكثر[3] استعمالا.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾﴾

وإذ، وهي معطوفة على مثلها، **أخذنا ميثٰقكم لا تسفكون دماءكم**، لما كانوا إذا قَتلوا قُتلوا، فمنعُه لهم عن قتل أنفسهم هو[4] منعٌ عن قتل الغير. وهذا التأويل من جهة الاحتمال. والغرض ههنا بـ"أنفسكم" بعضُكم لبعض بدليلِ، **ولا تخرجون أنفسكم من ديٰركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون**، على أنفسكم بأخذ الميثاق.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾

ثم أنتم، يا، **هٰؤلاء**، خطاب للحاضرين. وكان بعضهم يقاتل بعضا وينتصر بالمشركين، فيُخرج بعضهم بعضا سبيا وقتلا من ديارهم. وعادتهم إذا جاءهم أسير منهم فدَوْه بالمال أو فادَوْه بأسير من الكفار، وهذا من المفروض عليهم في التوراة.[5] فآمنوا بهذا وكفروا بالذي من قبل. وكذلك آمنوا بالبعض وكفروا بالبعض من التوراة

---

[1] ش ك: وتقول.

[2] ش: لا يجوز؛ ك: ويجوز.

[3] ش ك: والأكثر.

[4] ش: وهو.

[5] قال السدي: إن الله تعالى أخذ على بني إسرائيل في التوراة أن لا يقتل بعضهم بعضا، ولا يخرج بعضهم بعضا من ديارهم. فأيما عبد أو أمة وجدتموه من بني إسرائيل فاشتروه بما قام ثمنه فأعتقوه (الكشف والبيان للثعلبي، ١٤٩/١-١٥٠؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١١٨/١).

في أمور كثيرة. فالقول مطلق لهم، لهذا قال: **تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديٰرهم**، وهذا يدل على ما قلناه من المراد بقوله: **أنفسكم**، على أن من تَعرَّض إلى مقاتلة مَن هو أقوى منه، أو إلى ما يوجب القتل فكأنما قتل نفسه كما قدمناه.[1] **تظهرون عليهم**، بالمشركين والكفار. وهذا هو التظاهر، **بالإثم والعدوٰن. وإن يأتوكم**، الذين قد تظاهرتم عليهم، **أُسٰرىٰ تُفٰدوهم**، يقال: فدى إذا أعطى مالا وأخذ رجلا، وأفدى إذا أعطى رجلا وأخذ مالا، وفادى إذا أعطى رجلا[2] وأخذ رجلا، وافتدى إذا افتدى[3] نفسه بمال وغيره. والفَدَى المقصور اسم لما يُفدى به، ويقال: فَدَى بفتح الفاء مقصور، وبكسرها يُقصر ويمَدّ. وكله بمعنى واحد، تقول: فدى لك أبي وفِدى وفِداء. **وهو محرَّم**، الحرام المنع الشديد، والمحرَّم الممنوع من المباح، **عليكم إخراجهم. أفتؤمنون ببعض الكتٰب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذٰلك منكم إلا خزى فى الحيوٰة الدنيا ويوم القيٰمة يردون إلىٰ أشد العذاب وما الله بغٰفل عما تعملون.**

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾

ولقد ءاتينا موسى الكتٰب وقفينا، كما يقفو الرجلُ إثرَ الرجل يتبع خطَواتِه، ويقال: قفوت فلانا إذا صرت خلف قفاه. وكان جميع الرسل بعد موسى إلى عيسى يقفو بعضهم بعضا على منهاج التوراة. ولهذا قال: **من بعده بالرسل. وءاتينا عيسى ابن مريم البينٰت**، الآيات البينات. وسميت بذلك لبيانها للرائين كإحياء الموتى وخلقِ الطير من الطين.[4] **وأيدنٰه بروح القدس**، هو كقوله: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ﴾،[5] جبريل. والقُدُس[6] في اللغة

---

[1] ر: كما قدمنا.

[2] ر: رجالا.

[3] ك - إذا افتدى.

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٤٩).

[5] ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾ (سورة النحل، ١٦/١٠٢).

[6] ر ك: القدس.

الطهر والتطهر التام باطنا وظاهرا يلزم عنه روح يَحِلّ في قلب المتطهر. فتلك روح الطهر، إذ هي عنه. ومن خاصيته كان[1] الطهر جسدا[2] لها. وهذا كلام يدركه أصحابه بالذوق وهم رجال صدقوا. **أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون.**

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ۝٨٨﴾

وقالوا قلوبنا غلف، بسكون اللام[3] وهي جمع أغلف إذا كان[4] صفة مثل قُلْف وأَقْلَف، وغُلُف إذا كانت اسما فهي[5] جمع غِلاف مثل سُرُج / وسِراج، ولُحُف ولِحاف، [٣٠ظ]
وعُقُل وعِقال. ويجب تسكينها في الصفة وتحريكها في الاسم الذي فيه اشتراك مثل حُمُر وحِمار، قال الله تعالى: كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ.[6] فيجب تحريكها فيه ويجب تسكينها في الصفة مثل حُمْر التي هي جمع أحمر. وأما جمع قُلْفَة فإنها قُلَف، وغُلْفَة غُلَف، ونُتْفَة نُتَف. فقد بان لك قوله: **غلف**، وأنها جمع أغلف، أعني جمع اسم الصفة لا جمع الاسم الذي هو الغلاف للسيف أو السكين لكون اللام غير محركة، ولأن سياق الكلام والمعنى يمنع أن يكون جمع غلاف بل جمع أغلف.[7] فوجب أن يقال: أغلف القلب وأقلف الذَّكَر، فالقلوب في غلاف وليست غلافا. فهم ادَّعَوا أن قلوبهم في غُلْفَة كما يكون الذكر في قُلْفَة. وقد علمت أن القلفة تستر الذكر. فأشاروا إلى أن قلوبهم مستورة بالغلفة عن كلام الله تعالى. وذلك على صورة الاستكبار، أي لا تَتْعَبْ فما ندري ما تقول.[8] وذلك لاستكبارهم، لا لأنهم لا يعلمون. وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ.[9] والأكنة الأغطية، واحدها كِنان، مثل عِنان وأَعنّة، وسِنان وأسِنّة. والكنّ هو الموضع الذي يَكِنّ ويَستر. فرد الله عليهم بما تقديره: "ليس كما قالوا". **بل لعنهم الله بكفرهم**، أنبأ الله تعالى أنهم يعلمون ولكنهم يستكبرون ويكفرون. فلعنهم، أي أبعدهم عن الحق بكفرهم. ثم قال مخبرا عن صفتهم بعد اللعن: **فقليلا ما يؤمنون**، أي فقليلا الذي يؤمنون به من التوراة بالنسبة إلى الذي يكفرون به منها مع احتمال إطلاق اللفظ في غيرها.

[1] ر: كأن.
[2] ر: جسد.
[3] قرأ الجمهور بإسكان اللام جمع أغلف (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ١٨٤).
[4] ر: إذ كان.
[5] ر: وهي؛ ك: فهو.
[6] سورة المدثر، ٧٤/٥٠.
[7] ر ك: أغلاف.
[8] ك: ما نقول.
[9] سورة فصلت، ٤١/٥.

واعلم أن الله تعالى عرّفنا كلام كل نوع من الكفار والمشركين والمنافقين لنفهم به ونعرف أصحابه بكلامهم، ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾.[1] واعلم أنه ربما صدر من بعض المؤمنين في بعض الأوقات كلامٌ يشبه كلامَ بعض الفِرَق المذكورة التي ذكرها الله تعالى في كتابه وعرّفها بكلامها.[2] فنعلم أن ذلك المتكلم وإن كان مؤمنا فهو في ذلك الكلام يشبه أن يكون مع تلك الفرقة، فنرد عليه ونهديه إلى الحق بما علّمنا الله تعالى، فإن أبى إلا ما هو عليه فاعلم أنه معهم في ذلك المعنى وإن كان في غيره ليس كذلك. ولولا أن الهدى أمر يجب علينا طلبُه من الله تعالى في كل وقت لَما فرض الله علينا في أوقات مخصوصة لا بد منها أن نقف بين يديه في الصلاة على ذلك الترتيب العجيب الإلٰهي ونقولَ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.[3] ولو أمكن أن يكون هذا الطلب على ممَرّ الأنفاس لكُنّا إليه مفتقرين. فقد عرفت الآن ما تعرف به نفسك وغيرك بما عرّفك الله. فاعلم واعمل.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾

ولما جاءهم كتٰب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون، من الله كتابا يفتح به، **على الذين كفروا،** لكونهم قد آمنوا بما فتح الله عليهم وهو التوراة. **فلما جاءهم،** جاء الكفارَ العربُ، **ما عرفوا،** عرَف الكفار المستفتِحون من اليهود وهو القرآن عرَفوا أنه حق من التوراة، **كفروا به.** لأن اليهود يعلمون من التوراة أن الرسول لا يكون[4] منهم بل من نسل إسماعيل خاصة، وأنه يأتي بكتاب يفتحه الله على كفار العرب كما فتح على اليهود بالتوراة، وأنه[5] يلزمهم اتباعُه. فلما جاء الكفارَ ما عرف اليهود كفروا به. **فلعنة الله على الكٰفرين،** مطلقا. وهذا الاستفتاح هو المذكور بقوله: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾،[6] وهو التوراة؛ هناك فتح الله بها على اليهود، وههنا هو القرآن، فتح الله به على كفار العرب. فكفر به اليهود مع معرفتهم بصحته وصدقه.

---

[1] ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ (سورة محمد، ٤٧/٣٠).

[2] ش ك: بكلامهم.

[3] سورة الفاتحة، ١/٦ .

[4] ك: لا تكون.

[5] ر: وأنهم.

[6] الآية ٧٦ من هذه السورة.

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾

بئسما، يَحسُن أن تُكتَب مفصولة، فهي[1] بمعنى الذي. وهذه الآية والتي قبلها كنت أريد أن أترك الكلام عليهما لظهور معناهما. فطالعت بعض كتب التفاسير فلم أر ما يطابق لفظ القرآن من المعنى الذي تضمنته الكتب، بل رأيت من الإشكال كثيرا واردا على ما قالوه. من ذلك أن[2] قوله: بئسما اشتروا به أنفسهم، يدل على قوم اشتروا أنفسهم بشيء أشار إليه بقوله: به. فإن كانوا اشتروا الأنفس بالكفر فذلك مدح لهم، إذ خرجوا عن الكفر لأنه ثمن أنفسهم، وإن كان بالإيمان فالإيمان لا يكون بئس الشيء بل هو نعم الشيء. وقد علمنا قوله تعالى: ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ / بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ،[3] [٣١و] ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ،[4] كل ذلك يدل على أنهم أخذوا شيئا وخرجوا عن ثمنه. فههنا أخذوا أنفسهم وخرجوا[5] عمّاذا مما يطابق لفظ الآية لا مما يقال حَسَنا في العقل دون اللفظ. فافهم ما قلته. ويجب أن تعلم أن قوله: اشتروا، ههنا ليس المراد به باعوا بل اشتروا. وأما ما نُقل في اللغة أن "اشترى" بمعنى باع فاعلم أن صاحب كتب اللغة نقل عن صاحب التفسير في كثير وإن كان ذلك في أصل اللغة لفظا مشتركا، لكن لا مخصِّص له في هذا الموضع ولا مرجِّح لأحد مفهومي هذا اللفظ المشترك على الآخر خصوصا. واستعمال هذه اللفظة أعني اشترى بمعنى باع قليل. والميل إلى الأكثر الأظهرِ أولى. وقد فهمنا من قوله تعالى: إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم، أنه ليس المراد باعهم أنفسهم بل هم باعوا، لهذا قال لهم أخيرا: فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ،[6] وقوله: وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ، ثم قال: وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ،[7] أي باعوا. وقد أثبتُّ لك الحق، فكرره لتفهمه إن شاء الله تعالى.

اعلم أن قوله: به، أي بالكتاب الذي تقدم ذكره في الآية التي قبلها، وهو قوله: كفروا به، فقال بعدها: بئسما اشتروا به، أي بالكتاب الذي عرفوه وكفروا به. وهذا كقوله:

---

١ أي لفظة "ما".

٢ ر ك – أن.

٣ الآية ١٧٥ من هذه السورة.

٤ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٧٧).

٥ ر ك: خرجوا.

٦ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (سورة التوبة، ٩/١١١).

٧ الآية ١٠٢ من هذه السورة.

وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًاۖ[1] أي بالكتاب.[2] وقوله: أنفسَهم، كقوله: وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ،[3] أي لأولادكم، فهو منصوب على فقدان الخافض، أي[4] لأنفسهم؛ فيكون تقدير الكلام بئس الذي اشتروا بالكتاب لأنفسهم. وذلك، **أن يكفروا بما أنزل الله بغيا**، تعديا وحسدا. فجحدوا، **أن يُنزّل الله من فضله علىٰ من يشاء من عباده**. فإن دعواهم ضدُّ ما في التوراة. وذلك أنهم قالوا: ما بقي أحد بعد موسى يأتي بنبوة مثل موسى، ولا يمكن أن يأتي إلى غيرنا نبيٌّ ولا كتاب. فمنعوا أن يُنزل الله مِن فضله على مَن يشاء مِن عباده تعديا على نص التوراة. فهم قد كفروا بها وبالإنجيل والقرآن. **فباءو بغضب علىٰ غضب**، تقدم من الله عليهم لكفرهم بالتوراة أولا. وذلك معلوم من قوله: أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ[5] وتمام الآيات، فعليهم غضب. ثم غَضِبَ الله عليهم ثانيا وثالثا ورابعا، لأنهم كلما قتلوا نبيا أو كذبوه[6] استحقوا غضبا. فعبّر الله عن تكرار الغضب بهذه العبارة ودل على تكرارها تكرارَ ما مِن أجله استحقوا الغضب[7] في الدنيا. **وللكٰفرين عذاب مهين**، في الآخرة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩١﴾

وإذا قيل لهم ءامنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا، أي بالتوراة. **ويكفرون بما وراءه**، ويلزم الإيمانُ به من التوراة، **وهو الحق**، الذي جاء، **مصدقا لما معهم**، فكفروا به وقتلوا الأنبياء من قبل. وكان يجب على من آمن بالتوراة أن ينصر الأنبياء، لأن الوصية فيها كذلك. فعرّفنا الله تعالى الحجاجَ المُسْكِت لهم متى ادعوا أنهم يؤمنون بالتوراة. وذلك بقوله: **قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين**، بما في التوراة على ما قد ادعيتم. وهذه حجة واضحة عليهم لازمة لهم.

---

[1] سورة آل عمران، ١٨٧/٣.

[2] ر – هذا كقوله واشتروا به ثمنا قليلا أي بالكتاب، صح هـ؛ ش – بالكتاب الذي عرفوه وكفروا به وهذا كقوله... أي بالكتاب، صح هـ.

[3] الآية ٢٣٣ من هذه السورة.

[4] ر + أي.

[5] الآية ٨٥ من هذه السورة.

[6] وانظر أيضا في هذا الموضوع: سورة المائدة، ٧٠/٥.

[7] ش – فعبر الله عن تكرار الغضب بهذه العبارة ودل على تكرارها تكرار ما من أجله استحقوا الغضب، صح هـ.

﴿۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۝٩٢﴾

ولقد جاءكم موسىٰ بالبينٰت ثم اتخذتم العجل من بعده، أي بعد ما غاب عنكم إلى طور سينين، وأنتم ظٰلمون. وهذا تبكيت لهم، إذ طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم معجزةً مثل آيات موسى. فعرّفهم أنهم لا يفيدهم ذلك كما لم يُفِدْهم[1] في زمن موسى عليه السلام.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٩٣﴾

وإذ أخذنا ميثٰقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما ءاتينٰكم بقوة واسمعوا، يريد واقبلوا؛ تقول: يا هذا اسمع مني ما نصحتك به، أي اقبل. قالوا سمعنا وعصينا، ليس ههنا مقال بالأفواه بل هذا وصفُهم فنسبه إليهم، كقوله تعالى عن مثلهم: مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ،[2] وكما تقول: هذه صفة مقالة الرافضة، أي دعواهم وحالهم. وأُشربوا، أشرب قلبه، أي خالط قلبَه حبُّ الشيء. وقوله: فى، إشارة إلى أن ذلك الحب ملءُ القلوب، وهو كقوله: فِى بُطُونِهِمْ نَارًا،[3] أي ملء بطونهم، وهؤلاء ملء، قلوبهم العجل، أي حبَّ العجل أُشربوا عقابا، بكفرهم. قل بئسما يأمركم به إيمٰنكم إن كنتم مؤمنين، / أي بزعمكم وعلى[4] ظنكم واعتقادكم في الإيمان. [٣١ظ]

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٥﴾

قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صٰدقين. ولن يتمنوه أبدا، فيما مضى ولا في المستقبل. وفي سورة الجمعة: وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ.[5] والمعنى أن لفظ "لن" يُستعمَل للقطع[6] والْبتَات، و"لا" لفظة تستعمل للنفي.

---

[1] جميع النسخ + على.

[2] سورة الأنعام، ٩١/٦.

[3] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (سورة النساء، ١٠/٤).

[4] ك: على.

[5] ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ (سورة الجمعة، ٧/٦٢).

[6] ك – للقطع، صح هـ.

فلما تقدم على "لن"، قل إن كانت لكم الدار الآخرة، وذلك أبلغ مرجوّ[1] ومطلوب قَطَعه بأبلغِ لفظٍ قاطع. ولما تقدم على قوله: وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥ، إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ[2] -وذلك دون الغاية- نفاه بلفظة "لا". فكأنه قال: لن تكون لكم الدار الآخرة ولا أنتم أولياء؛ بما قدمت أيديهم. والله عليم بالظّٰلمين.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

ولتجدنهم أحرص الناس، كلِّهم مطلقا، علىٰ حيوٰة، في الدنيا. ثم وصف من جملة الناس صفة بعض الذين أشركوا، فقال ما تقديره: ومن الذين أشركوا، قوم، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة. ثم أخبر أن تعمير المشرك لا يزيل عنه العذاب، فقال: وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر. والواو في وما واو الحال. فلزم[3] عنه أنه لو كان يود أن يُعَمَّر لِيزحزحه التعمير لم يكن ذلك ذما، فافهم ذلك. وقد علمنا من هذه الآية أن أحرص مَن في المشركين على حياة هو[4] الذي يود لو يعمر ألف سنة هو من جملة الناس. واليهود أحرص الناس على حياة. فلزم أن يكون اليهود أحرصَ مَن أحرص مَن في المشركين على حياة. والله بصير بما يعملون. واعلم أن المؤمن يود الحياة ليعملَ بها ولا يكرهُ الموت، والكافرَ يود الحياة ليتمتعَ بها ويكرهُ الموت.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾

قل من كان عدوا لجبريل، تقديره فهو يكذّب بهذا الكتاب، لهذا عطف بالفاء فقال: فإنه نزله علىٰ قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرىٰ للمؤمنين. ومعلوم أنه ما يعادي الملائكة إلا من ليس له نصيب من العقل. فإن عاداهم فقد عادى[5] الله ورسوله وملائكته، لأن الحق واحد. فأخبر الله عنه بقوله: من كان عدوا لله

[1] ش: مرجوه.

[2] ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (سورة الجمعة، ٦٢/٦).

[3] ر: فيلزم.

[4] ر: وهو.

[5] ش: فقد عادا.

وملٰئكته ورسله وجبريل وميكٰل فإن الله عدو للكٰفرين، أي وحده يكفيهم. وجميع ما أخبر به عن الكفار معطوف في المعنى على قوله: فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ.[١]

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

ثم قال: ولقد أنزلنا إليك ءايٰت بينٰت وما يكفر بها إلا الفٰسقون. أوكلما عٰهدوا عهدا نبذه فريق منهم، النبذ رمي من مُهْمِل لما نبذه. والألف في "أوكلما"، ألف استفهام جاءت بمعنى التوبيخ والتعجب، ولو أسقِطت لكانت[٢] الواو بعدها عاطفة على جملة تدل على حالهم. ولمّا قال: نبذه فريق، عرَفنا أن ذلك الفريق ليس هو[٣] قليلا بل أكثر، لا يؤمنون. وإنما قال: فريق منهم، لأنه تعالى قال من قبل: إن منهم علماء وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ،[٤] فالفريق هم العلماء والباقون تابعون. وإنما خص الفريق بالنبذ، لأنهم يكتمون ويحرِّفون وهم يعلمون. فليس الفريق وحده نبذ العهدَ بل أكثرهم.

ثم أتبع النبذ منهم بذكر مثله استشهادا على ما ذكره عنهم من نبذ العهد بما قد جرى منهم فقال: ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتٰب، التوراة، كتٰب الله، القرآن الذي جاءهم مع الرسول، وراء ظهورهم. ثم شبههم ببقية قومهم فقال: كأنهم لا يعلمون. فأشار إلى أن الذين لا يعلمون نبذوه بلازم[٥] اللفظ، والذين يعلمون كأنهم لا يعلمون، فمن لم يَنبِذه منهم أسلم وهو الأقل. فبان لك صحة القول المتقدم، أعني قوله تعالى: بل أكثرهم لا يؤمنون.[٦] وهو أن الذين لا يعلمون نبذوه فهم لا يؤمنون، والذين يعلمون وكأنهم لا يعلمون نبذوه فهم لا يؤمنون.[٧] ولزم أن الأقل[٨] يؤمنون فيسلمون. فانظر إلى ارتباط هذا اللفظ بعضه ببعض وارتباطِ معانيه وشهادةِ بعضها لبعض، وانظر إلى إعجازه وصعوبة فهمه مع زيادة بيان لفظه ووضوحه.

---

١ الآية ٨٩ من هذه السورة.
٢ ر: كانت.
٣ ر – هو.
٤ الآية ٧٨ من هذه السورة.
٥ ش – بلازم، صح هـ.
٦ ر – أعني قوله تعالى بل أكثرهم لا يؤمنون، صح هـ.
٧ ش – فهم لا يؤمنون، صح هـ.
٨ ر: أن الأول.

[٣٢و] وتأمل / كيف في كل موضع لا يخطر بالبال أن به سرا، أو يَرِد عليه إشكال. إذا تأمله ذو النظر ظهر له ما يتعجب منه، وأكثرَ من ذلك ما خفي عنه.

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

واتبعوا ما تتلوا الشيٰطين، أشار إلى هذا الفريق الذي نبذ كلامَ الله فهو لا ينظر إليه، لأنه وراء ظهره.[١] فعرّفنا أن هؤلاء مع نبذهم اتبعوا ما تتلو الشياطين عوضا عن تلاوة القرآن. ويشير إلى شياطين الإنس،[٢] أي [اتبعوا] ما تتلو شياطينهم عليهم وهم قوم منهم فعلُهم بهم الإضلال، وهم من جملة الشياطين المخبَر عنهم بقوله: وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ.[٣] ولما كانت شياطينهم الإنس يَسْحَرونهم بكلامهم وبتلاوةِ ما حرّفوه عليهم كان ذلك الفعل بعينه هو فعلَ الشياطين على زمن ملك سليمان. وكما قال شياطين الإنس على زمن ملك[٤] سليمان: إنه ساحر، كذلك قال هؤلاء في زمن محمد صلى الله عليه وسلم: إنه ساحر.[٥] فافهم ذلك متأنيا. ومن عرف شياطين الجن علم أنهم هم الذين تكلموا بألسنة الإنس مع اليهود. قال عليه السلام لأصحابه: «يدخل عليكم رجل يتكلم بلسان شيطان»، وكان شُريحَ بن ضبيعة.[٦] وقوله: **واتبعوا ما تتلوا الشيٰطين**، أي كما كانت تتلو على زمن، **ملك سليمٰن**. وفرغ الكلام عن الفريق من اليهود.

ثم لمّا ذكر أولئك الشياطين أراد أن يعرّفنا أمرا آخر يشبه أمر الفريق من اليهود المذكورين، ويعرفنا أنهم كفروا وأن سليمان ما كفر فقال: **وما كفر سليمٰن ولٰكن**

---

١ ر: ظهوره.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (سورة الأنعام، ١١٢/٦).

٣ الآية ١٤ من هذه السورة.

٤ ر – ملك.

٥ انظر في هذا الموضوع: سورة يونس، ٢/١٠؛ وسورة ص، ٤/٣٨ وغير ذلك.

٦ انظر: جامع البيان للطبري، ٣١/٨-٣٢.

الشيٰطين كفروا يعلمون الناس السحر وما، يعلمونهم الذي، أُنزل على الملكين، قرئ بكسر اللام، فبالكسر[١] هما بشران،[٢] وهو قول أبي الأسود الدؤلي[٣] والربيع[٤] والضحاك.[٥] وبه قرأ الحسن البصري، ورواه عن ابن عباس. **ببابلَ**،[٦] اسم مدينة ذكرها الله في التوراة،[٧] وذكر سبب تسميتها بابل، وأن ذلك لتبلبل الألسن منها. **هٰروتَ ومٰروتَ**. والأولى أنهما من ملائكة الله، جعلهما الله في صورة البشر ليَفتِن بهما العباد، أي يختبرهم. ومثله وَلَوْجَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا.[٨] ولهذا يقولان: **إنما نحن فتنة**، ولا يكونان كافرَين. وقد جاء في الحديث قصتهما، وأن الزُّهْرَة بعثها الله إليهما في صورة امرأة حسناء، ففُتِنا بها إشارةً إلى أن[٩] الملائكة الذين أُنزل عليهم السحر سحرتْهم أعين النساء.[١٠] فافهم المقصود من القصة فإنها إنما تُتلى علينا لغاية وغرضٍ عظيم. ويجوز أن يكون الله تعالى سماهما باسمين مشتقين من صفتيهما، أي من الهَرْت والمَرْت. يقال: فلانٌ مَرْتُ الحاجب إذا لم يكن على حاجبه شعرٌ، وسبيلٌ مَرْتٌ ليس فيه نبتٌ.

ثم أخذ بعد ذلك يعرّفنا قصةَ هاروت وماروت في ذلك الزمن لكونه يشبه الزمن الذي كان على مُلْك سليمان حيث تلاوةُ الشياطين فيه فقال: **وما يعلّمان من أحد**

---

١ لم أعثر على هذه القراءة فيما بين يدي من كتب القراءات المعتبرة.

٢ قال الحسن: لم يكونا ملكين ولكنهما كانا رجلين فاسقين متمردين (تأويلات القرآن للماتريدي، ١٩١/١).

٣ هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني، واضع علم النحو. كان معدودا من الفقهاء والاعيان والامراء والشعراء والفرسان والحاضري الجواب، من التابعين. رسم له علي بن أبي طالب شيئا من أصول النحو، فكتب فيه أبو الاسود، وأخذه عنه جماعة. ووضع الحركات والتنوين لا غير. سكن البصرة في خلافة عمر، وولي إمارتها في أيام علي، استخلفه عليها عبد الله بن عباس لما شخص إلى الحجاز. ولم يزل في الإمارة إلى أن قتل علي. وهو -في أكثر الاقوال- أول من نقط المصحف. وله شعر جيد، في ديوان صغير. توفي بالبصرة سنة ٦٩هـ/٦٨٨م (بغية الوعاة للسيوطي، ٢٢/٢؛ والأعلام للزركلي، ٢٣٦/٣-٢٣٧).

٤ لعله الرّبيع بن أنس بن زياد البكري الخرساني المروزي، بصري، كان عالم مرو في زمانه. توفي سنة ١٣٩هـ/٧٥٦م (سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٦٩/٦-١٧٠)..

٥ هو أبو القاسم الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني، مفسر. كان يؤدب الأطفال. ويقال: كان في مدرسته ثلاثة آلاف صبي وكان يطوف عليهم على حمار. له كتاب في التفسير. توفي بخرسان سنة ١٠٥هـ/٧٢٣م (الأعلام للزركلي، ٢١٥/٣).

٦ بابل: اسم قرية كانت على شاطيء نهر من أنهار الفرات بأرض العراق في قديم الزمان. وقيل: إن بابل أرض العراق كلها. عجائب بابل كثيرة (آثار البلاد لزكريا القزويني، «بابل»).

٧ هذه الكلمة ذُكرت في مواضع كثيرة في التوراة، منها ما ورد في التَّكْوِين ١٠/١٠، ٩/١١، والمُلُوك الثَّاني ٣٠/١٧، ١٢/٢٠، ١٨، ٢٤/١.

٨ ﴿وَلَوْجَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٩/٦).

٩ ر ش - أن.

١٠ انظر نحوه في المستدرك للنيسابوري، ٢٦٦/٢؛ والسنن الكبرى للبيهقي، ٥/١٠.

حتىٰ يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر، فعرّفنا أن هذين الملكين جعلهما الله تعالى فتنة في ذلك الزمان لأهله، وذلك لنتقي في زماننا مثلَ هذه الفتنة. وستسمع بعد شرح هذه الآية ما تنتفع به إن شاء الله. وقوله: فلا تكفر، يعلمنا فيما قاله قبل: إن الشياطين دون المَلَكين كفروا لكونهم يعلّمون الناس السحر، والمتعلمون كفروا إذ تعلّموا. فعلَّمَنا أن المعلم والمتعلم كذلك كافران. وعرفنا سبب ذلك مع تعريفه لنا نفسَ صفة[1] السحر وأثره إذ قال: فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه. وعرّفنا حال السَّحَرَةِ المتعلمين وأمثالِهم بقوله: وما هم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله. وقد علمت أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ،[2] فلا يأذن في ضررهم. فالمؤمن لا يضره سحرُ ساحر إلا أن يكون ذلك فتنةً له من الله واختبارا. فإن الأنبياء عليهم السلام يُفتَنون، لقوله تعالى: وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا،[3] وكقوله تعالى: وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ،[4] وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ.[5] وأما أن يكون للشياطين تمكن وتسلطٌ على المؤمن فلا يكون / ذلك لقوله تعالى: إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ،[6] فلا يتسلط إلا بإذن الله كما أذن في قضية أيوب عليه السلام.[7] وقوله: ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، عرّفنا أن صفة السحر وأثرَه إنما هو فيما يضر فقط، لا فيما ينفع. وقوله: يضرهم، يضر الناسَ مطلقا، فالمتعلمون من جملتهم. فقد بان لك أن ما ليس للناس فيه نفعٌ بل ضرر، سحرا كان أو غيره، فهو بمنزلة السحر في التعليم والعلم والعمل به، ولا حاجة للمؤمن به أصلا. فإن قيل: يدفع به الضرر عن نفسه، قلنا: فقد تقدم أنه لا ينفع، ولو دفع الضرر لكان نافعا. والمؤمن قد أمّنه الله بقوله: وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله. فالمؤمن لا ضرر عليه ولا منه. ودليله قوله[8] بعد ذلك: ولو أنهم ءامنوا واتقوا. لأن المثوبة تنفع لهم وللناس، وهذا يضرهما. [٣٢ظ]

وقوله: ولقد علموا، أي إخبارا، لَمَنِ اشْترىٰه ما له فى الآخرة من خلٰق، نصيب، وهذا العلم من الملكين بقولهما: فلا تكفر. ولبئس ما شروا، باعوا، به أنفسهم لو كانوا يعلمون، أي يقينا. إذ لو علموا يقينا لَمَا باعوا به أنفسهم، لكنهم كما أخبر الله تعالى

---

١ ش – صفة، صح هـ.
٢ سورة الأنفال، ١٩/٨.
٣ سورة طه، ٤٠/٢٠.
٤ سورة ص، ٣٤/٣٨.
٥ سورة ص، ٢٤/٣٨.
٦ سورة الحجر، ٤٢/١٥.
٧ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (سورة ص، ٤١/٣٨).
٨ ر – قوله.

عن أمثالهم بقوله: إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ.[١] ويحتمل أن قوله: **لو كانوا يعلمون،** أي صحةَ [خبر] الجزاء في الآخرة. لهذا بعده: **ولو أنهم ءامنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون.**

وأمّا ما وعدتك به من الفائدة بعد شرح الآية فاعلم أنه لا بد في كل زمن من فتنة يُفتَن[٢] الناس بها. والفتنة شيء يختبر الله به عبادَه وإن اختلف ذلك الشيء للاختلاف الواقع في الأزمان والأشخاص، فهو كقوله تعالى: أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، إلى تمام الآية الثانية.[٣] فالفتنة كائنة اختبارا من الله لعباده. فالمؤمن الصادق إذا فُتن لا يفتتن و[لا]يكفر بل يتوب ويرجع. والكاذب يفتتن ويَضل بها. وأما قوله سبحانه: لِنَعْلَمَ[٤] فهو سبحانه يعلم، وإنما خاطبنا بالمألوف المعروف عندنا؛ ولأن[٥] علمه بما سيكون منا لا يجب أن يجازينا عليه إلا إذا ظهر إلى الفعل، فيكون علمُه بعد فعلنا كعلمه قبله، لكن يكون الجزاء لنا على فعلنا الذي علمناه لا على علمه الذي جهلناه. وقد جاء في التوراة مثل هذه المخاطبة عن الله.[٦] والمراد بها الناس بمعنى ليعلم الناس أنا نعلم. وجاء هذا بعينه في المحكم من القرآن شارحا للمتشابه. و[هو] قوله: ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ،[٧] فليُحمل المتشابهُ على ذلك ينحلّ. ولو عاملهم بعلمه دون علمهم لكان العقاب عندهم في صورة ظلم لأنهم لا يعلمون علمه منهم. وحاشا الله أن يَتعرّف إلى عباده بما نهاهم عن مثله، وكيف كان يقول لهم: كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا،[٨] فخاطبهم مخاطبة المختبِر الذي كأنه لا يعلم إلا من فعلهم. وسنزيده إيضاحا في موضعه.

وأما السحر[٩] فالفرق بينه وبين الحق أن السحر خيال لا حقيقة له في الخارج، كما قال تعالى: يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ؛[١٠] وقوله: سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ، أي فخيّل إليهم،

١ سورة الجاثية، ٣٢/٤٥.

٢ ر ك: تفتن.

٣ ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (سورة العنكبوت، ٢/٢٩-٣).

٤ ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ (سورة البقرة، ١٤٣/٢). وانظر أيضا: سورة الكهف، ١٢/١٨؛ وسورة سبأ، ٢١/٣٤).

٥ ش: لأن.

٦ انظر مثلا: التوراة، أيوب ١١/٣٤، وأمثال ١٧/١٩، وإشعياء ١٨/٥٩، والمزمور ٤/٢٨، وإرميا ١٤/٢٥، ومَراثي إرميا ٦٤/٣-٦٦.

٧ سورة المائدة، ٩٧/٥.

٨ سورة الإسراء، ١٤/١٧.

٩ ر ك: وأما للسحر.

١٠ سورة طه، ٦٦/٢٠.

لأن أعينهم هي التي سُحرت، ثم قال: وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ.[1] والرهبة من أكبر موجبات الوهم والتخيل لما يُرْهَب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤﴾

يٰأيها الذين ءامنوا لا تقولوا رٰعنا، من المراعاة. إذ المراعِي يغمض عينيه عن رؤية نقص في المُراعَى كأنه لا يراه، كما يقال: لِمَ، لا؟ وأخذتَ فلانا فتقول: راعيتُه إذا سامحتَه، كأنك لم تنظر[2] إليه فلم تحاقِقْه.[3] وقولوا انظرنا، من النظر. ولو لم تكن "رٰعنا" ضد "انظرنا" لَما نهى وأمر. وكأن[4] المقصود أن لا تكونوا على حالة تحتاجون فيها إلى مراعاة،[5] بل إلى نظر ومُحاقَقَةٍ من الرسول صلى الله عليه وسلم على ما يبدو منكم. وقد زدناه بيانا في موضع آخر. واسمعوا، أي واقبلوا. / وللكٰفرين عذاب أليم. [٣٣و]

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾

ما يود الذين كفروا من أهل الكتٰب ولا، من، المشركين، "من" لتبيين الجنس من الطائفتين لا للتبعيض، أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

﴿۞مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦﴾

ما ننسخ من ءاية أو ننسها، الإشارة في هذه الآية هي إلى غير القرآن من المنزَّل من قبله. ودليل ذلك ما جاء قبل[6] هذه الآية وما جاء بعدها كما سنبينه، إذا فهمت الجميع وتدبرته مكررا متأنيا. ولولا أن هذا النسخ إشارةٌ إلى التوراة وإلا أيّ فائدة لليهود

[1] ﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ (سورة الأعراف، ٧/١١٦).

[2] ر: لم تنظره.

[3] حاقَّه في الأمر محاقَّة [محاققة] وحِقاقا: ادَّعى أنه أولى بالحق منه (لسان العرب، «حقق»).

[4] ش: وكان.

[5] ك: إلى مراعات.

[6] ر ك + قبل.

إذا[1] نَسخ بعض القرآن لبعض وهم يجحدون الجميع. وكذلك النصارى، وأي حجة لله عليهم إذا لم يكن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم خيرا مما عندهم أو مثلَه. فقوله تعالى: ما، بمعنى مهما، ننسخ: نرفع. والمراد رفع الحكم لا اللفظ كما نبين. وقوله: أو ننسها، نؤخرها عن أن نرفعها.[2] وذلك كما تبيع سلعةً بدرهمين مثلا فيقال لك: أنفقت الدرهمين، فتقول: أنفقت أحدهما وأخرتُ الآخر، أي أخرته عن أن أُنفِقَه، فهو مؤخر عما قُدِّم فأُنفق. وتقدير الكلام مهما نرفع من حكم آية من آيات التوراة والإنجيل ونؤخرها، **نأت بخير منها**، في القرآن، **أو مثلها. ألم تعلم أن الله علىٰ كل شيء قدير**. وهذا لِما قدمه من الإخبار عن الذين كفروا من أهل الكتاب بقوله: مَايَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ،[3] وتمامه. فافهم ذلك[4] ومثله في مواضعه. والخير الذي أنزله هو القرآن، ومن قبله أنزل خيرا هو التوراة والإنجيل. فاختص هذه الأمة المحمدية بخير مثل الخير الأول[5] وخيرٍ منه.

ومن الناس من جعل هذه الآية دليلا على نسخ القرآن بالقرآن وفَهِم العموم من لفظ محتمل للعموم. ولا ينبغي أن نترك العقل وراء ظهورنا ونفهم أحد الممكنين والجائزين ونوجبه على أنفسنا من غير دليل موجب مرجِّح. إذ ظاهر الآية يحتمل أن يكون أشار بها إلى تخصيص التوراة وإلى إطلاق على جميع ما أُنزل من القرآن وغيره. فإذا نظرنا إلى الأحق والأحسن[6] من جهة العقل أعَدْنا لفظ الجائز إلى المخصوص لا إلى المطلق لِما في ذلك من الأولوية باتباع الأحسن والميلِ إليه عن الحسن. فكيف لا نميل[7] عما ليس بحسن بل تكون به المناقضة ويَحِلّ به الاختلاف. وأما ما قلناه فهو يحل الإشكال ويزيل الاختلاف. وسنبين معنى كل آية نفينا نسخها بيانا لا يعارض ولا يشك فيه مُحِقٌّ عالم إن شاء الله تعالى.

[مسألة النسخ]

اعلم أنه يجب أن نُقدم[8] أمام[9] كلامنا جملة تكون أصلا يُرجع إليه. فنقول: إن مذاهب الناس مختلفة في النسخ من جهة مفهوم هذا اللفظ ومن جهة ما يتعلق به أيضا.

---

١ ش: وإذا.
٢ ك: عن أن ترفعها.
٣ من الآية السابقة.
٤ ر – فافهم ذلك، صح هـ.
٥ ر – الأول.
٦ ر ك: إلى الأحق وجدنا لأحسن.
٧ ر ش: لا تميل.
٨ جميع النسخ: أن تقدم.
٩ ر: أن تقدم إما.

فأول ما يجب أن نبين معنى هذه الكلمة لغة فنقول: النسخ في اللغة معناه الرفع، يقال: نسخت الشمسُ الظلَّ،[1] ونسخت الريح الأثر إذا أزالته ومحته، ونسخ الشيبُ الشبابَ. وقال أبو حاتِم:[2] النسخ أن يحوّل ما في الخليّة من العسل والنحل إلى أخرى.[3] ومنه نسخ الكتاب، وهو نقل ما فيه إلى كتاب آخر. ولا شك أن نسخ الكتاب غير مماثِل لنسخ الخليّة من كل وجه وإن ماثله من بعض الوجوه. وذلك لأن المنسوخ منه موجود قائم بما يقوم به الكتاب المنسوخ، وليس الخلية كذلك. وأما نسخ الشمس للظل فإنه تبديل، إذ صار هذا بدل هذا في مكان معلوم. فهو ليس كنسخ الخليّة ولا كنسخ الكتاب وإن ماثل في بعض الأحوال. وأما نسخ الهواء للأثر فهو إذهابه ومحوه، فليس ذلك مثل شيء مما قدمناه.[4] وكلٌّ من ذلك يقال له نسخ على ما نُقل في كتب اللغة مع اختلاف ما يتصور من لفظ النسخ إذا أضيف لكل واحد مما تقدم. فلزم أن نبين[5] معنى ما أراده الله بقوله: ما ننسخ من ءاية، ونخصصه بما يستحقه[6] من المعنى المراد به فنقول، والله أعلم.

[٣٣ظ] قوله تعالى: ما ننسخ من ءاية أو ننسها، ثم قال: / نأت، والإتيان غير النسخ، فهذا يدل على رفع حكم الآية المنسوخة دون نقلها، فليس كنسخ الكتاب ولا الخليّة ولا الشمس بل كنسخ الهواء للأثر. وأما قوله: نأت، والإتيان بمثل الشيء مع وجوده في كتاب واحد لا فائدة فيه، لأن في الأولى المماثِلَةِ كفايةً، فإن كانت غيرَ مماثلة فهي إما دونها ولم يقل كذلك، وإما خيرٌ منها وهو كلام الله تعالى. وقد لزم أن الآية التي قد أُتي في القرآن بمثلها ليست موجودة في القرآن. وإنما هي في كتابٍ غيره، فأتي بمثلها فيه. وكذلك قوله: نأت بخير منها، إن كان الجميع في القرآن فقد عاد حكمُ بعضه حكمَ الكتب المتقدمة، إذ[7] كان الحكم متعلقا بزمن مخصوص، ثم أتى زمنٌ غيره فبطل الحكم الأول. فذلك، وإن قيل: إنه جائز، فهو غير موجود في القرآن لِما نبين من مفهوم كل آية وقيامِها بنفسها من غير مناقضة. وهذا المعنى بعينه هو نسخ الأحكام

---

[1] ر ك - نسخت الشمس الظل.

[2] هو سهل بن محمد بن عثمان الجُشَمي السجستاني، كان إماما في علوم القرآن واللغة والشعر. من أهل البصرة. له نيف وثلاثون كتابا. توفي سنة ٢٤٨هـ/٨٦٢م (بغية الوعاة للسيوطي، ٦٠٦/١؛ والأعلام للزركلي، ١٤٣/٣).

[3] الاعتبار في الناسخ والمنسوخ للهمذاني، ص ٤٨ وتفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٦٥٦/١.

[4] ر ك: بما قدمناه.

[5] ر ك: أن يبين.

[6] ر ك: بما يستحق.

[7] ش ك: إذا.

المتقدمة على القرآن بأحكام القرآن. فلزم أن يكون المنسوخ من هذا القبيل لا مما يلزم عنه البداءُ،[١] وأن يكون في الكتب المتقدمة لا في القرآن وإن جاز أن يكون[٢] فيه أيضا لأن الجميع كلام الله. فقد جاز ما قلناه أيضا من أن المراد نسخ غيره به، وهذا الجائز أولى ما اتّبع. وقد علمت أن ما نسخ الله تعالى بالقرآن لِما تقدمه من الكتب[٣] لا يلزم عنه البداء، لكنه إنما سمي بذلك،[٤] لأنه تبيينُ انتهاء مدةِ حُكم تقدم في زمن لمصلحة بحكمٍ تأخر إلى زمن لمصلحة. فهو وإن سمي نسخا لا يلزم عنه البداء، لكنه إنما سمي بذلك لكون اللفظ قد كان يحتمل أن يكون حُكمه[٥] شاملا لجميع الأوقات. وباللفظ الثاني تَبين تخصيصُ الأول ببعضها. فههنا محلُّ الشبهة، وهو أننا ظننا الوجوب في موضع الجواز. ولا يلزم من كوننا لا نعلم ما سيكون قبل أن يكون أن الله سبحانه غيرُ عالِم، فبدا له ما لم يكن في علمه من قبلُ فغيّره بعدُ. بل هو سبحانه الحكيم العليم اللطيف بخلقه يبدِّل السياساتِ الناموسيةَ على ما تقتضيه العناية الإلٰهية بحسب مصالح العالَم بما هو الأليق بطباعهم والأنجع في استنقاذهم من مُوبِقات الدنيا إلى مُنجيات الآخرة.

وأما ما يَعرض من الشُّبَه والشكوك وضروب الاختلافات في هذه المسألة فإنه يرجع إلى أصول، قد أثبتُّ أجوبتَها لترجع في فروعها إلى ما تقرر في أصولها. فمن ذلك ما نقلتُه من كتب المتقدمين -رحمهم الله تعالى- قول المعارض أن النسخ يلزم عنه افعَلْ لا تَفْعَلْ. قلنا: وأيّ حرج علينا من ذلك، فالنسخ لا يصح إلا كذلك؛ لكنه من ظن أن ذلك الأمر بعد النهي لغير سبب فليس كذلك، بل لا يكون إلا لسبب يقتضي ذلك وحكمةٍ توجبه. ثم هذا السبب لم يَحدث في نفس البارئ سبحانه وإلا كان محلا للحوادث، تعالى عن ذلك. وإنما هذا السبب يقوم بالعبد المكلف ويَعرِض، ونسبة الباري تعالى إلى المكلفين نسبة الطبيب إلى المريض. ألا ترى أن الطبيب يأمر المريض بتناول دواء في زمن، ثم ينهاه عن تناوله في زمن آخر من غير تغير يلحق ذات الطبيب، بل التغير يلحق المريض من قوة أو ضعف أو سبب موجب لذلك.

---

١ البداء: استصوابُ شيءٍ عُلِم بعدَ أن لم يُعلم، وذلك على الله غير جائز (تاج العروس للزبيدي «بدو»).

٢ ش - لا في القرآن وإن جاز أن يكون، صح هـ.

٣ ك: من لكتب.

٤ ر - لكنه إنما سمي بذلك.

٥ ر - فهو وإن سمي نسخا لا يلزم عنه البداء لكنه إنما سمي بذلك لكون اللفظ قد كان يحتمل أن يكون حكمه، صح هـ.

وأما من قال: إن الثابت لا يمكن رفعه. قلنا: هذه عين المغالطة، فإنا لم نقل: إن الثابت يُرفع وهو ثابت، بل زوال صورة الثبوت هو عين الرفع، وعين الرفع هو النسخ نفسه. وقد علمت أن استحكام شكل الآنية يقتضي بقاءَ صورتها دائما لولا ما ورد عليها من السبب الكاسر، وأن العقد يقتضي ثبوت البيع لولا النسخ الوارد عليه. وقد علمت أن الله تعالى يخلق الجواهر والأعراض، ثم يُعدم منها ما شاء لِما يشاء من حكمته سبحانه. فلا يقال: إن كانت موجودة فلا سبيل إلى إعدامها، وإن كانت معدومة فلا
[٣٤و] حاجة / إلى إيجادها.[١] وأما من قال: يلزم عن[٢] النسخ أن ينقلب الحَسَن قبيحا. قلنا: إنما الحسن والقبح يكون إما من جهة الشارع فيكون الشيء حسنا في وقت أو بشخص، قبيحا في آخر؛ وإما أن يكون[٣] حسنا لعينه كالصدق والعدل، وقبيحا لعينه كالكَذِب والظلم، فمثل هذا لا يتصور فيه النسخ. وإنما يتصور في القسم الأول ولا حرج. فلا يقال عن البارئ تعالى: إن كان ما أوجده حسنا فلِم أعدمه، وإن كان قبيحا فلِم أوجده؛ لأن القادر العليم بما يخلقه قبل أن يخلقه لا يَقْدَح فيه جهل الجاهل بأسرار أفعاله، بل ما ظهر للعاقل من حكمة الإيجاد مثلُه خفيٌّ عن الجاهل من حكمة الإعدام. والغني الكريم العالم بما سيكون هو أعلم بالأصلح وأولى بفعله في سائر مخلوقاته.

وأكثرُ هذه حُجَجُ اليهود، وأبلغ ما يقال لهم: إن الدين الذي هو[٤] عليه إنما ثبت لمَا أمر الله به فوجب الانقياد إليه بعد أن لم يكن. وإذا كان كذلك فمتى أمر بعد ذلك بغيره وأوجب الانقياد إليه كان دينا ووجب أن يُتَّبع وإن كان مخالفا للأول. لأن الدين إنما صار دينا بعد أن لم يكن دينا بحكمه سبحانه وهدايته، فمتى حَكَم وجبت متابعته. فالدين هو[٥] اتباع ما أمر الله باتباعه، لا باتباع[٦] شيء مخصوص أو أمرٍ أولٍ فقط. فإنهم لم يعلموا السبت[٧] من أجل أنها سبت بل من أجل الأمر. فامتثال الأمر الأول بعد حدوث الأمر الثاني مخالفة للأمرين. وهذه شبهتهم، فيجب أن تفهمها.

[النسخ والبداء]

وأما تغيير بعض الأحكام في بعض الأزمان دون بعض فبحسب المصلحة التي اقتضت إنزال الحكم الأول على قوم، كذلك اقتضت وجوب تغييره على آخرين.

---

١ ر: إعدامها.
٢ ك: يلزم من.
٣ ك - يكون.
٤ أي موسى عليه السلام.
٥ ش ك + متابعة.
٦ ر ك: لا اتباع.
٧ ر: السبب.

لأن إنزال الحكم الأول نسخٌ لما تقدم، وهو أن لا إنزالَ، فنفس إنزال الأول يُلزِم إنزالَ ما شاء الله بعده مما يخالفه. وإذا لم يخالف فلا حاجة إلى الإتيان به فوجب النسخ عقلا. وأما شرعا فمن التوراة من قوله: "نبي[1] يقيم لكم الله" ثم قال: "إليه تسمعون".[2] ولو لم يكن ناسخا لَمَا احتاج إلى الأمر بسماع ما يأتي به. ولهذا قال فيها: "ومن لم يسمع منه أنا أنتقم منه".[3] ومتى علمت أن النسخ لا يتعلق بالخالق المكلِّف سبحانه بل بالمخلوق المكلَّف لاختلاف وجه المصلحة فقد تحققت أنه لا يلزم عنه البداء، لأن النسخ لم يعرض[4] لخفاء وجه المصلحة بل للعلم بها. وإذا كان[5] موت الإنسان وحياته يكونان[6] لمصلحتين باعتبار زمانين، فكما جرى ذلك في الأفعال، فمثلَه نقول في الأقوال. وقد علمت أن أمر الطبيب للمريض بشرب المُسهِل أولا لم يكن خطأ إذا نهى عن ذلك بعينه لذلك المريض بعينه أخيرا.

واعلم أن لفظ البداء يطلق على معنيين. أحدهما الكشف والظهور، كقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾،[7] أي ظهر. والمعنى الثاني أن يراد بهذا اللفظ ما يَعرض من الندم، كما تقول: وبدا لي في الأمر الفلاني إذا ندمت على فعله. وهو أيضا[8] يرجع إلى معنى الظهور. والفرق بينهما أن البداء بالمعنى الأول معناه الظهورُ فقط من غير أن يقتضي شَيئا متقدما عليه. والثاني ظهورٌ يتعلق بأمر تقدم مع استتار وجه المصلحة فيه وظهورِها في زمن تأخّر وذلك هو الندم. فهذه أصول صح بها جواز ما لا يلزم عنه البداء من النسخ. والمراد بإثباتها أن نفهم[9] جوازه على الكتب المتقدمة لا أنه موجود في القرآن وإن جاز ذلك. وقد نُقل عن أبي مسلم[10] وغيرِه

---

[1] ر: بني.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «يقيم لك الرب إلٰهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلي، له تسمعون» (التَّثْنِيَة ١٨/١٥).

[3] يشير المؤلف إلى ما ذكر في التوراة: «ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه» (التَّثْنِيَة ١٨/١٩).

[4] ر: لا يعرض.

[5] ش – كان.

[6] ر – يكونان، صح هـ.

[7] سورة الزمر، ٤٧/٣٩.

[8] ش – أيضا.

[9] ك: أن تفهم.

[10] أبو مسلم، هو محمد بن بحر الإصفهاني، من أهل إصفهان.معتزلي، من كبار الكتاب.كان عالما بالتفسير وبغيره من صنوف العلم، وله شعر. وولي أصفهان وبلاد فارس للمقتدر العباسي، واستمر إلى أن دخل ابن بُوَيْه أصفهان سنة ٣٢١ هـ فعزل. من كتبه: جامع التأويل في التفسير، والناسخ والمنسوخ، وكتاب في النحو. توفي سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م (طبقات المفسرين للسيوطي، ص ٨٥؛ وطبقات المفسرين للأدنه وي، ص ١٢٣؛ والأعلام للزركلي، ٥٠/٦؛ ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، ٥٣٩/٣).

ما لا مزيد عليه في دفع نسخ القرآن بحجج واضحة، بعضها[1] ههنا. فمن ذلك قوله: لا يحسن في العقل أن يكون الكتاب الواحد من الملِك بعضه ينقض بعضا أو يخالفه،[2] وقد نفى الله تعالى أن يوجَد في كتابه اختلافٌ.[3] وإذا كان كذلك فالمتكلم إذا تكلم في زمن لمقصود ثم تكلم بعده في زمن آخر بكلامٍ آخرَ لأجل ذلك المقصود الأول كما جاء القرآن بعد ما تقدمه فلا يخلو من أحد ثلاثة أقسام: إما أن يتكلم في الثاني كالأول بعينه وإن اختلفت العبارة أو اللغة، وإما / بدونه، وإما بخير منه. فإن جاء في [٣٤ظ] الثاني بما جاء به في الأول فهو هو بأيّ عبارة أو لغة تكلم، إذ المعنى واحد، وهذا الذي لا يُتصوَّر نسخه كما قلناه. وإن أتى بدون ما في الأول فالإمساك عن ذلك الكلام أفضل في نيل المقصود. وإن أتى في الثاني بما هو خير من الأول فلا شك أنه أبلغ في نيل المقصود. فلزم أن يكون جملة الكلام الثاني إما مثل جملة الكلام الأول، أو خيرا منه، أو بعض ما في الثاني كبعض ما في الأول. وبقية الثاني خير من بقية الأول. ولا معنى لقوله تعالى: **ما ننسخ من ءاية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها**، إلا ما قلناه. فالإشارة بالمِثل[4] إلى ما لا يُتصوَّر نسخه كالعدل والصدق، وما أتى من جنس ذلك في الكتب المتقدمة أشار إلى أنه تعالى أتى بمثله[5] في القرآن وإلى ما يجوز نسخه بحسب المصلحة والأشخاص، [و]أشار تعالى إلى أنه لما نسخه من الكتب المتقدمة أتى بخير منه في هذا الكتاب. فهذا كتاب لا ناسخَ لحكم من أحكامه لا منه ولا من غيره. والدليل على ذلك فهمُ جميعها غير مناقِض لشيء من جميعها.

[ادعاء نسخ الكتاب بالحديث]

ومن العجب العجيب ظنُّ مَن ظن بكثير من الآيات التي تضمنت ما لا بد من العمل بمفهومه أنها منسوخة بآيات أخرى لا تغني الثانية عن الأولى، فاحتاج إلى أن يأخذ حكم الأولى من غير كتاب الله تعالى كفقه، أو حديث؛ فلزمه بذلك أن الله تعالى أنزل كتابا ناقصا تمّمه خلقُه، تعالى الله[6] عن ذلك. وأعجب من ذلك مَن نسخ الكتاب بالحديث.

[1] ش – بعضها، صح هـ.

[2] لمعرفة المزيد من الأدلة انظر: اللباب لابن عادل، ٣٧٧/٢، ٢٨/٣، ٥٢٣، ٢٤٣/٤، ٢٤٤، ٢٤٠/٦، ٥٦٦/٩، ١٢٤/١٤، ٤٥٨، ٥٥٠/١٨.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (سورة النساء، ٨٢/٤).

[4] ش ك – بالمثل.

[5] ش: مثله.

[6] ر – الله، صح هـ.

ولو وقف عند قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓ﴾[١] لَفَهِم أن الله تعالى نفى أن يكون ذلك لرسوله صلى الله عليه وسلم. ومن احتج بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾[٢] وادعى أن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ليس من تلقاء نفسه، فإنه لم يَفهم ما قال الله تعالى، وقد بيناه في موضعه. ولو كان كلام الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك لم نُسمِّه كلام الرسول بل كلام الله. والفرق ظاهر عند من يدري. ههنا قسمة ضرورية إذا وعاها الفَطِنُ ظَفِر بالحق. وذلك أنه[٣] لا يخلو إما أن الحديث الذي لم يفهمه الظانُّ فظن أنه نسخ الكتاب جاء قبل الكتاب أو بعده أو معه. فإن كان الحديث قبلُ فما كان لمجيء الكتاب فائدة، إذ الناسخ قد تقدم وعليه الفتوى وبه الحكم. وإن كان الحديث تأخر، فلو أن مِلِكا أرسل رسولا بكلام من عنده إلى قوم وجعل لهم دليلا[٤] على صدق الرسول وصحة الكلام الذي جاء به أن لا يقدر أحد أن يأتي بمثله فأتى الرسول بمثله لكان مما يبطل صدق الرسول لدعواه أولا. فإن ادعى الرسول أنه تكلم بخير مما جاء به من الرسالة أبطل[٥] معنى كلام الملك ونقض حكمه ونهى عن العمل به، مع مجيئه بكتاب الملك ودعواه أن الملك أرسله بما لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله وبما ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾.[٦] بقي أن يقال: إن الحديث والكتاب جَاءَا[٧] معا، وذلك مستحيل.

[ادعاء نسخ الكتاب والحديث بدليل الإجماع]

وأعجب مِن ذلك كلِّه أنهم نسخوا الكتاب والحديث بما سمَّوْه الإجماع. وهو إجماع على مناقضة الكتاب، لأنه حدث بعد الصدر الأول الذين أجمعوا على ما وافق الكتاب بعد ثبوت الأدلة، فكان إجماعهم بعد صحة الدليل وموافقة الكتاب حجةً على المقلِّد إذ لا سبيل له[٨] إلى معرفة الدليل. وأما المحقِّق فهو واحد منهم وإن تأخر عنهم. وهذا خلاف إجماع هؤلاء إذ هو إجماعُ فئةٍ يظنون أنهم هم المسلمون فقط، ولا يلزم ذلك، إذ غيرُهم يظن كظنهم ورأيُه بخلاف رأيهم؛ فهو إجماع بدعةٍ لمخالفة الكتاب والحديث بغير دليل. والإجماع [يلزم] أن يكون من الخصمين لا من جمع اتفقوا على شيء

---

١ سورة يونس، ١٥/١٠.
٢ سورة النجم، ٣/٥٣.
٣ ش: ظفر بلزوم ذلك.
٤ ر: الدليل لهم.
٥ جميع النسخ: وأبطل.
٦ سورة فصلت، ٤٢/٤١.
٧ ش: جاء.
٨ ش – له، صح هـ.

خالفهم فيه جمعٌ آخر، ربما كان أكثر منهم أو أعلمَ، قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ.[1] ولهذا خالف الشافعي رحمه الله تعالى في ذلك.[2] ولو وقف هؤلاء عند قوله تعالى: ما ننسخ من ءاية أو ننسها نأت بخير منها، فنسب الإتيان إليه [تعالى] لا إلى غيره لَمَا جنحوا إلى ما جنحوا إليه. وكذلك قوله: بخير منها. ولا يكون كلام المخلوق خيرا من كلام الخالق ولا مثلَه، نبيا كان أو غيره.

وأما من أوّلَ الكلام وترك ظاهر اللفظ وواجبَه مع وضوحه ليحرّف معنى الكلمة ويفسرها كما شاء ويستدل بها على ما يخالف مرادَ الله، فلا حيلة لنا فيه، والله إن شاء يعافيه. وقد علمت أن أكثر الأئمة والصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في المنسوخ. فيرى أحدهم أن هذه الآية منسوخة بالآية الأخرى، فيأتي الآخر فيفهم لكل واحدة منهما معنى لا يناقض معنى الأخرى فيَصدر عنه ضدُّ ما ادعاه من تقدمه من النسخ. وذلك مثبوت في جُلّ كتبِ التفسير، لأن القول في ذلك عائد إلى نظر المجتهدين ومن باب الجائز، وما جاز فلا يُحكَم عليه بنفي أو إثبات إلا بمرجِّح، ولا مرجح[3] أبلغ من تمشية جميع الآيات على ما يجب ويسوغ في العقول الصحيحة والنصوص غيرَ خارج عن قواعد اللغة.

فإن قال قائلهم: إنما نقضنا كلام الله بكلام الله، أي في القرآن خاصة، لأنه إنما نزل في مُدَدٍ متطاولة وسنين، وكان أهل الإسلام في بدء الإسلام[4] على مقدار من القوة أو الضعف،[5] لا يحتملون في الأول ما يحتملونه في الآخر. ثم اقتضت المصلحة بضده أو بغيره في زمنٍ آخر كما زعمت أنت في التوراة بعينه، إذ الكل هو كلام الله[6] تعالى؟ قلنا: هذا موضع الشبهة، وكفى بالرد على قائلي ذلك اختلافهم فيه. ولا شك أن الاختلاف في النظر أوجب الاختلاف في المنظور. وحاشا لله[7] تعالى أن يتكلم بكلام واحد في كتاب واحد على رسول واحد باطنُه يخالف ظاهره، فكيف يتكلم بما يخالف في الباطن والظاهر معا، وقد قال تعالى: لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ،[8]

[1] ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (سورة الإسراء، ٨٨/١٧).

[2] انظر: أحكام القرآن للشافعي، ٣٣/١-٣٥.

[3] ر - ولا مرجح.

[4] ش: إسلامهم.

[5] ر: والضعف.

[6] ش: هو كلامه.

[7] ش: وحاشا الله.

[8] سورة فصلت، ٤٢/٤١.

ولو نَسخ لكان قد أتاه. وإذا كان[١] لا يتقدمه من الكتب ما يبطله ولا يأتي بعده ما يبطله،[٢] فكيف يأتي فيه ما يبطله. ونزول القرآن لم يكن في ألوف أو في مئين[٣] من السنين بقدر ما بين عيسى وموسى، أو عيسى ومحمد صلى الله عليهم حتى يقع التحريف والتبديل ويستمرّ من الضلال[٤] ما يوجب نسْخَ أحكامٍ بأحكام.

فإن قيل: نزلت الآية في حق شخص معين أو أشخاص، ثم انقضى ذلك الأمر بانقضاء المأمور؟ قلنا: هذا تخصيص لا نسخٌ؛ لأن النسخ عبارة عن رفع حكم والإتيانِ بخير منه عوضا عنه، فهو غير ما قد قيل. ومع هذا فحكم الآية كله أو جُلُّه باقٍ كما سنبين في مثل ذلك. فتلك الآية مخصوصةٌ بذلك الإنسان عامةٌ لغيره من أمثاله متى وُجدوا. والمتكلم[٥] سبحانه لا يُخبر الناسَ في كلامه بقضية إخبارية[٦] لا تعلُّقَ للسامعين بشيء منها.

فإن قيل: في تلاوتها ثواب. [قلنا]: لزم من ذلك أن نضمَّ إليه شيئا من التوراة والإنجيل ونتلوَه رجاءَ الثواب. وهذا المجال تتسع[٧] فيه الأقوالُ وليس فيه إجماعٌ. ويا ليت شَعْري إذا كان الإجماع منقولا عن آحاد مجتهدين، ومنهم المخطئ ومنهم المصيب، والناقلون عنهم لم ينقلوا دليلا يقطع الحجة بل قلدوهم،[٨] فهل هو إلا إجماع تقليد بإجماع العقلاء. على أن من الآحاد مَن يخصص جميع الآيات المنسوبة إلى أنها منسوخة، ويبين لها وجوها صحيحة قد[٩] أجمع العلماء على أن الآية متى أمكن تخصيصها فليست منسوخة، ولم يجز نسخها. وهذا ظاهر عند أهل التحقيق لا التقليد. ومما نقله أبو القاسم الصفّار[١٠] في تفسيره للقرآن، وذلك عن النوبختي[١١] أنه قال: النسخ وقع على الأحكام التي كانت للأنبياء المتقدمة ولم يقع في شيء من أحكام النبي صلى الله عليه وسلم. وقال: إن القرآن آخِر الكتب المنزلة، وأحكامَه آخر الأحكام،

---

١ ك - كان، صح هـ.

٢ ر - ولا يأتي بعده ما يبطله، صح هـ.

٣ ش: في ألوف ولا في مئين.

٤ ش + إلى.

٥ ر: المتكلم.

٦ ر: إختيارية.

٧ ش ك: نتسع.

٨ ش: بل قلدهم.

٩ ر: وقد.

١٠ لم يتبين لي من هو.

١١ لعله العلامة ذو الفنون أبو محمد الحسن بن موسى ابن الحسن، النوبختي الشيعي المتفلسف صاحب التصانيف. له كتاب الآراء، والديانات، وكتاب الرد على التناسخية، وكتاب التوحيد، وحدث العالم، وكتاب الإمامة (سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٥/٣٢٧).

فلا يجوز نسخه كما جاز نسخ الكتب المتقدمة به.[١] لأن المتقدمة كانت مرتّبة للقرآن،[٢] وكانت أحكام القرآن منتظرة بعدها كما نطقت التوراة،[٣] ولا منتظر بعد القرآن. وهذا كلامٌ فيه لمن وعى إقناعٌ.

* * *

وبعد هذا جميعِه فاعلم أنه إنما حملني على الإطالة فيما ذكرته عِظَمُ ما وجدته من التأسف على ضَعْفَى العقول، وعامة الناس الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا إلى الخروج عن التقليد. وقد وُجدوا على حالة من التربية والعوائد فيما يعتقدونه، حتى ظنوا بما أَلِفُوه أنهم على محض الحق فلا تميل أنفسهم إلى سماع غيره. وإن سمعوا غيره في حين مّا فلا اعتقاد لهم به ولا اعتبار لهم فيه ولا تأمُّلَ إلا بصورة الرد والإبطال. لأنهم بزعمهم على يقين شافٍ وحقٍّ كاف. ثم مَن منهم تعلَّم علما فإنما تعلمه لمعيشة به ومعلومٍ له [أو] عليه إلا قليل منهم. فإذا[٤] تفقه إنما يتفقه فيما يناسب ما نشأ عليه جمهورهم. وإن أشكل عليه فلا يجد من يوضحه بل يردّه إلى طريق التقليد لا التحقيق. فإن تفهّم وتيقظ حتى لمح لمحةً مّا في حين مّا فظهر له ضدُّ ما هم عليه فإنه لا يستطيع إظهار ذلك بل يبالغ في كتمانه خِيفةً مِن شر الأشرار المتعصبين لأهوائهم والظانّين أن لا حَقَّ إلا ما هم عليه فيفسّقونه ويكفّرونه، وحذرا من قَطْع معلومه وبطلان معيشته التي تقوم بها حياته. وذلك ضروري له. وأما الآحاد في الأعصار فمَن هداه الله تعالى ووفّقه لعلمِ الحق فإنه لمّا علم أن الجمهور يَصعُب نقلُهم عما أَلِفُوه ونبذُهم لِما عرَفوه وإن كان ظاهر الفساد أمسك عن القول إلا لآحاد في أوقات[٥] عندما يتوهَّم حصول النفع فكلامه مشروط، كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾.[٦]

ولِمَا يمكن أن يتفق لذلك الواحدِ ذلك الواحدُ في سائر الأوقات لخَصتُ كلاما في هذا المعنى بعد كثرة الخوض فيه ينتفع به بعدي مَن تَنفعه الذكرى. فأقول: إن كل حكم ورد مؤبّدا مطلقا ولا يحتمل تأبيده وإطلاقه تغيرا باعتبار العقول الصحيحة[٧]

---

١ لم أهتد إلى هذا القول فيما بين يدي من المصادر التفسيرية.

٢ ر: مرتبة على القرآن.

٣ انظر مثلا: التثنية ١٨/١٥، ١٨-٢٠.

٤ ر: فمتى.

٥ ش: لآحادية أوقات.

٦ سورة الأعلى، ٨٧/٩.

٧ ش - أو لغة تكلم إذ المعنى واحد وهذا الذي لا يتصور نسخه كما قلناه... ولا يحتمل تأبيده وإطلاقه تغيرا باعتبار العقول الصحيحة، صح هـ.

فلا جائزٌ أن يُنسَخ، فإنّ[١] نسخه يُلْزِمُ البَدَاء، وذلك محال على الله تعالى. وكل حكم ورد وهو يحتمل التغيير فلا يخلو إما يرِد معيَّنا فلا إشكال فيه، أو غير معين فهو موضع الشبهة. ولهذا أنكره قوم وأثبته آخرون. وسبب إنكار المنكرين له أنهم أضافوه إلى ما يلزم عنه البداء، وينضاف إلى هؤلاء قوم ظنوا أن لفظ النسخ لا يقع إلا[٢] على ما يلزم عنه[٣] البداء.[٤] فامتنع عندهم وقوع النسخ مطلقا، وهم اليهود وبعض المسلمين في بعض الآراء والأمور لجهلهم بأقسام النسخ. وبالضد من هؤلاء ظن الآخرون؛ لأنهم قلدوا واتبعوا مجرد اللفظ من غير اعتبار أقسامه، فاعتقدوا أن سائر أقسام النسخ واقعة من الله. فألزموا به الناس واعتمدوا[٥] على الجبر وتَسَمَّوا بالسنة، وقالوا: لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ.[٦] فغلط الفريقان ونشأ الاختلاف. ثم استمر الغلط فاستمر الاختلاف إلى أن وُضعت كتبٌ واسناداتُ زورٍ يَعضُدها شُبَهٌ[٧] من كل فريق لتُبّاعهم. ومتى أتى عالم يكشف الغُمّة لأحد الفريقين بما لا تهوى أنفسهم كذبوه وجعلوه بدعا. وقد بينا وجه الحق في ذلك بعون الله وفضله.

فنقول إيضاحا لِما تقدم: إن كل أمر ورد بانتهاء، سواء كان معينا أو غير معيّن، ثم ورد أمر يخالفه يصح أن يقال: إنه ناسخ للأول من حيث إنه يرفع حكمه، وبهذه[٨] الصورة نُسِخَتْ التوراة وغيرُها. ويصح أن يقال: إنه ليس بناسخ له، إذ النسخ يكون في الأمر المطلق الذي لا يحتمل إطلاقه تغييرا، فصار من النسخ ما يجوز وقوعه ومنه ما لا يجوز. فمتى اعتقد معتقد أن لا جواز في جميعه فقد غلط في أحد القسمين. ومتى اعتقد آخَرُ جواز جميعه فقد غلط في القسم الآخَر. فهذا ما أردنا بيانه وأقمنا برهانه. فمن رأى في كلامنا اختلافا فليُلحقْ ما فرّعناه بما ههنا أصّلناه يَهتدِ إن شاء الله تعالى.[٩]

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾

---

[١] ر: لأن.

[٢] ر ك: إلى.

[٣] ش ك: عليه.

[٤] ر – وينضاف إلى هؤلاء قوم ظنوا أن لفظ النسخ لا يقع إلى على ما يلزم عليه البداء، صح هـ.

[٥] ش: وألزموا به الناس فاعتمدوا.

[٦] سورة الأنبياء، ٢١/٢٣.

[٧] الشبه: جمع شبهة. وتستعمل في علم الجدل بمعنى "دليل الخصم"، أي كأنه دليل وفي الحقيقة ليس كذلك.

[٨] ك: وبهذا.

[٩] ر – يهتد إن شاء الله تعالى، صح هـ.

ألم تعلم أن الله له ملك السمٰوٰت والأرض، خطاب تقدم في الآية التي قبل هذه مثله، وهو أولى أن يكون النبيَّ صلى الله عليه وسلم، لأنه يعلم ذلك. وفيه إشعار للجمع بلسان القُرّاء،[1] ولهذا بعده: وما لكم من دون الله من ولىّ ولا نصير.

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾

وقوله:[2] أم تريدون أن تسئلوا رسولكم كما سئل موسىٰ من قبل، مبني على ما تقدم، أي ألم تعلموا، أم تريدون. وقوم موسى سألوه: فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً؛[3] وسؤال هؤلاء: لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا.[4] ومن يتبدل الكفر بالإيمٰن فقد ضل سواء السبيل.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾

ودّ كثير من أهل الكتٰب لو يردونكم من بعد إيمٰنكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتىٰ يأتى الله بأمره، الأمر ههنا هو قوله: قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ،[5] وتمامُ الآية. ولا تكون تلك الآية ناسخة لقوله: فاعفوا واصفحوا، لأنه قُيِّد بقوله: حتىٰ يأتى الله بأمره. ولهذا بعده: إن الله علىٰ كل شىء قدير، أي إنه قادر من الآن على مجازاتهم بما يستحقونه من العذاب أو الاستئصال، لكنه تعالى يؤخرهم لما يعلمه من أمرهم. وأما من قال: إن هذه منسوخة بقوله: قَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ،[6] فهؤلاء ليسوا بمشركين، لأن الله تعالى سماهم في عدة مواضعَ وعيَّن معهم المشركين،[7] فدل على أن المشركين غيرهم.

---

[1] ش: الفراد.

[2] ر – وقوله.

[3] سورة النساء، ١٥٣/٤.

[4] سورة الفرقان، ٢١/٢٥.

[5] ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ (سورة التوبة، ٢٩/٩).

[6] سورة التوبة، ٣٦/٩.

[7] ر – فهؤلاء ليسوا بمشركين لأن الله تعالى سماهم في عدة مواضع وعين معهم المشركين.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾

وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا، قول اليهود، **أو نصٰرىٰ**، قول النصارى. ثم جمع الفئتين بقوله: **تلك أمانيهم**. وتلك،[1] يريد بها الإخبار عن جملة الأقوال التي تقدمت عنهم. والأمانيّ[2] الأقوال بالمعنى. وذلك مثل أن لا ينزل على المؤمنين من خير وأن يَرُدُّوهم كفارا[3] وأن لا يدخل الجنة غيرهم. **قل هاتوا برهٰنكم إن كنتم صٰدقين**، ليس كما قالوا.

﴿بَلَىٰۚ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾

بلىٰ، كثيرا ما تأتي / في القرآن يستثنى بها موضعَ "لكن"، **من أسلم وجهه لله وهو محسن**، يريد مطلق الإحسان إلى نفسه وغيره ظاهرا وباطنا. **فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**. [٣٥و]

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

ولما قدم قوله عنهم: وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ،[4] عرفنا بعد ذلك ما تعتقده كلُّ أمة في[5] الأخرى،[6] فقال: **وقالت اليهود ليست النصٰرىٰ علىٰ شىء وقالت النصٰرىٰ ليست اليهود علىٰ شىء وهم**، جميعا، **يتلون الكتٰب**، المنزَّل إليهم ولا يهتدون بما فيه. **كذٰلك قال الذين لا يعلمون**، أي مثل اليهود والنصارى قال مشركو العرب،

[1] ر – وتلك.

[2] ر + في.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٠٠).

[4] الآية ١١١ من هذه السورة.

[5] ر: أمة من.

[6] ش + منه.

وذلك أنهم قالوا: ليس محمد صلى الله عليه وسلم على شيء. ويدلك على أن الإشارة إلى مشركي العرب ما سيأتي بعد ذلك بقوله: **كذٰلك قال الذين لا يعلمون من قبلهم مثل قولهم**، وكما سنبين. ففي هذه الآية الأولى شبّه الذين لا يعلمون من العرب باليهود والنصارى، إذ كل فريق يزكي نفسه ويخطّئ غيره. وفي الأخرى التي تأتي شبّه الذين من قبلهم بهم في قول آخر. ثم عرّفنا أن قلوبهم تشابهت كما تشابهت أقوالهم. وعرّفنا في الثانية أنه بيّنَ ما ذكره في الآية الأولى، لأننا ربما كنا لا نفهم إلى من أشار بقوله في الأولى: **كذٰلك قال الذين لا يعلمون**، من أنهم مشركو العرب. فعرفنا أنهم هم الذين لا يعلمون، وأن قبلهم قوما قالوا: كذلك، وليس إلا اليهود والنصارى كما قدمه في الآية الأولى. وقد علمتَ أقوال الجميع في هذه. وستعلم ذلك في الآية الآتية. ولذلك تمم هذه الآية بما أخبر به عن الجميع جملة، إذ قال: **كذٰلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم**. فتممه بقوله: **فالله يحكم بينهم**، أي كلهم، **يوم القيٰمة فيما كانوا فيه يختلفون**. ولما كان البيان في الآية التي سوف تأتي تممها بقوله: قَدْ بَيَّنَّا الآيٰت.[1]

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾

ومن، أحدٌ، **أظلم ممن منع مسْجد الله**، أي يمنع المؤمنين عن مساجد الله، مَنَع، **أن يذكر فيها اسمه وسعىٰ فى خرابها**، ولم يقل: في[2] خَرْبها. والمعنى أنه متى مَنع أن يصلى بها آل الأمر إلى خرابها؛ ولأن المسجد إذا لم يُصَلَّ به فلا فرق بينه وبين الخراب من جهة الصلاة لا السَّكَن. **أولٰئك**، يعني الذين منعوا، **ما كان لهم أن يدخلوها**، أي بعد ذلك، **إلا خٰئفين**، مأخوذ من قوله: فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا.[3] وقوله: **إلا خٰئفين**، إشارة إلى المستجير بالبيت. وجُمع بلفظ[4] المساجد تفخيما وتعظيما. والإشارة إلى المسجد الحرام خاصة وإن عم. كما لو قتل إنسان إنسانا فتقول: "ومن أظلم ممن يقتل الناس" وأنت تريد واحدا. ويؤيد هذا أن الكفار كانوا يصدّون عن المسجد [الحرام]. واعلم أنه لو كان تعالى قد أجبرهم على المنع لَمَا قال: **ومن أظلم**.

---

[1] الآية ١١٨ من هذه السورة.
[2] ر – في.
[3] سورة التوبة، ٢٨/٩.
[4] ر ك: بلفظة.

والطريقة في قبح الظلم واحدة. وحاشا البارئ أن يرتكب عند عباده ما[1] يستقبحه منهم.
ثم قال: **لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم.**

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

ولمّا ذكر المنع من المساجد قال: **ولله المشرق والمغرب**، أي إن مُنعتم أيها المؤمنون من المسجد فاطلبوا الله تجدوه معكم أينما تولوا. واعلم أن قوله: رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ،[2] يشير إلى جهتي الشمس أول النهار وآخره من فَلَكها، و رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ[3] إلى جهتي الشمس والقمر من فلكَيْهما، و رَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ[4] إلى جهات الكواكب في طلوعها ومغيبها. وأنت تعلم أن مشرق القمر دائما لا يكون إلا المغرب، أعني الهلالَ لا يُرى إلا من المغرب. ولمّا كان كل كوكب من السيارة في فلك وبين كل فلك وفلك ما شاء الله كان لكل كوكب مشرق غيرُ مشرق الآخرَ وإن كانت الجهة واحدة. فافهم هذا جيدا لتعلم أنه لو طلع الكل جملة في جهة[5] واحدة لكان يجوز أن يقال: إن لكل واحد مشرقا.

فأينما تولوا، إذا جاءت "ما" بمعنى الذي حسن أن تُكتَب مفصولة مثل قوله في الشعراء: أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ،[6] لكنها كُتبت موصولة ليتحقق[7] بهذه ومثلِها عدلُ النَّقَلَة رحمهم الله، وأنهم لم يغيروا ما رأوه. فلزم أن نبقيه على حاله وإن كان واجبُ الخط غيرَه. ولأن المعنى يُفهَم من اللفظ نطقا، إذ هو في النطق واحد. ومتى جاءت / بمعنى [٣٥ظ]
المكان أو الظرفية[8] فموصولةٌ، مثلَ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ.[9] وقوله: **فثم وجه الله.** لمّا كان الإنسان إذا قصد مكانا وجّه وجْهَه إليه، وإذا قصد معنًى وجه وجه قلبِه إليه. وكذلك الشخص المقصود إليه من الناس يلاقي القاصدَ بوجهه. وفي المعنى يقال: هذا وجه حسنٌ فتُعبَّر بعبارة "الوجه" المقابل للوجه. فكذلك خاطبَنا سبحانه بما يصل إلى أفهامنا من مثل كلامنا. فافهم في جميع صفات الحق المُوهمة بالتجسيم كذلك كائنة ما كانت حيث كانت. **إن الله وٰسع عليم.**

---

[1] ر ك – ما.
[2] سورة الشعراء، ٢٦/٢٨؛ وسورة المزمل، ٧٣/٩.
[3] سورة الرحمن، ٥٥/١٧.
[4] سورة المعارج، ٧٠/٤٠.
[5] ر – في جهة، صح هـ.
[6] ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/٩٢-٩٣).
[7] ش: لتحقق.
[8] ش: والظرفية.
[9] سورة النساء، ٤/٧٨.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾

وقالوا اتخذ الله ولدا، معطوف على قوله: وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ.[١] وإنما قاله ههنا ليعرّفنا أن قلوب اليهود والنصارى والذين لا يعلمون من العرب وأقوالَهم تشابهت، ويعرّفنا رتبتهم في الكفر بالله بألسنتهم وقلوبهم. سبحٰنه بل له ما فى السمٰوٰت والأرض كل له قٰنتون، أي طائعون. ومنه سمي القيام في الصلاة قنوتا. ويحتمل الإطلاق أيضا، أعني متى كان طائعا كان قانتا. ومنه وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ.[٢] وهذه الطاعة لله ههنا هي[٣] شهادة الأجسام بما فيها من آثار الصنعة والقيامُ بما خُلقت عليه لا تملك لأنفسها تبديلا. فكيف يكون له منها نظير؟

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾

ولما كان أكثر ما في الأرض يحتاج إلى ما يخلفه من الولد كالحيوان والنبات قدم ذكر ما في السماوات الذي تراه لا يحتاج إلى ما يَخْلُفه كالشمس والقمر والنجوم، وخالق هذا الغنيِّ عن الولد أولى بالغِنَى. وهذا برهان مُفحِم، فقال: بديع، مبدع،[٤] السمٰوٰت والأرض. والإبداع إيجاد ابتداءٍ لا احتذاء.[٥] ولو كان العالَم أُبدع على صورة معلومة عند البارئ للزم أن تلك الصورة أيضا على صورة، ويتسلسل أو يَثبت اثنان قديمان. ولا يقال: إبداع إلا إذا لم تتقدمه صورة قبله. وأما ما يعارض به هذا الكلامَ فجوابه أن اعتراف العقلِ بقصوره عن إدراك ما فوق طَوره سجودٌ لبارئه سبحانه، وهذا مراد الشرع. وأما الرد العقلي على الحكماء فهم ظنوا أن وجود الممكن في العلم السابق وجودٌ من حيث المعلوم. وهذا غلط بل هو من حيث المعلوم عدمٌ، ومن حيث العلمُ وجودٌ علمي لا نسبة للمعلوم إليه بوجه. ولولا ذلك للزم أن يكون العالَم قديما بذاته في ذات[٦] البارئ. ولا يصح ذلك لأن الحدث غير القدم وينتفي أن يكون الحدثُ صفة للقديم، فيرجع قديما ويكون حادثًا[٧] لا حَدَثًا. والحق سبحانه مستغن بوجوده عما[٨] أوجد،[٩] فقد ثبت أنه أوجد غيره. فافهم أنه أوجده عن أمره لا عنه.

---

١ الآية ١١٣ من هذه السورة.

٢ ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾ (سورة الأحزاب، ٣١/٣٣).

٣ ش – هي.

٤ ر ك: مبتدع.

٥ ر ك: لا احتداء.

٦ ر ك + الله.

٧ جميع النسخ: حدثا.

٨ ر – عما.

٩ ش: عما وجد.

ومن فهم هذا سلم من اعتقاد قديمَيْن الناشئ عن القول بالفيض، ومِن أنّ ذات البارئ محل الحوادث، وهو الغلط الناشئ عن القول بالإبداع. فافهم جيدا ولا تظنّنّ أن المبدَع يتعدى طورَه أو يدرك غيرَه. فهذا رد صحيح على مخالفي الشريعة من جهال الفلاسفة. وأما قولهم: إن الواحد لا يصدر عنه إلا واحد لا يصح، لأن الثاني إن كان هو الأولَ من كل وجه فما هو ثانٍ بل هو هو، وإن تميز فهو غيره. وظهور الغير غير الواحد. ولهذا جاء بعد هذا الكلام ههنا نهاية ما يجب أن تقف عنده العقول، وهو قوله تعالى: **وإذا قضىٰ**، حكم، **أمرا**، بأمر، أي بكيانه، **فإنما يقول له كن فيكون**.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨﴾

وقال الذين لا يعلمون لولا، هلا، **يكلمنا الله أو تأتينا ءاية**، كعصى موسى وناقةِ صالح. **كذٰلك قال الذين من قبلهم**، لرسلهم، أي اليهود وأمثالهم، **مثل قولهم تشٰبهت قلوبهم**. ولمّا كان في هذه الأية والتي تقدم مثلُها ما يحتاج إلى بيان قال ههنا: **قد بينا الآيٰت لقوم يوقنون**.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾

﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠﴾

ولن ترضىٰ عنك اليهود، حَذَف[1] "حتى تتبع ملتهم" لئلا يتكرر. واكتفى بزيادة "لا" فقال: **ولا النصٰرىٰ حتىٰ تتبع ملتهم. قل إن هدى الله هو الهدىٰ**، لا هُداكم أيها المدَّعون. **ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم**، وسنبين الزيادة ونوضح معناها. والفرق بين قوله "مَن" و"ما" و"الذي"، وذلك: أن "ما" و"الذي" اسمان ناقصان / مبهمان. و"الذي" تزيد على ما في وجوه البيان، فكأن "الذي" لمّا لزمتها أمارة[2] [٣٦و]
التعريف صارت أبين وأشمل وأبلغ من "ما"، ولهذا قال: أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ،[3] ولم يقل: "أمّن هذا ما" لعدم التعريف في "ما". ولمّا كان الكفر قُبالة الإيمان عبر عنه

[1] ر – حذف، صح هـ.
[2] ش: أمارات.
[3] ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥ﴾ (سورة الملك، ٢١/٦٧).

هھنا[1] بـ"الذي"، لأنه أمر كليٌّ، ويدلك ما تقدم ههنا. وأما هناك[2] عَبّر بما، وزاد "مِن"، لأنها تدل على الحين وابتداء الغاية. والإشارةُ هناك إلى القبلة، وهي في حين، وهي بعض الدين، فعبر بما، وزاد "من". وكذلك في الرعد عبر بما ولم يزد "من"،[3] لأن المتقدم وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ،[4] فنهى أن تَتبع الأهواءَ في البعض. فَتَأَنَّ لتفهم ذلك جيدا. ولو كان العبد مجبَرا على أن يتبع وعلى أن لا يتبع لَمَا حذّره سبحانه بقوله: **ما لك من الله من ولى ولا نصير.**

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾

الذين ءاتينٰهم الكتٰب، التوراة، **يتلونه حق تلاوته**، أي لا يحرّفونه. **أولٰئك يؤمنون به**، أي بالقرآن فيُسلمون. ومن حقوق تلاوته التدبرُ وأن لا تكون أفعال التالي مخالفة لأقواله كما قال: أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ، ثم قال: وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ.[5] وفي هذه الآية تنبيه على أن من آتاه الله كتابا فاستمر يتلوه حق تلاوته فذلك هو المؤمن به. والتلاوة تكون بالقراءة تارة، وبتتبع[6] المعنى لِيعمَل به تارة. والكلام مطلق في كل زمن، والكتاب اسم الجنس، ولهذا بعده: **ومن يكفر به**، لكن التخصيص ملحوظ من الإطلاق بقوله: **ومن يكفر به**، أي بالقرآن، **فأولٰئك هم الخٰسرون.**

والرابطة بين هذه الآية وبين ما قبلها أنه تعالى قال فيما قبلها: قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ.[7] وعرّفنا في هذه أن علماء اليهود الذين أُوتوا فهْمَ التوراة يؤمنون بالقرآن فيُسلمون، وأن[8] الكافر الخاسر مَن عَلِم ولم يعمل. ودليلُ ما قلناه من أن الإيتاء يريد به الفهمَ في كثير من المواضع، قولُه: وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ،[9]

---

[1] أي في الآية التي نحن بصدد تفسيرها.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الآية ١٤٥ من هذه السورة.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ (سورة الرعد، ٣٧/١٣).

[4] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ (سورة الرعد، ٣٦/١٣).

[5] الآية ٤٤ من هذه السورة.

[6] ش: وبتبع.

[7] الآية ١٢٠ من هذه السورة.

[8] ش - أن، صح هـ.

[9] ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ (سورة آل عمران، ١٨٧/٣).

ولا يبيّن إلا من أوتي الفهمَ. فمن لم يعلم ما يتلوه كيف يعمل به؟ وقال بعض المتصوفة: يجب أن تكون القراءة باللسان، والقلبُ مُنصت يسمع من العقل ما يوحيه[١] إليه من تفسير ما يقوله اللسان وما يحمل عليه ويتعلق به. وإذا قوي الاستعداد خوطب القلب باللسان حين التلاوة بما يُميز بعض الكلام فيَفهم منه معنى آخر زائدا على المفهوم من ظاهر العبارة، فإن كان لازما لها فذلك سعة وإلا فهو حال السامع. وقيل: أحسنُ الناس تلاوةً مَن إذا سمعتَه يقرأ رأيتَ أنه يخشى الله.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾

وأما تكرار قوله تعالى: يٰبنى إسرٰءيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العٰلمين، فإنه لمّا تقدم مثلها[٢] وذكر كلاما بعده وجب أن يكرر مثل ما تقدم ليَعطف عليه، وحذف مما تقدم ذكر الوفاء بالعهد لاستغنائه عن التكرار. وفهمنا من التكرار أن معظم الكلام بين الآيتين هو في بني إسرائيل مع ما في ذلك من التوبيخ والتنبيه بالتأكيد اللازم عن التكرار.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾

وقوله تعالى: واتقوا، أي إن لم تَفُوا بالعهد وتتبعوا الأمر، يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يُقبل منها عدلٌ ولا تنفعها شفٰعة. وقد تقدم قوله: وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ.[٣] والعدلُ يريد به ههنا الفِداءَ الذي يعادل المفدَى به. فالمعنى أن الإنسان قد تُقبَل شفاعتُه في[٤] غيره، وقد تَنفعه شفاعةُ[٥] غيره فيه. فنفى الله القسمين الأولَ بالأُولى والثاني بالآية الثانية. ولهذا عبر عن الشفاعة في الآية الأولى بالقبول، وفي الآية الثانية بالنفع. وقدم ذكر الشفاعة على الفداء في الآية الأولى، وأخّر ذكرَ الشفاعة عن الفداء في الآية الثانية. وكما ذكرنا عن الشفاعة فكذلك الفداء قد يؤخذ من الشخص عن غيره، وقد يقبل منه عن نفسه فنفى الله القسمين. ولمّا كان أَولى العبارة

---

١ ك: ما يوجبه.

٢ ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ الآية ٤٠ من هذه السورة.

٣ الآية ٤٨ من هذه السورة.

٤ ك – في.

٥ ك: شفاعته.

بمن فدى نفسه أن يقال: قَبِل منه، وبمن فدى غيره أن يقال: أخذ منه الفِداء؛ جاءت العبارة في كلام الله عز وجل على الصورة التي هي أَولى؛ فعبر بلفظ الأخذ من
[٣٦ظ] الشخص عن غيره مؤخرا في الآية / الأُولى، وعبر بلفظ القبول من الشخص عن نفسه مقدَّما في الآية الثانية على ذكر الشفاعة. فافقه تعجب وتأمل تَطرَبْ. وفائدة تكرار أول الآية في الموضعين بلفظ واحد يُفهَم كل واحد من تمام آيته. فإن الأول لا تجزي نفس عن غيرها، والثاني لا يجزي[1] غيرها عنها. ويفهم من الموضعين أنها لا تجزي عن نفسها، كقوله: يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا،[2] وجاء بلفظ الإطلاق ففيه معنوية التجانس لفظا، وفيه معنى قوله تعالى: لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا.[3] فأوضح هناك بذكر الوالد والمولود وتكرارِ لفظ الجزاء ما أشكل من تكرار ذكر النفس وذكر الجزاء ههنا. فتأمل دقيقا تزدد تحقيقا وتصديقا. وقوله: ولا هم ينصرون، أي لا من أنفسهم[4] ولا من غيرهم.[5]

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

ثم عطف على قوله: اذْكُروا،[6] [قوله:] وإذ ابتلىٰ إبرٰهيمَ، قيل: مشتق من البَرْهَمَة، وهي شدة النظر،[7] ربُّه بكلمٰت فأتمهن، إبراهيم. والكلمات التي اختبرهٰ بها[8] ذبحُ الولد، لقوله عنه: إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ.[9] وقوله: فأتمهن، كقوله: وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ.[10] فالمعنى ههنا جاء بها تماما. فهذا تمام الكلام المتقدم لبني إسرائيل بما يعلمونه من حال إبراهيم كما جاء في التوراة.[11] وقوله: قال إني جاعلك للناس إماما، هو جزاء إبراهيم في الدنيا على ما أتم ما اختبره الله به. وإنما كان إماما لتقدمه على ذريته وفيها النبوة والكتاب. وقوله تعالى: قال ومن ذريتي، هو سؤال فأجيب إليه، لأن نفي العهد

---

[1] ش: لا تجز.

[2] سورة النحل، ١٦/١١١.

[3] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ (سورة لقمان، ٣١/٣٣).

[4] ش: لا بأنفسهم.

[5] ر ك: من غيره.

[6] الآية ١٢٢ من هذه السورة.

[7] انظر: لسان العرب، «برهم».

[8] ش: بهن.

[9] سورة الصافات، ٣٧/١٠٦.

[10] ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۞ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۞ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (سورة النجم، ٥٣/٣٧-٣٩).

[11] انظر لمعرفة المزيد: التكوين ٢٢/١-١٤.

عن بعض الذرية يثبته للباقين. وذلك معنى[1] قوله تعالى: **قال لا ينال عهدى الظّٰلمين**، من الناس، **عهدى**، هو الفاعل[2] في "الظالمين"، نصبا، أي لا ينال عهدُ الله الظالمين من ذرية إبراهيم ومن غيرهم. والإمام النبي، والعهد الكتاب. وأعني بالإمامة إمامةَ سائر الناس لا فئةٍ من الناس، لأن الكلام لإبراهيم هذا معناه. ويريد بالناس المتقين كقوله: وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا.[3] وعرّفنا أن الإمامة التي أشار إليها إنما تكون في ذرية إسماعيل بقوله: وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ،[4] وبعده: وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ.[5] وهذا، وإن اشتمل على ذرية إسرائيل لكنه أحق بذرية إسماعيل، لأن الكل ذرية لإبراهيم، ولم يأت من ذرية إبراهيم مَن قال: يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا[6] إلا محمد صلى الله عليه وسلم. وهو من ذرية إسماعيل التي أيضا هي ذرية إبراهيم. ولهذا لم يقل: أئمة.[7] فقد بان أن الإشارة إنما هي إلى هذا النبي العربي صلى الله عليه وسلم من حين سؤال إبراهيم لربه، والتخصيصُ له وإن جاز غيره في إطلاق السؤال. وأنت إذا تأملت النصوص تجد إسحاق له ذرية من ابنه يعقوب الذي هو إسرائيل، وتجد ذرية إسماعيل منسوبةً إلى إبراهيم خاصة. فإن قوله: وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا،[8] يخصص ذرية اسماعيل بإبراهيم خاصة، لأن إسحاق قد جعل له ذريةً بمفرده خاصة به. ولولا إرادته تعالى تخصيصَ ذرية إسماعيل بإبراهيم لأغنى قوله لو قال: "وباركنا عليه ومن ذريته"، لأن إسماعيل وإسحاق وذريتهما ذريةٌ لإبراهيم. ولكنه في جميع المواضع ينسب ذريةَ إسماعيل إلى إبراهيم ويُفرد لإسحاقَ ذرية أو لابنه إسرائيل الذي هو يعقوب مع ذكر ذرية إبراهيم. وذلك كقوله في سورة مريم: وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ.[9] فافهمه وأمثالَه جيدا. وانظر كيف جعل لإبراهيم وحده ذرية وليس لإسماعيل،[10] لأنه ذكر ذرية إسرائيل أيضا معه كما قدمنا. ويحقق ذلك عندك قوله في الحج: مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ،[11]

---

[1] ش - والكتاب وقوله تعالى قال ومن ذريتي هو سؤال فأجيب إليه لأن نفي العهد عن بعض الذرية يثبته للباقين وذلك معنى، صح هـ.

[2] ر ش + فعل.

[3] سورة الفرقان، ٧٤/٢٥.

[4] الآية ١٢٨ من هذه السورة.

[5] الآية ١٢٩ من هذه السورة.

[6] سورة الأعراف، ١٥٨/٧.

[7] أي لم يقل الله تعالى: إني جاعلك للناس أئمة، بل قال: إماما.

[8] ﴿وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ (سورة الصافات، ١١٣/٣٧).

[9] ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ (سورة مريم، ٥٨/١٩).

[10] ر: وليس من إلا من إسماعيل؛ ك: وليس إلا إسماعيل.

[11] ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ (سورة الحج، ٧٨/٢٢).

فجعله أبًا لهم ولم يقل: أبيكم إسماعيل. وذلك تشريفا لهم بالأبوّة وإعلاما لنا أن اليهود وإن كانوا في الأصل من إبراهيم، لكنهم لم يتبعوه فعاد أبوهم إسرائيل وإسحاقُ في النسب الجسماني. فإن[1] المسلمين منهم ومن غيرهم اتبعوا إبراهيم. فهو أولى أن يكون لهم أبا في النسب الروحاني بعد الجسماني، كقوله تعالى: إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ،[2] الآية. ولهذا أَمَر اليهود والنصارى / بقوله: قُلْ بَلْ [٣٧و] مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ.[3] فافهم ذلك. ولما تخصص إبراهيم بالإمامة وتخصص من ذريته إمام للناس وشهد القرآن لهذا النبي صلى الله عليه وسلم وشهدت له التوراة بقوله: "فيها نبي يقيم لكم الله من إخوتكم"،[4] ولم يقل: "منكم" لزم ما قلناه من أن المراد بدعوة إبراهيم هو هذا النبي العربي صلى الله عليه وسلم لا أنبياء بني إسرائيل صلوات الله عليهم أجمعين، وأن الإمام الهادي للناس لا يكون منهم. وهذا عين ما لزم من التوراة كما تقدم.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾

وإذ جعلنا البيت مثابة، مرجعا، للناس، يُرجَع إليه في كل عام من أجل الحج. والثوب سمي ثوبا لفرط الرجوع إلى لُبسه، فهو من[5] ثاب يثوب ثَوبا. وأمْنا، إشارة إلى قوله: وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا.[6] ومن قبلُ كانت العرب إذا عمل أحدهم جُرما ولاذ بالبيت كان آمنا حرمة للبيت. وليس المراد أن مِن خاصية البيت ذلك بل ذلك أمر يتبعه المؤمنون بالجاعل سبحانه. ولهذا بعده: واتّخِذوا، أي وقلنا: اتخذوا من مقام إبرٰهيم مصلى، موضعا يصلّى به، ولا يراد بمِن ههنا التبعيض[7] بل كما تقول: اتخذت[8] من فلان صاحبا، فالمراد جملة المكان. ولو قلنا: إنها ههنا للتبعيض لجاز بمعنى[9] أن[10] كل مكان

---

[1] ر ك: وإن.

[2] ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ (سورة آل عمران، ٣/٦٨).

[3] ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ الآية ١٣٥ من هذه السورة.

[4] لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلي. له تسمعون» (التثنية ١٨/١٥).

[5] ر + باب.

[6] سورة آل عمران، ٩٧/٣.

[7] جميع النسخ: للتبعيض، والمثبت من م.

[8] جميع النسخ: أخذت.

[9] جميع النسخ: لجاز أن بمعنى، والمثبت من م.

[10] ش ك – أن.

من المقام هو كالآخر في الشرف. **وعهدنا إلى إبرٰهيم وإسمٰعيل أن طهرا بيتى**، أي بصيانته عن[1] الأنجاس والنجاسات،[2] **للطٓئفين والعٰكفين والرّكّع السجود.**

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

وإذ قال إبرٰهيم رب اجعل هٰذا بلدا ءامنا، لما كرر هذا كانت فائدةُ زيادة الألف واللام في سورة إبراهيم[3] أن نعلم أن الإشارة إلى هذا البلد بعينه، ولو نكّره في الموضعين لاحتمل أن تكون الإشارة[4] إلى بلدين. فذكره أولا بصورة المنكّر وهو معرَّف بمقدَّره المحذوف، وتقديره "رب اجعل هذا البلد بلدا آمنا". والأَولى أن هذه الدعوة أولا قبل أن يصير هنالك بلدٌ، وتلك بعد أن صار. وقوله: **وارزق أهله من الثمرٰت من ءامن منهم بالله واليوم الآخر**، معناه فارزقه. قال، الله: **ومن كفر**،[5] أيضا أرزقه. ولهذا قال بالفاء: **فأمتعه قليلا**، في الدنيا، **ثم أضطره**، أُلجئه بذنوبه وكفره إلى عمل في الدنيا يسوقه، **إلى عذاب النار وبئس المصير.**

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾

ومما يدلك على أن الدعوة بالإمامة هي في ذرية إسماعيل قوله: **وإذ يرفع إبرٰهيم القواعد من البيت**، تقديره: ويقول هو، **وإسمٰعيل**. وهذه العبارة قد فُهم منها أن إسماعيل لم يكن مع أبيه في رفع القواعد لصغر سنه، لهذا لم يقل: وإذ يرفع[6] إبراهيم وإسماعيل. والقعود ما يكون معه لبث، والجلوس لا يُعتبَر فيه ذلك، ولهذا لم يقل الجَوَالِس. وقوله: **من البيت**؛ الفرق بينه وبين قوله لو قال: قواعدَ البيت، وهو أن القواعد كانت في البيت، فإبراهيم رفعها منه. فدل على أن هذا البيت كان ذا قواعدَ قديمةٍ قد طمَرَها الطوفانُ في البيت أو طولَ المدة من قبل إبراهيم، وأن الله تعالى اختار إبراهيم لرفعها وإسماعيلَ معه، واختار هذا البيت من قبل إبراهيم ومِن بعده.

---

[1] ك: على.

[2] ش – أي بصيانته عن الأنجاس والنجاسات، صح هـ.

[3] ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ (سورة إبراهيم، ٣٥/١٤).

[4] ر – إلى هذا البلد بعينه ولو نكره في الموضعين لاحتمل أن تكون الإشارة، صح هـ.

[5] ر + ومن كفر.

[6] ك – وإذ يرفع، صح هـ.

وقوله: ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنًا[1] كقوله: وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ،[2] يريد أن الله تعالى فرض على الناس فيه أمْنَ الخائف. ومحكم هذه الآيات [هو] وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمۡنًا.[3] ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾

ربنا واجعلنا مسلمَيْن لك ومن ذريتنا، ولم يقل:[4] ومن ذرياتنا، لأن الذرية واحدة وهي لإسماعيل. وأما ذرية إسحاق ويعقوب فهم أيضا مسلمون، ولكن في ذلك الزمن لقول النبيين: وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ.[5] ومن خالف نبيه في وقته فقد خرج عن الإسلام. فكون ذرية إسحاق مسلمة هو من طريق وجوب[6] الإسلام ومن كونه هو الدينَ. وأما الدعوة فهي[7] لذرية إسماعيل، لقوله: أمة مسلمة لك. وأرنا [٣٧ظ] مناسكنا، النُّسك / الطهر الباطن، ومنه الناسك. ينضاف[8] إلى الطهر الباطن الطهرُ الظاهر. ومنه المَنسِك، وهو موضع يُفعل فيه فعلٌ يطهّر القلبَ. والمنسك في اللغة المغسل. والعبادة تغسل الذنوب. فأماكن العبادة مناسك لأنها مغاسِل. وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

ربنا وابعث فيهم رسولا منهم، لم يَبعث فيهم رسولا منهم بما وَصف إلا محمدا صلى الله عليه وسلم. وكذلك نطقت التوراة بما هو إلى الآن، وهو قوله: "نبي يقيم لكم الله من بين إخوتكم"، ولم يقل: "منكم". وإسحاق هو أخو إسماعيل. ونسل إسحاق اليهود والنصارى، ونسل إسماعيل العرب. ووعد الله نسلَ إسحاق أن يقيم لهم النبيَّ من إخوتهم،[9] وأن منهم لا يكون ذلك النبي المشار إليه بأن يُقْبَل منه،

[1] ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنًا﴾ (سورة إبراهيم، ٣٥/١٤).

[2] سورة التين، ٣/٩٥.

[3] الآية ١٢٥ من هذه السورة.

[4] ك – يقل، صح هـ.

[5] الآية ١٣٦ من هذه السورة.

[6] ش: من وجوب طريق.

[7] ر ك: فيه.

[8] ر: وينضاف.

[9] ر ك: من إخوتكم.

وأن الله يجعل كلامه في فيه.[1] يتلوا عليهم ءايٰتك ويعلمهم الكتٰب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

قال الله تعالى: ومَن، الذي، يرغب عن ملة إبرٰهيم إلا من سفه نفسه، لأن الراغب عن ملة إبراهيم قد اعتقد أن إبراهيم على غير الحق. فحسُنَ بعد ذلك الإخبارُ عنه أن الله تعالى يمدح إبراهيم فقال: ولقد اصطفينٰه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصٰلحين. ويقال: "سَفُه" بالضم لازم، وسفَّه خصمه مشددا مضاعفا مِن سَفِه يسفَه بفتح الفاء. وإنما قال: سفه بالكسر ولم يقل بالفتح لينسب السفه إلى نفس الذي سَفُه، أي استخفّ. وهي مثل جَهِل في نفسه وجهِل على غيره. ونصب نفسه لفقدان الخافض.

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

ووصىٰ بها، بهذه الوصية، إبرٰهيم بنيه ويعقوب. ووصّى بها أيضا بنيه:[2] يٰبنى إن الله اصطفىٰ لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

أم كنتم شهداء، تقديره على إبراهيم أو يعقوب، إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلٰهك وإلٰه ءابائك إبرٰهيم وإسمٰعيل وإسحٰق. من ههنا تفهم أن أخا الأب أب وأخا الجد جد، ويقال للجميع: آباء. ومتى وُجد الأقرب

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «قال لي الرب: قد أحسنوا في ما تكلموا. أقيمُ لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه» (التثنية ١٨/١٧-١٩).

[2] ر ك: ببنيه.

مُنع الأبعد في الميراث بدليل تعيين النص للأقرب، فافقه ذلك. إلٰها وٰحدا ونحن له مسلمون، وهذا الاحتجاج لليهود.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

ثم قال تعالى مخبرا للمسلمين عن اليهود: تلك أمة قد خلت، أي لا يضرونكم ولا ينفعونكم إذا كنتم على الإسلام دونهم. لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، أي فلا يُسألون عن عملكم، ولا تسئلون عما كانوا يعملون.

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾

ثم أخبر عن قولهم للمسلمين ليعرّفنا أن ما تقدم هو جامع لليهود والنصارى فقال تعالى: وقالوا كونوا هودا أو نصٰرىٰ تهتدوا قل بل ملة، أي كَملة[1] إبرٰهيم حنيفا، مائلا عما أنتم عليه إلى الله تعالى، وما كان من المشركين، أبدا، لأن المائل ربما كان على شرك ثم مال عنه. ولهذا لم يقل: فما [كان].

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

قولوا ءامنا بالله، اعلم أن مجرد القول لا يفيد إذا لم تحصل الطمأنينةُ في القلب، وكذلك في الكفر لا يضر المكرَه. وقوله عليه السلام: «نية المؤمن أبلغ من عمله»،[2] أي إنه يعمل ويرى أنه قصّر، وإنه لو عاش[3] أو تَمكّن لَيفعلَنَّ أبلغَ مما فعل؛ ولأن النية لا يشوبها رياء. وقوله: وما أنزل إلينا، سنبين قوله في مثلها: وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا،[4]

---

[1] جميع النسخ + أو تكون ملة، والمثبت من م.

[2] عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نية المؤمن خير من عمله» (المعجم الكبير للطبراني، ١٨٥/٦-١٨٦؛ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٤٢٨/١٠). وانظر أيضا: مسند الشهاب لمحمد سلامة القضاعي، ١١٩/١.

[3] ر: وإنه إن عاش.

[4] ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ (سورة آل عمران، ٨٤/٣).

وما أنزل إلىٰ إبرٰهيم وإسمٰعيل وإسحٰق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسىٰ وعيسىٰ وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم، في النبوة والإيمان به، ونحن له، لربهم، مسلمون.

﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٣٧﴾

فإن ءامنوا بمثل ما ءامنتم به. قيل: في "به" عدة أقاويل، وليس بنا حاجة إلى نقلها أو نقضها.[١] والمعنى هو كما تقول لصاحبك: إن ضربتَ بمثل ما ضربتُ به فأنت شُجاع. فلفظ "به" واجبة في الكلام؛ فإنه فرقٌ بين قولك: "ضربت بما ضرب به" وبين قولك: "ضربت بما ضرب". فإن الثاني يحتمل أن يُفهم منه أنك ضربت / بالمضروب، كأنك قلت: ضربتُ بما ضربه، أي شيئا آخر. ويجب أن تَفهم أنه لو [٣٨و]
قال ههنا: "فإن آمنوا مثلَ ما آمنتم" لجاز أن يحذف "به"، لكنه لمّا أدخل الباء أولا على "مثل" لزم أن يأتي بها آخرا للمماثلة، فاعرف هذا. وأما ما روي عن ابن عباس -إن صح عنه- أنه قرأ "فإن آمنوا بما آمنتم به"[٢] حذرا أن يكون لله تعالى مثلٌ، فاسمع: اعلم أن لفظة "ما" ههنا معناها الذي، والإشارة بها إلى جميع ما تقدم من قوله: قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ،[٣] وما ثَمّ كرّر وما ثم أشار إلى الجميع الذي آمن به المؤمنون. ولهذا لم يقل: بمثل مَن. واعلم أنه لما بُني الكلام على مستحيل كان ما نُتج عنه مستحيلا، لأنه جعل الشرط موقوفا على أن يكون لِما[٤] آمنتم به مِثْلٌ، ولا مثلَ فلا هدًى حينئذ. وأزيدك بيانا وهو أن المثل لا يريد به ههنا أنّ لِما آمنتم به مثلا، وإن كان اللفظ بمفرده من غير اتباع المعنى المفهوم مِن سياق الكلام قد يدل على ذلك. بل المراد أن لا مثل للذي آمنتم به، وهو كقوله: لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ،[٥] فهذا الكلام يريد به أن لا مثل له حتى يمكن الإتيانُ بالمثل. ولا يدل على أن له مثلا ولكنهم يَعجزون عن الإتيان بذلك المثل. بل المراد أن لا مثل له، وعجزُهم لازمٌ حينئذ، فكذلك[٦] فافهم ههنا. واعلم أنك لو قلت لصاحبك: إن قدرت على مثل هذا السيف فإنك تنجو به من العدو -أعني وأنت تريد المبالغة في وصف السيف-

[١] ش ك: ونقضها.
[٢] جامع البيان للطبري، ٢/٦٠٠.
[٣] من الآية السابقة.
[٤] ش - لما.
[٥] ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٨٨).
[٦] ر: وكذلك.

لكان ذلك الكلام منك يحتمل معنيين. أحدهما أن السيف له مثل ولكن صاحبك لا يقدر عليه، وهذا لا يدل على غاية المدح للسيف، بل يدل على عجز صاحبك عن مثله، وربما قدر عليه غيره. ويحتمل أن يكون مرادك أن لا مثل للسيف. ومتى قصدت بكلامك أن لا مثل لذلك السيف فقد لزم أن لا يقدر صاحبُك ولا غيره على المثل لاستحالة القدرة على الممتنِع وجودُه من المعدومات. وهذه الصورة أبلغ، لأنها جَمعت بين أعظَم وصفٍ للسيف من أنه لا مثل له وبين أبلغ وصف من صفات العجز لصاحبك، إذ يطلب ما لا يوجد. وهذا هو المراد ههنا، يعني أن الذي آمنتم به لا مثل له، وإذا لم يكن له مثل فلا يهتدي[1] مهتدٍ إلا به. فافقه ذلك وافهم ما ذكرته لك أولا من جهة الاحتمال، كما تُعلّق القول لصاحبك بشيء مستحيل تريد الاستهزاء به وإظهارَ عجزه، كقولك: إن كنتَ مثل المَلِك أطعتُك. [فإن ءامنوا بمثل ما ءامنتم به] **فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق**، من المشاقة لله ورسوله. **فسيكفيكهم الله**، مما يؤيدك بنصره وبالمؤمنين. **وهو السميع**، لِما يقولون،[2] **العليم**، بما يفعلون.

﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾

صبغة الله، أصلها من صَبَغ يَصْبُغ صَبْغا وصَباغة، فأشار سبحانه بالصبغة إلى الإيمان. لهذا جاءت بعد قوله: فَإِنۡ ءَامَنُواْ.[3] ونصبها لفقدان الخافض، أي بل كملّة إبراهيم كصبغة الله. ويحتمل بل نتبع ملة إبراهيم ونتبع صبغة الله. وإنما أخّر الآية التي أولها: صبغة الله، لكونها وصفا لله. فحسن بعده في نظم الكلام قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ،[4] أي الذي هذه صبغته؛ لأنه لمَا ذكر ملة إبراهيم أتْبَعَها بصفة الملة وهو الإيمان بسائر الأنبياء والكتب بعد الله تعالى. **ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عٰبدون**.

﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ١٣٩ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠﴾

[1] ش ك: فلا يهتد.
[2] ك: لما يقولونه.
[3] من الآية السابقة.
[4] من الآية التالية.

وأتبع قوله: قل، بقوله: أتحٰجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمٰلنا ولكم أعمٰلكم ونحن له مخلصون. والدليل على صحة ما قلناه من أن العطف على قوله: قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ،[1] قوله[2] ههنا: أم تقولون إن إبرٰهيم وإسمٰعيل وإسحٰق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصٰرىٰ قل ءأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهٰدة عنده من الله، أضاف الشهادة إلى الله، أي إنها من عند الله لا أنه كُتم من الله. والمعنى أن الله شهد عندهم في التوراة فهي شهادة من الله سبحانه. وما الله بغٰفل عما تعملون.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾

وأما تكرار[3] تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون، فإن الأولى[4] خطاب للمؤمنين، والأمة اليهود، يدلك قوله بعد الأولى: وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا / أَوْ نَصَٰرَىٰ،[5] والثانية خطاب للكفار والأُمة المؤمنون. وكلاهما من اليهود ليفصل [٣٨ظ] بين كفارهم ومؤمنيهم. فهي من جملة ما الله أمر به رسولَه أن يخاطب بها كفار اليهود في زمنه وفي المستقبل، لِما قالوا: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا، وقالت النصارى: كانوا نصارى. فلما امتدحوا بآبائهم قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: قل لهم، أنتم أعلم أم الله؟ ومن يكون أظلم ممن كتم شهادة هي عنده من قبل الله. ثم تمم الكلام بما معناه: لا تَمدَّحوا بأولئك الأنبياء لظنكم أنهم كانوا هودا أو نصارى وأنكم أتباع لهم. فليس كذلك بل، تلك أمة قد خلت، يشير إلى الأنبياء وأتباعهم، والخطاب لغير المؤمنين من اليهود والنصارى بل في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وما بعده. فافهم جيدا. وكرر الآيات متأنيا لتحقق ما ذكرته لك من أن الأولى خطاب من الله للمؤمنين والأمة اليهود، والثانيةَ خطاب من النبي صلى الله عليه وسلم بأمر الله لليهود[6] والأمة الأنبياء والأسباط. وأما النصارى فهم طائفة من اليهود في الأصل.

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾

---

[1] الآية ١٣٥ من هذه السورة.
[2] ش - قل بل ملة إبراهيم قوله، صح هـ.
[3] جميع النسخ: تكراره.
[4] الآية ١٣٤ من هذه السورة.
[5] الآية ١٣٥ من هذه السورة.
[6] ر: بأمر اليهود.

سيقول السفهاء من الناس ما ولّٰهم، من التولي، عن قبلتهم. القبلة هي الجهة التي يستقبلها الإنسان، لأنها تقابله ويقابلها، فهي مأخوذة من المقابلة، التى كانوا عليها. اعلم أن قوله: سيقول السفهاء، هو إعلام من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بما سيكون في هذه القضية المخصوصة. فهو إشارة إلى ما لم يقع بل هو أمر في المستقبل لا بد أن يقوله[1] جماعة من الناس، سفهاؤهم[2] أَولى أن يكونوا اليهودَ لِما بيناه في قوله: أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ[3] من أن ذلك أولى باليهود وإن كان القول مطلقا لقوله: من الناس، لأنه يصح على اليهود وغيرهم. فهو يشير إلى كل قائل سَفِهَ نفسه فلم يتبع ملة إبراهيم. وليس المراد أنه لا بد[4] أن يقول هذه المقالةَ كلُّ سفيه في العالَم بل الذي يقول ذلك هو سفيه. والمفهوم من هذا الكلام على ما ظهر إلى الوجود أن المنافقين لمّا حوّلت القبلة انقلبوا على أعقابهم،[5] كما قال تعالى: لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ.[6] ولما كان المنافقون قد يكونون من عدة طوائف وأمَمٍ قال: من الناس، ولزم أن يسميهم سفهاء، لأنهم رغبوا عن ملة إبراهيم وانقلبوا على أعقابهم،[7] ولم يتبعوا الرسولَ في قبلته.

وقوله: ما ولّٰهم، بمعنى أي شيء جعلهم يتولّون.[8] وقوله: عن قبلتهم، دل[9] على التولي عن جهة كانت لهم قبلة، ولم نعلم من ههنا إلى أيِّ جهة كان التولي. وقوله: كانوا عليها، تقديره كانوا مقيمين عليها. وذلك أن المعلوم المشهور أن البيت الحرام كان قبلةً لإبراهيم وإسماعيل، وأن العرب كانت تعظِّمه من قبل أن يُبعث النبيُّ صلى الله عليه وسلم كما شهد النصُّ بقوله: وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ،[10] وتمام الآية. ولا شك أن القبلة التي كانوا مقيمين عليها -أعني النبي صلى الله عليه وسلم ومَن معه قبل أن يتوجه إلى البيت المقدس- هي البيت الحرامُ؛ لأن العرب لم تكن على قبلة غيره بحيث أن العرب قالت لما توجه النبيُّ صلى الله عليه وسلم ومَن معه إلى جهة البيت المقدس مصليا: لو كان محمد صلى الله عليه وسلم اتبع قبلةَ آبائه لاتَّبعْناه. فقد علمتْ أن قبلتهم التي كانوا عليها كانت البيتَ الحرام أولا، ثم توجهوا إلى القدس،

---

[1] ر: أن يقول.
[2] ر ك: سفهاءهم.
[3] الآية ١٣ من هذه السورة.
[4] ك: المراد أن لا بد.
[5] جميع النسخ: على أعقابكم، والمثبت من م.
[6] من الآية السابقة.
[7] جميع النسخ: على أعقابكم، والمثبت من م.
[8] ر ك: يتلون.
[9] ر: دال.
[10] الآية ١٢٥ من هذه السورة.

فهي قبلة صاروا إليها بعد قبلتهم التي كانوا عليها. ثم أنزل الله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾.[١] فلزم أنهم لما تولوا إلى جهة المسجد الحرام أن يقال عن القدس ما قيل عن المسجد بعينه، وصار القدس يومئذ قبلتهم التي كانوا عليها أيضا كما كان المسجد قبلة كذلك. فلزم أن يقول السفهاء من الناس متعجبين في ذلك الزمان[٢] وإن / احتمل في غيره: ما ولّىٰهم عن قبلتهم التى كانوا عليها. ولهذا لم يقل: من أهل [٣٩و] الكتاب أو من الأعراب. لأن ما بيناه مما دلت عليه العبارة دل على قول من السفهاء من الفئتين ومن غيرهم أيضا. وذلك أنه صلى الله عليه وسلم لمّا توجه إلى القدس قالت العرب هذا الكلامَ. ولما توجه إلى البيت الحرام قالت اليهود هذا الكلام. فتبيَّن من اتبع الرسول ولم ينقلب على عقبيه ممن انقلب ولم يتبع بيانا شافيا، كما أراد الله من هؤلاء ومن هؤلاء. وهذا فائدة قوله مطلقا: لنَعْلم من يتّبع. فقد بان من قوله: من الناس، ومن قوله: كانوا عليها، ومما جرى في الوجود صحةُ ما ذكرناه، فالكتاب والوجود والمعقول والمنقول يعضد ذلك ويصححه. ومن يظن أن الكلام عن القدس فقط، فليس كذلك.

فإن قلت: إن المقصود ههنا هو البيت الحرام، غير أنهم تولوا عنه إلى القدس؟ قلنا: اللفظ مطلق، أعني قوله: من الناس. ولو كان كذلك لَمَا قالت اليهودُ مثل هذا القول لاعتقادهم أن المؤمنين إذا توجهوا إلى القدس قد اهتدوا، فلا سؤال؛ ولكان يلزم أن يقول: سيقول السفهاء من الأعراب. فافهم قوله: من الناس، فإنه تعالى أخبر عن قول يَظهر من الناس بعد ما ظهر[٣] من الرسول صلى الله عليه وسلم وأتْباعِه ما يقتضيه. ولما كان الكلام يحتمل أن يراد به جهةُ القبلتين ذَكر بعضُ المفسرين أن المراد به أحدهما،[٤] وذكر بعضهم الأخرى. وكلٌّ صادق فيما أثبته، والنص مساعد له. فلزم ما قلناه من القبلتين. والله أعلم بكلامه وأدرى بأحكامه.

ويجب أن تعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما صلى إلى البيت المقدس اجتهادا مبنيا على قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.[٥] ودليله أنه تعالى لم يأمره أولا بالتوجه كما أمره أخيرا. فلم يأت في كتاب الله ما يَظهر منه أمرٌ بالتوجه إلى القدس

---

[١] الآية ١٤٤ من هذه السورة.
[٢] ش ك – الزمان.
[٣] ر: ما يظهر.
[٤] ر – أحدهما، صح هـ.
[٥] الآية ١١٥ من هذه السورة.

حتى يعتقد معتقد أن الله سبحانه نسخ الأمرَ الأول بالأمر الثاني. فلا شك أنه تعالى لم يأمره إلا بقوله: فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ[1] فقط. ويحتمل أنه صلى الله عليه وسلم صلى إلى البيت المقدس لكونه[2] أُسري به إليه وعُرج به منه إلى السماء[3] فاستعظم ذلك الأمرَ. ثم بقي صلى الله عليه وسلم يتوقع نزولَ الوحي إليه في أمر القبلة، إذ لم يكن نزل إليه وحي بأمر[4] في القبلة، يدلك على ذلك قوله تعالى: قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ.[5] فلو كان قبل ذلك قد أوحى الله إليه أن يصلي إلى جهة القدس لَمَا جاز له أن يرضى قبلةً غير ما رضي الله له وأوحى بها إليه ولا يقلِّبَ وجهه في انتظار وحي حتى ينزل عليه من السماء يأمره بقبلة. ولو جاز له بعد الأمر الأول كما ظن مَن ادعى ذلك لجاز له أن يقلّب وجهه بعد كل أمر لا يرضاه. وليس كذلك.

وقوله: قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلىٰ صرٰط مستقيم، يدلك على أن التحول لم يكن عن الكعبة عند هذا القول لِما ذكره من الهدى والصراط المستقيم الذي لا يجوز أن يغير بعد ذلك. ولا تظنَّ أن ذكر الهدى ههنا يلزم عنه تقدُّمُ ضلالة. فقد بينا ذلك في قوله تعالى: وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ.[6] ولأن الهدى قد يكون للتي هي أقوم، أعني أقوم من مقوَّم وأحسن من حَسَن. وقوله: قل لله المشرق والمغرب،[7] كقوله: فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ.[8] وهذا يدل على[9] أن التوجه إلى القدس لم يكن خطأً وإن لم يكن بوحي.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾

ثم بعد ذكر الهدى والصراط المستقيم[10] عرّفنا سبحانه أنه كذلك هدانا فقال: وكذٰلك جعلنٰكم، وتقديره وكذلك هديناكم؛ إذ، جعلنٰكم أمة وسطا، والأمة اسم الجماعة

[1] الآية ١٤٤ من هذه السورة.
[2] ش: بكونه.
[3] انظر لمعرفة المزيد: صحيح البخاري، الأنبياء ٥؛ وصحيح مسلم، الإيمان ٢٦٣-٢٦٩.
[4] ك: يأمر.
[5] الآية ١٤٤ من هذه السورة.
[6] سورة الضحى، ٧/٩٣.
[7] ش + يهدي من.
[8] الآية ١١٥ من هذه السورة.
[9] ش: يدل إلى.
[10] ك + الذي لا يجوز أن يغير بعد ذلك ولا تظن أن ذكر الهدى ههنا يلزم عنه تقدم.

التي تؤم شيئا واحدا أو جهة واحدة. فقد يكون الواحد أمة بهذه الصورة كإبراهيم عليه السلام.[١] فالجعل هو الهدى ههنا. ومعنى "وسطا" أي وسطا بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين الناس في الشهادة. / فلا أحدٌ من الناس أعلى منكم إلا الرسول صلى الله [٣٩ظ] عليه وسلم، فهو أعلى منكم، وأنتم أعلى من الناس. لهذا أتبعه بقوله: **لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا.** فأما شهادتنا على الناس، أي بالهدى الذي هدى الله به المؤمنين والناسَ أجمعين فلم يهتد منهم من لم يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم. ومنهم من انقلب بعد اتباعه على عقبَيْه عند تحول القبلتين أولا وثانيا. فهذه الأمة شاهدة على سائر الناس: إن الله تعالى هداهم برسول وكتاب فأبوا. إذ ليس لأحد أن يَجحد[٢] وجود أمة وخصوصا مثل هذه الأمة، لأن رسول هذه الأمة صلى الله عليه وسلم جاء إلى سائر الناس. فمن ضل بعد ذلك فإنما يضل على نفسه،[٣] إذ ليس له أن يقول: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا، فقد أرسل رسولا إلى كل أحد وآمن به أمة عظيمة. فهذا الجمع دال على أمر وقع في الوجود، فهو شاهد[٤] لا يجحده ذو عقل في بقية الأزمان، فتقع الحجة حينئذ عليه بشهادة أمة. وأما شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم علينا أي بما جاء من الهدى فليس لأحد من المؤمنين أن يقول ما يقوله الناس من غيرهم، إذ الحجة عليهم أبلغ.

وقوله: **وما جعلنا القبلة التى كنت عليها**، تقديره وما جعلنا القبلة التي كنت عليها أولا قبلةً لك الآن، **إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب علىٰ عقبيه.** وسيَنْبَنِي ههنا على قوله: **يتبع الرسول**، ولم يقل النبي ما ينحلّ به إشكالٌ كما ستسمعه في موضعه. وقوله: **لنعلم**، أي ليظهر ما نَعلمه إلى الوجود فيَعلمه مَن نعاقبه على خلقنا لتكون الحجة عليه لنا. فكأنه قال: لنعلم علما نجزي عليه عاملَه، إذ الجزاء لا يكون على ما عُلم من العبد بل على ما عَمل العبدُ. ومن عادة الحكيم إذا أفاد غيرَه علما أن يقول له: "حتى نعلم كذا". وإنما يريد إعلامَ المخاطب، وإنما يُحِلّ نفسه محل المشارك المتعلِّم على سبيل التلطف. والمراد أن الله تعالى خاطب الناس بحسب ما يعرفونه.

---

[١] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة النحل، ١٦/١٢٠).

[٢] ر ك: أن يجحدوا.

[٣] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ (سورة يونس، ١٠/١٠٨).

[٤] ر – شاهد، صح، هـ.

فهذا معنى هذه الكلمة. وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله، كقوله تعالى: وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ.[1] والإشارة بقوله: كانت، هي إلى القبلة التي هي المسجد الحرام. وما كان الله ليضيع إيمٰنكم، بَيْنَ إيمان المنافقين فلا يُعرف المؤمنون من المنافقين. وهذا كقوله: لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ.[2] واللام في "ليضيع" لام الجحود. إن الله بالناس، كلهم، لرءوف رحيم، فكيف بالمؤمنين منهم فلا يُضيع إيمانهم حينئذ.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٤٤﴾

قد نرىٰ، بيَّنَّا في موضع آخر، تقلب وجهك فى السماء، أي في جهات السماء منتظرا ما يرد من الوحي في أمر القبلة. فلنولينك قبلة ترضٰها، أي تكون راضيا بها. فلا تَقلِب وجهك بعدُ كما كنت تقلبه قبل. وهذا يدل على أنه لم يكن راضيا بالقدس قبلةً، وما ذلك إلا لكونه لم يتبع ذلك عن وحي، ولو اتَّبعها عن وحي لكان راضيا بها بغير شك. ثم قال: فول وجهك شطر المسجد الحرام. انظر كيف لم يكن بين الوعد والإنجاز كلام. وشطر الشيء نصفه، والمراد أيَّ شطر كان. ثم أمر المؤمنين فقال: وحيث ما كنتم، أي من الأرض، فولُّوا وجوهكم شطره. وإن الذين أوتوا الكتٰب، التوراة، ويريد ههنا العلماءَ الذين أوتوا فهْمَ التوراة. لهذا قال: ليعلمون أنه الحق من ربهم، تقديره الحقَّ الذي جاءهم من ربهم. والهاء التي في "أنه" للتفخيم، أي أن[3] الحق جاءهم من ربهم. وهذه الصورة من العبارة يستعملها الفصحاء، كأنه قال: لَيعلموا أن الحق هو الذي جاءهم من ربهم في أمر هذه القبلة. ولهذا سيأتي بعده: ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ، أي يعرفون الحق، وفي آخر الآية: وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ،[4] فحذفه أولا لما بيّنه أخيرا. ثم أوضحه بقوله بعده: ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ.[5] وبيان ذلك أن التوراة تُلزمهم باتباع القرآن فيَلزمهم منه اتِّباعُ قبلة محمد صلى الله عليه وسلم. / فهم يعلمون ويعملون بضد ما علموا. وما الله بغٰفل عما يعملون، أي لو عملوا بما علموا[6] لاتَّبعوا قبلتك. [٤٠و]

[1] الآية ٤٥ من هذه السورة.

[2] ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ (سورة الأنفال، ٨/٣٧).

[3] ر – أن.

[4] الآية ١٤٦ من هذه السورة.

[5] الآية ١٤٧ من هذه السورة.

[6] ش ك – بما علموا.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

ولهذا بعده: ولئن أتيت الذين أوتوا الكتٰب بكل ءاية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم، بعد اليوم. وما بعضهم بتابع قبلة بعض، أبدا، لأن منهم من يصلي إلى نَابُلُس[١] وهم السَّمَرَة،[٢] ومنهم النصارى يصلون إلى المشرق. ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم، يريد بالعلم ما أعلمه الله به ههنا من اتخاذ[٣] القبلة وإن كان مطلقا أيضا. وأما زيادة "من" فإن هذه ههنا لابتداء الغاية. وبإسقاط "مِن" أي في أيّ وقت كان فيتم المعنى إذا تأملته بالصورتين. إنك إذًا لمن الظّٰلمين، أي إنْ فعلت. والغرض النهي والتحذير ليتأكد في[٤] العقل قبح ذلك فَعَله مَن فعله. وإذا كان الخطاب له صلى الله عليه وسلم بمثل هذه الألفاظ فهو من أبلغ التأديب لأمته.

واعلم[٥] أن الجواز له اعتباران: جواز عقلي اقتضته القسمة اللفظية، ثم يستحيل في العقل وقوعُه لمانع آخر، كما يستحيل وقوع اتباعِ الكَفَرَة من الرسول صلى الله عليه وسلم، وجوازٌ مثلَ ذلك ولا يستحيل وقوعه. ومثلُ الأول قولُه: وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ.[٦] فالرد واجب في القسمة اللفظية، وجائز عقلا ومستحيل من وجه آخر.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾

ولما ذكر الظالمين قال: الذين ءاتينٰهم الكتٰب يعرفونه، أي يعرفون الحق، كما يعرفون أبناءهم. ولهذا بعده: وإن فريقا منهم ليكتمون الحق، فأغناه ذكرُ الحق أخيرا

---

[١] نابلس: مدينة في فلسطين المحتلة. تعتبر كبرى مدن الضفة الغربية من الأردن. تقع على مبعدة ثلاثين ميلا (حوالي ٤٨ كيلومترا) إلى الشمال من القدس. يرقى تاريخها إلى عهد الكنعانيين (المورد لمنير البعلبكي، «نابلس»).

[٢] السَّمَرَةُ: هم قبيلة من قبائل بني إسرائيل إليهم نُسِب السّامِرِيُّ، قال الزجاج: وهم إلى هذه الغاية في الشام يُعْرَفُون بالسامرين، وهم في زماننا يسمُّون السَّمَرَة بوزن الشَّجَرة، وهم طائفة من اليهود متشدِّدون في دينهم، وهم مقيمون بقصبةِ نَابُلُس، لهم دورٌ وأملاك. وهذه الطائفة خالفتْ جميع المِلل فزعمتْ أن نَابُلُسَ هي القدس، وهم يصلون إلى الجبل الذي قِبْلِيّ نَابُلُس، ويزعمون أن الصخيرات لها فضل عظيم ويزخرفون من عقولهم السخيفة وضلالاتهم الباطلة أشياء يروّجونها على جُهّالهم. انظر: غِذاء الألباب لمحمد بن أحمد السفاريني، ١١/٢-١٢؛ وتاج العروس للزبيدي، «سمر».

[٣] ر: من اتحاد.

[٤] ش + في.

[٥] ش: اعلم.

[٦] سورة الأنعام، ٢٨/٦.

عن ذكره أولا، ولو ذكره أولا لَرجع الكتمان على الكتاب. والمراد الحق المعروف من الكتاب الذي هو التوراة. ولهذا كرر لفظ "الحق" بعد قوله: **وهم يعلمون**، أي وهم علماء، وغيّر للوِزان.

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾

ثم بيّن ما كتموه بقوله: **الحق من ربك فلا تكوننّ من الممترين**، أي لا تكن من الشاكّين في أنهم يكتمون الحق مع علمهم ومعرفتِهم بالحق؛ لأنه قد تقدم يَعۡرِفُونَهُۥ،[1] فلا فائدة في قوله: **وهم يعلمون**، إلا أن يشير بها إلى أنهم علماء. وقد علمت من هذه الجملة أن جملة الإشارة إنما هي للمسجد الحرام. وذلك من قوله أولا: وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ.[2]

﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨﴾

ثم تلا ذلك بآية بعد آية يشير إليه وإلى ما يتعلق به. ولهذا قال بعد ذلك: **ولكلّ وجهة**، أي ولكل من الناس وجهة يتوجه إليها، **هو موليها**، أي مولي وجهه إليها من تلقاء نفسه. أي إن كل أحد من الناس الذين توجهوا إلى جهة فاتخذوها قبلة لم نأمرهم نحن بالتولي إلى تلك الجهة، بل كل واحد هو مولّي وجهِه إلى وِجْهة إلا أنت وقومك. فافهم هذه جيدا واقرأ الآيات. فهذا يدل على أن اليهود والنصارى هم ولّوا وجوههم إلى وِجْهَتهم، وأن الله تعالى ميّز هذا الرسول صلى الله عليه وسلم وقومَه بأن ولّاهم قبلةً بعد أن كانوا هم[3] قد ولّوا وجوههم من قبلُ إلى البيت المَقْدِس لا عن وحي بل أسوةَ جميعَ الناس، فخصهم[4] على جميع الناس بالوحي بالأمر، بقوله: فَوَلِّ وَجۡهَكَ،[5] الآية. وأما من قال: إن معنى [قوله:] **ولكلّ وجهة هو موليها**، يريد بها ولكل قوم من المسلمين وجهة إلى البيت الحرام، فلا فائدة في تكرير هذا الكلام. وقد تقدم ما فيه كفاية بقوله: وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ.[6] ولقد تأملتُ التوراة والإنجيل باللغة العبرية والسريانية بعد إحكام اللغة وفهمِ الألفاظ على حقائقها،

[1] من الآية السابقة.
[2] الآية ١٤٤ من هذه السورة.
[3] ش – هم.
[4] ر: فخصصهم.
[5] الآية ١٤٤ من هذه السورة.
[6] الآية ١٥٠ من هذه السورة.

فلم أجد فيهما أمرا من الله تعالى بالتوجه إلى القدس ولا إلى المشرق. فهم ولّوا وجوههم، وصدق الله.

ثم أمر المؤمنين بقوله لهم: **فاستبقوا الخيرٰت**، أي إلى كسب الخيرات والإشارة إلى اتباع هذه القبلة المذكورة، وأنه يجب أن يسابَق إليه، لأنه من الخيرات، مع أن القول مطلق عن جميع الخيرات. ولما كان الكلام لسائر الخلق قال بعده: **أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا**، يوم القيامة ليجازيكم بأعمالكم. **إن الله / علىٰ كل شيء** [٤٠ظ] **قدير**، فلا يُعجزه الإتيانُ بهم.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾﴾

ولما تقدم الأمر للرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ، ثم قال للمؤمنين: وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ، أي وفي أيِّ[١] جهة كنتم من سائر الأرض جميعا[٢] فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ، عند الصلاة إلى، شَطْره،[٣] قال[٤] ههنا للرسول صلى الله عليه وسلم أيضا ما قاله للمؤمنين من قبل بلفظة "حيث" التي ذكرها أولا مع ذكر المؤمنين دون الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وذكر ههنا مع ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم[٥] دون المؤمنين فقال عاطفا على قوله: **فولّ وجهك**، أي من الآن. ثم قال له: **ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام**. قال علي كرم الله وجهه: ما بين المشرق والمغرب قبلة،[٦] وهو بيان معنى الشطر. قال عمر رضي الله عنه: إن الأرض إذا قُسمت شطرين وقع المسجد في الشطر الواحد فهو شطره لوقوعه فيه.[٧] وقوله:[٨] **وإنه**، أي ما جاءك من العلم، والمراد الأمر بالتولي، **للحق من ربك وما الله بغفل عما تعملون**، بالتاء،[٩] وهي أولى أن تكون وعدا لِما تقدمه من قوله: فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ.[١٠]

---

[١] ش ك: أي في أي.

[٢] ر: جميعها.

[٣] الآية ١٤٤ من هذه السورة.

[٤] هذا جواب "ولما تقدم".

[٥] ش – وذكر ههنا مع ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم، صح هـ.

[٦] سنن الترمذي، أبواب الصلاة ٢٥٦؛ وأحكام القرآن للجصاص، ١/٧٨.

[٧] لم أعثر على هذا القول فيما بين يدي من المصادر.

[٨] ر – قال علي كرم الله وجهه ما بين المشرق والمغرب قبلة... وقع المسجد في الشطر الواحد فهو شطره لوقوعه فيه وقوله، صح هـ.

[٩] قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وكذا أبو جعفر وروْح بالخطاب، وافقهم الأعمش، والباقون بالغيب (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ١٩٥).

[١٠] من الآية السابقة.

وقوله من قبلُ مثلها بالياء[1] إشارة إلى أهل الكتاب، وهو أولى أن يكون وعيدا. ويحتمل أن تكون الإشارة في الموضعين إلى أهل الكتاب. وإنما ذكر ذلك أخيرا بعد أن ذكره أولا، وكلاهما بالياء ليعرّفنا في الأول أنهم يعلمون الحق الذي أنزل إليهم ويعملون بضد ما علموا، وفي الثاني يعلمون الحق الذي أنزل إليك من ربك ويعملون بضد ما علموا. وفي الموضعين: **وما الله بغْفل عما تعملون**، والإشارة في الجميع إلى القبلة والأمر باتباعها. فافهم ذلك وكرره مرارا إلى أن يتضح.

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

وأما تكرار قوله: **ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره**، فإنه قاله ههنا تعليلا لِما قدمه، كأنه قال: وأما قولنا كيت وكيت فإنما أمرناكم به، **لئلا يكون للناس عليكم حجة**، وإلا فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ.[2] وسيأتيك من مثل ذلك ما سنوضحه في قوله: وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ، ثم أتبعه بقوله: يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ.[3] أي هذا هو سبب أمرنا لكم بذلك. وأما قوله: **ومن حيث خرجت**، ولم يقل: وحيث كنت كما قال للمؤمنين: **وحيث ما كنتم**، فالمراد ومن حيث خرجت من المسجد، لأن المأمور له اعتباران: إما أن يكون في المسجد أو في غيره. فذَكر الخروج في أحد الموضعين ليدل على أن الآخر حكم اعتباري[4] في[5] المسجد، فله فيه أن يصلي إلى جميع الجهات إذا لم يستدبر[6] البيتَ، إذ كل جهة شطره. ثم عليه أن يصلي حيث كان من كل جهة يخرج منه إلى شطره. ولم يعبر عن الأمة بالخروج لاكتفائه بما عبر به عن الرسول صلى الله عليه وسلم كما لم يعبر[7] عنه بقوله: **وحيث ما كنت**، لاكتفائه بالعبارة بذلك عن الأمة. فافهمه وتأمله.

وأما إزالة الحجة في هذه الآية فإن اليهود حجتهم أن قالوا: الدليل على صحة ما نحن عليه اتباعُهم قبلتَنا. وحجة الأعراب أنهم قالوا: لو اتبع محمدٌ قبلةَ آبائه لاتّبعْناه.

[1] الآية ١٤٤ من هذه السورة: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.
[2] الآية ١١٥ من هذه السورة.
[3] الآية ١٨٥ من هذه السورة.
[4] ر ك - اعتباري.
[5] ش - في، صح هـ.
[6] ش ك: لم ير.
[7] ر: والمحاجة به.

فلم يبق حجة للناس، إلا الذين ظلموا منهم، في الجدل لأنهم يقيمون حجتهم بالباطل لا بالحق. فظلموا أنفسهم بميلهم إلى الباطل والمحاججة به لأهل الحق. كأنه قال: لكن الذين ظلموا منهم يُحاجِجون بالباطل. فهذا تخصيص الظلم ههنا وهو مطلق أيضا. فلا تخشوهم واخشوني. وعَطَف على قوله: لئلا يكون للناس عليكم حجة، قولَه: وَلِأُتِمّ نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون، إلى صراط مستقيم.

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾

وقوله: كما أرسلنا فيكم رسولا منكم، أي ولأتم نعمتي عليكم كما بدأتُها بإرسال الرسول صلى الله عليه وسلم. يتلوا عليكم ءايٰتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتٰب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، أي تعلمونه. وحذف الهاء للوِزان.

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾

فاذكرونى، أي بما أنعمت، أذكركم، بالمزيد. ولهذا بعده: واشكروا لى، كقوله: وَاشْكُرُواْ لِلَّهِ،[1] ولم يقل: واشكروا الله، ولا تكفرونِ، إشارة إلى أن ترك الشكر لله كفر به سبحانه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾

يٰأيها الذين / ءامنوا استعينوا بالصبر والصلوٰة إن الله مع الصٰبرين، وكرر الأمر بالصبر [٤١و]
لأنه ذَكره أولا مطلقا وخصصه ههنا بذكر الجهاد لنعلم أن الصبر والصلاة يجب أن نستعين بهما في كل المواطن. لكن في هذا الموضع نحن أحوج إلى ذلك وأشد اضطرارا. فكرر ذلك عند تخصيص هذا الأمر المهم وإن كان العموم تَضمنه أولا.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤﴾

ولأجل ذلك قال بعده: ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموٰت بل أحياء ولٰكن لا تشعرون. إحياءُ الشهداء ليرزقهم قبل القيامة يعطي إحياء كفار ليعذبهم كآل فرعون.[2]

---

[1] الآية ١٧٢ من هذه السورة.

[2] ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٤٥-٤٦).

ولما كان قد تقدم ههنا فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي،[1] ثم أمر بالصبر، ثم ذكر بعده أشد المواطن التي يضطر المؤمن إلى الصبر فيها -أعني القتال- عطف بعده بمثل ذلك وهو الابتلاء إلى قوله: وبشر الصٰبرين.

وأما قوله تعالى عن الشهداء: إنهم أحياء، ليس كما قيل: إنهم أحياء بالذكر ولا إن هذا الوعد هو[2] في المستقبل. وإنما قوله: ولكن لا تشعرون، هو نفي لأدنى ما يكون من العلم وهو الشعور. فليس لنا بعد هذا إلا الإيمانُ بالغيب. ولكنه يجوز أن نقرّب[3] إلى الأذهان بألفاظ وأمثال ما يوقع الطمأنينة، فنقول: قد علمت مما قال الله تعالى أن الحي الكافر قد سماه الله ميتا،[4] وقد[5] علمت من هذه الآية ومثلِها أن المؤمن الميت حي. فالحياة الحقيقية[6] المشار إليها في مثل هذه المواضع ليس المراد بها الحس والحركة الجسميةَ. فكما أن في هذا العالَم قوما أحياءً وقوما أمواتا مع اشتراكهم في الحس والحركة، كذلك في ذلك العالم قومٌ أحياء وقوم أموات قبل القيامة مع اشتراكهم في عدم الحس والحركة الجسمية. فكأنهم أحياء في محلّ أوامرَ[7] مخصوصٍ، [و]غيرُهم ميت في ذلك الأمر. وأنت تعلم أن العلم حياة النفس الناطقة والجهلَ موتُها. فكما أن العالِم حي بعلمه فكذلك الجاهل ميت بجهله؛ إذ ليس له شبيه ولا مثال في وجود العالم إلا كمثال الميت، فهو أحق باسم الميت، لأنه في حالة هي الموت الأكبر الدائم، والعالِم في حالة هي الحياة الباقية السرمدية فهو أحق باسم الحياة. وكما أن الحي يكتسب في حياته ويترقى ويُرزَق والميت لا يكون له شيء من ذلك، فالشهيد عند الله تعالى على حالة تُشبه حالةَ الحي ههنا بل حالة الحي تشبهها. ولٰكن لا تشعرون، ولم يقل: لا تعلمون إشارة إلى أن الأحياء بالأجساد في الدنيا لا يدركون أدنى إدراك من هذا الأمر. فالشهيد حي مرزوق متزيّد من الله تعالى، لأنه أتى بجملة الصبر الذي يتخلل[8] سائر عبادات الحي. فكأنه دائما عمّال لم يمت، إذ زبدة الحياة العمل وزبدة العمل الصبرُ. فافهم، ولا سبيل إلى الفهم إلا بضرب الأمثال مما نعلمه في الحياة الدنيا وإن كان ذلك الأمر في[9] الأخرى، كما قال:

---

١ الآية ١٥٠ من هذه السورة.
٢ ر- هو.
٣ جميع النسخ: أن يقرب، والمثبت من م.
٤ انظرمثلا: سورة فاطر، ١٩/٣٥.
٥ ش ك - قد.
٦ ش: الحقيقة.
٧ ر - محل أوامر، صح هـ.
٨ ش: الذي يخلل.
٩ ر- الأمر في.

عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ.[١] وحقيق بهم ذلك، لأنهم تقدموا فجادوا بأعزّ ما ملكوه. وظهر عنهم بالفعل ما دل على إيمان صحيح بهذا الخالق المُجازي الكريم. فبذلوا أنفسهم للموت، فأعطاهم الحياة، وقطعوا حظها من الرزق الفاني فجعلهم عنده يُرزَقون من الباقي. ولم يحزنوا على ما فاتهم من فضول[٢] دنياهم فخلّدهم فرحين بما آتاهم الله من فضله.[٣] فللّه دَرُّ رِجَالٍ نُبّهُوا على بعض ما أعدّه بارئُهم لأولى الجهاد الأصغر، فتنبهوا بذلك على فضل الجهاد الأكبر. فتدرَّعوا دروعَ الصبر لمقابلة[٤] ذلك الأمر وجاهدوا في الأسرار،[٥] خطرات الأشرار. وفهموا من كلام الجبار وما لزم من قوله تعالى: قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ.[٦] فقتلوا أوثان الهوى بسيوف عزائم الاقتدار، وأشرقت عليهم من أعمالهم لطائفُ الأنوار، ونادى بهم المنادي إلى [ما] عند الله: وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ.[٧]

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

ولما كان الإنسان في جملة حياته دائما في ابتلاء وهو محتاج أبدا إلى الصبر كرره الله تعالى في عدة مواضع، كقوله ههنا: ولنبلونّكم بشىء من الخوف، وهو أشد البلاء، لهذا بدأ به وأشار إلى شيء يسيرٍ من الخوف الذي يخافه العصاةُ والكفار في الآخرة[٨] ليتذكر المؤمن بذلك ويعلمَ / أنه إذا لم يُطِقْ الصبرَ على الشيء اليسير فكيف [٤١ظ] يصبر على الكثير؟ وكذلك قوله: والجوع، ولم يقل: بأشياء لئلا يتوهَّم أنه بأشياء من كل واحد. وتقديم الإعلام بذلك نعمةٌ عظيمة من الله تعالى، إذ ذلك موجب للتثبيت عند وقوعه، وليكون العبد مُثابا على الاعتقاد قبل وقوع[٩] البلاء إيمانا وبعده صبرا. ونَقْصٍ من الأموٰل والأنفس والثمرٰت وبشر الصٰبرين. سئل عليه السلام: أيّ الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثلُ».[١٠] فيبتلى الرجلُ على حسب دينه.

---

١ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٦٩-١٧٠).

٢ ك: من فصول.

٣ تقدم آنفا.

٤ ش ك: لمقاتلة.

٥ رش: في الأشرار.

٦ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ (سورة التوبة، ٩/١٢٣).

٧ سورة آل عمران، ٣/١٩٨.

٨ أي في الآية الآتية برقم ١٦١ وغيرها.

٩ ر - وقوع، صح هـ.

١٠ سنن ابن ماجه، الفتن ٢٣؛ وسنن الترمذي، الزهد ٥٧.

فإن كان صَلْبَ الدين أشتدّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب ذلك. فلا يبرح البلاءُ عليه حتى يَدَعَه يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة. وعن عبد الرحمن بن زيد[1] قال: كان لعيسى عليه السلام وزيرٌ ركب يوما فأخذه السَّبُعُ فأكله، فقال عيسى: يا رب وزيري في دينك وعوني على بني إسرائيل وخليفتي عليهم سلطتَ عليه كلبك فأكله. قال: نعم! كانت له عندي منزلةٌ رفيعة لم أجد عملَه يبلغها فابتليته بذلك ليبلغ تلك المنزلة.[2]

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾

ثم عرّفنا ههنا بعد ذكر الصابرين علامتهم وما لهم عنده من الأجر فقال: الذين إذا أصْبتهم مصيبة، ما يصيب كائنا مّا كان، قالوا إنا لله، أي يحكم فينا بما يريده. وذلك لإيمانهم بقوله تعالى: يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ،[3] ولتحققهم أن ما أصاب المؤمن إما أن يكفِّر الله به عنه سيئة، أو يكتب له به حسنة. فلذلك يجب أن يكون راضيا عن ربه سبحانه، وكيف لا وهو الذي لا يظلم مثقال ذرة.[4] فذلك إشارة إلى الرضا بما يقضيه، فإنه بحق[5] ولمصلحة.[6] فلهذا لا يجوز للمؤمن أن يقول: إنا لله، كما يقوله الجهال بسخط بل برضا. وإنا إليه رٰجعون. الأولى بهذه العبارة من المعنى أن يكون الرجوع ههنا عبارةً عن التوبة بدليلِ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ.[7] وإن كان للكفار فقد جاء مثله للناس، وهو قوله: ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ،[8] أي إلى الله بالتوبة. فيكون قوله ههنا: إنا لله، مقامَ الامتحان للتوفير،[9] وبعده مقامَ الامتحان للتكفير. والرجوع أيضا يعطي الاعترافَ بالبعث، فالمعترف به يتحقق أن الله تعالى

[1] هو عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب العدوي القرشي، وال. كان من أتم الرجال خلقة. روى الحديث عن أبيه وغيره، وروى عنه ابنه عبد الحميد وآخرون. وزوجه عمر بن الخطاب ابنته فاطمة. وولاه يزيد بن معاوية مكة سنة ٦٣ هـ. توفي سنة نحو ٧١هـ/٦٩٠م (الأعلام للزركلي، ٣/٣٠٧).

[2] تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، ٤٧/٤٠٧.

[3] الآية ١٨٥ من هذه السورة.

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ (سورة النساء، ٤/٤٠).

[5] ك: فإنه يحق.

[6] ر ش: لمصلحة.

[7] سورة السجدة، ٣٢/٢١.

[8] سورة الروم، ٣٠/٤١.

[9] ش: للتوقير.

يجزيه على مصيبته سواء كانت بيد الله أو بيد الناس. ولهذا قدمه أولا بقوله: وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ،[١] ومدح أصحابه أخيرا بقوله: **أولٰئك عليهم صلوٰت من ربهم ورحمة وأولٰئك هم المهتدون.**

﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾

إن الصفا، جمع صفاة مثل حصا[٢] وحصاة، **والمروة من شعائر**، مواضع عبادات،[٣] الله. ومنه الشعار في الحرب، وهو العلامة. وهذا في النظم عائد على ذكر القبلة التي هي البيت. **فمن حج البيت**، سلك المَحَجَّةَ وهي الطريق، **أو اعتمر**، العمرة هي الحج الأصغر. والعرب تقول: عمِر يعمَر ذاتيا بكسر ميم الماضي وفتحها في المستقبل، ومتعديه مشددا رباعيا. عمَّر بفتح الميم يُعمِّر بكسرها. وذلك من التعمير الذي أصله من العُمر لا من العِمارة، كما تقول: عمَّرك الله، أي أطال عمرك، وتقول في العِمارة: عَمَر بفتح الميم، إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ.[٤] وتقول: حجب واحتجب وعمَر واعتمر، وحُجْبَة كعُمْرة. والعمرة هي أن يعيد صورة عبوره أولا إلى المسجد الحرام، أعني محرِما. ولهذا قال: وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ، ثم قال: وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِ.[٥] وذلك أن يلتزم لها ما يلتزم للحج من الشروط، ولظهور هذا واستفاضته لم يعين النصُّ جزئياته كما لم يعين عَدَدَ ركعاتِ الصلاة. **فلا جناح**، بضم الجيم مشتق من جَنَح يَجْنَح إلى الشيء إذا مال إليه، فكأن معناه لا ميل إلى إثم، أو عن حق. ولم يقل: فلا إثم يريد أن يعرِّفنا أن الإشارة إلى أدنى ميل. **عليه أن يَطَّوَّف بهما**، والمعنى فلا جناح عليه إذا تطوف بهما كما تطوّف بالبيت. وليس المعنى كما قيل: أن لا يتطوف بهما، فذلك ضد المراد ههنا. والمراد أنه لا يعتقد مَن حج البيت أو اعتمر[٦] أن عليه جُناحا إذا تطوف بغير البيت، فلا جناح عليه إذا أراد أن يتطوف. وفهِّمنا أن شعائر الله جميعها كذلك، مثل التطوف بصخرة البيت المقدس وغيره الذي منعه بعض / الناس، وتمام الآية يدلك على ذلك. [٤٢و]

---

١ الآية ٤٥ من هذه السورة. وانظر أيضا: الآية ١٥٣ من هذه السورة.

٢ ك: صفاة كحصا.

٣ ش: عبادة.

٤ ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ (سورة التوبة، ١٨/٩).

٥ الآية ١٩٦ من هذه السورة.

٦ ش ك: واعتمر.

فإن قال قائل: لا يجوز التطوف إلا بالبيت أو بالصفاء والمروة، لأن الله تعالى خصص ذلك. فالجواب أن تخصيص الشيء بالذكر لا يوجب منْعَ ذلك الحكم عن غيره. ولهذا قال بعده: **ومن تطوع خيرا**، أي بخير. والتطوع من الطاعة، أي في كل مكان. فعرّفنا هذه المواضع وأمثالَها وأنها من شعائر الله ولا ميل إلى إثم إذا تطوف الزائرُ بهما. ولو ترك التطوف لم يكن عليه جُناح. فجعل التطوف ههنا إليه وعرّفنا أنه زيادة في الخير والطاعة. فمن زاد من ضروب الطاعة، **فإن الله شكر**، لسعيه وتطوفِه، **عليم**، بما أضمره. ووصْف الباريْ تعالى بالشكر هو إشارة إلى الجزاء على الشيء بمثله بطريق التشبيه. وقال عليه السلام: «إن لكم في كل جمعةٍ حَجةً وعمرة مبرورة».[1] فالحجة التهجير إلى الجمعة، والعمرة انتظار العصر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾

إن الذين يكتمون ما أنزلنا، يشير إلى أهل الكتاب خاصا،[2] وإلى كل كتاب عاما. وهذا الغرض في العامّ مشروط بالسلامة،[3] ووجوبه على العالِم لمن له نظر. ولهذا إذا قاله للبعض سقط عنه أن يقوله للكل. وقوله: **من البينٰت والهدىٰ**، أي في التوراة، **من بعد ما بينّٰه للناس فى الكتٰب**، القرآن. **أولٰئك يلعنهم الله ويلعنهم اللٰعنون**، كل لاعن من المؤمنين، لأن غيرهم ملعون، وهم اللاعنون له. **إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا**، ما كتموا من التوراة، وهذا مطلق، ومنه وجب إظهار العلم. **فأولٰئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم**.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

ثم عرّفنا حالَ من لم يتب إلى أن مات على كفره فقال: **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولٰئك عليهم لعنة الله والملٰئكة والناس أجمعين**، فالأُولى قبل الموت، وهذه أخبر فيها بما لهم بعد الموت. ويدلك الاستثناء في الآية الأولى.[4] وقد علمت

---

[1] الدر المنثور للسيوطي، ٢/٣٣٧.

[2] ش ك: خاصة.

[3] أي سلامة المنزل من التحريف والتبديل.

[4] أي في الآية السابقة: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ...﴾

قوله تعالى عن أهل النار: كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا.[١] فبعضهم يلعن بعضا وغيرهم يلعنهم.[٢] فلزم قوله: والناس أجمعين خٰلدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون، إلى أجل فهم يخرجون بعد انقضائه،[٣] وخلودهم في اللعنة لا يكون[٤] ذلك إلا في جهنم وإن لم يتقدم ذكرُها.

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

وإلٰهكم إلٰه وٰحد، دليل الاتحاد في الذات والصفات، لأنه الواحد من كل وجه. ويلزم الحدث ونفى القدم للعالم، لأن المعية تنافي الوحدة. ومتى انتفت المعية لزمت التبعية، وهي الإحداث. فافهمه جيدا. لا إلٰه إلا هو الرحمن الرحيم.

ارتباط هذه الآية بما قبلها أنه عرّفنا أن الناس ينقسمون إلى قسمين: قوم آمنوا وقوم كفروا؛ وأن الإلٰه سبحانه واحد رحمن رحيم بالكل، غير أن كل[٥] قوم يلقون عملهم بأنفسهم لا عمل الله بهم، فهو كقوله: وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ.[٦] وأما ارتباط هذه الآية بما بعدها فهو مبيَّن في آخر ما بعدها، وهو قوله: لآيٰت لقوم يعقلون، أي علامات تدل من يعقل أن إلٰهكم واحد. ولهذا أعقبه بقوله مستعظما:[٧] إن فى خلق السمٰوٰت والأرض، بدأ بذكرهما لأن العقول تضطر إلى الاعتراف بأن الجسم المحمول في "لا جسم" لا يكون إلا بقدرة قادر. فإن قيل: بل السماوات في جسم أكبر لزم التسلسل وهو محال، وبلزوم ذلك يلزم الحدث. ولهذا ذكر بعد ذلك ما يدل على فاعل مختار يزيد وينقص في الليل والنهار فقال: واختلٰف اليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء، وهي سماء الغيث، من ماء فأحيا به الأرض

---

[١] سورة الأعراف، ٣٨/٧.

[٢] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ (سورة العنكبوت، ٢٥/٢٩).

[٣] أي لا يخفف عنهم العذاب ولا يؤخرون إلى إجل معين فيخرجون بعد انقضائه.

[٤] جميع النسخ: ولا يكون.

[٥] ر ك – كل.

[٦] سورة العنكبوت، ٤٦/٢٩.

[٧] ش ك – مستعظما.

بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الريٰح والسحاب المسخر بين السماء، التي هي السقف المحفوظ، والأرض لآيٰت لقوم يعقلون.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾

ثم أشار إلى من لم يعقل هذه الآيات الدالة على التوحيد فقال: **ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله**، أي كما كان يجب أن يكون الله عندهم محبوبا، فافهمه.[1] ولهذا قدم قوله: **من دون الله**، ولم يقل: مع الله. ثم عرّفنا حبَّ المؤمنين فقال: **والذين ءامنوا أشد حبا لله**، من حب أولئك لأندادهم. **ولو يرى الذين**
[٤٢ظ] **ظلموا إذ يرون العذاب أن / القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب**، أي حين يرون العذاب يرون[2] أن القوة لله في الدنيا والآخرة جميعا وأنه شديد التعذيب. فلو أنهم يرون اليوم في الدنيا ما يرونه حين يرون العذاب غدا في الآخرة لَما ظلموا أنفسهم باتخاذ الأنداد. تقديره ولو يرى الذين ظلموا اليوم ما يرونه حين يرون العذاب[3] يوم القيامة، وهو: أن القوة لله جميعا، لا للأنداد، وأن الله شديد العذاب، وحذف ما معناه: لِما ظلموا أنفسهم، للزومه ولِما جرى به الخطاب في عادة العرب إذا أراد أحدُكم تعظيمَ الأمر كما تقول: لو قلتُ كل ما أعلمه، ثم تحذف ما معناه: لكان عظيما عجيبا.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾

ومثل ذلك قوله:[4] **إذ تبرأ الذين اتبعوا**، أي الأنداد، **من الذين اتبعوا**، أي الظالمين، **ورأوا**، كلهم،[5] **العذاب وتقطعت بهم الأسباب**، كلُّ شيء جعلوه سببا لهم يوصلهم إلى مقصود لهم انقطع، وهو من باب وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ،[6] وفي قُبالته: ولهم فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسهُم.[7]

[1] ش – فافهمه، صح هـ.
[2] ر – يرون.
[3] ر – غدا في الآخرة لما ظلموا أنفسهم باتخاذ الأنداد... ما يرونه حين يرون العذاب، صح هـ.
[4] ر: وقوله.
[5] ش – كلهم، صح هـ.
[6] ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ (سورة سبأ، ٥٤/٣٤).
[7] ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ (سورة فصلت، ٣١/٤١).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾

وقال، الظالمون، الذين اتبعوا، الأنداد: لو أن لنا كرة، عَوْدة إلى ديار الدنيا، فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا، اليوم في جهنم. ثم أخبر سبحانه عنهم بقوله: كذٰلك، أي دائما، يريهم الله أعمٰلهم، التي عملوها في الدنيا، حسرٰتٍ عليهم، في ذلك اليوم. والمعنى يريهم الله أعمالهم بريئة منهم كما تبرأ منهم الأندادُ المتَّبعون. ولهذا بعده: وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ،[1] في تحريم ما أحله الله،[2] وفي هذه الآية ما يُفهم منه ولا تتبعوا خطوات الشيطان، في تحليل ما حرمه الله. ولهذا جاء لفظ الاتباع مطلقا. والأنداد ههنا هم في الحقيقة الشياطينُ وهم القرناء في الظاهر والباطن، قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ.[3] فافهم ذلك. وما هم بخٰرجين من النار، أي بعد ذلك الحال أبدا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ١٦٨﴾

يٰأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلٰلا، هو الذي انحلّت عقدةُ التحظير عنه شرعا. وقوله: طيبا، معناه ههنا أنه لمّا حرمتِ العربُ ما حرّمته افتراءً على الله، واليهود حرموا ما حرموه من الطيبات جاء هذا الأمرُ بهذه الصورة. ولهذا قال: يٰأيها الناس. وقوله: مما فى الأرض، إشارة إلى أنه في سائر الأرض هذا الذي حرمتموه هو حلال طيب. وبيّن هذه الآيةَ بقوله فيما سيأتي خاصا: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ.[4] فقوله ههنا: يٰأيها الناس، عام. ولهذا أتبعه بقوله: ولا تتبعوا خطوٰت الشيطٰن، أي في تحريم الحلال وإن كان النهي مطلقا. ولهذا عرّفَنا صفاتِ الشيطان لنعرِفه ونتقيَه، فقال: إنه لكم عدو مبين.

﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ١٦٩﴾

بيانه وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ.[5] وأما الشيطان فكل مَا يأمرنا من أنفسنا أو من خارج بهذه الأوامر فهو شيطان، فاعرفه واحذره بعزم من غير تراخٍ أو تأنٍّ أو فتوى.

---

[1] من الآية التالية.

[2] ش - ما أحله، صح هـ.

[3] ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ (سورة ق، ٢٧/٥٠).

[4] الآية ١٧٢ من هذه السورة.

[5] ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (سورة النحل، ١١٦/١٦).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

وإذا قيل لهم، أي الذين يقولون على الله ما لا يعلمون: اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه ءاباءنا. وفي سورة لقمان مَا وَجَدْنَا.[1] وذلك أن "وجدتُ" أعم من "ألفيت"، تقول: وجدت الضالةَ، وتقول: ألفيت زيدا عاقلا، فتحتاج إلى مفعولٍ ثان. وكل شيء يسيرٍ حقير فهو لَفاء، يقال: رضي فلان من الوفاء باللَّفاء، أي مِن حقه الوافي بالقليل. فلما كان الذي وجدوا عليه الآباءَ حقيرا يسيرا عَبّر عنه باللفاء ههنا وبيّنه في لقمان. وأما قوله ههنا: يعقلون، وفي المائدة يَعْلَمُونَ،[2] فالعلم إدراك الشيء على ما هو عليه مع قدرة. ومعنى يعقله، أي يَحصُره بإدراك عما لا يدركه. وقوله: عليه ءاباءنا، ذم للتقليد ولو لِأَقْرَبَ الموجودات خلقا وأوجبهم حقا. ثم عرّفنا سبحانه صورة الحِجاج لهم بقوله: أولو كان ءاباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون، إلى أنهم لا يعقلون، وهو مطلق أيضا. والمعنى لا يعقلون ما أُنزل عليهم. وهذا غير قوله: نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا،[3] لأن الخطاب ههنا عن العرب ويتناول اليهود وكلَّ مقلِّد لعمومه، وهناك خاص بأهل الكتاب.

[٤٣و] وهذه / الآية دالة على فساد التقليد، تدلهم[4] على أن يبحثوا بعقولهم عن هدى الآباء وعن عقولهم[5] ليعلموا هل يجب اتباعُهم أم لا. والتقليد مشتق من القِلادة، كأنك سلّمت قلادة في عنقك إلى من يقودك بها حيث يشاء، كأنك في عديدِ ما لا يعقل من الحيوان. واعلم أن كثيرا من تفسير الكتاب ومن الأحكام الفقهية حُكِم فيها[6] بغالب الظن والقياس، ولهذا وقع الاختلاف. فقد وجب أن تطلب[7] العلم بالدليل لا بالتقليد. لأنك لو طلبته بالتقليد لا بالدليل، مع أن ذلك المتقدِّم الذي تريد تقليده طَلَبه بالدليل لا بالتقليد، كنت مخالفا له. فثبت أن القول بالتقليد يفضي ثبوتُه إلى نفيه فيكون باطلا.

---

[1] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (سورة لقمان، ٢١/٣١).

[2] ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (سورة المائدة، ١٠٤/٥).

[3] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الآية ٩١ من هذه السورة.

[4] ر ك: فدلهم.

[5] جميع النسخ: عن عقولهم، والمثبت من م.

[6] ش - فيها، صح هـ.

[7] ش ك: أن يطلب.

وجاء هذا المعنى مع ذكر الشيطان[1] ليدل على أنه لا فرق بين متابعة التقليد ومتابعة الشيطان، إذ الكل تقليد واتباعٌ بغير دليل، وهو مُفضٍ إلى الكفر.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾

لهذا وصف بعده الكفار بقوله: **ومثل الذين كفروا**، يشير إلى الآباء وهو عام، **كمثل الذى ينعق**، والمثل ههنا يريد به الصفة، أي كصفة الطير الذي ينعق بما لا يسمع، أي لا يفهم، إلا، لكن،[2] **دعاء ونداء**. والنعيق للغراب. وهذه صفة اليهود، فإنهم يقرءون التوراة بألحان وأصوات مختلفة ولا يعلمون ما يقولون،[3] ويدّعون أن المقصود هو تلاوتها فقط، وكأن مفهوم اللفظ عندهم زيادة على الغرض. فتجد جُلّ القوم لا يعرفون أن يتكلموا باللغة العبرانية بل بالعربي. فهم في تلاوة التوراة كالذي ينعق بما لا يسمع، أي ما لا يفهمه هو، إذ السامع هو وغيره، فلا يفهم من نعيقه إلا كما يفهم من نعيق الغراب الذي كأنه يدعو بشيء يأكله أو يشربه أو ينادي بقَرِينٍ. ولهذا وصفهم بقوله: **صم بكم عمى فهم لا يعقلون**، ما يتلونه. وقوله تعالى: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ،[4] يفهم منه مثل ذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾

يٰأيها الذين ءامنوا كلوا من طيبٰت ما رزقنٰكم، المراد لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ.[5] وفيه إشارة إلى الطيبات التي حرمها علىٰ بني إسرائيل بظلمهم.[6] لأنها من جملة ما رزقه وأحله للمؤمنين. ولهذا بعده: **واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون**.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

---

[1] يشير المؤلف رحمه الله إلى الآية ١٦٨ من هذه السورة.

[2] ش - لكن، صح هـ.

[3] ش: ما يقولونه.

[4] سورة النساء، ٨٢/٤؛ وسورة محمد، ٢٤/٤٧.

[5] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۞ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ (سورة المائدة، ٨٧/٥-٨٨).

[6] يشير المؤلف رحمه إلى هذه الآية: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (سورة النساء، ١٦٠/٤).

ثم عرّفنا ما حرمه علينا ليكون قد أحل لنا ما سوى ذلك فلا نحرمه كما حرمه الجاهلية واليهود، فقال:[1] **إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِل به لغير الله**، وأخر "به" في المائدة[2] والأنعام[3] والنحل.[4] والمعنى أن العرب تُقدّم ذكْرَ المفعول إذا كانوا ببيانه،[5] أعني فيقولون: ضرب زيداً عمرو، وإذا كان قصدُهم الإعلامَ بما جرى على زيد، لا[6] بما جرى من عمرو. فإن قصدوا بيانَ ما جرى من عمرو دون ما جرى منه على زيد قدّموا الفاعل فقالوا: ضرب عمرو زيداً. فتذهَّنْ هذا جيدا. فإذا عرفته فاعلم أن المذبوح له اعتباران: إما أن يُذبَح ليؤكل لكن يسمّى عليه اسم غير الله، وإما أن يذبح قربانا لغير الله. ففي تقديم به كان المقصودُ هو الذبيحَ، وفي تأخيرها كان المقصودُ غيرَ الله، أعني بالعبادة، وبين أنها بالذبيح. فذكر الله القسمين فافهمها جيدا. واعلم أن هِلالا[7] وهُلُلا لعِقال وعُقُل، ولولا أن جمْعَ سبيل سُبُل لكان جمع سِبال كإهاب وأُهُب. وتقول: هلّ الهِلالُ يَهُلّ. وأما أَهِلّة فهي جمع هَلِيل مثل أَعِزّة وعزيز، وأَذِلّة وذليل. **وما أُهلّ به لغير الله**، كما تقول: أُعِز وأذل. وأصله من الهَلّ كما أصل ذلك من العِزّ والأعزّ[8] من الذُّلّ. وأصل الأصل الهَلل والعَزز والذَّلَل، لأنها من ذوات المثلين، أعني ما عَين فِعْلِه ولام فِعْلِه متماثلان. فحذف أحد المثلين استخفافا وعُوّض عنه بالشدّة. وقد بيّنا تمامَ هذا الكلام عند قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾.[9] وقوله تعالى: **فمن اضْطُرّ**، أي لحقته ضرورة فأكل، **غيرَ باغٍ**، من البغي، **ولا عادٍ**، من العدوان، **فلا إثم عليه. إن الله غفور رحيم**.

والفرق بين الإلجاء[10] والاضطرار أن الإلجاء[11] ما يُلجئك إلى فعلِ شيء إما لنفع أو لضرّ، والاضطرارَ ما يلحق عنه ضرر. وقيل: الفرق بين[12] البغي والعدوان أن الباغي طَلَب الحرام مع الحلال فجمع بينهما؛ والعادي هو الذي ترك الحلال واستعمل الحرام

---

[1] ش ك: قال.

[2] ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ (سورة المائدة، ٣/٥).

[3] ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة الأنعام، ١٤٥/٦).

[4] ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة النحل، ١١٥/١٦).

[5] ش: بيانه.

[6] ش ك – بما جرى على زيد لا.

[7] جميع النسخ: أن هلال.

[8] ش: والآخر.

[9] الآية ١٨٩ من هذه السورة.

[10] ر: بين الالتجاء.

[11] ر: أن الالتجاء.

[12] ر – الفرق بين، صح هـ.

كأنه تعدى من هذا إلى هذا. والقسمة تقتضي ثلاث صور: إما حلال، / وإما حرام، [٤٣ظ]
وإما الجمع بينهما. ويحتمل أن يكون الباغي هو من يستعمل الحرام من غير حاجة مع اعتقاده تحريمَه، والعادي يستعمله كذلك ويعتقد تحليله. وقيل: البغي فيما نهى الله [عنه] والعدوان فيما أمر [به]. والمعنى[١] فمن اضطُرَّ فلا إثم عليه من كونه استعمل ذلك من جهة كونه مضطَرًا وإن احتمل أن يكون عليه إثمٌ من وجه آخر. فافهم.

وقوله: غير باغ، أي لا يجوز له أن يَستعمل المحرَّمَ غير مضطر إليه كالباغي، وهو فاعلُ ما نُهي عنه،[٢] أو المعتدي وهو تارك ما أُمر به. وإذا عُدْنا بلفظ البغي والعدوان إلى ما تقتضيه صيغة اللفظ من جهة اللغة فإن الباغي هو الطالب كأن هذا طلب الحرامَ المنهيَّ عنه، ولا يلزم أن يكون قد ترك المأمورَ به بل كالفئة الباغية طلبت فعلا نهاها الله عنه مع كونها على الإسلام. وأما العادي فهو الذي تعدَّى فخالف الأمر وخالف النهي كالكافر. لأنه لا فرق بين قولك عمن قطع نهرا: تعدى من هذا الجانب إلى ذلك الجانب، أو من ذلك إلى هذا. فكأنه تعالى يقول: فمن اضطُرّ فأكل فلا إثم عليه، لا أنه يأكل باغيا كالمسلم الفاسق ولا عاديا كالكافر. والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾

إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتب، أتبع هذه الآية لما تقدم لكونه ذَكَر ما أحله للمسلين من طيباتٍ أحلَّها لأهل الكتاب فحرموها على أنفسهم فحرمها عليهم بظلمهم. وكرر هذا المعنى، لأن الأُوَلَ كتموا وإن لم يشتروا، وهؤلاء كتموا، **ويشترون به ثمنا قليلا**، معلوم من قوله: فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ.[٣] وإذا كان جملة الحياة الدنيا قليلا فكيف بالجزء اليسير منها مثل مال أو جاه أو شهوة[٤] أو رياء.[٥] **أولئك ما يأكلون فى بطونهم**، أي مِلْءَ بطونهم، كأنه قال: في جملة بطونهم، كما بيناه في النساء،[٦] **إلا النار**.

---

[١] ش ك - والمعنى.

[٢] ر - عنه.

[٣] سورة التوبة، ٣٨/٩.

[٤] ك - أو شهوة.

[٥] ر - معلوم من قوله... فكيف بالجزء اليسير منها مثل مال أو جاه أو أو شهوة أو رياء، صح هـ.

[٦] يشير المؤلف إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ (سورة النساء، ١٠/٤).

ولا يكلمهم الله يوم القيٰمة ولا يزكيهم، أي لا يجعلهم أزكياء بعد ذلك أبدا، ثم بعد هذا: ولهم عذاب أليم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾

تَعَجُّبٌ من حالة تُشبه حالةَ الصابر. والمعنى أنهم في الدنيا ما أجراهم[1] وكيف يُقْدمون على ذلك إقدامَ الصابر!

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾

ذٰلك، جزاؤهم، بأن، بسبب أن، الله نزل الكتٰب بالحق، وهو التوراة، تقديره: فاختلفوا فيه. وإن الذين اختلفوا، ولم يكرر فيه بل قال: فى الكتٰب، يريد بذلك اسمَ الجنس ليكون الكلام عاما يدخل فيه الخاص، لفى شقاق بعيد، عن الحق.

﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾

ولمّا تقدم قوله: وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ، وعلِمنا من قوله: هُوَ مُوَلِّيهَا[2] أنهم هم ولوا وجوههم قِبَلَ المشرق وغيره قال ههنا: ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ذكر الشيء وضده، لأن الجميع يرجع إلى هذا أو هذا، وقيل: أراد به إخراجَ أهل القبلة. ولٰكن البر،[3] وهو خلاف العقوق فهو الطاعة، من ءامن بالله واليوم الآخر والملٰئكة والكتٰب، اسم الجنس دليله قوله بعده: والنبيين وءاتى المال، سمي بذلك، لأنه يميل عن قوم إلى آخرين دائما، علىٰ حبه، أي على محبته له. فهو كما قال عليه السلام: «هلا تَصدَّق به وهو صحيح شحيح».[4]

---

[1] ش ن ك: لما جازاهم، ر: لما أجراهم، والمثبت من م.

[2] الآية ١٤٨ من هذه السورة.

[3] ش ك + دليله قوله بعده.

[4] لم أعثر عليه بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر. فنحوه: عن أبي هريرة قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فقال: يا رسول الله أيّ الصدقة أفضل؟ قال: «أنْ تَصدَّق وأنت صحيح شحيح تأْمُلُ العيش وتخشى الفقر» (سنن النسائي، الزكاة ٦٠). وانظر أيضا: صحيح مسلم، الزكاة ٩٣.

وهو كقوله تعالى: وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ.[1] فيجب أن يُنفق مِن أحبِّ المالِ إليه على، ذوى القربىٰ واليتٰمىٰ والمسٰكينَ وابنَ السبيل والسائلين، يدخل فيه الغنيّ والفقير والمؤمن والكافر[2] من كل سائل، وفى الرقاب، يحررها. وأقام الصلوٰة وءاتى الزكوٰة والموفون، جاء معطوفا على قوله: ولـكن البر من ءامن بالله، والموفون بعهدهم إذا عٰهدوا، يريد في الجهاد، وهو كقوله: مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ،[3] الآية، فهذا مخصِّصُه بعد الإطلاق. والصٰبرين، جاء معطوفا على من يجب أن يُؤتَى المالَ، فهو منصوب، والإشارة على الصابرين في الجهاد. لأن الأقسام المقدَّمَ ذكرُها ليس فيها النفقة في سبيل الله، أعني الجهاد. فلزم أن يذكرها فذكر أخص من يستحقها من المجاهدين فقال: والصٰبرين، / إلى قوله: وحين البأس. وأما كونه أَخَّر قوله: والموفون، [٤٤و] فهو[4] ليعطف عليها مثلها من أهل الجهاد ويعودَ آخرُ الآية مدحا للفريقين وهما المنفِق في سبيل الله والصابر المنفَق عليه في سبيل الله. ولما كان من المؤمنين مَن أنفق ولم يقاتل ومنهم من قاتل وإن لم ينفق ذكر الله القسم الأول أولا بقوله: وآتى المال، والقسم الثاني أخّر ذكره وهو قوله: والموفون، فأتى به مع الصابرين في البأساء. فإن أنفق[5] وقاتل فلا شك أنه ممدوح من الجهتين. وصار الكلام بالإعراب منسوقا على ما هو أولى في الترتيب الذي تضمن المعنى الأحسن. فافهمه جيدا جيدا. فلهذا قال: والموفون، والصٰبرين، معا. لأن كلا منهما مُوفٍ وصابرٌ، فى البأساء والضراء وحين البأس، أي أوّلَ مفاجأة البأس لا بعد[6] ذلك. فهو كما قال عليه السلام: «الصبر عند الصدمة الأُولى».[7] أولٰئك الذين صدقوا وأولٰئك هم المتقون. واعلم أن البر هو مجموعُ ما جاءت به الآية، وبعضه من البر. وهذا الكلام في الصابرين وفي المُوفِين بالعهد وإن كان المراد منه التخصيص الذي ذكرناه فهو يحتمل أيضا الإطلاقَ في كل عهد، والصبرَ على كل حال. فافهمه كذلك.

---

[1] ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ (سورة الإنسان، ٧٦/٨).

[2] ر – والكافر، صح هـ.

[3] ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٢٣).

[4] ر – فهو.

[5] ش – فإن أنفق، صح هـ.

[6] ش: لا مفد.

[7] عن ثابت قال: سمع أنسا رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الصبر عند الصدمة الأولى» (صحيح البخاري، الجنائز ٤٣، والأحكام ١١؛ وصحيح مسلم، الجنائز ١٤).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾

ولما انتهى [الكلام] في آخر هذه الآية إلى القتال تلاها بمثل ذلك فقال: **يٰأيها الذين ءامنوا كتب عليكم القصاص فى القتلىٰ**. سمي القِصاصَ لأنه مشتق من قص الأثرَ يَقُصُّه قَصًا وقِصاصا، ولِما كان القَصّاص يتبع الأثر خطوةً خطوة ويمايل في الصعود والهبوط ليقفو الأثرَ فكذلك القِصاص هو مماثلة لفعل الفاعل الأول من قتل أو جرح أو غيره، لكن هذا في القتلى، **الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثىٰ بالأنثىٰ**. أقول: هذا كلام إذا فهمتَه حقَّ فهمِه تحققت أن هذا كلام الله لا عن نقل ولا عن تقليد، لِما فيه من الإيجاز والإعجاز الذي تَشهد العقولُ الصحيحة بأنْ لا يكونُ كلامٌ تضمَّن هذا المعنى ولا احتوى عليه بالمطابقة واللزوم أبلغَ من هذا اللفظ ولا مثلَه؛ فاسمع:

[أحكام القصاص]

اعلم أن الله جل ثناؤه لم يترك من ضروريات عباده شيئا إلا وهداهم بالقرآن إليه، ودلهم به عليه فعلّمهم ما لا يحتاجون معه إلى غيره. ولكن نحن لجهلِنا بما أنزله سبحانه نظن أنه سبحانه وتعالى تكلم في أخطر المواضع وأصعبِها، وهو الدماء، بكلام غير بين، فنحتاج أن نأخذ الحكمَ فيه من كلام المخلوقين. وقد قال: **وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ**،[1] **بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ**.[2] وقد علمت ما في هذه المسألة من الاختلاف بين الأئمة رضي الله عنهم. فالذي نشأ من الاختلاف إنما هو من قِبَل اجتهادهم لأن الحق لا يكون من جهتيْ نقيض. فمتى كان العقل والنص يأبى ذلك وجب الميل عنه وإن كان قائله غير آثم، لأن اجتهاده أدّاه إلى ذلك، ولم يأمر الناسَ بتقليده ولم يجز له أن يكتمه. فإن أحسنتَ ظنَّك بكلام الله ووقفت مع نفس العبارة وحقيقة ما تقتضيه وُفّقتَ[3] لعلم الحق بعد خلع الهوى وكسرِ قيود العوائد والمآلف والتربية. فقِفْ تجدِ الحقَّ تعالى قد بين في كتابه جميعَ ما نحتاج إليه بيانا شافيا لا مزيدَ عليه. وها أنا قد وضعت لك في هذه المسألة لوحا تعلم منه جميع الصور الواقعة في الوجود. وذلك من كتاب الله تعالى لا من غيره. والصحيح من غيره ما وافق الكتاب.

---

١ الآية ٩٩ من هذه السورة.

٢ ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (سورة العنكبوت، ٤٩/٢٩).

٣ ر ك: وقفت.

فقوله تعالى: الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثىٰ بالأنثىٰ، يلزم من هذه الجملةِ ستةَ عشرَ صورةً لا تزيد ولا تنقص. وهذه هي جملة ما في الوجود وجملة ما في كتاب الله تعالى. وقد وضعت لك هذه الصور وفصَّلتُها وبينت الدليل على الفتوى في كل صورة بنص الكتاب أو بلازمه. ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ.[1] وسيأتيك البيان والإيضاح بعد هذا مبسوطا، فافهمه.

القاتل من الذكور:

القاتل	المقتول	الفتوى	الدليل
/ حر	حرا	يقتل	الحر بالحر نصًا [٤٤ظ]
حر	عبدا	لا يقتل	لازم عن الحر بالحر
حر	حرة	لا يقتل	لازم عن الحر بالحر
حر	عبدة	لا يقتل	ظاهر اللزوم عن الحر بالحر
عبد	حرا	يقتل	لازم عن الحر بالحر
عبد	عبدا	يقتل	والعبد بالعبد
عبد	حرة	لا يقتل	والأنثى بالأنثى لا الذكر بالأنثى ولم يستثن العبد
عبد	عبدة	لا يقتل	لازم عن قوله تعالى والأنثى بالأنثى.

القاتل من الإناث:

القاتل	المقتول	الفتوى	الدليل
حرة	حرا	تقتل	باللازم عن الحر بالحر فكيف الحرة
حرة	عبدا	تقتل	والأنثى بالأنثى فكيف لا تقتل بالذكر
حرة	حرة	تقتل	والأنثى بالأنثى كقوله الحر بالحر
حرة	عبدة	لا تقتل	يلزم من قوله الحر بالحر فكذلك الحرة
عبدة	حرا	تقتل	ظاهر اللزوم
عبدة	عبدا	تقتل	ظاهر اللزوم
عبدة	حرة	تقتل	ظاهر اللزوم
عبدة	عبدة	تقتل	والأنثى بالأنثى.

[1] ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ (سورة يوسف، ٣٨/١٢).

وليس في ذلك ما يَحتاج إلى نظر مّا أو تأملٍ سوى صورتين وهما عبد قَتل حرةً أو حرةٌ قَتلت عبدا. ونحن نتكلم على هاتين الصورتين حصرا بطريق النفي والإثبات لتحقق الحقِ بلا ريب. فنقول: (١) لا يخلو إما أن كل واحد منهما يُقتَل بالآخر، (٢) أو لا واحدَ منهما يقتل بالآخر، (٣) أو يقتل العبد بالحرة ولا تُقتَل الحرة بالعبد، (٤) أو تقتل الحرة بالعبد ولا يقتل العبد بالحرة. فهذه أربعة أقسام لا خامسَ لها.

فأما القسم الأول وهو أن كل واحد منهما يُقتَل بالآخر فمنفيٌّ نصا. وذلك أن قوله تعالى: والأنثىٰ بالأنثىٰ، يَمنع أن يُقتَل الذكر بالأنثى، وامتناع بعض هذه المقدمة الأولى يبطلها، إذ لا يصح إلا بجملتها.

وأما القسم الثاني وهو أن لا واحدَ منهما يُقتَل بالآخر فمنفي، إذ هما ذكرٌ وأنثى، فلا يجوز تساوي الحكم فيهما. وإطلاقه عليهما من غير نص أو لازمِ نص، ولم يعين النصُّ إطلاقَ الحكم الواحد على الشيء وضده أعني الذكر والأنثى.

وأما القسم الثالث وهو أن يُقتَل العبد بالحرة ولا تقتل الحرة بالعبد فيمنع منه تعيين النص للذكر بالذكر من الحر أو العبد، وتعيين الأنثى بالأنثى.

وأما الرابع وهو أن تقتل الحرة بالعبد، ولا يقتل العبد بالحرة فصحيح نصا لقوله تعالى: والأنثىٰ بالأنثىٰ، فكيف إذا كان المقتول ذكرا وقاتلُه أنثى. وأما العبد فلا يُقتَل بها لقوله تعالى: والعبد بالعبد، فهذا نص الكتاب والمفهوم منه وبه وعنه.

فإن قيل: تخصيص الحر القاتل بالذكر لا يمنع عندنا أن يُقتَل بالعبد، كما أن تخصيص العبد القاتل بالذكر لا يمنع عندك أن يقتل[١] بالحر. فالجواب أنه لو قلنا بذلك لذهبت فائدة هذا التفصيل بأسره ولكان يغني عن ذلك كلِّه أن لو قال: الذكر بالذكر، أو النفس بالنفس. فافهم هذا جيدا.

فإن قيل: إن الحرية مع الأنوثية أعلى من العبودية مع الذكورية، لأن الحرة تملك عبدا والعبدَ لا يملك حرة.

قلنا: ليس كذلك من وجوه.

أولها أن الناظر في كتاب الله تعالى يجب أن ينظر فيه بالعقل المجرد عن الميل إلى أحد الأهواء، ولا ينظرَ مقتضى عقله فقط. [ف]إذا كان النص مخالفا له فمتى دقق النظر

---

[١] ر – بالعبد كما أن تخصيص العبد القاتل بالذكر لا يمنع عندك أن يقتل، صح هـ.

عَلِم من الكتاب ما يشهد به العقل الصحيح موافقا غيرَ مخالِفٍ للكتاب. فالعودة إلى الكتاب بالعقل لتعرف[1] بالكتاب ما هو الأحسن في العقل، فوجب أن يقدَّم الكتابُ ولا تكونَ العودة أولا إلى العقل ثم تُفَتِّش[2] في الكتاب على صورة ما توافقه. فاجعل عقلَك وراء الكتاب ولا تَعْكِس ولا تترك العقل وراء ظهرك. فإن اختلفا في ذهنك الضعيف فاسأل وتأمل وقِفْ تجد الحق في الكتاب إن كنت من أهله. فلا يمكن أن يختلف النص والعقل أبدا. وقول القائل في بعض ما فرض الله في الكتاب من العبادات: "تعبُّدٌ لا يُعقَل معناه"، ليس كذلك. وإنما ذلك القائل لا يَعقل معناه، ولا يَلزم من ذلك أن لا يَعقله[3] غيره، فاعقل. فهذا وجه إذا تأمله الفَطِنُ كان له مفتاحا إلى الهدى ومعراجا إلى الحق الواضح.

ووجهٌ ثانٍ[4] أن الله تعالى قدّم ذكر الذكور أولا مفصَّلا من الحر والعبد، وأخّر / الإناثَ وذكرهن مجملا. ونحن من طريق اللزوم عن الكلام في الذكور حكمنا في الإناث. فتنبه[5] على أن الذكورية من الحر والعبد أعلى رتبة من الأنوثية من حُرّة وعَبْدة. وموضع الكلام من التقديم والتأخير له رتبة لا يَغفل عنها اللبيب. [٤٥و]

ووجهٌ ثالثٌ وهو أن اللازم من نفس النص يمنع أن يُقتَل الذكور إلا بالذكر وإلا تذهب فائدةُ التفصيل كما قدمنا. ثم زاده شرطا آخر نَفهم منه أمرا آخر من حديث الحر والعبد تفصيلا وتبيينا يُعلم منه عدة أحكام بعد لزوم المعنى الأول.

ووجه رابع أن الأنثى تُقتَل بالأنثى فلزم أن تُقتَل بالذكر. ولم يعين النصُّ مستثنيا فيقول: إلا أن يكون الذكر عبدا.

ووجه خامس وهو أن الذكورية والأنوثية المراد بهما إقامة المثل. وظاهر في سائر العقول أن فائدة الذكر الواحد مع الكثير من الإناث أبلغ من الأنثى الواحدة مع الكثير من الذكور.

ووجه سادس وهو أن الذكورية والأنوثية أمر طبيعي، والحرية والعبودية أمرٌ طارٍ عليهما. إذ قد يُجعَل الحرُّ عبدا أي للكافر والعبدُ حرا، ولا تُجعَل الأنثى ذكرا. فلزم تفضيل الذكورية مع العبودية على الحرية مع الأنوثية. وحسبنا الله.

---

[1] ر: لنعرف.
[2] ر: ثم نفتش.
[3] ك: أن لا يعقل.
[4] ش: ثالث.
[5] جميع النسخ: فنبه.

وأما الخنثى حرا كان أو عبدا يحكم له وعليه بما جاء في السنة، إذ لم يأت له ذِكْرٌ في الكتاب.

وإذ قد تحققت أن جميع ما يجري في العالم في القتلى هو ينقسم إلى أربعة أقسام أصولا: إما حر أو عبد، أو حرة أو عبدة. ثم ضُربَت الأربعة في نفسها فأنتجت ستَّ عشرةَ صورةً. وقد لزمت الفروع عن الأصول. فليس لك بعد هذا الحق البيّن أن تحيد إلى غيره ولا أن تميل عن هذا الإيضاح الإلٰهيّ، والسلام. وللمتأمل في كلام الله تعالى لطائفُ يجدها بعد الأحكام وهي حِكَم تزيد المؤمنَ إيمانا. وذلك كما تجد في ترتيب المذكورين فإنك تجد في النص ولازمِه أنه بدأ في الذكر بالحر، ثم العبد، ثم الحرة، ثم العبدةِ. فالأول يُقتَل بواحد، والثاني باثنين، والثالثة بثلاثة، والرابع بأربعة. فهذه عشرة أحكام لقاتل يُقتل، لزم عنها ستة أحكام لقاتل لا يُقتل. فتمت الجملة وفهمها العالِمُ بنفس الترتيب في الذِّكْر. ولولا ذلك الترتيب لكثرت الألفاظ وتاه المتعلمُ. وهذا الإيضاح بهذا الإيجاز لا يَقدر عليه إلا الله سبحانه.

واعلم أن هذا القصاص إنما هو في القتلى. وأما حديث الديات فسيأتيك في موضعه. لكن يجب أن تَحكم أيضا فيما هو دون القتل على هذا المنهاج مثل الضربة والجرح يجب أن تَتّبع[1] فيه شأوَ النص وتَحذوَ حَذْوَه فلا تَخرجَ عن النص، إذ ليس لك أن تحكم برأيك فتقتصَّ. مثالُ ذلك حرٌّ جرح حرة أو عبدة فلا يُجرح الحر، بل عليه أن يُرضي خصمَه بالمعروف ويُصلح ما أفسده؛ ولِرَبّ الأمر أن يؤذيه على ما يراه من تجزية[2] بحسب القضية. وأما القصاص الذي يُقتصّ منه للخصم فيجب أن يكون الجزء تابعا للكل على حَذْو القصاص في القتلى، فلكل رتبة. وجملة المسألة تعود إلى أصل واحد، والباقي يلزم عنه. وذلك أن الشخص لا يؤخذ إلا بمثله أو بأعلى منه. وأما من هو دونه فيلزم عنه وهو أن لا يُقتل الأعلى بالأدنى. وتلخيص الكلام يُقتَل المثل بالمثل وبالأعلى ولا يُقتَل بالأدنى. وقد علمت أن هذا القصاص في القتلى للمسلمين لقوله: يٰأيها الذين ءامنوا كتب عليكم [القصاص فى القتلىٰ]. وأما غير المسلم فيقتل القاتل مَن كان فليكن، ولا يقتل بسببه مسلمٌ ولا مسلمة عبدا كان أو حرا.

---

[1] ش ك: أن يتبع.

[2] ك: من بحرية.

وبذلك أيضا ما يأتيك عند ذكر الديات. ولما كان يَلزم عن هذا الترتيب الإلٰهي معرفةُ ما لم يذكره بما ذكره[١] لزم أيضا ما دون القتل مما سيأتيك في تمام الآية.

فقال تعالى: **فمن عُفي له**، وقوله: **من أخيه**، ولم يقل مِن ولي المقتول، فهو ليعم الكلامُ. ويدلك على أن الجاني إن كان[٢] قاتلا فيكون قوله تعالى: **من أخيه**، إشارة إلى وليّ المقتول، وإن كان غير قاتل بل قد جنى جناية مّا فيكون قوله: **من أخيه**، إشارةً إلى[٣] الذي قد جنى عليه الجاني. فتم الكلام بهذه العبارة دون غيرها.

/ وقوله: **شيء**، أي شيء من عفو، أي بعضِ عفو عن جناية. وذلك لأن العافي متى [٤٥ظ] وجب له حقٌّ فرضي بدونه فقد عفى عن الجاني بقدر ما ترك له من حقه. ويزيد ذلك وينقص، فلزم أن يعبر بهذه العبارة دون غيرها، وهي قوله: **شيء**.

وقوله: **فاتّباعٌ بالمعروف**، معطوف في النظم على قوله: **كتب عليكم القصاص**. ثم قال ما تقديره: فمن عفي له من أخيه شيء فقد كُتب عليه اتباعٌ، أي على الجاني الذي عُفي له من أخيه شيء من عفوٍ اتباعٌ للعافي عنه بالمعروف، كمن يتّبع صاحبه ليصنع معه المعروف حيث كان وإن لم يكن صاحبه مستقبلا له ولا مطالبا بذلك بل هو[٤] يتبعه دائما. ففيه إشارة إلى فعل معروف متتابعٍ مرةً بعد مرةٍ دائما. وقوله: **بالمعروف**، ولم يعيّن ذلك المعروفَ يدل على ما يمكن من قول وفعل كالشكر له والدعاءِ والخدمة والهديّة وغير ذلك. والقصد لطفٌ من الله تعالى بالجاني ليؤلف بين قلبه وقلب الذي عفى عنه بفعل المعروف معه وبقول المعروف له فيحصل الأُنسُ بعد تلك الوحشة ورفقٌ بالذي عفى ليذهب الحقدُ والغلُّ من قلبه، فتكون الجناية قد عادت سببا للصداقة بذلك المعروف الذي سدَّ بابَ العداوة.

وقوله: **وأداءٌ إليه بإحسٰن**، تقديره فاتباع وأداء. وذلك أن الذي عفى لا يخلو إما أنه عفى عن الكل أو عن البعض. فإذا وجب على الجاني اتباعٌ بالمعروف إذا عفي له من أخيه شيء عما جنى، فكيف إذا عفي له عن جملة ما جنى. ولا شك أنه متى عفى للجاني بعض العفو فقد دل على شيء لم يَعْفُ له عنه فهو باق، والجاني مطالَب به. فلا يخلو إما أن ذلك الباقي ألَمّ في الصدور فاتباع بالمعروف يُزيله، أو شيءٌ من الدنيا

---

[١] ر - بما ذكره.
[٢] ش - كان، صح هـ.
[٣] ش + أن.
[٤] ش - هو، صح هـ.

وقعت عليه المراضاةُ، فيجب فيه أداءٌ إلى العافي، ويكون الأداء بإحسان قولا وفعلا. وقوله: ذٰلك تخفيف من ربكم، أي تخفيف عما تقدم في شرع غيرِكم من الأمم، وهو: ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ.[1] ورحمة، أي بكم فيما أمركم به[2] من أوامر توجب التراحمَ بينكم والتألُّف بين قلوبكم والخيرَ.

فمن اعتدىٰ بعد ذٰلك، لفظ عام يشتمل على من اعتدى من الناس بعد ما كُتب عليه ما تقدم من الأحكام. ومن اعتدى من الخصمين المذكورين بعد ذلك الاتباع بالمعروف والأداءِ بالإحسان، فإن المعتدي بعد ذلك لا يخلو إما أن يكون الجاني فقد خالف أمرَ الله تعالى، وخان الذي عُفي عنه ولم يعامله بما تقدم إليه من عفوه عن بعض جنايته عليه إن لم يكن[3] عن كلها، وإما أن يكون المتعدي بعد ذلك هو الذي كان قد عفي. فقد دل على حقدٍ وغبن[4] وخداع ونفاق منه للجاني. وقد كان له أولا أن لا يعفو فقد خدع الجانيَ وغرّه. ثم خانه بالاعتداء عليه بعد ذلك المكر به. فأيَّ الأقسام كان، فله عذاب أليم.

﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾

ولكم فى القصاص حيوٰة يٰأولى الألبٰب، لأنكم تعلمون صدْقَ هذه الدعوى دون غير أولي اللب وإن آمنوا بها، فامتثِلوا ما أُمرتم به من القصاص، لعلكم تتقون، القتلَ من أجل القصاص.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠﴾

ولمّا فرغ هذا الحكم[5] عَطَف على كَتْب الأولى مثلها.[6] وهذه الصورة من العطف يجب أن تعرفها، لأنها عطفُ لفظٍ على مثله يَتبع[7] الشيء بمثله على صورة التتابع في اللفظ وإن كان المعنى غير المعنى؛ وقد يكون قريبا منه بوجه أو أكثر، كما أن الموت

[1] ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ﴾ (سورة المائدة، ٤٥/٥).

[2] ر ك – به.

[3] ر – يكن، صح هـ.

[4] ر ك: وغب.

[5] أي أحكام القصاص.

[6] أي على كَتْب الأخرى من الأحكام مثلها.

[7] ر: تتبع.

والقتل قريبان. فقال: **كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا**، أي إن[١] خلّف رزقا كُتب عليه، **الوصية**، حقا واجبا. ذكر بعضهم أن هذه الآية منسوخة بما جاء في سورة النساء من قسمة المواريث،[٢] وبعضهم نسخها بحديث.[٣] ومن فهم معناها فإنه منع أن تكون منسوخة واحتج بأن قال: إن الله تعالى بين لنا عند قسمة المواريث فقال: مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖ؛[٤] وكرر ذلك من الرجال والنساء ليعرّفنا أن جميع تلك الفرائض المعيَّنة لأربابها إنما نعمل[٥] بها بعد أن نعمل[٦] بالوصية قبلها إن كانت هناك وصيةٌ أو دَين. ولما كان / الصَداق دَينا لم يحتج إلى تعيينه ولهذا يُقدَّم[٧] الإرث. فإذا [٤٦و] فعلنا ذلك أولا فعلنا بعده ما أُمرنا به في سورة النساء من القسمة، وأما قبل فلا. ولمّا كان بعض الناس قد يموت من غير[٨] وصية وقد لا يكون عليه دَين، وبعضهم يوصي للغريب أو لبعض الأقارب دون بعض أراد الله بهذه الآية ههنا أن يعرّفنا أن مَن حضره الموتُ يجب عليه أن يوصي إذا كان له خير ولا يُهملَ الأمرَ في ذلك، فهذا معنًى أولُ. والمعنى الثاني أن يعرّفنا أن[٩] تلك الوصية يجب أن تكون، **للوٰلدين**، أولا **والأقربين**، بعدهما، وأن تكون، **بالمعروف**. وجعل ذلك الأمر بالوصية، **حقا على المتقين**.

واعلم أن بعض الكلام الذي تجده في هذا الكتاب بين كلمات القرآن تارة يكون تقديرا وتارة يكون تفسيرا كما ههنا، أعني أن به[١٠] يتفسّر لك مقصودُ الآية. فقد تحققنا أن الخطاب ههنا لمن حضره الموتُ وهو حي. وأما في النساء فالخطاب لورثة الميت ولمن يُقسِّم ميراثه بعد وفاته، وأما ههنا فالأمر للميت قبل وفاته. فهنا فرض الله عليه الوصية، وفي النساء قسَّم الله ما تركه الميتُ من الميراث على الورثة بعد الوصية. فانظر أنت يا ذا الفطنة أيمكن نسخُ هذه بعد ما قد بان الحق، وظهر فهمُ ما اتضح من معناها. ثم عرّفنا أن تلك الوصية يجب أن تكون بالمعروف لا بالهوى والجَنَف والإثم. ثم جعل ذلك حقا للمذكورين في الآية على من حضره الموت إن كان تقيا.

---

[١] ش – إن.
[٢] انظر: سورة النساء، ٤/١١–١٢، ١٧٦.
[٣] عن شُرَحْبِيلَ بن مسلم سمعت أبا أُمامةَ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله قد أعطى كلَّ ذِى حقٍّ حقَّه فلا وصيةَ لوارث» (سنن أبي داود، البيوع ٨٨؛ وسنن الترمذي، الوصايا ٥؛ وسنن النسائي، الوصايا ٥). انظر لمعرفة المزيد: أحكام القرآن لإِلْكِيَا الهَرّاسي، ١/٥٧–٦٠.
[٤] سورة النساء، ٤/١٢.
[٥] ش ك: إنما تعمل.
[٦] ش ك: أن تعمل.
[٧] ر: تقدم.
[٨] ر: عن غير.
[٩] ر ك – أن.
[١٠] ر – به، صح هـ.

فانظر إلى هذه المعاني الصحيحة التامة القائمة بنفسها الضروريِّ علمُها الواجبِ العملِ بها، وانظر[1] إلى أدلة مَن فرض على الناس الإيمانَ بنسخها، واتّبعِ الحقَّ إن شئت. ولما علِمْنا من هذه الآية ما علمناه وكان بعض الناس يموت عن غير وصية، أو قد يوصي ببعض المال لبعض المذكورين أو غيرهم، وقد يترك خيرا كثيرا أو قليلا بعد ذلك، ولا بد أن نعرف[2] كيف يقسم وعلى من يُقسَّم أنزل الله آيات الفرائض وبين لنا ذلك فيها[3] بعد الوصية إن كان الميت قد أوصى أو[4] بعد الدَّين.

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١ فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢﴾

فمن بدله بعدما سمعه، وهو ما أوصى به الميت، **فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع**، لما أوصى به الموصي،[5] **عليم**، بما بدله الوصي أو غيره. ويحتمل فمن بدل المعروف، فيعود الضمير إلى الأقرب يدلك ما بعده، وهو جواز التبديل. فعرّفنا صورةً نَحْذو حِذْوَها فنُصيب إن كان الميت قد جنف، وخِفْنا على الميت من جنفه أو خفنا على المذكورين أربابِ الوصية، فأمرَنا بالإصلاح بقوله: **فمن خاف**، أي مِن سائر الأوصياء، **من موص جنفا أو إثما**. يريد فأيّ وصي خاف جنفا على الوالدين والأقربين من الميت الموصي لهم، أو إثما يَلحق الميتَ بسبب وصيته، أو يَلحق الوصيَّ إذا أمضى ما لا يجوز إمضاؤه. **فأصلح بينهم**، أي بتغيير[6] ما أوصى به الموصي، ولكن إذا كان ذلك بطريق الصلح والمراضاة جاز له، **فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم**. وفهمنا من قوله: **فلا إثم عليه**، أي على الوصي. واحتمل وحسُنَ أيضا أن يكون المعنى[7] لا إثم على الموصي،[8] لأنه لمّا أصلح زال الإثم عن الموصي أيضا وإن كان الأول هو المقصودَ. والفرق بين الحَيْف والجنف أن الحيف هو أن يأخذ أكثر من الواجب قليلا كما يحيف الشخص على ظُفُره إذا قصّ منه، والجنفَ أن يأخذ منه كثيرا، والإثمَ أن يمنعه حقه.

---

[1] ر: فانظر.
[2] ش: أن تعرف.
[3] ر ك: لنا فيها ذلك.
[4] ر ك – أو.
[5] ش: أوصى بالموصي.
[6] ك: أي بتغير.
[7] ر – المعنى، صح هـ.
[8] ر: على الوصي.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾

ثم عَطف على قوله: كُتِبَ، لفظا مثْلَه كما قلناه في الصورة التي هي عطف لفظٍ على مثله. ولما كان الموت قريبا في المعنى من القتل تقدم أولا بالمناداة وقال: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى.[1] ثم قال: كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ.[2] ثم لما تغير المعنى عاد إلى المناداة فقال: **يٰأيها الذين ءامنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم / لعلكم تتقون**، يشير بالمكتوب إلى نفس الصيام لا إلى المدة، ولهذا جاء ذكرُ المدة مؤخرا، فافهم. وذلك لأن الله تعالى كتب على اليهود صياما. ولم يعيّن القرآن ما كتب على اليهود وغيرِهم، إذ لا حاجة إلى تعيينه لنا. فليس قوله تعالى: **كما كتب**، يلزم عنه المدة. [٤٦ظ]

﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤﴾

وأما ما عيَّنه لنا بقوله: **أياما معدودٰت**، فهو على المؤمنين خاصة، لقوله تعالى: **فمن كان منكم**، ولم يقل: منهم، ولغير ذلك أيضا. وقوله: **أياما معدودٰت**، بالنصب، فهو مفعولٌ ثانٍ لِما[3] لم يُسمَّ فاعله، أي كتب الصيام أياما. والمعنى في أيام لئلا يَظنّ الظان أنه كُتب عليه الصيام جملةَ المدة كما وُعد موسى ثلاثين ليلة[4] وِصالا، فلهذا عيّن الأيام. وقوله: **مريضا أو علىٰ سفر**، تقديره: فأفطر، **فعدة من أيام أخر**، أي فعليه صيامُ عِدَّةِ ما أفطر من أيام أُخر بقدر ما أفطر. وذَكَر لفظ "العدة" الذي عبر به عن جملة الشهر بقوله: وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ،[5] ليعرفنا أن المريض والمسافر يجوز له أن يُفطر جملةَ الشهر. ثم قال تعالى: **وعلى الذين يطيقونه**، ليس المراد أن الذين يطيقون الصيامَ إذا صاموا عليهم[6] فدية، ولا أنهم إذا بلغوا من العمر إلى حد يطيقونه فأفطروا.

[1] الآية ١٧٨ من هذه السورة.

[2] الآية ١٨٠ من هذه السورة.

[3] ر – لما.

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ (سورة الأعراف، ١٤٢/٧).

[5] الآية ١٨٥ من هذه السورة.

[6] ش ك: عليكم.

ولكن المراد: وعلى الذين يطيقون الصوم من المرضى والمسافرين فأفطروا مع الطاقة لهذين السببين المذكورين لا لغيرهما. فكلما أفطروا من أيام الشهر يوما عليهم أي كتب عليهم فدية، لهذا قال: وعلى الذين، أي كتب على الذين يطيقونه. ولهذا لم يقل: وعلى الذين يصومونه. وأما صدقة الفطرة فليس لها في النص صريحٌ. وإنما وجبت من السنة،[1] والسنة واجبة من الكتاب في مواضعَ أُخَر غير هذا. وقوله: **طعام مسكين**، ولم يقل: إطعام. لأن الإطعام قد ينقص عن حاجة طعام المسكين. وقد لا يجده في الوقت فيطعمه. وأما الطعام فهو كما بُيِّن في غير هذا الموضع ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾.[2] ويجب أن يكون كفايةَ مسكين في أكله يوما تاما.

وقوله: **فمن تطوع خيرا**، أي من زاد على طعام مسكين، وفيه إشارة إلى خير الطعام لا أوسطِه؛ والمعنى فمن أطعم مسكينين أو ثلاثةً أو أكثر، ويكون ذلك تطوعا لا لرياء أو لسُمْعة بل طاعةً لله تعالى، **فهو خير له**، أي خير من إطعام مسكين واحد. **وأن تصوموا**، الخطاب للمريض والمسافر القادر على الصوم إذ لا يكون ذلك إلا مع القدرة؛ فإن أفطر لعجزه فليس عليه فدية بل صوم؛ وإن أفطر مع القدرة فعليه الصوم[3] والفدية، والصوم، **خير لكم**، أي خير[4] من طعامِ مسكين، لأن طعام مساكين خير من طعام مسكين واحد. فأشار إلى أن الصوم خير من إخراج طعام مساكينَ كثيرةٍ أطعمهم الإنسان تطوعا، **إن كنتم تعلمون**، وفيه دليل على أن للعبد اختيارا.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

---

١ قال مالك: تجب زكاة الفطر على أهل البادية كما تجب على أهل القرى. وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر من رمضان على الناس على كل حر أو عبد ذكر أو أنثى من المسلمين (الموطأ لمالك، الزكاة ٥١). وانظر أيضا: الزكاة ٥٥.

٢ ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ (سورة المائدة، ٨٩/٥).

٣ ش + إذ لا يكون ذلك إلا مع القدرة فإن أفطر لعجزه فليس عليه فدية بل صوم وإن أفطر مع القدرة فعليه الصوم.

٤ جميع النسخ + من خير.

شهر رمضان، أي تلك الأيام المعدودات هي شهر رمضان، ولم يعين ثلاثين إذ قد يكون الشهر ناقصا. وسمي الشهر شهرا من الاشتهار، لأنه لا يجحد، وعلامته ظاهرة مشهورة لكل ناظر في السماء تنطق بالحال في كل يوم زيادةً ونقصانا. وقوله: **الذى أُنزل فيه القرءان**، لا فائدة لنا إذاً[1] علمنا أنه أنزل إلى سماء الدنيا جملةً. والكتاب شهد في عدة مواضع بأن الله تعالى أنزله في مُدد. ودل على ذلك بقوله: نزّل،[2] وكقوله: كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ.[3] فالمراد بالقرآن ههنا أولُ الإنزال كما تقول: جاء العسكر تريد أولَ العسكر، وإن كان قد لا يصل الباقي إلى يومين؛ وتقول: جاء الليل تريد[4] أول الليل لا جملتَه. ولهذا لم يقل: الذي أُنزل فيه جملةُ القرآن. فاعلم أنه أولُ ما أُنزل القرآن كان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه، بقوله:[5] إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ.[6] فتم المعنى المفهوم من قوله: **الذى أنزل فيه القرءان**، لأن الليلة فيه، ولم يقل: في جميعه. **هدى للناس**، أي كلِّهم إن آمنوا به، وإن كفروا فهو عليهم عمى[7] بكفرهم لا لأنه خرج عن كونه، **هدى للناس وبينٰتٍ من الهدىٰ**، / "مِن" لتبيين الجنس، **والفرقان**، أي وأُنزل [٤٧و] فيه بينات من الهدى وبينات من الفرقان في صدور الذين أوتوا العلم.

فمن شهد منكم الشهر فليصمه، لمّا كان صوم[8] اليهود والنصارى في زمن معلوم لا يتغير صار كالعادة، كما أن النائم بالليل لا يثاب على صومه فيه، وصوم المسلمين عبادة. فنحن يَشهد لنا كلُّ زمن بترك الأكل والشرب والجماع فيه؛ فلهذا قيد بالشهر دون زمن مخصوص لا يتغير في الدهر في قوله: **فمن شهد**، ولم يقل: فمن رأى، لأن قوله: **شهد**، أعم إذ الشهادة تكون بالعين وبغير العين. **ومن كان**، ولم يقل ههنا: منكم،

---

١ ش: لنا إذ.

٢ انظر على سبيل المثال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ (سورة النساء، ١٣٦/٤)؛ و﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ (سورة الأعراف، ١٩٦/٧)؛ و﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (سورة الفرقان، ١/٢٥). يقول العلامة الراغب الإصفهاني: "والفرق بين الإنزال والتنزيل في وصف القرآن والملائكة أن التنزيل يختص بالموضع الذي يشير إليه إنزالُه مفرّقا، ومرة بعد أخرى، والإنزال عام" (المفردات للراغب الإصفهاني، «نزل»).

٣ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ (سورة الفرقان، ٣٢/٢٥).

٤ ك: يريد.

٥ ر: لقوله.

٦ سورة القدر، ١/٩٧.

٧ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ (سورة فصلت، ٤٤/٤١).

٨ ك – صوم، صح هـ.

إذ لا فائدة في تكرارها. وقوله: **مريضا أو علىٰ سفر فعدة من أيام أُخَر**، إنما كرر هذا الكلام وقد تقدم مثلُه،[1] لأن الأول فرض والثاني تعليل للأول. فعرّفنا بالكلام الأول فتوىٰ فيما فرض علينا نفهم بها عند الضرورة ما يجب أن نفعله لئلا يكون علينا حرج. والثاني عرّفنا به تعليلَ تلك الفتوى وأنه تعالى لم يجعل علينا في الدين من خرج.[2] وتقديره: وأما ما قلناه فيما تقدم وهو، **من كان منكم مريضا**، وتمامه فذلك لأجل أنه، **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر**، أي هذه الإرادة هي سبب تلك الفتوى. ويدلك قوله في الأول: فَمَن كَانَ،[3] وفي الثاني: **ومن كان**. فلهذا عطف بالواو على شيء تقدم. ولو ذكر التعليل عند الكلام الأول من غير تكرار لَتَوهم السامعُ أن التعليل للصيام والإفطار، وليس للإفطار[4] فقط. فافهم. ثم قال: **ولتكملوا العدة**، أي لأجل أن الله يريد بكم اليسر بالإفطار ولكي تكملوا العدة بالصوم من أيام أخر، **ولتكبروا الله علىٰ ما هدىٰكم ولعلكم تشكرون**.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

ثم لمّا ذكر أنه يريد بعباده[5] اليسر ولا يريد بهم العسرَ تمم المعنى وفسره بمثله. وذلك قوله:[6] **فإني قريب**، أي فلا عُسْرَ بيني وبين العباد فيحتاجون لبُعدي عنهم أن يقتحموا مشقة أو عسرا في صوم بل أُريد بهم اليسر[7] في سائر أوامري. وتمم الكلام معرِّفا ومنبِّها على الدعاء، وخصوصا في الصوم، فذكر الدعاء الذي هو جامع للذِّكْرِ والصلاة والطلب فقال: **وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب**. لمّا كان المراد تعريف العباد بوجود الصانع وقربَه عرّفهم بقوله: **أجيب دعوة الداع**، وتقديره أنا هو الذي يجيب دعوة الداعي أي الذي يجاب. فظنوا أن المراد دعوة كلِّ داع، فأراد تعريفه عندهم بهذه العبادة. فظنوا أنه أراد إعلامَهم بقضاء حوائجهم على كل حال، فأشكل عليهم كونُهم يدعون فلا يُجابون إلا في بعض الأمر. ولقد أزال الإشكال أولا بقوله:

---

[1] يشير المؤلف إلى الآية السابقة.

[2] انظر في هذا الموضوع مثلا: سورة المائدة، ٦/٥؛ وسورة الحج، ٧٨/٢٢؛ وسورة الأحزاب، ٣٨/٣٣.

[3] من الآية السابقة.

[4] ش: وليس إلا الإفطار.

[5] ك: بعبادة.

[6] ر – قوله.

[7] ش ك: السر.

عبادى، وقد علمت قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[١] وتمامَ وصفهم هناك وصورة ما يَدْعونه. وقد علمت أيضا أن للشيطان عبادا بقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾.[٢] وأما قوله في الآية الأخرى: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾،[٣] فهو خطاب للمشركين، فيه تنبيه على أن المانع من الإجابة هو من جهة العبد، وأنه تعالى يجيب مع وجود المانع إن شاء. وهذا فتح لباب الرجاء من كريم لا يُؤيِسُ[٤] من فضله أحدا.[٥] ثم قال ههنا ما يجب أن تَفهمه من لفظ، ربما ظن الظان أنه لو حذفه لاستغنى عنه، وليس كذلك، وهو قوله: إذا دعانِ، وهذا[٦] بعد ما يُفهم منه غايةَ السرعة، تقديره: إذا دعاني كما أمرتُه. وذلك قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾،[٧] ولم يقل: مخلصين فقط. فافهم. ولهذا بعده ههنا: **فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون.**

[شروط قبول الدعاء]

واعلم أنه سبحانه قد دَلّنا على أمر عظيم، إذا علمناه وعملناه بلغنا المرادَ في الدارين معا. وذلك هو الدعاء الذي هو شرط في الإجابة ولكن مع الإخلاص في الدين. وذلك إذا فكّر فيه المفكر وجد فيما يجده أنه لكل قدر سببٌ يجري عليه ذلك القَدَرُ. فمن الأقدار ما ليس سببه إلينا، ومنها ما سببه منوط بنا ومتعلِّق بأفعالنا أو متوقِّف على أقوالنا. لأنه تعالى كذا قضى أزلا، كما ترى[٨] / من أمر الحرث والنسل [٤٧ظ] وغير ذلك، فتلك أقدارٌ أسبابُها أفعالنا. ومثلَ ذلك أقدارٌ أسبابها أقوالنا. وإذا كان كذلك ففِيمَ التواني وعَمَّ[٩] التمادي وإلَامَ التغافل وما[١٠] الانتظار؟ وقد فتح الله[١١] لنا بابا نَعرُج منه إليه ونستنزل الرحمةَ ونستدفع النقمة. وههنا هو الاسم والطِّلَّسم لمن علم وعمل. ولولا الإطالة لذكرتُ من الوقائع عجائبَ ومن الحَضّ[١٢] على ذلك غرائب. ففي ذلك ما يستحق أن لو[١٣] كُتب بالإبَر على البصر ويُدَّخر في الصدور دون السطور! ومن هُدي إلى التفكر والعمل بهذا الكلام فقد هُدي إلى أعلى مقام. والسلام.

---

[١] ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ (سورة الفرقان، ٦٣/٢٥ وما بعدها-٧٤).

[٢] سورة يس، ٦٠/٣٦.

[٣] سورة الأنعام، ٤١/٦.

[٤] ر: لا بويس.

[٥] ش - أحدا.

[٦] ر: هذا.

[٧] سورة المؤمن، ١٤/٤٠.

[٨] ر: نرى.

[٩] أصله: عن ما.

[١٠] ر: وماء.

[١١] ر ك - الله.

[١٢] ش ك: ومن الحظ.

[١٣] ش - لو، صح هـ.

وفي التوراة مكتوب أن بني إسرائيل حاربوا العمالقة.[1] فكان موسى إذا رفع يديه بالدعاء غلب بنو إسرائيل، وإذا وضعهما غلب عدوهم. فوُضع تحته حجر وأخذ هارون بيده الواحدة وحَوّر[2] بيده الأخرى إلى أن غابت الشمس فانكسر العَمالقة. فافهم ما سطرته لك لتعلم أن للأفعال الجسمانية والأقوال أثرا وخواصّ[3] لا يقوم غيرُها مقامها. ولو كان القلب حاضرا داعيا فللجسم أثر لـم يَستغنِ عنه موسى عليه السلام. وإنه أثر عظيم في أمة بالنصر وفي أمة بالكسر. فافقه ما الذي أفادتْنا الشرائعُ. وقد علمت من قوله: إذا دعانِ، أنه قد لايدعوه وهو يظن أنه يدعوه، وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا.[4] ثم قد عرّفنا سبحانه كيف يستجيب لنا بقوله: فليستجيبوا لى، أي بما دعوتُهم لأجيبهم إذا دعوني. وهذا صحيح في العقول والوجود، إذ من استجاب لله هو مقبول الدعاء. ويلزم من ذلك أن المستجيب لله لا يدعو بما لا يرضى الله من ضررِ عباد الله والفساد في أرض الله. ولو لـم يكن الدعاء بهذه الشروط للزم بطلان الأول، وهو إجابة الدعاء؛ إذ قد يدعو ما شاء الله ولا يجاب إلا من شاء الله، وهو من استجاب لله، أو من شاء سبحانه. وأما قول أرباب اللغة: إن "أجاب" و"استجاب" بمعنى واحد، فهم[5] أرادوا أن هذه تُستعمَل موضعَ هذه، وإنما كل واحدة من الكلمتين تختص بشيء دون الأخرى. من ذلك أن "أجاب" متعدٍ و"استجاب" لازمٌ بوزن استقام. تقول: دعاه فاستجاب له، ولا تقول: فاستجابه[6] إلا إذا ما استجبتَ الطير.[7] والإجابة قول لقول كما تقول: دعاه فأجابه، والاستجابة فعل لأمر، فهو بعد المناداة أَمَرَه فأطاعه. وإن عُبّر بواحدة عن الأخرى لَتفرّع[8] هذا الأصل. ويعضد ما قدمناه قولُه تعالى: وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ، تقديره ادعوني كما أمرتُكم. والمعنى ادعوني واستجيبوا لي أستجبْ لكم. ولهذا تممه بقوله:[9] إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي،[10] وتمامِه.

[1] العمالقة/العماليق في روايات الأخباريين طبقة من العرب البائدة ينسبون إلى عمليق بن لاوذ (القاموس الإسلامي، لأحمد عطية الله، «عمالقة»).

[2] ر: وجور. | وحور: أي دوّر.

[3] ر: وخواصا.

[4] ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ۝ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ (سورة النساء، ١١٧/٤-١١٨).

[5] ر: فإنهم.

[6] ر - ولا تقول فاستجابه، صح هـ.

[7] أي إلا إذا استعملتَ الاستجابة بمعنى "الجَوْب"، وهو قطع الطريق؛ يقال: جاب المفازة والبلاد جَوْبا، أي قطعها سيرا. انظر: لسان العرب، «جوب»؛ وتاج العروس للزبيدي، «جوب». واستجبتُ الطيرَ، أي سبقته في قطع الطريق.

[8] ش ك: لنفرع.

[9] ر ك: وبقوله.

[10] ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (سورة المؤمن، ٦٠/٤٠).

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾

ثم عاد بعد الدعاء إلى تمام الحديث عن الصيام ليعرّفنا أن الدعاء يجب أن يكون في الصيام أوفر وفي لياليه وأيامه أكثرَ، لأنه ذكَره بين الأيام والليالي، وذلك بعد قوله: أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ.[١] وقيل قوله: **أحل لكم ليلة الصيام**، وهذا يدل على تحريم ذلك[٢] يومَ الصيام. ولهذا قال قبلُ إذ فرض الصيامَ: أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ. وقوله: **الرفث**، فمن جملته ما يتقدم على الجماع من كلام يفضي إليه. ومنه قوله عليه السلام: «إذا كان أحدكم صائما فلا يَرْفُث وإن امرؤ شاتمه فليقل: إني صائم».[٣] وقوله: **إلى نسائكم**، "إلى" ههنا بمعنى مع. وهي كقوله: إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا.[٤] ويحتمل[٥] أن يكون الرفث مختصا بالقول فقط. فيكون بهذه العبارة، أعني "إلى" قد أحل لنا الرفثَ وما بعده من الملاعبة إلى النساء كقولك: أبحتُك من درهم إلى مائة، ليأخذ من ذلك مهما شاء. **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن**، أي كل واحد منكما لصاحبه حِلّ كاللباس في الحل. وذَكَر اللباس لأنه يلصق بالجسم، أي يلصق جسمُ كل واحد[٦] بالآخر كما يلصق باللباس. ولو لم يقل: **وأنتم لباس لهن**، لكانت الإباحة للرجال فقط. فجعل للنساء منا كما لنا منهن. ثم نبّه على أننا كما لا نستغني عن اللباس كذلك قد لا نستغني عنهن في ليالي الصيام، وأنهن يدفئن كما يُدفئ اللباس، فكان في العبارة بهذه الكلمة معانٍ كثيرةٌ. ومن جملة ذلك مُواراة السَّوءة كما قال: / لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ.[٧] [٤٨و]

---

[١] الآية ١٨٤ من هذه السورة.

[٢] أي الرفث إلى النساء.

[٣] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أصبح أحدكم يوما صائما فلا يرفث ولا يَجْهَلْ، فَإِنِ امْرُؤٌ شاتمه أو قاتله فليقل: إني صائم إني صائم» (صحيح البخاري، الصوم ٤٢؛ وصحيح مسلم، الصيام ١٦٠؛ وسنن النسائي، الصيام ٤٢).

[٤] ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ (سورة الأحزاب، ٦/٣٣).

[٥] ر: أو يحتمل.

[٦] ش ك: كل أحد.

[٧] ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ (سورة الأعراف، ٢٦/٧).

علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم، ولم يقل: تخونون. والمعنى تنسبونها إلى خيانة قبل الإباحة. فتاب عليكم عما مضى، وعفا عنكم، فيما سيأتي. وفهمنا من ذلك تنبيها لطيفا على أن ترْك ذلك أفضلُ، إذ التوبة والعفو لا يكونان إلا عن ذنب أو سيئة مما يَختان المرءُ فيه نفسَه ويحتاج إلى توبة وعفو. فالـٰن بٰشروهن، إباحة بلفظ الأمر؛ وذلك لعظم الإباحة، ولكونه عَطفَ عليه بأمر لازم واجب وهو قوله: وابتغوا ما كتب الله لكم، وإنما ذكر الابتغاء بعد المباشرة ليعرّفنا أن المراد أنه لا يجوز أن نأتي[1] المرأةَ إلا من جهة الحرث. ودليله قوله تعالى بلفظ الابتغاء في سورة المؤمنين: فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ.[2] والذي كتبه الله لنا هو ههنا قوله تعالى: وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم،[3] فهو مكتوبٌ لنا في القِدم، مخلوقٌ[4] لنا في الحدث. واعلم أن المباشرة[5] كُني بها عن الجماع، تقول: فلان يباشر هذا الأمر بنفسه، تشير إلى معالجته له وعمله فيه، فتعبّر بلفظ المباشرة عن سائر الأعمال. وتطلق المباشرة على المباشرة[6] للشيء ببعض الأعضاء كاليد أو غيرها من الأعضاء.

وقوله: **وكلوا واشربوا حتىٰ يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.** قال بعضهم: يحتمل أن يكون قوله: الخيط، يدل على الخيط الدقيق الأبيض الذي لم يكن يتبين من الخيط الأسود الذي هو مثله في الدقة. وقوله: من الفجر، أي يكون ذلك التبين[7] من ضوء الفجر لا من ضوء القمر أو الكواكب. وقوله: يتبين، أي يتحقق بيانه، لأن هذه اللفظة جاءت مشددة تدل على شدة بيانٍ مضاعَف. وهذه العبارة لا تُعطي أن تكون الإشارة بها إلى الفجر نفسه، إذ ليس للفجر خيطٌ أبيض ولم يكن له من قبلُ خيطٌ أسود ولا ما يشبه الخيط. قال: وإنما عرّفه[8] لنعلم أنه الخيط الذي لم يكن في الليل يتبين لدقته إلا من الفجر، أي من ضوئه. قال: وهذا عرّفهم به أولَ الأمر وبقي حدا محدودا إلا أننا يجب دائما أن نعتبره. والذي عليه الناس اليوم ليس فيه خلل، لأنهم أخذوا بما قبلَ[9] ذلك احترازا. وادعى أن هذا هو مفهوم اللفظ، تم كلامه.

---

[1] ر: أن يأتي
[2] ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ (سورة المؤمنون، ٢٣/٧).
[3] ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ (سورة الشعراء، ٢٦/ ١٦٥-١٦٦).
[4] ك: مخلوقا.
[5] ر - أن المباشرة.
[6] ر: على المباشر.
[7] ش: ذلك التبيين.
[8] أي جعله معرفة بلام التعريف.
[9] ر: بما قيل.

ونقول: إن قوله تعالى: من الفجر، أي من لتبيين الجنس كقوله: فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ.[١] وقوله: الخيط: مثل قوله: الرِّجْس. وأما كونه ذكر الخيط الأسود، فإنه يريد به ما كان موضع الخيط الأبيض، من السواد قبل ظهور البياض. وذكره بلفظ الخيط استعارة لامتداده، وكرره للمماثلة،[٢] لأن الذي كان موضعَه كان مثلَه بلا شك.

وقوله: ثم أتموا الصيام إلى اليل، أي يكون صياما تاما غير ناقص. ولهذا لم يقل: نهار الصيام، إذ المراد أن تكون التتمة لنفس الصيام، والصيام[٣] التام هو الذي ليس فيه ما ينقصه عند الله تعالى كالرفث في الكلام. وهذا كقوله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ،[٤] ليس المقصود إلا أن يكونا بشروطهما. وهذا كقوله عليه السلام: «ما صام من لم تصم جوارحُه»،[٥] أي ما صام صوما تاما. وأما قوله: إلى اليل، أي إلى أول الليل، ولهذا لم يقل: إلى ظلمة الليل، أو غَسَقِه،[٦] أو مثل ذلك.

فإن قلت: يلزم من هذا التحديد الأول، وهو قوله: حتىٰ يتبين لكم الخيط الأبيض، أن يكون الصيام حتى لا يتبين لكم الخيط الأبيض، ذلك من الليل كما قال في عكسه: من الفجر، ولو أراد ما قلتَه لقال: إلى الغروب. قلنا: أما التحديد الأول فلازم من قوله تعالى؛ وأما التحديد الثاني وهو ما عارضتَ به فغيرُ لازمٍ، لأنه تعالى لمّا جعل أول النهار يُعلم من جهة المشرق، وفي الوجود بقيةٌ من ظلمة الليل، وحرم الأكلَ مع وجود تلك الظلمة، كذلك جعل أول الليل يُعلم من المشرق أيضا، وأباح الإفطار، وقد بقي في الوجود بقية من ضوء النهار بقدر تلك الظلمة مما كان بقي من الليل. فإن اليوم هو من وقت إلى مثله في الجهة الواحدة، أعني المشرق.[٧] ولو قال: إلى الغروب لدل على غروب الشمس طَلَع الليلُ أو لم يطلع، وقد تَغرُب عنا لسبب مثل جبل أو غيم وغيره. فأراد سبحانه أن يكون حدُّ الصوم والفطر يُعلم من جهة واحدة، وهي المشرق لا المغرب. وقد قال: وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ [وَقَبْلَ غُرُوبِهَا].[٨] ولم يذكر الغروب ههنا بل قبل الغروب. ثم ذكر / اليل، إعلاما أنه ما بعد الغروب إلا الليل، [٤٨ظ]

---

[١] سورة الحج، ٣٠/٢٢.

[٢] ر: لمماثلة.

[٣] ر – والصيام.

[٤] الآية ١٩٦ من هذه السورة.

[٥] لم أجده بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر. ونحوه: «من لم تصم جوارحه عن محارمي فلا حاجة في أن يدع طعامه وشرابه من أجلي». انظر: كنز العمال لعلاء الدين الهندي، ٥٠٨/٨.

[٦] ر ك: وغسقه.

[٧] ك: الشرق.

[٨] سورة طه، ١٣٠/٢٠. | ر + وقبل الغروب ومن الليل فذكر قبل طلوع الشمس.

فكأنه ذكر الغروب والليل. وفي التوراة مكتوب: ويكون غروب ويكون بقور يوما واحدا.[1] والبقور من البَقْر وهو الشق، ويشير إلى انشقاق الفجر وغروب الشمس. ولذلك قال: أَيَّامًا [مَّعۡدُودَاتٍ]،[2] ولم يقل: نهارا. فإنه تعالى حدّ لنا النهارَ بقوله: مُبۡصِرًا.[3] فلو قال: نهارا لَمَا حرم الأكلَ بعد الفجر ولَمَا جاز بعد الغروب إلى أن يذهب حكمُ النهار. وقد عرّفنا أن ليلة القدر هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ،[4] لنعلم منها حدَّ آخرِ الليل. فقوله: [ثم أتموا الصيام] إلى اليل، يجب أن نفهم[5] منه أولَ الليل. واعتبار أوله هو من حيث طلوعُه من المشرق، ولو بقينا صياما إلى أن تُظلم الدنيا بحيث لا يَبين الخيطُ لكان ذلك غسق الليل لا أولَه.[6]

ولا تبٰشروهن وأنتم عٰكفون فى المسٰجد، يقال: عَكَف يَعكُف بفتح الكاف في الماضي وبضمها وكسرها أيضا في المستقبل إذا ألزم نفسه مكابدةَ أمر وحَبَسَها فيه عن غيره. ولمّا كانت النساء من أشدّ الشواغل أراد الله سبحانه أن يعرّفنا أننا إذا ألزمنا أنفسنا الدّؤوب في عبادته وحبسناها عن سوى ذلك لا نباشر[7] النساء اللاتي قد أباحهن لنا في ليلة الصيام بل نتركهن ليلا ونهارا مدة الاعتكاف مع الإفطار أو الصيام. ويُفهم من ذلك نفيُ بقية الشواغل. ولمّا كان قد يكون[8] الاعتكاف لغير عبادة قال: فى المسٰجد. وذلك كما قد يتخلى الإنسان وينفرد في بيت لعمل من الأعمال الصناعية وغيرها. فذلك وإن كان اعتكافا لكنه ليس في المساجد، لأنه لم يعتكف للسجود بل لغير ذلك. ولهذا لا يصح الاعتكاف إلا في مسجد. ولمّا أراد موسى عليه السلام أن يختار من قومه سبعين رجلا[9] أمره الله أن يأمرهم بما تفسيره: كونوا مُهَيَّئين[10] ثلاثة أيام لا تتقدموا إلى امرأة،[11] هذا نص التوراة.

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة، تَكوين ٤/٢١.

[2] الآية ١٨٤ من هذه السورة.

[3] ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ (سورة يونس، ٦٧/١٠). وانظر أيضا: سورة النمل، ٨٦/٢٧؛ وسورة المؤمن، ٦١/٤٠.

[4] ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ (سورة القدر، ٥/٩٧).

[5] ش ك: أن تفهم.

[6] ر: لا لأوله.

[7] ر ك: لا يباشر.

[8] ر ك: قد كان.

[9] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ (سورة الأعراف، ١٥٥/٧).

[10] ش: مهيئن.

[11] لعله يشير إلى ما ورد في التوارة: «فانحدر موسى من الجبل إلى الشعب، وقدس الشعب وغسلوا ثيابهم. وقال للشعب: كونوا مستعدين لليوم الثالث. لا تقربوا امرأة» (الخُروج ١٩/١٤-١٥).

ثم قال تعالى: تلك، الوصايا، حدود الله فلا تقربوها، ومن لا يقرب الحد كيف يخرج عن المحدود. والفرق بين قوله: لا تقربوها، وبين قوله: لَا تَعْتَدُوهَا،[١] أن القرب يكون المنعُ منه في النهي عنه، والاعتداءَ في المأمور به، هذا على الأكثر. فما كان ناهيا لا تجوز مقاربتُه، وما كان آمرا لا يجوز مجاورته.[٢] كذلك يبين الله ءايٰته للناس لعلهم يتقون.

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨﴾

ثم عطف على قوله: تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا،[٣] [قوله:] ولا تأكلوا أموٰلكم بينكم بالبٰطل، أي هذا أيضا من الحدود. وإنما أفرده لكثرة استعمال الناس له. فميزه وعطفه على ما قدمه ليحذِّر أشدَّ الحذر. وسماها أموالا لنا، وذلك إنما كان بين الشريكين هو منسوب إلى كل واحد منهما. وهذا المعنى مذكور في سورة النساء،[٤] وهو ما تلاه بقوله فيها: إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ.[٥] وإنما كرره ههنا ليُفهَم منه العموم، أعني سائر صور الأكل بالباطل، كمن يأكل ماله بالكذب والحيلة وبضد الحق من أي وجه كان. ولمّا كان قد يأكل الآكل من[٦] ذلك من غير أن يُدلي إلى حاكم وقد يأكل ويدلي ذكر هناك أحدَ الصورتين، وههنا الأخرى فقال: وتدلوا بها، أي تُلقوا، يقال: أدلى يدلي دلوَه إذا ألقاه ليأخذ به شيئا من الماء. وقوله: إلى الحكام، أي ترسلوا مما أكلتموه بالباطل إلى أرباب الحكم والأمرِ على سبيل الرِّشاء.[٧] لتأكلوا فريقا، مُذكَّر فرقة، من أموٰل الناس بالإثم وأنتم تعلمون، أن ذلك حرام في باطن[٨] الأمر ولو أباحكم[٩] الحاكم ذلك في الظاهر. ويقال: أدليتُ الدلو إذا أرسلتَها لتملأها، ودلوتها إذا انتزعتها[١٠] ملأى. فكأن ما أرسلتموه إلى الحُكّام دلو أرسلتموها لتملئوها بطريقهم.

---

[١] الآية ٢٢٩ من هذه السورة.

[٢] ر: محاورته.

[٣] الآية ١٨٧ من هذه السورة.

[٤] ر - سورة، صح هـ.

[٥] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ (سورة النساء، ٢٩/٤).

[٦] ك + غير.

[٧] قال ابن الأثير: الرشوة الوُصلة إلى الحاجة بالمصانعة، وأصله من الرشاء الذي يُتوصَّل به إلى الماء (لسان العرب، «رشا»؛ وتاج العروس للزبيدي «رشو»).

[٨] ش - باطن، صح هـ.

[٩] ر: ولو أباحهم.

[١٠] ر + عنها.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

ولما[1] كانت هذه الآية ملحَقة بالحدود وذكر في آخر ما قبلها: كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ،[2] قال بعدها: **يسئلونك عن الأهلة**، الهلال مشتق من الإهلال. وليس هو رفع الصوت، وليس الهلال اسما للقمر، بل المراد أول ظهور ما لم يكن ظاهرا من شيء يشير إليه المشير. ولهذا سمي الهلال هلالا في أول ما يُرى وما قرب منه لظهوره في ذلك الوقت بعد خفائه. ومنه الإهلال بالحج وهو إظهار التلبية لا نفس التلبية، واستهلال الصبي ظهور حياته بصوت أو حركة. ويقولون: تهلل[3] في وجهه إذا ظهر فيه البِشرُ والسرور. وليس هناك صوت مرفوع، فلا يقال: إن الإهلال رفع الصوت بالتلبية، ولا إن إهلال / الهلال من ذلك، أي لرفع الصوت عند رؤيته. فحصل في [٤٩و] الأهلة المعنيان من غير تخصيص. فالمراد من هذا السؤال بيان فائدة الأهلة، أعني أهلة الشهور. فبين الله منافعها والحاجةَ إليها بقوله: **قل هي مؤقيت للناس والحج.**

وليس البر، الطاعة لله، **بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولٰكن البر من اتقىٰ**، المخالفةَ في مواقيت العبادات، وهو مطلق أيضا. وتقديره: فاتقوا، **وأتوا البيوت من أبوٰبها**، فذكر البيوت ههنا أراد به المثَل، أي كما أن البيت لا يجب أن يُدخَل إليه إلا من بابه كذلك يجب أن يفعل المؤمنون في وجوه البر. وقوله أخيرا: **واتقوا الله**، أي مطلقا في سائر الأوقات. **لعلكم تفلحون**. ويحتمل تكرار التقوى أن الثاني بمعنى رجاء الثواب، والأولَ خوف العقاب. ولهذا جاء لفظ التقوى أولا مع النهي بقوله: **وليس البر**، وفي الثاني جاء مع لعل، وهي للترجي. فعرّفنا في هذه الآية حالَ من ذمهم بنهي المؤمنين عن مثله. ثم أمر بهذه الصورة من اللفظ مطلقا ليتدبره كلُ إنسان في كل زمان عند كل طاعة لله تعالى ليكون قد دخل بطاعته من الباب لا من ضده الذي هو الظَّهر ويكونَ في طاعته على تقوى. ولهذا قال بعضهم: هذه الآية تلحق في النظم بقوله: فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ،[4] ولا تأتوا البيوتَ من ظهورها. ولا شك أن الكلام المطلق يستوعب كلَّ مخصَّص

---

[1] ر: لما.

[2] الآية ١٨٧ من هذه السورة.

[3] ك: تهلك.

[4] الآية ١٨٧ من هذه السورة.

إذا أمكن حملُه عليه. فهذا كلام فيه إخبارٌ عن حال غير المؤمنين، ونهي للمؤمنين عن مثل ذلك، وأمر لهم بما يجب في وقت العبادة، وتعريفٌ لمن يتدبر من سائر الناس بما يجب أن يكون عليه في الإتيان بالطاعة أبدا. ولما قدَّم قوله: يسئلونك عن الأهلة، وجاز في اللغة جمعُ هلال على أهلة، وكانت الإشارة في السؤال إلى أهلة الشهور، إذ هي مواقيت تُقدَّر بها[1] الأوقات للناس وللحج فتُعلم بها أوقاتُ الحج لما تقدم كله ضَرَبَ[2] لهم مثلا بقوله: وليس البر، أي وليس يُنال البرُّ، بأن تأتوا، وتمامه. وذلك أنهم كانوا يحجّون البيت في غير الوقت الذي جعله الله ميقاتا للحج إليه وفي غير الأشهر، فيذهب سر الجمع، وتُعْدَم[3] خاصيةُ الوقت وغير ذلك فقال تعالى ما معناه: كما أنه لا يُنال البِرُّ إلا بإتيان البيوت من أبوابها، كذلك لا ينال البر بالحج إلى البيت في غير الأوقات والأشهر المعلومة.

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠﴾

ثم تلا ذلك بذكر القتال عند المسجد الحرام، لأن الكفار كانوا يمنعون المؤمنين ويصدونهم عن المسجد الحرام فقال: وقٰتلوا فى سبيل الله الذين يقٰتلونكم ولا تعتدوا، أن تقاتلوا[4] من لم يقاتلكم فأسلم، أو على من لم يعتَدِ عليكم فلم يبدأ بقتالكم في الأشهر الحرم، أو عند المسجد. ويدخل فيه النهي عن قتل النساء والصبيان، وكذلك من لم يقاتل فلا يجوز قتله عند الظفر به. والمعنى وليكن ذلك القتال في سبيل الله. فهذا الأمر لنا هو أنا نقاتل من يقاتلنا كائنا من كان، متى قاتلَنا قاتلْناه في سبيل الله في الزمان كالشهر الحرام، والمكانِ كالمسجد، هذا إذا بَدَأَنا هو بالقتال. وسيأتي[5] بعده أن نبدأه نحن بالقتال إلا عند المسجد الحرام أو في الأشهر الحُرُم. وقوله: ولا تعتدوا، هو نهي عن مطلق الاعتداء، فلا جائز نسخ هذه الآية بوجه من الوجوه،[6] لأنها آمرة بقتال مخصَّص وناهيةٌ عن اعتداء مطلق، فأحلت محرَّما من القتال في زمان ومكان بشرط. ومن قال: إن هذه الآية ههنا منسوخة بقوله: فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ،[7]

---

[1] ك: تقديرها.

[2] هذا جواب "ولما قدم".

[3] ش - وتعدم، صح هـ.

[4] أي ولا تعتدوا بأن تقاتلوا.

[5] ش - وسيأتي، صح هـ.

[6] ش - من الوجوه.

[7] ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ (سورة التوبة، ٥/٩).

فإنه لم يَفهم الآيتين في موضعيهما حقَّ الفهم. لو وجدنا المشركين عند المسجد الحرام ولم يَبْدَءُونا بالقتال لم نقاتلهم. وكذلك لا نبدؤهم بالقتال لا عند المسجد ولا عند غيره في مدة الأشهر الحُرُم. فقد انفصل حكم هذه الآيات ههنا عن حكم الآية التي هي وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ.[1] فافهمه[2] جيدا. ولهذا تمم هذه الآية ههنا بقوله: **إن الله لا يحب المعتدين**، فإنه سبحانه لا يحبهم أبدا. وإنما ابن عباس ومجاهد[3] وعمر بن عبد العزيز فهموا فقالوا: هذه الآية غير منسوخة.[4]

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾﴾

ولهذا جاء بعدها تفصيلُ ما أجمله فيها من الأمر والنهي، فتأمله جيدا، وهو قوله:

[٤٩ظ] **واقتلوهم حيث ثقفتموهم**. يقال: ثقفه / بالكسر مخففا إذا غلبه وظفِر بمقصوده منه في المثاقفة. وثقّفه مشدد[5] القاف إذا قوّمه. والثَّقَف الحِذْق في إدراك الشيء علما كان أو عملا. فلما أمرَنا في الآية الأولى بقتالهم إذا قاتلونا أمرَنا في هذه أننا حيث ثقفناهم نقتلهم ولا نأسِرهم. وحيث، تدل على الظرفية في المكان والزمان، فاستعملها ههنا كذلك. فإن لم يكونوا قاتلونا على الدين بل أخرجونا من ديارنا أمرَنا أن نخرجهم من المكان[6] الذي منه أخرجونا ليكون القصاص مِثْلا بمثل من غير اعتداء. وحيث، ههنا الثانية أراد بها الجهة، كما قال: وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ.[7] فقال ههنا: **وأخرجوهم من حيث أخرجوكم**. ولما كان إخراجنا لهم قد يلزم عنه قتالٌ، وذلك أنهم ربما عصوا وأبوا عن أن يَخرجوا وإن لم يقصدوا قتالَنا عند إخراجهم، بل أبوا أن يخرجوا إلا بقتال جوّز لنا أن نقاتلهم[8] إلى أن يخرجوا بقوله: **والفتنة**، أي منهم لكم، **أشد من القتل**، أي منكم لهم. وهم كانوا قد فَتَنُوا المؤمنين من قبل وأخرجوهم من ديارهم.

---

[1] ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ (سورة التوبة، ٣٦/٩).

[2] ش: فافهم.

[3] هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر، المكي، مولى بني مخزوم تابعي، مفسر من أهل مكة. أخذ التفسير عن ابن عباس، قرأه عليه ثلاث مرات، يقف عند كل آية يسأله: فيم نزلت وكيف كانت؟ واستقر في الكوفة. وكان لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب فنظر إليها. أما كتابه في التفسير فيتقيه المفسرون. توفي سنة ١٠٤هـ/٧٢٢م (الأعلام للزركلي، ٢٧٨/٥).

[4] جامع البيان للطبري، ٢٩١/٣.

[5] ر: مشددة.

[6] ش – المكان، صح هـ.

[7] الآية ١٤٤ من هذه السورة.

[8] ك: أن يقاتلهم.

فلزم أن نقاتلهم على إخراجهم لنا إن عصوا وعلى فتنتهم التي هي فتنتهم التي هي أشد من القتل. لكن إذا ظفرنا بهم ههنا لا نقتلهم، إذ نحن لم نقاتلهم هنا على قتال بل على إخراج.

واعلم أن لفظ "الفتنة" أصله إدخال الذهب في النار للتصفية، ثم استُعير لكل اختبار بأمر مُمِضٍّ،[١] أو موقعٍ في محذور آجلا وإن كان مُلتذًا به عاجلا. ولفظ "الفتنة" وهو الامتحان، ولفظ الابتلاء وهو الاختبار يُستعملان في أكثر المواضع بمعنى واحد. غير أن الابتلاء أكثر ما يكون فتنةً بالشر، والفتنةَ أكثر ما تكون ابتلاء بالخير. وكل واحد منهما يُستعمَل في الخير والشر، قال الله تعالى: وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً.[٢] فجمعَ اللفظين والمعنيين، فافهم هذا. وأكثر[٣] ما يأتي الابتلاء بأمور مُضِرَّة بالأجساد، والفتنةُ أكثر ما تأتي بأمور مضرة بالأرواح. قال الله تعالى: وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ،[٤] وقال: إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ.[٥] وفي عبارة الكتاب[٦] ما يُفهم به جلية المقصود. فعرّفنا أننا لا نبدؤهم بالقتال عند المسجد حتى يبدءوا[٧] به عنده فقال: **ولا تقْتلوهم عند المسجد الحرام حتىٰ يقْتلوكم فيه**، الهاء ضمير المكان الذي كنى عنه بلفظة عند. ثم قال: **فإن قتلوكم**، عنده، **فاقتلوهم**، أي فقاتلوا، واقتلوا الأسرى. ولهذا بعده: **كذٰلك جزاء الكٰفرين**.

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٢﴾

فإن انتهوا، أي عن قتالكم عند المسجد الحرام وخرجوا فلا تقتلوهم على ما فعلوه أولا من إخراجكم ومِن فتنتهم لكم. هذا إذا كان ذلك عند المسجد الحرام. فانظر إلى حكمة هذا الكلام، فإن الكفار إذا علموا أنهم إذا خرجوا من المواضع التي أَخرجوا منها المؤمنين لا يَسلَمون من القتل بخروجهم بل لا بد من القتل عصوا[٨] وقالوا: لا نجاة لنا، وإذا كان لا بد للمؤمنين[٩] من قتلنا فلا نخرج بل نقاتل حتى نُقتَل في مواضعنا،

---

[١] مضّ: يدل على ضغط الشيء للشيء (معجم مقاييس اللغة لابن فارس، «مضّ»). يعني: مُؤلِم، معذِّب، مُحرق.

[٢] سورة الأنبياء، ٣٥/٢١.

[٣] ش - وأكثر.

[٤] الآية ١٥٥ من هذه السورة.

[٥] ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ (سورة الأعراف، ١٥٥/٧).

[٦] ر ك: والكتاب.

[٧] ش: حتى نبدؤهم؛ ر ك: حتى يبدؤهم.

[٨] هذا جواب " إذا علموا أنهم".

[٩] ر: لا بد من المؤمنين.

فتقوى شوكتُهم وبأسهم حين استقتلوا. وإذا علموا أنهم إذا خرجوا بغير قتال فلا بأس عليهم ولا يؤاخذون بما فعلوا أولًا أُحجموا عن القتال، وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ،[1] وخرج الكفار بالإذلال. وقوله تعالى: فإن الله غفور رحيم، أي عما بدأ من الكفار أولا بعد ما خرجوا أخيرا وانتهوا عن القتال.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩٣﴾

وقوله: وقٰتلوهم حتىٰ لا تكون فتنة. لمّا قدّم وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ،[2] قال: ههنا ما يحتمل أن يُفهَم منه الأمر للمؤمنين بالقتال عند إخراج الكفار من حيث أخرجوا المؤمنين. ويحتمل أن يفهم منه الأمر بالقتال بعد الإخراج. فحَدّ لنا حدا وهو أن لا نَزالُ نقاتلهم حتى لا تكون منهم فتنة، ويكون الدين لله. وفي الأنفال: وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ.[3] والمعنى أن ما جاء ههنا هو مخصَّص بمشركي مكة. ويدلك[4] ما قبله، وفي الأنفال ورد الأمر عاما. وأما تكرار "وقاتلوهم"، أي وقاتلوهم ابتداءً مرة بعد مرة في غير الأشهر الحُرُم ولا عند المسجد، فهذا معنى تكرار قوله: وقٰتلوهم. ويحتمل أنه لمّا قال أولا: وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ،[5] كرر ذكر القتال لمّا بعُد ليعطف عليه ما يبين به الغرضَ بالقتال. فكأنه قال: وليكن / قتالكم لهم حتى لا تكون فتنة وحتى يكون [٥٠و] الدين لله، أي لا تنتهوا عن قتالهم إلى أن يكون ذلك. لهذا بعده: فإن انتهوا، أي عما قاتلتموهم عليه وأسلموا. وتكرار قوله: فإن انتهوا، فإن معنى الأول قبل القتال، لهذا أتبعه بقوله: فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.[6] ومعنى الثاني ههنا إن انتهوا[7] بالقتال، أي بعد وقوعه. فيكون جميع المفهوم مما[8] تضمنته جملة هذه الآيات بمقدَّره المحذوف ما معناه: وقاتلوا في سبيل الله القومَ الذين يقاتلونكم ليصدوكم عن سبيله، ولا تعتدوا فتقاتلوا في الأشهر الحرم أو عند المسجد الحرام مَن لم يبدأ بقتالكم، أو تقاتلوا في غير سبيله سبحانه. إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ.[9] وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ، ولا تأسروهم،

---

١ سورة الأحزاب، ٢٥/٣٣.

٢ الآية ١٩١ من هذه السورة.

٣ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ (سورة الأنفال، ٣٩/٨).

٤ ر ك + على.

٥ الآية ١٩٠ من هذه السورة.

٦ الآية ١٩٢ من هذه السورة.

٧ ش – فإن معنى الأول قبل القتال لهذا أتبعه بقوله فإن الله غفور رحيم ومعنى الثاني ههنا إن انتهوا، صح هـ.

٨ ش ك: بما.

٩ الآية ١٩٠ من هذه السورة.

﴿وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡ﴾،[1] إن كان قتالكم لهم على الإخراج لا على[2] الدين كما لو كانوا مسلمين. والفتنة التي فعلوها معكم هي أشد من القتل الذي تتوقعونه[3] عند إخراجكم لهم إن أبوا. ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِ﴾ أولا. ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ﴾، في أي مكان كان عند المسجد ﴿فَٱقۡتُلُوهُمۡ﴾، إذا ظفرتم بهم، ﴿كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.[4] ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾، عن قتالكم الذي هو لأجل أن يصدوكم عن سبيل الله وعن قتالكم على الإخراج لهم من حيث أخرجوكم وخرجوا بغير قتال ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾،[5] عما مضى منهم مع كفرهم. فإن لم ينتهوا فقد أبَحْنا دماءَهم فابدءوهم بالقتال في غير الأشهر الحرم ولا عند المسجد. وليكنّ قتالكم لهم دائما إلى أن ﴿لَا تَكُونَ﴾ منهم[6] ﴿فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾.[7] ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾، عن الفتنة بالهُدْنَة[8] أو عن دينهم فأسلموا، متى كان الانتهاء، ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، منهم الذين لم ينتهوا.

[رد القول بالنسخ في القرآن]

فانظر أنت يا ذا النظر الصحيح! أفي هذا الكلام شيء ينقض شيئا، أم فيه تكرار إلا لزيادة معنى يجب ذلك التكرارُ ليَظهر المعنى، أم ما أثبتُّه لك غير مضمون لفظ الكتاب. وإذا طابق المعنى للفظ وصح في العقل وشهد له الكتاب بمثله في بقية المواضع ولم يبق إشكال فلا حاجة لنا إلى أن ننسخ بعض الكتاب ببعض. وكله ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾.[9] والمحكم عبارة عما لا خلل فيه بوجه. والعقول الصحيحة تشهد أن كثيرا من الناسخ والمنسوخ نزل جملة، ونقلُ من ظن المنسوخ ومن أثبت عنه يشهد بذلك. وربما كانت الآية المنسوخة بعد الآية الناسخة تارة. والخُلْفُ كثير من أقوامٍ سادةٍ لأمثالهم. وما ذلك إلا لاختلاف نظر المجتهدين. ومن أمعن[10] النظرَ وكان أهلا لذلك الحق مَهدِيًّا إليه وَجَد كل أمر تاما محكما قائما أبدا بحكمة إلٰهية بيّنًا في صدور الذين أوتوا العلمَ. والحمد لله والصلاة على رسول الله، والسلام.

---

[1] الآية ١٩١ من هذه السورة.

[2] ر - على.

[3] ر: توقعونه.

[4] الآية ١٩١ من هذه السورة.

[5] من الآية السابقة.

[6] ر - منهم، صح هـ.

[7] ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ (سورة الأنفال، ٣٩/٨).

[8] الهُدْنَة: المصالحة بعْدَ الحَرْبِ والمُوادَعَةُ بين المسلمين والكفار، وبين كل مُتحاربين. وأصل الهدنة السكون بعد الهَيْج (تاج العروس للزبيدي، «هدن»).

[9] ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (سورة هود، ١/١١).

[10] ش: أنعم.

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾

قوله تعالى: **الشهر الحرام بالشهر الحرام**، قيل: الباء للظرفية. والمعنى معطوف على ما تقدم، فهذا الكلام تمام لذلك. فهو أمر لنا بأن يكون فعلُنا بالكفار إذا بدءونا بالقتال في الشهر الحرام أو عند المسجد الحرام كفعلهم بنا في الزمان والمكان قصاصا، بدليل قوله أولا: قِتَالٖ فِيهِۖ.[1] **والحرمٰت قصاص**. والحرمٰت، جمع حرمة، فكأنه قال: والحرمات كلها أيَّ حرمة كانت: حرمة شهر حرمةِ مكان متى استحلوا لكم حرمة فلكم أن تستحلوا لهم حرمة مثلَها، فذلك قصاص. ثم أوضح ذلك وبيّنه فقال: **فمن اعتدىٰ عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدىٰ عليكم**، والباء في "بمثل" تدل على الظرفية في الزمان أو المكان أو فيهما. فافهم هذه الباء التي قيل: إنها زائدة، ما أحْسَنَ هذه الزيادةَ! وهذه الباء كقوله: **بالشهر الحرام**. وقد قيل: هي في الموضعين باء العوض، كما تقول: أعطني هذا بهذا، وهو جيد. ثم لمّا كان ههنا ما يُحَذَّر وهو أننا ربما اعتدينا فقاتلنا بالشهر الحرام، أو عند المسجد الحرام من لم يبدأ بقتالنا قال أولا: وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ.[2] وقال ههنا: **واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين**، ومن كان الله معه فهو المنصور. والمراد أن المؤمن لا ينال النصر باطنا على الشيطان، أو ظاهرا على نوع الإنسان إلا بالتقوى.

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾

وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا، أنفسكم،[3] **بأيديكم إلى التهلكة**، فهذا هو[4] معنى باءِ[5] "بأيديكم"، ولو حذف الباء لكان الملقي هو اليد، بل هو كما يقال: فلان أهلك نفسه بيده. ومثله قوله تعالى: ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ.[6] والمعنى المشار إليه هو إهلاك
[٥٠ظ] المال جملةً الذي ربما تبعه / هلاك النفس. فكأنه قال: ولا تلقوا جملة أموالكم بأيديكم إلى التهلكة. ودليله قوله تعالى: وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ.[7] ولهذا بينه ههنا بقوله: **وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**.

---

١ الآية ٢١٧ من هذه السورة.
٢ الآية ١٩٠ من هذه السورة.
٣ ر – أنفسكم، صح هـ.
٤ ش ك – هو.
٥ ش ك – باء.
٦ سورة الحج، ١٠/٢٢.
٧ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ (سورة الفرقان، ٦٧/٢٥).

﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١٩٦﴾

ولما ذكر المسجد فأمرَنا بقتال مَن يقاتلنا فيصدّنا عنه أو يُخرجنا[١] منه قال عاطفا: **وأتموا**، مدة، **الحج**، أي بمناسكه وشروطه، **والعمرة**. وقوله: **لله**، هو من قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾.[٢] وكونه لم يقل: حِجٌّ بالبيت[٣] وعمرتُه دل على أن العمرة ليست بفرض، لكن إذا شرع فيها لزم أن يُتمها كما يتم الحج. فههنا في العمرة وجوبُ تمامٍ، ووجوب الحج وجوب ابتداء وتمام. وهو كقوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾.[٤] فأراد ذلك تماما من أول المدة إلى آخرها لئلا يعتقد الإنسان أنه إنما يجب عليه نفسُ الزيادة لا غير، وأنه قبل ذلك وبعده في مدة الطريق والمُقام لا يَلزمه شيء من العبادة. فعرّفنا[٥] سبحانه بما بينه من الأوامر والنواهي أن الواجب إنما هو تمام مدة الحج ومدة العمرة، لأن المعتمِر[٦] في العرف اللغوي هو المقيم بالعمارة. ولمّا كان العرف الشرعي قد استفاض فيه صورة من العبادة وعُرفت فيه باسم مخصوص بها عادت الإشارة بتلك العبارة إلى المعلوم في العرف الشرعي دون اللغوي كما بينا في لفظة الصلاة، وأنها مشتقة من الصلوين.[٧] وكذلك ههنا لمّا استفاض من أن المراد بالعمرة هو أن يَخرج المسلم إلى أدنى الحِلّ ويُحرِمَ ويَدخل إلى مكة ويطوفَ ويسعى كما عمل في التعبد بالحج ويقيم بمكة مدة مّا على تلك الحالة عاد المراد بلفظ العمرة هذه الصورة. ولو لم يكن كذلك لم يحتج إلى قوله: **والعمرةَ**، بل كان يكفي قولُه: **وأتموا الحج**،

---

[١] ر: ويخرجنا.

[٢] سورة آل عمران، ٣/٩٧.

[٣] ش ك: حج البيت.

[٤] الآية ١٨٧ من هذه السورة.

[٥] ش ك - فعرفنا.

[٦] ش ك: لأن المعمر.

[٧] انظر في ذلك تفسيرَ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ الآية ٣ من هذه السورة. | قيل: إنها من الصَّلَوَيْن وهما مُكْتَنِفا ذَنَبِ الفرس وغيره مما يجري مجرى ذلك، وهو رأي أبي علي؛ قال: واشتقاقه منه أن تحريك الصَّلَوَيْن أول ما يظهر من أفعال الصلاة، فأما الاستفتاح ونحوه من القراءة والقيام فأمرٌ لا يظهر ولا يخص ما ظهر منه الصلاة لكن الركوع أول ما يظهر من أفعال المصلِّي (لسان العرب، «صلا»؛ وتاج العروس للزبيدي، «صلو»).

لأن الحاجّ[1] لا بد أن يقيم بالعمارة مدة مّا. وقد قال: فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ، ثم قال: أَوِ ٱعْتَمَرَ،[2] وتمامُهما هو تمام مناسكهما إلى انقضاء مدتهما. وذلك بالتزام ما وجب من الإحرام وغيره والانتهاء عما يُفسدهما. وإنما قرن العمرة إلى الحج لمماثلة العبادة فيهما بالإحرام والطواف والسعي وغيره. ولا شبهة في أنه تعالى إنما أراد أفعالا مخصوصة يتصل بعضها ببعض لا يتكامل حجه إلا بها وكذلك عمرته.

ولمّا كان الحج عبارة عن أفعال وأقوال في مدة قال: **وأتموا الحج**، فاندرج في ذلك مدةُ الحج ومناسكه وكذلك العمرة. ولا بد من بيان من الرسول صلى الله عليه وسلم فيما نزل عليه مجملا كعدد ركعات الصلاة. فاستفاض في الأمة من السنة تفصيل مجمل الكتاب وبيانُ المراد ببعض ما قد يُشكل من الكلام إذا حملناه على ظاهره المعروف بالعرف اللغوي فقط دون الشرعي كلفظة العمرة. ولهذا قد تكون العمرة في أي شهر كان. ومنه قوله عليه السلام: «عمرة في شهر رمضان تَعدل حِجةً».[3] فأما إذا حل ولبس المَخِيط[4] وهو بمكة فهو معتمِر أيضا، لكن الاعتمار اللغوي لا الشرعي. ومتى كان مُحرِما لزمه تمام ما بدأ به، لأنه متعبّد.

فإن أُحْصِرْتُم، قال بعض أهل اللغة: لا يقال في العدوّ[5] أحصِرتم وإنما يقال حُصرتم، وهو كقوله: حبسه إذا جعله في الحبس، وأحبسه إذا عرّضه للحبس، وقتله إذا أوقع به القتل وأقتله عرّضه للقتل. قال: فإذا كان العدو بعيدا وتوهموا الحصر يكون قد أحصرهم وإن لم يكن قد حصرهم. فيكون المعنى إن خفتم من حصر العدو لكم فحَلَلْتم فعليكم، **ما استيسر من الهدى**. وعلى هذا الخوفُ نَسَق قوله: **فإذا أمِنْتم**، أي من العدو، والكلام معترض بينهما. ويقال أيضا: حُصر من نفسه وغيره وأُحصر من نفسه فقط، كقوله: لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ.[6] ويقال: حُصر إذا حُبس في مكان فمُنع عن كل ما سواه، وأُحصر إذا مُنع عن مكان دون كل ما سواه، وهو المراد ههنا. لأن الكفار إنما كانوا يصدونهم عن المسجد الحرام لا غير. وفرقٌ بين المنع عن مكان بالإحصار وبين المنع عن[7] كل مكان بالحصر.

---

[1] جميع النسخ: الحاجي، والمثبت من م.
[2] الآية ١٥٨ من هذه السورة.
[3] سنن ابن ماجه، المناسك ٤٥؛ وسنن أبي داود، المناسك ٧٩؛ وسنن الترمذي، الحج ٩٥؛ وسنن النسائي، الصيام ٦.
[4] الثوب المخيط، أي المخيوط، والمقصود هنا الإحرام.
[5] جميع النسخ: العدد، والمثبت من م.
[6] الآية ٢٧٣ من هذه السورة.
[7] ش – مكان بالإحصار وبين المنع عن، صح هـ.

ويجوز استعمال أحدهما موضعَ الآخر إذا لم يشتبه المقصود. فقوله: **فإن أحصرتم**، تقديره فحللتم فعليكم هدي وإلا فلا. وهو كقوله: فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ، تقديره فأفطر، فَعِدَّةٌ.[١] وقوله: **فإن أحصرتم**، مخصوص بالعدوان / بدليل أن الآيات [٥١و] المتقدمة في القتال فهذا خاصّه.[٢] وأما العامّ فكل ما أُحصر كمرض أو غيره، فجاء على ما لم يُسمَّ فاعله ليعمَّ. لأنه لما قال: **وأتموا**، جاز أن يُفهَم أنه لا سبيل إلى الإحلال دون التمام أتى الدهرُ بما أتى. فبين أن الإتمام إنما يجب مع التمكين ليزول العسرُ وليُعلَم أن الله تعالى يريد بنا اليسرَ. وجعل قبالة الفائت[٣] ما استيسر فهو أيضا من تمام اليسر. فقال: **فما**، بمعنى فمهما، **استَيْسر**، فهو أيسرَ اليسر. فانظر إلى هذا التخيير والتيسير، **من الهَدْي**، وأصله من أهدى يهدي إهداء، والاسم هَدِيّ بفتح الهاء وكسر الدال. وهو مذكر هديّة مثلَ صبي وصبية. وإذا خففت فمثل ظَبْي وظَبْيَة. فهدْي مخففً الدال اسم الصفة ومثقّلها اسم المهدي. **ولا تحلقوا رءوسكم**، مدة الإحرام، **حتىٰ يبلغ الهدى مَحِلّه**، حيث يحل ذبحُ الهدي، وهو مشهور في السنة.

فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه، تقديره فحَلَقَ، **ففدية**، أي فعليه فدية، **من صيام أو صدقة أو نُسُك**، كلٌّ بحسب استطاعته. لأنه لما لم يعينه علمْنا أنه مبني على ما استيسر أيضا. ولا خلاف في العقل أن الفدية إنما هي لما وقعت الرخصة بفعله. **فإذا أمنتم**، من العدو بعد الإحصار، إذ لا بد من تعليقه بما تقدم ويتناول زوالَ كل خوف من مرض أو عدو وغيره. ولما كان المحصَر قد ترك في الحج ما به يكون التمام كالحلق، أو ترك الإحرام ولكن بغير اختيار منه بيّن حكمَ من حَلّ باختياره، ولكن قيّده بأن لا يكون إلا في العمرة. فقال: **فمن تمتع بالعمرة**، والتمتع يُطلَق على كل ما يُتمتَّع به من النساء وغير ذلك. وقوله: **بالعمرة**، يريد بمدة العمرة، **إلى الحج**، أي إلى حين أن يُحرِم بالحج. وبيان ذلك أن الداخل إلى مكة متعبّدا إما أن يُحرم بحِجّة فلا يجوز له أن يَحل اختيارا إلى بعد انقضاء الحج، فإن أُحصر حل، وعليه هدْيٌ. فإذا لزمه عقدُ الإحرام إلى تمام الحج فهذا حكمُ الداخل إلى مكة إذا أحرم بحجة. فإن أحرم بعمرة دون حجة فلا يخلو إما أنه يتم في عمرته إلى زمن الحج، وإما أن يَحلّ في العمرة ويَتمتع إلى زمن الحج. فهذا المتمتّع

[١] الآية ١٨٤ من هذه السورة.
[٢] ش: فهذا خاصة.
[٣] ش: الغاية.

إنما تَمتع في مدة هي مدة العمرة التي فرضِ الله تمامها كما فرض تمامَ مدة الحج. فلهذا قال: **فمن تمتع بالعمرة**، ولايوهَمنّك قوله: **بالعمرة**، فالمراد بمدة العمرة كما بينا. ولهذا لمّا أَشكل ذلك فسره بعضهم بالقرآن، وقال: يَلزمه الهديُ قبالةَ إسقاطِ أحد السفرين وبجمعه[1] بين الإحرامين، واستدل بقوله تعالى: **ذٰلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام**. لأن الذي أهله حاضري المسجد لا يحتاج إلى إقران بل له أن يعتمر متى شاء، ويَحلَّ، ولا فدية عليه. ومن تأمل وجد ما بيناه أوّلا هو[2] مراد الآية. وأما ما عدا مراد الآية فهو مأخوذ من السنة إذا كان متَّفقا عليه. وأما ما وقع فيه الاختلاف فمن اجتهاد المجتهدين رحمهم الله تعالى، سواء كان اجتهادهم في فهم الكتاب أو في فهم السنة. فقد بان معنى قوله تعالى: **فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهَدْيِ**.

فمن لم يجد، يدل على أنه لو بدأ بالصوم فوجد لزمه الهدي، والمراد ومن لم يجد لفقره. وقوله: **فمن لم يجد**، هو كلام على هذا في التمتع وعلى مَن قبله في الإحصار. فقال عن الموضعين كلٍّ بمفرده: **فصيام ثلٰثة أيام فى الحج**، يلزم أن يكون قبل يوم[3] عرفة أو آخرُها يومُ عرفةَ، **وسبعةٍ إذا رجعتم**، سواء كان في الطريق أو في مصر من الأمصار. وقوله: **تلك عشرة كاملة**، لو لم يقل: **كاملة**، لكان المرادُ بيانَ أن السبعة والثلاثة عشرة، إذ العشرة مع كونها عشرة لا تكون ناقصة في العدد وهي عشرة. فلما قال: **كاملةٌ**، بيّن أنها كاملة في الأجر، فهي قبالة الهدي الذي هو قبالة تتمةِ العمرة. وأيضا إنه قد كان يُتوهم أن السبعة لكونها بعد الحج لا يكون أجرها كأجر الثلاثة لكون[4] الثلاثة في ذلك الموضع الشريف وفي تلك الأيام المخصّصة. فعرفنا بقوله: **كاملة**، أن الأيام كلها من العشرة، ليس بعضها أنقصَ من بعض. ولا يكون ذلك الكمال إلا في الأجر. ولهذا كان الوصف لها بقوله: **تلك**، ولم يقل:[5] فعليكم عشرة كاملة. وقد كان يجوز أن يقدَّر أن البركة لا تلحق بالمبْدَل في الثواب، فبين الله تعالى أنه في الثواب بمنزلته لو فعله، ليكون الفاقد / للهدي [٥١ظ] المحتمِلُ للصوم ساكنَ النفس إلى ما له من كمال الأجر إذا لم يَقدر على سواه.

---

[1] ر: ولجمعه.
[2] ر ك: وهو.
[3] ز - يوم.
[4] ش: بكون.
[5] ر: فلم يقل.

فذكرُ العشرة إنما هو لصحة التوصل إلى معنى "كاملة" في كلا الصومين، لأنه لو قال: تلك كاملة جاز أن يراد بها الثلاثة لكونها في الحج. ولو لم يقل: كاملة، لكان المراد بيان العدد. فلا بد في هذا البيان من ذكر العشرة. وقال أبو مسلم:[١] لو قال أولا: "فصيام عشرةِ أيامٍ كاملة، ثلاثة في الحج وسبعة إذا رجعتم" لكان صحيحا حسنا،[٢] فكذلك إذا أخّر ذكرَه. قلنا: إن حكمة التأخير هي لئلا يعتقد معتقد أنه لو صام العشرة في الحج لكان أفضلَ. فأخّر لنعلم أن الكمال فيما قاله مفصلا فيما نظنه مجملا.

واعلم أن المتمتع هو ضد المحرِم، وأن قوله: **بالعمرة**، الباء فيها للظرفية لا للإلصاق أو غيرِه. ولهذا لم يقل: فمن يتمتع بالعمرة مع الحج بل "إلى"، فافهم، والمراد المدة. لأن الداخل إلى مكة لا بِدَاخلٍ إليها متعبدا إلا وهو محرم إما بحِجّة أو بعمرة أو مُقرِنا. فجملة مدة الإحرام بالحج يقال له حج، وجملة مدة الإحرام بالعمرة يقال له عمرة. ومدة الحج لا يجوز أن يُحِلّ العقدَ فيها إلا محصَر غير مختار. ومدة الإحرام بالعمرة يجوز الحَلُّ فيها مع الاختيار. ولهذا قال: **ذٰلك لمن**، ولم يقل: ذلك على من، **لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام**، لئلا تَظُنَّ[٣] أن ذلك إشارة إلى الصوم. فلهذا قال: **لمن**، فافهمها. فلزم أن يكون التمتع لمن لم يكن أهله حاضري المسجد، أعني سكان مكة، لأن الحاضر ضد الغائب. والعرب تسمي أهلَ[٤] القرى حاضرة وحاضرين، وأهلَ الوبر بادية وبادِين. ومشهورٌ كلام الناس: أهل البَدْو والحَضَر، يراد بهم أهل الوبر والمدر. فقد علمت أن أهل مكة لهم أن يعتمروا متى شاءوا ويُحلوا. وما عليهم من أجلِ الحل من العمرة هديٌ. وذلك أنهم خرجوا من مكة ثم أحرموا وغيرهم لم يدخل إلا[٥] محرِما؛ ولأنهم -أعني أهل مكة- لا يمكنهم أن يقيموا دائما محرمين فلا بد من الحل. ولهم دائما أن يعتمروا، وغيرهم ليس له تلك المدةُ، وهي من حين دخوله إلى انقضاء الحج. ولو كُلِّف أهل مكةَ الهديَ على التمتع بالعمرة لكان ذلك داعيا لهم إلى ترك العمرة لأنها ليست بفرض. فافهم هذه الجملة متأنيا. **واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب.**

---

[١] أبو مسلم، هو محمد بن بحر الإصفهاني، سبقت ترجمته.

[٢] انظر نحوه في معالم التنزيل للبغوي، ٢٢٤/١.

[٣] ش ك: لئلا يظن.

[٤] ر - أهل.

[٥] ر - إلا.

﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾

الحج، تقديره أشهر الحج، **أشهر معلومٰت**. المراد الشهر المعلوم من كل سنة وسنة فتعود الجملة أشهرا. ويُحتمل أن المعلوماتِ أراد بها أنها معلومات عند كل مَن أراد الحجَّ من كل بلد بحسبه. وإنما قال: أشهر، مع جواز أن تكون أياما إشارةً إلى الأكثر في أكثر الأمر، أي إنه لو كان أشهرا لوجب على الحاج[1] في مدة الحج ما أمره الله بقوله: **فمن فرض فيهن الحج**، ومعنى "فرض" المراد به الإحرام وإلا فهو سَفَر. ومن الناس من يسلك في جملة المدة من حين خروجه من منزله ذلك المسلكَ تطوعا، وهو قوله: **فلا رفث**، وهو الكلام الذي يتقدم على الجماع، ويكنى به عنه أيضا، **ولا فسوق**، وهو المنابزة بالألقاب، لقوله تعالى: وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ، ثم قال: بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ.[2] ولهذا بدأ بالرفث وهو كلام، ثم قال أخيرا: **ولا جدٰل فى الحج**، فهذه الأوصاف وما يناسبها نهى الله عنها. ومتى لزم امتثالُ الأمر في الأشهر فهو في الأيام لازم. وقد علمت أن الحاجَّ له أن يُحرِم من منزله حيث كان فيلزمَه التمام. وليس المراد اجتناب عينِ ما ذكره أو امتثالَ عين ما أمره فقط بل هو مثال. لهذا قال: **وما تفعلوا من خير يَعْلَمْه الله**. ولما كان الحج خروجا عن الأوطان والأهل وغير ذلك وهو سفر بعيد في أكثر الأمر ووجب أن نتزود له على قدر المسافة قال: **وتزودوا**. ثم عرَّفنا الله أن هذا السفر تذكرة للسفر الأطول، فكأنه قال: وتزودوا إلى البيت وتزودوا إلى رب البيت بقدر سفركم أيضا. والمعنى وتزودوا خير الزاد، لهذا قال بالفاء: **فإن خير الزاد التقوىٰ**، لأن الحج تجريدٌ خفي وموت مخصوص وحشر وغير ذلك. هذا مبني على قوله تعالى: وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ.[3] فمن استصحب التقوى رزقه الله ماء وزادا في بَرّ عَدَمٍ من حيث لا يحتسب. فافقه ما أحسن هذا في الدنيا، وتأنَّ في فهمه / متأملا لتعلم أنه خير الزاد، فهذا هو المراد.[4] ثم قال: **واتقون يٰأولى الألبٰب**، أي في كل آن وعلى كل حال. ولهذا خاطبهم دون غيرهم. [٥٢و]

---

[1] جميع النسخ: الحاجي، والمثبت من م.

[2] سورة الحجرات، ٤٩/١١.

[3] سورة الطلاق، ٦٥/٢-٣.

[4] ر – هذا مبني على قوله تعالى... أنه خير الزاد، فهذا هو المراد، صح هـ.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ١٩٨﴾

فقال: ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم، أي أن تطلبوا على عرفات من فضل الله ما شئتم. لهذا تلاه بقوله: فإذا أفضتم من عرفت. أفضتم، من الفيض، تقول: فاض الإناء إذا تبدد لكثرة ما فيه عليه. فاذكروا الله عند المشعر الحرام. وقوله مكررا: واذكروه، أي عند كل مَشعر ومهما أمكن، وهو في مِنى مُخصَّص مع الإطلاق، كما هدىٰكم، إلى ذكره في المشاعر، وهو مطلق أيضا. وإن كنتم من قبله، قبل الهُدَى، لَمِن الضالين.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٩٩﴾

ثم أفيضوا، الإفاضة الثانية من المشعر الحرام ومن غيره، من حيث أفاض الناس. واستغفروا الله إن الله غفور رحيم. فعرّفنا ما أمرَنا به من تكرار الذكر والاستغفار.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ٢٠٠﴾

ثم قال: فإذا قضيتم منٰسككم، النسيكة سبيكة الذهب، كأن العابد سبك نفسَه بالعبادة فخلّصها من دنس الآثام بما فعل. قوله:[١] منٰسككم، أي كلّها. فاذكروا الله، وهو مخصَّص بطواف الإفاضة بعد الإطلاق. فانظر كيف أمرنا بالذكر دائما وبالاستغفار عند كل حركة وسكنة وإفاضة من محلِّ عبادة ومِن قبل ومن بعدُ. فلزم أن يكون الذكر في محل العبادة أعظم. وقوله: كذكركم ءاباءَكم، أشار إلى ذكر الولد للوالد عند استغاثته إليه لِيُنقذه من شدة، أو أشدّ ذِكْرا، وأما أقل من ذلك فلا. ولو قال: وأشدَّ لبقي ذلك فرضا. فليست "أو" هٰهنا بمعنى الواو بل على حالها. وقد علمت أن الأب نذكره عند الاستغاثة به في أمور الدنيا، والله تعالى نذكره في أمور الدنيا والآخرة عند الخوف والرَّجاء. ولهذا أتبعه بقوله: فمن الناس من يقول ربنا ءاتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلٰق، نصيب.

---

[١] رك: وقوله.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١﴾

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٢٠٢﴾

ولمّا ذكر الخَلَاق أولا وهو النصيب قال ههنا: **أولٰئك لهم نصيب مما**، أي من جنس ما، **كسبوا**، ولهذا تسمى مثلُ هذه لتبيين الجنس، ولا تدل ههنا على التبعيض بل بمعنى الذي. **والله سريع الحساب**.

﴿۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٢٠٣﴾

واذكروا الله فى أيام معدودٰت، وهي أيام التشريق ورميِ الجمار في مِنًى ثلاثةَ أيام. **فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه**، لكونه تَعجّل السفر، **ومن تأخر**، عن الأيام المعدودات، لكن اشتغل عن الذكر بتجارة أو غيرها، **فلا إثم عليه لمن اتقىٰ**، ما يُفسد حجَّه لئلا يعصي الله في موضع طاعته له. ثم عطف على قوله: **واذكروا الله**، فقال: **واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون**.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤﴾

ومن الناس من يعجبك قوله فى الحيوٰة الدنيا، أي فيما يتعلق بالدنيا، **ويشهد الله علىٰ ما فى قلبه**. وذلك كما يدّعي المنافق الإيمانَ باللسان، ويُشهد الله مقسِما للمؤمن أن قلبه كذلك، **وهو ألدّ الخصام**، الألد هو الذي يُلزم غيره في الخصام بما لا يُلزَم قهرا له بشدة منه لا تندفع. والخصام الخصومة، فهو أشد المخاصمين في الخصام بالباطل.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾

وإذا تولىٰ، عنك بعد تلك الدعوى، **سعىٰ فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد**، ومن ههنا تعلم[١] أن الله تعالى لا يقضي بما لا يحبه.

---

١ ر: نعلم.

وكيف يُجير[١] الذي تولى ليفسد على فساده، وهو لا يحبه منه[٢] ولا من غيره[٣] بل يعيبه به.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝٢٠٦﴾

وإذا قيل له اتق الله، قيل لسفيان: اتق الله فتمعّك[٤] في التراب، وقال: لا إله إلا الله. وقيل ذلك لعمرَ فسجد وقال: هذا مَقْدِرَتي.[٥] وذلك إنباءٌ عن التواضع الذي ضدُّه قولُه[٦] المذكور ههنا. **أخذته العزة بالإثم**، الذي في قلبه، يقول: "لمثلي[٧] يقال: اتق الله!". **فحسبه جهنم ولبئس المهاد**.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ۝٢٠٧﴾

ومن الناس من يشرى، يبيع، **نفسَه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد**.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝٢٠٨ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٠٩﴾

يٰأيها الذين ءامنوا ادخلوا فى السلم، أي المسالمةِ مع بعضكم بعضا ومع الله سبحانه. وقوله: **كافة**، أي كلُّكم جميعا في السلم كلِّه -ولهذا أخَر- / جميعا. ثم بين [٥٢ظ] ضد ذلك فنهى عنه بقوله: **ولا تتبعوا خطوٰت الشيطٰن**، اسم الجنس ويكون من الجن والإنس. **إنه لكم عدو مبين**.

فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينٰت فاعلموا أن الله عزيز حكيم، فلا تُعجزه مجازاتُكم على أفعالكم.

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝٢١٠﴾

---

[١] ش ك: يجبر.

[٢] ش ك – منه.

[٣] أي لا يحب الله المفسد بسبب إفساده وبسبب غيره من أفعاله القبيحة.

[٤] تَمَعَّكَ: تَمَرَّغَ في التُّرابِ وتَقَلَّبَ فيه (تاج العروس للزبيدي، «معك»).

[٥] البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ١٢٦/٢.

[٦] ش ك – قوله.

[٧] ك: بقول.

ثم أخبر عمن زلّ فقال: هل ينظرون، ينتظرون، إلا أن يأتيهم الله، بعذابه، فى ظلل من الغمام والملٰئكةُ، بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ.[1] وقضى الأمر، بإهلاكهم في الدنيا. وإلى الله ترجع الأمور، فيعذبهم في الأخرى. والظلل جمع ظُلَّة كحُلَل وحُلَّة. وهو ما يُظِل من الغمام. والمراد بالجمع أنها ظلة فوق ظلة فيقتضي ذلك ظلماتٍ بعضُها فوق بعض.

﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾

ولما ذكر صفة اليهود بهذه الآيات المتقدمة خصصهم ههنا ليكون ما تقدم من إطلاق اللفظ الدال على أمثالهم مخصِّصا لهم فقال: سل بنى إسرٰءيل كم ءاتينٰهم من ءاية بينة، أي فكفروا بها. وهذا كما إذا أردت أن توبّخ الرجل وتَفْضَحه فتقول لصاحبه: سَلْه كم نصحته، ثم تَصمُت، أي فما قَبِل،[2] وكم آتيته من نعمة، أي فضيَّعها. ومن يبدل نعمة الله، كفرًا، من بعد ما جاءته، الإشارة إلى القرآن، أي من يبدِّلها كما بدل بنو إسرائيل، فإن الله شديد العقاب، أي فيعاقبه كما عاقبهم.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾

ومن أبلغ العقاب قوله: زين للذين كفروا الحيوٰة الدنيا، بكفرهم. ويسخرون، أي وزين لهم أنهم يسخرون، من الذين ءامنوا، بمحمّد صلى الله عليه وسلم. والقول مطلق لكل من آمن بنبيه. والذين اتقوا فوقهم، منزلةً، يوم القيٰمة، وإن كان الذين كفروا فوقهم في الدنيا بما رُزقوا فيها مما يفنى. والله يرزق من يشاء، مما يبقى، بغير حساب. ولم يذكر [شيئا] مما يبقى ليكون القول عاما.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾

---

[1] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٩٣).

[2] ش ك: فما قيل.

كان الناس أمة وٰحدة، إشارة إلى الناس كلهم لا كما قيل: بل كان الناس قبل إرسال النبيين مثلَ أمة واحدة. تقديره: فاختلفوا على قدر عقولهم، واختلافُها لقوله: وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟.[١] فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل، معهم الكتٰب، اسم الجنس لقوله: معهم، بالحق، أي بالحق الذي يبيّن ما خالف بعضُهم لبعض فيه. وفَعَلَ سبحانه ذلك، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، من قبل[٢] إنزال ذلك الكتاب في كل زمن. سواء كان الاختلاف منهم في الكتاب المنزل أو في غيره. فالمفهوم أن الكتاب هو الحَكم المبيّن للاختلاف، ولا يبيّن وهو غيرُ بيّنٍ مفهومٍ. فيجب على الخصم أولا فهمُه، ثم بعد ذلك الفهمُ المتَّفق عليه يَرجعون إليه فيزول الاختلاف. ومتى درستْ تلك الرسوم نقضت تلك العهودُ ووقع الاختلاف أرسل الله رسولا آخر كما أرسل الذي قبله يجدّد ما خَلُق،[٣] ويُثبت ما مُحِيَ، ويصدِّق ما كُذِّب، ويأتي بما جاء به من قبله، ويزيد عليه إلى أن تم الأمر، وظهر الحق الأتم، وقامت الحجة البالغة بهذا النبي العربي صلى الله عليه وسلم، فكان خاتمَ النبيين.[٤] إذ لو فرضنا جوازَ أن يأتي[٥] [نبي] بعده فلا يخلو إما أن يأتي بمثل ما أتى هذا به أو بدونه أو بخير منه؛ ولا خير منه[٦] بل ولا مثله، إذ ما جاء به هذا الرسول صلى الله عليه وسلم هو[٧] الأتم والأحسن. فكما أنه لا جائز أن يَكمُل الدين قبل انقطاع النبوة فكذلك لا جائز أن تَنقطع النبوة قبل أن يكمل الدين. فكان هذا النبي العربي صلى الله عليه وسلم آخِرَ الأنبياء، وكان ما جاء به هو عينَ الكمال. وإنما يأتي من يبيّن ما خفي من هذا القرآن ويُظهر ما استتر ويُزيل الخلفَ.[٨] ولا يخلو كلُّ زمن ممن يقوم بذلك. وقد يظهر في بعض الأزمنة لبعض الناس بحسب استحقاق أهل ذلك العصر، وقد يظهر لكثير. وعلامته أن يكون قيما بكتاب الله علما وعملا، فهو المهدي إلى صراط مستقيم بالكتاب على بصيرة. فاعلم ذلك.

وقوله:[٩] وما اختلف فيه، أي في الكتاب المنزَّل، ويريد به ههنا التوارة والإنجيل،[١٠] إلا الذين أوتوه، وهم اليهود والنصارى، من بعد ما جاءتهم البينٰت، بمحمد صلى الله عليه وسلم

---

[١] سورة يونس، ١٠/١٩.

[٢] ش ك – قبل.

[٣] أي بلي.

[٤] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٤٠).

[٥] ر: جوازات تأتي.

[٦] ش ك – ولا خير منه.

[٧] ش: وهو.

[٨] ر ك + به.

[٩] ك – وقوله، صح هـ.

[١٠] ش ك – والإنجيل.

بدليل ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾.[1] وأما من قبل فكانوا متفقين على انتظاره والإيمان به من التوراة. ثم إنهم اختلفوا بعد مجيء البينات التي وُعدوا بها. وكان الاختلاف منهم، بغيا بينهم. فهدى الله الذين ءامنوا، بمحمد صلى الله عليه وسلم وما أُنزل
[٥٣و] عليه[2] لما، للذي، اختلفوا فيه من الحق، أي لِما اختلف أولئك فيه / وهم الذين أوتوه ولم يؤمنوا. وقوله: فيه، يشير إلى النبي والكتاب. وقوله: بإذنه، أي اختلفوا بإذنه، أي بعلمه إشارة إلى أنه لم يكن مقهورا سبحانه. فإذنه لهم في الاختلاف عقابٌ، والإذن هو الإطلاق، وقد بيناه. وإنما عاقبهم[3] لكونه هداهم فلم يهتدوا، يدلك قوله: وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم. فهم اختلفوا بعد الهُدى. فهَدى الله الذين ءامنوا لما اختلفوا فيه، أولئك، وأضل أولئك بعد أن هداهم فاختلفوا، ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾.[4] فافهم هكذا في موضعه. والله يهدى من يشاء، ممن ضل واستحق العقابَ بسدِّ الباب، وهذا فتحٌ لباب الرجاء لئلا يقع اليأس، بل يَطمع كلٌّ بعد الضلال من نفسه بالهدى من ربه، إلىٰ صرٰط مستقيم.

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾

ثم خاطب المؤمنين الذين هداهم بما يزيدهم هدًى وعلّمهم الصبر، فقال مخبرا لهم عن رتبة الامتحان التي لا بد منها: أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما، وهي مؤكدة "لم" المخففة، يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم، من المؤمنين برسلهم. مسّتهم البأساء والضراء وزلزلوا حتىٰ يقول الرسول، الذي جاء في كل زمن لقوم، والذين ءامنوا معه متىٰ نصر الله ألا إن نصر الله قريب.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥﴾

---

[1] الآية ٨٩ من هذه السورة.
[2] ش ك: إليه.
[3] ر: وإنما عاقبناهم.
[4] سورة التوبة، ١١٥/٩.

ولما نبَّهَ على الصبر في الجهاد وغيره نبه على الصدقة فقال: **يسئلونك ماذا ينفقون.** ذكر السّدّيّ[1] أن هذه الآية منسوخة.[2] وقال الحسن: ليست منسوخة،[3] لأن الأمر بالنفقة من القواعد التي لا يجوز نسخها. ونَسَخها من نسخها بفرض الزكاة. فاعلم أن هذه الآية معطوفة على قوله: وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ،[4] وإن كان[5] قوله فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يريد به الجهاد، لكنه[6] مشتمِل على ذلك وغيره، إذ كل نفقة لوجه الله هي في سبيله ومرضاته. فعرَّف الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن المؤمنين سيسألونه أيَّ شيء[7] ينفقون؟ فقال تعالى: **قل ما**، أي مهما، **أنفقتم من خير**، وتم الكلام، أي كائنا ما كان. ولفظة "الخير" يريد بها كلَّ شيء يُطْلَقُ[8] عليه اسمُ الخير. ثم عرّفنا بعد ذلك أن نبدأ بالأَولى فالأولى على الترتيب المذكور نصا بقوله: **فللوٰلدين والأقربين واليتٰمىٰ والمسٰكين وابن السبيل. وما**، ومهما، **تفعلوا من خير فإن الله به عليم**، يشير إلى فعل الخير بعد هؤلاء المذكورين مطلقا إلى الأجانب وأهلِ الذمة والحيوان.[9] ويحسُن أن يكون فعل الخير بعد هؤلاء المذكورين على ترتيب هؤلاء، أعني في الأولوية، كمن يُنفق صدقتَه فيجب أن يبدأ بأهل بلده، ثم ما يلي بلدَه، ثم القريب إلى ما يليه، ثم الأقرب إلى القريب، ثم البعيد ثم الأبعد. فانظر إلى هذه الآية التي قيل: إنها منسوخة على أي شيء قد احتوت.[10]

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٢١٦﴾

ولما كان[11] أفضلُ النفقة في الجهاد -وقد تقدم قوله:[12] مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ،[13] وتمامه- ذكر النفقة بين ذلك، وعطف في المعنى بذكر الجهاد على ما تقدم مثله قبل ذكر النفقة

---

[1] هو أبو محمد إسماعيل بن عبد الرحمن السدي، تابعي، حجازي الأصل، سكن الكوفة. قال فيه ابن تغري بردي: صاحب التفسير والمغازي والسير، وكان إماما عارفا بالوقائع وأيام الناس. توفي سنة ١٢٨هـ/٧٤٦م (الأعلام للزركلي، ٣١٧/١).

[2] انظر: جامع البيان للطبري، ٦٤٢/٣، ٦٤٣؛ وتفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، ٣٨١/١.

[3] زاد المسير لأبي الفرج ابن الجوزي، ٢٣٤/١.

[4] الآية ١٩٥ من هذه السورة.

[5] ش: فإن كان.

[6] ش: ولكنه.

[7] ش ك + الذي.

[8] ر: ينطلق.

[9] ر – مطلقا إلى الأجانب وأهل الذمة والحيوان، صح هـ.

[10] ش – قد احتوت، صح هـ.

[11] ك – كان، صح هـ.

[12] ر – قوله.

[13] الآية ٢١٤ من هذه السورة.

فقال: كتب عليكم، وهو أيضا عطفُ لفظ على مثله ولهذا حذف النداء لتقدمه،[1] القتالُ وهو كره لكم. وعسىٰ أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسىٰ أن تحبوا شيئا وهو شر لكم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢١٧﴾

ثم أتبعه بقوله: يسئلونك، عطفا باللفظ على مثله وبالمعنى على ما تقدم هذه الآية،[2] عن الشهر الحرام قتال فيه. الحرام قتال فيه،[3] تعريف للشهر بوصفه، ولهذا جاءت الجملة مجرورةً بحرف "عن". والمعنى يسألك المؤمنون عن الشهر الذي فيه القتالُ حرامٌ: أَقِتالٌ فيه؟ واستغنى بقوله: يسئلونك، وبالجواب عن إثبات صورة السؤال. وقوله: قل قتال فيه، مبتدأ، كبير، خبره، أي كبير الإثم. لكن الصدّ عن سبيل الله وعن المسجد الحرامِ والكفر بالله وإخراجَ أهل المسجد منه أكبرُ إثما. وأخّر لفظة "المسجد" ليعود الضمير في هاء "أهله" عليه كما قدم ذكر "الله" ليعود الضمير في هاء "به" إليه، فافهمه جيدا. فقال: وصَدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر، إثما من القتال فيه وفي الشهر الحرام، عند الله. وكأنه قال: وقد قلنا لكم. والفتنة أكبر من القتل، وواو "الفتنة" واو الحال، أي هذا الفعل أكبر إثما والحالة هذه، تقديره: فقاتِلوهم في الشهر وعند المسجد. ولا يزالون يقْتلونكم حتىٰ يردوكم عن دينكم إن استطٰعوا، وهذا الفعل منهم مثله، أمرنا الله به بقوله: وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ.[4] ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولٰئك [٥٣ظ] / حبطت أعمٰلهم فى الدنيا والآخرة وأولٰئك أصحٰب النار هم فيها خٰلدون.

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ (الآية ٢٠٨ من هذه السورة).

[2] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ...﴾ (الآية ٢١٥ من هذه السورة).

[3] ر: الحرام فيه..

[4] الآية ١٩٣ من هذه السورة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾

ثم وصف أبلغ الصفات للمؤمنين فقال: إن الذين ءامنوا، أي بالله وكتبه ورسله، والذين هاجروا وجْهدوا فى سبيل الله، أي الشهداء. وهذا ترغيب في الموت في الجهاد دون الارتداد. أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم.

﴿۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢١٩ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۗ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىٰۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعۡنَتَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٢٠﴾

يسئلونك عن الخمر، كلُّ ما خامر العقلَ فغيّره فهو خمر. وإنما لفرط هذه الصفة في المختمِر من ماء العنب جُعلت له صفتُه الإسمَ الأشهر. والميسر، هو القِمار بأي صورة كان. وأصله[1] من ياسر يياسر الذي بوزن فاعل يفاعل وسابق يسابق. وهو في المعنى من اليسر والمساهلة. وميسر مثل مَوعِد ومَوثِق ومَوبِق، فإن ذلك من واثق وواعد، وهي من المفاعلة. والأصل الأول من فعلَ ووعد ووَثِق ويَسُر وياسَر، وإن لم يستعمل مثل وعد وواعد مَوعِدا. وفاء الفعل في الأصل من "ميسر" ياءٌ، وفي الأصل من موعد واوٌ، فجاء ياء على الأصل في ميسر وموعد. ومعناه المساهلة، ياسره ساهله. ولما كان كلُّ واحد من المُقامِرين يساهل خصْمَه فيما معه، ولا مساهلة أعظمَ من أن الإنسان يَسهُل عليه أن يَبذل الجملةَ من ماله التي لعله اكتسبها في مدة عمره، فيرى تركَها في بعض[2] ساعةٍ رجاءَ أن يأخذ مثلَها معها مع علمه التساوي في الإمكان من جهة الرِّبح والغَرامة. فيحتمل أن القِمار سمّي بهذا الإسم لعودته في الأصل إلى هذا المعنى. والله أعلم بكلامه. والميسر، في اللغة عبارةٌ عن التجزئية. وكل ما جزّأته[3] يَسّرتَه. ويقال للجزار: ياسر، لأنه يُجزِّئ الجزور[4] فيسهّل على كل أحد منه نصيبَه.

[1] ش ك - وأصله.
[2] ش - بعض.
[3] ش: جزيته.
[4] الجزور: البعير، أو خاص بالناقة المجزورة (تاج العروس للزبيدي، «جزر»).

والميسر، عند العرب أيضا هو الجزور نفسه إذا جُزِّئ. وكانوا يُجزِّءون[1] جَزورا ويجعلونه أقساما يتقامرون عليه بالقداح على عادة لهم في ذلك. فسمي على هذا سائرُ أنواع القِمار ميسرا، فافهمه.

قل فيهما إثم كبير ومنٰفع للناس. أما الخمرة ففيها منافعُ جَمَّةٌ يَعلم ذلك الأطباءُ والمجرِّبون. ولا يجوز أن نردَّ كلامَ الله تعالى فنقولَ:[2] ليس فيها منافع إلا ثمنُها. فذلك ليس فيها بل في ثمنها وغيرها مما له ثمن كذلك أيضا، فلا فائدةَ خصوصا وثمنها حرام. ولا يجوز للمؤمن أن يَنتفع بالحرام إلا إذا أباحه الله تعالى ذلك كأكل الميتة، وإذا أباحه لم يَبْقَ فيه إثْمٌ. وأما الميسر فمنفعته ظاهرة. وجُمع "منافع" لإضافة الخمر ذي المنافع إلى الميسر ذي المنفعة، وكلاهما حرام نصا. ومن الناس مَن[3] لم يحقِّق تحريمَ الخمر من صريح نص القرآن. وإنها الحرام بصريحه،[4] وذلك أن قوله: **فيهما إثم**، يعطي أن في كل منهما الإثمَ. والإثم حرام لقوله تعالى: **إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ.**[5] فعدّ الإثم من جملة المحرَّمات بأي صورة كان الإثم فليكن، فصح ما قدمناه. **وإثمهما أكبر من نفعهما.**

ويسئلونك ماذا ينفقون. [الآية] الأولى سؤال عن الجنس، فقال لهم: ما، بمعنى مهما **أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ**[6] كان ما كان. وهذه سؤال عن المقدار، فقال: **قل العفوَ.** ولذلك[7] أتبعه بقوله: **كذٰلك يبين الله لكم الآيٰت،** لأنه بين في هذه. والعفو، هو ما فَضُل، وقيل: هو العفو عن الذنب. ولا شك أن العفو عن المذنِب فضلٌ من العافِي[8] لا عدلٌ، إذ العدل هو من معادلة الشيء بمثله. وعفو المال هو ما فضل عن الحاجة. ومنه قوله تعالى: **حَتَّىٰ عَفَوا**[9] أي زادوا. والزيادة فُضلة عن الحاجة، إذ ما يصرِّفه الإنسان على نفسه هو عديل حاجته[10] إذا لم يُسرف. ومن هذا الأصل قوله تعالى: **قل العفوَ،** فباطنه العفو عن الذنب وظاهره العفو من المال، وكلاهما واجب. وقوله:[11] **لعلكم تتفكرون،**

---

[1] ن ك: ينجزون؛ ش ك - يُجزِّءون، والمثبت من م.

[2] ك: فيقول.

[3] ش ك: لمن.

[4] أي بصريح نصّ القرآن.

[5] ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ (سورة الأعراف، ٧/٣٣).

[6] يشير المؤلف رحمه الله هنا إلى الآية ٢١٥ من هذه السورة.

[7] ش ك: وكذلك.

[8] ر: من المعافي.

[9] ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا﴾ (سورة الأعراف، ٧/٩٥).

[10] ر: حاجة.

[11] ر - وقوله.

بيّنه بقوله بعده: في الدنيا، الفانية، والآخرة، الباقية، فتُنفقون مما يفني لما يبقى. وقال السّدّي: هذه الكلمات من دون بقية الآية منسوخة بفرض الزكاة.[١] وقال غيره: لا يجوز نسخُ مثل هذه.

ويسئلونك عن اليتمى، هذا السؤال عن يتامى أهل الكتاب والمشركين عند / أخذهم من السبي. ولهذا ذكَرهم بعد ذكر القتال المتقدم. وقوله: **قل إصلاح لهم خير،** [٥٤و]
أي خير لهم من آبائهم وأمهاتهم. والإصلاح يعم في النفس والمال وحسنِ التربية والدين والعلم. ولا شك أن الإصلاح منا مع العبودية خيرٌ لهم من آبائهم مع الحرية. ولهذا قال: **وإن تخالطوهم فإخونكم،** وإلا فلا شك أن يتامى المؤمنين إخوان لنا. ولهذا بين بقوله بعده: وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ.[٢] والمخالطة هي في أموالهم وغيرها كنكاح اليتيمة الكتابية. **والله يعلم المفسد من المصلح. ولو شاء الله لأعنتكم،** بتحريم نكاحهن، لكنه أباح الكتابيات وحرّم المشركات. فلما كان من اليتامى إناثٌ وقد أباح نكاحَهن لأنهن عُدْنَ إمَاءً لنا، فجاز لمن خشي العنتَ أن يَنكحَهن، ومنهن من أهل الكتاب ومنهن مشركاتٌ قال[٣] ههنا عند ذكر اليتامى: **ولو شاء الله لأعنتكم،** وهو من قوله تعالى: ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ،[٤] وهو الاضطرار إلى النكاح. ولهذا تلاه ههنا بقوله: وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ، كأنه قال: انكِحُوا هذا ولا تَنكحوا هذا. وجميع ذلك أخبر الله به رسولَه صلى الله عليه وسلم قبل أن يُسأل عنه بقوله:[٥] **ويسئلونك.** وذلك ليثبّت به قلبَه. **إن الله عزيز حكيم،** حاكم بالحكمة سبحانه.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٢٢١﴾

---

[١] البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ١٥٠/٢. وانظر أيضا: زاد المسير لأبي الفرج ابن الجوزي، ٢٤٣/١.

[٢] من الآية التالية.

[٣] هذا جواب "فلما كان".

[٤] ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ (سورة النساء، ٢٥/٤).

[٥] ر: لقوله.

ولا تَنكحوا المشركٰت حتىٰ يؤمنّ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم. ولا تُنكحوا، أي تزوجوا، المشركين حتىٰ يؤمنوا. ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم. أولٰئك يدعون إلى النار والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة بإذنه. قوله: بإذنه، مؤخر ليعود على الله تعالى، فهو منسوق بقوله: أولئك يدعون إلى النار، بإذنه. ولما لم يكن قد تقدم ذكرُ اسم الله تعالى أخَر، بإذنه، فافهمه، وإلا فلا معنى لقوله: والله يدعوا... بإذنه. وهذا كقوله من قبلُ: لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦ،[1] فافهمه، كما بيناه هناك أيضا. ودليله قوله: وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ.[2] ويحتمل ما تقديره: يدعو العبادَ إلى الجنة والمغفرة على ألسنة الرسل بإذنه، كقوله: وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ.[3] ولهذا بعده: ويبين ءايٰته للناس، أي بألسنة الرسل، لعلهم يتذكرون، بهذا الذكر.

﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾

ويسئلونك عن المحيض قل هو أذًى فاعتزلوا النساء فى، مدة، المحيض ولا تقربوهن، المراد القرب لا الإتيان الذي هو الوَطء، إذ ذكرُ الاعتزال يكفي. لكن قد نعتزلهن من جهة الوطء ونَقْرَبُهن للتمتع بالمحل دون الالتذاذ بأجسامهن فقط وإن كان اللفظ يحتمل المنع عن قربهن جملةً كما يفعل اليهود. لكنه لما كان المنع لسبب وهو المحيض تَخصّص محل ذلك بالمنع دون بقية الجسم. ولهذا لو وضع حاجزا بين الفرج وبينه لجاز التمتع. ولما كان التمتع يهيّج الشهوةَ نهى عن القرب من محل الوطء حتى لا تَهيج الشهوةُ. فربما غلب المرء لفرطها فأتى الحائضَ فنهى الله تعالى عن ذلك، حتىٰ يطهرن، من الحيض، أعني نهى عن القرب خاصة. فكأنه قال: ولا تقربوهن حتى يطهرن. فإذا طَهُرْن من الحيض ولم يتطهرن بالماء فاقربوهن ولا تأتوهن حتى يتطهرن بالماء. فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله. وحيث يريد بها المكانَ، كقوله: وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ،[4] وبين ههنا حيث بما سيأتي

---

[1] الآية ٢١٣ من هذه السورة.
[2] الآية ١٠٢ من هذه السورة.
[3] سورة الأحزاب، ٤٦/٣٣.
[4] الآية ١٤٤ من هذه السورة.

من ذكر الحرث. وقوله: **إن الله يحب التوّبين**، إشارة إلى أنكم إن أتيتموهن من حيث لم نأمركم توبوا[١] عن ذلك. ولمّا كان ذلك مما ينافي الطهارة أكثر من منافاة محل الوطء قال: **ويحب المتطهرين**.

فإن قيل: هذا لم تأت به سنةٌ، أعني النهي عن القرب من محل الحيض إلى حين الطهر؟ قلنا: نحن إنما نبهنا عن المفهوم من هذا اللفظ، فمن فهم غير ذلك فليترك ما قلناه. وأما العمل بالمفهوم فعائد على العامل بعد تحقق العلم بوجوبه.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٢٣﴾

ولمّا قدّم ما أمرهم به من الإتيان بقوله: مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ،[٢] بينه بقوله: **نساؤكم حرث لكم**. فعرّفنا أنه لا يجوز أن نأتي المرأةَ إلا في موضع الحرث الذي يكون فيه الزرع. فلمّا مثّلهم بالحرث لزم أن لا يكون الإتيان لهم إلا على وجه البَذْر في جهة الحرث لقوله: **فأتوا حرثكم**. / وأما قوله: **أنى شئتم**، فمعناها كيف شئتم. وذلك كقوله: [٥٤ظ]
أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا،[٣] أي كيف صورة ما يحيى، وهو[٤] قول إبراهيم عليه السلام: رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ.[٥] فجاءت "أنى" من الذي مر على القرية[٦] في السؤال عن الإحياء في موضع "كيف" من إبراهيم في السؤال عن الإحياء، وكذلك ههنا. والمعنى على أي صورة شئتم قياما، أو قعودا، أو على جنوبكم، أو غير ذلك. ولذلك قال بعده: **وقدموا لأنفسكم**، يعني خيرا، ولا تقدِّموا شرا عليها بمخالفة الأمر. **واتقوا الله**، فأشار إلى أن ههنا ما يجب أن يُتَّقى مخالفة الأمر فيه عند مباشرة النساء. وقد جاء عن[٧] رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يكون الحرث إلا من حيث يكون النبات».[٨] ومن قال: إن لفظة "أنى" معناها أين[٩] شئتم؟ قلنا: لو أراد ذلك لقال "حيث".[١٠] ولو كان موضع "أنى" ما يدل على أين أو لفظة "أين" بنفسها لم يخالف ما قلناه بعد أن قال: **فأتوا حرثكم**، ولكان المفهوم من لفظة "أين" ظرفية تدل على الزمان أو المكان الخارج، لا على إتيان

---

[١] ر: تتوبوا.
[٢] من الآية السابقة..
[٣] الآية ٢٥٩ من هذه السورة.
[٤] أي كيف...
[٥] الآية ٢٦٠ من هذه السورة.
[٦] ش: على قرية.
[٧] ش: جاء عند.
[٨] ش: الثبات. | الكشف والبيان للثعلبي، ٣٥١/١.
[٩] ر: أنى.
[١٠] ر + على أنه لو قال حيث.

ما بيّن الله لنا في الكتاب أنه فاحشة بقوله لقوم لوط: إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ.[1] وقد علمت أنه تعالى نهى عن مباشرة النساء في بعض الزمان، وهو نهار الصوم، وفي بعض الأماكن وهو المساجد، وحين الاعتكاف في عبادة الله تعالى. فلا يجوز بعد النهي إطلاقُ الأمر بإباحة المباشرة لهن بلفظ "أين" أو بما يدل عليها. ولأنه[2] لو جاز إتيانُ المرأة من غير محل الحيض لبقي قوله: وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ،[3] لا فائدة فيه إلا تخصيص المحل المخصوص بالحيض. ولو كان كذلك لأغنى عنه المحلُّ الآخَر، ولم نحتج[4] حينئذ إلى هذا التحذير كله خصوصا قولَه في[5] آخر الآية: واعلموا أنكم ملٰقوه، أي فاحذروا مخالفة أمره. وبشر المؤمنين. ويؤكد ما قدمناه أنه تعالى أباح الإتيان إليهن[6] عقيبَ التطهر. ولما نهى عن القرب منهن قبل الطهر كان النهي بلفظة تعطي الإطلاق وهو قوله: وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ [يَطْهُرْنَ]. وقال ابن برشان[7] رحمه الله: إن المراد بقوله: وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا،[8] هو منسوقٌ بهذا الكلام وكنايةٌ عنه.[9] والصحيح أن مراد الآية ههنا تحريم الوطء في الفرج إلا بعد التطهر من الحيض. ولازم الآية يعطي النهيَ عما سوى ذلك لا صريحُها،[10] والله أعلم. ويجوز الانتفاع بالحائض كما روي عن عائشة رضي الله عنها أنه عليه السلام قال لها: «نَاوِلِيني الخُمْرَةَ من المسجد. فقلت: إني حائض، فقال: إن حيضتكِ ليست في يدكِ».[11] وهذا يُفهم منه ما قدمناه من جواز التمتع ببقية بدن المرأة إلا محل الحيض، فلا نَقْرُبه[12] في الحيض تمتعا به ولكن بعد الطهر، ولا نأتيه[13] في الطهر، ولكن بعد التطهر[14] بالماء. وليس في النص ما ينهى عن مثل ذلك.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾﴾

---

[1] سورة العنكبوت، ٢٩/٢٨.

[2] ش: ولو أنه.

[3] الآية ٢٢٢ من هذه السورة.

[4] ش: ولم تحتج.

[5] ر - في.

[6] ر: إليه.

[7] لم أهتد إلى ترجمته فيما بين يدي من كتب التراجم.

[8] الآية ١٨٩ من هذه السورة.

[9] لم أعثر على هذا القول فيما بين يدي من المصادر.

[10] ش ك: لا صريحا.

[11] صحيح مسلم، الحيض ١١، ١٢؛ وسنن النسائي، الحيض ١٨. | وفي حديث أم سلمة «قال لها وهي حائض ناولِيني الخُمرة» هي مقدار ما يضع الرجل عليه وجْهه في سجوده من حَصير أو نسيجة خوص ونحوه من النبات ولا تكون خُمرة إلا في هذا المقدار (النهاية لابن الأثير «خمر»).

[12] ش ك: فلا تقربه.

[13] ش ك: ولا يأتيه.

[14] ر: بعد الطهر.

ولمّا ذكر النساء وأمر باجتنابهن في بعض الأزمنة والأمكنة والأحوال أتبعه بذكر مفارقتهن في بعض الزمان بالألية،[١] أو في كله بالطلاق. لكنه قدم قبل ذكر الألية ذكْرَ اليمين بالله سبحانه، فقال: **ولا تجعلوا الله عرضة لأيمٰنكم**، أي لا تَحلِفوا به تعالى فيما يَعرِض لكم من صدق وكَذِب. تقول: فلان عرض نفسَه للهلاك، إذا خاطر بها فدخل في أمر مُهلكٍ بجهل، وفلان بقي عِرضُه عُرضة بين الناس، أي يتعرضون لذكره بالسوء ويتحدثون فيه بما يزيد وينقص في أي وقت اتفق. فنهى الله تعالى أن نجعل اسمه عُرضةً بيننا لأجل الأَيمان. وقوله: **أن تبروا**، أي كراهة أن تبروا، **وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم**. كمن يَحلف عند الغيظ أو لسبب من الأسباب بأنه[٢] لا يَبَرُّ قرابتَه أو أحدَ المؤمنين، أو يحلف[٣] أنه لا يتقي محرَّما، أو لا يُصلح[٤] بين مؤمنين. وهو من باب قوله تعالى: وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ.[٥] كما سنبينه.

﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾﴾

ثم أتبع ذِكْرَ هذه اليمينِ على مثل ذلك بذكر يمينِ اللغو فقال: **لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمٰنكم**، أي الغلطِ، ودليله وَٱلْغَوْاْ فِيهِ.[٦] وضد اللغو كسب القلب، إذ الإنسان لا يغلط وهو يعلم. **ولٰكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم**، وهذا لا يكون إلا مع العلم، وما ليس كذلك فهو كسب اللسان دون القلب، وهو اللغو ولا يؤاخذ الله به. **والله / غفور حليم**، بعد ذلك أيضا. فإن الأول لا يؤاخِذ به فضلا عن أن يعود ذنبا فيغفره. [٥٥و]
ولكنه تعالى غفور حليم بعد ما كسبت القلوب. ولهذا أخر قوله: **والله غفور حليم**، فذكر ذلك بعد ما كسبت القلوب،[٧] فافهمه. وذكر شرطَ الغفران عند ذكر الكفارة.[٨]

---

١ بالألية: أي باليمين.

٢ ر ك: أنه.

٣ ش ك: أو حلف.

٤ ش ك: ولا يصلح.

٥ ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (سورة النور، ٢٤/٢٢).

٦ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (سورة فصلت، ٤١/٢٦).

٧ ر - ولهذا أخر قوله والله غفور حليم فذكر ذلك بعد ما كسبت القلوب.

٨ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ (سورة المائدة، ٥/٨٩).

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾

ولما كان المقصود ههنا ذِكرَ ما يتعلق بالكفارة[١] أخّر ذكرَ كفارة اليمين ههنا ليعرّفنا يمينا تختص بالنساء، ولزم أن يقدم كلاما في عموم اليمين مجملا يُفهم منه القول مطلقا في كل يمين ومخصَّصا في يمين تتعلق بالنساء، وأنه لا يؤاخِذ بيمين اللغو في أمرهن، وأنه إذا أخذ[٢] بما يكسبه القلب من يمين تتعلق بهن فإنه بعد ذلك يغفر لمن فاء واستغفره ويَحلُم عنه سبحانه فقال: للذين، اللام فيها تفيد الاستحقاقَ، كقولك: الرحمة للمؤمنين، يؤلون، من الأَلِيّة، أي يَحلفون، من نسائهم، ولم يقل: من مطلَّقاتهم بل حال كونهن نساءً لهم،[٣] تَرَبُّص، انتظار وتوقّعٌ لِما يقع من شيء وضده. ولما كان ترك الوطء قد يكون بيمين لغيظ أو غيره وقد لا يكون بيمين ذَكَر اليمينَ التي حالُ الزوجة معها كحال المطلَّقة، وفهمنا من ذلك حكمَ ما ليس بيمين. والإيلاء ههنا كقول القائل: واللهِ ما بقيتُ آتيك أبدا أو سنةً مَثَلا، أو أكثر أو أقلَّ. والفرق بين الإيلاء والظهار أن الإيلاء ما قُيِّد بيمين، ولهذا قدم قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً﴾؛[٤] والظهار ترك الوطء مع لفظ مخصَّص، وكان من خُلق[٥] الجاهلية[٦] فنهاهم عنه. وليس هذا الإيلاء عند الطلاق، فذلك طلاق وأَلِيّة. فقال ههنا ما معناه: إن الرجال لهم حق معلوم من نسائهم، وهو الانتظار من النساء لعودة الرجال إليهن، تَربّصُ أربعةِ أشهر. فإن هجر الزوج فراشَ الزوجة أكثر من هذه المدة بألية أو بغير ألية فلها أن تطالب بالوطء أو الطلاق إن لم يكن عذر. فإن فاءو، رجع أزواجهن إلى وطئهن، فإن الله غفور، لِما تقدم من الرجال، رحيم، بهم وبأزواجهم. لأن البُعولة[٧] حلفوا على ما لا يجوز استمراره فلهم تركُه وعليهم كفارةُ يمين.[٨] وقوله: فاءو، أي[٩] في عَرْض مدة الأربعة أشهر أو في آخر انقضائها.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾

وإن عزموا الطلٰق، في تلك المدة، أو عند انقضائها، أو حين الأليّة فقد طُلّقت بالعزم لأنه مِن كسب القلب، فإن الله سميع، لقولهم بقلوبهم وإن لم تُبدِه الألسنةُ منهم.

---

[١] ش ك – ولما كان المقصود ههنا ذكر ما يتعلق بالكفارة.
[٢] جميع النسخ: إذا وأخذ.
[٣] ش ك: لهن.
[٤] الآية ٢٢٤ من هذه السورة.
[٥] ك – من خلق، صح هـ.
[٦] ش: وكان في الجاهلية.
[٧] البعولة: جمع بغل.
[٨] ر – يمين.
[٩] ش ك: إلى.

عليم، بضمائرهم وبما من أجله عزموا على طلاق أزواجهم. وهذا تحذير لئلا يقع العزم على الطلاق. وأعني بذلك إذا طلقها في باطنه وأظهر ألية لا طلاقا أو لم يظهر فإنها تُطلّق، ولا تطلق إذا عزم أن يطلّقها فيما بعد، بل إذا طلقها بعزمه في باطنه[١] حَرُمت عليه. وينبغي أن تعلم أننا إذ حلفنا بالطلاق كما نحلف[٢] باليمين على شيء من الأشياء فذلك ليس بيمين، وإنما ذلك التزام كالنَّذر، واليمين المشار إليها ههنا لا تكون إلا بالله سبحانه أو بأسمائه. ولهذا بدأ بقوله ههنا: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ﴾.[٣] فليس لقائل أن يقول: متى حلفنا بالطلاق وتكون اليمينُ لغوا فإنه لا يقع الطلاق، وليس له أن يحتج بقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ﴾،[٤] فيقولَ: إذا لم يؤاخذنا باليمين[٥] به لغوا فكيف يؤاخذنا باليمين[٦] في الطلاق لغوا. فقد بينا أن ذكر الطلاق والحَلْف به[٧] ليس بيمين بل التزام.[٨] وأما اللغو فهو اليمين،[٩] لكن الاعتماد على القلب لا على اللسان دون القلب. فافهم أن المؤاخذة لا تكون إلا بكسب القلب في الطلاق وغيره. ففرقٌ بين من استعمل لفظَ الطلاق وأراد غيره وبين من استعملَ غيره وأراد به الطلاق. ففي الأول لا تُطلَّق من جهة الحالف ولا من جهة الحاكم إذا تحقَّق صدقُ الحالف.[١٠] فإن قال القائل: لم أعزم بقلبي وإنما سبق لساني فذكرتُ الطلاق حكمنا بالظاهر.

﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَـٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾

فإذا وقع الطلاق فالحكم فيه قولُه تعالى: **والمطلقٰت يتربصن بأنفسهن ثلٰثة قروء.** والقروء هو الجمع يريد به اجتماعَ دم الحيض. ويقال: أقرأتْ، أي حاضت فهي مُقرئ. ومنه القرية، ومنه استقريت الأمر إذا استبرأته جميعَه فجمعت بعضه إلى بعض في عملك

[١] ش – وأظهر ألية لا طلاقا أو لم يظهر فإنها تطلق ولا تطلق إذا عزم أن يطلّقها فيما بعد بل إذا طلقها بعزمه في باطنه، صح هـ.

[٢] ش: كما يحلف.

[٣] الآية ٢٢٤ من هذه السورة.

[٤] الآية ٢٢٥ من هذه السورة.

[٥] ش ك: في اليمين.

[٦] ر: في اليمين.

[٧] ر – به.

[٨] ش: بل إلزام.

[٩] ر: فهو في اليمين.

[١٠] ر – لكن الاعتماد على القلب لا على اللسان دون القلب... إذا تحقق صدق الحالف، صح هـ.

أو نظرك. وأولات الألية يتربصن لأزواجهن. والمطلقات يتربصن بأنفسهن [ثلٰثة قروء]
ولا يحل لهن أن يكتمن / ما خلق الله فى أرحامهن، من الولد، إن كن يؤمن بالله واليوم [٥٥ظ]
الآخر وبعولتهن أحق بردهن فى ذٰلك، أي في ثلاثة[1] قروء، وهي العدة متى شاءوا. وفيه إشعار بالوقت الذي تَحقق فيه الحملُ لِما في ذلك من مصلحة الولد والوالد والوالدة. إن أرادوا، البعولة، بردهن، إصلٰحا، لأنهم ردوهن لأجل الضِرار. وفيه إشعار بأن الأصلح هو ردُّهن. ولهن، على الرجال، مثلُ الذى عليهن، لهم، بالمعروف. قيل: الواو واو الحال في "ولهن". والمعنى إن لم يكن لهن مثل الذي عليهن فلا تكون بُعولتهن أحق بردهن بل غيرُهم، فهو شرط. ولهذا قال: بالمعروف. وقوله: وللرجال عليهن درجة، سنبين الدرجة. والأَولى أن قوله: والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلٰثة قروء، يكون منسوقا بقوله: ولهن مثل الذى عليهن، وأخّر لتمام الآية بذكر الدرجة وللوِزان. وهذا بيّن في سورة الطلاق، وهو قوله: لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ. هذا معنى [قوله:] ولهن مثل الذى عليهن، لأن لها عليه أن لا يُخرجها، وله عليها أن لا تَخرج وذلك في زمن العدة. فافهم كيف ذكر العدة في الموضعين، والكلام في الموضعين إنما هو في الطلاق وفيما يتعلق به خاصة. ومتى أشكل علينا أمرٌ فإنما يجب أن نطلبه في موضعٍ مثلِه من القرآن وفي ذلك الحكم بعينه فنجد البعض مبيّنا للبعض. وقوله: إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ،[2] هو معنى [قوله:] وللرجال عليهن درجة، فبين أنه يُخرجها في صورة لها عليه مِثلَ ما له عليها، لكن عند وقوع الشرط؛ فتغير ما كان لها فصار للزوج ولم يتغير ما كان له عليها. فلزم أن يكون له درجة هي عليها في هذا الحكم. والله عزيز حكيم.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾

الطلٰق مرتان فإمساك بمعروف، قبل الأجل أو عند انقضائه، أو تسريح بإحسٰن، بعد الأجل وهو العدة. والمفهوم من قوله: مرتان، أي تطليقة بعد تطليقة بينهما رَجعةٌ.

---

١ ر: في الثلاثة.

٢ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ (سورة الطلاق، ٦٥/١).

ولا تكون الثانيةُ تطليقةً[1] إلا بعد عودة إلى الزوج. ويصح حينئذ أن يقال: طلّقها مرتين، وإلا كيف يُتصوَّر فعلٌ لم يقع في الوجود ويتعلق به حكمٌ؟ وكيف يقال للصيّاد: إذا أطلق البازيَ مرة ولم يعد إليه أنه أطلقه[2] مرتين أو أكثر؟ والدليل على صحة رأى كثير من علماء أهل البيت في أن الزوج لو طلّق ثلاثا جملةً لم يقع إلا واحدة ما فصّله تعالى بقوله: الطلٰق مرتان. ثم قال ما دل على أن المرتين كل واحدة بمفردها بقوله: فَإِن طَلَّقَهَا،[3] أي مرة ثالثةً. ولو لم يكن كذلك لأجزأ[4] قوله: "الطلاق ثلاث ولا تحل له من بعدُ حتى...".[5] ويحقق ذلك قولُه تعالى: ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ،[6] أي كرة بعد كرة وإلا كيف يُتصوَّر أن يرجع البصر كرتين جملة واحدة خصوصا. ولم يقل ههنا قولَ الطلاق ولا لفظا يدل على لفظ من البعل فقط، بل لفظا يدل على فعلٍ هو طلاق يُفهَم منه إخراج وتسريح وإن كان بعد عدة. ولهذا قال في الثلاثة: فَإِن طَلَّقَهَا، بتشديد اللام الذي يدل على مضاعفةِ فعل هو الطلاق بنفسه لا لفظه[7] وإن كان اللفظ هو أوله، لكنه لا تتم الطلقة الواحدة إلا بتمام العدة ولا الثلاثُ[8] بأن يَرُدَّ الزوجة قبل تمام العدة، ثم يطلقها.

وقوله: فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسٰن، أشار إلى أنه بعد المرتين من الطلاق أَخَذَها ثالثة. لهذا قال فيما بعد: فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ،[9] أي بعد أن كان تَزوجها وطلّقها ثالثة.[10] ولو لم يكن قد أخذها ثالثة وإلا لمن يُمسك بالمعروف وقد طلقها ولمن يسرِّح بالإحسان، وقد سرحها على أن كل زواج وطلاق من الثلاثة يجب فيه الإمساكُ بالمعروف والتسريحُ بالإحسان. وقد فصّل اللفظَ وأتى بين ذلك بكلام كثير ولم يذكر الزواجَ في كل واحدة من الثلاثة بل الطلاق الذي لا يكون إلا عن زواج تَقدمه. ومن نظر حقَّ النظرِ علم أن هذا الترتيب رأفةٌ من البارئ تعالى، لأن الإنسان ما دام مع / صاحبه لا يعلم أَهَلْ تَشُقّ عليه مفارقتُه أم لا؟ ولكن إذا فارقه يظهر له ذلك. [٥٦و]

[1] ش – بينهما رجعة ولا تكون الثانية تطليقة، صح هـ.

[2] ش ك: أنه طلقه.

[3] من الآية التالية.

[4] ش: لأجزى.

[5] انظر لمعرفة المزيد: مسند أحمد بن حنبل، ٢/١٢٤؛ وصحيح البخاري، الطلاق ٤٤؛ وشرح صحيح البخاري لابن بطال، ٧/٤٠٠؛ وفتح الباري للعسقلاني، ٩/٣٧٢.

[6] ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ (سورة الملك، ٦٧/٤).

[7] ك: لا لفظة.

[8] ر – ولا الثلاث، صح هـ.

[9] من الآية التالية.

[10] ش ك + لهذا قال فيما بعد.

فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعة من الرجوع لشق ذلك بتقدير أن تظهر المحبة ويَقِلّ الصبرُ، فلا جرم أثبت حق المراجعة بعد المفارقة مرتين. وعند ذلك قد جرّب الإنسانُ نفسَه وعرَف حاله وقلبه. فمن ظن أن الثلاثة في مرة واحدة تعطي ثلاثَ طلقات فقد أعدم هذه الحكمةَ من النص ونسب البارئ تعالى إلى ما تُطيق العقولُ[1] أن تأتي بألطف منه فيما أتى به من الحكمة والتشريع لعباده، فتكون[2] أشفق على العباد من بارئهم، وهو محال. فلا طلاق حينئذ لمطلَّقة ولا طلقتان في طلقة. وفي تفصيل ما أنزل الله كفايةٌ لمن تدبر ووقف عند مفهوم اللفظ بحق لا بهوَى عوائدَ. والروافض[3] يرون الثلاث تُرَدّ في الجمع إلى واحدة. وقد ذكر الطبري في كتابه المعروف بأحكام القرآن أن الحَجّاج بن أَرْطَاة[4] كان على هذا المذهب فيما رواه أبو يوسف عنه. وقال محمد بن إسحاق بن محمد:[5] تُرَدّ على واحدة.[6] وقالوا: إن قول الله تعالى: الطلٰق مرتان، هو لبيان الطلاق المشروع وحصرِ المشروع في المذكور.[7] وقد قال: إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ،[8] فأبان أن الطلاق لا يقع إلا على هذا الوجه. ورأوا أن هذا التصرف البديع في التصرفات لمَا شُرع على وجه لا يثبت إلا على ما شرع، ولم يُشْرَع إلا مفرَّقا فلا يثبت إلا مفرَّقا. وروى عكرمة[9] عن ابن عباس قال: طلق رُكانة بن عبد ربه امرأته ثلاثا في مجلس واحد فحزن عليها حزنا شديدا، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف طلقتَها؟ قال: ثلاثا، فقال: في مجلس واحد؟ قال: نعم، قال: «فإنما تلك واحدةٌ، فارجعْها إن شئت» فراجعَها.[10]

---

١ ش ك + إلى.

٢ ش ك: فيكون.

٣ الرافضة جمعُها الروافض: قد يطلق على فرقة من الشيعة الذين تركوا زيد الشهيد حين نهاهم عن الطعن في الصحابة. فلما عرفوا مقالته وأنه لا يبرأ من الشيخين رفضوه. ثم استعمل هذا اللقب في كل من غلا في هذا المذهب وأجاز الطعن في الصحابة (دائرة المعارف للأعلمي الحائري، «الرافضة، الروافض»).

٤ هو أبو أرطاة حجاج بن أرطاة بن ثور النخعي، مفتي الكوفة مع الإمام أبي حنيفة والقاضي ابن أبي ليلى. ولد في حياة أنس بن مالك. وكان من بحور العلم. ولي قضاء البصرة. توفي بخراسان أو بالري سنة ١٤٥هـ/٧٦٢م (سير أعلام النبلاء للذهبي، ٦٨/٧، ٦٩).

٥ لم أهتد إلى ترجمته فيما بين يدي من كتب التراجم.

٦ أحكام القرآن لإِلْكِيَا الهَرّاسي، ١٧٠/١.

٧ المرجع السابق، ١٧٠/١.

٨ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ (سورة الطلاق، ١/٦٥).

٩ هو أبو عبد الله عكرمة بن عبد الله البربري المدني، مولى عبد الله بن عباس، تابعي، كان من أعلم الناس بالتفسير والمغازي. طاف البلدان وذهب إلى نجد الحروري، فأقام عنده ستة أشهر، ثم كان يحدث برأي نجدة. وخرج إلى بلاد المغرب فأخذ عنه أهلها رأي الصُّفْرية وعاد إلى المدينة، فطلبه أميرها فتغيب عنه حتى مات. وكانت وفاته سنة ١٠٥هـ/٧٢٣م بالمدينة (الأعلام للزركلي، ٢٤٤/٤).

١٠ السنن الكبرى للبيهقي، ٣٣٩/٧؛ والدر المنثور للسيوطي، ٦٧٢/٢.

وروى ابن جريج[١] عن طاوس[٢] عن أبيه: أن أبا الصهباء[٣] قال لابن عباس: ألم تعلم أن الثلاث كانت[٤] على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وصدرٍ من خلافة عمر يُرَدّ إلى واحدة؟ قال: نعم. وقال ابن عباس: كانوا يطلِّقون في جميع العدةِ واحدةً إلى أن تبين وتنقضيَ.[٥] وهذا هو المفهوم من النص، والله أعلم.

فإن قيل: كيف تجب الكفارة في الظِّهار وهو قول، ولا يقع الطلاق[٦] ثلاثا في مرة واحدة وهو قول أيضا؟ قيل: إنه في الظهار أدب على الكَذِب، وليس في الطلاق كذب فليس عليه أدب.

وقوله تعالى: **ولا يحل لكم أن تأخذوا مما ءاتيتموهن شيئا**، أي من الصَّداق. وأما غيره من جميع ما آتيناهن مُلْكا لهن فذلك ظاهر أن لا يجوز أَخْذُه بوجه. وهذا المعنى ههنا هو كقوله: ﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾، ثم قال: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾[٧] بمعنى أن يكن قد أتين[٨] بفاحشة مبيّنة. فدلّ على جواز أن نَذهب[٩] ببعض ما آتيناهن وهو ما تَفتدي[١٠] به نفسَها ولا يجوز إلا إذا خفنا. ولم يقل ههنا: إلا أن يظنا بل، **أن يخافا**، إذ الخوف يكون عن تحقيق، والظن عن ترجيح لأمر كان مشكوكا فيه. فبُني الأمر في المقاطعة على التحقيق بقوله: **إلا أن يخافا**، وفي المواصلة على الظن بقوله: إن ظَنَّا [أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ]،[١١] إذ[١٢] لا يكون العلم مع الافتراق وقبل[١٣] مراجعة الزوجة إلا ظنا. وأما مع المواصلة فيمكن تحقيق ذلك. وهذا موضع يحتاج الإنسان[١٤] الناظرُ في ممكنات أقسامه إلى فكر حاضر وتقسيم وافر.

---

١ لعله هو أبو الوليد وأبو خالد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، فقيه الحرم المكي. كان إمام أهل الحجاز في عصره. وهو أول من صنف التصانيف في العلم بمكة. رومي الأصل، من موالي قريش. توفي سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م (الأعلام للزركلي، ١٦٠/٤).

٢ أبو عبد الرحمن طاوس بن كيسان. أصله من الفرس. مولده ومنشؤه في اليمن. وكان فقيها عالما عابدا ورعا فاضلا. من كبار التابعين في الفقه ورواية الحديث. كان ذا جرأة على وعظ الخلفاء والملوك. مات بالمزدلفة أو منى سنة ١٠٦هـ/٧٢٤م (صفة الصفوة لأبي الفرج ابن الجوزي، ٢/٢٨٤-٢٨٥؛ ووفيات الأعيان لابن خلكان، ٥٠٩/٢).

٣ لم أعثر على ترجمته فيما بين يدي من كتب التراجم.

٤ ر ك: كان.

٥ شرح صحيح البخاري لابن بطال، ٣٩١/٧. وانظر لمعرفة المزيد: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٦٢/٤.

٦ ر + هو.

٧ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ (سورة النساء، ١٩/٤).

٨ ر – بمعنى أن يكون قد أتين، صح، هـ.

٩ ر: أن تذهب.

١٠ ك: ما يفتدي.

١١ من الآية التالية.

١٢ ش ك – إذ.

١٣ ك: وقيل.

١٤ ر – الإنسان، صح هـ.

[الاحتمالات في افتراق الزوجين]

فاعلم أنه يجب أن تعلم أن قوله تعالى: **إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله**، يلزم عنه أن يقع الخوف منهما معا في زمن واحد. ويُحتمل أن يقع من كل واحد في زمن.[1] ومتى جاز أن يأخذ الرجل ما افتدت به المرأةُ إذا خاف أحدُهما فقد لزم جوازُ أخذه إذا خافا معا. والقسمة الوجودية الأولى تقتضي في العقل صورتين، وهما إما أن لا يقيما حدودَ الله أو أن يقيما. والحدود[2] ههنا ما حده سبحانه للزوجين، ويلزم من ذلك أن يكون هذا أيضا ما يجب على فاعله الحدُّ كالزنى مثلا. فالصورة الواحدة معلومة من قوله: **إلا أن يخافا أن لا يقيما**، والأخرى من قوله: **إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا**.[3] وكل واحدة من الصورتين تنقسم إلى مائتين وخمسٍ وخمسين صورةً على تقدير الأصل الذي نبينه. والغرض من بيانه رياضةُ الذهن والتنبيهُ على مثله ليُعلَم الحق المراد / باللفظ [٥٦ظ] بعد الحصر لسائر محتمِلاته. فنجعل الأصل أولا مأخوذا من أربعِ صورٍ للزوج. ويلزم أن يكون للزوجة مِثلُ جميع ما يكون للزوج.

فنقول: زوجٌ خاف أن لا يقيم الحدود مع نفسه قسمٌ، أو مع الزوجة ثانٍ، أو خاف أن لا تقيم[4] الزوجة مع نفسها ثالث، أو أنها لا تقيم الحدود معه رابع. ولما احتمل وقوعُ أحد[5] هذه الصور الأربعة من الزوج بمفرده، أو الزوجة بمفردها سمينا هذه الصورةَ إذا وقعت من أحد الزوجين دون الآخر الفُرادِيّاتِ. ولمّا جاز أن يقع من أحدِ الزوجين أحدُ الفراديات الأربع جاز أن يقع الخوفُ منه عن صورتين منها معا، أو عن ثلاث، أو عن الأربع جملة. فلزم أن يصدر عن الزوجين كلُّ واحد خمسةَ عشرَ صورة مفردة ومركبة.[6] لأن الفراديات أربع، والثُّنائيّات ست، والثلاثيات أربع، ورباعية واحدة. واللازم عن تفصيل ذلك مائتان وخمسٌ وخمسون صورة.

وبيان ذلك: الفراديات لكل واحد من الزوجين أربعٌ على الانفراد. فإذا اجتمعا في صورة حصل من ذلك أربعٌ يوافق خوفُ الزوج فيها خوفَ الزوجة. فذلك اثنا عشر صورة. ثم يحصل من اختلاف الصورتين للزوجين اثنتا عشرة[7] صورةً.[8]

---

[1] ك: واحد وزمن.
[2] ر: الحدود.
[3] من الآية التالية.
[4] ش: أن لا يقيم.
[5] ش ك – أحد.
[6] ش ك: مركبة.
[7] جميع النسخ: اثني عشر.
[8] ك – صورة، صح هـ.

فذلك المجتمع أربعٌ وعشرون صورة. والثنائيات لكل واحد من الزوجين بمفرده ستٌّ، ولاجتماعهما ست موافقة وثلاثون مخالفة. ويحصل من ثنائيات الزوج مع فراديات الزوجة ومن فراديات الزوج مع ثنائيات الزوجة ثمانيةٌ وأربعون صورة. فتصير الجملة ستا وتسعين صورة. والثلاثيات لكل واحد من الزوجين أربعُ صورٍ ويتفقان على أربع ويختلفان على اثني عشر. فمتى كان لأحد الزوجين صورةٌ من الثلاثيات وللآخر صورة من الثنائيات أو الفراديات حصل من ذلك أربعون لأحدهما وللآخر مثلُه، تصير الجملةُ مائةً وأربعَ صورٍ. والرباعية واحدة للزوج وواحدة للزوجة، وواحدة موافقة بينهما وثمانية وعشرون مختلفة بينهما، الجملة أحد وثلاثون. فذلك بما قدمناه مائتان وخمسٌ وخمسون صورة. برهان ذلك أنك إذا جمعت الصورَ كان للزوج بمفرده خمسَ عشرة[1] صورةً وللزوجة كذلك. فتلك ثلاثون. ثم إذا ضربت خمسة عشر في خمسةَ عشرَ نَتَج من ذلك مائتان وخمس[2] وعشرون. فإذا أضفنا إليها الثلاثين المتقدمة تمت الجملة مائتان وخمس وخمسون صورة. فهذا ما حصرْنا بيانَه وأقمنا برهانَه.

وإذ قد فهمت هذا الحصر فاعلم أن المراد منه صورتان، هما أن يَخاف كل واحد من الزوجين في زمن غير زمن الآخر فتارة هذا وتارةً هذا. ولهذا قال بعد قوله: **إلا أن يخافا**، بلفظة التثنية، **فإن خفتم**، بلفظ الجمع. ولو قال: فإن خافا لعادت الإشارة إلى زمن واحد، ولكان اللفظ زائدا، إذ لو حذفه لاستغنى عن قوله: **فإن خفتم**، بقوله: **إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله**، فغيّر العبارة وكرّر معناها ليبيّن لنا صورا أخرى تقع من أحد الزوجين دون الآخر، كل صورة في زمن من شخص منهما. كأنه قال ما تقديره: ولا يَحِلّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يَخاف أحدهما أن الآخر لا يقيم حدود الله.

ثم خاطب الذكور والإناثَ من كل زوج وزوجة فقال: **فإن خفتم**، أيها المؤمنون والمؤمنات، **ألا يقيما**، زوج وزوجة[3] منكم، **حدود الله فلا جناح عليهما**. ثم بين أنه لا يكون لا جناح عليهما إلا، **فيما افتدت به**، زوجةٌ نفسَها من زوجها. وذلك أنه قد يكون الزوج مقيما للحدود والزوجةُ غيرَ مقيمة لها، فهو الذي خاف منها فلا جناح عليه إذا أَخذ منها ما افتدت به نفسَها منه ليطلّقها، ثم فارقها لكونها لا تقيم الحدود.

---

[1] ش ك: عشر.

[2] جميع النسخ: وخمسة، والمثبت من م.

[3] ر: أو زوجة.

وقد تكون هي تقيم الحدود، وهو لا يقيمها، بل هو فاجر مثلا، فهي التي خافت منه ههنا فافتدت نفسَها بمالها ليطلقها فتَخلُصَ من ذلك الظالم الفاجر فلا جناح عليها منه إذا طلبت الطلاقَ بذلك ولا من الله سبحانه. فصح قوله تعالى: **فإن خفتم**، أي إن كان

[٥٧و] / يخاف أحد أن الآخر لا يقيم الحدود. وقوله: **فلا جناح عليهما**، أي على الخائف الذي يجوز أن يكون هذا ويجوز أن يكون هذا. فلا جناح على الزوج إذا خاف من الزوجة فأخذ في وقت، ولا جناح على الزوجة إذا خافت منه فأعطت في وقت فداءً لكي تُفارقه. فعلى كلا التقديرين هي التي تَفتدي نفسَها بشيء مما آتاها الزوجُ، إذ هي مملوكة له إن كان الذنب لها أو له، وإنما كانت مملوكة بما آتاها. فمتى أرادتِ الخلاصَ من مثل الرقّ خرجت عما كانت به تحته. وافهم كونه قال: **فيما افتدت به**، ولم يقل: فيما أخذ منها. فذكر الفداء لتكون[١] الإشارة بزوال الجُناح تارة عنها في الافتداء وتارة عنه في أخذه بشرط الخوف أن أحدهما لا يقيم الحدود. **تلك حدود الله**، يشير إلى ما قد بينه أيضا ههنا. **فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولٰئك هم الظّٰلمون**.

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾﴾

ثم قال: **فإن طلقها**، أي ثالثةً، **فلا تحل له من بعد**، أي بعد الثلاثة، **حتىٰ تنكح**. والمفهوم من النكاح عقدٌ وإن لم يحصل مَسيسٌ. فلما قال: **زوجا**، لزم منه ما سنبين، وانتفى أن يكون صبيا أو غير كُفْءٍ لها في جميع أوصاف الزوج فيكون معها كما كان من قبله، **زوجا غيره**. **فإن طلقها**، هو من تلقاء نفسه لِما يراه كما يطلِّق غيرُه غيرَها لسبب موجب للطلاق أو إرادةٍ مبيحة له، **فلا جناح عليهما**، على الزوج الأول والزوجة المذكورة، **أن يتراجعا**. ولا يجوز أن يكون طلاقُ الزوج الثاني لها أو زَواجه وطَلاقُه حيلة على الله سبحانه، كما يفعل كثيرٌ من الجهال بزوجته إذا طلقها ثلاثا فيزوّجها بغير كفءٍ زواجا مشروطا بالطلاق، وربما أخذ شيئا من الدنيا على ذلك، فإن لم يطلّقها أُلجئ إلى طلاقها. فهذا من فعل الجهال الذين لم يعقلوا عن الله أوامره كما يفعل في بيع الشيء بأضعاف ثمنه إلى مدة، فيكون باطنه ربا وظاهره بيعا. والله سبحانه لا يخادَع. واعلم أن قوله تعالى: **حتىٰ تنكح**، أي هي **زوجا**، هو إشارة إلى كفء لها.

[١] ك: ليكون.

وهذا نفيٌ لما يفعله الجهال لأنه ذكر لفظ النكاح من جهتها والزوجية من جهته. ولم يقل: حتى ينكحها غيرُه، لينتفي ما همّ عليه الجهال، فافهمه. ثم لما قال: **فلا جناح عليهما أن يتراجعا**، قيد ذلك بشرط وهو: **إن ظنا أن يقيما حدود الله**. فافهم هذه الجملة وحقِّقْ حجتَها. فإن لم تجد صحةَ ما قلتُه فدعْه ولا إثم عليّ فيما أثبتُّه لأني أثبتُّ ذلك ومِثلَه لأنظر فيه لا لأفتيَ به. ثم تمم الآية بما ينبه[1] على أن ههنا شيئا قد بينه. وفيه أيضا تنبيه على أنه يبينه في مستقبل الزمان لقوم مخصوصين بالعلم دون غيرهم. فقال: **وتلك**، عاطفا على قوله قبلها: **تلك، حدود الله يبينها**، ولم يقل: بينها بل بلفظ المستقبل إشعارا أنه يبينها[2] بالتذهُّن والتفكر أو هِبَةً، **لقوم يعلمون**، وإن كان سبحانه قد بين، ولكن هذه العبارة تشعر بما قلناه.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾

وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن، مثل الأَقْراء،[3] أو الأشهُر، أو الوضع، **فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف**، تقدم معنى هذا اللفظ بقوله: فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ،[4] على صورة الحكاية لا الفرض. وهذا فرضه الله تعالى عند انقضاء أجلِ كلِّ مطلَّقة. ولم يذكر الأجل أولا ليبيح الإمساك قبله متى شاء من مدة العدة، وهذا الإمساك عند انقضاء الأجل. ولمّا كان الأولُ حكايةَ التشريع مع بيان عددِ الطَّلَقاتِ، والثاني ههنا فرضا لم يكن تكرارا، فافهمه. وقوله في آخر الآية: **واعلموا أن الله بكل شيء عليم**، هو لكونه حذّرهم في وسطها بقوله: **ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذٰلك فقد ظلم نفسه. ولا تتخذوا ءايٰت الله هزوا. واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتٰب والحكمة يعظكم به. واتقوا الله. واعلموا أن الله بكل شيء عليم**.

---

[1] ش ك: بما يبينه.
[2] ش: أنه بينها.
[3] القرء: الحيض، أو الطهر منه، فجمعه: أَقْراء وقُرُوء وأَقْرُؤ (لسان العرب، «قرأ»؛ وتاج العروس للزبيدي، «قرأ»).
[4] الآية ٢٢٩ من هذه السورة.

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾

ثم قال موضّحا: **وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن**، هذا النهي المتقدم قاله أولا مطلقا في كل تطليقة، فلمّا كرر قوله: **وإذا طلقتم**، كأنه يشير بهذه إلى التطليقة الثالثة / الأخيرة، ويلزم في غيرها وبما قبلها إلى التطليقتين الرجعية. لكنه أتى بذلك أولا أمرا بما يجب قبل البينونة بل في حال العدة، وأتى به ثانيا نهيا يجب بعد العدة والفراقِ. [٥٧ظ]
لهذا قال من قبلُ: فَأَمْسِكُوهُنَّ... أَوْ سَرِّحُوهُنَّ،[١] وفي هذه قال: **فلا تَعْضُلوهن**، فنهاه عن العَضْل ولو كان صادقا فيه. والفصيح يكرِّر اللفظ ليُلحق به معنًى آخرَ غير الأول كما ههنا. وأما لفظ العضل فإن الدَّاء العُضَال[٢] هو الذي أعيى الطبيبَ. وسيأتيك شرح ذلك في أوائل سورة النساء.[٣] والمراد ههنا هو أنكم إذا أخذتم الفِداء وسترتم تلك المعضَلةَ من الزوجة إن كان قد وقع منها ذلك، وطلقتموها فلا تعضلوها بعد ذلك فتمنعوها بالعَضْل أن تنكح زوجا مع المراضاة[٤] بالمعروف. وتقديره كراهةَ، **أن ينكحن أزوٰجهن إذا ترٰضوا بينهم بالمعروف**، الحلالِ الظاهر، لقوله:[٥] إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا.[٦] والنهي عن العَضْل مطلق إن كان قد طلقها لسوء بدا، أو لأنه أراد الاستبدال، أو لغير ذلك، لكنه إنما نهى عن شيء ربما يقوله صادق في قوله فنهاه عنه لينتهي غيره. ثم قال: **ذٰلك يوعظ به مَن كان منكم**، وحذف "منكم" في الموضع الآخر، لأنه قدّم ذٰلِكُمْ،[٧] وههنا أثبتها، لانه أخر "ذٰلكم".[٨] **يؤمن بالله واليوم الآخر. ذٰلكم**، أي إذا فعلتموه هو، **أزكىٰ لكم وأطهر**، لقلوبكم وقلوبهن. **والله يعلم وأنتم لا تعلمون**. فأشار بقوله: **ذٰلك**، إلى النهي عن العضل وهو ما برز منه قولا، وبقوله: **ذٰلكم**، إلى امتثالهم وهو ما برز منهم فعلا. فتنبه بمثل هذه الدقائق على معرفة أمثالها.

---

١ من الآية السابقة.
٢ الداء العضال: المنكر الذي يأخذ مبادهة ثم لا يلبث أن يقتل (تهذيب اللغة للأزهري، «عضل»).
٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ (سورة النساء، ١٩/٤).
٤ ش: مع المراضات.
٥ ش ك - لقوله.
٦ الآية ٢٣٥ من هذه السورة.
٧ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ (سورة الطلاق، ٢/٦٥).
٨ أي ﴿ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾.

﴿۞وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾

والوٰلدٰت، من المطلقات، **يرضعن أولٰدهن حولين كاملين**. وستفهم معنى "كاملين" في الكلام على عُمر نوحٍ عليه السلام،[1] **لمن أراد أن يتم الرضاعة. وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف**، الذي[2] بَيْنَ الناس من مثله لمثلهن. **لا تكلف نفس إلا وسعها**، وشرح المرادَ بالوسع بقوله: **لا تُضارّ**، لا تُضارَرُ، **وٰلدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوٰرث مثل ذٰلك**، مثل ما على الوالد. **فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور**، يريد مشاورة الزوج لغير الزوجة، ولهذا ذكر التشاور بعد قوله: **منهما**. إذ التراضي فيه التشاور. فجاء غيرَ مقيَّدٍ ليكون مطلقا، **فلا جناح عليهما. وإن أردتم أن تسترضعوا أولٰدكم**، تقديره لأولادكم مرضعةً غير الأمّ، **فلا جناح عليكم إذا سلّمتم**، إلى الأم، **ما ءاتيتم بالمعروف**. ليس الإشارة ههنا إلى الصَّداق بل إلى الرزق والكِسوَة. ولهذا قال أوّلا وههنا: **بالمعروف**، فافهمه ولا تشكّ فيه. والمعنى إما أن تقع المراضاة على أيّ حال كان فجائز بالنص، وإما أن تريد الزوجةُ الفصالَ دون الزوج فليس لها ذلك لقوله: **يرضعن**، وإما أن يريد الزوجُ فصالا دونها، فله ذلك إذا سلّم إليها[3] رزقَها وكِسوتها. وهذا في غاية الحسن. فإذا سلمتم إلى الأم كسوتَها وما تستحقه من الرزق وأخذتم الولد منها بعد ذلك، أعني بعد أن لا يبقى لها معكم حقٌّ مما آتيتموها حال الرضاعة، فإذا فعلتم ذلك فلا جناح، وإلا لا يجوز أن تأخذوا الولدَ تسترضعوا له قبل أن تعطوا الأمَّ ما يجب لها إلا إن وقع الفصال عن تراض. وهذا معنى لطيفٌ دَقَّ عن أذهان المفسرين، يصدّقه ذو الموهبة الباحثُ من الفقهاء، فقِف معه. ويجب ذلك للأم[4] إلى حينِ فِطام الولد، كما كان عليها أن تُرضعه إلى حين فطامه إن أراد أبوه تمامَ الرضاعة، أو دون ذلك. ولمّا كان يشُقّ على الأم أن يؤخَذ منها الولدُ وينقطعَ عنها

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/١٤).

[2] ر – الذي.

[3] ك – إليها، صح هـ.

[4] ك: ذلك الأم.

الرزقُ والكسوة فيحصلَ غايةُ الضرر فَرَضَ الله تعالى لها ذلك قبل أخذِ الولد وحذّر من مخالفة الأمر في ذلك فقال: **واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير.**

والدليل على صحة ما قلناه قوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.[1] ولا جائز أن تكون الأجور هناك[2] صَداقا. ولهذا ذكر هناك لفظَ "الإتيان" الذي ذكره بعينه ههنا. فلما ذكر الرزق والكسوة في أحد الموضعين وذكر الأُجور في الآخَر علمنا أن الأجور ليس سوى الرزق والكسوة، ولا يصح أن يجمع للوالدات جملة ذلك، إذ[3] ليس على المولود له / إلا رزقهن وكسوتُهن فقط. **وعلى الوارث مثل ذٰلك.** فلهذا كان ما في البقرة من ذكر الرزق والكسوة مبيّنا لما في سورة الطلاق من ذكر الأجور. وكان ما في الطلاق من ذكر الأجور بلفظ الإتيان خاصة مبيّنا لما في سورة البقرة من قوله: **إذا سَلّمتم ما ءاتيتم بالمعروف**، أي ما كنتم قد آتيتم الوالدات من الأجور وليس سوى الرزق والكسوة، لأنها من حين وَلَدَتْ له وجب ذلك لها عليه أو على الوارث. ولهذا لم يقل: وعلى من أرضعن له، بل، **وعلى المولود له.** وانظر إلى كونه تعالى عيَّن الحولين الكاملين بحيث لو أراد الوالد أن يُرضع أكثرَ لم يلزم الوالدة ذلك. ولو أرادت ذلك[4] لم يلزم الوالدَ أجرٌ. ودل على الحولين الناقصين بقوله: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾،[5] مع جواز ما ذكرناه في عمر نوح.[6] [٥٨و]

فافقه هذا كله جيدا متأنيا لتعلم أن ذلك رفقٌ من الله تعالى بالولد والوالدة والوالد. أما بالولد فلأن أمه أشفق عليه ومزاجَها أنسبُ إليه. وأما بالوالدة فإنها أحق بولدها وأولى من غيرها بالأجرة. وأما الوالد فإن ذلك يُلجئه إلى إعادة الولد إلى الوالدة على الأكثر، فتحصل مصلحةُ الولد، ومصلحة الولد[7] مصلحة الوالد لأنه منتفع به في الدنيا ومسئول عن تربيته في الأخرى. فلما جعل الأمر إليه في أن يسترضع لولده غيرَ الأم جعل الكسوة والنفقة عليه للأم. فكان قُبالةَ ما له عليها من الحكم ما لها عليه من الكسوة والرزق مدةَ رَضاعة الولد على غيرها. ولمّا كان هذا مما قد[8] يشق على الوالد فلا يفعله إلا عن أمر يُسهّل حملَ هذه المشقة في جنبه أبقى الله هذه الصورة

[1] سورة الطلاق، ٦٥/٦.
[2] ر: هنا.
[3] ر: أن.
[4] ر: هي.
[5] سورة الأحقاف، ٤٦/١٥.
[6] انظر تفسير قوله تعالى في سورة العنكبوت، ٢٩/١٤.
[7] ر – مصلحة الولد.
[8] ر – قد.

صلةً بين الزوجين بعد الطلاق. لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا:[1] إما بردّ المطلّقة، أو برد الولد إليها فتحصل المصلحة للجميع. ولا يُحتَجّ على إبطال ما قلناه بقوله: **فإن أرضعن لكم**. فذلك بيان لئلا يكون الفصال عن تراض، فلا يَلزم الوالدَ شيءٌ.[2]

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾

والذين يتوفون منكم ويذرون أزوٰجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا. فإذا بلغن أجلهن، إما هذه المدة أو الوضع إن كانت حاملا، **فلا جناح عليكم**، أيها المؤمنون، **فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف**، أي فيما فعلن من الزَّواج، أو الخروج[3] من المَنزل بالمعروف من أمر الله الذي أباحه لهن. وقوله: مِن مَّعْرُوفٍ،[4] إشارة إلى فعل مِن جملة أفعالهن، أي كائنا ما كان. **والله بما تعملون خبير**. وهذه الآية قيل: إنها ناسخة لقوله تعالى: وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ،[5] وإن تقدمت عليها، إذ عدةُ كل مَن تُوفي عنها زوجها أربعةُ أشهر وعشرٌ. فانظر إلى هذه الأفهام كأن الله تعالى قد جعل في أفهامهم المتاعَ إلى الحول عدة أو أجلا يدل على عدّة، ولم يعلموا أن الله تعالى قال في الثانية: **والذين يتوفون منكم ويذرون أزوٰجا**، فرضنا عليهم أن يوصوا وصية لنسائهم كما يوصي مَن حضره الموتُ للوالدين والأقربين[6] كما بيناه. فأمر المتوفَّى عند وفاته أن يجعل من جملة الوصيةِ وصيةً لزوجته أن تُمتَّع متاعا في بيتها بالبيت وآلاته[7] ومَرافقِه وأن لا تُخرَج منه إخراجا بغير رضاها إلى الحول من مدة الوفاة،[8] لجواز أنها تكون امرأة لا تريد الزواج، أو كبيرة عنه، أو لا يصح لها[9] زوج.

---

[1] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ (سورة الطلاق، ١/٦٥).

[2] ر - والدليل على صحة ما قلناه قوله تعالى في سورة الطلاق... فذلك بيان لئلا يكون الفصال عن تراض فلا يلزم الوالد شيءٌ، صح هـ؛ ش: شيئا.

[3] ر ك: والخروج.

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية ٢٤٠ من هذه السورة.

[5] الآية ٢٤٠ من هذه السورة.

[6] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية ١٨٠ من هذه السورة.

[7] ش ك: والآنية.

[8] ر: والوفاء.

[9] ر: له.

ثم بعد ذلك عرفنا أن هذه الوصية للزوجة[1] إنما هي متاع وليست أجلا ولا عِدّةً. إذ العدة والأجل أمرٌ لا يجوز تغييره، ومَن غيّره فعليه جناحٌ بل إثم. وفي هذه الآية قال: غَيْرَ إِخْرَاجٍ، ولم يقل: غير خروج -فافهم اللازم من المتعدي- ثم قال: فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ،[2] فجعل ذلك الخروج إليها إن اختارت. فأيُّ شيء في هذه الآية ينسخ تلك أو في تلك ينسخ هذا؟[3] فافهم. وحسبنا الله.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾

ولا جناح عليكم فيما عرّضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم. علم الله أنكم ستذكرونهن. فأباحكم ذلك وعفا عنكم. ولٰكن لا تواعدوهن سرا، ولا فرق بين الحلال والحرام سوى هذا الحد، إلا أن تقولوا قولا معروفا. ولا تعزموا، على، عقدة النكاح، نهى عن العزم[4] الذي لا بد أن / يتقدم الفعل، وذلك لفرط التحذير، حتىٰ يبلغ الكتٰب أجله، أي الذي كتبناه عليكم في القرآن من أنواع العِدة في كل موضع بصورة. واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه، إشارة إلى أن الحاكم والمسلمين قد لا يعلمون مُدةَ العدة هل انقضت أم لا. فإن عزمتم على عقدة النكاح ولم يَعلم بكم أحدٌ فاعلموا أن الله يعلم.[5] واعلموا أن الله غفور، لمن تاب وأناب، حليم، يَحلُم عنكم مع علمه بما في أنفسكم فلا يعاجلكم بما تستحقونه إمهالا لتتوبوا. [٥٨ظ]

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾

لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما، مهما، لم تمسوهن، أشار بالمسيس إلى الوطء، كقوله: وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ،[6] أو، مهما لم، تفرضوا لهن فريضة، صَداقا. ومن ههنا قيل:

---

[1] ش ك: للزوجية.

[2] الآية ٢٤٠ من هذه السورة.

[3] ر ك - أو في تلك ينسخ هذا.

[4] ش ك: عن عزم.

[5] ش - فاعلموا أن الله يعلم.

[6] ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٤٧).

إنه يجوز أن يتزوجها بغير صداق، وذلك غير متفق عليه عند أبي حنيفة رضي الله عنه،[1] لأن هذا النص لا يدل ههنا على أنه يتزوجها بغير صداق بل يدل على أنه لم يفرض لها على نفسه. وأما إن هذا النص ينفي[2] أنه قد كان أعطاها صداقها أو يلزم أنه أخذها بغير صداق فلا. وأما وجوب الصداق فمن عِدة آيات، مثل قوله تعالى: وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ،[3] وقوله: إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ.[4] فافهم هذا جيدا، فهو الصحيح. وعند أبي حنيفة أن المتاع عوض الصداق في هذه الصورة لكونه التزم بما التزمه الشافعي منها،[5] أعني جواز أن يتزوجها بغير صداق. وقد بينا أنه لا يلزم أن يكون ذلك. واعلم أيضا أن المتاع ليس هو عوض البُضْع، لأن المتاع هو على مقدار قدرةِ المُوسِر والمُقتِر من الرجال لا على قدر استحقاق المستحقة من النساء، أعني قيمة بُضعِ مثلها. فالنص مع أبي حنيفة أنه لا يجوز نكاح إلا بأجر. وأما كونه يرى المتاع عوضا عن صداق فليس كذلك، لأن المتاع واجب في سائر الصور. ولو لم يفرض لها شيئا ولَامَسَها فلا بد أن يمتِّعها لقوله: **ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره**، بحسب ما يقدر، **متْعا بالمعروف**. ثم أتبعه بقوله: **حقا على المحسنين**، ليدل بذلك على أنه يُعَدُّ من المحسنين بما أحسن إليها وإلا في حقيقة الأمر ليس لها[6] عليه شيءٌ. غير أن الله تعالى جعل ذلك على المحسنين حقا للنساء. وقوله في أول الآية: **لا جناح عليكم**، أي لا جناح في كونكم تركتم العدةَ التي أمرناكم بإحصائها في حق المطلقات. ولهذا بيّن ذلك بصريح آية أخرى فقال: فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ.[7] ثم أمر بالمتاع أيضا لأنه واجب لسائر المطلقات، لقوله: وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ.[8] فهذا يعم كلَّ مطلقة وإن كانت قد أَخذت عوضَ البُضع، فلزم أن لا يكون المتاع عوضا لبضع.

﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٣٧﴾

١ جامع البيان للطبري، ٢٩٣/٤؛ وزاد المسير لأبي الفرج ابن الجوزي، ٢٨٠/١.

٢ ش ك: يبقي.

٣ سورة النساء، ٤/٤.

٤ ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖ﴾ (سورة المائدة، ٥/٥).

٥ انظر لمعرفة المزيد: جامع البيان للطبري، ٢٩٠/٤-٣٠٠.

٦ ش – لها، صح هـ.

٧ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَا﴾ (سورة الأحزاب، ٤٩/٣٣).

٨ الآية ٢٤١ من هذه السورة.

ثم قسم أيضا فقال: وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة، فيجب لهن عليكم فرضٌ لقوله: فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون، أي النساء إن كُنَّ أهلا للعفو بالغاتٍ، أو يَعفوَ الذى بيده عقدة النكاح، أي الولي أو الأب المزوّج فله ذلك. ولا تفهم أن الإشارة إلى الزوج، فليس قوله: وأن تعفوا أقرب للتقوىٰ، إشارةً إلى الزوج بل إلى الزوجة وإلى الذى بيده عقدة النكاح. ولم تَفعل "أنْ" في "يعفون" نصبا، لأن النون فيها علامة التأنيث لا علامة جمعِ المذكر. واعلم أنه لو مات الزوج قبل المسيس لزمه صَداقٌ كامل وميراث. وكذلك لو ماتت هي قبل المسيس يلزمه صداق كامل[1] وله إرث، لأنه من حين العقد قد ملك ووجب عليه الجميع. والموت ليس الحكم فيه إليه بل هو أمر الله سواء تقدم أو تأخر. والزوج إنما وجب عليه الصداق لاستباحة ما كان محرَّما وصلةِ ما كان منقطعا وشغلِ الزوجة عن التصرف في نفسها، فهو دَين. والموت لا يُسقط الدينَ بل الدين والإرث على حاله كما لو وقع المسيس. ولكن يظهر من كون[2] الله تعالى قال حين لا مسيس: وأن تعفوا أقرب للتقوىٰ، أن يكون العفو ههنا أيضا بل هو أولى وإن لم يجب، ويقوي ذلك قوله: ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير.

﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾

حٰفظوا على الصلوٰت والصلوٰة الوسطىٰ، هي صلاة الجمعة. فإن جميع الصلوات / ذُكرت جملةً وخصِّصت الجمعة بقوله: فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ.[3] ومن عادة النص لا يَذكر [٥٩و]
شيئا غريبا إلا وينبِّه عليه في موضعٍ آخَرَ. فاعرف قدْرَ ما قلته لك وإن جاء رخيصا. قال سعيد بن المسيب:[4] كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة الوسطى هكذا وشبَّك بين أصابعه.[5] ويزيدك إيضاحا كونُه عبَّر عنها ههنا بزيادة الواو، وذلك بعد الجمع بقوله: الصلوٰت، فقوله بعد ذلك: والصلوٰة، يدل على شيء آخر هو صلاة

---

[1] ر – وميراث وكذلك لو ماتت هي قبل المسيس يلزمه صداق كامل، صح هـ.

[2] ش – كون، صح هـ.

[3] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ (سورة الجمعة، ٦٢/٩).

[4] أبو محمد سعيد بن المسيب بن حَزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة. جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت لا يأخذ عطاءً. وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته، حتى سمي راوية عمر. توفي بالمدينة سنة ٩٤هـ/٧١٣م (سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/٢١٧-٢١٨؛ والأعلام للزركلي، ٣/١٠٢).

[5] جامع البيان لابن جرير الطبري، ٤/٣٧٢.

لكنه غير الصلوات. ولما لم يبينه ههنا دل على أنه قد بينه في موضع آخر فجعله موضعه. ولا شك أنه لما كانت كلُّ ظهرٍ أربعَ ركعات ولم يؤمر فيها بالسعي، وكانت صلاة الجمعة ركعتين، وقد ذُكرت بمفردها وأُمر فيها بالسعي[١] كانت بلا شك صلاةً أخرى لِما أضيف إليها من السعي وأسقط منها من العدد، فافهم ذلك واحمد الله عليه.

وقوموا لله قٰنتين، مطيعين.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾

فإن خفتم، مما يُخاف منه، **فرجالا**، أي رَجّالة تمشون، **أو ركبانا. فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون.**

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾

والذين يتوفون منكم ويذرون أزوٰجا وصية، أي فرضنا وصية عليهم، **لأزوٰجهم**، أن يُمتِّعوهن، **متٰعا إلى الحول غير إخراج فإن خرجن**، هُنّ من أنفسهن من غير مُخرج، **فلا جناح عليكم فى ما فعلن فى أنفسهن مِن** -فعلٍ- **معروف. والله عزيز حكيم.**

﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

وللمطلقٰت متٰع بالمعروف حقا على المتقين، إشارة إلى المطلقات اللائي حصل لهن فرضٌ ومَسيْسٌ، ومن قبلُ قولُه: حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ[٢] حيث لا مسيس ولا فرض. فالمتاع هناك يشبه أن يكون إحسانا وهنا فرضا، إذ كلاهما حقٌّ على المتقي حدودَ الله والمحسنين إلى عباد الله. ولما بين الأمرَ بأن تُمتَّع المطلقات أَمرَنا أمرا مطلقا. وكان الوجود والنص يدل على أربع صورٍ: مطلقة بفرض ومسيس، ومطلقة بفرض من غير مسيس، وهو نِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ،[٣] ومطلقة بمسيس بغير فرض، لأنها كانت قد أخذته

---

[١] ر: بسعي.

[٢] الآية ٢٣٦ من هذه السورة.

[٣] الآية ٢٣٧ من هذه السورة.

أو وهبته كما بينا، ومطلقة بغير فرض ولا مسيس. ثم أَمَرَنا أن نُمتِّع ذواتِ الفرض والمسيس أخيرا. وأمرنا[1] أولا أن نمتع[2] اللائي ليس لهن فرضٌ ولا مسيس، لزم أن نمتع[3] ذوات الفرض بغير المسيس، والمسيس بغير الفرض فعم الجميعَ بقوله: وللمطلقٰت. ثم قال: كذٰلك يبين الله لكم ءايٰته لعلكم تعقلون، ليدل على أن ههنا ما قد بينه الله لمن يَعقل آياته في مستقبل الزمان وإن كان قد بينه في نفسه، أعني نفس الكلام أوّلا.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾

ثم قال: ألم تر إلى الذين خرجوا من ديٰرهم وهم ألوف، في أزمنةٍ [مختلفة]، إشارةٌ إلى كثير من الناس هم ألوف خرجوا للجهاد، لأن لفظة "ألوف" جمعُ الجمع الذي هو آلاف.[4] والإشارة بهذا الكلام إلى خلق كثير من الناس لا إلى فئة معيَّنة أو أمة في زمن مّا. وهذا المعنى يُفهَم من قوله تعالى: وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ.[5] وكذلك قوله: إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ،[6] وهو الجهاد. فهذه الآية نبّه فيها على الجهاد والمجاهدين. وذلك أنه لمّا ذكر وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ،[7] أتبعها بالذين يتوفون في سبيل الله كقوله: وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ.[8] فذكر ههنا[9] مَن خرج منهم في سبيل الله حذرا أن يموت كما مات الذين يَتَوَفَّوْن وذكرهم من قبل، ثم أتبعهم بهؤلاء، أي إنهم، خرجوا من ديٰرهم[10]... حذر الموت، بالتوفي كما تُوفِّي مَن قبلهم في الذكر. فقال لهم الله موتوا، أي موتوا في سبيل الله، ثم أحيٰهم، كقوله: بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ.[11] ويدلك أيضا أنه لم يقل: فأماتهم الله، كما قال في غيرهم بل، فقال لهم الله موتوا. وهذا أمرٌ بموت اختياري كقوله: فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ، أي إن شئتم، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ.[12] فاعلم أن الإشارة ههنا بقوله:

---

[1] ش ك: أو أمرنا.

[2] ر: أن تمتع.

[3] ر: أن تمتع.

[4] الألْف: عشر مئات، ويقال: ألف مؤلف تام (ج) آلاف وألوف (المعجم الوسيط، «ألف»).

[5] الآية ١٥٤ من هذه السورة.

[6] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (سورة الأنفال، ٨/٢٤).

[7] الآية ٢٤٠ من هذه السورة.

[8] سورة آل عمران، ٣/١٥٨.

[9] جميع النسخ + منهم.

[10] ك + وقوله.

[11] الآية ١٥٤ من هذه السورة.

[12] الآية ٥٤ من هذه السورة.

موتوا، ليس ذلك إلا في الجهاد. ويزيدك بيانا أنه لم يقل: ثم بعثهم، كما قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[١] وكقوله: ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾.[٢] فافهم العبارات لتَفهَم بها المعانيَ والإشارات في أمثالها والمقاصد من خلافها. ويزيدك إيضاحا قولُه في تمام الآية: إن الله لذو فضل على الناس ولٰكن أكثر الناس لا يشكرون. وقد قال في مثل ذلك: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾،[٣] عن الإحياء الذين قُتلوا في سبيل الله. وانظر إلى قوله تعالى: / ألم [٥٩ظ]
تر، خطابا للرسول الذي يَعلم ويشاهد حقا أنهم أحياء.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾

ولهذا أتبعه بما يزيل الشبهة فقال: وقُتلوا، بواو العطف، أي فلا تكونوا كالذين يُتوفون بل مِثلَ هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم للجهاد. وتقديره: موتوا، وقُتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم. ثم أتبعه بما يناسب، وهو النفقة في الجهاد وإعانةُ المجاهدين، فقال: من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضْعفه له أضعافا كثيرة، وهذه الأضعاف غيرُ مقيَّدة، لأن القرض يَختلف فتختلف درجاتُ الثواب عليه. قال عليه السلام: «رأيت على باب الجنة مكتوبا: القرض بثمانيةَ عشرَ والصدقة بعشر. فقلت: يا جبريل! ما بال القرض أعظم أجرا؟ قال: لأن المقترِض لا يأتيك إلا محتاجا وربما وقعت الصدقة في غير أهلها».[٤] والله يقبض ويبسط. وهو بعد الإطلاق مخصص بما تقدم، أي يَقبض ذلك الرزقَ الذي منه أقرضتم وأنفقتم، ويبسطه. وقوله: وإليه ترجعون، أي فيجازيكم بأعمالكم ويوفّيكم ما يوفيكم من القرض.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾

[١] الآية ٥٦ من هذه السورة.
[٢] الآية ٢٥٩ من هذه السورة.
[٣] ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة آل عمران، ١٦٩/٣-١٧٠).
[٤] سنن ابن ماجه، الصدقات ١٩.

ثم أتبع أَلَمْ[1] بمثلها، لكن تلاها أولا بمدح وثانيا بذم. فكأنه قال: انظروا إلى هؤلاء الصادقين وقاتِلوا في سبيل الله لتكونوا مِثلَهم ولا تكونوا مثل هؤلاء الكَذَبَة. فقال: ألم تر إلى الملإ من بنى إسرٰءيل من بعد موسىٰ إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقْتل، مسكَّنةَ اللام جواب "ابْعَثْ"، فى سبيل الله. كأنه قال لهم: قاتلوا في سبيل الله فقالوا: ابعث لنا ملكا نقاتلْ حينئذ وإلا فلا، فكان الأمر لهم بالقتال قبل أن يُكتب عليهم القتالُ. وذلك أن الفرق بين الأمر بالقتال قبل أن يُكتَب عليهم وبين الأمر به بعد أن يُكتب أن الأول أمرٌ لهم أن يقاتلوا مَن قاتلهم فقط، والثاني يلزمهم منه الابتداءُ بالقتال. وهو معنى قوله تعالى: وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ.[2] ثم[3] أتى بكلام كثير، ثم قال بعده: كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ.[4]

واعلم أن كثيرا من كلام القرآن العظيم يأتي على صورة حكاية عن قوم ماضين ويكون في ضمن الإخبار أمرٌ للآتين، وربما زاد بين الإخبار عن الماضين كلمةً أو كلاما أو آية يخاطِب بها الآتين أو الحاضرين. ثم يعود إلى تمام الإخبار عن الماضين ليخوِّف الحاضرين وأمثالَهم مما جرى على مَن خالف مِن الماضين،[5] أو يرغِّبهم فيما جرى لأمثالهم. فافقه مِثلَ هذه الأمور تجدْها في عدةِ مواضعَ وينحلّ بها إشكالاتٌ كثيرة مثل قوله: حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ، ثم قال: وَجَرَيْنَ بِهِم،[6] وكقوله: هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا،[7] ثم أخبر بكلام يُفهم منه إخبارٌ عن آدم وحواء، والإشارةِ إلى ذكَرٍ وأنثى من أولاده. ثم بعد الإخبار عن اثنين قال: أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا،[8] وهو خطاب يدل[9] على جمعٍ قد أخبر عنهم. وكذلك في هذا الموضع. كأنه أخبر عن ألوف من المؤمنين برسلِهم فيما مضى من الزمان. [أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ] خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ... فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ، بألسنة رسلهم: مُوتُواْ... وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ... مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ،[10] فكان جملةُ الكلام إخبارا عنهم. وهو بعينه أمر وتنبيه بنفس الحكاية والإخبار لهؤلاء المؤمنين. ولمّا أخبر في الآية التي بعد ذلك عن بني إسرائيل أخبر بضد ذلك

---

١ ابتداء الآية ٢٤٣ من هذه السورة.

٢ الآية ١٩٠ من هذه السورة.

٣ ر – ثم، صح هـ.

٤ الآية ٢١٦ من هذه السورة.

٥ ش – ليخوف الحاضرين وأمثالهم مما جرى على من خالف من الماضين، صح هـ.

٦ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ (سورة يونس، ٢٢/١٠).

٧ سورة الأعراف، ١٨٩/٧.

٨ ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (سورة الأعراف، ١٩١/٧).

٩ ش – يدل.

١٠ الآيات ٢٤٣–٢٤٥ من هذه السورة.

ذمًا لمن مضى ونهيا للحاضرين والآتين عن مثل ذلك. فانظر وتأمل النصوص. فما تَقدر أن تفهم من كلامي إلا التنبيه على النظر في باب أفتحه لك. ثم إذا أَجَدتَ النظر فهمتَ من كلام الله تعالى جُلَّ المقصود أو كلَّه. ثم استغنيتَ بعد ذلك عن كلامي فقلتَ في بيان ما فهمتَه من الحق ما شئت إن شئت بحسب ما أوتيتَ.

وقوله تعالى: قال هل عسيتم إن كُتِب عليكم القتال ألّا تقْتلوا، ومعنى ذلك سؤال من نبيهم لهم حين قالوا له: ابعث لنا ملكا نقْتل. كأنه قال: هل ظننتم إن كُتب عليكم القتال ألا تقاتلوا[١] ولا ينتقم الله منكم إذا لم تفعلوا، أي بل ينتقم بسبب تركِ أمره. قالوا وما لنا ألا، أن لا، نقْتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديْرنا وأبنائنا، تقديره وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله وسبيلِ أبنائنا، أي دفعا عنهم؛ وهو كقوله: وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ.[٢] وانظر إلى ذكر الإخراج ههنا الذي يدل على أمر لهم بالقتال حين الإخراج / ذبًا عن أنفسهم لمن بدأهم بالقتال وإن لم يكن قد كُتب عليهم القتالُ. [٦٠و] فلما كتب عليهم القتال، ووجب أن يبدءوا هم به،[٣] تولوا إلا قليلا منهم. والله عليم بالظّلمين، منهم الذين تولوا. فذكر الإخراج من الديار[٤] ههنا كذكرِ الإخراج فيما تقدم. وكلاهما قبل أن يُكتَب القتال. وأما آخر الآية التي مَدَح بها الذين قال لهم الله: مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ، فإنه، إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ.[٥] وآخر هذه الآية التي تقتضي ذمَّ مَن تأخّر عن الجهاد: والله عليم بالظّلمين. فتأمل وقِفْ فيما يُشكل عليك طويلا متأنيا مكرّرا. فهذا الفعل منك هو الدعاء الذي يُفتح عليك الفهمُ به، والفتحُ هو الإجابة من الله سبحانه.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾

وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا، وهو اسم مشتقٌّ من صفته من الطُّول، فهو كهاروت ماروت. قالوا أنّى، كيف، يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه

---

١ ر: ألا تقولوا؛ ك: أن لا يقاتلوا.

٢ ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ (سورة النساء، ٤/٧٥).

٣ ر ش: أن يبدؤهم.

٤ ش – من الديار، صح هـ.

٥ الآية ٢٤٣ من هذه السورة.

ولم يؤت سعةً من المال، وهذا لا يُفهم منه: ولم يُؤت شيئا، بل يُفهَم أن المشار إليهم من بني إسرائيل كانوا قد أُوتُوا سعةً، وأنه كان أقلهم مالا، وكونُهم رأوا أنهم أحق فلأنه لم يكن من الأكابر. فلما افتخروا عليه، قال إن الله اصطفٰه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم. والله يؤتى ملكه من يشاء. والله وٰسع، ذو سعةٍ أعظم من سعتكم بمالكم، عليم، بالأصلح في كل حال.

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾

وقال لهم نبيهم إن ءاية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم، التابوت صُندوقُ الشهادة وسنبينه، وبقية مما ترك ءال موسىٰ وءال هٰرون تحمله الملٰئكة. هذا كلام بيِّن في التوراة الى الآن. والتابوت صندوق من خشب كان موسى صَنَعَه، وحديثه في التوراة وطوله وعَرضه وهيأته.[١] وكان موسى عليه السلام قد كَتب جميعَ كلام التوراة بيده، ووضع ذلك في هذا الصندوق، ثم وضع بَرْنِيّة[٢] من المَنّ الذي كان يَنزل على بني إسرائيل ليَعلم أبناؤهم أيَّ شيء أطعم الله آباءَهم في التيه. وهذا نص التوراة.[٣] وسماه فيها صندوق الشهادة ليَشهد عليهم ما فيه من كلام الله تعالى بين يدي الله تعالى وعند من يَعلم من الناس. والسكينة مشتقة من السكون، ويشير بها إلى التوراة لأنها توجب السكينة لكل مَن امتثلها. وأما قوله: تحمله الملٰئكة، فلا أَعلمُ ذلك من التوراة ولا متى كان حملُ الملائكة له.

وإنما هذا كلام يدل على رؤيتهم للتابوت محمولا على غير[٤] جسم، والله أعلم. وإنما ذكر علماؤهم أن صندوق الشهادة والمسكنَ الذي أمر الله موسى بعمله[٥] كالخيمة العظيمة بعَمَدٍ[٦] مُغشاةٍ بالذهب كان يُجذَب على البقر وأنه كان لعظمِ ثقله تَحمله الملائكةُ. فسيرُه مع بني إسرائيل على زوجين من البقر كان معجزا من جملة المعجزات،

[١] انظر: الخُرُوج ٢٥/١٠-٢٢، ٢٦/٣١-٣٤، ٣٠/٦، ٢٦، ٣٦، ٣١/٧، ٣٩/٣٥، واللاوِيِّين ١/٣-٥، ٢٠-٢١، والعَدَد ٧/٤٩.

[٢] ك: برنة. | البرنيّ ضربٌ من التمر أصفرُ مُدَوّر وهو أجود التمر واحدتُه بَرْنِيّةٌ (لسان العرب، «برن»).

[٣] الخُرُوج ١٦/٣٢-٣٦، والتَّثْنِيَة ٨/١-٢٠.

[٤] ك - غير، صح هـ.

[٥] ر ك: بعلمه.

[٦] ر - بعمد، صح هـ.

هذا كلامهم. وقيل: بعد وفات موسى لم تَحمله البقرُ. فيحتمل أن الله تعالى جعل جذْبَ البقر له بعد وفات موسى علامةً لمُلك ذلك المَلكِ، ولهذا قال: **إن فى ذٰلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين**، وتقديره فمَلَكَ طالوت عليهم وخرج مجاهدا في سبيل الله.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾

فلما فصل طالوت بالجنود، وسار عن مقرِّ ملكه، **قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه**، يذُقْ طعْمَه، **فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده**. قال برهان الدين الكرماني[١] صاحبُ تفسير الغريب والعجيب ولباب التفاسير: "غرفة" بالضم مفعول به، لأنه لم يَظهر فاعلُه، وهو قليل من الماء، وبالفتح[٢] مصدر، والمفعول به محذوف.[٣] وتقديره: إلا مَن اغترف الماءَ غرفةً، فالمفعول المحذوف هو الماء. **فشربوا منه إلا قليلا منهم**، وقد علمت أنهم أولا لَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا،[٤] وذلك القليل هم الجنود ولهذا سمّاهم الجنودَ. ثم لمّا عَبَروا على الماء شربوا إلا قليلا منهم. فبقي القليل من القليل الأول ليعرّفَنا الله[٥] أنهم إنما غلبوا بالإيمان لا بالكثرة. **فلما جاوزه**، عَبَره، **هو والذين ءامنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملٰقوا الله**، يحدثون أنفسهم بذلك وهو أصل الظن. ولهذا / حسن للشك واليقين.[٦] [٦٠ظ]

---

[١] أبو القاسم برهان الدين تاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، عالم بالقراءات. له كتب، منها: لباب التفاسير وهو المعروف بكتاب العجائب والغرائب، ضمنه أقوالا في معاني بعض الآيات. توفي سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م (الأعلام للزركلي، ١٦٨/٧).

[٢] قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وكذا أبو جعفر بفتح الغين، وافقهم ابن محيصن واليزيدي والشنبوذي، والباقون بالضم (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٢٠٧).

[٣] غرائب التفسير للكرماني، ٢٢٣/١.

[٤] الآية ٢٤٦ من هذه السورة.

[٥] ش ك - الله.

[٦] ر - واليقين، صح هـ.

وهؤلاء خاصةً هم الذين قاتلوا، والباقون من المؤمنين قالوا: لا طاقة لنا اليوم. وإنما ذكر "اليوم" لِما نالهم فيه من العطش والتعب فقالوا: الواجب من حيث الأجسام، والآخرون لمحبتهم لقاءَ الله تعالى بالشهادة في الجهاد قالوا: الواجب من حيث الأرواح، وكلاهما صادق لكن بينهما بَوْنٌ. ولهذا لم يعتمد هؤلاء في لقاء العدو على كثرتهم بل قالوا: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله. والله مع الصّٰبرين، صَبَرُوا أوّلا على[1] الماء، ثم على لقاء الكثير مع قلتهم لكثرة إيمانهم. وهذه الأقوال من الفريقين تُعطي أنها كانت عند مشاورة الملِك لهم. وهنا تنبيه يعطي كونَهم لم يتركوا جهاد النفس حتى وهم مستقبلون لقاءَ الأعداء. ومن ههنا يُفهم مثل معنى قوله: وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ.[2] هذا ما لم يقع العسر. وقوله: إلا من اغترف غرفة، لو لم يقل: "بيده" لجاز أن يغترف بإناء، فبين بقوله: بيده، على أنه مَن ترك شيئا لله فاضطر إلى استعماله يجب أن لا يَستعمل منه إلا القليلَ، كمن اضطر إلى استعمال الحرام كالميتة، أو المحرَّم كالأكل في رمضان، فإنه لا يحسُن أن يأكل فيه كما يأكل في غيره بل يأخذ من الطعام والشراب ما يثاب على أخذه لكونه أزال الضرر والعسرَ عن نفسه.

واعلم أن مفهوم النص يعطي أن الذين شربوا لم يَعبُروا معه، وهذا فائدة ابتلائهم بالنهر. ولهذا قال: فلما جاوزه هو والذين ءامنوا معه، يعني خاصة، وهؤلاء المؤمنون منهم من قال بطبع[3] البشرية: لا طاقةَ لنا اليومَ، والذين يظنون بعضُ المؤمنين وهم الباقون، ولهذا سماهم بهذا الاسم، ولم يقل: قال المؤمنون، والمؤمنون[4] بعض الجنود، والجنود بعض بني إسرائيل. فَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ،[5] بما ظنوا وقالوا وفعلوا. وذلك قوله تعالى: ولما برزوا لجالوت وجنوده، أي في ذلك الحين، فلم يصبروا حتى برز العدوُّ إليهم بل هم برزوا، قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكٰفرين.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾

---

١ ر ك: عن.
٢ الآية ١٨٤ من هذه السورة.
٣ ش ك: يتبع.
٤ ر – والمؤمنون.
٥ سورة الأحزاب، ٢٥/٣٣.

فهزموهم، أيَّ هزيمةٍ، إشارةٌ إلى جنود جالوتَ، **بإذن الله وقتل داود جالوت**، بحجر من مِقْلاع[١] كان له وهو يرعى الغنمَ وكان صبيا، وقيل: دون البلوغ. وفي كتب بني إسرائيل قصته عجيبة جدا. وكان جالوت من أعظم جبابرة أهل فَلَسْطِينَ وعَمَالِقَتِهِم،[٢] هائلا في الخِلقة والعِدَّة، يَطلُع في كل يوم وينادي: "هل من مبارز" إلى أن سمع داود، فتكلم في أطراف جمعِ بني إسرائيل كلاما يوجب لمن يسمعه أن ينقله إلى طالوت. وفعل ذلك مرة بعد مرة إلى أن سمعه طالوت فأحضره داود وألبسه من عُدَد الحرب ما يقيه. فما أطاق المشيَ بذلك، فقال: أيها الملك، انزع عني هذا فإني إنما ألاقي بالله. ورفع رأسه إلى السماء، ونادى: إلٰهي ليس بسيفي أَثِق وقوسي لا تعينني،[٣] بل بك أغوص الجِدَّ وبإلهي أقطع المهالك، وله كلام عجيب. وكان كلامهما عند اللقاء عجيبا، ما أمكن أن نطوّل به. ثم ظَفِر بنو إسرائيل بقوم جالوت وعظُم في بني إسرائيل أمرُ داودَ. **وءاتىٰه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء**، [أي] داودَ. ولهذا جاءت بالياء وجاء قبلها، مما، فافهم. **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولٰكن الله ذو فضل على العٰلمين**. ومعنى "لفسدت الأرض"، أي بفساد أهلها، بل يدفع الكافر بالمؤمن والكافر بالكافر عن الفساد، لأن المقهور الذي زال استيلاؤه[٤] زال بزواله فساده.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾

تلك ءايٰت الله نتلوها عليك بالحق. وإنك لمن المرسلين. والرابطة بين هذه الآية وبين التي بعدها أنه لمّا ذكَر المرسلين وذكر أنه منهم وَصَفهم بأنه فضَّل بعضهم على بعض، وقدم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم على ذكرهم ووصفهم.

---

[١] المقلاع الذي يُرْمَى به الحجر (لسان العرب، «قلع»).

[٢] العِمْلاق: الطويل، والجمع عماليق وعمالقة (تاج العروس للزبيدي «عملق»).

[٣] ر: لا تغيثني.

[٤] ك – استيلاؤه، صح هـ.

ثم لما كان قد قدّم ذكْر القتال وأمر به ووصف الشهداء وذمَّ مَن تولى عن الجهاد ولم يتبع أمْرَ المرسَل ذكر في هذه الآية ما / يناسب ما تقدم من ذكر الرسل، [٦١و] وذكر مَن خالفهم ومن اتبعهم فقال: **تلك الرسل فضلنا بعضهم علىٰ بعض منهم من كلم الله**، كموسى، **ورفع بعضهم درجٰت**، أي على بعض. ولما خصَّص موسى وعيسى بالذكر دل على تفضيل ورفعٍ. فالرفع هو بالدرجات، والتفضيل بالتوراة والإنجيل وإن جاز بغير ذلك. **وءاتينا عيسى ابن مريم البينٰت وأيدنٰه بروح القدس. ولو شاء الله**، أي مشيّةَ الإلجاء والجبرِ، **ما اقتتل الذين من بعدهم**، إنباء عن قدرته تعالى، **من بعد ما جاءتهم البينٰت**، ويشير إلى اليهود والنصارى بعد ما جاءتهم رسلهم بالبينات من الكتب المنزَّلة والمعجزات القاطعة. وقوله من قبل: **ولو شاء الله**، ثم قال: **ولٰكن اختلفوا**، يدل على أنه ما شاء أن يقتتلوا ولا شاء أن لا[1] يقتتلوا، ولكنهم اختلفوا فاقتتلوا بغيا. فالكلام أنبأ به ههنا عن قدرته على منعهم لو شاء. ولا يلزم أنه إذ لم يشأ ذلك شاء ضدَّه، لأن القرآن لم يشهد بذلك. ولو كان كذلك لكان عذرُهم في الاختلاف واضحا.

ولمّا جاء في بعض المواضع ما يدل على شرّ برز إلى العبد من جهة الرب وَهَمَ فيه كثير من الناس فظنوا أنه ابتداءً، ولو ظنوا أنه كان جزاءً وعقابا لانحل[2] الإشكالُ. وإذا رأينا كلاما يحتمل وجهين، أحدهما يجوز حملُه عليه والآخر لا يجوز وجب في العقول الصحيحة حملُه على ما يجوز.[3] فتقدير الكلام ههنا ولو شاء الله قبل الاقتتال ألّا يقتتلوا لَما أعجزوه. وإنما لم يشأ إجبارَهم لئلا يبطل غرضُ التكليف و[لكن] اختلفوا هم، **فمنهم من ءامن ومنهم من كفر**. فاقتتلوا من بعد ما جاءتهم البينات، وذلك لاختلافهم. ونظير ذلك أن نقول:[4] لو شاء السلطان الأعظم لم يَشرب النصارى في سلطانه خمرا، ليس ذلك دليلا[5] على أنه[6] شاءه. وأما تكرير قوله: **ولو شاء الله ما اقتتلوا**، فمعناه بعد الاقتتال الأول، أي لو شاء الله سبحانه أولا قبل الاقتتال وبعد الاختلاف لأجبرهم على أن لا يقتتلوا. ولو شاء بعد الاقتتال -إذ لم يُجبرهم أولا- لأجبرهم أخيرا، فهذا هو المعنى. ولهذا جاء اللفظ الأول من المشيئة قبل الاقتتال،

---

[1] ر - لا.
[2] ش ك: وعقابا لا ينحل.
[3] ر + دون ما لا يجوز.
[4] ش: أن تقول.
[5] ش: دليل.
[6] ر + لو.

والثاني بعده. فلو أجبرهم قبلُ لم يكن قتال. ولو أجبرهم بعدُ لم يَعْدُ[1] قتالٌ، ولا يزالون مختلفين فلا يزالون مقتتلين. والمشيئة مشتقة من شيء، وهو اسم الموجود. والمشيئة القصد إلى إيجاد الشيء، يقال: شيّأ[2] الله كذا إذا أوجده بعد العدم. والإرادة الطلبُ وهي أعم من المشيئة، تقول: فلان يريد الدار، ولا تقول: يشاء الدار، فليس لنا أن نقول: لِمَ لا شاء وفعل وهو قادر. ولكن الله يفعل ما يريد. والذي أراده هو أن يكونوا مكتسبين غير مجبَرين، إذ لو أجبرهم على حالةٍ من قبلُ أو من بعد لبطل غرض التكليف.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾

ولمّا كانوا مكلَّفين قادرين على امتثال الأمر فيحصل لهم الأجر وعن الانتهاء عما نُهوا عنه فيحصل لهم أجر آخرُ قال لهم: يٰأيها الذين ءامنوا أنفقوا مما رزقنٰكم، وهذا الإطلاق يحتمل كلَ ما رزق الله سبحانه. ومن ذلك عمر الإنسان وصحته وحواسُّه وغير ذلك، من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفٰعة والكٰفرون هم الظٰلمون.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾

ولما قدّم قوله: وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ،[3] عَطَف عليه مخاطِبا للمؤمنين ذامّا للكفار ومخوِّفا لهم من هول ذلك اليوم الذي لا شفاعة فيه فقال: الله لا إلٰه إلا هو الحى القيوم، أي فكيف لا يفعل ما يريده وهذه أوصافُه! والحيّ ذو الحياة. ولا يجوز أن يُفهَم من اللفظ ما قد يُفهَم مما هو خارج عن اللفظ، وإن كان لازما للموصوف في ذاته لا[4] من جهة ذلك اللفظ في موضعه، كما قيل: هو محيي الأموات؛ بل يفهم كل شيء في موضعه من اللفظ الدال عليه القائم به. والقيّوم، مِن قامَ يقوم مثل أيّوب من آب يئوب، وهو مِن فَيْعُول لا فَعول. لا تأخذه سنة ولا نوم، كما نقول: لا يعتريه لا قليل ولا كثير،

---

[1] أي لم يكن.
[2] ش: شاء.
[3] الآية ٢٥٣ من هذه السورة.
[4] ش: في ذاته إلا.

إذ قد يَرِد النومُ جملةً وقد يأتي بتدريج. والسِّنَة ما يرِد من لطيف النوم، وهو مبتدأ النعاس الخفيف يرِد مع الانتباهِ والعينُ مفتوحة / في أكثر الأمر. ولهذا قيل: السِّنَة في [٦١ظ]
الرأس والنومُ في العين. وقيل: أصلها من يَتَسَنَّه أي يتغير، فأول النوم يعرض[١] للإنسان تغيرا مَا،[٢] والله أعلم بكلامه.

له ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه، الإذن هو الإباحة التي تقوم مقام الأمر. **يعلم ما بين أيديهم،** يَعمّ ما في السماوات والأرض، ويشير إلى الكفار ويلزم عنهم غيرهم، **وما خلفهم،** المعنى ما يكون بعد عدمهم وقبل إيجادهم. ويلزم ما بينهما؛ وهو كقولك: يعلم المستقبل والماضي، أو ما تقدم[٣] وما تأخر، أو ما قبلُ[٤] وما بعد. وبيانه في قوله تعالى: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَ﴾.[٥] وهذه الكلمة أعني، **ما بين أيدهم،** يعبَّر بها[٦] عن الآتي والحاضر، لكنها أدل على الحاضر. وقدّم "ما بين أيديهم"، لأنه المستقبل، والعلمُ بما سيكون أبلغ في العقول من علم ما كان. ويُفهَم من قوله: **ما بين أيديهم،** سائرُ ما يدركونه حسا وتعقلا، لأن الإنسان يُدرك ما بين يديه. وقوله: **وما خلفهم،** هو ما لم يَنَلْه علمُهم ولا يناله أبدا، بل غيب، لأن الخَلْفَ لا يناله الحسُّ فهو يَعلم علمَهم ولايعلمون علمه، كقوله تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ﴾.[٧] وافهم قوله: **ولا يحيطون،** فهم يَعلمون ما علّمهم.[٨] **ولا يحيطون بشىء من علمه،** وفرغ القول. ثم قال: **إلا بما شاء،** أي لكن يحيطون بما شاء أن تكون لهم به إحاطةٌ. وليس المقصود إلا بما شاء من علمه؛ لأن علمه قديم، والمحدَث لا يحيط بالقديم. ولو أحاطوا بالعلم لأحاطوا بالعالِم تعالى، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمًا﴾.[٩] وهذا هو الاستثناء المنقطع، ومثله ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾،[١٠] والسلام ليس من اللغو وإن كان من جملة المسموع. فلا تَعتقد أن العلم القديم يحاط به أو بشيء منه، إذ صفات الله سبحانه كذاته، والعالَم كله محدَثٌ، وعلومُهم محدثة وإن كان العلم عظيما، إذ لعظمته قيل: العلم أفضل ثواب. فالعلم والعالِم والمعلوم محدَثٌ ومحاط به بمحدث.

---

١ ش: تعرض.

٢ ش: تغير ما.

٣ ش ك: وما تقدم.

٤ ش ك: وما قبل.

٥ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمۡرِ رَبِّكَۖ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾ (سورة مريم، ٦٤/١٩).

٦ ش ك - بها.

٧ سورة المائدة، ١١٦/٥.

٨ ش - ولا يحيطون فهم يعلمون ما علمهم، صح هـ.

٩ ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ (سورة طه، ١١٠/٢٠).

١٠ سورة مريم، ٦٢/١٩.

ولهذا قال: وسع كرسيه السمٰوٰت والأرض، فجمع كلَّ محدَثٍ وأحاط كرسيُّه بهم. والكُرْسِي مشتق من كَرْسَى يُكَرْسِي مثل عَلَى يَعلِي، والاسم "عليّ" يقال للمسكَن العالي. وتقديره كَرْسَي بفتح الياء ليكون فعلا ماضيا كما تَفعل العرب في اتخاذ الأسماء من الفعل الماضي للمبالغة، كما في قولهم: حَكَم. وجاء كرسيّ على ما لم يُسَمَّ فاعله تعظيما لله. لأن المحدَث خُلق كلُّه عن أمره لا عنه. فافهم قدْرَ هذه الكلمة. والكَرَس كون الشيء بعضه على بعض، ومنه الكُرّاسة. فالكرسي كُرْسِيَ بالأمر، وشُدِّدت الياء للنسبة. والمقصود من هذا وأمثالِه[١] تقريرُ عظمة البارئ تعالى في النفوس وتعظيمُه في الأذهان والقلوب. فخاطب الخلْقَ بما اعتادوه في ملوكهم وعظمائهم. ويقال: آدَهُ إذا أثقله، وهو الثقل المعنوي. ومنه: ولا يئوده حفظهما، والأَوْد أيضا هو الميل من الثقل. وكل هذه الأمثال خطاب لنا بأمثالٍ نفهمها. وهو العلى، عن الأمثال، العظيم، عما يَخطر في البال، أو يمكن أن يقال: بل الأمر في ذلك كما قيل. شعر:[٢]

أومَـتْ إليـك حـقـائـقُ الأسـمـاء ... وعـلا عـلاؤك سـائـرَ الأنـبـاءِ،[٣]
فتقطّعتْ عنك العقولُ وأصبحت ... مسجونةً في ظلمةٍ وعَماءِ،
فالصمتُ أفصحُ نُطْقِها وكأنها ... قالت: ليَصْمُتْ سائرُ النُّطَقَاء.[٤]

وهذه يجب أن تكون عقيدة مَن فَهِم من قوله: تَعَالَى تعالَيْ، فهو تعالى فوق الأسماء والصفات. وإنما اختصت به الأسماء الحسنى والصفات العظمى من جهتنا لنَعرف بها ما يجب أن نعرفه منه تعالى، فيعودَ علينا نفعُه[٥] كما قيل:

مِن حيثُنا ظهرت أسماؤه وَلَـهُ التـ ... ـتَنْزيه عنها فكلٌّ لا يجاورُه،
ألا تـراهـا حـديثا قد تَقدمها ... إن القديم حديث لا يُخامره،[٦]
وعن تعالى تعالى[٧] أن[٨] يقال له ... من خلقه أبدا لولا أوامره.[٩]

فهو من حيثنا وجهتُنا له الأسماء والصفات لنعرف بأمثال تلك الأسماء والصفات منا[١٠] ما عرَفْنا بها منه بغير مشابهة لنهتدي إلى امتثال أوامره التي عائدها علينا بما يَستقر

---

١ ر: ومثله.
٢ ر ك – شعر.
٣ ش ر: الأنبياء.
٤ شجون المسجون لابن عربي، ص ١٤٧.
٥ ش – فيعود علينا نفعه، صح هـ.
٦ أي لا يخالط الحديثُ القديمَ.
٧ أي بسبب تعاليه من كل محدث تنزه أن يوصف من جانب الخلق إلا بأمره وإذنه.
٨ ش – أن، صح هـ.
٩ شجون المسجون لابن عربي، ص ١٤٦.
١٠ ش – لنعرف بأمثال تلك الأسماء والصفات منا، صح هـ.

في أنفسنا من التعظيم منا له، ويفاض عليها من الرحمة منه لنا. وأما ما عدا ذلك فهو فوق طَور / عقولنا وقياساتنا، لأننا لا نَعرف مجهولا ولا نقيس عليه. وأما المعلوم [٦٢و] عندنا فقد أحَطْنا به، وهو سبحانه أحاط بنا وبمعلوماتنا. والله بكل شيء محيط.[١] فلا يمكن أن يحاط بالمحيط المطلق سبحانه وتعالى. شعر:

يا من إذا فكّرتْ في بعض صنعته ... أفهامُنا تاهت الأفهامُ والفِكَرُ،
أنت العليُّ علوًّا لا أخير له ... فمن رأى غير هذا غرَّه النظرُ،
وغاية القوم إن راموك واجتهدوا ... رضاك وَهْو بأن يأتوا بما أُمروا.[٢]

ولما كانت هذه الآية من أبلغ ما يستقر به تعظيمُ الحق في قلوب الخلق فتجب عبادتهم له عليهم.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾

قال بعدها: لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغيّ. قال السدي وابن زيد:[٣] إن هذه الآية منسوخة بالآيات التي أمر فيها بالحرب.[٤] وليس بنا حاجةٌ إلى إثبات ما قيل ونقضِه. بل اعلم أن المراد بقوله: لا إكراه فى الدين، أي فيما هو دين بالحقيقة، لأن الدين هو من أفعال القلوب التي تَتبعها[٥] الجوارحُ في بعض الأحوال عند الوجوب. وأما ما يُكرَه عليه المُكرَه من إظهار الشهادتين فليس بدين، مِثْلَ الذي يُكرَه عليه المؤمن من إظهار الكفر وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ،[٦] فذلك ليس بكفر. فالطمأنينة بالقلب هي التي يُشار إليها، والقلب موضع الدِّين الذي لا إكراه فيه. فالقلب ههنا هو الذي يَكره -بفتح الياء- لا اللسان. وإنما قد يدل اللسان عل ما في القلب. وذلك الذي في القلب لا يكون فيه إكراهٌ. وإن نسخْنا هذا لزم ضدُّه، وهو في الدين إكراهٌ، فنخالف[٧] الله عز وجل.

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾ (سورة النساء، ١٢٦/٤).

٢ لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر. لعله من نظم المؤلف رحمه الله.

٣ لم يتبين لي من هو.

٤ النكت والعيون للماوردي، ٣٢٧/١؛ وأحكام القرآن لابن العربي، ٣١٠/١.

٥ ش: التي يتبعها.

٦ ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ (سورة النحل، ١٠٦/١٦).

٧ ش ك: فيخالف.

إذ نقول: في الدين إكراه، ويَبطل معنى قوله بعده: **قد تبين الرشد من الغيّ. فمن يكفر بالطّغوت**، وهو كل ما يُطغي، وهو مشتق من الطغيان.[1] **ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقىٰ لا انفصام**، انكسارَ، **لها. والله سميع عليم.**

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾

الله ولى الذين ءامنوا يخرجهم من الظلمٰت إلى النور. والذين كفروا أولياؤهم الطّغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمٰت، من نور الإيمان إلى ظلمات الكفر، ومن نور العقل إلى ظلمات الجهل، ومن نور البقاء إلى ظلمات الفناء، ومن نور القِدَم إلى ظلمات الحَدَث. وكل هذه الأقاويل وأضعاف أضعافها هو داخل في الإطلاق المدلول عليه بلفظ القرآن. **أولٰئك أصحٰب النار هم فيها خٰلدون.**

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾

ألم تر إلى الذى حاج إبرٰهيم فى ربه، لأجل، **أن ءاتىٰه الله الملك إذ قال إبرٰهيم ربى الذى يحىۦ ويميت قال أنا أحىۦ وأميت قال إبرٰهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب**، أراد أن إتيان الشمس من المشرق[2] هو الحركة القهرية، ومن المغرب، أي على حركتها الأصلية طوعا،[3] فهو أسهل، فافهم ذلك، ثم انظر كيف اعتمد الكافر في المعارضة على العبارة فقط دون إيجاد الحياة للميت. فلم يُجبه إبراهيم بإبطال دعواه من حيث اللفظ بل حَجَّه بلفظ آخر يُعجزه في المعنى والعبارة ليكون إبراهيم قد قهر الكافرَ من جنس ما عارضه به في الظاهر. وهكذا يجب أن يَقهر صاحبُ الحق العالِمُ صاحبَ الباطل الجاهلَ، ولا يضيّعَ صاحبُ الحق وقتَه في إثبات حجته التي لا يَعيها المبطلُ، بل يأتي بمثلها في المعنى وبمثل ما عارض به المبطلُ في اللفظ.

---

[1] ش ك – وهو كل ما يطغي وهو مشتق من الطغيان.
[2] ر – من المشرق، صح هـ.
[3] ش – طوعا، صح هـ.

فافقه ذلك واعمل به، فانظر كيف ثناه[1] عن دعواه بما كأنه قد سلّمه منها إليه، ثم اقترح عليه فكان الجواب بالحال. فبُهت الذى كفر، جاء على صيغة ما لم يُسمّ فاعله، لأن "بَهُت" بفتح الباء وضم الهاء، أي في نفسه من غير أن يَبْهَته غيرُه. وهذا الوزن غير ذلك في الماضي والمستقبل. لأن "بهت" بفتح الهاء متعدٍّ، مستقبله بفتح الهاء، و"بهُت" لازم مستقبله بضم الهاء أيضا. والله لا يهدى القوم الظّٰلمين.

﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾

أو كالذى، معطوف على قوله: ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم، وهذا كلامُ ذمٍّ. ولمّا [٦٢ظ] كان الكلام فيما يتعلق من صفات البارئ بالقدرة كما دلت / تتمةُ الآية أتبعها بمثلها من قبيل الدالّ على القدرة، وهو البعث فقال: أو كالذى، والمعنى ألم تر إلى جهل الذي، أو الذي، فالثاني معطوف على الأول. وههنا نكتة، وهو أنه زاد كافَ التشبيهِ ليعود الذمُّ على من قال مثْلَ مقالة الذي مر ممن يُنكر البعث، وينكر قدرة البارئ سبحانه كما أنكر المحاجِج لإبراهيم. لأن الذي مر كان -فيما روي- نبيّا، فأتبعه بذكر نبي[2] وهو إبراهيم. فتعجب تعجُّبَ استعظامٍ لا جحدٍ[3] واستبعادٍ. لهذا قال: أو كالذى، ولم يقل: أو الذي. ثم أتى بعده بقصة إبراهيم مناسبا ليُعلم أنه كان نبيا، فأتبعه بذكر نبي وأنه إنما طلب من جنسِ طلبِ إبراهيم، وهو الطمأنينة. فلهذا قال: أو كالذى، ومعناه أو إلى مثل الذي، مر علىٰ قرية وهى خاوية علىٰ عروشها، خاوية لا أنيس بها، والخَوَى خُلُوُّ البطن. وقوله: على عروشها، أي قد بقيت القريةُ على العُروش ساقطةً. والعروش كل ما يُعْرَش من سريرٍ وسقف وكَرْم، فوقعت السقوفُ. ثم من طول السنين وقعت الحيطانُ على السقوف. قال أنىٰ يحيِۦ هٰذه الله بعد موتها، وهو تعجب من القرية. ولو قدّم وأخّر فقال: أنّى يحيي الله هذه بعد موتها لكان التعجب

---

[1] أي صرفه.
[2] ش – لإبراهيم لأن الذي مر كان فيما روي نبيا فأتبعه بذكر نبي.
[3] ر: لا حجة.

من الله سبحانه واستبعادُ وقوعِ القدرة منه، وليس كذلك. فافهم هذا واتخذْها لك مِفتاحا ودليلا على أمثالها. ومن هذا القبيل تعجُّبُ زكريا عليه السلام ومريم بقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾،[1] و﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾،[2] كما ستراه.

فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم. وجملة الكلام إذا تأمله ذو النظر[3] يدل على أنه قُبض في وقت وبُعث في مثله، لقوله: مائة عام، فلا جائز أن تكون مائة ويوما، أو إلا يوما، أو ساعة. ويدل على أن ذلك كان نهارا لقوله: **فانظر إلى طعامك [وشرابك لم يَتَسَنَّهْ]**. وأما قوله: **لبثتُ يوما أو بعض يوم**، إشارة إلى أنه لا أكثرَ من يوم ولا أقل من بعض يوم الذي يدل على لُبث مّا. وذلك أن الإنسان إذا استغرق في نومه ثم انتبه في الوقت الذي نام في مثله فإنه يشتبه عليه مقدارُ المدة مع تحققه أنه قد نام. لكنه ههنا ظن: إما قد نام من وقت[4] إلى مثله، أو أنه قد نام نوما يسيرا لم يَبِنْ له مقدارُه فيسميه برُبْعٍ أو عُشرٍ مثلا. فلزم مَن نام في وقت وانتبه في مثله من النهار أن يقول هذه المقالة بعينها. ولا يتم المعنى مطابقا للَّفظ إلا بهذه الصورة خصوصا. والناظر إلى قُرْص الشمس إذا رآه موضعه قبل نومه فإنه لا يحقِّق مقدارَ زواله يقينا. فلزم أن يعبر بالبعض الذي يدل على أيسر ما يكون مثلا. واليوم الذي يدل[5] على [مقدار] مِن وقت إلى مثله لا أكثر من ذلك ولا أقل من هذا. فافهم جيدا.

قال بل لبثتَ مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه، هذه اللفظة بعينها مُصحَّفة في العبري؛ وتفسيرها عندهم "يتغير"، ولفظها بالعبري "يتشنه". والمشار إليه كان نبيا في بني إسرائيل، وقصته مشهورة عندهم. وهذا الكلام ههنا أعني النظر إلى الطعام والشراب لم يتغير يوجب التشكيك في البعث أو في أنه لبث مائة عام، ويزيل التشكيكَ ما سيأتي. فإذا زال الشك صار معجزا بالعيان بعد الإيمان، فتحصل الطمأنينة والإيقان. والذي يزيل الشكَّ قولُه: **وانظر إلى حمارك**، أي بضد الطعام والشراب. **ولنجعلك ءاية للناس**، علامةً تدل[6] على صحة البعث وقدرة الله تعالى على بعث تلك القرية وغيرها. وإنما كان نبيا لأنه صادقٌ فيما يُخبر عن نفسه، ولأن أهل زمانه تحققوا ذلك.

---

[1] ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٤٧).

[2] ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ (سورة مريم، ١٩/٨).

[3] ر: ذو نظر.

[4] ر ك: من الوقت.

[5] ك – على أيسر ما يكون مثلا واليوم الذي يدل، صح هـ.

[6] ك: يدل.

وانظر إلى العظام كيف ننشزها، مِن أنشز ينشز وهو من النشوز. ثم نكسوها لحما، وأنت ناظر إليها، فأراه الله آيةَ البعث في نفسه وطعامه وشرابه وحماره. وإنما لم ينظر بعْثَ الطعامِ لأن الطعام يَسبق الأكلُ له، كما خلق الله تعالى أولا فقدر الأقوات، ثم خلق الإنسان.[1] وليس هذا عندي بصحيح بل الطعام والشراب أبقاه الله على حاله فلم يتغير ليكون ذلك أبلغ في تنوع القدرة، إذ أبقى ما لا يحتمل البقاء إلا اليسير [في
المدة] فيتغير، فلم يتغير مائة عام. / فسبحان الله العظيم. [٦٣و]

فلما تبين له، بالعيان ما كان له به الإيمان من أن الله قادر على ذلك اطمأن قلبُه. ولهذا لم يقل: علمتُ، بل، قال أعلم أن الله علىٰ كل شيء قدير.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

ومثل ذلك جاء بعده، وهو قوله: وإذ قال إبرٰهيم رب أرنى كيف تحيِ الموتىٰ. ثم شرح تعليلَ قول النبي الأول في كلام إبراهيم بقوله: قال أولم تؤمن قال بلىٰ ولٰكن، أُحب أن[2] أرى ذلك، ليطمئن قلبى، ليعرِّفنا أن الأول أيضا أراد أن يرى ليطمئن[3] قلبُه لا لجحوده ذلك. فأراه الله في نفسه وغيره، وإبراهيم أراه الله في غيره ليدل على أنه كان أقوى إيمانا من الأول، ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم كان غنيا عن ذلك كله لِما ثبت[4] الله به قلبه من القرآن الذي لم يُؤتَ ولا يؤتَى أحدٌ مثلَه. قال فخذ أربعة من الطير، أي أربعة كانت من جنس أو من أجناس مختلفة. فصرهن إليك، قرئت بضم الصاد وكسرها.[5] وقال في صحاح الجوهري: ما نُقل عن العرب صُرت الشيء: قطعته وفَصَلته.[6] وقال أيضا: صاره يصيره لغةً في يصوره أي قطعه.[7] ولهذا بعده: ثم اجعل علىٰ كل جبل منهن جزءًا، إشارة إلى تصغير الأجزاء بحسب الإمكان، ودل على تجزئةِ

---

١ انظر مثلا: سورة الأعراف، ٥٤/٧. وانظر أيضا: سورة فصلت، ١٠/٤١.

٢ ش ك - أن.

٣ ك: لتطمئن.

٤ ر ك: لما أثبت.

٥ قرأ حمزة وأبو جعفر ورُويس بكسر الصاد، وافقهم الأعمش، والباقون بالضم؛ قيل هما بمعنى واحد (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٢٠٩).

٦ الصحاح للجوهري، «صور».

٧ الصحاح للجوهري، «صير».

سبقت من قبلِ الجعل بصورة مقترَحة لإبراهيم، وهي التي دل عليها بقوله: **فصرهن**. وقوله: **إليك**، بعد قوله: **فصرهن**، هو[1] منسوق بقوله أولا: **خذ**، أي خذ إليك، **أربعة من الطير**، وتمامه، والكلام معترض بينهما. وفائدة تأخير "إليك" ليعود الكلام على سُنَّة العرب، لأنها تُقدِّم الشيء للاهتمام به كما بيناه. **ثم ادعهن يأتينك سعيا**، ولم يقل: طَيَرانا لأن الطير يشبه[2] بعضه ببعض، فأراد أنهن يأتين إلى إبراهيم على صورة من الإتيان. تلك الصورة علامة أخرى تدل على أن هؤلاء هُنَّ ما جعلهن على كل جبل منهن جزءً، فيأتين بصورهن على هذه الصورة أيضا، ولنعلم أن ذلك لم يره إبراهيمُ في سِرِّه أو على بُعدٍ لم يشاهده إبراهيم، بل على مسافة يمكن أن يرى صورة الإحياء. ويمكن في العرف والعادة أن تسعى الطير بمقدارها. وتقدير الكلام فإذا رأيتَ ذلك فليطمئنَّ قلبُك. **واعلم أن الله عزيز حكيم**. قال ابن بحر:[3] ما قطع إبراهيم الطيرَ، بل لمّا قال الله له ما قاله كُفِي واطمأن قلبه بالإيقان، فاستغنى عن المشاهدة بالعيان.[4] ولهذا لم يذكر الله عنه كما ذكر عمن قبله بقوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ﴾،[5] وهذا كلام قوي.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾

ولما تقدم قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾،[6] نسق على ذلك: **مثل الذين ينفقون أموٰلهم فى سبيل الله كمثل**، كصفة، **حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة**، عرّفنا أن الربيع[7] المبارك يمكن أن يجعل[8] من الحبة[9] هذا المقدار. **والله يضٰعف لمن يشاء**، أي بعد هذا المقدار. والمراد بهذا المثل ما يحصل في الآخرة. **والله وٰسع**، أي واجد[10] ما شاء، **عليم**، بما يفعله وبمن[11] يستحق فيؤتي كلا بقدر معلوم.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾

---

١ ش ك – هو.
٢ ر ك: يشتبه.
٣ لعله أبو مسلم محمد بن بحر الإصفهاني، سبقت ترجمته.
٤ لم أهتد إليه فيما بين يدي من المصادر التفسيرية.
٥ الآية ٢٥٩ من هذه السورة.
٦ الآية ٢٤٥ من هذه السورة.
٧ جميع النسخ: الرابع.
٨ ر ك: أن يحصل.
٩ ر + منه.
١٠ ر: واحد.
١١ ش ك: وعمن.

الذين ينفقون أموٰلهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، يوم يحزن غيرُهم ويخاف.

﴿۞قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾

قول معروف ومغفرة، للسائل إذا وُجد منه ما يَثقل على المسئول. وهذا التخصيص داخل في الإطلاق والعمل به واجب، فافهمه. فإنه، **خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم**.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾

يٰأيها الذين ءامنوا لا تبطلوا، ولم يقل: لا تُفسدوا أو تَنقضوا[1] إشارةً إلى أن ذلك يبطلها جملةً، **صدقٰتكم بالمن والأذىٰ كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر**، فلو قيل: فلو أنفق رياءً وهو مؤمن؟ قلنا: لا يكون له في تلك النفقة أجرٌ، لأنه أعطى ليقال. وقد قيل: **فمثله**، المثل للمنفِق، والمراد النفقة. كأنه بذر في أرض لا تُنبت. وهذا عكس الأول،[2] لهذا قال: **كمثل صفوان**، وهو من الصفاء،[3] والصَّلْدُ وهو الحجر الصُّلْبُ، **عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا**، أي فترك الوابلُ وهو المطر القويُّ الرَّشْقِ[4] للصفوان صلدا؛ فإن الصفوان إذا أزال عنه المطر الترابَ وضربه الحرُّ تصلّب وتصلّد فتركه صلدا، وهو ما تُقدح النار به. وكان السبب في أنه عاد صلدا ذلك الوابلُ / الذي أزال عنه الترابَ، إذ لم يبق له ما يستره من حر الشمس. والصَّفْوان [٦٣ظ] واحدته صفوانة مثل مَرْجان ومَرْجانة، وصَوّان وصوانة، سمي بذلك، لأنه يصون النار. **لا يقدرون علىٰ شىء**، في الآخرة، **مما**، أي من أجل ما، **كسبوا**، في الدنيا من الذنوب. وفي الموضع الآخر قدّم، **مما كسبوا**.[5] ومعناها "من ما" فهي للتبعيض، فافهم الفرق.

---

[1] ك: أو تنقصوا.

[2] يشير المؤلف إلى الآية السابقة برقم ٢٦١.

[3] الصفا: العريض من الحجارة الأملس، جمع صفاة يكتب بالألف (لسان العرب، «صفا»). والصَّفْوان كالصفا، الواحدة: صفوانة، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ (المفردات للراغب الإصفهاني، «صفو»).

[4] الرشقُ الرميُ (لسان العرب، «رشق»).

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/١٨).

والله لا يهدى القوم الكفرين، في الدنيا عقابا لهم على كفرهم. ولو آمنوا لهداهم إلى الأصلح وأصلح بالَهم.

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾

ومثل الذين ينفقون أمولهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا، ثَبَّتُّ فلانا على هذا الأمر، إذا حقّقته عنده وقوَّيْتُ عليه عزمَه ونفسَه. وقوله: **من أنفسهم**، أي وبتثبيت من أنفسهم كما تقول: بِصحّةٍ من عقله. **كمثل جنة بربوة**، من ربا يربو، وأراد العلوَّ والإشراف الذي تهتشّ[1] إليهما الأنفسُ. ولما كان تأثير الشمس في الربوة أكثرَ لعلوها وقد ينقطع عنها الماء فيحترق نباتها بيّن أنها لا تنفكّ من وابل أو طلّ. وأراد بالوابل ما له سيلٌ فيجري تحت أشجارها. وفيه إشارة إلى أن البركات السماويّة والخيراتِ الإلٰهيةَ[2] لم تأت ظاهرةً للحس، كما يظهر الوابل وهو المطر القوي، فإنها تأتي باطنة خفية كما ينزل الطَّلُّ ولا يُرى، لكنه يَروي كالوابل. فقال: **أصابها وابل فئاتت أكلها ضعفين. فإن لم يصبها وابل فَطَلٌّ. والله بما تعملون بصير.**

فالنفقة[3] الأولى في سبيل الله، أعني الجهاد وكلَّ ما هو لله سبحانه. وسمي الجهاد "في[4] سبيل الله"، لأنه طريق إلى لقاء الله سبحانه بما يُتوقع فيه من الشهادة. فالنفقة الأولى الدرهمُ بسبْعَمِائةٍ، والله يضاعف السبعَمائةَ ما يشاء[5] من أضعاف. وهذه الثانية الدرهم بأربعة، لأن ضعفَيِ الشيء الواحدِ هو أن يضعَّف مرتين، فضِعْف الواحد مرةً اثنان، ومثل ذلك مَرّةً أُخرى، لكن الأولى حبة والثانية جنة. فهو يشير إلى مضاعفة رابع الجنة التي من جملتها الحبةُ المذكورة. وهذا الوصف الثاني هو زيادة للوصف الأول وبيانٌ بمثلٍ آخرَ بعد المثل الأول. ومعناه يُنفقون في سبيل الله ابتغاء مرضاة[6] الله، أي ابتغاء وتثبيتا من أنفسهم. والمراد بالأمثال التقريب إلى الأذهان؛ وبالعدد والمضاعفة في الموضعين يريد التكثير لا التحديد. وقوله في الموضع الآخر: نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ،[7]

[1] ك: تهتس. | اهتشّ: اشتهى.
[2] ر + إن.
[3] ر: والنفقة. | أي في الآية السابقة برقم ٢٦١.
[4] ر – في.
[5] ر: ما شاء.
[6] ش ك: مرضات.
[7] ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ (سورة الأحزاب، ٣١/٣٣).

مرة في الدنيا ومرة في الآخرة. وهو كقوله: فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً،[1] الآية وكقوله: وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ،[2] وهو المندوب إليه في الدعاء بقوله: رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً.[3]

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾

أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهٰر له فيها من كل الثمرٰت وأصابه الكبر، بالعجز والنكاية،[4] **وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار**، ريح وغبار يلتفّ بين السماء والأرض، كأنه عمود يستدير ويَعصِر بعضه بعضا. وقوله: وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا،[5] أي من شيء يُشبه الغبارَ الملتفَّ حيث لا ماءَ[6] يُدرَك. وهذا الإعصار هنا كان، **فيه**، عِوَضَ الماء، **نار فاحترقت**. يشير في العرف إلى شدة حرّ أحرق تلك الجنة. كأن[7] الحر في غبار قد عقدته الرياح المختلفة فنسف هشيمَ الجنة كما قال: فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ.[8] وكل هذا تحذير لنا من المنّ والأذى في الصدقة.[9] **كذٰلك يبين الله لكم الآيٰت لعلكم تتفكرون**، إشارة إلى التفكر في هذه الآيات، فظاهره إخبار وباطنه أمر، أي تفكروا فيما قد بيناه لكم من الآيات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾

يٰأيها الذين ءامنوا أنفقوا من طيبٰت ما كسبتم، يشير إلى الجيد بقوله: الطيب ههنا، كقوله: لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ.[10] والخبيث من خُبث الفضة، وهو ما نفاه الكير.

---

[1] ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (سورة النحل، ١٦/٩٧).

[2] سورة العنكبوت، ٢٩/٢٧.

[3] الآية ٢٠١ من هذه السورة.

[4] أي الضعف والهزيمة.

[5] سورة النبأ، ٧٨/١٤.

[6] ك: لا ما.

[7] ش: وكان.

[8] ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ (سورة الكهف، ١٨/٤٥).

[9] يشير المؤلف رحمه الله هنا إلى الآية ٢٦٤ من هذه السورة.

[10] ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ (سورة المائدة، ٥/١٠٠).

ومما أخرجنا لكم من الأرض، أي كذلك يعني طيبا. فهو يشير بعد الزكاة إلى الصدقة بالعين والغَلَّة. ولا تيمموا، أمَمْته قصدته / من أمامه، ويَممْته، أي من كل جانب. والمعنى [٦٤و] ولا تيمموا[١] الخبيث منهما. منه تنفقون ولستم بئاخذيه إلا أن، بمعنى "إن" الشرطية؛ وكذلك: ﴿أَن يَخَافَا﴾[٢] و﴿أَن يَعْفُونَ﴾،[٣] و﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.[٤] هذا كله شرط،[٥] تُغمِضوا فيه، أي ولستم ممن يَرضى أَخْذَه لنفسه في حالة مّا إلا أن تُغمضوا، فكيف ترضَون لربكم ما لا ترضونه لأنفسكم؟ ويقال: أغمض عن زللِ صاحبه إذا سامحه في شيء بدا منه، ومعناه من الغموض لا من الغَمْض. مثاله أغمض وأحمض وأبلغ؛ تقول: غَمض يَغمُض غموضا وأغمض يُغمض إغماضا إذا اتصف[٦] بالغموض، ومنه "الأمر الغامض"، و"في غامضِ علم الله تعالىٰ". وتقول: غَمُض يَغمُض غمضا، أي غَمض جَفْنُه لازم، والاسم غُمْض وهو النوم الخفيف. فإذا أردت المبالغةَ شدّدت الميم [غمّض] والمخفَّف إذا غَمضَتْ عينُه، أي حصل فيها الغُمْضُ لا الغموض. واعلموا أن الله غنى حميد.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾

ثم نبّه على شيء يجب أن يُحذر عند الإنفاق فقال: الشيطٰن يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء. فكلُّ مَن أمر بالفحشاء[٧] ووعد بالفقر فهو شيطان إن كان من نفسك أو غيرك، فاعرفه واحذره. والله يعدكم مغفرة منه وفضلا، أي من لدنه كلاهما. ولهذا قال: منه، فافهم. والله وٰسع، فلا يَخَفْ المُنفِقُ من الفقر. عليم، بما يحتاج إليه عبدُه المنفقُ وغيره.

﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾

ثم نبّه على أن من يُعطَى[٨] الحكمةَ التي هي أبلغ عطاءٍ موجبٍ لمُلْك الدارين كيف لا يكون ذا سعة وفضلٍ، فقال: يؤتى الحكمة من يشاء، إشارةٌ إلى العطاء الباطن بالمواهب،

---

[١] ر: ولا تيمموا.
[٢] الآية ٢٢٩ من هذه السورة.
[٣] الآية ٢٣٧ من هذه السورة.
[٤] انظر مثلا: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (سورة الأنعام، ١١١/٦).
[٥] جميع النسخ: جزاء.
[٦] ر: إذا تصف.
[٧] ش – فكل من أمر بالفحشاء، صح هـ.
[٨] ش ك: من يعط.

فكيف لا يعطي العطاء الظاهر بالمكاسب. ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا. وما يذكر إلا أولوا الألبٰب، أي بهذا الذكر. والمراد بالتذكر قولا اتباعُ مقتضاه فعلا.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾

ثم نبّه على سائر أنواع الصدقة بسائر ما يُتصدَّق به فقال: وما، ومهما، أنفقتم من نفقة، عامٌّ في الفرض وغيره، أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه، فيَجزيكم به. وما للظّٰلمين من أنصار. المعنى أن الظالمين لا تمنعهم ولا تَنفعهم الصدقة والنذرُ إذا فعلوها لينصرهم الله بها. فهي تَدفع[1] البلاءَ إلا عن الظالم إذا لم يتقدم أوّلا فيُزيل[2] الظلمَ، وإلا فلا ناصر له من عدوه ولا من مُصابه في الدنيا، وهو مطلق.

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾

إن تبدوا الصدقٰت فنعما هيَ، أي نعم الذي هي. وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم، بالإنفاق خُفيةً. وقوله: "من" لئلا يعتقد أنه بصدقة واحدة قد كُفِرت سيّآته كلُّها فيترك العمل، ويجوز أن يكون المراد أن من السيّآت ما لا تكفِّره الصدقةُ لعظمه. وكذلك يجوز أن يكون الباقي يعفو الله عنه لقوله: وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ.[3] واعلم أن رتبةَ[4] المقتصدين تكفير السيّآت بالبلاء،[5] ورتبةَ السابقين توفير الحسنات بالبلاء.[6] والله بما تعملون خبير، أي[7] إذا[8] أخفيتموها.

﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾

---

[1] ر: يدفع.

[2] ر: فيزل

[3] سورة الشورى، ٤٢/٣٠.

[4] ر: أن مرتبة.

[5] ر: البلاء.

[6] في بيان المؤلف رحمه الله إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ (سورة فاطر، ٣٥/٣٢).

[7] ر ك - أي.

[8] ك: أي.

ليس عليك هدٰيهم، أي إجبارا لأنك لا تقدر. ويشير إلى الظالمين الذين لا تَنفعهم[1] الصدقة إذا لم يُسلموا. ولٰكن الله، هو القادر على أن، يهدى من يشاء، إجبارا، ولكنه لا يفعل، فلو أجبرهم على الهدى بطل غرض التكليف. وما تنفقوا من خير فلأنفسكم، وليس المراد بالأنفس الأقربين وغيرَهم بل هو كقوله: مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ.[2] وبيّنه بقوله: يُوَفَّ إليكم. والواو في "وما تنفقون" واو الحال. والمعنى حالَ كونكم على صورة من الإنفاق هي. وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، أي إذا كان ما تُنفقونه لوجه الله فهو لأنفسكم وإلا فهو عليها. وما تنفقوا من خير، عامّ على المؤمن والكافر بالشرط المتقدم، أي ابتغاءَ وجه الله، يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تُظلَمون. يحتمل أن تكون الواوُ أيضا واوَ الحال في[3] وأنتم، أي يومَ الجزاء حال كونكم لا تُظلَمون، يوف إليكم.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾

ثم ذكر فريقا ممن يجب أن يُنفَق عليهم فذكر أوصافا وصفهم بها [و]نبه بالمدح لهم بها على شرفها، فقال أولا: وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ،[4] ثم عيَّن صفة الفقراء ليعرِفها الفقراءُ فيتَّصف بها أولو[5] الصدق منهم، وليعرفهم الأغنياءُ بوصفهم فينتفعَ / الفقراء [٦٤ظ] بمال الأغنياءِ والأغنياءُ بأجر الفقراء فقال ما تقديره: ومهما تُنفقوا من خير فليكن للفقراء[6] الذين[7] وصْفُهم كيت وكيت لئلا يكون الإنفاق فيما عدا ذلك مما يخالفه وليُنبِّه على الأَولى فقال: للفقراء. الفقير هو الذي لا يستطيع التكسّبَ كأن فَقَرات ظَهْره مَئوفَة. والمسكين من السكون، ومنه المسكنة الذي لا يفي تسبُّبه بضرورته فهو مع الصحة محتاج، والفقير محتاج لا مع الصحة. وقوله تعالى: أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ،[8] أي احتياجكم إليه احتياجَ مَن كُسرت فقراتُ ظهره. وقوله عليه السلام:

---

[1] ر: لا ينفعهم.

[2] ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ (سورة فصلت، ٤٦/٤١؛ وسورة الجاثية، ١٥/٤٥).

[3] ش ك – في.

[4] الآية ٢٧١ من هذه السورة.

[5] ش ك: بها أو.

[6] ر ك – للفقراء.

[7] ر: الذي.

[8] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (سورة فاطر، ١٥/٣٥).

«أحيِني مسكينا»،[1] هو من السكون إلى الله وإلقاءِ الحاجة إليه لا إلى غيره. وقوله: **الذين أُحْصِرُوا**، كلّ حصرٍ إحصارٌ ولا ينعكس لأن الإحصار أعم، والحصر يكون ظاهرا والإحصارُ ظاهرا وباطنا، وقد يعبّر عن أحدهما بالآخر. **فى سبيل الله**، أحصرهم أنهم، **لا يستطيعون ضربا فى الأرض**، وهو السير في طلب التمعّش، فلا يستطيعونه لضعفٍ أو غيرِ ذلك من لوازم عدم الاستطاعة. **يحسبهم الجاهل**، بحالهم، ولو كان عالما بالعلوم عاقلا، **أغنياء من التعفف**، أي من فرط تَعفُّفِهم. **تعرفهم بسيمٰهم**، السيماء العلامة، ولا يريد من تأثير السجود. ولهذا لم يقل: وَسْم،[2] كما تقول: في وجهه أثر النعمة وأثر الخشية. **لا يسئلون الناس**، تم الكلام. ثم أخبر واصفا، أي إن[3] تركهم للسؤال إنما فعلوه، **إلحافا**. قال الزجاج:[4] هو مأخوذ من اللحاف لغلظه.[5] فهم يتسترون فلا يسألون، ولكن بأغلظ سَتْر. ولقد أحسن فيما قال: **وما تنفقوا من خير**، أي لكل سائل وإن لم يكن مثل هؤلاء، بل ذلك أمر منبّه على الإنفاق مطلقا بعد معرفة الأولى. ومن ههنا جاز أن يُعطَى[6] السائلُ ولو جاء على فرس.[7] وأما قوله عليه السلام: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرَّة سَوِيّ»،[8] أي هو لا يحل له أن يأخذ. وأما نحن يحل لنا أن نُعطي ونُثَابَ على ذلك فلم تَبْقَ معارضة. واعلم أن قوله أولا: فَلِأَنفُسِكُمْ،[9] يريد أن جزاءه[10] لكم فهو تبيين كلي. ثم فصّله فقال ما معناه: وما تنفقوا من خير فللفقراء.

---

[1] عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال (في دعائه): «اللهم أحيني مسكينا، وأمِتني مسكينا، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة. فقالت عائشة: لم يا رسول الله؟ قال: 'إنهم يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفا؛ يا عائشة لا تردي المسكين ولو بِشِقّ تمرة، يا عائشة أحبي المساكين وقَرِّبيهم فإن الله يُقَرِّبُكِ يوم القيامة'» (سنن ابن ماجه، الزهد ٧؛ وسنن الترمذي، الزهد ٣٧؛ والنهاية لابن الأثير، «سكن»).

[2] الوسم: أثر الكيّ، العلامة (لسان العرب، «وسم»؛ وتاج العروس للزبيدي، «سمو»).

[3] ش - إن، صح هـ.

[4] أبو اسحاق الزجاج إبراهيم بن السري بن سهل، عالم بالنحو واللغة. ولد ومات في بغداد. ومال إلى النحو فعلّمه المبرِّد. وكانت للزجاج مناقشات مع ثعلب وغيره. من كتبه: معاني القرآن، والاشتقاق، وخلق الإنسان، والأمالي في الأدب واللغة، وفعلت وأفعلت في تصريف الألفاظ، والمثلث في اللغة، وإعراب القرآن. توفي سنة ٣١١هـ/٩٢٣م (الأعلام للزركلي، ١/٤٠).

[5] معاني القرآن للزجاج، ٣٥٧/١.

[6] ر: أن نعطي.

[7] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «أعطوا السائل وإن جاء على فرس» (الموطأ، الصدقة ٣؛ وسنن أبي داود، الزكاة ٣٣).

[8] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سويّ» (سنن ابن ماجه، الزكاة، ٢٦؛ وسنن أبي داود، الزكاة ٢٤؛ وسنن الترمذي، الزكاة ٢٣؛ وسنن النسائي، الزكاة ٩٠). | المرة: القوة والشدة. والسوي: الصحيح الأعضاء (النهاية لابن الأثير، «مرر»).

[9] من الآية السابقة.

[10] ش: أن جزاؤه.

فذكر الأُولى ومدحهم وخصَّصهم. ثم قال أخيرا: **وما تنفقوا**، بمعنى ومهما، ويريد العمومَ بهذه لمن هو من المذكورين وغيرهم من مؤمن وكافر. وبهذا يزول التكرارُ، والله أعلم، **فإن الله به عليم**.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٢٧٤﴾

ثم أوضح ذلك ونبه على مطلق الإنفاق سرا وعلانيةً في سائر الزمان فقال: **الذين ينفقون أموٰلهم بالليل والنهار سرا وعلانية**. ثم قال: **فلهم أجرهم**، والفاء في "فلهم" بيناها في موضع آخر.[1] وأراد بالليل سرا وعلانية وبالنهار كذلك. وأما قوله: **لهم أجرهم**، فهي بصورة الشرط، تقول: الذين يفعلون كذا لهم كذا، **عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**.

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾

ولما ذكر ما يُثمر المال وهو الصدقة أتبعه بذكر ما يَمحقه وهو الربا، فقال: **الذين يأكلون الربوٰا لا يقومون**، أي يوم القيامة، **إلا كما يقوم**، في الدنيا المصروع، **الذى يتخبطه الشيطٰن**. والتخبط ضربٌ على غير نظام، **من المس**، المَسْمَسَة اختلاط الأمر والتباسه. والمس في جميع المواضع يريد به المباشرةَ الباطنة والمخالطة على اختلاف أوضاعها صورة أو معنى مما يدل[2] عليه سياق الكلام في موضعه. **ذٰلك**، جزاؤهم، **بأنهم**، بسبب أنهم **قالوا إنما البيع مثل الربوٰا**، فأكلوه لغلطهم في القياس. وههنا تنبيهٌ على جواز غلط أصحاب القياس في بعض الأمور. وهنا نكتة، وهي أنه لو قال: إنما الربا مثل البيع لكان المقصود تحليلَ الربا. ولهذا قالوا بعده ما هو من كلامهم، فهو كلام منهم بصورة التعجب والإنكار والمعارضة وإن كان لا يمتنع أن يَحسُن بأن يكون من كلام الله لهم لانطباق الكلام بعده عليه، فيكون تعالى قد ردّ عليهم في الشبهة التي حكاها عنهم،

[1] هذه اللفظة ذُكرت في الآية ٦٢ من هذه السورة.
[2] ر: مما يدلك.

فقال رادًا عليهم: وأحل الله البيع وحرم الربوٰا، وهو أن تعطي شيئا بشيء مثلِه[1] وزيادةٍ عليه، وتكون تلك الزيادة لأجل مدة. واشتقاقه من ربا يربو إذا ارتفع وزاد.

[٦٥و] وقال الراغب:[2] الربا في تَعارفِ العرب هو كرفع دَين بزيادةِ / أجل، أو كزيادة ثمن لزيادة في الأجل.[3] وبيعُ المثلِ بالمثل لا يتعلق بهذا اللفظ. فافهم ذلك جيدا. فأما إذا أعطيت كما قال عليه السلام: «الذهب بالذهب حرام إلا هاءَ وهاءَ»،[4] يعني في الوقت الحاضر إذا قلت لصاحبك: هاء، أي هَاء هذا الآن خُذْه. وتقديره هَاك وهَاتِ في وقت واحد. هذا مفهوم لفظه صلى الله عليه وسلم. والعقل يقضي أنه مَن اختار أن يعطيك درهمين بدرهم إلا أن يكون ذلك العطاء لأَجَلٍ أُجِّلَ فهو حرام. وأما إذا لم يكن لسبب[5] حرام فلا بأس. وهذه الصورة لا يفعلها أحد، أعني أن يعطي درهمين في الوقت الحاضر ويأخذَ درهما مثلا. اللهم إلا أن يكون ذلك لسبب[6] واجب عقلا، كما قد يكون معك ذهبٌ مكسورٌ ومع صاحبك ذهب مضروب، فقال: هاكَ وهاتِ فرضيتَ فليس عليكما إثم. فإن ذلك ليس فيه إرباء بل هو البيع بعينه لا مثلِه الذي هو الربا. وهذه الصورة في حكم المقابضة. وإنما حُرّم الذهب بالذهب والفضة بالفضة مع الزيادة إذا كان المقصود هو الإرباءَ فقط. وقال القفال:[7] من باع ثوبا يساوي عشرةً بعشرين فقد جعل ذات الثوب مقابلا للعشرين، فلما حصل التراضي وكان لأجل ذات الثوب لا لأجل ثمنه صار كل واحد منهما مقابلا للآخر في المالية عندهما، فلم يكن أحدهما آخذا من صاحبه شيئا بغير عوض. ولا يمكن أن يقال: إن عوضَه هو الإمهال في مدة الأجل،

---

[1] ش – مثله.

[2] أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب، الإصفهاني، أديب، من الحكماء العلماء، من أهل أصبهان. سكن بغداد، واشتهر حتى كان يقرن بالامام الغزالي. من كتبه: محاضرات الأدباء، والذريعة إلى مكارم الشريعة، والاخلاق (ويسمى أخلاق الراغب)، وجامع التفاسير، والمفردات في غريب القرآن، وحل متشابهات القرآن. توفي سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م (الأعلام للزركلي، ٢/٢٥٥).

[3] لم أعثر عليه بهذا اللفظ في كتابه المفردات في غريب القرآن، وقال فيه: الربا الزيادة على رأس المال («ربو»).

[4] سنن الدارمي، البيوع ٤١؛ وسنن ابن ماجه، التجارات ٤٨.

[5] ش ك: بسبب.

[6] ش ك: بسبب.

[7] أبو بكر القفال الكبير محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي، من أكابر علماء عصره بالفقه والحديث واللغة والأدب، من أهل ما وراء النهر. وهو أول من صنف الجدل الحسن من الفقهاء. وعنه انتشر مذهب الشافعي في بلاده. مولده ووفاته في الشاش (وراء نهر سيحون). رحل إلى خراسان والعراق والحجاز والشام. من كتبه: أصول الفقه، ومحاسن الشريعة، وشرح رسالة الشافعي. توفي سنة ٣٦٥هـ/٩٧٦م (الأعلام للزركلي، ٦/٢٧٤).

لأن الإمهال ليس مالا أو شيئا يشار إليه حتى يُجعَل عوضا عن العشرة الزائدة. والإمهال أمر قائم بنفسه غيرُ البيع.[١] فمتى كان البيع مشروطا فقد صار معه غيرُه ولا معنى للربا إلا ذلك الغير. فحُرِّم الربا لأجل المدة التي بها يَحصل الأجرُ على القرض. فكل بيع تزيده[٢] المدة حرام. ومثله أنك تبيع صاحبَك الآن ثوبا قِيمتُه عشرون[٣] درهما بأربعين درهما إلى أجل، فإذا صار في يده باعه بعشرين وأخذ الثمن. إذ لم يكن[٤] قصده إلا الدراهم لا الثوب، وكان قصدك الإرباء لا البيعَ. فجعلتما الثوب حجة، لا فرق بينها وبين أن تعطيه العشرين بأربعين إلى أجل. فكان ذلك في حقيقة الأمر فضةً بفضة وزيادةً لأجل المدة،[٥] فهو حرام. ولا تخفى على الله خافية. وإن الله لا يخادَع. فحيث لا يكون الإرباء بالمدة هو المقصودَ فلا بأس. ولا يكون الإرباء إلا بمدة قلّت أو كثرت، فتجنّبِ الإرباء في المدة، وقد سَلِمْتَ.

والجملة تنقسم إلى ثلاثة أقسام. وهو أن تبيع حاضرا بحاضر -إذا لم يكن مكْرا أو حيلةً على خصمك أو على الله- فهو حلال كان ما كان؛ أو حاضرا بغائب أربيتَ فيه لأجل المدة فحرام؛ أو غائبا بحاضر أرخصتَه لأجل المدة فقد أربأ عليك صاحبُك المشتري لأجل المدة فحرام لقوله تعالى: وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ.[٦] فافهم قوله في أموال الناس. فكل ما يربو في أموال الناس فحرام، إذ الشيء لا يربو ويزيد إلا في مدة. فافهم جيدا. وجعل الله الزكاة ضد الربا، والبيع[٧] بينهما، فمِلْ حيث شئت.

فمن جاءه موعظة من ربه، سمعها من كتاب الله أو بلسان بعض عباد الله، ولهذا قال: **موعظة، فانتهىٰ**، ولم يقل: فامتنع، لأن الممتنع ربما عاد والمنتهي وصل إلى نهاية، وليس بعد النهاية شيء. وقوله: **فله ما سلف**. ينقسم إلى ثلاثة أقسام: إما أن يكون سبحانه قد وهبه ما سلف من جهة الناس، أو من جهة الله، أو من الجهتين. فقوله بعد ذلك: **وأمره إلى الله**، معناه أمرُه راجع إلى الله فيما يعود عليه منه، إن شاء الله[٨] غفر له

[١] اللباب لابن عادل، ٤/٤٥٢.
[٢] جميع النسخ: يزيده، والمثبت من م.
[٣] ش ك: عشرين.
[٤] ر - يكن، صح هـ.
[٥] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الذهب بالذهب وزنا بوزن مِثْلا بمِثْل، والفضة بالفضة وزنا بوزن مثلا بمثل، فمن زاد أو استزاد فهو ربا» (صحيح مسلم، المساقاة ٨٤). وانظر لذلك أيضا: صحيح البخاري، البيوع ٧٨؛ وسنن النسائي، البيوع ٥٠.
[٦] ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ (سورة الروم، ٣٠/٣٩).
[٧] ك: الربا لبيع.
[٨] ش ك - الله.

وإن شاء عذَّبه. ولو لم يكن كذلك لكان قوله: وأمره إلى الله، زيادةً بل مناقضا، فلزم أن يكون قوله: فله ما سلف، أي من جهة الناس، لا يطالبه أحدٌ منهم بما كان قد أخذه منه بصورة الربا لِما في ذلك من حكمٍ يفهمها المفكِّرُ. وبطل القسم الثالث لثبوت الأول ولزم ما نذكره عن الثاني. ونبه ههنا على أنه إذا[1] أراد الذي أكل الربا أن يطمئنَّ قلبه من جهة الله فليُعْطِ ما كان قد أخذه بطريق الربا، فإنه متى أعطى لم يبقَ تحت التهديد أو الإمكان من جهة الله، والله سبحانه لم يَفرض عليه ذلك لِما في ذلك من حرج. ولأنه قد لا يلزمه / بسبب أنه كان جاهلا. فتفكرْ في هذه المعاني وافهمها جيدا غير مقلِّد. [٦٥ظ]
ومن عاد فأولٰئك أصحٰب النار هم فيها خٰلدون.

﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ٢٧٦﴾

يمحق الله الربوٰا ويربي الصدقٰت. ولمّا كان قد يتكرر من المرابِي فعلُ الربا فيكون كمن كفر مرة بعد مرة قال في آخر الآية: والله لا يحب كل كفّار، ولم يقل: كافر. أثيم، بوزن فعيل، بمعنى آثِم. وعدل به للوِزان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨﴾

إن الذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت وأقاموا الصلوٰة وءاتوا الزكوٰة، أشار بهذه الآية ههنا إلى أنهم إذا أكلوا الربا فانتهوا[2] ثم بعد ذلك لم يعودوا، بل، ءامنوا وعملوا. وتمام الآية: لهم أجرهم عند ربهم، بعد الرجوع إليه، ولا خوف عليهم، في الآخرة مما قدَّموه قبل التوبة مِن أكل الربا ولم يعودوا بعد ما انتهوا، ولا هم يحزنون. فلأجل العمل بهذه الآية قال: وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ،[3] تنبيها على العمل بها. والعمل بها لا يكون مكفِّرا لما سلف إلا لمن لا يقدر أن يردّ ما أخذ، فافهم. وهذا فائدة ذكر هذه الآية بين الكلام عن الربا. ولهذا بعدها: يٰأيها الذين ءامنوا اتقوا الله وذروا ما بقي، لكم عند المُعامَل به، من الربوٰا إن كنتم مؤمنين، فقد ترك لكم ما سلف، فاتركوا له ما بقي.

---

[1] ر – إن، صح هـ؛ ك: إن.
[2] ر: وانتهوا.
[3] الآية ٢٧٥ من هذه السورة.

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾

فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، وإن تبتم، أي إن فعلتم هذا بعد التحريم ثم[1] تُبتم، ويلزم منه حين سماعِ الموعظة أيضا، **فلكم رءوس أمولكم**، وهذه علامة التائب من الربا. ويلزمه ههنا إعادةُ ما أخذه إن قدر على ذلك، وليس عليه مطالبةٌ من الناس. **لا تَظلمون**، بأخذ ما بقي، **ولا تُظلمون**، بالمطالبة بما سلف. ولعل قائلا يقول: قد علمنا تحريم الربا على الغني المعطِي، فمن أين يَحرم على الفقير الآخِذِ؟ فنقول: التحريم جاء مطلقا، وهو أن ﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾[2] حتى ولا من مال يهودي ولا نصراني من أهل الذمة. وإذا كان[3] أخذُ أموالهم حراما علينا فأخذُهم الأموالَ منا أشدّ تحريما علينا إذا أعطيناهم إياها بصورة الربا. وأما المسلم فلا تجوز معاملته بذلك، إذ تلك المعاملة تُدخله النارَ فلا يُعَانُ على دخولها.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾

وإن كان ذو عسرة، وهو المديون الذي لكم عنده رأس مال الربا، وهو مطلق أيضا عن كل مديون، **فنظرة**، من الإنظار، **إلى ميسرة**، زمنِ اليسر. وهذا واجب على كل ذي دَين لكل ذي عسرة. **وأن تصدقوا**، بذلك الدَّين أو ببعضه، **خير لكم**، أي على المُعسر. ويُشعر هذا الكلامُ بأن الصبر على المعسر صدقةٌ، **إن كنتم تعلمون**، صحة الجزاء.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ

---

[1] ش ك - ثم.

[2] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ (سورة آل عمران، ١٣٠/٣).

[3] ر - كان.

أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

ولما نفى الربا لم يبق إلا فرضٌ هو دَين فقال: **يٰأيها الذين ءامنوا إذا تداينتم**. دِنْتُ الرجلَ إذا أخذت منه دَينا وأدَنْتُه جلعته دائنا، أي أعطيته دَينا. والتداين بالحقيقة معاملة بالدَّين، فهو مشتق منه أصلا وإن كان غيره تصريفا، لأنه معنى قائمٌ بنفسه. وقوله: **بِدَين**، أي كائنا ما كان من نوع ومقدار. والدَّين مثل السَّير من سار يسير. وإنما كان أصله من الدِّين، "إنما يَظهر الدِّين في الدَّين". فقوله: **تداينتم**، لفظ مشتبه، فبينه بقوله: **بدين إلىٰ أجل مسمى فاكتبوه**. أمرَنا بما يزيل الشكَّ والشبهة والغلط ويَحفظ المال والعِرض ويُريح السرَّ. **وليكتب بينكم كاتب بالعدل**، أي لا يكون أيَّ كاتب اتفق، بل مَن يعدل في كتابته لكم وعليكم، ولا يَميل جهلا بالعدل ولا لتعمُّدِ هوىً، كمن يكتب ألفاظا يحتمل تأويلُها نفع[1] أحدِ الخصمين. ولهذا لم يقل: "بالعدل كاتب" بل، **كاتب بالعدل**. فتأمله لتفهم مثله. ولما ذكر صفة الكاتب وكان من المحتمل أنا نقول: "ربما لا يوجَد ذلك في بعض الأحيان" ذكر بعده كاتبا منكَّرا وشرط العدلَ على الكاتب الثاني. وأما الأول فهو أمرٌ لنا أن نتخذ مَن هذه صفتُه. فافهم ذلك.

ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله، من العدل والكتابة وغير ذلك مثل الأدب والبلاغة. فيجب عليه أن يؤدي كما علّمه الله سبحانه. **فليكتب**، أي كذلك كلَّ شيء [٦٦و] يكتبه. **وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا**، عائد / على قوله: **فليكتب**، وعلى[2] قوله: **وليملل**. ولهذا كرر "فليكتب" بعد وصية الكاتب أولا ليعود الأمر للكاتب وللذي[3] يُمِلّ، كلٌّ منهما يتقي ولا يبخس. **فإن كان الذى عليه الحق سفيها**، يدخل فيه الصغير والكبير، كقوله: وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ.[4] ومعنى السفه خِفَّة في العقل تظهر في القول أو الفعل،[5] ويعبَّر به أحيانا عن الغلط في الكلام وعن الشتم،

---

[1] ش: دفع؛ ر: أنفع.

[2] ش - قوله فليكتب وعلى.

[3] ش ك: والذي.

[4] ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ (سورة النساء، ٤/٥).

[5] ر: والفعل.

لأن ذلك لا يصدر إلا عن خفة العقل. أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو، أي بنفسه للكاتب كالمرأة والأعجمي ومثل ذلك. فليملل وليه بالعدل، واستشهدوا شهيدين من رجالكم، ولم يقل: رجلين. فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء، لا من غير الشهداء كبقية الناس بل مَن يرضى به المسلمون أو الخصمان.[١] وفيه إشارة إلى أن الخصمين يتخيران من الشهداء مَن يُرضيهما[٢] على اتفاق. وقوله: أن تضل إحدىٰهما، أي خشية أن تضل، فتُذكّر إحدىٰهما الأخرىٰ، ولم يقل: فتذكِّرها الأخرى، إذ لو قال كذلك لدل على أن الواحدة تَضل والأخرى تذكِّر دائما، فتكون هذه يختص بها الإذكارُ دون الضلال، والأخرى يختص بها الضلال دون الإذكار دائما أبدا. فعبر بقوله: فتذكر أحداهما الأخرى، إشارةً إلى أن كل واحدة منهما يمكن أن تَضلَّ وكلَّ واحدة منهما يمكن أن تذّكر الأخرى في القضية الواحدة. إذ قد تضل إحداهما في بعضها وتذّكر في بعض آخر، وكذلك الأخرى، فتكون كل واحدة ضالة ومذكِّرة. فافهم المعنى العجيب[٣] باللفظ[٤] القريب.

ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا، أن يأتوا بالشهادة على وجهها.[٥] ولا تسئموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا، لم يقل: قليلا أو كثيرا، إذ لو قال ذلك لاحتمل أن يعود على الأجَل. فغيّر العبارة لذلك ودل بالصغير والكبير على القليل والكثير، وهو المراد ههنا إلىٰ أجله. ذٰلكم، الذي أمرناكم به من الكتابة على ما قررناه، أقسط، أعدل، عند الله وأقوم للشهٰدة، لأن الشاهد قد ينسى فيذكِّره خطُّه، وأدنىٰ، أقربُ إلى، ألا ترتابوا، تشكّوا. وقوله: إلا أن تكون تجٰرة حاضرة تديرونها بينكم، هو ما يشترك فيه نفران، والمعاملة دائرة بينهما أو أكثرُ من نفرين. فلا تنس، تديرونها، أي تارة تكون بيدِ هذا وتارة بيد هذا. فليس عليكم جناح ألا تكتبوها. وأشهدوا إذا تبايعتم، ولم يقل: شهيدين ولا غيرَ ذلك ليكون الكلام محتملا لإشهاد الشهداء في بيع الكثير كالدار والبستان ومثله، ولإشهاد المرء على نفسه في القليل كبيعِ ما في الأسواق، لقوله: وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ.[٦] وهو أن يقول له: بعتُ هذا بهذا، فيُشهده بقوله "نعم" على نفسه. ولا يُضَارّ كاتبٌ ولا شهيد

---

[١] ش: أو الخصما.

[٢] ر: من يرضاهما.

[٣] ر: العجيب المعنى.

[٤] ر - باللفظ، صح هـ.

[٥] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ (سورة المائدة، ١٠٨/٥).

[٦] ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾ (سورة الأعراف، ١٧٢/٧).

وإن تفعلوا، خطاب عام، أي ضدَّ ما قلناه، فإنه فسوق، منكم، بكم، واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم.

﴿۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَاثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾

وإن كنتم علىٰ سفر ولم تجدوا كاتبا فرهٰن مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمٰنته وليتق الله ربه، في ذلك. ولا تكتموا الشهٰدة ومن يكتمها فإنه ءاثم قلبه. لأن الكتمان أمرٌ قلبي. والعرب تقدِّم الصفةَ على الموصوف للمبالغة. فإنه فرقٌ بين قولك: كريم زيد وبين قولك: زيد كريم، فلهذا لم يقل: قلبه آثم. واعلم أن كِذْبَ اللسان أن يقول ما لم يقل، وكذْبَ القلب أن يعتقد فلا يفعلُ. وهذه صفة كاتمِ الشهادة. والله بما تعملون عليم.

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾

لله ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء. الغفران ههنا لمن يستحق العذابَ، إذا شاء الله غفر له. وهذا فتحٌ لباب الرَّجاء، والعذاب بعده لمستحقه، وهو باب الخوف. والله علىٰ كل شيء قدير.

﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾

ءامن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، آمنوا به. كل ءامن بالله وملٰئكته وكتبه ورسله، تقديره وقالوا: لا نفرق بين أحد من رسله. ولما ذكر أخيرا: وقالوا، استغنى عن ذكرها أولا، سمعنا وأطعنا غفرانك، تقديره / اغفِرْ لنا غفرانَك، وحذف للعلم به. ربنا وإليك المصير. [٦٦ظ]

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾

ثم أخبر الله تعالى عن نفسه فقال: **لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**. اعلم أنه لا يجوز الوعيد إلا بعد نصب الأدلة من الخالق والقدرةِ من المخلوق. وهذا يُبطل القولَ بجواز تكليف ما لا يُطاق. ثم نقول: كيف يكلّف الكافر إيمانا وليس ذلك في وسعه، لأنه لا يقدر عليه إن كان مجبَرا على الكفر، وقد أراده الله منه إجبارا؟ واعلم أن الله عز وجل لا جائز أن يكلِّف عبدا[1] ما لا يطيقه. فلا يقال: له أن يفعل في ملكه ما يشاء، لأنه تعالى تَعرَّف إلينا بالعدل المعروف عندنا وأمرَنا به وتبرأ عن مثقال ذرة من الظلم المعروف عندنا أيضا؛ وإلا لا فائدة في إعلامنا بما لم يكن داخلا تحت عقولنا، إذ لا يخاطبنا بغير معروف عندنا ويَتحبَّب إلينا بما لا نعلم. وبعد هذا شرَط على نفسه سبحانه كقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾،[2] ووعد بقوله: **لا يكلف الله نفسا إلا وسعها**، وحاشاه أن يُخلِف الميعاد.[3]

فقوله: **لها ما كسبت**، أي مما كلّفها عَمَلَه مما هو في وسعها لا مما يظنه الظان أنه تعالى قضاه عليها إجبارا بغير اختيارها بزعم مَن جهل معنى قوله: **لها ما كسبت، وعليها ما اكتسبت**. كلُّ ما يَحصُل للنفس بأي وجه كان يقال له: كسبٌ، ولا يقال: اكتسابٌ بتاء[4] الافتعال إلا إذا فعله الشخص باختياره. ففرقٌ بين قولك: فَعَل كذا وافتعل كذا. فإن الثاني يدل على قصد منه واختيار، والأول يحتمل أن يكون عن قصد وعن لا قصد. فعرّفنا الله تعالى أنه لا يكون على العبد إلا ما افتعل عن قصد. فإن الخطأ سهو[5] والنسيان والوسواسَ[6] ومثل ذلك. وإن صح أن يقال: الإنسان فَعَله، فلا يقال: افتعله، فليس ذلك عليه وإن لم يكن له. فكل اكتساب كسب ولا ينعكس.

---

[1] ر: عبده.

[2] سورة الروم، ٣٠/٤٧.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٩؛ وسورة الرعد، ١٣/٣١).

[4] ر: بناء.

[5] ر ك: سهوا.

[6] ر – والوسواس، صح هـ.

ولما ذكر ما عليها وعرفنا أنه بكسبها علّمنا كيف ندعوه لعله أن لا يؤاخذنا بما كسبت أيدينا فقال: **ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا**، دل على أننا إن لم نَنْسَ أو لم نُخْطِ لا تكون مؤاخذة بوجه. **ربنا ولا تَحْمِلْ علينا**، بما قدمناه من المعاصي، **إصرا كما حملته على الذين من قبلنا**، بما قدموه من المعاصي. والإصر هو بعينه وصيغته[1] في اللغة العبرانية. ومعناه الثقل، وهو ثِقَل العهد كقوله: وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي.[2] والمراد ههنا لا تحملْ علينا عقابَ عهد، أي إذا فسخناه[3] وعُدْنا إلى الذنب بعد التوبة والمعاهدة لك. **ربنا ولا تُحمِّلنا**، بذنوبنا، **ما لا طاقة لنا به**، من العقاب الذي أوجبه ما حملناه من الإثم، فنكون[4] نحن بذنوبنا ظلمنا أنفسنا. فوجب علينا من العقاب، **ما لا طاقة لنا به**. فعلّمنا سبحانه أن نقول: **ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به**، تقديره وإن كنا نستحق ذلك منك عقابا لنا على ما بدا[5] منا من المخالفة لك. لا أن[6] الله يفعل ذلك منه لا عن سبب منا، فحاشاه سبحانه. لذلك قال بعده: **واعف عنا واغفر لنا وارحمْنا**، أي لأننا قد قدّمنا ما لا نتخلص منه إلا أن تعفو وتغفر. واعلم أن المخطئ هو غير المتعمِّد للخطأ، والخاطئَ المذنب المتعمد. فهذه ثلاث مراتب جُعل قُبالةَ الأولى -وهي النسيان- العفو؛ والثانية -وهي الخطأ- المغفرة لأنه يحتاج إلى استغفار؛ والثالثة -وهي الخطيئة- طلب الرحمةِ. فافقه ذلك وإن جاز إعادةُ كلٍ واحدة على الجميع. واعلم أن قوله أولا هو من بابِ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا،[7] فهو من الكسب بما تقدم من الإهمال وإلا لسقط العقاب عنه، وكقوله: فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ،[8] أي نصيبا لهم بحسبهم كان يمكنهم علمُه من الكتاب فأهملوه إهمالَ الناسي. فالجميع من الكسب، ولهذا قدَّم ذكرَ الكسبِ مجملا، ثم فصّله. ثم لمّا علّمهم طلبَ مَا يُصلحهم أمرَهم بأن يأتوا بالإقرار بمحض العبودية بقوله: **أنت مولٰنا**، أي ليس لنا مولى سواك، فمن يعفو ويغفر؟ فإذا عفوت وغفرت، **فانصرنا على القوم الكٰفرين**.[9]

---

١ ر ك - وصيغته.

٢ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا﴾ (سورة آل عمران، ٨١/٣).

٣ ر: إذا نسخناه.

٤ ش ك: فيكون.

٥ ش: ما بدأ.

٦ ر: لك لأن.

٧ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ (سورة طه، ١٢٦/٢٠).

٨ ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ (سورة المائدة، ١٤/٥).

٩ ر + تمت السورة تذكر فيها البقرة. والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وسلامه. يتلوها إن شاء الله تعالى سورة آل عمران.

سورة آل عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓ ①﴾

الٓمٓ، أشار بالاسم إلى المسمَّى لينبه عليه فقط، فإن الاسم يدل على الشيء دلالةَ الإشارة لا الإفادةِ، / كأنك قلت: هذا. فأما دلالة الإفادة دون الإشارة فللفعل، كقولك: [٦٧و] قام.[١] فالأحرف من القسم الأول، كأنه قال: هذه الحروف التي تعرفونها أَتيتُكم منها بكلام لا تقدرون على الإتيان بمثله، فهو معجز؛ كما جعل الله تلك العَصا المعروفة لموسى ثعبانا. وذلك بخلاف ما لو لم تكن معروفة له.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ②﴾

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ③ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ④﴾

نزل عليك الكتٰب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل، ولم يقل: ونزّل، **التورٰة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان**، في كل كتاب من هذه الكتب. وهو كقوله: وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ،[٢] وقوله:[٣] وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ.[٤] **إن الذين كفروا بـٔايٰت الله**، أي في كتبه هذه المنزّلةِ في كل زمن لقوم. وكل ما قيل:[٥] إنه نزل في حقّ قوم[٦] مخصوص السبب فإنه لا يمنع عمومَ الحكم. فالكافرون بما أُنزل إليهم، **لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام.**

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ⑤ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ⑥﴾

---

١ ر – قام.

٢ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ (سورة البقرة، ١٨٥/٢)

٣ ر ك: ومثله.

٤ ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة، ٥٣/٢).

٥ أي في هذا الموضوع.

٦ جميع النسخ – في حق قوم، والمثبت من م.

إن الله لا يخفىٰ عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء. هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء، فكيف يخفى شيء عليه وهو المصوِّر في ظلماتٍ ثلاثٍ.[1] لا إلٰه إلا هو العزيز الحكيم. فقوله: لا يخفىٰ، وتمامه هذا دال على ما تقدم من قوله: ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ،[2] لأن ذلك لا يتم إلا بالعلم والقدرة، فقوله: لا يخفىٰ، أبلغ في صفة العلم. ولمّا كان هذا لا تعلُّمَ لنا منه بالسمع أتبعه بقوله: هو الذى يصوركم. وهذا يَعلمه من قرأ التشريحَ أكثر من غيره، فيدري[3] أن الذي صور ما شاء كيف شاء حيث شاء قد كان. -ولا بدّ- عالِما بما يريد تصويرَه، وإنه كان -ولا بدّ- قادرًا على سائر الممكنات. فحين ادّعى العلمَ بقوله: لا يخفىٰ، أتبعه بالدليل[4] العقلي بقوله: هو الذى يصوركم. وإذا ثبت ذلك ثبت أنه قيوم. وثبوت القيومية يُلزم ثبوتَ أنه حيّ، وثبوت الحياة يلزم، أنه لا إلٰه إلا هو. وذلك يُثبت أنه الله. فبدأ بذكره سبحانه، ولمّا تَبرهَنَتْ مرَاتِ التعريفُ بالسمعيات والعقليات والعينيات في إثبات مَن له هذه الصفاتُ كرر أخيرا ما قدمه أولا بقوله: لا إلٰه إلا هو، تعظيما.[5]

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾

وقال:[6] هو الذى أنزل عليك الكتٰب منه ءايٰت محكمٰت هن أم الكتٰب وأخر متشٰبهٰت. اعلم أن الكتاب جميعَه أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ.[7] فالمتشابِه محكم أيضا غير أنه بعض الكتاب، وبقية آيات الكتاب محكمات غير متشابهات. فما سوى المتشابه من الآيات هن أم الكتاب، والكل محكم. وهذا فائدة قوله: وأُخَرُ، ولم يقل: ومنه آيات. ففي ذلك إشعارٌ بمماثلة لِما تقدم، كما تقول: هذا درهمٌ وهذا آخَرُ، أي مثلُه.

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ (سورة الزمر، ٦/٣٩).

[2] الآية ٢ من هذه السورة.

[3] ش: فيدرك.

[4] ر: الدليل.

[5] ر + وإعلاما وتعليما.

[6] ش: فقال.

[7] ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (سورة هود، ١/١١).

وأم الشيء هو الذي احتوى على أصله احتواء تاما كاحتواء الأم على جميع المولود. ومنه فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ،[١] أي لا تشابُهَ فيها فيمكنَ أن يكون معناها هذا أو هذا. فقوله: محكمٰت، هي صفة لاسمها.[٢] وقوله: متشبهٰت، غير قول القائل: مُشْبِهات أو مشتبهات. فإن الأصل في قولك اشتبه غير الأصل الذي هو تشابه، والمعنى غير المعني. وقد علمت قوله تعالى: تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ،[٣] وقولَه:[٤] وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا،[٥] وأن ذلك يدل على شيء يشبه آخر. وقد علمت قوله تعالى: تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ،[٦] أي المحكَم، وقوله: وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ،[٧] أي ذو الحكمة والخِبْرَة، وقولَه: وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ،[٨] أي الحاكم بما يريد على ما يريد.[٩] فقد علمت أن اللفظة الواحدة لمّا احتملت معانيَ كلُّ معنًى منها لائق بموضع، فمتى دل سياقُ الكلام أو سباقه على أن استعمالها في أحد المواضع هو ليُفهم بها فيه معنى مِن أحد مدلولاتها وفي الآخَرِ آخَرُ لا يلزم أن يكون ذلك المفهومُ الواحد هو الذي يجب أن يوقَف معه بعينه في جميع المواضع ولو فسد المعنى أو تغير أو نقص عن الأحسن. بل كل موضع يجب أن يُفهَم بها[١٠] فيه ما يليق ويتم به المعنى الكليُّ الذي دلت هي على جزئه. وقد علمت أن ظاهر قوله تعالى: وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا / مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا،[١١] يقتضي الأمرَ بالفسق. فلما [٦٧ظ] رجعْنا في تأويل هذه المتشابه المشكِل وطلبنا فهْمَه من الأم من موضع هو مَثْناه كان محكمه: إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ.[١٢] فلا يجوز أن يكون التأويل إلا[١٣] بواسطة الدلالة العقلية القاطعة، مع تحقق جواز صرف اللفظ عن ظاهره في المتشابه ليعيده الصرفُ إلى المحكم. لأنا إنما نعلمه منه. وكذلك المفهوم من قوله تعالى: رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا،[١٤]

١ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ (سورة محمد، ٢٠/٤٧).

٢ جميع النسخ: هو اسم لصفتها.

٣ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ (سورة البقرة، ١١٨/٢).

٤ جميع النسخ: وكقوله، والمثبت من م.

٥ ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗا﴾ (سورة البقرة، ٢٥/٢).

٦ سورة يونس، ١/١٠؛ وسورة لقمان، ٢/٣١.

٧ سورة الأنعام، ١٨/٦، ٧٣؛ وسورة سبأ، ١/٣٤.

٨ انظر مثلا: سورة البقرة، ٢٢٨/٢، ٢٤٠؛ وسورة المائدة، ٣٨/٥.

٩ ر ك: على من يريد.

١٠ أي باللفظة الواحدة.

١١ ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا﴾ (سورة الإسراء، ١٦/١٧).

١٢ ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ (سورة الأعراف، ٢٨/٧).

١٣ ش – إلا.

١٤ الآية ٨ من هذه السورة.

ولهذا أتبع ذكرَ المتشابه بهذه الآية، كأنه قال: مثل هذه هو المتشابه، لأن ظاهرها أن الزيغ من الرب، وهو[1] ما زعمته الجبرية لِما في قلوبهم من الزيغ. فلما أعدناها إلى مَثناها المحكمِ فهمناها من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.[2] ففي الأمّ لم نحتج[3] إلى تأويل، وفي المتشابه وجدنا الكلام محتملا لِما قالوه ولـلأم؛ فأعدناه إلى الأم وأعادوه إلى تأويلهم الذي يختارونه، إما ابتغاء الفتنة وإما ابتغاء تأويله على مذاهبهم الفاسدة، فذكر الله القسمين. ولما كان المعنى الذي أراد الله تعالى إنزالَ تلك الآية من أجله يُشبه معنى آخر يفتتن،[4] أي يَضل بعضُ الناس به وهو أيضا في تلك الآية بعينها واللفظ صالح لأن يدل على المعنيين غير أن أحدهما هدى والآخر ضلال أو ما يؤدي إليهما حَقَّ[5] لتلك الآية أن تسمَّى متشابهةً، أي متشابهة في المعنى. ولمّا كان المعنيان في الآية الواحدة لم يقل: مُشْبِهات، لأنها وإن كان معناها يشبه معنى آخر هو مراد المتكلم بها لكنه أيضا يُعلم منها[6] فكأنها في نفسها أعني[7] الآية متشابهة في المعنى لا مشبهةٌ في اللفظ لآية أخرى مثلا. ومما يزيدك بيانا أنه لو قال: "مُشْبِهاتٌ" دل على أنها تُشبه من وجوه كثيرة، و"متشابهات"، يدل على أنها تُشبه من وجه أو وجوه يسيرة يمكن إذا تأوّلها الزائغُ أن يقيم بها فتنةً. فإنك تقول: هذا يشبه هذا،[8] أي[9] يشبه أن يكون هذا بعينه. وتقول: "هذا بينه وبين هذا تشابهٌ" تريد تشابها مّا. وقد علمت أن هذا التشابه ههنا يلزم أن يكون مشكلا لا يعلم تأويله إلا الله والرّٰسخون فى العلم. فكلما تجد في الكتاب من آية مُشكِلة تحتمل معنيين فصاعدا، أي يَبِينُ لك من لفظها مفهومان أو أكثر، وبعض الوجوه المفهومة بها أو منها أو عنها متناقض للكتاب والعقل فتلك من الآيات المتشابهات. ولقد أحسن ابن كيسان[10] قال: المحكماتُ حججُها واضحةٌ ودلائلها لائحةٌ لا حاجة بمن سمعها إلى طلب معانيها. والمتشابه هو الذي يدرَك علمُه بالنظر ولا يَعرف العوامُّ تفصيل الحق فيه من الباطل.[11]

---

١ ر ك: هو.

٢ سورة الصف، ٦١/٥.

٣ ش ك: لم يحتج.

٤ ر: يفتن.

٥ هذا القسم جواب لـ"ولما كان" المقدم.

٦ ر – منها.

٧ ش: يعني.

٨ ك – يشبه هذا.

٩ ر – هذا يشبه أي.

١٠ أبو بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم. فقيه معتزلي مفسر، كان من أفصح الناس وأفقههم وأورعهم. وله تفسير. توفي سنة نحو ٢٢٥هـ/٨٤٠م (الأعلام للزركلي، ٣/٣٢٣).

١١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢/٨؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٢/٩؛ واللباب لابن عادل، ٥/٣١.

فإن قلت: قد بينت أن المتشابهات محكمات ويلزمك أن تبيّن أن المحكمات متشابهات أيضا، لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾.[١] فالجواب أن المتشابه ههنا يريد به التشابة في الحروف التي هي المثاني كما بيّنا. ولهذا بعد قوله: ﴿مُّتَشَٰبِهٗا﴾، قال: ﴿مَّثَانِيَ﴾، فكلُّه مثاني. ولمّا كان المتشابه يَظهر منه شيئان يعجز الذهن عن التميز بينهما إلا بعد الرسوخ في العلم كان نظيره المشكِلَ، وسمي بذلك لأنه دخل في شكل غيره. فإن قلت: فما المقصود بالآيات المتشابهات ولِم لا كان الجميع غير متشابه؟ قلنا: إن مِن جملة المراد بذلك الحثّ[٢] على النظر لئلا يُهمَل العقل فتموت القلوب التي إنما حياتها بالتفكر والتصور، وليكون هذا الكتاب معجزا، وليتم قولُه تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾.[٣] فإن قلت: ولِم ذلك وقد جاء هذا الكتاب هدًى للناس أجمعين؟ قلنا: لمّا لم يؤمنوا واستحقوا العقاب على ذلك عاقبهم الله بما به يكون الهدى. ومن أبلغ العقاب ما يسدّ البابَ الذي به يُتوصل إلى الهدى. ولمّا كان الاهتداء ظاهرا في سلوك السبيل بالعين الباصرة أشار بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ إلى عمى البصيرة. وإذا كان العمى به عنه فلا يكون إلا بأن / يكون فيه [٦٨و] متشابه. فقد اتضح أن من لوازم إعجازه وإحكامه أن يكون فيه المتشابه.

فأما الذين فى قلوبهم زيغ، ميل، **فيتبعون ما تشبه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله**، على غير الوجه المراد به. **وما يعلم تأويله**، على الوجه المراد به، **إلا الله والرسخون فى العلم**. و"التأويل" هو صرف اللفظ إلى غير ظاهره بدليل يدل عليه؛ وهو مشتق من "الأوْل" وهو الرجوع. فالناظر[٤] في معنى اللفظ يَئول به إلى الغرض المقصود منه. وأكثر ما يُستعمل التأويلُ في المعاني والتفسيرُ في الألفاظ. والفَسْر والسَّفْر يتقارب معناهما لتقارب لفظيهما؛ لكن الفَسْر جُعل لإظهار المعنى المعقول للبصائر، والسَّفْرَ لإبراز الأعيان للأبصار.

وقوله: **وما يعلم تأويله إلا الله**، يحتمل أي كلّه، فيجوز أن يُعلم بعضُ تأويله، والكلام عن المتشابه. وهذه حجة على من[٥] قال بالوقف دون العطف. ولا نقول به[٦] لأن مثل هذا شائع في القرآن. وهو قوله في شأن قَسْم الفيء: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾،

---

[١] سورة الزمر، ٣٩/٢٣.

[٢] ش: البحث.

[٣] سورة فصلت، ٤١/٤٤.

[٤] ر – فالناظر، صح هـ.

[٥] ك + من.

[٦] ش: ولا تقول به.

وتمام الكلام، ثم تلاه بالتفصيل وتسميةِ[1] مَن يستحقه فقال: لِلْفُقَرَآءِ إلى قوله: وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ، وهم لا محالة داخلون في استحقاق الفيء كالأولين، والواو فيه للجمع، ثم قال: يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا.[2] ومعناه قائلين: ربّنا. ومثله بعينه قائلين: آمنا به. فقوله: **يقولون ءامنا به**، إن كان عن[3] علم ومعرفة، فأكثر العامة وغير الراسخين، **يقولون ءامنا به كل من عند ربنا**. وأيضا إذا كان المتشابه -وهو من جملة القرآن- لا يعلمه إلا الله وحده فأي فائدة في إنزال ما لا يُعلم، وقد قال تعالى: لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ،[4] يعني به؛ وقد قال ههنا: **وما يذكر إلا أولوا الألبب**. ثم لو كان كذلك لما جاز أن يقول: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ،[5] بل محكمَ القرآن أو بعضَ القرآن؛[6] لأن بعضه لا يعلمه أحد من خلق الله تعالى، فالتدبر لماذا؟ وكذلك قوله: قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ،[7] وقوله:[8] وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ،[9] كما ستسمع شرحه في موضعه، وأمثال ذلك كثير[ة]. فدل على أن[10] الراسخين علموا فقالوا عن علم لا عن جهل وتقليد، إذ ذلك يدل على إسلام لا على إيمان، كقوله تعالى: لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا، وقولِه: إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ.[11] فمتى لم يكن العلم هو الحبلَ الذي يُتمسك به فالرِّيبة واقعة. ثم يدلك قوله تعالى مادحا لهم بهذا الاسم وهو قوله: **والرّسخون**، ولم يقل: والعلماء، إذ من ينطلق عليه اسم العالم كثير، وأما الراسخ فقليل. وهو الذي صح عنده وثبت من اليقين بالعلم الحقِّ بالله وبالهدى إلى سبيله ما أوجب له أن يكون راسخا لا يتقلقل[12] لرسوخه فلا يَطيش ولا يتغير؛ بل هو كالشيء الثقيل الذي ليس هو مستقرا على الأرض فقط،[13] بل يَرسَخ ويغوص فيها، فذلك أشد رَكانةً[14] من المستقِرّ الثابت على وجهها. فافهم هذه الكلمة واعتبر العبارات في المواضع

---

[1] ك: وتسميه.

[2] سورة الحشر، ٥٩/٧-١٠.

[3] ر: من.

[4] ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (سورة ص، ٣٨/٢٩).

[5] ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (سورة النساء، ٤/٨٢)؛ و﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (سورة محمد، ٤٧/٢٤).

[6] أي بل يجب أن يقول: أفلا يتدبرون محكم القرآن أو بعض القرآن.

[7] ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/١١٨).

[8] ر: فقوله.

[9] سورة النساء، ٤/٨٣.

[10] جميع النسخ - أن، والمثبت من م.

[11] سورة الحجرات، ٤٩/١٤-١٥.

[12] تَقلقلَ الرَّجُل وغيرُه، إذا لم يثبُتْ في مكانٍ (معجم مقاييس اللغة لابن فارس، «قل»).

[13] ش ك - فقط.

[14] رَكِنَ إلى الشيء ورَكَنَ يَرْكَنُ ويَركُنُ رَكْنًا ورُكونًا ورَكانَةً ورَكانِيَةً أي مال إليه وسكن (لسان العرب، «ركن»).

لأي شيء عُبّر بها في أماكنها دون غيرها. وافهم لتكون من الراسخين إن شاء الله تعالى. ثم من جملة مدحهم قولُه: وما يذكر إلا أولوا الألبْب. فهو دليل على قوم هم أولو لُبّ ذُكِّروا فتذكروا فذَكَروا فعلموا فوصلوا. فهم يقولون: كل من عند ربنا.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾

ربنا لا تزغ قلوبنا، أي عقابا[1] لنا بذنوبنا عن عدلك، بعد إذ هديتنا، أوّلا بفضلك. وقد علمت قوله: فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ،[2] وسمعت قولَ هؤلاء: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا. فذكر الهدى مطلقا غير مقيَّد بلفظ آخر مخصِّص له بشيء آخر دون شيء، فهو حينئذ هدى إلى معرفة المتشابه وإلى الإيمان والكتاب كله وكلِّ ما يعبَّر عنه بالهدى من سائر الخيرات. فصح أنه تعالى هداهم إلى تأويله فهم يسألونه: ربنا وهب لنا من لدنك، ذلك، رحمة، لا عن استحقاق. إنك أنت الوهاب. ومِثْلُ هؤلاء أَولى مَن استجاب الله دعاءَه ومَن وهبه الله مِن لدنه رحمةً. فهو كما قال تعالى عن صاحب موسى: ءَاتَيْنَٰهُ / رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا.[3] ومن عُلِّم من الله علما لدنِّيا فهو لا يجهل معه [٦٨ظ] فكيف لا يعلم المتشابه وأمَّه بما الله سبحانه علَّمه. وفي هذا الإخبار عنهم شكر لهم ووصفٌ بنفس سؤالهم، إذ هو إقرار بالنعمة الكبرى، وهو الهدى. فسؤالهم دال على معترف بما يجب الاعتراف به من الإيمان بالله وباليوم الآخر يُجزَى فيه الزائغُ والمؤمن. فهم يقولون: ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه، أي ليجازيَهم. وقولهم: إن الله لا يخلف الميعاد، يشعر بالرَّجاء، وما قبله يُشعر بالخوف، فافهم. ولفظة الوعد تقال على الخير والشر. قال الله تعالى: ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ.[4] وأما العصاة من المؤمنين فقد بينا في الزمر[5] ما يجب بيانُه في أمرهم. والكريم إذا عفا عما له لا يكون كاذبا كما قيل:

إذا وَعـد الـسَّـرَّاءَ أَنـجـز وعْـدَه ... وإن وعـد الـضـراءَ فـالـعـفـوُ مـانـعُـه.[6]

---

[1] ك + با.

[2] من الآية السابقة.

[3] ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ (سورة الكهف، ١٨/٦٥).

[4] ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ (سورة الحج، ٢٢/٧٢).

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٥٣).

[6] اللباب لابن عادل، ٥/٤٨.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠﴾

ولمّا ذكر ذلك اليوم ومدح المؤمنين أخذ يذمّ الكفارَ به فقال: **إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموٰلهم ولا أولٰدهم**، ذَكَر القريب، وإذا لم يُغنِ القريبُ فكيف يغني البعيد. وقد سمعتَ قوله تعالى: ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا،[1] فأشار إلى أن[2] الكفار في ذلك اليوم لا تَنفعهم ولن تُغني عنهم الدنيا، بل القريبُ الذي من شأنهم أن يَستغنوا به فيها لا يغني عنهم في ذلك اليوم. **من الله**، أي من عذابه، **شيئا وأولٰئك هم وقود النار**.

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١﴾

ثم مثّل، فقال من الأمثال ما اشتهر للناس من كفر آل فرعون ومَن قبلهم من المكذِّبين فقال ما تقديره: دأبهم، **كدأب ءال فرعون والذين من قبلهم**. والأَولى أن الدأب عائد على الوَقود، ولهذا لم يقل: كآل بل، **كدأب**. والوقود من عادته أن يُطعم النار أبدا، وآل فرعون يُعرَضون عليها غدوا وعشيا.[3] ولما كان الوقود في الدنيا يَذهب قال: كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا،[4] ليذوقوا هم بأعيانهم. ومتى كان الجلد لا يزال كما بدأ وهو الوقود فقد صار دأبا بلا شك. وذلك بسبب أنهم، **كذبوا بـٔايٰتنا فأخذهم الله بذنوبهم**، عن عدل منه سبحانه في الدنيا. **والله شديد العقاب**، في الأخرى، وهو مطلق. والدأب العادة، تقول: فلانٌ دأبُه فعلُ الخير أو الشرّ، أي شأنه وعادته التي بدأت فيها. وأصله دَأَب بفتح الألف يَدْأَب بفتحها أيضا دَأْبا ودُءُوبا فهو دَئِب.[5] ومعناه الحقيقي جَدّ وتَعِب في تكرار شيء، فكأنه عادةٌ بشرط الجِدّ. والدائبان[6] الليلُ والنهار. وهو مثلُ قوله: سُنَّةَ ٱللَّهِ،[7] سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا،[8] وأراد سنتهم في التكذيب وسنتَه سبحانه[9] في الإهلاك،

---

[1] سورة الكهف، ٤٦/١٨.

[2] ش – أن، صح هـ.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ (سورة المؤمن، ٤٠/٤٦).

[4] ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ (سورة النساء، ٤/٥٦).

[5] جميع النسخ: دأب، والمثبت من م.

[6] ش ك: والدأبيات.

[7] ورد هذا التركيب في مواضع عديدة، منها: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٦٢)؛ و﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ (سورة الفتح، ٤٨/٢٣).

[8] ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلًا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٧٧).

[9] ر – سبحانه، صح هـ.

كأنه قال: الذين كفروا بك عادتُهم كعادة آل فرعونَ ونوحٍ، أي دأبهم في جهنم أنهم وَقُودها، وإنما جعلنا هذا دأبَهم[١] وعادتهم لأنهم كذَّبوا فأخذهم الله. والذَّنب مأخوذ من الذنَب، والعقابُ مِن كونه يَعقُب الذَّنْبَ.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢﴾

ثم خاطب الرسولَ صلى الله عليه وسلم بحال هؤلاء الكفار وما يئول إليه أمرُهم في الدنيا وما يجري عليهم في الآخرة ليكون صدقُ الرسول فيما يجري عليهم في الدنيا دالًا لهم على صدقه فيما يجري عليهم في الأخرى[٢] لعلهم يرجعون. فقال: **قل للذين كفروا**، وهو مطلق يحتمل كلَّ كافر في كل آنٍ يأتي، **ستغلبون**، في الدنيا، **وتحشرون**، في الأخرى، **إلى جهنم**، يعنى مثل مَن تقدم من آل فرعون في النار. **وبئس المهاد**.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝١٣﴾

ثم عطف على قوله: قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ،[٣] قولَه: **قد كان لكم ءاية**، بما رأيتم، **فى فئتين التقتا فئة تقتل فى سبيل الله وأخرىٰ كافرة**، وقوله: **يرونهم**، بالياء،[٤] **مثليهم**. ينقسم إلى ثمانية أقسام: إما الكفار يرون أنفسَهم مثلي أنفسهم، أو مثلي المؤمنين، أو يرون المؤمنين مثلي المؤمنين، أو مثلي الكفار. فهذه أربعة أقسام للكفار، ويلزم مثلُها للمؤمنين. والحق من ذلك واحدٌ وهو ما تكون به آيةٌ للكفار. وقد تحتمل القسمةُ أربعةً أخرى، لكنها بعيدة وهو أن يَرى الكفار أنفسهم، أو يرون المؤمنين مثلي المجموع. فهاتان صورتان وللمؤمنين مثلُهما. والأول كافٍ، إذ المراد آيةٌ للكفار. فالكفار يرون أنفسهم وعددهم مثلي المؤمنين، والخطاب من الرسول بأمر الله لهم، فجعل ما قد جرى للكفار آيةً. لهذا قال: / **رَأْيَ العين**، أي برؤية العين لا برؤية القلب[٥] التي قد تكون من طريق الظن، [٦٩و]

---

[١] ش - في جهنم أنهم وقودها وإنما جعلنا هذا دأبهم، صح هـ.

[٢] ش - ليكون صدق الرسول فيما يجري عليهم في الدنيا دالا لهم على صدقه فيما يجري عليهم في الأخرى، صح هـ.

[٣] الآية السابقة.

[٤] قرأ المدنيان ويعقوب بتاء الخطاب والباقون بياء الغيبة (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٥٩).

[٥] ر: لا رؤية.

أو مما يتوهمه الخائفُ بل ظاهرا بالعينِ الباصرة. لهذا كان ذلك للكفار آية تدل على أن الله تعالى ينصر من يشاء وإن دلت المؤمنين أيضا. لكن قوله أولا: قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ،[1] وقوله: قد كان لكم، وعطفه على الأقرب بقوله: وأخرىٰ كافرة يرونهم، دال على ما قلناه. وهذا كقوله: وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ، لكن هذه الواقعة غير تلك، فإن قوله: يرونهم مثليهم، كان الكفار فيها كذلك لا أن الله أراهم ذلك، وفي الأخرى أراهم لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا.[2] فافهم ذلك في موضعه. والله يؤيد بنصره من يشاء، إعلامٌ للكفار وتخويف للمؤمنين. ولذلك قال: إن فى ذٰلك لعبرة لأولى الأبصٰر، من سائر المؤمنين والكفار.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾

ولمّا ذكر من أوصاف الكفار ما ذكره أتبعه بذكر السبب الذي أوجب لهم الكفر. ولمّا كان أكثر الناس كذلك وأراد أن يَعِظ الجميعَ قال: زيّن للناس حب الشهوٰت. "زيّن" مما[3] لم يسمَّ فاعله يدل على أن الشيطان زين، والنفس زينت، وبعضهم زين لبعض، وكقوله: كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ،[4] أي عقابا لهم، كما قال: وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ،[5] فيدل على أن ذلك زُيّن لهم من عدة وجوه. وقوله: حب الشهوٰت من النساء، وما بعده، ولم يقل: حبُّ النساء يدل على أن حب ذلك غير ممنوع، لقوله تعالى: وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً،[6] بل الممنوع حب الشهوات من ذلك. فلمّا ذكر الشهوات جعل "من" لتبيين الجنس لا للتبعيض، لقوله: والبنين، إذ لا تتبعَّض. فقال: من النساء والبنين والقنٰطير المقنطرة من الذهب والفضة. "القنطار" على وزن مفعال مثل غِربال، ومنه القنطرة، ومثله الغَربلة والزلزلة زلزال. وسُميت قنطرةً لميلها فكأن القنطار ثِقَلٌ يُميل الميزان أو القبّان.[7] وقوله: المقنطرة، أي قناطيرُ قناطيرَ، كما يقال: ألوفُ ألوفٍ وهي معنى الآلاف المؤلَّفة،

---

[1] من الآية السابقة.

[2] ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ﴾ (سورة الأنفال، ٨/٤٤).

[3] ر ك: زين ما.

[4] سورة الأنعام، ٦/١٠٨.

[5] ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٦/١١٠).

[6] ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ﴾ (سورة الروم، ٣٠/٢١).

[7] ر: والقبان. | القبّان: الميزان ذو الذراع الطويلة المقسمة أقساما ينقل عليها جسم ثقيل (المعجم الوسيط، «قبن»).

وليس كقولك: مسدَّس، فذلك يراد به ما له سُدُس. والخيلِ المسومة، مشتق من السائمة وهي المرسلَة في المرعى، يقال: سَوَّمَ الخيلَ إذا أرسلها للرعي. وهو ههنا إشارة إلى كثرة الخيل بعد كثرة المال فهي مسوّمة. والأنعٰم والحرث. ذٰلك متٰع الحيوٰة الدنيا، والله عنده حسن المئاب.

﴿۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ١٥﴾

ومن جملة خطابه للكفار أيضا هو وصفٌ للمؤمنين قولُه بعد ذلك: قل أؤنبئكم بخير من ذٰلكم للذين اتقوا عند ربهم جنّٰت تجرى من تحتها الأنهٰر خٰلدين فيها وأزوٰج مطهرة ورضوٰن من الله. والله بصير بالعباد.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾

الذين يقولون ربنا إننا ءامنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار. الصٰبرين، مجرور بالإضافة إلى، الذين يقولون، وهي مجرورة بالباء في قوله: بالعباد. والصٰدقين والقٰنتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار.

اعلم أن الخطاب كله ههنا للكفار من عند قوله: قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ،[١] ثم قال: قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم.[٢] ثم عطف[٣] عليه ما تقديره: وقل[٤] لهم: شَهِدَ ٱللَّهُ،[٥] وقل لهم: إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ.[٦] ولهذا تبعها تمامُ الكلام بقوله: فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ.[٧]

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾

وأما معنى قوله: شهد الله، فالشهادة[٨] الإخبار بالشيء عن مشاهدة عيانا أو ما يقوم مقامَ ذلك باليقين من القلب. والعزيز الحكيم، منسوق بعد قوله: شهد الله، فهو تعالى شهد،

[١] الآية ١٢ من هذه السورة.
[٢] الآية ١٥ من هذه السورة.
[٣] ر ك: وعطف.
[٤] ر: قل.
[٥] من الآية الآتية.
[٦] الآية ١٩ من هذه السورة.
[٧] الآية ٢٠ من هذه السورة.
[٨] ش: والشهادة.

أنه، بفتح الألف، **لا إلٰه إلا هو والملٰئكة وأولوا العلم**، أيضا شهدوا، لكن شهادته سبحانه ليست متعلقةً بغيره. وأما الملائكة وأولو العلم لمّا شهدوا حالَ كونه،[1] **قائما بالقسط**، شهدوا أيضا أنه، **لا إلٰه إلا هو**. وأخّر للوِزان قوله: **العزيز الحكيم**، وحذف أنه مع الملائكة لكونه قدّمها. واستغنى بالواو في ذكر الملائكة وأولي العلم عن ذكر الشهادة. فهم شهدوا كما شهد لنفسه. والقسط العدلُ وهو يقال في الأشياء كلها. فنفسر قيامه بالقسط -أعني الكفاية- / [بأنه] هو الذي أشهدهم بهذه الشهادة، لأنه تعالى يقوم بكفاية سائر المخلوقين، كما قال: هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم،[2] وكقوله: وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ،[3] وغيرِ ذلك من غير معنى الأكل بل القسطِ. فلما شاهدوا أنه لا قائمَ بالقسط في مخلوقاته إلا هو شهدوا أنه لا إلٰه إلا هو. فالأُولى إخبار عن الله والثانية إخبار عنهم. فافهمه[4] جيدا. [٦٩ظ]

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝١٩﴾

ثم ذكر بعد ما أثبت عظمته ما أوجب به طاعتَه، وذلك قوله: **إن الدين عند الله الإسلٰم**، أي مِن قبل ومن بعدُ. **وما اختلف الذين أوتوا الكتٰب**، اسم الجنس، **إلا من بعد ما جاءهم العلم**، وهو[5] القرآن بدليل الآية الثانية.[6] وكان اختلافهم، **بغيا بينهم. ومن يكفر بئايٰت الله فإن الله سريع الحساب**. وقد علمت أن الدين من الأفعال القلبية فلا يعارضْكَ ما تَظن أنه هو الدين من أفعال ظاهرة فقط، فهي علامات الدين الباطن، وإنما وجبت هذه الأفعال بعد مجيء النبي عليه السلام. ويكفيك قوله: مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ،[7] ولم يكن إبراهيم فعل هذه الجزئيات. ولهذا قال: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ، ثم قال: ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ.[8] وقوله ههنا:

---

١ أي كون الله.

٢ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (سورة فاطر، ٣/٣٥).

٣ ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ (سورة الأنعام، ١٤/٦).

٤ ش: فافهم.

٥ ش: العلم أي.

٦ أي الآية ٣ في صدر السورة ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ مِن قَبْلُ﴾

٧ ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (سورة الحج، ٧٨/٢٢).

٨ سورة الروم، ٣٠/٣٠.

فإن الله سريع الحساب، أي لا يتأخر العذاب عنهم إلى أن يفرغ الحساب الكثير الذي هو بقدر كثرة ذنوبهم، بل الله يحاسبهم لا غيره ويؤديهم إلى النار.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

فإن حاجّوك، في أن الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ،[1] فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن، كذلك. والوجه ههنا لا يريد به الوجه الظاهر بل هو كقوله: وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ،[2] لأن الذي فطرهن تعالى ليس في جهة. هذا[3] كقوله: لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ،[4] فلو كانت الإشارة إلى القلب الصَّنَوْبَرِيّ فما أحدٌ إلا وله قلب. ولهذا قال: وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ،[5] فأشار إلى ما به يكون الإبصار لا إلى آلة الإبصار.

وقل للذين أوتوا الكتٰب، اليهود والنصارى، والأميين ءأسلمتم، معنا؟[6] فإن أسلموا فقد اهتدوا. وهذا قطعٌ للمحاجَجَة مع الدعاء إلى الإسلام، أعني قوله: ءأسلمتم. لهذا بعده: وإن تولوا فإنما عليك البلٰغ، والله بصير بالعباد. فهذا آخر الحجاج ههنا، وبدؤه من قوله: قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا.[7]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

ثم قال مخبرا عن الكفار مستعظما: إن الذين يكفرون بئايٰت الله ويقتلون النبيين بغير حق، عندهم أيضا، كما بيناه في البقرة.[8] وكرر: ويقتلون، ليكون الجزاء على أيهما وقع مِن قتل الأنبياء أو من قتل، الذين يأمرون بالقسط. ولو لم يكررها لكان المفهوم

١ من الآية السابقة.

٢ ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٧٩).

٣ ر: وهذا.

٤ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ (سورة ق، ٥٠/٣٧).

٥ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (سورة الحج، ٢٢/٤٦).

٦ ر: معنى.

٧ الآية ١٢ من هذه السورة.

٨ لعله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٦١).

أنه لا يكون الجزاء الذي هو: **فبشرهم بعذاب**، إلا إذا قتلوا الفئتين لا أحدَهما، فلهذا كرر: **ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس**، تقديره: [هم] الخاسرون أيَّ خسرانٍ. لهذا قال بالفاء: **فبشرهم بعذاب أليم**.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٢﴾

أولٰئك الذين حبطت أعمٰلهم. يقال: حبط عَمَلُه حبطا بالتسكين وحبوطا إذا بطل ثوابُه جملة. وكأن الحاء في حَبِط موضع الهاء في هَبَطَ. وإنما هبط للأجسام وحبط للمعاني والأعمال. قال أبو عمرو:[1] الإحباط أن يذهب ماءُ الرَّكِيّة[2] ولا يعودَ.[3] **في الدنيا والآخرة وما لهم من نٰصرين**، فيهما. في البقرة[4] أشار بمثل هذه الآية إلى الذين كانوا فيما مضى. وههنا أشار بها إلى فاعل ذلك في أيّ زمن كان.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾

ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتٰب، أراد بالنصيب التوراة والإنجيلَ، لأن ذلك نصيبهم من اسم الجنس بقوله: الكتٰب. **يدعون إلىٰ كتٰب الله**، أي[5] القرآن،[6] **ليحكم بينهم ثم يتولىٰ فريق منهم**. وقوله: **وهم معرضون**، هو في موضع نصب. وقد جاء كثيرٌ مثلُه يريد به النصب على الحال، ورفعَه للوِزان.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤﴾

ذٰلك، الإعراض والتولي، **بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدوٰدت، وغرهم**. وقدم [قوله:] **في دينهم**، وأَخّر لأجل الوِزان قولَه: **ما كانوا يفترون**. فإذا ادعى اليهود الآن

[1] لعله أبو عمرو إسحاق بن مِرار الشيباني بالولاء. لغوي أديب، من رمادة الكوفة. سكن بغداد ومات بها. أصله من الموالي. وجمع أشعار نيف وثمانين قبيلة من العرب ودوّنها، وكان كلما عمل منها قبيلة أخرجها إلى الناس في مجلد وجعلها في مسجد الكوفة. ومن تصانيفه: كتاب اللغات، وكتاب الخيل، والنوادر المعروف بكتاب الجيم في الاسكوريال، وغريب الحديث. توفي سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م (الأعلام للزركلي، ١/٢٩٦).

[2] الركية: بئر تحفر (تهذيب اللغة للأزهري، «ركا»).

[3] لسان العرب، «حبط».

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢١٧).

[5] ر ك – أي.

[6] ش – أي القرآن، صح هـ.

أنهم لا يقتلون [النبيين] فاعلم أن مذهب كلِّ كافر القتلُ، يقال: سَمٌّ قاتلٌ، أي من شأنه أن يقتل.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

فكيف، يكون حالهم، / إذا جمعنٰهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت [٧٠و]
وهم لا يظلمون.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾

قل اللّهُمَّ، الميم بدل من ياء النداء، ولهذا لا يُجمع بينهما، مٰلك الملك، الكليّ، تؤتى الملك، الجزئيَّ، من تشاء وتنزع الملك، ولو قال: وتَنزعه، ممن تشاء، للزم أن يكون الملك الثاني المنزوعُ هو الأولَ بعينه. ولما كرر لفظة "الملك" جاز أن يكون ذلك وأن يكون غيرَه لقوله: ممن تشاء، فافهم. والنزع أخذُ جملةِ الشيء قهرا كنزع الروح وقلع النبات. وفتح "مالك" على النداء المضاف. ولهذا لم يقل: يؤتي[١] بالياء على سبيل الإخبار بل الإقرار. وتُعِزّ من تشاء، ولم يقل: وتُذلّه لئلا يعود القول على ذلك الشخص بعينه. فلما قال: وتذل من تشاء، دخل الخصوص في العموم. بيدك الخير إنك علىٰ كل شيء قدير.

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

تولج اليل فى النهار وتولج النهار فى اليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى، الإيلاج ههنا إدخال الليل في النهار بما يزيد أحدُهما في الآخر وينقص، وإخراج الحي من الميت كالدجاجة من البيضة والبيضةِ من الدجاجة، ومثله الإنسان من نطفة والنطفة من إنسان. وفي المعنى كالمؤمن من الكافر وبالعكس، لأن المؤمنين أحياءٌ والكفارَ أموات. والمَيْت بخفيف الياء يدل على ما هو ميت في نفسه دون تقدمِ حياة، وبالتشديد يدل على تقدم حياة[٢] وعلى ما لم تتقدم له. فهو أعم لأنه يُستعمل في الصورتين،

---

[١] ر + يأتي.

[٢] ش - وبالتشديد يدل على تقدم حياة.

وهو بوزن فعيل مثل قتيل. وترزق من تشاء بغير حساب، أي لا يحاسِب ويعطي بعدم[1] استحقاقه فقط. وذلك إنباء بغاية القدرة والكرم، لكنه مخصوص بمن يشاء إيناسا للقلوب وفتحا لباب الرجاء للمؤمن خاصةً.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾

ولهذا بعده: لا يتخذ المؤمنون الكٰفرين أولياء. وقوله: من دون المؤمنين، قد كان يُظن أنها زائدة، والمراد أنه لا تُنال الولايةُ من مكان دون مكان المؤمنين، ولفظة "دون" ههنا معناها سوى. فأراد نفيَ الولاية عن سائر أنواع الكفار من كل طائفة. فلمّا خصّص المؤمنين بالذكر كان ذلك أبلغَ في نفي غيرهم، كقوله: لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ،[2] فنفى ما سوى الله تعالى. والمعنى لا يتخذِ المؤمنون من دون المؤمنين أولياء من سائر أنواع الكافرين.

وبعد هذه الآية نذكر مقالةً قد أفردناها وسميناها "النصّ الموجود في لعنة اليهود وغيرهم ممن كفر بالمعبود".[3] وماطوّلنا في ذلك إلا لأن المقصود من جميع القرآن اكتساب ما يوجب الثواب واجتنابُ ما يوجب العقاب. ومثل هذا الأمر -أعني موالاة الكفار- قد فشا وكثر في الناس. فأفردنا له هذه المقالة ههنا لعل يخاف المؤمن هذا الخطرَ العظيم فيجتنبه إذا علم فرطَ تحذيرِ الله تعالى له منه كقوله: ومن يفعل ذٰلك فليس من الله، أي من موالاة الله، فى شيء.

وقوله: إلا أن تتقوا منهم تقىٰة. [وقرأ الحسن والفرّاء[4] ومجاهد: تُقَاة،[5] وقالوا: هي[6] بمعنى اتّقاء. وقرأ غيرهم تقية.[7] ولو قلنا: إن المعنى إلا أن تتقوا منهم تقية كان المفهوم

---

١ ر ك: بقدم.

٢ ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٥١/٦).

٣ سيأتي بعد تفسير الآية ٣٠ من هذه السورة.

٤ أبو زكرياء يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، المعروف بالفراء، إمام الكوفيين، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب. كان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو. ومن كلام ثعلب: لولا الفراء ما كانت اللغة. ولد بالكوفة وانتقل إلى بغداد، فكان أكثر مُقامه بها، فإذا جاء آخر السنة انصرف إلى الكوفة فأقام أربعين يوما في أهله. وكان مع تقدمه في اللغة فقيها متكلما، عالما بأيام العرب وأخبارها، عارفا بالنجوم والطب، يميل إلى الاعتزال. من كتبه: المقصور والممدود، والمعاني ويسمى معاني القرآن، والمذكر والمؤنث، وكتاب اللغات. توفي في طريق مكة سنة ٢٠٧هـ/٨٢٢م (الأعلام للزركلي، ١٤٥/٨-١٤٦).

٥ معاني القرآن للفراء، ١٤٦/١-١٤٧.

٦ ر - وقالوا هي، صح هـ.

٧ قرأ الأخوان بالإمالة (كتاب العنوان لإسماعيل بن خلف الأندلسي، ص ٧٩).

كما تقول: لا آمُرُكَ أن تتخذ الشرير صاحبا إلا آمرك أن تتقيه تقية. ولهذا بعده: ويحذركم].[1] التقاة جمع تقيّ، كقولك: دَنِيّ ودُناة وكَمِي وكُمَاة[2] وسَرِي وسُراة. وقال أبو علي الفارسي:[3] هو مثل رُماة.[4] واعلم أن التقي مثل لفظة البغي، وهو فعيل بمعنى فاعل. فقوله: بَاغٍ وبَغِيّ وبُغاة، مثله تاقٍ وتَقِيّ وتُقَاة. وأظهر من ذلك للعقل وأشدُّ مطابقةً في المثال وموافقة في التصريف ما تجده في الآية نفسها من ذكر الوَلي والتَقي. فإن قولك: والٍ ووَليّ ووُلاة وأولياء، مثله تاقٍ وتَقِيّ وتُقاة وأتْقِيَاء وإن لم يُستعمل تاقٍ. والأصل مِن اتَّقَى: اِوْتَقَى على افتعل، قُلبت الواوُ ياءً لانكسار ما قبلها وأُبدلت منها التاءُ وأُدغمت. فلما كثر استعمالها على لفظ الافتعال توهموا أن التاء من نفس حروف الأصل. فجعلوه اتَّقى يَتَّقي بفتح التاء فيهما، إذ لم يجدوا له مثالا في كلامهم ليُلحقوه به. فجعلوا الأمر تَقِ وللمرأة تَقِي. وإذ قد عرفت: "تتقوا" ولفظةَ "تُقاة" فالمعنى: إلا أن تتقوا قوما تُقاةً منهم، أي لا توالوا الكفار بل اتقوا القومَ التُقاة منهم، فافهم ذلك جيدا وخذه في خاطرك وقابلْ به النصَّ لتعرفه منه. فهذا الاستثناء منقطع. فافهمه جيدا، وإلا يلزمك منه[5] جوازُ موالاة التقاة من الكافرين، وهو عكس المراد ههنا بل المراد غاية المنع من موالاة أحد منهم / لقوله: **ومن يفعل ذٰلك فليس من الله فى شىء**. ثم أكد ذلك [٧٠ظ] بقوله ما معناه: لكن أريد أن تتقوا موالاةَ التقاة منهم، فكيف غير التقاة. والدليل على أن الاستثناء منقطع وأنه يريد المنع المطلق حتى من موالاة القوم التقاةِ منهم قولُه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾،[6] وما أحد يُؤثِر أن يكون من تقاة الكفار، ولا يجوز ذلك. فقد علمت أنه متى لم يكن الاستثناء منقطعا لزم أن يكون موجبا من منفيّ تَقدّم. فيكون معناه: لا يتخذ[7] المؤمنون الكافرين أولياء إلا التقاة منهم فلا بأس باتخاذهم أولياءَ، أو إلا أن تتقوا منهم تقاة فتأخذوا مع الاتقاء، وهذا[8] ضد ما جاء في جميع القرآن.

---

[1] ما بين المعقوفين نُقل من آخر تفسير الآية ٣٠ لعلاقته بهذه الآية.

[2] الكمي الشجاع، والجمع الكماة (لسان العرب، «كمي»).

[3] أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي الأصل، أحد الائمة في علم العربية. ولد في فسا من أعمال فارس ودخل بغداد سنة ٣٠٧ هـ، وتجوّل في كثير من البلدان. وقدم حلب سنة ٣٤١ هـ، فأقام مدة عند سيف الدولة. وعاد إلى فارس، فصحب عضد الدولة ابن بويه وتقدم عنده، فعلّمه النحو، وصنف له كتاب الإيضاح. توفي سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م (الأعلام للزركلي، ١٧٩/٢-١٨٠).

[4] البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ٤٤٢/٢.

[5] ش ك - منه.

[6] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ (سورة المائدة، ٥١/٥).

[7] ك: لا تتخذ.

[8] ر ك: وهو.

وإنما سماهم تقاة ههنا بالنسبة إلى قومهم الأشرار وإلى غير التقاة منهم. فإن بعض اليهود والنصارى قد يكون تَقيّا بالنسبة إلى غيره من قومه، أي يكون مشهورا بتقوى ما حرم عليه في دينه، أو في العقل والعوائد، أعني بخلاف غيره منهم. فعرَّفنا الله سبحانه أن ذلك التقيَّ منهم يجب أن نتقيه ولا نواليَه[1] بوجه، فإن نفس المؤمن إنما تميل إلى ذلك التقي دون غيره منهم، وإذا حذّر الله من موالاة التقي منهم فقد لزم أن يُحذَرَ غيرُ التقيّ، إذ الطبع يقودنا إلى ذلك وإن لم يأت به شرع، أعني الطبع المستقيم. فنهانا عن الميل بالطبع إلى ما يخالف الشرع ولو كان جائزا في العقل.

وبعد ذلك كلِّه حذَّرَنا من نفسه سبحانه، ونفسُ البارئ تعالى عبارةٌ عنه، كقوله: تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَ،[2] فقال: **ويحذركم الله نفسه**. ولا فرق بين قولك: اتق الله أو احذرِ الله. والمعنى احذرْ عذابَه. وتكرار "ويحذركم" زيادة في التحذير وتأكيدٌ له مضافا إلى أن التحذير الأول هو من عقاب الله في الدنيا، لهذا بعده: **وإلى الله المصير**، والتحذير الثاني هو من العقاب في الآخرة، لهذا بعده: يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٍ.[3]

﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٩﴾

ولمّا كان الإنسان قد يُسِرُّ الموالاةَ للكفار وقد يُظهرها خصوصا إن كانوا أقارب، فإن المحبة لا تُنتزع[4] من القلب جملةً قال: **قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله**، أي فيجازيكم[5] به. **ويعلم ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض**، وهذا رد على ما نُقل عن بعض الفلاسفة من أنه تعالى لا يَعلم الجزئيات، لأن الجزء والكل في السماوات والأرض، وهو جميع الظاهر. وقوله: **إن تخفوا**، هو جميع الباطن. وأوضح ذلك بقوله: **والله علىٰ كل شىء قدير**. يلزم عن هذا أنه تعالى لا يُعجزه شيء فلا يَعلمه ولا يَعجز عن مكافاتكم عليه، لأن إطلاق القدرة يلزم عنه سائرُ الصفات. فافهم هذا جيدا.

﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠﴾

---

[1] ش ك: أن تتقيه ولا تواليه.
[2] سورة المائدة، ١١٦/٥.
[3] الآية ٣٠ من هذه السورة.
[4] ش ك: لا تنتزع.
[5] ر ك: فيجازيهم.

يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا، تقديره مُحْضَرا أيضا. ومن قوله: **وما عملت من سوء**، إلى قوله: **بعيدا**، هو[1] جملة واحدة بحكم المبتدأ، وخبره مقدَّر محذوف. لأنه معطوف على قوله أولا: **محضرا**. **ويحذركم الله نفسه**، وأنبأ بعد ذلك أن هذا التخويف كله والتحذير رأفة من الله بعباده، وإنما الظالم منهم هو الذي يَظلم نفسَه بالمخالفة، فقال: **والله رءوف بالعباد**.[2]

[النص الموجود في لعنة اليهود وغيرهم ممن كفر بالمعبود]

وهذه المقالة[3] التي وعدتُك بها وهي تشتمل على ذكر كثير من الآيات التي توجب منْعَ الولاء والوُدّ لغير المؤمنين من اليهود والنصارى وغيرهم، وتدل على عدوان فاعله. وبالله التوفيق.

اعلم أن الولاية مشتقة من ولى يلي وَلايَة ووَلاءً فهو وَالٍ. فإذا أردتَ به المبالغة قلت: وليّ، والجمع أولياء. والشخص قد يكون وليّا من حيث الوضع، وقد يكون وليا من حيث الطبع، وقد يكون وليا من حيث الشرعُ. ومعناه أن الشخص قد يكون وليا في نفسه من جهة / أن في طبعه ما يسوِّغه للولاية، فقد يتَّخذ مع ذلك وليا وقد لا يتخذ، [٧١و]
وقد لا يكون كذلك ويوضَع وليا بحسب نظرِ مَن وَلّاه. وقد تكون الولاية حَصلت له من جهة الطبع والوضع معا. وقد يكون[4] الشرع يجيز ذلك كما سنبين. وليس لمسلم أن يتخذ وليا لم يُبِحْ اتخاذَه الشرعُ وإن قضى بذلك الطبع والوضعُ. ولهذا بين الله تعالى لنا ذلك كيما لا نَغترّ بشخص له من جميل الطبع ما يسوّغ ولايته فنوليه أو نتولاه، وعرّفنا أنه لا يجوز أن يكون من غير المؤمنين لِعلْم الله تعالى ببواطنهم وبما لا نعلمه نحن منهم، وبالجملة لِحكمة بالغة صدرت عن الحكيم العليم سبحانه لا تطَّلع العقولُ على سرها. والعقل يقضي على كل عاقل بالتزام ما يَصدر عن الحكيم العليم من الأحكام وإن لم يَطَّلع على سر حكمتها في بعض الأمور، لأنه تعالى لا يصدر عنه إلا حكمةٌ بالغة نافعة لمستعملها. فالواجب عند العقل الانقيادُ والتسليم لِمن هذا وصفُه خصوصا.

---

[1] ر + من.

[2] نقلت من هنا عبارة بمقدار ثلاثة أسطر إلى تفسير الآية ٢٨، المتعلقة بقراءة كلمة "تقاة".

[3] ذكر المؤلف رحمه الله اسم هذه المقالة ضمن تفسير الآية ٢٨ من هذه السورة، وأشار إلى أنها ستأتي فيما بعد.

[4] ر: وقد لا يكون.

وقد اطّلعت العقولُ على بعض حِكَم الموجودات وإتقانها وظهورِ ذواتها المحكمةِ الصنعةِ من بعد العدم إلى الوجود من الجماد والنبات والحيوان، وخصوصا من خَلْق الإنسان في نفسه: من هيئة أعضائه وتركيبها وأفعالها، ومن أمرِ نفسه وقواها وإدراكها بالحواس الظاهرة والباطنة. وذلك مما تَدهَش منه العقولُ وتخضع وتَخِرّ له وتخشع، لظهور عجزها لها وظهورِ قدرة بارئها وحكمته الظاهرة الباهرة في أحكام خلقها. فلاطّلاع العقل على بعض حِكَم الله تعالى الغريبة العجيبة في الأشياء الظاهرة قَضى[1] في جميع ما صَدر عنه من الأشياء الوجودية والأحكام الشرعية بالحكمة البالغة الواصلة إلينا منه على ألسنة أنبيائه، لنزدجر بها عما نهانا الله عنه فنرتدع ونتبع ما أمرَنا به فننتفعَ، قال الله تعالى: وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ [فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ].[2]

وإذ قد بان وجوب امتثال الشرع عند العقل فلنعُدْ إلى الكلام في الولاية فنقول: قد يَبلغ الشخص من الرتبة فى النفس أن تتخذه وليا على أمر مِن أمورك أو جُلِّها أو كلها. وربما وُلِّيَ على المال والنفسِ كالكاتب والطبيب, وتلك أعلى رُتَبِ الولاية ظاهرا أو أعلى من ذلك، كمن يَعتقد فيه أنه وليُّ الله تعالى فيتولاه الشخصُ ويولِّيه على نفسه وماله. وقد يتبع الولايةَ مَودّة الشخص ومَحبّتُه، فتَحسُن صفاتُه فيُختار للولاية. وقد يُستحسن وصفٌ منه من غير حصولِ وُدٍّ كمن يَظهر عزمُه وهمته وذكاؤه وفطنته، أو بأسُه وقوته، أو ثقته وأمانته؛ فيقع في النفس منه موقعا مّا فيولِّيه الشخصُ على أمر من أموره.

فلعلم[3] الله تعالى بخيانة الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم وأنهم ليسوا لنا في نفس الأمر على ما يظهر منهم نهانا الله عن اتخاذهم أولياء. والوَلاية تَصدق على أعلى الرُّتَب وعلى أدناها. فمنعَنا الله عن مطلق الولاية ليكون المنع عاما. ذلك[4] لِما يعلمه الله من سوء ضمائرهم ومِن فرط خيانتهم، فإنهم أشد الناس خيانةً لله تعالى ولرسوله ولنفوسهم كما سنبين. ومن خان نفسه فهو أولى بخيانة غيره. هذا إذا كان معتقِدا صحةَ ما عليه الغيرُ، فكيف إذا كان معتقدا كفْرَه أو شركه أو كِذبَه فيما يدعيه في كتابه ونبيه، فهو إذ ذاك أولى بالخيانة له.

[1] أي قضى الله في جميع ما صدر عنه لاطلاع العقل على بعض حِكم الله تعالى.
[2] سورة القمر، ٥٤/٤-٥.
[3] ش: فبعلم.
[4] ش: ذاك.

وأما بيان خيانتهم لنفوسهم فذلك في تكذيبهم لكتاب الله تعالى ولرسوله. فتكذيبهم للكتاب هو تكذيب لله[1] بلا شك. ولا خيانةَ أعظمَ من خيانة أَلحقتِ الشخصَ بتكذيب الله ورسوله وخصوصا علماؤهم. قال تعالى: لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.[2] فإن جحودهم لكتاب الله تعالى وسترهم لمحاسنه وطلبَهم لإظهار باطلِهم وإخفاءِ حقه هو خيانة لله ولرسوله ولنفوسهم بلا شك. قال تعالى: وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ.[3] ومن رسخت في نفسه هذه الأباطيلُ، وترَبَتْ[4] فيها طينتُه، وجُبلت عليها جبلَّتُه،[5] واستمرت عليها عقيدتُه فحريٌّ به الخيانةُ لا الأمانة. وأما الذي يوجب أن / يَتوهم الغيرُ فيهم [٧١ظ] ذلك، أعني الأمانة، هو ما يتعاطاه بعضهم في ذلك. وذلك لا يدل على أمانة، لأن الامتناع من الخيانة إذا كان لأمر يخافه الشخص في ماله أو نفسه[6] أو عِرضه فإنه ليس بأمين في نفسه. وإنما هو متظاهر بالأمانة تَظاهُرَ المحتال[7] بها على الطمع في مرغوب فيه أو مرهوبٍ منه. ومن جحد ديني وكتابي ونبيي فهو أجدر[8] بجحود مالي. فإن امتنع من ذلك فإنما يكون امتناعه لِما يتوقعه من الإخراق[9] والعقوبة، أو زوال نعمة لا يُؤْثر زوالها. فهم متى قدروا على خيانتنا في نفوسنا وأموالنا وأعراضنا لم يُبقُوا[10] علينا. ولهذا قال تعالى: إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ.[11] فليس لمسلم دَيِّنٍ إن اتخذ منهم وليا عذرٌ عند الله سبحانه.

فإن قلت: لو فقدْنا وصفا ضروريا في المسلمين ووجدناه في غيرهم؟ فأقول: هذه الصورة لا تكاد تقع إلا نادرا كما يقع الاضطرار إلى المَيْتة. وإذا وقعت لا تكون دائمة بل في مدة مخصوصة مع الاعتراف من فاعلها بحاله. وتلك الصورة بهذ الحُكم لا يقال لها: موالاة. وأما أن نستخدم الكافرَ في حالة ونستقضيه في حاجة فذلك مباح على شرط أن لا نكسوَه ثوبَ عزةٍ خصوصا في قضية يكون بينه وبين المؤمن فيها نشبٌ.[12]

---

[1] ر: الله.

[2] ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة، ١٤٦/٢).

[3] ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ (سورة المائدة، ١٣/٥).

[4] ك: وترتب.

[5] ر: جبليته.

[6] ش: في نفسه أو ماله.

[7] ك: المختال.

[8] ش - أجدر، صح هـ.

[9] أَخْرَقَه أي أدْهَشه (لسان العرب، «خرق»).

[10] ش: لم تبقوا. | يقال: أبقى عليه: رحمه وشفق عليه.

[11] سورة الممتحنة، ٢/٦٠.

[12] أي اختلاف ونوع عداوة.

فنُلْبِس[1] الكافر فيها ثوب العزة بحيث يُلبس هو للمؤمن ثوبَ الذلة فيعود الإسلامُ متصفا بالذلة والكفرُ متصفا بالعزة. والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين.[2] وقد نهانا الله تعالى عن هذا المعنى حتى مع أخذ الجزية بقوله: حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ،[3] وقال: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ.[4] فموالاتهم بل مجالستهم لا شك أنها توجب انسراقَ الشخص إلى بعض طبائعهم، أو عقائدهم مما يضره في الدين. وربما أدت محاضرتهم إلى انبساط يُفضي إلى استهزاء بأمر من أمور الدين، فيلزم الإثم العظيم.

وقد حذَّرنا الله من ذلك وسمَّى فاعله منافقا في سورة النساء فقال: بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا. ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا. وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا.[5] ثم قال بعده: لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا. إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا. إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ إلى قوله أَجْرًا عَظِيمًا،[6] فانظر كيف من صعوبة هذا الأمر سمَّى صاحبَه[7] منافقا أولا وآخرا، وأحوج فاعله إلى توبة وإصلاح واعتصام لعظيم الأمر الذي بدأ منه. وفي المائدة يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ.[8] فذلك تصريح وبيان في المنع لا يتعدى[9] عليه إلا غافلٌ عنه، أو جاهل له، أو كافر به. وقال أيضا: لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إلى قوله لَا يَعْقِلُونَ.[10]

---

١ ش: فيلبس؛ ك: فتلبس.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة المنافقون، ٨/٦٣).

٣ ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ (سورة التوبة، ٢٩/٩).

٤ سورة الممتحنة، ١٣/٦٠.

٥ سورة النساء، ١٣٨/٤-١٤٠.

٦ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة النساء، ١٤٦/٤).

٧ لعل المؤلف يشير هنا إلى أن المنافقين كانوا يدّعون في الظاهر أنهم من أصحاب النبي.

٨ سورة المائدة، ٥١/٥.

٩ ك: لا يعتدى.

١٠ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ (سورة المائدة، ٥٧/٥-٥٨).

وفي الأنفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ إلى قوله ﴿إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾.[١] فانظر كيف نهانا عن موالاة المؤمنين في هذه الآية حتى يهاجروا، فكيف الكفار؟ وفي براءة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ إلى قوله ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.[٢] فانظر كيف بين لنا سبحانه ما يشتبه[٣] على الشخص من أمرِ أبيه الذي يجب إكرامُه شرعا وعقلا؟ حذَّر الله من موالاته مع الكفر، ثم ذكر مَن بعده من الأخ وغيره. فكيف اليهود والنصارى؟ وفي سورة المجادلة: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ / وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ. أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ إلى قوله [٧٢و] ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾. ثم أتبعه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ إلى قوله ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.[٤] وفي الممتحنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾، وتمام الآية إلى قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡ﴾.[٥] ثم بعدها إلى قوله: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾،[٦] ثم قال: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾.[٧] فانظر كيف منع المودة ههنا ولو كانت سرا. ثم عرَّفنا سبب ذلك،

---

١ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾ (سورة الأنفال، ٧٢/٨-٧٣).

٢ ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ (سورة التوبة، ٢٤/٩).

٣ ر: ما يشبه.

٤ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ۝ ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۝ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۝ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ (سورة المجادلة، ١٥/٥٨-٢٢).

٥ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡ﴾ (سورة الممتحنة، ١/٦٠).

٦ سورة الممتحنة، ٢/٦٠.

٧ سورة الممتحنة، ٣/٦٠.

وهو ما في بواطنهم لنا من سوء الذي شأنه أن يظهر متى قدروا علينا. وبعد ذلك عرّفنا أن هذا الفعل منا معهم وهو المباعدة والتبرؤ، وتركُ الموالاة وشدة العداوة هو الأصلح لنا ولهم. فقال: عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً، أي إن فعلتم ما أمرناكم به، وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ.[١]

ويا هذا! لا تحسبنَّ أن نهي الله عن موالاة الكفار وأمْرَه بفرط إهانتهم وإذلالهم عقابٌ لهم فقط بل هو عقاب خفيف خامَرَه الرحمة. فهو من العذاب الأدنى لعلهم يرجعون،[٢] بل هو الرحمة بعينها لكونها سببا لردهم إلى الإسلام. فإن إبقاءنا لهم على العزة ومعاملتَنا لهم بالإكرام هو مما يُبقيهم على ما هم عليه من الطغيان، وهو خلاف مراد الله منا ومنهم. وأما فرط إهانتنا لهم وإذلالنا لهم فهو مما يُحرج صدورَهم ويُضجرهم ويوقظهم للكشف والاطِّلاع على ما هم عليه من الباطل، فينقلبون إلى الإسلام فيسعدون. وقد شاهدْنا كثيرًا منهم ممن أيقظه الهوان والذلة،[٣] فكشف في أمر دينه عن موجب ذلك فاطلع على بطلان ما هو عليه وعلى ثبوت الإسلام ووجوبه فانتقل عن علم. فإذا فعلنا ذلك بهم عادتِ الذلة مُفضيةً بهم إلى العزة، وصح إيماننا وإيمانهم. وإن عَكَسْنا ذلك أبقيناهم على كفرهم ودخلنا معهم فيه بقدر[٤] موالاتنا لهم. ومَن وَالى عدوَّ الله فقد تبرأ من موالاة[٥] الله بقدر ذلك. ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ.[٦]

فافهم[٧] جميعَ ما سطرتُه. فقد تبين لك أن هذه النقمة أعني ما أمرَنا به من فرط إهانتهم والإذلال لهم هو عقاب ممزوج بالرحمة. وهذه الرحمة لا يستحقونها بسبب كفرهم بل بسبب إمكان هداية مَن يهتدي منهم. فهم في الحقيقة لمَا طبع الله على قلوبهم بكفرهم بقي حكمهم كحكم العاتي البليد[٨] الذي لا يؤثِّر فيه القولُ ولا يرتدع إلا بالحبس والضرب والإهانة. وليس ذلك حُبًا من الله لمجرد العذاب، تعالى عن ذلك،

---

١ سورة الممتحنة، ٦٠/٧.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة السجدة، ٣٢/٢١).

٣ ش: والذل.

٤ ش ك: بقدم.

٥ ش ك: من موالات.

٦ سورة البقرة، ٢/٢٥٧.

٧ ر: فافقه.

٨ البليد الذي ذَهَبَ حياؤه أو عقلُه (تاج العروس للزبيدي، «بلد»).

بل لأن المُهينَ النفسِ لا يؤثر فيه غيرُ[١] ذلك فيعود الفعل الواحد قائدا إلى طريق النجاة للمؤمن والكافر. أما المؤمن فباتباع الأمر، وأما الكافر فبالإذلال والقهر. وهو عين الرأفة من الله تعالى للفريقين. وهذا معنى قوله تعالى: والله رءوف بالعباد. فهذا مما وجدتُه.

وإنما أفردتُه لينظر فيه المؤمن ويقرأه جملةً آيةً بعد آية على أولي الأمر فيمتثلوا أمر الله فيَثبت الأمر لهم في الدنيا وفي الآخرة إن شاء الله تعالى. والحمد لله والصلاة على رسول الله، والسلام.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا، تحتمل هذه اللفظة أن تكون بمعنى الماضي فتكونَ إخبارا، وأن تكون بمعنى المسقبل، أي تَتَولَّوا، فهي جملة الخطاب. فإن الله لا / يحب الكٰفرين. ولو قال: "بعضَ[٢] الكافرين" لجاز أن يحبهم من وجه ويُبغضهم من وجه، فقال: لا يحب،[٣] أي بوجه من الوجوه. [٧٢ظ]

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾

ثم ذكر مَن يحب فقال: إن الله اصطفىٰ ءادم ونوحا وءال إبرٰهيم وءال عمرٰن على العٰلمين، واصطفى مأخوذ من الصفوة، وهي افتعل. والمعنى أخذه صافيا لنفسه، يقال: صفا الماء إذا خَلَص من شوائب الكَدَر، وصفَّيتُه أنا وأصفيتُه. ذريةً بعضها من بعض والله سميع عليم. وامرأة عمران هي أم مريم ابنةِ عمران أمِّ المسيح عليه السلام، وليست أخت موسى بن عمران. ولما قال: ذرية بعضها من بعض، علمْنا أن مَن اصطفاه الله هو من هذه الذرية أيضا. وقوله: وءالَ عمرٰن، يريد بعمران هذا جدَّ عيسى لقوله بعده: إذ قالت امرأة عمرٰن. أي، سميعٌ عليمٌ، إذ قالت [امرأت عمرٰن]: رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا، من الحرية، تقول: حرّرت عبدي، أي جعلته حُرًّا فأعتقته. فتقبل منى إنك أنت السميع العليم.

---

[١] ش - غير، صح هـ؛ ك - غير.
[٢] ر: يبغض؛ ش: بغض.
[٣] ش ك - فقال لا يحب، صح هـ.

وأما عمران أبو موسى فإنه يرجع إلى إبراهيم. والاصطفاءُ لكل واحد هو على عالَم المصطفى منهم. ولا فائدة أن يكون على ما قبل عالَمه بل على عالمه وما بعده إلى أن يأتي المصطفى التالي له. فمحمد صلى الله عليه وسلم هو المصطفى للبعثة من حين بعْثته إلى يوم القيامة، لأنه خاتم النبيين.[1] وأما التفضيل فمعنى آخر.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾

وقوله: فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثىٰ، استقلالا بها عن أن تَصلُحَ للنذر. فأخبر الله تعالى بقوله: والله أعلم بما وضعت، تعظيما لِما وضعته، كما تقول: الله أعلم بما جرى، تريد تعظيمه عن أن تصفه كأنك تشير إلى فضيلته[2] لا يعلمها إلا الله لعظمها.

وقوله: وليس الذكر كالأنثىٰ، ولم يقل: وليست الأنثى كالذكر، كما تقول: ليس زيد كالأسد، تريد تعظيمَ الأسد بما نفيتَه عن زيد. فهو من كلام الله تعالى لا من كلامها. وهو تمام التعظيم، يعني وليس الذكر المرضيُّ للنذر كالأنثى التي قد وضعَتْها. وذلك لِما علّق بها في علمه من عظائم الأمور. وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطٰن الرجيم.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

فتقبلها، ليس من التفعل الذي هو تكلفٌ بل مثل تَيَقّنَ الذي هو حصول غاية اليقين، وتأذن وتكلم. ربُّها. وقوله: بقبول حسن، ولم يقل: قبولا، فالمعنى أنه جعل عليها قبولا عند كل من يراها وكان القبول حسنا، يقال: على فلانٍ قبولٌ إذا قبلتْه النفسُ. والقبول أيضا الصَّبا، وهي ريح تُقابل الدَّبورَ.[3] وأنبتها نباتا حسنا، أي كما يَعظم النباتُ وذلك لسرعة المدة التي نشأت فيها. ثم مات عمران وامرأته أمُّ مريم وبقيت.

[1] ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٤٠).

[2] ش ك: إلى أن فضيلة.

[3] عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «نُصِرتُ بالصبا وأُهلكت عاد بالدَّبور» (صحيح البخاري، بدء الخلق ٥؛ وصحيح مسلم، صلاة الاستسقاء ١٧).

وكفّلها زكريا، الكفيل ضامن. **كلما دخل عليها زكريا المحرابَ**، دخوله يدل على أنها كانت مقيمة بالمحراب كالمعتكف فيه لعبادة الله سبحانه، **وجد عندها رزقا**، اسم عامّ لِما يُرْزَقه العبد، يريد به ههنا ما يؤكل. ولم يعيّنه إشارةً إلى أنه من طعام الجنة وثمارِها بحسب ما تشتهيه. **قال يٰمريم أنىٰ**، من أين، **لكِ هٰذا**، كيف[1] جاءكِ[2] هذا؟ وتقديره[3] وما أحدٌ يدخل عليكِ. **قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب**، يُشعر بكثرة ذلك أيضا، ويقتضي أن زكريا كان دائما يجد ذلك لقوله: **كلما دخل**.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾

هنالك، في المحراب، **دعا زكريا ربه، قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة**، أي غير خبيثة كما ذَكر الْخَبِيثِينَ في سورة النور.[4] **إنك سميع الدعاء**. لهذا[5] بعده: **فنادته الملٰئكة وهو قائم يصلى فى المحراب**. الدعاء هو كان الصلاةَ هناك. وقوله: **ذريةً**، يُفهم منه الولدُ وولدُ الولدِ وهَلُمّ جرّا، أي تكون ذرية طيبة جيلا بعد جيل كقوله: مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ،[6] وهم قوم بعد قوم. ولا يلزم أن يأتي الكل طيبا.[7] **أن الله يبشرك بيحيىٰ**، تقديره: يأتي ويكون،[8] **مصدقا بكلمة من الله**، أي تأتي[9] من الله، يشير إلى عيسى رسولِ الله وكلمتِه.[10] ولو قال: "مصدقا كلمةً" وحَذَف الباء التي قيل: إنها زائدة لدلّ على كلمة من كلام الله، / بل هو كما تقول:[11] "مؤمنا بالمسيح" فتضطر[12] إلى الباء. **وسيدا وحصورا**، [٧٣و] هو الذي حصر نفسَه عن النساء والشهوات. **ونبيا من الصٰلحين**، كما تقول:[13] نبيا من النبيين. والصلاح أعمُّ من النبوة، والخاص يدخل في العام.

---

[1] ر: وكيف؛ ش: أو كيف.

[2] ش ك: جاءكي.

[3] ش ك - وتقديره.

[4] ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ (سورة النور، ٢٤/٢٦).

[5] ر + قال.

[6] ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾ (سورة مريم، ١٩/٥٨).

[7] ر + وقوله.

[8] ر: أو يكون.

[9] ك: يأتي.

[10] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ (سورة النساء، ٤/١٧١).

[11] ك: كما نقول.

[12] ر: فنضطر.

[13] ش - مؤمنا بالمسيح فتضطر إلى الباء وسيدا وحصورا هو الذي حصر نفسه عن النساء والشهوات ونبيا من الصٰلحين كما تقول، صح هـ؛ ش: كما نقول.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠﴾

فلما قدّمه ذِكرَ العامّ -ولهذا ذكر العام-[1] وحّده في عيسى بزيادة الواو فيما سيأتي بقوله: وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ،[2] **قال رب أنى يكون لى غلٰم**، البشرية تقتضي التعجب من الواقع على خلاف العادة. فلما آمن بوقوع ما سيقع حتى كأنه رآه واقعا تَعجَّب على صورة التعظيم للفاعل لا الإنكار والجحدِ، فهذا من هذا القبيل. وقوله: **وقد بلغنى الكبرُ**، ولم يقل: قد بلغتُ الكبرَ، فإن الإنسان قد يَضعف بدنه وسمعُه وبصره لمرض، أو عرض، فيُظَنّ به الكبرُ مع أنه لم يَبلغ من العمر إلى حد يَحصل له من أجله ما حصل. فهذا ما بلغه الكبرُ، بل هو بلغ[3] إلى حال مَن بلغه الكبرُ، ويجوز انتقاله عن الحال. فأما إن بلغه الكبر فلا يجوز انتقاله بوجه إلا بالمعجزة. ولهذا في الموضع الآخر لمّا قال: وَقَدۡ بَلَغۡتُ، قال: مِنَ ٱلۡكِبَرِ، أي من أجله عِتِيّٗا،[4] أي إلى عُتوّ. فبين أنه بلغه الكبرُ، وبين أيضا أنه بلغ من الكبر إلى هذا الحد، يجوز[5] أنه قد يبلغه الكبرُ ويكون على صحة وقوة دون الحد، فقال زكريا ذلك. **وامرأتى عاقر قال كذٰلك**، مثل ما يخلق لك هذا الولد، **الله يفعل ما يشاء**، أي مهما شاء.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ۝٤١﴾

قال رب اجعل لى ءاية قال ءايتك ألا، تَقدِرَ أن، **تكلم الناس ثلٰثة أيام إلا رمزا**. ذكر ههنا الأيام، وفي مريم الليالي،[6] لأنه لو اقتصر على أحدهما لجاز أن لا يكون معه الآخر، فنفى الجائز بالواجب. وأخّر ذكْرَ المرأة ههنا وقدمه في مريم[7] ليدل ههنا أنها كانت عاقرا، وفي مريم أنها كانت[8] كذلك حين القول، لجواز زواله بعد كونه ولمراعاة[9] الوزان. وأما طلبُه للآية فذلك هو للاستعلام[10] بوقت البِضاع لأنه لم يكن بقي له من القدرة شيءٌ

---

[1] ش ك - ولهذا ذكر العام، صح هـ.
[2] الآية ٤٦ من هذه السورة.
[3] ر: بلغ هو.
[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا﴾ (سورة مريم، ٨/١٩).
[5] ر: لجواز.
[6] ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ (سورة مريم، ١٠/١٩).
[7] انظر: سورة مريم، ٨/١٩.
[8] ش ك - كانت.
[9] ش ك: ولمراعات.
[10] ش ك: الاستعلام.

على إتيان النساء. وتقديره: فاعلم ذلك. واذكر ربك كثيرا، انظر كيف أمره بالذكر الكثير. وسبح، بالحمد والشكر، بالعشي والإبكر. فكان زكريا لا يقدر أن يكلِم الناس وهو مع ذلك يُسبّح[١] ويذكر في نفسه.

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾

وعطف على قوله: إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ،[٢] وإذ قالت الملٰئكة يٰمريم إن الله اصطفٰك، أي قبل ولادة عيسى وقبل الحمل به، بل لأمر متعلق بذاتكِ دون غيركِ. وطهرك، من وطء، ومما يُنجِّس كالحيض، ومن الشرك. فإن المشركين نَجَس.[٣] واصطفٰك علىٰ نساء العٰلمين، لحمل عيسى بغير بعل. فالاصطفاء الأول كاصطفاء بعض نساء العالمين.

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

قدم القنوت وأتبعه بالسجود تعليما لنا أنه بعده في الصلاة.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

ذٰلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلٰمهم، لأجل المساهمة، وكان ذلك من عادة الأنبياء، لقوله: فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ.[٤] فالمراد قِداحهم، أي إنهم تساهموا وتقادحوا رغبةً في كفالتها. والدليل على أن الإلقاء ههنا هو إلقاء[٥] مساهمةٍ قولُه بعده: أيهم يكفل مريم. وأشار بذكر الأقلام إلى أن القوم كانوا أربابَ أقلام يسطرون التوراة وغيرَها، ولم يكونوا من أطراف الناس. فألقى كلٌّ منهم قلمه، ثم بعد الإلقاء للمساهمة اختصموا رغبة في كفالتها. ولهذا كرّر: وما كنت لديهم، أي حين الإلقاء ولا بعده، إذ يختصمون.

---

١ ر ك: سبح.

٢ الآية ٣٥ من هذه السورة.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ (سورة التوبة، ٢٨/٩).

٤ ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ (سورة الصافات، ٣٧/ ١٣٩-١٤١).

٥ ك – ههنا هو إلقاء، صح هـ.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾

بدأ بـ"إذ"، فحذف[1] الواوَ فصلا عما قبل الكلام لئلا يُظن بها قصدُ العطف فقال: إذ قالت الملٰئكة يٰمريم إن الله يبشرك بكلمة منه، سمي بذلك، لأنه لم يُخلق من نطفة بل بقوله: "كُن"[2] فهو كلمة الله. وقيل: سمي بذلك لأنه تكلم في المهد، والأول أولى. اسمه المسيح عيسى ابن مريم، الجملة اسم، وإنما عُرف ببعضه[3] بين الناس لاشتهاره. والمسيح يُحتمل أن يكون الممسوح. وذلك أن أمه حين ولدتْه وكلّمها مسحت بيدها عليه تبركا به؛ ثم بقي على تلك الحال. كلُّ من سمع كلامَه في المهد اقشعرّ جلدُه لعظم ما رأى وسمع، ومسح يده على عيسى وعلى وجهه وصدره تبركا بعيسى. فكان هذا دأْبَ مَن يراه، كما يجب في العقل على من رأى مثل ذلك. ولذلك قال: وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا / أَيْنَ مَا كُنتُ،[4] لأنهم [٧٣ظ] كانوا يقولون له: بارك الله فيك، فهو من جملة ذلك، أعني ذلك بركةٌ من حيث الناس. ولفظة "مسيح" يُفهَم منه أيضا أنه ماسحٌ، أي يَمسح بيده على الأكمه والأبرص فيبرأ بإذن الله.[5] ولمّا كان وزن فعيل يَصلح أن يكون دالّا على فاعل تارة وعلى مفعول تارة سماه الله بهذه الكلمة ليُفهَم منه المعنيان، ولم يُسَمِّه بما يُفهم منه أحدُهما، أعني الماسح والممسوح وإن كان الأَولى أنه من فاعِل، فافهم ذلك. وقيل في لفظة "عيسى": إنها مشتقة من العيس بفتح العين وهو البياض والشُّقْرَة،[6] وذلك في الإبل التي تُلقَّب بالعِيس. وقوله: وجيها، من الجاه الذي له عند الله سبحانه، فى الدنيا والآخرة ومن المقربين.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾

ويكلم الناس فى المهد وكهلا، أي بكلام واحد، وهو منصوب على الحال، كأنه قال: ويكلم الناس طفلا وكهلا على حد واحد[7] من الكلام، ولا يَحسُن أن يكون[8] على حد الطفولية من الناس إذ المراد المدح. فإن قيل: لم يبلغ عيسى عليه السلام سنَّ الكُهولة؟

---

[1] ش ك: فحذفت.

[2] انظر مثلا: الآية ٤٣ من هذه السورة؛ وسورة البقرة، ١١٧/٢؛ وسورة آل عمران، ٤٧/٣، ٩٣؛ وسورة مريم، ٣٥/١٩.

[3] أي بـ"المسيح".

[4] سورة مريم، ٣١/١٩.

[5] انظر: الآية التالية برقم ٤٩ من هذه السورة. وانظر أيضا: سورة المائدة، ١١٠/٥.

[6] الشقرة لونُ الأشقر وهي في الإنسان حُمرةٌ صافية وبَشَرتُه مائلة إلى البياض (لسان العرب، «شقر»).

[7] ش ك – واحد.

[8] ك – يكون، صح هـ.

فيحتمل أن ما سماه الله "كهولةً" هو مقدار ما بلغه عيسى من العمر وإن لم يكن في العرف والعادة بين الناس كذلك. ويُحتمل أنه لمّا كان كلامه فى المهد ككلام الكهل قال: وكهلا منصوبا على فقدان الخافض بمعنى وككهل، وتكون الواو عاطفة على الكلام: ويكلمهم ككهل، أي وهو مع الطفولة ككهل لأن الكهولة حدٌّ لكمال العقل. وأخّر قوله:[1] ومن الصّٰلحين، لأجل الوِزان، وكان موضعها بعد قوله: وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ.[2] وقيل: إن المراد بقوله: وكهلا، يحتمل أن يكون المراد به نزولَه عليه السلام كهلا قبل القيامة. وبعض الناس تأوّل حديثَ النزول بمعنى أنه يَظهر دينُه، إذ ليس المراد صورة عيسى، وجعل النزولَ كما يقال:[3] "نزل به الأمر الفلاني" إذا وقع وحلّ. والله أعلم بكلامه.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾

ويعلمه الكتٰب، أي الكتابةَ فافهمها. والمعنى كما أنطقْناه بلسانه نُعلّمه من لدنا الكتابةَ بيده. والحكمة والتورٰة والإنجيل، وإلا فالإنجيل أنزله[4] عليه، فمن يعلّمه هو من الناس، وهو المعلّم لهم بعدما علمه الله. ولو لم نقل: عن "الكتاب" أنه الكتابة لكان العطف على شيء غير معلوم قبل التوراة.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

ورسولا، أي وَجِيهًا[5] ورسولا وَمُصَدِّقًا،[6] إلى بنِي إسرٰءيل أنى قد جئتكم بـٔاية من ربكم. وقد بينا موجبَ تكرارِ[7] الآية، وأصله[8] يرجع إلى القدرة والعلم والتوحيد.

---

[1] ش ك – وأخر قوله.
[2] الآية ٤٥ من هذه السورة.
[3] ش: كما قال.
[4] ش: أنزل.
[5] الآية ٤٥ من هذه السورة.
[6] الآية ٥٠ من هذه السورة.
[7] ك + ذكر.
[8] ش – وأصله، صح هـ.

فأما القدرة فقوله: أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيِ الموتى، يدل على كلِّ مرض دون الموت أيضا، بإذن الله. فهذا جميعه من قبيل القدرة. فأما ما هو من قبيل العلم فقوله: وأنبئكم بما تأكلون، أي بما أكلتم وبما ستأكلون، إذ اللفظ[1] صالح لِما ذكرناه والمعنى به تام. وما تدّخرون، أصلها تذتخرون بتاء الافتعال،[2] فى بيوتكم. إنّ فى ذٰلك لآية، أي أخرى بعد الأُولى. وقوله:[3] لكم إن كنتم مؤمنين، أي بما في التوراة، لأن في التوراة ما معناه "أيّ مَن دعاكم باسمي وحدّثكم بالغيب فهو نبي".[4]

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

فلما جاء عيسى بقوله: وَأُنَبِّئُكُم،[5] كان في ذلك إحدى[6] العلامتين. فلما قال بعد ذلك: إن الله ربى، كانت علامة ثانية. فهاتان العلامتان لهم ومجيءُ عيسى بهما هو تصديق للتوراة. لهذا لم يقل بعده: ومؤمنا بل، ومصدقا، منصوب على قوله: وجئتكم بـٔاية، ومصدقا لما بين يدى من التورىٰة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم، أي فيها. لأنه لا يَقدر أن يَحكم بتغيير أحكام الله إلا الله. وقوله: وجئتكم بـٔاية من ربكم، أي تدلكم على وجوب القبول مني في تحليل بعضِ ما حُرّم عليكم. فاتقوا الله وأطيعون.

ثم ذكر الآية الثانية التي هي العلامة الدالة عندهم في التوراة على صدق نبوته، فقال: إن الله ربى وربكم فاعبدوه هٰذا صرٰط مستقيم. / فعادت الآيات ثلاثا، إحداهن ليست في [٧٤و]
التوراة وهي الخلق وما بعده مما ينبئ عن القدرة. والآيتان اللتان بعدها هما في التوراة، كأنه قال: وجئتكم بآية جاءتكم من ربكم وهي أن أنبئَكم وأدعوَكم إلى الله.[7] ومتى لزم أن يكون نبيا لزم[8] القبول منه. ومتى لزم القبول[9] أحل لهم ما شاء الله أن يحله مما حرّمه قبل.

---

[1] ر: إذ المعنى.

[2] ر – بتاء الافتعال، صح هـ.

[3] ك – وقوله، صح هـ.

[4] انظر مثلا: التوراة، التَّكْوِين ٢١/٣٣، والخُرُوج ٣٤/٥، وأخْبَار الأيَّام الأول ١٦/٨، ٢٩/١٣، والمَزْمُور ٢٠/٥، ٢٥/١١، ٧، ٤٨/١٠، ٥٤/١، ٦٩/٣٠، ٧٩/٩، ١٠٥/١.

[5] من الآية السابقة.

[6] ر: أحد.

[7] انظر مثلا: التوراة، التَّثْنِيَة ٣٠/١٨، وإِشَعْيَاء ٥٥/٦-٧.

[8] ش – أن يكون نبيا لزم، صح هـ.

[9] ش – ومتى لزم القبول.

﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ۝٥٢﴾

فلما أحس عيسىٰ منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله، أي على من كفر به. **قال الحواريون**، هذا الاسم لهم من صفتهم. وهو من حار يحور حَوْرا وحُوَارا مثل خار يخور خَوْرا وخُوَارا، وهو من الميل؛ وحار يَحار من الحيرة يرجع إلى هذا الأصل. واختلاف الألفاظ تابع لاختلاف المعاني. ومعنى الحواريين المائلون. قالوا: **نحن أنصار الله**. ومعنى إلى الله، أي في الميل إلى الله عما عليه الكفار. ومنه إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ.[١] ومنه شجرُ الحُور لكثرة ميله من أجل طوله. والمِحْورُ قُطْبُ البَكْرَة[٢] لكثرة ميلانه وانقلابه في الدوران. ولفرط ميل الحواريين إلى الله عن الكفار سماهم بهذا الاسم -والله أعلم- أي قال المائلون إلى الله: **ءامنا بالله واشهد**، أي لنا عند الله، **بأنا مسلمون**. وفي المائدة: بِأَنَّنَا، لأن ما جاء في المائدة هو كلامهم لله. وهو أول كلام الحواريين، فجاء على الأصل لقوله: أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي.[٣] والذي ههنا هو كلامهم لعيسى، فلما كان الكلام في المائدة عن الله وههنا عن عيسى جاء ناقصا عما في المائدة.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣﴾

ربنا ءامنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشٰهدين، يُعلم من قوله: وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ،[٤] وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا.[٥] والشاهد لا يكون إلا عدلا زكيا صالحا، فافهم.

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾

وقوله:[٦] **ومكروا**، أولئك، أي[٧] بقية بني إسرائيل. وهم الذين أحسّ عيسىٰ منهم الكفر دون الحواريين. فالذين[٨] مكروا هم الكفار لقوله: وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ.[٩]

---

١ سورة الانشقاق، ٨٤/١٤.

٢ البَكْرَة: اسمٌ للّتي يُستقَى عليها، وهي خشبة مستديرة في وَسَطِها مَحَزٌّ للحَبْل، وفي جَوْفِها محورٌ تدور عليه (تاج العروس للزبيدي، «بكر»).

٣ ﴿وَإِذۡ أَوۡحَيۡتُ إِلَى ٱلۡحَوَارِيِّـۧنَ أَنۡ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّنَا مُسۡلِمُونَ﴾ (سورة المائدة، ٥/١١١).

٤ ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٦٩). | ر + وكقوله.

٥ ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ (سورة النحل، ١٦/٨٤).

٦ ر - وقوله.

٧ ر - أي، صح هـ.

٨ ر: قال الذين.

٩ ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ (سورة الأنفال، ٨/٣٠).

فقال ههنا: وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ.[1] والفرق بين المكر والحيلة أن الحيلة قد تكون لإظهار ما يَعسر من الفعل من غير قصد إلى الإضرار بالعبد، وأما المكر فإنه حيلة وخِداع على العبد يُوقعه[2] في الوهن والضرر. فمكروا هم بعيسى، ومكر الله، بهم. وهو أنه إعلاء دينه وحطُّ دينهم. والله خير المُكرين.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾

ويجب أن تَعلم أن المكر منهم كان، إذ، أي حين، قال الله يٰعيسىٰ إنى متوفيك، فهم كفروا أولا، ومكروا عند وفاته ببقية بني إسرائيل أيضا إذا اتخذوا إنسانا فقتلوه ثم صلبوه،[3] وادَّعوا أنه عيسى. وقيل: إنهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن تحققوا وفاتَه، أعني الرؤساء، إذ لو فعلوه قبل ذلك فظهر أنه حي لافتضحوا. والدليل على أن عيسى عليه السلام توفاه الله في الأرض، ثم رفعه إليه بعد التوفي قولُه ههنا: ورافعك إلىّ، بعد قوله: إنى متوفيك، ولم يَعْكِس. وقوله: إليّ، أي إلى رضواني لاستحالة المَكانيّة، وهو كقول إبراهيم: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي،[4] أشار إلى المآل والمرجع، ولهذا لم يقل: فيهدين بالفاء. وقوله: ومطهرك من الذين كفروا، كما تقول: من النجَس، لأن الكفار نجس.[5] ويحتمل أن يعود على الرفع، أي ورافعك من الذين كفروا، أي من بينهم، لأنه كان منهم في النسب، أي من جملة بني إسرائيل وإن كان بعيدا. وجاعل الذين اتبعوك، وهم الحواريون وكل متَّبع له، إلى يوم القيٰمة، فوق الذين كفروا، منزلةً ورتبة عندي. وأخّر قوله: إلى يوم القيٰمة، لئلا يلزم الاتباعُ ولا يصحَّ ذلك، والمراد أي هؤلاء الحواريون ومَن بعدهم إلى يوم القيامة ولكن بشرط الاتباع، إذ النصارى اليومَ غيرُ متبِعين له في حقيقة الأمر بل يزعمون ذلك، واليهود باطنا وظاهرا يكفرون به. ومن بعد مجيء النبي عليه السلام

---

[1] الآية ٥٥ من هذه السورة.

[2] ر: توقعه.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ (سورة النساء، ١٥٧/٤).

[4] ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (سورة الصافات، ٩٩/٣٧).

[5] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ (سورة التوبة، ٢٨/٩).

عاد هذا النص في المسلمين، لأنهم تُبّاعه في العبودية وهم المؤمنون به لا غير. إذ المؤمن بمحمد / صلى الله عليه وسلم والمتبعُ له قد آمن بسائر الأنبياء واتبعهم لأنهم أُمروا باتباعه. [٧٤ظ]

واعلم أن جميع الناس في زمن عيسى عليه السلام لم يقل أحد فيه: إنه إلٰه. وإنما من حين الوفاة مكروا واختلفوا. ثم مِن بعد مئين من السنين ابتدعوا[١] الثالوث وأشركوا به مع الله سبحانه وهلم جرًّا. هذا مع اختلافهم إلى الآن، فإن بعضهم يدّعي أنه مخلوق. ولقد رأيت في الإنجيل المنسوبِ إلى يُحَنَّا وهو الرابع أن بعض الناس قال لعيسى: يا معلم صالحُ، فقال له عيسى: ما معناه ليس معلم صالح إلا الله وحده، وإنما قل لي: يا ابن البشر.[٢] هذا نصه إلى الآن. ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٥٦﴾

وهذا يدل على كل كافر بالإطلاق وكلِّ كافر بعيسى[٣] بالتخصيص.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾

وأما الذين ءامنوا وعملوا الصّٰلحٰت، وهذا يدخل فيه سائر المسلمين مع من آمن بعيسى، وإطلاقُه يعطي كل مؤمن. فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظّٰلمين.

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْأٓيَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ٥٨﴾

ذٰلك نتلوه عليك من الآيٰت والذكر الحكيم، المحكَم وهو القرآن.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾

---

١ ش - ابتدعوا، صح هـ.

٢ لم أعثر عليه فيما بين يدي من يُحنّا الموجود بين يدي؛ وانظر نحوه في إنجيل مَرْقُس: «وبينما كان خارجا إلى الطريق أسرع إليه رجل وجثا له يسأله: أيها المعلم الصالح، ماذا أعمل لأرِثَ الحياة الأبدية؟ ولكن يسوع قال له: لماذا تدعوني الصالح؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد، وهو الله» (مرقس ١٠/١٧-١٨).

٣ ر - بعيسى، صح هـ.

لم يقل: فكان، لأنه عدل به للوزان، وليُفهَم منه ما عسى أن يقوله في المستقبل دائما فيكونَ بقوله: كن.[١] وهذا على طريق التوسع كالمعهود من اللغة في[٢] فهم عظم القدرة إن[٣] لم يكن كلامٌ كقوله: قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ.[٤]

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

الحق من ربك فلا تكن من الممترين، معطوف على قوله:[٥] ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ،[٦] أي ذلك الحق نتلوه عليك. والمتلو المثَل وما قبله من سائر الوحي.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا. أصل اللفظة المستعمَلة بين الناس -وهي التي تَطلب بها خصمك أن يأتي إليك- هي "تَعالَيْ" كأنك طلبته إليك بأدب فأمرته بالعلو كما تقول: ارتفعْ إلى عندي. ثم أسقطت الياء، لأن الأمر مما آخره حرف اعتلال يقتضي حذفَه وسُكِّنت اللامُ في ألسنة العامة. فقال الله تعالى على الأصل الصحيح بفتح اللام: **تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم**، يريد المضافين إلينا من الأنفس كالأهل والأقارب. **ثم نبتهل**، الابتهال هو الدعاء بإخلاص مع ترك ما سوى ذلك. وبَهَلَ في اللغة تَخلّى وترك.[٧] فقوله: **نبتهل**، أي نفتعل التركَ الذي هو البَهْل في اللغة. **فنَجْعل لعنت الله على الكٰذبين.** فكأن الجعل هو تفسير لذلك الابتهال الذي هو ترك، أي أنتم تتركون ونحن نترك لعنة الله على الكاذبين.[٨] ولهذا قال: **فنجعل**، فالجعل لله لا لغيره، وإنما نجعل بالدعاء وبالسؤال.

---

١ انظر لقوله تعالى ﴿كُن فَيَكُونُ﴾: سورة البقرة، ١١٧/٢؛ وسورة النحل، ٤٠/١٦؛ وسورة مريم، ٣٥/١٩؛ وسورة يس، ٨٢/٣٦.

٢ ر - في.

٣ ر: وإن.

٤ ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ (سورة فصلت، ١١/٤١).

٥ ر - قوله.

٦ الآية ٥٨ من هذه السورة.

٧ ش ك + ذلك.

٨ البهل: اللعن. وبهله الله بَهْلًا: لعنه. وابتهل في الدعاء: إذا اجتهد. وفي التنزيل العزيز: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، أي يُخلص ويجتهد كلٌّ منا في الدعاء واللعن على الكاذب منا (لسان العرب، «بهل»؛ وتاج العروس للزبيدي، «بهل»). | ولعل المؤلف رحمه الله يقصد: أنتم تُحيلون ونحن نحيل لعنة الله على الكاذبين إلى الله تعالى.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾

إن هٰذا لهو القصص الحق، خطاب لبني إسرائيل، لأنهم يكذِّبون قصة عيسى وإن عمّ الخطابُ لغيرهم. **وما من إلٰه إلا الله،** خطاب للنصارى وإن عم الخطاب لغيرهم[1] في باب التعريف. **وإن الله لهو العزيز الحكيم،** الحاكم بما يشاء سبحانه.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۢ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

قل يٰأهل الكتٰب، اسم الجنس، **تعالوا إلىٰ كلمة سواء،** أي مُستوية. وسواء الشيءِ وسطُه لأن مساحة ما بين الطرفين والوسط سواء،[2] **بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله.** قد علمت أن اليهود يدّعون التوحيد. ولمّا شرح الله صورةَ شركهم بقوله: ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ، وعن النصارى: وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ،[3] علَّمَنا صورةَ ما نسبهم إليه من الشرك. والمراد من هذا الإعلام أن نَجتنبَ مِثلَه. فإن أحبار اليهود لمّا أحلّوا لهم حراما وحرموا عليهم حلالا، وأطاعوهم ونبذوا كتابَ الله التوراةَ كانوا بالفعل الذي هو أبلغ من القول قد اتخذوا بعضَهم أربابا لهم من دون الله. فمن نبذ كتاب الله[4] واتبع قولَ بعضِ عباد الله[5] مما يخالف كتابَ الله فقد لزمه[6] كما لزم اليهودَ. **فإن تولوا فقولوا اشهدوا / بأنا مسلمون،** الباء في "بأنا" أي اشهدوا بهذا القول. [٧٥و]

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾

---

١ ر ك: وإن عم غيرهم.

٢ ش – أي مستوية وسواء الشيء وسطه لأن مساحة ما بين الطرفين والوسط سواء، صح هـ.

٣ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ (سورة التوبة، ٣١/٩).

٤ انظر لذلك: سورة البقرة، ١٠١/٢.

٥ ر: بعض عباده.

٦ ر: فقد لزم.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٦﴾

هٰأنتم، يا، هٰؤلاء حٰججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦٧﴾

ما كان، أي قط، إبرٰهيم يهوديا ولا نصرانيا، لأن الأديان حَدثت من بعده. ولٰكن كان حنيفا، مائلا إلى الله، مسلما، له سبحانه، أي على الفطرة التي فطر الله الناس عليها.[1] وما كان من المشركين، ثم أسلم، بل على الفطرة من قبل إنزال الشريعتين ومِن بعده.

﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٨﴾

إنّ أولى الناس بإبرٰهيم للذين اتبعوه، أي في زمنه ومِن بعده، لا أنتم يا أهل الكتاب بل أولئك؛ وهٰذا النبى والذين ءامنوا، في سائر الأزمان مع أنبيائهم. والله ولىّ المؤمنين.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٦٩﴾

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ۝٧٠ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٧١﴾

يٰأهل الكتٰب لم تكفرون بـٔايٰت الله وأنتم تشهدون، أنها حق. والإشارة إلى ما في التوراة من ذكرِ النبي محمد صلى الله عليه وسلم ووجوبِ اتباعه عليهم من نصها،[2]

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا﴾ (سورة الروم، ٣٠/٣٠).

٢ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلي. له تسمعون. حسب كل ما طلبت من الرب إلهك في حوريب يوم الاجتماع قائلا: لا أعود أسمع صوت الرب إلهي ولا أرى هذه النار العظيمة أيضا لئلا أموت. قال لي الرب: قد أحسنوا في ما تكلموا. أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه» (التّثنية ١٨/١٥-١٩).

وكذلك فيما بعد هذا الكلام. ولهذا بعده: يٰأهل الكتٰب لم تلبسون الحق بالبٰطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون، أنه حقٌّ[١] من التوراة، وإلا لو عَلِموا الحق من حيث القرآنُ لآمنوا. ولما علموه من التوراة ولم يؤمنوا فقد كفروا بالكتابين.

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٧٢﴾

وقالت طائفة من أهل الكتٰب ءامنوا بالذى أنزل على الذينَ ءامنوا، مع محمد صلى الله عليه وسلم، وجهَ النهار واكفروا ءاخره لعلهم يرجعون.

﴿وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣﴾

ولا تؤمنوا، أبدا، إلا لمن تبع دينكم. قل إن الهدىٰ هدى الله، أي يهدي من يشاء من خلقه. أتمنعون، أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، ثم قال: أو يحاجوكم عند ربكم. قل إن الفضل، فيه إشعار بالهدى وزيادةٌ عما[٢] أوتوه بنو إسرائيل، بيد الله، أي الذي تَفَضَّل عليكم بالتوراة هو[٣] قادر على أن يتفضل على غيركم، لأن الفضل بيده لا بأيديكم. يؤتيه من يشاء. والله وٰسع عليم.

﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾

﴿۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾

ومن أهل الكتٰب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك. قرأ أبو عمرو[٤] بتسكين الهاء في "يؤده" والباقون بإشباعها. قال الزجاج: هذا غلطُ الراوي كما غَلطَ في بَارِئْكُمْ[٥]

[١] ر: أنه الحق.

[٢] ش ك – عما.

[٣] ش ك – هو.

[٤] أبو عمرو زَبّان بن علاء عمار التميمي المازني البصري، من أئمة اللغة والأدب، وأحد القراء السبعة. ولد بمكة ونشأ بالبصرة. مات بالكوفة سنة ١٥٤هـ/٧٧١م (الأعلام للزركلي، ٤١/٣).

[٥] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ (سورة البقرة، ٥٤/٢).

بإسكان الهمزة. وإنما كان أبو عمرو يختلس الحركةَ فيما رواه الضابطون عنه كسيبويه[1] وغيره.[2] ولما حُذفت الياء تُركت الكسرة لِتدل عليها.[3] **ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما**، أي بالرغبة والرهبة. ومتى علم أنه لا منفعة له منك ولا خوف عليه من أجلك خان الأمانةَ. وهذا كقوله: ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَـٰمًا،[4] ومثلُه في اللفظ: وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَـٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ.[5] **ذٰلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل**، أي ليس علينا طريق إلى إثم أو عقاب من الله في أخذِ أموال الأميين. ولم يعيّن المالَ ليعرِّفنا أنهم يعتقدون أن أرواح[6] المسلمين وأموالَهم وأعراضَهم مباحةٌ لهم. وهذه العقيدة إنما حملهم عليها أن في التوراة مكتوب إلى يومنا هذا ما هذا[7] مقلوبه عربيا: وهو للأجنبي ترابي ولأخيك لا ترابي.[8] ولا شك أنه لم يكن في ذلك الزمان كتاب ولا نبيٌّ لغيرهم. فكانت الأرواح[9] والأموال من سائر الناس مباحة لهم. فلما جاء القرآن وكفروا به عن علم بصحته من جهة التوراة جعلوا المسلمين أيضا في حكم الربا كما جاء في التوراة عن الأجانب الذين ليس لهم شريعة ولا نبيٌّ. فقالوا: **ليس علينا فى الأميين سبيل**، أي إنّ الله أباحنا ذلك في التوراة.[10] **ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون**، بكذبهم.

﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧٦﴾

بلىٰ من أوفىٰ بعهده، معلوم من قوله: أَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ.[11] وعهدُ الله إلى أهل الكتاب هو قولُه: ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ،[12] الآية. وقوله:

---

١ أبو بشر سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو. ولد في إحدى قرى شيراز، وقدم البصرة، فلزم الخليل بن أحمد ففاقه. وصنف كتابه المسمى كتاب سيبويه في النحو، لم يصنع قبله ولا بعده مثله. ورحل إلى بغداد، فناظر الكسائي. وعاد إلى الاهواز فتوفي بها سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م، وقيل: وفاته وقبره بشيراز (الأعلام للزركلي، ٨١/٥).

٢ معاني القرآن للزجاج، ٤٣١/١-٤٣٢؛ وإتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٢٢٥.

٣ معاني القرآن للزجاج، ٤٣٢/١.

٤ ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمًا﴾ (سورة النساء، ٥/٤).

٥ سورة النساء، ١٢٧/٤.

٦ ر: أن أزواج.

٧ ر: ما هذه.

٨ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «لا تُقرض أخاك بربًا، ربا فضة، أو ربا طعام، أو ربا شيء ما مما يقرض بربا، للأجنبي تقرض بربا، ولكن لأخيك لا تُقرض بربا، ليباركك الرب إلهك في كل ما تمتد إليه يدك في الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها» (التثنية ١٩/٢٣-٢٠). وانظر أيضا: اللاويين ٣٥/٢٥-٣٧.

٩ ر: أزواج.

١٠ ش - جعلوا المسلمين أيضا في حكم الربا كما جاء في التوراة عن الأجانب الذين ليس لهم شريعة ولا نبي فقالوا... أي إن الله أباحنا ذلك في التوراة، صح هـ.

١١ ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ (سورة البقرة، ٤٠/٢).

١٢ الآية ٨١ من هذه السورة.

واتقى، أي المحارمَ، يحبه الله[١] من اليهود وغيرهم. لهذا قال بعده بالفاء: **فإن الله يحب المتقين**، فلا يكون وفاء العهد من أهل الكتاب إلا باتباع النبي عليه السلام. والفرق / بين "بلى" و"نعم" أن بلى جواب النفي، ونعم جواب استفهام بغير نفي. تقول: أَلَمْ تفعل كذا؟ فيقال لك: بلى، وتقول: أَزَيْدٌ في الباب؟ فيقال: نعم أو لا. وقد تأتي بلى بمعنى لكن كما في هذا الموضع. وقد يَستثني بها كثيرٌ من الناس في كثير من الاستعمال في الكلام. [٧٥ظ]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾

إن الذين يشترون بعهد الله، يشير إلى ما قدمناه مما عاهدهم الله عليه في التوراة من الإيمان بالرسل.[٢] **وأيمٰنهم**، وهو قوله: ﴿يَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾.[٣] **ثمنا قليلا**، كلُّ ما يَفنى ولو كان كثيرا هو قليل فيما يَبقى ولو كان قليلا، بل هو عدم فيما يبقى.[٤] ولهذا بعده: **أولٰئك لا خلٰق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيٰمة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**.

﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٨﴾

وإن منهم لفريقا، سمي الفريق لمفارقته للجمهور في أمرٍ من الأمور، **يَلْوُن**. لويتُ يدَه إذا قَلبْتَها وفَتَلْتَها[٥] فغيرتها عن هيئتها. وهؤلاء هم علماء أهل الكتاب، **يَلْوُن ألسنتهم بالكتٰب**، أي في تأويله وفي الجدل به، **لتحسبوه من الكتٰب وما هو من الكتٰب**، أي ليس هو من التوراة ولا مما جاء عن الله على لسان نبي، لأن الجميع كتاب الله. **ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله**، دل على إطلاق النفي، أي ما هو من عند الله بوجه وإلا يكون ردا على قول الله جل وعلا. فكما

---

[١] ر – يحبه الله، صح هـ.
[٢] ش ك: بالرسول.
[٣] سورة المجادلة، ١٤/٥٨.
[٤] ر – ولو كان قليلا بل هو عدم فيما يبقى، صح هـ.
[٥] ش ك – وفتلتها.

أنه ليس من الكتاب بوجه فكذلك ليس هو من عند الله بوجه. وإذا لم يكن من عند الله فهو من عند أنفسهم ومن كسبِها. وهذا يُلزم الجبريةَ أن يكون اليهود على الصدق، فقد كُذِّبوا هم[1] واليهودُ. **ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون**، وهذا الكذب وإن كان يتضمن ما قالوا: **إنه من عند الله**. ذكره أخيرا إعلاما لنا أنهم يعلمون أنه كذب. فهو مع هذا يعطي أنهم يقولون الكذب في بقية الأمور. ولهذا لم يقل: فيقولون؛ ولأنه كان مستغنيا عن ذلك، أعني باللفظ الأول لبيانه. ولهذا تلا ذلك بما بيّن به صورةً من الكَذِب على الله يشير إلى اليهود في عزير، وإلى النصارى في المسيح.[2]

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾

فقال: ما كان، أي ينبغي أو ما كان هذا جائزا، **لبشر أن يؤتيه الله الكتٰب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولٰكن كونوا ربّٰنيين**، أي منسوبين إلى الرب. وفي لغة التوراة الرب هو السيد.[3] فيكون المعنى كونوا ساداتٍ، **بما كنتم تعلمون الكتٰب وبما كنتم تدرسون**، وهو من دراسة العلوم لِتُحفَظ. والإشارة بهذه الآية وبما بعدها هي إلى أن المسيح لم يقل للناس: كونوا لي عبادا من دون الله، فالمعتقد بأنه قال هذا وأن هذا القول منه كان عن الله فقد كَذَب هذا على الله بلا شك. ولهذا أتبع قوله: وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ،[4] بهذه الآية، وعمَّ اليهودَ والنصارى.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

---

[1] ش ك: كذبوا لهم.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ (سورة التوبة، ٩/٣٠).

[3] هذه العبارة وردت في التوراة في مواضع كثيرة، منها ما ذُكر في التكوين ١٥/٢، ٨، والخروج ٢٣/١٢، ٣٤/٢٣، والمزمور ٦٨/٢٠.

[4] الآية ٧٥ من هذه السورة.

ولا يأمركم، قرأ حمزة[١] وعاصم[٢] وابن عامر[٣] بفتح الراء بتقدير ولا أن يأمركم،[٤] **أن تتخذوا الملٰئكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون.**

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ
مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ
قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١﴾

ثم ذكر الميثاق الذي قدّمنا ذِكره وأنه في سائر الكتب المنزلة، أعني بالمعنى: **وإذ أخذ الله ميثٰق النبيين لما**، بفتح اللام دون كسرها، وذلك قراءة الجميع إلا حمزة.[٥] ومعنى "لما" أن اللام مؤكِّدة و"ما" بمعنى مهما. والمراد هو أن الله تعالى أخذ العهد والميثاق على جميع الأنبياء، كل نبي في عصره ووقته، فقال لهم: خذوا العهد[٦] على الناس كلّ نبيّ من قومه: إنه لَمهما، **ءاتيتكم**[٧] **من كتٰب وحكمة**، أي في كل زمن. **ثم جاءكم**، بعد ذلك، **رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه.** هذا عهد الله أنه إذا أَرسل نبيا بعد نبي تَقدمه، وكان الأول قد أوتي كتابا وحكمة فجاء الثاني مصدقا لما جاء به الأولُ وجب الإيمان به والنصرُ له. واللامان لاما تأكيد للنصر والإيمان. وإذا لزم النبيَ اتباعُ الرسول فقد لزم الأمةَ. ولم يقل: ثم جاءكم نبيٌ، لأنه أراد مع الإطلاق

---

١ أبو عُمارة حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل الزيات التيمي، أحد القراء السبعة. كان من موالي التيم فنسب إليهم. وكان يجلب الزيت من الكوفة إلى حلوان (في أواخر سواد العراق مما يلي بلاد الجبل) ويجلب الجبن والجوز إلى الكوفة. ومات بحلوان. كان عالما بالقراءات، انعقد الاجماع على تلقي قراءته بالقبول. توفي سنة ١٥٦هـ/٧٧٣م (الأعلام للزركلي، ٢٧٧/٢).

٢ أبو بكر عاصم بن أبي النُّجود بَهْدَلَة الكوفي الأسدي بالولاء، أحد القراء السبعة. تابعي، من أهل الكوفة، ووفاته فيها. كان ثقة في القراءات، صدوقا في الحديث. توفي سنة ١٢٧هـ/٧٤٥م (الأعلام للزركلي، ٢٤٨/٣).

٣ أبو عمران عبد الله بن عامر بن يزيد الشامي، أحد القراء السبعة. ولي قضاء دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك. ولد في البلقاء، في قرية رحاب وانتقل إلى دمشق، بعد فتحها، وتوفي فيها سنة ١١٨هـ/٧٣٦م (الأعلام للزركلي، ٩٥/٤).

٤ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وكذا يعقوب وخلف بنصب الراء أي "ولا له أن يأمركم" فأنْ مضمرة، أو منصوب بالعطف على يُؤتِيَه والفاعل ضمير بَشَرٍ. وافقهم الحسن واليزيدي والأعمش، والباقون بالرفع على الاستئناف، وفاعله ضمير اسم الله تعالى أو بشر. وسكن أبو عمرو راءَه كالذي بعده واختلس ضمتها، وللدُّوري عنه ثالث وهو الإتمام كالباقين (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٢٢٦).

٥ إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٢٢٦.

٦ ش – والميثاق على جميع الأنبياء كل نبي في عصره ووقته فقال لهم خذوا العهد، صح هـ.

٧ ر ك + قراءة نافع نافعة.

في كل زمن تخصيصَ محمد صلى الله عليه وسلم. ولهذا بعده: أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ.[1]
قال ءأقررتم وأخذتم / علىٰ ذٰلكم إصرى، يريد به ثِقَلَ العهدِ إذا وقعت خيانتُه. قالوا، [٧٦و]
كلُّ نبي في وقته: أقررنا، تقديره وأخذنا الميثاق من قومنا كما أخذتَه منا. قال فاشهدوا، عليهم، وأنا معكم من الشٰهدين، عليهم.

وهذه الآية مما نُقل تفسيرُها عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه دون الكلام في الإعراب المثبوتِ ههنا. وصورةُ هذا الميثاق في التوراة هذا لفظه: نبيا يقيم لكم الله.[2] وفي موضع آخر: فيها نبيا أقيم لكم من إخوتكم.[3] ولم يقل: منكم أَجعل كلامي في فيه ويكلمكم بجميع ما أوصيكم[4] إشارةً إلى أنه لا يكتم شيئا وتعريفا لهم أنه صاحب وصايا، وأنه يكون أميا لا يعرف الكتابةَ بل يجعل الله كلامه في فيه، أي لا في ألواح كما أُنزل[5] على موسى.[6] ثم قال في التوراة: وكل من لا يسمع إلى كلام ذلك النبي أنا أنتقم منه.[7] فهذا هو الميثاق الذي في التوراة.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٨٢ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ۝٨٣﴾

فمن تولىٰ بعد ذٰلك فأولٰئك هم الفٰسقون، تقديره وإذا كان الأمر كذلك في كل زمن أفغير دين الله، الآنَ وهو الإسلام، يبغون، المتولُّون، وله أسلم من فى السمٰوٰت والأرض طوعا وكرها. "من" تكون لمن يَعقل، و"ما" يعبر بها عمن يعقل وعما لا يعقل. وإنما كانت لمن يعقل لأنها تأتي بمعنى "الذي"، أعني "ما". والطَّوع والكَرْه بيناه في قوله: حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا.[8] ومعناه ههنا من حيث يعلمون ومن حيث لا يعلمون، وسنوضحه أيضا ههنا فيما يأتي إن شاء الله تعالى. وإليه يرجعون.

---

١ الآية ٨٣ من هذه السورة.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ذكر في التوراة: «يقيم لك الرب إلٰهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلي، له تسمعون» (التثنية ١٨/١٥).

٣ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك» (التثنية ١٨/١٨).

٤ ر: ما أوصيه.

٥ ش ك: كما نزل.

٦ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٤٥). وانظر أيضا: نفس السورة، ٧/١٥٤.

٧ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «قال لي الرب: قد أحسنوا في ما تكلموا. أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه» (التثنية ١٨/١٧-١٩).

٨ سورة الأحقاف، ٤٦/١٥.

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾

قل ءامنا بالله وما أنزل علينا، الأمر ههنا للرسول صلى الله عليه وسلم وفي البقرة للمؤمنين. ولهذا في البقرة قُولُوا، وههنا: قل؛ وفي البقرة إِلَيْنَا، وهنا: علينا. فذلك أُنزل إليهم وهذا عليه وعلى الأنبياء، وهو عائد ههنا إلى قوله: وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ.[1] وما أنزل علىٰ إبرٰهيم وإسمٰعيل وإسحٰق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسىٰ وعيسىٰ والنبيون، وفي البقرة وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ.[2] وحذف لفظة "أوتي" ههنا، إذ بيناها هناك. لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

اعلم أن الإسلام المشارَ إليه ههنا هو[3] الفطري والكسبي. وأعني بالكسبي ما هو بتكليف الشرائع، لأن الإنسان يُكره نفسه على امتثال الأمر والانتهاء عن النهي. وأما الفطري فهو ما في جِبِلّة العقول من حيث الفطرة، لأن الله تعالى فطر العقلَ على استحسان الحسن واستقباح القبيح والاعتراف بالصانع. فإذا بلغ الإنسان حدَّ الاكتساب وهو الحِلْم، وقويَ عقلُه قويت أيضا شهواتُه، فجاءت الأنبياء بردِّ الناس عن الشهوات إلى مقتضى العقول، فهم يردونهم بالإسلام الكسبي إلى الفطري. والابتغاء إنما يكون للكسبي، وهو ما جاءت به الأنبياء كلُّ نبي في وقته. وأما الفطري فهو لا يحتاج إلى ابتغاء. فمن ابتغى غير ما جاء به نبيُّ وقته، وهو ما يردّه إلى الفطرة، فلن يُقبل منه ما جاء به.[4] وأعني بالفطرة أنه هو فطرة الله التي فطر الناس عليها، لأن ذلك هو الدين القيم.[5] فإن عارضتَ باليهود والنصارى، فإن اليهود الذين اتبعوا موسى وماتوا قبل مجيء عيسى هم على الإسلام. وكذلك الذين اتبعوا عيسى،[6] ولم تبلغهم[7] دعوةُ محمد صلى الله عليه وسلم

---

[1] الآية ٨١ من هذه السورة.

[2] ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (سورة البقرة، ١٣٦/٢).

[3] ك - هو، صح هـ.

[4] ش - نبيُّ وقته وهو ما يردّه إلى الفطرة فلن يُقبل منه ما جاء به.

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ (سورة الروم، ٣٠/٣٠).

[6] ش ك - هم على الإسلام وكذلك الذين اتبعوا عيسى، صح هـ.

[7] ش ك: ولم يبلغهم.

هم أيضا مسلمون. وهؤلاء الذين اتبعوا غير الإسلام في زمن كل نبي، ومهما[1] ابتغوه[2] من دين فلن يُقبل منهم لأنهم إنما اتبعوا[3] أهواءهم وهم يظنون أنهم اتبعوا أنبياءهم، ولو اتبعوا الآن أنبياءهم لاتبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم.

﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

كيف، اسم، ومعناه سؤال عن حال، وبُني لتضمنه حرفَ الاستفهام ونُصب على الظرف للهداية. وقد يُسأل به للتعجيز عن إقامة البرهان، وللتوبيخ بما يَظهر به من معنى الجواب ولِما يظهر من معنى الإنكار أو من[4] معنى النفي، أي لا يكون كيت كيت. وهو كقوله: **كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمٰنهم**، هذا دليل على أن الله تعالى هداهم أولا من لدنه، لقوله تعالى: إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ،[5] ولهذا هو الأول. فلما كفروا امتنع أن يهديهم سبحانه من لدنه / إلا بتوبة تكون منهم لا منه فيغفر لهم كما نجد[6] [٧٦ظ] في تتمة الآية، ودليله: إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ، أي مما عاقبهم به حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ.[7] **وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينٰت والله لا يهدى القوم الظٰلمين**. وهذه الآية ينبغي أن تَفهم منها أن معنى قوله: **كيف يهدى الله قوما كفروا**، أي كيف يهديهم بغير توبة منهم. والدليل عليه قوله بعده: **إلا الذين تابوا**، وما ذكره من العذاب واللعن ومثلِه لهؤلاء إذا داموا على الكفر أو الشرك، لهذا قال: **أولٰئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملٰئكة والناس أجمعين خٰلدين فيها**، في اللعنة، ولا تكون اللعنة إلا في جهنم. **لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون**، إلى أجل ثم[8] يخرَجون. ثم قال: **إلا الذين تابوا من بعد ذٰلك**، الكفرِ الذي بعد الإيمان. **وأصلحوا**، أعمالهم وما كانوا أفسدوه. **فإن الله غفور رحيم**.

---

[1] ر: كل نبي ونبي مهما.
[2] ر: اتبعوه.
[3] ش ك: إنما ابتغوا.
[4] ر: أم من؛ ش: ومن.
[5] سورة الليل، ١٢/٩٢.
[6] ر ش: كما تجد.
[7] سورة الرعد، ١١/١٣.
[8] ر – ثم، صح هـ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ۝٩٠﴾

ثم قال متمِّما للكلام عن هؤلاء المذكورين: **إن الذين كفروا بعد إيمٰنهم**، يعني بالإيمان ههنا ما تقدم وهو ما سماه توبةً فكأنه قال في هذه الآية: إن الذين كفروا بعد إيمانهم الذي كان تَقدمه كفرٌ أوّلٌ بعد إيمانٍ أولٍ خرجوا به عن الضلال. وأما قوله: **ثم ازدادوا كفرا**، هذه الزيادة في المرّات ولا تكون إلا بعد إيمان ثالثٍ كما سنبين، فتكون الزيادة كفرا ثالثا، فإذا كفروا مرتين فمهما زاد من مرات، **لن تقبل توبتهم وأولٰئك هم الضالون**. وبيان ما قلناه هو أن هنا إيمانا أولا، ولا يلزم أن يكون تقدّمه أن لا إيمان فنسميه ضلالا، كقوله: وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ.[1] وهذا الضلال هو الذي وعد الله سبحانه أنه يهدي منه بقوله: إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ.[2] فهو سبحانه لا بد أن يهدي منه كل أحد، كقوله تعالى: وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ.[3] فبان لنا من قوله: كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ،[4] أن هنا إيمانا أولا وكفرًا بعده أولًا أيضا. وقوله: إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ،[5] هذا إيمانٌ ثانٍ سماه الله توبة، أي رجوعا إلى الإيمان الأول. فقوله بعده: إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ، أي الإيمان المسمى توبة، فهذا كفرٌ ثانٍ بعد إيمان ثان.[6] فتأمله جيدا لتفهم أنه رجل آمن ثم كفر ثم تاب، أي رجع إلى الإيمان، فآمن ثانيا ثم كفر بعد ذلك كفرا ثانيا فهو كافر. ثم أخبر الله عنه بقوله: **ثم ازدادوا كفرا**. فتأنَّ لتفهم هذه الزيادة. وذلك أنا إذا رأيناهم قد كفروا بعد إيمان بعد كفر بعد إيمان ذكّرناهم التوبة وعرضنا عليهم الإسلام. فإن أسلموا فما ازدادوا كفرا[7] فأولئك تقبل توبتُهم، وإن أصرّوا وأبوا في أي مرة من مرات الكفر بعد الإيمان الأول قتلناهم.

فإن قلت: إنهم لما ذكِّروا وخافوا القتل آمنوا ثم عادوا كفروا، فهذه هي الزيادة، أي ما زاد على هذه المرات مهما كان مرة أو أكثرَ على ما تقدم، **لن تقبل توبتهم**. وذلك أنه قد لا يقتل[8] الشخص أو لا يحاقَق[9] في الثانية ولا في أكثر أي[10] لا يعاقَب ولا يحاقق جملة.

---

[1] سورة الضحى، ٧/٩٣.

[2] سورة الليل، ١٢/٩٢.

[3] ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (سورة فصلت، ١٧/٤١).

[4] الآية ٨٦ من هذه السورة.

[5] من الآية السابقة.

[6] ر – ثان.

[7] ر – كفرا.

[8] ر: لا يقبل.

[9] ش: ولا يحاقق.

[10] ر ك: أو.

فعرَّفنا حاله عند الله وبيّن ذلك في سورة النساء، فقال فيها مجملا ما قاله ههنا مفصلا. وذلك قوله تعالى: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا.[1] وقد علمت أنه لا تكون زيادتهم للكفر إلا بعد إيمان. كأنه قال: ثم ازدادوا مرة أخرى كفرا آخرَ ثالثا أو أكثر بعد إيمان ثالث. وقد عرفت أنه عبّر بالزيادة ليُعلم أنه مهما زاد من المرات هذا حكمُه.

فإن قلت: إذا كانت الجملة في [سورة] النساء فأيّ حاجة إلى إعادتها ههنا؟ قلنا: هذه الآية [هي] المتشابهة -وقد بينا فضيلةَ وجود المتشابه في القرآن- وتلك هي المحكمة. وأيضا إن المجمل إذا فصِّل مثل هذا التفصيل كان فيه حِكَمٌ؛ منها أن / هذا [٧٧و] القرآن معانيه في أكثر الأمر مثاني. فقلّ أن تَجد فيه معنى في موضع إلا وقد جاء مثله في موضع آخر يشهد له ذلك، ويوضحه مع حِكَم تختص بكل واحد منهما بحيث لا يكون هو الآخرَ بعينه فيكونَ مكررا إلا لزيادة فائدة بل لفوائد. ولمّا كان ما فصّله ههنا قد يُشكل لِما قد ذكره بين الأحكام من الكلام الذي يتضمن حِكَما أَجْملَه في سورة النساء وبينه في آية واحدة. ولما كان ما في النساء جملةً لا يَظهر لنا ما ظهر من التفصيل مثل قوله: وَأَصْلَحُواْ بعد قوله: تَابُواْ[2] وغير ذلك أوضحه بالتفصيل. فشهد البعض للبعض وأكد البعض للبعض[3] مع ما عُلم من بقية الأحكام والحِكَم والفوائد، فافهم ذلك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

ثم قال من بعد ذلك: إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار، يعني كفروا بعد أي إيمان كان من إيمانٍ أوّلٍ أو ثانٍ أو أكثر، فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا. واعلم أن هذا الكلام في هذه الآية يُفهم منه أنه بعد ثلاث مرات من الكفر لا تُقبَل[4] له توبةٌ في الدنيا؛ وإنما تجب عليه التوبةُ وإن لم[5] تُقبل[6] لئلا يموت كافرا، فإن لم يمت كافرا

١ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (سورة النساء، ١٣٧/٤).

٢ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (سورة النساء، ١٤٦/٤).

٣ ر - وأكد البعض للبعض؛ ك - وأكد البعض للبعض، صح هـ.

٤ ك: لا يقبل.

٥ ر: التوبة ولم.

٦ ش ك: لم يقبل.

عفا الله عنه في الآخرة. فحكمُه حكمُ من أسلم عند موته وليس له أعمال صالحة، فيبقى تحت المشيئة، كما قلنا في آخر سورة الإنسان. وهذا الكلام إنما هو لمن لم يَعلم به المسلمون وإلا متى علموا فليس إلا قتلُه. هذا مفهوم النص والله أعلم بكلامه.

وقوله: **ولو افتدىٰ به**، هذا يحتاج إلى نظر لكونه منع القبولَ مطلقا، ثم قال: **ولو افتدىٰ به**، بعد إطلاق المنع. ومعناه أنه لا يُقبل منه على جهة من الجهات لا الفَدَى ولا غيرُه كما سنبين. وذلك أنه لمّا كان الكافر بعد الإيمان إذا مات على الكفر حُبطت أعمالُه فلا ينفعه منها قليلٌ ولا كثير أشار سبحانه إلى أنه لو كان أنفق في الدنيا ملءَ الأرض لن يُقبل منه يوم القيامة ولا يُثاب عليه. بل، **أولٰئك لهم عذاب أليم وما لهم من نٰصرين**. وقوله بعد ذلك: **ولو افتدىٰ به**، أي إنه لو كان لا يَطلب بما أنفقه الأجرَ والثواب بل النجاةَ من العقاب لن يُقبل منه، فافهم ذلك. والمقصود أن يُعلم أن الكافر لو ملك مِلْءَ الأرض ذهبا وأنفقه في سبيل الله ومرضاته كالصدقة وفَكِّ الرقاب لم يَنفعه ذلك في الآخرة لا في جلب ثوابٍ وهو القسم الأول، ولا في منع عقابٍ وهو القسم الثاني الذي أشار إليه بقوله: **ولو افتدىٰ به**.

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

ولما ذكر أنه لا يَقبل من الكافر ملء الأرض ذهبا تَفضَّل على المؤمن بقبول بعضِ ما يحبه فقال: **لن تنالوا البر حتىٰ تنفقوا مما تحبون**، وهذا مثل الإيثار. واعلم أن الأبرار قوم اشتُق لهم اسمٌ من البِرّ لاشتهارهم بهذه الصفة. فكأنه قال: لن تنالوا العطاءَ من الله حتى تُعطوا مما تحبون، وهو معنى سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ.[١] وما، ومهما، **تنفقوا من شيء فإن الله به عليم**. ومن آمن بهذه الآية أنفق عن طِيبِ نفسٍ، لأن العليم الكريم لا يُبقي لأحد عنده فضلا.

﴿۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾

ولما فَرَغ من ذلك المعنى عاد إلى ذكر بني إسرائيل فقال: **كل الطعام كان حلا لبنى إسرٰءيل**، تقديره: من قبل أن تُنزَّل التوراةُ، فافهم هذا ليزول الإشكالُ.

[١] سورة الأنعام، ١٣٩/٦.

والطعام يريد به الذبائحَ ههنا.[1] **إلا ما حرم إسرٰءيل علىٰ نفسه**. ولمّا أثبت ههنا قوله: **من قبل أن تنزل التورىٰة**، حذفه أولا وكان إثباته أخيرا كافيا ومنبِّها على أمر آخر، فافهمه بالتأمل. واعلم أنه مكتوب في التوراة إلى الآن من قصة آدم عليه السلام: أن الناس أجمعين في ذلك الزمن قد أباحهم الله حيوانَ البر وطائرَ السماء كورق العُشْب جعلت لكم الجميع،[2] وهذا تفسير النص العبري بها. ولم يزل الأمر كذلك إلى أن جاء موسى بالتوراة فحرّم فيها على بني إسرائيل ما شاء الله سبحانه بعد أن لم يكن عليهم شيءٌ من الطعام محرَّما إلا ما كان أبوهم إسرائيلُ حرمه على نفسه من قبل أن تنزل التوراة. ولا شك أن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام سماه الله إسرائيلَ، لأنه كان من سَرَاة[3] الناس عند الله وعند الناس. وهذا تعليل تسميته مذكور في التوراة إلى الآن.[4] ومما[5] ذُكر في التوراة أن بني / إسرائيل قبل نزول التوراة حرّموا على أنفسهم أكلَ عِرْقِ النسا[6] من سائر الحيوان، لأن يعقوب كان به عرقُ النَّسا فلم يكن يأكله. ثم إن اليهود عند نزول القرآن احتجوا على النبي صلى الله عليه وسلم ومنعوا أن الله تعالى يُحل ما حرّمه في التوراة. فأوحى الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم: **كلُّ الطعام كان حلا** [٧٧ظ]

---

١ ش ك – تقديره من قبل أن تنزل التوراة فافهم هذا ليزول الإشكال والطعام يريد به الذبائح ههنا، صح هـ.

٢ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «وقال الله: لِتُخرج الأرض ذواتَ أنفس حية كجنسها: بهائمَ، ودبّاباتٍ، ووحوش أرض كأجناسها، وكان كذلك. فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها، والبهائم كأجناسها، وجميع دبابات الأرض كأجناسها. ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشِبْهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم، وعلى كل الأرض، وعلى جميع الدبّاباتِ التي تدب على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكرا وأنثى خلقهم. وباركهم الله وقال لهم: أثمروا واكثروا واملأوا الأرض، وأخضعوها، وتسلّطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض. وقال الله: إني قد أعطيتكم كل بقل يبزر بزرا على وجه كل الأرض، وكل شجر فيه ثمر شجر يبزر بزرا لكم يكون طعاما. ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية، أعطيت كل عشب أخضر طعاما. وكان كذلك» (التَّكْوِين ١/٢٤-٣٠).

٣ السراة: أعلى كلِّ شيء وأشرفه (تاج العروس للزبيدي، «سري»).

٤ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «وظهر الله ليعقوب أيضا حين جاء من فدان أرام وباركه وقال له الله: اسمك يعقوب، لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب، بل يكون اسمك إسرائيل، فدعا اسمه إسرائيل» (التَّكْوِين ٣٥/٩-١٠).

٥ ش: مهما.

٦ انظر: التَّكْوِين ٣٢/٣٠-٣٢. | عرق النسا: النَّسا عرق من الورك إلى الكعب، ألفه منقلبة عن واو لقولهم: نَسَوانِ في تثنيته، وقد ذكرت أيضاً منقلبة عن الياء لقولهم: نَسَيانِ. قال الأصمعي: النَّسا بالفتح مقصور بوزن العَصا عِرْق يخرج من الوَرِك فيَسْتَبْطِنُ الفخذين ثم يمرّ بالعُرْقوب حتى يبلغ الحافر، فإذا سمنت الدابة انفلَقت فخذاها بلَحْمَتَين عظيمتين وجَرى النَّسا بينهما واستبان، وإذا هُزِلَت الدابة اضطرَبَت الفخذان وماجَت الرَّبْلَتان وخَفِي النَّسا (لسان العرب، «نسا»).

لبني إسرائيل من قبل نزول التوارة. والمعنى أنه كما حرم بنزول التوراة ما أحله قبلها كذلك أحل بنزول القرآن ما كان حرمه في التوراة. فإن جحدوا أن ذلك المحرَّمَ كان حِلا قبل نزولها. **قل فأتوا بالتورىٰة فاتلوها إن كنتم صٰدقين**، في دعواكم أن المحرم في التوراة لا يكون محرما أبدا، لأنه لم يزل من قبل نزولِها حراما بزعمكم.

﴿فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩٤﴾

﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٥﴾

فإذا تلوها وعلموا[١] أن إبراهيم لم يكن في التحريم على ما هم عليه، **قل صدق الله**، يعني في التوراة، أي[٢] وإذ قد علمتم أن التوراة حق وأن مما فيها أن إبراهيم لم يكن يَعمل السبت ولا يحرِّم ما حرمته التوراة من الطعام، **فاتبعوا ملة إبرٰهيم**، كما أخبر الله عنه[٣] فيها أنه كان، **حنيفا وما كان من المشركين**.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦﴾

ثم بعد ذكر إبراهيم ذَكر البيتَ الذي رفع إبراهيمُ القواعدَ منه[٤] فقال واصفا لإبراهيم وللبيت: **إن أول بيت وضع للناس**، أي من أجل العبادة، لهذا قال: **لَلَّذى ببكة**، مشتق من البكّ وهو الزَّحْم، وتباكُّوا تزاحموا. وقوله:[٥] **مباركا وهدى للعٰلمين**، أخِّرت الجملة للوزان. وإنما جاءت هذه الآية تِلْوَ مَا قبلها لأنه قال: **اتبعوا ملة إبرٰهيم**، فكأنه لمَا وصفه ذكر عنه من جملة أوصافه ما يختص بالعبادة، أي اتبعوا ملة هٰذا النبي الذي أولُ بيت من بيوت العبادات هو كان رافعَ قواعده والعابدَ فيه.

﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾

فيه ءايٰت بينٰت مقام إبرٰهيم ومن دخله كان ءامنا. وقوله بالواو: **ومن دخله**، لو حذف الواو كان المدح بالأمن من جهة إبراهيم، أي من أجله، وليس كذلك

---

[١] ش ك – وعلموا.
[٢] ش – أي، صح هـ.
[٣] ر + أن.
[٤] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ (سورة البقرة، ١٢٧/٢).
[٥] ش ك – وقوله.

بل ذلك مدح للبيت في نفسه. فمدحُ البيت بإبراهيم كونُه مقاما له، ومدحه بشيء آخر في نفسه وهو الأمن.

وهذه ثلاثُ آياتٍ تدل على وجوب تعظيم الناس له. والأُولى تدل على أنه أول[1] بيت كما سنبين. وذلك أنه[2] لمّا كان إبراهيم إماما لمن بعده من أُولي الكتب المنزلة لزم أن يكون أول بيت وُضع للناس الذين يأتمّون بإبراهيم هو البيتَ الذي اتخذه إبراهيم مقاما وقبلة، لأن المأموم تابع للإمام. فأما قبل محمد صلى الله عليه وسلم فاليهود والنصارى، وأما بعده[3] فسائر الناس، لأن محمدا صلى الله عليه وسلم بُعث إلى سائر الناس وهو على ملة إبراهيم. ولهذا[4] قال: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ،[5] أي إلى يوم القيامة. وكذلك قوله: إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا.[6] وأما قوله: **ومن دخله كان ءامنا**؛ فاعلم أنه لما كانت هذه قاعدةً مستفاضةً بين العرب في سائر قبائلهم ولم يكن ذلك مما وضعه ملِكٌ من ملوك الدنيا كان هذا آيةً دالة على تعظيمه. وكذلك قوله: **ولله على الناس حج البيت**. وذلك لأنه[7] بيت، أمر الله بحجه فأطيع أمرُه، فلا شك أن وقوع هذا الأمر من العباد آية توجب تعظيمَه في الأنفس. والواو في: **ولله**، واو العطف.[8] والجملة مع الإخبار أمر بالفرض في قوله: **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا**. وقوله:[9] **ومن كفر**، إعلامٌ بأن من استطاع ولم يفعل فقد كفر، وعم بذلك كلَّ كافر. **فإن الله غنى عن العٰلمين**.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾

قل يٰأهل الكتٰب لِم تكفرون بئايٰت الله والله شهيد علىٰ ما تعملون، لأن الذي يشهد الأعمالَ كيف لا يشهد الأقوال.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

---

[1] ر – أول، صح هـ.
[2] ش ك – أنه.
[3] ش: فأما بعده.
[4] ش: لهذا.
[5] من الآية السابقة.
[6] سورة البقرة، ٢/١٢٤.
[7] ر: وذلك أن.
[8] ر: واو عطف.
[9] ر – وقوله.

قل يٰأهل الكتٰب لم تصدون عن سبيل الله مَن ءامن تبغونها، أي أتبغون[١] **السبيلَ عوجا**، أي بالعوج عنها، **وأنتم شهداء**، أي بصحة ما في التوراة مما يدل على صحة القرآن ومجيء المبعوث به / عليه السلام. **وما الله بغٰفل عما تعملون**. [٧٨و]

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

ثم خاطب المؤمنين وحذّر أن يطيعوا الصادّين فقال: **يٰأيها الذين ءامنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتٰب يردوكم بعد إيمٰنكم كٰفرين**.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

يٰأيها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته، ذكر قتادة[٢] والربيع[٣] والسُّدّي وابن زيد[٤] أن هذه الآية منسوخة بقوله: فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ.[٥] قال ابن عباس وطاوس: هذه الآية محكمة غير منسوخة.[٦] ثم قال ابن عباس: حاشا الله أن يأمر بالأعلى[٧] وينتقلَ إلى الأدنى، وتعالى أن يأمر بما لا يكون وهو أعلم بما يكون.[٨] ويحتمل في لفظة "تقاته"[٩] ما قدمناه، أي كحق القوم التُّقَاة. ثم نسبهم في التقوى إليه فهم تقاتُه الذين يتقونه. والمعنى اتقوا الله كما يتقونه تقاتُه. وإن قلنا: إن هذه الكلمة بمعنى حق تقواه[١٠] فهي كقوله تعالى: حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ،[١١] وكقوله: وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ،[١٢] ولا تكون هذه الآية منسوخة،

---

١ ش: أي تبغون.

٢ أبو الخطاب قتادة بن دِعامة بن قتادة بن عزيز السدوسي البصري، مفسر حافظ ضرير أكمه. قال الإمام أحمد بن حنبل: قتادة أحفظ أهل البصرة. وكان مع علمه بالحديث رأسا في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب. وكان يرى القدر، وقد يدلّس في الحديث. مات بواسط في الطاعون سنة ١١٨هـ/٧٣٦م (الأعلام للزركلي، ١٨٩/٥).

٣ وهو الربيع بن أنس.

٤ لم يتبين لي من هو.

٥ سورة التغابن، ١٦/٦٤.

٦ انظر لمعرفة المزيد: جامع البيان للطبري، ٦٤١/٥-٦٤٣.

٧ ر: الأعلى.

٨ لم أعثر على هذا القول فيما بين يدي من المصادر.

٩ قال ابن الأعرابي: التُّقاة والتقية والتقوى والاتقاء كله واحد (لسان العرب «وقى»).

١٠ ش ك: تقوية.

١١ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ (سورة البقرة، ١٢١/٢).

١٢ سورة الحج، ٧٨/٢٢.

فإن حق تقواه[1] كحق جهاده، وقد ذمّ اليهود بقوله: وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ.[2] وهذه الآيات لم تُنسخ باعتراف مَن ادّعى نسْخَ هذه الآية ههنا، فهي حجة عليه. ولا شك في أنه[3] إذا كان المراد من تُقاته تَقواه فهو ما استطعتم، لقوله تعالى: لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا.[4] ومن بذل جهده واستطاعتَه فقد أتى بما عليه وهو حق الله، لأن الله تعالى لم يَجعل له حقا على عباده لم يُقْدرهم عليه. وذلك كما لو رزق أحدا من الناس مائةَ دينار والآخر ألف دينارٍ فأخرج صاحب المائة عُشْرَ ما أخرجه صاحب الألف لكانا متساويين فيما اكتسبا بإخراجه الثواب. ولا فرق بين العطية الظاهرة والعطية الباطنة. وأما حق تقواه[5] من حيثُه سبحانه، أي كما يستحقه فهذا مما لا يمكن أن يُحصَر أبدَ الآبدين بوجه. وهذا مما لا يُتصوَّر، فلا يأمر الله به؛ إذ من المستحيل أن يأمر بالمستحيل، بل المعنى حقَّ تقواه[6] في وسعكم وطاقتكم. **ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون.**

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

واعتصموا، الاعتصام الاحتباس والامتناع الباطن والتمسك بشدة هو من الاعتصام. والعِصام حبل يَتمسك به النازل في البئر يَمتنع به من السقوط. وأصل العصمة المنع، لكن من الشر لا من الخير. تقول لمن دفعت عنه مكروها: عصمتُه، ولا تقول ذلك لمن منعتَه خيرا. ومن تمسك بحبل الله رفعه الله بعد الهبوط المعلوم من قوله: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا، ثم قال: فَمَن تَبِعَ هُدَايَ،[7] يشير إلى الكتاب المنزَّل في كل زمن لقوم. وقوله: **بحبل الله**، هو كتابه فإنه السبب الذي بينه وبين عباده، أي وكونوا معتصمين، **جميعا**، لا كل إنسان بمفرده لئلا يَظن أحدكم أنه متمسك به وهو غالطٌ في ظنه. ولهذا قال: **ولا تفرقوا**، أمرهم أن يجتمعوا بالكتاب -لا بآرائهم- ويستمسكوا به ولا يختلفوا ويتفرقوا فيه. ولهذا قال:[8] **واذكروا نعمت الله عليكم. إذ كنتم أعداء**

---

١ ك: تقوية.

٢ سورة الأنعام، ٦/٩١؛ وسورة الزمر، ٣٩/٦٧.

٣ ك: أن.

٤ سورة البقرة، ٢/٢٨٦.

٥ ك: تقوية.

٦ ك: تقوية.

٧ ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٣٨).

٨ ش - أمرهم أن يجتمعوا بالكتاب لا بآرائهم ويستمسكوا به ولا يختلفوا ويتفرقوا فيه ولهذا قال.

فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوٰنا. وكنتم علىٰ شفا، وهو الحَرْف، وهو قريب في المعنى من الشَّفَة. تقول: شفة البئر وشفة الوادي. وقوله: شَفَا حُفْرَةٍ من النار، ولم يقل: في النار، لأنهم ما داموا أحياءً كانوا على شفا، فإذا ماتوا على غير الإسلام وقعوا فيها. فأنقذكم منها كذٰلك يبين الله لكم ءايٰته لعلكم تهتدون.

﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾

ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، لا يريد العلماءَ، بل المراد الجميع لا البعض. بل هذا كما تقول: ليكن منك رجل صالح. فـ"مِن" ههنا للبيان، ودليله كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ،[1] كما نبين. ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولٰئك هم المفلحون.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥﴾

ولا تكونوا كالذين تفرقوا، بالعداوة، واختلفوا، في دينهم، من بعد ما جاءهم البينٰت. وأولٰئك لهم عذاب عظيم.[2]

﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦﴾

يوم تبيض وجوه وتسود وجوه. فأما الذين اسودت وجوههم. كلُّ استفهام استخبارٌ ولا ينعكس، والمستخبِر قد يقصد إلى أخذِ استقرار المستخبَر، كقوله: أكفرتم بعد إيمٰنكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾

تلك / ءايٰت الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعٰلمين، وكيف يظلم [٧٨ظ] وهو غني عن الظلم.

---

[1] الآية ١١٠ من هذه السورة.

[2] ر ك + يوم في.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

وقوله: **كنتم خير أمة أخرجت للناس**، لمّا حذف ما تقديره بعد قوله: **فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ**:[١] "يقال لهم:[٢] أكفرتم فذوقوا" حذف في، **الذين ابيضت وجوههم**: "يقال لهم: كنتم". وإنما أخّره[٣] ليتم ذلك الكلامُ وليُتبعَ ذكْرَ الإيمان في قوله: **وتؤمنون بالله**، بذكر الإيمان بقوله: **ولو ءامن**، فقال: ما معناه: يقال لهم: **كنتم خير أمة**. ولهذا كان تمام هذه الآية كتمام تلك في المعنى وفي أكثر اللفظ. **تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله**.

وقوله: **ولو ءامن أهل الكتب**، أي بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به، **لكان خيرا لهم. منهم**، ليست [مِن] ههنا للتبعيض بل كما تقول: المؤمنون خير من الكفار. وقوله: **المؤمنون**، هو اسم "كان"، ففيه تقديم وتأخير. يعني ولو آمن أهلُ الكتاب لكان المؤمنون وهو اسم "كان" خيرا، وهو خبرها، لهم، أي للذين آمنوا منهم، أي من بقية الكفار أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا، أي إن المؤمنين خير لمن آمن وأنفعُ له من بقية من لم يؤمن من أهل الكتاب. وذلك أن أحدهم كان يعتذر بأنّ[٤] ليس له في الأعراب أعني المؤمنين منهم أحدٌ ولا نسب، وله في أهل الكتاب قومٌ وأقارب. فعرّف الله لمن لو آمن من اليهود أن المؤمنين خير لمن آمن وأنفعُ من جميع اليهود. ثم أخبر بحال الكفار فقال: **وأكثرهم الفٰسقون**، أي وحالهم هذه. فكان قوله: **وأكثرهم الفٰسقون**، تصديقا ودليلا لقوله: إن المؤمنين أنفع لمن آمن، فافهم وقِفْ ولا تَعجل ولا تَظنَّ أن قوله: **ولو ءامن أهل الكتب لكان خيرا لهم**، بمعنى لكان الإيمان خيرا لهم من الكفر. فهذا عندنا معلوم، وعندهم دعوى كاذبة فلا فائدة في ذلك القول، ثم يبقى قوله: **منهم المؤمنون**، مدحا مدَح الله لأهل الكتاب به مع كونهم من أهل الكتاب. وليس كذلك، بل كما قلناه فافقهه جيدا. فإن الذي آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم لا يقال: إنه من اليهود،

---

[١] الآية ١٠٦ من هذه السورة.
[٢] ك + كنتم.
[٣] ش ك: أخر.
[٤] ر: بأنه.

فلا يكون مؤمنا وهو منهم، بل إذا كان مؤمنا فهو من المؤمنين لا من غيرهم، لقوله: وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ،[١] فنفى الإيمان عنهم هناك. فلا تجوز[٢] الشهادة لهم به ههنا.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾

ثم قال مخاطبا لمن قد رغّبه في الإسلام بما قد[٣] تقدم من الكلام وإن كان عاما لبقية المسلمين، والمعنى إذا أسلمتم لا تخشوا من ضررٍ يلحقكم من أهل الكتاب: **لن يضروكم**، ثم استثنى استثناءً منقطعا فقال: **إلا أذى**. والأذى ما يكون بالقول دون الفعل كقوله تعالى: لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟.[٤] ولهذا بعده: **وإن يقْتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون**، أبدا. وهذا من دلائل النبوة.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله. قوله: **ضربت**، أي في القتال وفي غيره. ولمّا عيّن من ذلك مكانا بقوله: **أينما ثُقفوا**، وهو موضع الحرب كان هذا تحقيقا لِما قدمه من قوله: وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ،[٥] أي لأن الذلة قد ضُربت عليهم. ثم قال: **إلا بحبل من الله**، وهو الإسلام، فتزول الذلة، لأن المؤمنين أعزّاءُ. ودليله قوله: وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا.[٦] وقوله: **وحبل من الناس**، إشارة إلى أنهم لو أسلموا في بواطنهم ولم يُظهروا إسلامهم فإن الذلة لا تفارقهم. وكذلك لو أسلموا ظاهرا مع النفاق فهم أذلاء إلا أن يتمسكوا بهما، أعني الحبلَين. والحبل هو السبب الذي بين الطالب والمطلوب. ثم عطف على ما قبل الاستثناء فقال: **وباءو بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة**، وتمامه. عرّفَنا ذنبهم وهو موجود أبدا، فالعقاب لازم أبدا. **ذلك بأنهم كانوا يكفرون بـآيٰت الله ويقتلون الأنبياء بغير حق**. وقوله: **ذلك**، مرة ثانية

[١] سورة البقرة، ٨/٢.

[٢] ر: لا يجوز؛ ك: فلا يجوز.

[٣] ر – قد.

[٤] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ (سورة الأحزاب، ٦٩/٣٣).

[٥] من الآية السابقة.

[٦] الآية ١٠٣ من هذه السورة.

[٧٩و] ثم قال: **بما عصوا وكانوا يعتدون**، إشارة / إلى سبب السبب، كأنه قال: عاقبناهم وغضبنا عليهم، وذلك بسبب أنهم كانوا يكفرون ويقتلون. ثم قال: ذلك الكفر والقتل بسبب أنهم كانوا عاصين معتدين. وأما قوله في البقرة: وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ[١] وههنا: **الأنبياء بغير حق**، فإنه أشار في البقرة إلى أنهم كانوا يقتلون نبيين معروفين، أي أشار إلى مَن قتلهم اليهود من النبيين، وههنا[٢] أشار إلى استباحة قتل الجميع، أعني سائر الأنبياء، أولئك المقتولين وغيرهم. ولذا قال في البقرة: ٱلنَّبِيِّـۧنَ، أي الذين قتلوهم. وقال ههنا: **الأنبياء**، وهذا أعم. ولهذا أتبع ذلك في البقرة بقوله -بالألف واللام-: بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ، أي بغير الحق[٣] الذي هو عندهم يوجب القتلَ. وأما ههنا فقال: **بغير حق**، أي من سائر أنواع الحقوق، فجاء منكّرا ليعم. فهم يستبيحون قتلَ أيِّ نبي كان بغير وجه من الوجوه فليس ذلك بمكرَّر.

﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾

ثم تمم الكلام المتقدمَ وهو قوله: وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم،[٤] من بقية أهل الكتاب فقال ما معناه: فلا تظنوا أن أهلكم وأقاربكم لكم خير من المؤمنين، فليس كذلك بل ولا هم مثل المؤمنين فلا يتساوون بهم أيضا، فقال: **ليسوا سواء**، هذا قطع، وهو وصفٌ لأمة محمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم الوصفُ لهم بعد الوصية بقوله: وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ،[٥] وتمامِه. وفي كل آية بذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تجده يصف الأمة المحمدية لا غير. فقال ههنا: **ليسوا سواء**،[٦] أهل الكتاب وأمةُ محمد صلى الله عليه وسلم، فالإشارة إلى المسلمين بقوله: **من أهل الكتٰب أمة**، يعني بذلك وَصْفَ المسلمين بذم أهل الكتاب، وذمَّ أهل الكتاب بوصف المسلمين. لكن يجب أن تفهم ذلك بصورة الاستفهام والمباهاة. فهو يباهي أهلَ الكتاب بالأمة المحمدية[٧] الموصوفة.

---

١ سورة البقرة، ٦١/٢.

٢ ش: ههنا.

٣ ك - أي بغير الحق، صح هـ.

٤ الآية ١١٠ من هذه السورة.

٥ الآية ١٠٤ من هذه السورة.

٦ ش + من.

٧ ش - لا غير فقال ههنا ليسوا سواء أهل الكتاب وأمة محمد صلى الله عليه وسلم فالإشارة إلى المسلمين بقوله... لكن يجب أن تفهم ذلك بصورة الاستفهام والمباهاة فهو يباهي أهل الكتاب بالأمة المحمدية، صح هـ.

فقال ما تقديره: أمِن أهل الكتاب، أمةٌ قائمة يتلون ءايٰت الله ءاناء اليل، [أي] أوقات منه، واحدها أَنًى وإِنْيٌ، وأَنْيٌ،[١] ويكون معنى [قوله:] غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ،[٢] أي وقته، أعني[٣] الذي يَنْضَج فيه، أو الوقت الذي يقتضي إحضاره. وقوله: وهم يسجدون، هو في موضع نصب على الحال، وغيّر للوزان.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾

يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسْرعون فى الخيرٰت، مِثلَ أمة محمد صلى الله عليه وسلم. **وأولٰئك من الصٰلحين**، لا أهل الكتاب، إذ هم بضد أوصاف أولئك. فلو آمن منهم أحد لكانت الأمة الموصوفة خيرا[٤] منهم كما بينا. فتنبه وقِف ولا تعجل تَفهم. ويزيدك[٥] بيانا أن أهل الكتاب ليس فيهم مَن يسجد ولا واحد، فضلا عن أمة.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾

فلما مدح الله[٦] محمدا صلى الله عليه وسلم وأمتَه قال عن الكافر: **إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموٰلهم ولا أولٰدهم من الله شيئا وأولٰئك أصحٰب النار هم فيها خٰلدون.**

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

مثل ما ينفقون فى هٰذه الحيوٰة الدنيا، أي ما يتصدقون به في مدة حياتهم القربى، **كمثل**، ما أهلكته، **ريح فيها صر**، الصر البرد. قيل: هو مشتق من الصرير، وهو الصوت

---

١ انظر: لسان العرب، «أنى».

٢ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ (سورة الأحزاب، ٥٣/٣٣).

٣ ش ك: إناه وقته أي الذي.

٤ ر + له.

٥ ش: ونزيدك.

٦ ر – الله.

القوي المزعِج؛ ومنه فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا،[1] أصلها من صرر[2] من الصرّ. فأبدلوا مكان الراء فاء الفعل ليزول الاشتباه بما هو من الصِرَّة، فهو كقوله: كُبْكِبُواْ،[3] أصلها كُبِبوا، وتَجَفْجف الثوبُ إذا تجفّف. أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله، بذلك. ولٰكن أنفسهم يظلمون.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾

يٰأيها الذين ءامنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم، سواكم. لمّا قال أولا: لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ [مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ]،[4] وعظّم التحذيرَ قال ههنا: لا تتخذوا بطانة، وهو من تُطلعه على ما في باطنك وإن لم تتخذه وليا في بقية الأحوال، لأن هذا القدر لمّا كان من جملة الموالاة وقد يخفى بيّنه الله تعالى، لهذا قال في آخر الآية: قد بينا، فافهم بينا. ولم يقل: لا تتخذوا من دونكم بطانة؛ والفرق بينهما أن ما قاله يعطي أن لا تتخذوا بطانة فما فوق ذلك، وما قلناه نهي عن اتخاذ البِطانة فقط. فلو قلت: لا تشرب ماءً من دار البخيل، يعطي المبالغةَ في نفي أخذِ ما هو أكثر من الماء، أي إذا[5] كان الماء لا يجوز شربُه من داره فكيف أكلُ طعامه أو لبسُ ثوبه. والبطانة خاصة الرجل الذي يستبطنون أمرَه ويُطلعهم على ما في باطنه. / وأصله من بطانة الثوب لأنها مما [٧٩ظ] يلي بطنَ اللابس. لا يألونكم، يَنقصونكم، أو يُقصرّونكم خبالا، فسادا. والمُخبَّلة ضد المتقِنَة من النساء. والخبل في العقل الجنونُ وهو فساد العقل، أي لا يُقصّرون في خبال وفساد يريدنه لكم. ودُّوا، من المودة والمحبة، ما عَنِتّم، أي الذي مَشقّتكم فيه، مثل قوله: وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ.[6] قد بدت البغضاء من أفوٰههم، مثل قوله: وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ.[7] وما تخفى صدورهم أكبر، مما يبدو من أفواههم. قد بينا لكم الآيٰت إن كنتم تعقلون، أي بهذا الشرط منكم يكون البيان منا لكم. ولهذا زاد ههنا "لكم".

---

[1] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (سورة فصلت، ١٦/٤١).

[2] ر: من صرصر.

[3] ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ (سورة الشعراء، ٩٤/٢٦).

[4] الآية ٢٨ من هذه السورة.

[5] ش ك: أي وإذا.

[6] سورة البقرة، ٢٢٠/٢.

[7] ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ (سورة محمد، ٣٠/٤٧).

إذ الآيات في نفسها بينة مبيّنة، ولكن لكم لا تكون كذلك إلا بشرط التعقل، لأن البيان منا والتعقلَ منكم. فإذا وُجد أحد الشرطين لا يَلزم وجودُ الآخر.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾

هٰأنتم أولاء، أي يا أولاء. وقوله: هٰأنتم، هو كما تقول لصاحبك إذا أردت أن تجعل في كلامك دليلا وبرهانا يصدّق دعوى تقدمت، تقول[1] له: ألم أقل لك: لا تزرع في السِّباخ،[2] ها أنت يا هذا قد زرعتَ فلم يُنبت. وقوله: **تحبونهم ولا يحبونكم**، إشارةٌ إلى من آمن من أهل الكتاب وبقي أهلهم وأقاربُهم ومن كان لهم بطانةً، فمنع الله من آمن أن يتخذه بطانة من سوى المؤمنين. وأخذ يعرّفنا بعضَ صفاتهم في أقوالهم وأفعالهم فقال عنا وعنهم: **وتؤمنون بالكتب كله، وإذا لقوكم قالوا ءامنا**، أي معكم. **وإذا خَلَوا**، أي من المؤمنين، **عضُّوا عليكم الأنامل من الغيظ، قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور**، إشارة إلى الخواطر القائمة بالقلب والدواعي والصوارف.

﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾

إن تمسسكم حسنة، وهو ما يَحسُن في العقل كائنا ما كان، والسيئة ما يسوء كائنا ما كان،[3] **تسؤهم، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها**. ثم نبه من آمن على الصبر والتقوى ليكون ذلك مع العصمة من شرّهم سببا لميل قلوبِ بطانته إليه فيُسلمون فقال: **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا**، كقوله من قبل: لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗى.[4] **إن الله بما يعملون**، من الكيد وغيره، **محيط**.

﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١ إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٢٢﴾

---

[1] ر ك: فتقول.

[2] السَّبَخَةُ أرض ذات ملح ونَزٍّ وجمعها سِباخٌ (لسان العرب، «سبخ»).

[3] ش – والسيئة ما يسوء كائنا ما كان، صح هـ.

[4] الآية ١١١ من هذه السورة.

ولما ذكر الصبر وكان أولى المواطن به القتالُ ذكر موطنا[1] وحينا جرى فيه صبرٌ فنُصر المؤمنون ولم يضرهم كيدُ الكفار فقال: **وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقْعد للقتال**، [من] باء يبوء، أي رجع. وبوّأه في المنزل إذا أباحه أن يقعد أينما شاء منه، كقوله: وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ،[2] أي يعبد حيث شاء من هذا المكان. **والله سميع عليم**، سميع بما يقوله المؤمنون، عليم، بما أسرّوه.

ولهذا بعده: **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا**، الفشل الجبن والضعف، تفشّل الماء إذا سال من جوانب الإناء. ومعنى "همت" أي جعلت كلَّ اهتمامها هذا. والهمّ من الهِمَّة وهو ما يتقدم على الفعل بعد الوسوسة في الصدر. **والله وليهما**، أي حال كونهم في القتال، والله وليهما، لأنه وليّ المؤمنين، أي فكيف يجوز أن يَفْشَل مَن الله وليُّه. **وعلى الله فليتوكل المؤمنون**، أي ومن يتوكل على الله فهو حسبه[3] فلا يَفْشَلْ.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

وقوله: **ولقد نصركم الله ببدر**،[4] تقديره لعلكم تشكرون، وأخِر للوِزان، **وأنتم أذلة. فاتقوا الله**، أي ولا تفشلوا بعدُ كما فشِلتم قبلُ، **لعلكم تشكرون**. وكانت وقعةُ[5] بدر قد تقدمتْ. فقال الله لهم بلسان الرسول والكلامُ عائد على الأول، تقديره: وإذ غدوت تبوئ وتقول. ولهذا بعده: **إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم**، وهو من المدد والإمداد، **بثلثة ءالف من الملئكة منزَلين**. وهذا كان في وقعة[6] بدر أُنزلت الملائكةُ لتُقوّي قلوب المؤمنين الذين يصدقون رسول الله صلى الله عليه وسلم في إخباره بنزول الملائكة. وأما في الوقعة الثانية المسماةِ يومَ أُحد فكان الإمداد بخمسة آلاف. وفي بدر كانوا مُنزَلين فحسب، وفي أُحد كانوا مسوِّمين، أي يجعلونهم يَسُومُون الكفار سوء العذاب. وأصله من السائمة كما قلناه. ويقال: سوّمه إذا جعله يسوم غيرَه.

---

[1] ش ك: مواطنا.

[2] ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (سورة الحج، ٢٢/٢٦).

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ (سورة الطلاق، ٦٥/٢-٣).

[4] بدر: موضع بين مكة وبين المدينة، بها الواقعة المباركة التي كانت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركين (آثار البلاد لزكريا القزويني، «بدر»).

[5] ك: وقعت.

[6] ك: في وقعت.

﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾

وقوله: بلىٰ، بمعنى لكن. / فكان الإمداد أولا بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ،[١] ثم شرط عليهم شرطا [٨٠و] آخر فقال: لكن، إن تصبروا، في المقاعد، وتتقوا، الفشلَ، ويأتوكم من فورهم هٰذا، كما تقول: من ساعتك هذه، وهو عائد على الأعداء،[٢] يمددكم ربكم بخمسة ءالٰف من الملٰئكة مسومين. والفور ابتداء الأمر بالسرعة في حالة لا ريب فيها ولا تعريج، وهو من فوران القِدر وفورةِ الغضب. ويقال: أجابه على الفور، أي من غير توقف. وفي الأنفال[٣] بيّنّا ما يتعلق بالملائكة والمؤمنين من الرؤية.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾

وقوله: وما جعله الله، أي إنزالَ الملائكة، إلا بشرىٰ لكم، يبشركم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولتطمئن قلوبكم به. وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم، أي لا من عند الملائكة، بل كان فائدة إنزالهم[٤] البشرى والطمأنينةُ والتسويمُ.[٥]

﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧﴾

ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم، والكَبْت شدة وهْن يقع بالقلب يَعرِض من الغبن ومثلِه، يقال: كَبَته وكَبَده إذا ضرب كَبِدَه بالغيظ والحُرْقة.[٦] والكبت للكفار كلِّهم، ولو كان للطرف لقال: أو يَكبته. والطرف يريد به الذين يَلُون المسلمين من الكفار، لأنهم في طرف بلادهم ولا وصولَ إلى الوسط إلا بعد الأخذ من الطرف، فيعود الوسط طرفا. وكذلك ما بعده فلا يكون القطع إلا للطرف دائما وهو معنى [قوله:] نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَا.[٧] فينقلبوا خائبين.

---

١ من الآية السابقة.

٢ ر ك: على الأعداد.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآيات في سورة الأنفال، ٨/٩-١٢.

٤ ر - إنزالهم، صح هـ.

٥ "قوله عز وجل في الملائكة: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ أي معلَّمين و﴿مُسَوِّمِينَ﴾ معلِّمين لأنفسهم أو لخيولهم، أو مرسِلين لها" (المفردات للراغب الإصفهاني، «سوم»). | علّم نفسَه: جعل عليه علامة وأمارة.

٦ الحُرَقة: ما يجده الإنسان من لذعةِ حب أو حُزن. عن الليث الحرقة: ما تجد في القلب من الوجع (لسان العرب، «حرق»؛ وتاج العروس للزبيدي، «حرق»).

٧ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ (سورة الرعد، ٤١/١٣. وانظر أيضا: سورة الأنبياء، ٤٤/٢١.

﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾

ليس لك من الأمر، أي من[1] هذا الأمر، **شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظلمون.** واعلم أن الأمر كلّه لله تعالى في كل شيء. وهو تعالى آتى عبادَه قدرةً على بعض الأمور بأمره، وتلك القدرة صالحة للشيء وضده. فأصلها الأوّل هبةٌ من لدن الله تعالى. ونحن نَكتسب بها وهي قدرة مطلقة فيما يختص بها، فهي غير مقيدة بأحد القسمين دون الآخر من خير أو شر، بل العباد بها متمكنون من فعل الشيء وضده. ثم إن الله تعالى أمرهم بفعل الخير ونهاهم عن فعل الشر بعد ما أقدرَهم على امتثال الأمر. ويجب أن تَفهم من الكلام المطلق مطلقا في موضعه ومن المقيد مقيدا بحسبه، أعني بحسب المعنى[2] المقصود به في ذلك الكلام لا في غيره، إلا أن يَدل عليه أو يَلزمَ عنه. ففي هذا الموضع عرّف الله رسوله صلى الله عليه وسلم وعرف المؤمنين أنه أراد ما[3] أراده بالكافرين وعلله فقال بلام كي: لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ،[4] من غير أن يقطع الجميع.[5] وكان قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقصدُ المؤمنين أن الله يَقطع الكلَّ لا طرفا منه. فخاطب الله رسوله صلى الله عليه وسلم بخطاب يلزم عنه من كونه له أن يكون أيضا لهم. فقال تعالى: **ليس لك من الأمر شيء،** فلزم أن المؤمنين أيضا ليس لهم من الأمر شيء. والمقصود ههنا أمرُ الغيب وما يتعلق بالكفار من عذاب الله لهم أو التوبةِ عليهم. ولهذا قال مقسِّما بلفظة "أو"، وذلك قوله: **أو يتوب عليهم،** أي إن تابوا **أو يعذبهم،** أي في مرة أخرى بالكبت أو بأيدي المؤمنين إن لم يتوبوا. فهذا الكلام ههنا لا يُلزم الإجبارَ ولا يكون حجة للجبرية. فعلى كلا القسمين أمرُ الله في أن يقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتَهم من غير أن يقطع الجميعَ أنسبُ في العقل إلى حكمة البارئ تعالى ليكون ما جرى من أحد القسمين حجةً على الكفار، إذ المقصود من القتال على الإسلام عائدة على الكفار لا على المسلمين. فلو أذهب الله جميعَ الكفار على[6] ما يُؤْثِره المسلمون لم تكن رأفة البارئ عامةً ولا حجتُه قائمةً ولبطل أجر المسلمين من تكرار الجهاد عليهم. وأما الآية الثانية[7] فهي معطوفة على ما قبلها. وتقدير الكلام ليس لك من الأمر شيء في هلاك الكفار ولا في التوبة عليهم، بل الأمر كله لله.

[1] ر – من.
[2] ر – المعنى، صح هـ.
[3] ش – أراد ما، صح هـ.
[4] من الآية السابقة.
[5] ك – أو يكبتهم من غير أن يقطع الجميع، صح هـ؛ ش – أو يكبتهم من غير أن يقطع الجميع.
[6] ر ك – على.
[7] أي قسم الآية الثانية.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

ولله ما فى السموٰت وما فى الأرض يغفر لمن يشاء، أي ممن استحق العذاب بذنبه وإن لم يتب، وهذا أبلغ في باب الرجاء والخوف ومثلِه. ويعذب من يشاء، أي ممن يستحق العذاب بذنبه لا ممن تاب. وهذا يَظهر منه العدلُ فيُخاف عدلُه، والفضلُ فيُرجَى فضلُه ليطمع من يستحق العذاب بالمغفرة فينجوَ -ولو بحسن ظنه- من العقاب، ويخافَ الآخر أن لا يكون ممن شاء الله أن يغفر له بلا توبة / فيتوبَ [٨٠ظ] فيفوز بالثواب. فافهم هذا النظام وحكمة هذا الكلام. ولهذا ختم الآية بقوله: والله غفور رحيم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

ولما ذكر العذاب وأطمع في المغفرة وكان قد[١] قدَّم قولَه: إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا،[٢] وكان الفرار من الزحف يوجب النار تلاه بمثله مما يوجب النار مع الكفار كما في آخر الآيات. فلهذا ذكر الربا ههنا ونهى عنه. وفي ذلك مصالحُ جمةٌ، منها ليدعوَ عباده بالقرض[٣] وإنظارِ المُعسر إلى مكارم الأخلاق التي هي أُسّ الخيرات. واحذر أن تقفَ مع ظاهر الشريعة في صحة البيع إذا كان المراد بباطنه ربا بل افْهم قوله: وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ،[٤] فافتقدْ قلبَك وقد عرفت الربا. يٰأيها الذين ءامنوا لا تأكلوا الربوٰا أضعٰفا مضٰعفة. لم يعيّن مقاديرَ الأضعاف لئلا يقيّده بعِدّة فينحصر، وكذلك لم يَحصُر مضاعفةَ الأضعاف. وإنما كرر هذا النهي بعد ذكره في البقرة[٥] لِيَزيدنا بعد تأكيد التحريم معنًى آخرَ وهو بمعنى ولو كان أضعافا مضاعفة لا تنقضي أبدا ما دامت الدنيا، لأنه لا بد من الموت، فيذهب ذلك كلُّه ويبقى وزرُه. واتقوا الله لعلكم تفلحون.

---

١ رك - قد.

٢ الآية ١٢٢ من هذه السورة.

٣ جميع النسخ: بالفرض، والمثبت من م.

٤ سورة البقرة، ٢/٢٢٥.

٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٧٨-٢٧٩).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾

ثم عرّفنا مأوى آكلِ الربا ومن يفِرُّ من الزحف والكافر، وجعل الجميعَ بمنزلة واحدة فقال: واتقوا النار التى أعدت للكٰفرين. والنار وإن كانت واحدة بالاسم فهي على قدر الجرائم. وقد نبّه على أنه مَن لم يَنْتَهِ عما نهاه الله عنه فهو مع الكفار مخلّد في النار. وخصص الربا لعظم هذا الذنب. ولهذا أتى به بعد قوله: لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ.[1] ثم قال أخيرا: واتقوا النار التى أعدت للكٰفرين.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾

وأطيعوا الله والرسول، يدل على أمر واحد بشيء واحد، وقولُه: وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ[2] يدل على أمرٍ من الله مجملٍ يحتاج إلى أمر من الرسول مفصَّلٍ. ولمّا علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سيقع من اختلاف الأمة بعده قال: «إن الأحاديث ستكثُر من بعدي كما كثرت عن الأنبياء قبلي، فما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتابَ الله فهو عني».[3] وهذا هو معنى قوله تعالى: وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ.[4] وقوله: لعلكم ترحمون، أي يكون عملكم ذلك محمولا على الرجاء. ويجوز أن يُذنب المؤمن ذنبا يحبط عملَه وهو لا يشعر.

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾

وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السمٰوٰت والأرض. ويلزم أن يكون الطول أكثر، ولهذا ذكر العرض، ولأن الطول لا يمكن أن يعرفه كلُّ أحد، والعرضَ قد يعرفه من يسير أو يعرف عِظَمَه. ولما قال من قبل: أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ[5] قال في ضده: أعدت للمتقين.

---

[1] الآية ١٢٧ من هذه السورة.

[2] سورة المائدة، ٩٢/٥.

[3] لم أجده بهذا اللفظ، لكن أخرج الطبراني في المعجم الكبير (٣١٦/١٢) ما لفظه: عن عبد الله بن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «سئلت اليهود عن موسى فأكثروا، وزادوا ونقصوا حتى كفروا، وسئلت النصارى عن عيسى فأكثروا فيه، وزادوا ونقصوا حتى كفروا، وإنه سيفشوا عني أحاديث فما أتاكم من حديثي فاقرءوا كتاب الله واعتبروه، فما وافق كتاب الله فأنا قلته، وما لم يوافق كتاب الله فلم أقله». وأيضا انظر: أحكام القرآن للجصاص، ٢٥٣/٢، ٢٠١/٤؛ وجامع بيان العلم لابن عبد العبر، ١١٩١/٢؛ وكشف الخفاء للعجلوني، ٨٦/١، ٤٢٣/٢.

[4] سورة الأنعام، ١٥٣/٦.

[5] الآية ١٣١ من هذه السورة.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾

وجعل في قبالة الربا الصدقةَ فقال: الذين ينفقون فى السراء والضراء، لأنهما داعيا[١] البخلِ عند كثرة المال منافسةً فيه وعند قلته حاجةً إليه. والسراء ما يَسُرّ والضراء ما يَضرّ. ولا تَفهمْ أنهم يُنفقون في العُسر واليُسر فقط بل ذلك من جملة مراد الآية. وأتبعه بقوله: والكٰظمين الغيظ. كظَم القِرْبةَ إذا شدَّ رأسَها مملوءةً، وكظم البعيرُ إذا لم يَجْتَرّ.[٢] والعافين عن الناس، مطلقا إعلاما أن ذلك محسوب لهم من النفقة في مرضاة[٣] الله. والله يحب المحسنين، نبّه على مطلق الإحسان. فإن مِن الناس مَن لا يرى أن يتصدق إلا على ذي فاقة. وليس الواجبَ ذلك فقط وإن كان الأَولى إذا وُجد هو وغيرُه. ولهذا بعد النفقة ذكَر الإحسانَ ولم يَفرضه بل جعل المحبة منه في مقابلته من العباد.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾

ولما كان الإحسان من المؤمن قد يكون إلى غيره وقد يكون إلى نفسه قال أولا ما هو إلى غيره. ثم أتبعه بما[٤] هو إلى نفسه فقال: والذين إذا فعلوا فٰحشة أو ظلموا أنفسهم، والفاحشة اسم يقع على ما يَقبُح. فهذا عمومه، وخصوصه هو الزنى. وقد علمت [من] قوله تعالى: وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ،[٥] أن الإشارة إلى الذكرين إذا أتيا الفاحشة، وقد قال: إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ،[٦] / فلزم تحريمُ ذلك. والظلم يَصدُق على أدنى ما يقع عليه هذا [٨١و] الاسم. ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم. قال الفُضيل بن عياض[٧] رحمه الله: إني لأعصي الله فأجد ذلك في خلُق دابّتي وجاريتي.[٨] فيجب على العاقل أن يستغفر الله إذا وجد ما يكرهه. ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا، وهو من الصَّرَّة، علىٰ ما فعلوا وهم يعلمون.

[١] ش ك: داعيان.

[٢] اجترّ البعير: أخرج جِرَّتَه، أي لقمته التي يتعلل بها إلى وقت علفه (المعجم الوسيط، «جر»).

[٣] ر ش: في مرضات.

[٤] ر ك: أتبعه ما.

[٥] ﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآ﴾ (سورة النساء، ١٦/٤).

[٦] ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ (سورة الأعراف، ٣٣/٧).

[٧] أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي، شيخ الحرم المكي، من أكابر العبّاد الصلحاء. كان ثقة في الحديث، أخذ عنه خلق منهم الإمام الشافعي. ولد في سمرقند، ونشأ بأبيورد، ودخل الكوفة وهو كبير، وأصله منها. ثم سكن مكة، وتوفي بها سنة ١٨٧هـ/٨٠٣م (الأعلام للزركلي، ١٥٣/٥).

[٨] صيد الخاطر لأبي الفرج ابن الجوزي، ص ٣٦.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾

قد خلت من قبلكم سنن، لله في عباده ممن كذّب بآياته. **فسيروا في الأرض**، واعتبروا بنظركم إلى آثارهم. وأصل السُّنّة الاستمرار، من قولك: سَنّ سِكّينه[1] إذا كرر مرورها على المِسَنّ.[2] **فانظروا كيف كان عُقبة المكذبين**.

﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨﴾

هٰذا بيان للناس، هذا مع الإخبار يشبه قولَ ممتدحٍ،[3] لقوله: **وهدى وموعظة للمتقين**.

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾

ولا تهنوا، من الوهن، **ولا تحزنوا وأنتم الأعلون**، أي بالإيمان، **إن كنتم مؤمنين**. تنبيه على أن من علامة صدق الإيمان أن لا يَهِن المؤمن ولا يَحزن لثقته بالله تعالى. وهذا معطوف على قوله أولا: إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ،[4] تقديره: ونقول لهم: **ولا تهنوا**. وإنما جاءت هذه الأوامر بين آيات الجهاد إعلاما أن بهذه الأفعال تَثبت القلوبُ عند مقابلة الأعداء، فإن فاعلها قهر الشيطانَ الباطن فهو جدير بأن يَقهر العدوَّ الظاهرَ.[5] وفي هذا الكلام تقوية لقلوب المؤمنين وتعزية لهم لأمر كان قد وقع عليهم.

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾

فقوله: **إن يمسسكم قرح**، إشارة إلى مسّ قلبيّ كما علمت الفرقَ بين اللمس والمسّ. والقرح الألم، ومنه القرحة لفرط ألمها. **فقد مس القوم قرح مثله**، واللمس بالحاسة والمس بها وبغيرها. والقوم ههنا يريد بهم المؤمنين في زمن كل نبي ونبي. ولهذا بعده:

---

[1] ر: سكينة.

[2] المِسَنّ: حجرٌ يُحَدَّد به. وقال الفراء: سمي المِسن مِسَنا لأن الحديد يُسَنّ عليه، أي يُحَدّ (تاج العروس للزبيدي، «سن»).

[3] ش: ممدح.

[4] الآية ١٢٤ من هذه السورة.

[5] ر ك: والظاهر.

وتلك الأيام نداولها بين الناس، أي نكرِّرها، كقوله تعالى: ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ،[١] أي الدولة. وليعلم، أي ولكي يعلم، الله الذين ءامنوا، منكم ومن الأوائل. و"كي"[٢] مضمرٌ قبل الواو في [قوله:] ويتخذ منكم شهداء، الشهادة ههنا هو القتل في سبيل الله. والله لا يحب الظّٰلمين. وقوله: نداولها، تقديره لِما نعلم به من مصالحهم وليعلم الله وليتخذ.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٤١﴾

وليمحص الله، ذنوب، الذين ءامنوا. والتمحيص هو التنقيص شيئا بعد شيء إلى أن يبقى العبد خالصا من الذنوب والدنس. ربِّ محِّص عنا ذنوبنا، أي أذهِبْها عنا ونقِّنا منها، ويمحقَ الكٰفرين، من مُحاق[٣] الهلال. ومحْق الكافرين بإزاء محْص المؤمنين، فالمؤمنون في ذنوبهم وهم غير الشهداء بل الأحياء في الدنيا، والكفار في نفوسهم.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٤٢﴾

أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما، وهي مؤكَّدة "لم"، وهذا الكلام هو بصورة التفريع[٤] والتعريف أنه لا يكون الأمر إلا كذلك. وتقدير الكلام ولم، يعلم الله الذين جٰهدوا منكم ويَعلمَ، نصب على الصرف عن العطف، إذ ليس المعنى نفْيَ الثاني حتى يكون عطفا على نفي الأول بل على منع اجتماع الثاني والأول، فيرجع إلى ما قبله من الإثبات. وإنما أخّره لأجل الوِزان. والذي قبله وَلِيَعْلَمَ، وَيَتَّخِذَ،[٥] وَلِيُمَحِّصَ، وَيَمْحَقَ،[٦] ومعناه بل ابتلاكم ليعلم المجاهدين والصابرين. وعطف العلم الأخير على العلم الأول، فقال أولا: وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ،[٧] وقال أخيرا: ويعلمَ الصّٰبرين. وهذه معناه حدوثُ معلومِ ما عَلِمَه سبحانه، لا حدوث علمِ ما [لم] يَعلم.[٨] فافهمه وأمثالَه.

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝١٤٣﴾

ولقد كنتم تمنون، تَتمنون، الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون. المعنى مِن الانتظار، وأخِّر للوِزان. ولهذا قدم "وأنتم". والمعنى ولقد كنتم تَمنون الموت

[١] سورة الإسراء، ٦/١٧.
[٢] ش – وكي.
[٣] المُحاقُ آخر الشهر إذا امَّحق الهلال فلم يُرَ (لسان العرب، «محق»).
[٤] ش ك: التقريع.
[٥] الآية ١٤٠ من هذه السورة.
[٦] من الآية السابقة.
[٧] الآية ١٤٠ من هذه السورة.
[٨] ر: ما يعمل.

منتظرين له من قبل أن تلقوه، أي مهما[1] قد رأيتموه. وهذا كقوله: لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ[2] بمعنى لتولوا معرضين.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾

[٨١ظ] / وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل. أفإين مات أو قتل انقلبتم علىٰ أعقٰبكم، عن دين الله. ومن ينقلب علىٰ عقبيه فلن يضر الله شيئا. وقوله: وسيجزى الله الشٰكرين، بعد قوله عن النبي: أفإن مات أو قتل، يدل على الشاكرين في الضرّاء. لأنه لا ضراءَ أعظمُ من قتل النبي[3] أو موتِه. ويلزم من ذلك أن يكونوا شاكرين على السرّاء. فكرره بعده في آخر الآية الثانية. ولمّا قدّم في الأولى، فلن يضر الله، قال[4] بعده: وسيجزى الله الشاكرين. ولما قال في الثانية: نُؤۡتِهِۦ، قال: وَسَنَجۡزِي.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥﴾

وثواب الدنيا ههنا في موضع مدح، وليس كقوله: وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا،[5] فذلك ذم. وقد بيّن هذا بعدُ بقوله: فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا.[6] فافهمه. والمراد أن ثواب الدنيا والآخرة عندنا، والجزاء في الدنيا والآخرة على الشكر إنما هو عندنا.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾

وكأين، أصلها أيّ دخلت عليها كافُ التشبيهِ مثل كذا وكذلك أصلها ذا وذلك، ومثله أنّ وكأن. والنون في "أَيِّن"، هو التنوين أُثبتَ في الخط على غير قياس، فكأنه قال: ومَثَلُ أَيٍّ مَن قاتل مِن كل نبي. ويتضح لك المعنى إذا فهمتها بمعنى كَمْ،

---

[1] ش: أي فما.

[2] ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ (سورة الأنفال، ٨/٢٣).

[3] ك: نبي.

[4] ش: قاله.

[5] ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ (سورة الشورى، ٤٢/٢٠).

[6] الآية ١٤٨ من هذه السورة.

لأنها أيٍّ دخل عليها كافُ التشبيه، فحدث لها بعد ذلك معنى "كم" فيكون المعنى وكم، من نبيّ قُتل، يَحسن الوقف ههنا لأن الكلام الأول[١] تَقدَّم في قتل النبي لا قتلِ مَن معه. وتقديره وكان، معه ربيون، وربّانون وربّانيون[٢] بمعنى واحد. وقوله: كثيرٌ، أي مع كثرتهم ما وهن منهم أحد، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا، عن لقاء عدوهم، وما استكانوا، لعدوهم لعجزهم عنه. وقيل: حقيقة اللفظة "كَانَ"، فهي بمعنى استفعل اللازم، أي أراد كونا فكان على مراد عدوه منه. والمسكنة قد ذكرناها.[٣] وهذا الكلام يُفهَم منه أن المؤمن لا يغيّره موتُ أبيه أو موت شيخه عن جهاد نفسه[٤] واتباعِ أمر ربه. فافهم، ولا تَهِنْ ولا تَضْعُف. والله يحب الصّٰبرين.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

وما كان قولهم، أي حين قُتل نبيهم، إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا، إشارة إلى اعتقادهم أن ما أصابهم إنما كان بذنوبهم وإسرافِهم. ولهذا يجب تقديم التوبة والاستغفار على طلب النصرة. وتلخيص معنى الآية أن الله أدّب المؤمنين فقال: كم من نبى قاتل، فاستمر أصحابه على محاربة عدوهم من غير تغير عما كانوا عليه مع العدو في حياة نبيهم، بل سألوا المغفرة لذنوبهم والثباتَ فقالوا: وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكٰفرين.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

فئاتٰهم الله ثواب الدنيا، كالنصر وغيرِه مما هو مطلوب في الدنيا. وحُسْن ثواب الآخرة، إشارة إلى ثواب له حُسْنٌ. وهذا كقوله في أول السورة: وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ،[٥] وكقوله في آخر السورة: ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ.[٦] وأضاف الحُسْن إلى الثواب على طريق المدح والاستعارة كما تقول: اللهم إني أعوذ بك من قبح الذنب وأسألك حسن المغفرة، أي مغفرة حسنة. والله يحب المحسنين.

---

١ أي في الآية ١٤٤.

٢ ش ر – وربانيون.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (سورة البقرة، ٦١/٢).

٤ ش – نفسه، صح هـ.

٥ الآية ١٤ من هذه السورة.

٦ الآية ١٩٥ من هذه السورة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾

يٰأيها الذين ءامنوا إن تطيعوا الذين كفروا، هؤلاء هم المنافقون الذين قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ،[1] **يردوكم على أعقٰبكم**، إلى الكفر، **فتنقلبوا خٰسرين**. ليس المراد إن أطعتموهم في الكفر كفرتم، فهذا ظاهر،[2] بل فيما أرادوه[3] منكم من مخالطتهم وانقلابهم. وهذا كقوله: إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا،[4] لكنه هناك خاص بالفريق وهنا عام. وإنما عبر بالعبارتين وكرّر لأن في أحدهما / أتى بالنهي مطلقا. ولما بين أحوال المنهي [٨٢و]
عن طاعتهم ونبّه على فساد طريقتهم وإرادتهم الشرَّ بالمسلمين أعاد النهي مصرِّحا، وهذه طريقة تَسلكها الوُعّاظُ المَهَرَةُ، إذ نهيُ الإنسان عما لا يعرف قبحه إغراءٌ بفعله. فحق الواعظ أن يَتوصل أولا إلى كشف قبحِه ثم ينهى عنه. والإشارة ههنا بالذين كفروا هي إلى[5] مَن انقلب على عَقِبَيْه من المؤمنين فلم ينصرهم، فقال الله: لا تطيعوا هؤلاء المنقلبين فليس الانتصار بهم. فإن أطعتموهم، **يردوكم على أعقٰبكم فتنقلبوا خٰسرين. بل الله مولٰكم وهو خير النٰصرين**.

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾

سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطٰنا، أي برهانا يتسلط به المُحِقّ على المبطل. **ومأوٰهم النار وبـئس مثوى الظٰلمين**.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٥٢﴾

ولقد صدقكم الله وعده، هو من قوله: وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ،[6] فكان قد وعدهم بالنصر. ثم أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقعود في مواضع

---

١ الآية ١٦٧ من هذه السورة.
٢ ك + بل.
٣ ر ك: فيما أراده.
٤ الآية ١٠٠ من هذه السورة.
٥ ر – إلى.
٦ سورة الأنفال، ٧/٨.

ومقاعدَ للقتال مخصَّصةٍ. فتنازعوا بعد ما فَشِلوا وعصوا أمر الرسول بترك مقاعدهم، وأرادوا أن يقيم لهم الله بالوعد مع عصيان الأمر، وذلك لا يكون. وكان في أول اللقاء قد نُصر المؤمنون إلى أن تنازعوا فزالوا عن مقاعدهم فزال النصرُ. لهذا قال: حتى، يعني صدقكم الله النصرَ الذي وعدكم به إلى أن فَشِلتم. وقوله: إذ تَحُسّونهم بإذنه، يقال: حسّه إذا أبطل[1] حواسّه، أي شيئًا[2] منها، ورآه[3] إذا أصابه في رِئتِه، وذَكَرَه إذا قطع منه الذَّكَرَ.[4] ومنه قول الشاعر:

ذكـرتُ أبـا عـمـرو فـمـات مكـانَـه ... فيا عجبا هل يَهلك المرءُ مِنْ ذِكْر،[5]
وزرتُ عليا بعـــده فرأيتُــه ... فـفـارق دنيـاه ومـات علـى صبر.

وقوله: حتىٰ إذا فشلتم وتنٰزعتم فى الأمر، أي الأمر الذي أنتم بصدَدِه، والأمر ههنا بمعنى الشيء. وعصيتم، أمرَ الرسول بمفارقة المَقاعد، من بعد ما أرىٰكم، أوّلا، ما تحبون، من النصر عِيانا، لكنه أزال النصر بزوالكم عن الأمر. ثم علّل زوالهم فذكر سببه بقوله: منكم من يريد الدنيا، بطلب الغنيمة، ومنكم من يريد الآخرة، فاجتمعتم على مفارقة المقاعد وطلبتم العدوَّ. ثم صرفكم، اللهُ جملةً، عنهم، عن الكفار، ليبتليكم، بما جرى عليكم من الكَسْرَة فيَظهر ما في صدوركم من الإيمان وهل يغيّره ما جرى؟ وهذا الابتلاء ههنا وإن كان مطلقا في جملة حياتهم الدنيا، فمُخَصَّصُه ما ذكرناه. ولقد عفا عنكم، أي إذ لم يستأصلكم. لأن الفرار من الزحف[6] أحدُ الكبائر.[7] والله ذو فضل على المؤمنين، والعفو كان.

﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

إذ تُصعدون، منهزمين، وكأنه في المعنى منْ إثارة الصعيد[8] في الصُعود عند الهزيمة، لأن الإصعاد في الصعود وضدّه الإفاضة في الهبوط. ولا تلوۥن علىٰ أحد.

[1] جميع النسخ: بطل.
[2] ش ك: أي وأشياء.
[3] ش: وأراه.
[4] ر - الذكر، صح هـ.
[5] جميع النسخ: بالذكر. والتصحيح من درة الغواص في أوهام الخواص، ص ١٩٩.
[6] الزحف: الجهاد، ولقاء العدوّ في الحرب (تاج العروس للزبيدي «زحف»).
[7] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «من جاء يعبد الله ولا يشرك به شيئا ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويجتنب الكبائر كان له الجنة. فسألوه عن الكبائر، فقال: الإشراك بالله، وقتل النفس المسلمة، والفرار يوم الزحف» (مسند أحمد بن حنبل، ٣٦٢/٢، ٤١٣/٥-٤١٤؛ وسنن النسائي، تحريم الدم ٣).
[8] الصعيد: التراب ذو غبار (لسان العرب، «صعد»).

وقوله: **والرسول يدعوكم فى أخرٰكم**، يقال: جئت في آخر الناس وأخراهم، كما تقول: أوّلهم وأُولاهم. وكونه عليه السلام كان في آخرهم عند هزيمة المؤمنين دليل على أنه كان في أولهم عند اللقاء. وقوله: **فأثٰبكم غما بغم**، أي جزاكم غما حصل عندكم من أجل الكَسْرة بسبب غمّ غممتم به رسولَ الله صلى الله عليه وسلم. إذ خالفتموه. وقوله: **لكيلا تحزنوا علىٰ ما فاتكم**، من النصرة، **ولا ما أصٰبكم**، من الكَسْرَة، يعني بعد ذلك، أي ليكون هذا المصاب رادعا لكم عن مثله. فافهم جيدا. فالجميع تسليةٌ وتعزية ومنٌّ وتبيين لنعمه تعالى وعفوه سبحانه. ولفظة الثواب ههنا من الجزاء، كقوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾[1] أي جزاءً. وقوله: **لكيلا تحزنوا**، أي فيما بعدُ وذلك تشبيها بهذه الواقعة التي بان لهم فيها أنه إنما حصل لهم الغم بالكسرة بسبب الغم الذي غم[2] النبي صلى الله عليه وسلم بالمخالفة. / فكان الغم بالكَسْرة لهم جزاءً على الغم[3] منهم للرسول صلى الله عليه وسلم. وهذا مع عفو الله. ولا شك أنهم لو[4] لم يخالفوا الرسولَ لَمَا أصابتهم هزيمة ولا فاتتهم غنيمة. ولكل عملٍ جزاءٌ فلا يجوز للعاقل أن يَحزن على ما أصابه من الجزاء على عمله بل يحزن على نفسه، إذ عمل ما استحق به ذلك الجزاء[5] مع تمكينه من أنه لا يعمل. وتلخيصه أننا إنما جزيناكم بالغم ليكون الجزاء رادعا لكم في المستقبل عن فعل يضاهي ما فعلتموه الآن. فيكون الجزاء منا الآن بالغم سببا لنفيه عنكم في المستقبل إن قبلتم. **والله خبير بما تعملون**، فيجازيكم عليه. [٨٢ظ]

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

---

١ ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (سورة المائدة، ٦٠/٥).

٢ ر: الذي غموا.

٣ ك – بالكسرة بسبب الغم الذي غم النبي صلى الله عليه وسلم بالمخالفة فكان الغم بالكسرة لهم جزاء على الغم، صح هـ.

٤ ر – لو، صح هـ.

٥ ش – على عمله بل يحزن على نفسه إذ عمل ما استحق به ذلك الجزاء صح هـ.

وقال بعد ذلك من باب المنِّ والتسلية للمؤمنين: **ثم أنزل عليكم من بعد الغم**، بالكَسْرة وهو ما جازاكم به، **أمنة**، تُؤَمِّنكم مما حصل من الخوف، وهو منصوب على الحال، أي أنزل،[١] **نعاسا**، وهو يُنسي الغمَّ والخوفَ. **يغشىٰ طائفة منكم**. والواو في "وطائفة" واو الحال، ولا تَمنع معنويةَ الابتداء ولا ينعكس [الابتداء]. وقوله: **قد أهمتهم**، من الهمّ، **أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجٰهلية**. وبيّن ما هو ليحذّر مثلَه، فقال: **يقولون**، منكرين على الرسول صلى الله عليه وسلم معتقدين الإجبار فيما بدا[٢] منهم من المخالفة التي أوجبت الكسرةَ. فقالوا: **هل لنا من الأمر من شيء**. فأجابهم الله بما هو في صدور المؤمنين هدًى، وهو على هؤلاء وأمثالهم عمًى وهو المتشابه. فقال: **قل إن الأمر كله لله**، فهذا هو المتشابه. وبعد هذه الآية يأتي المحكم بقوله: إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ،[٣] فافهم الجميع جيدا، فقد تكرر مثله. وقرأ أبو عمرو وحده "إن الأمر كله" بضم اللام.[٤] والوجه فيه أنه نقيض "بعض"، كما يجوز أن تقول: إن الأمر بعضُه لزيد، تجعل مكان بعضِه كلَّه. ثم بين الله شبهتهم لتتحقق عقيدتهم الفاسدة وأنها عين الجبر، وذلك بقوله عنهم: **يُخْفُون فى أنفسهم ما لا يُبْدُون لك**، فبينه الله له بقوله: **يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا هٰهنا**، يشيرون إلى من قُتل في تلك الواقعة. فقال الله تعالى: **قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين**، اسم الفاعل،[٥] **كتب عليهم القتل إلىٰ مضاجعهم**، المعنى لبرز الذين كُتب عليهم القتلُ من بيوتهم إلى مضاجعهم التي قُتلوا فيها. **وليبتلى الله ما فى صدوركم**، أي من الإيمان وغيره؛ وهو معطوف هو وما بعده على قوله: لِكَيْلَا تَحْزَنُواْ،[٦] وليبتلى، **وليمحص ما فى قلوبكم**، مما أخفيتم. **والله عليم بذات**، بصاحبة، **الصدور**.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾

ثم بين بالآية[٧] المحكمةِ ما تقدم من المتشابه جوابا لسؤالهم وإعلاما أن جميع ما جرى عليهم هو بكسبهم فقال: **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطٰن**

---

١ ك - أي أنزل، صح هـ.
٢ ش: فيما بدأ؛ ك: فيما بدء.
٣ من الآية التالية.
٤ إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٢٣٠.
٥ أي كلمة "الذين" وما بعده فاعل "لبرز".
٦ من الآية السابقة.
٧ ر: الآية.

ببعض ما كسبوا، قبل التولي، ولم يقل: استزلهم ولم يقنع بذكر الشيطان إلى أن بيّن لهم أن ذلك لم يكن أيضا من الشيطان ابتداءً بل جزاءً، وأنه ببعض كسبهم. وإذا كان الشيطان لا يبتدئ بالشر فكيف يجوز أن يُنسب إلى الرحمن أنه هو الذي يبتدئ بالشر، فهذا ظن الجاهلية وهو غير الحق.

ومن علم أن جميع ما في العالم ينقسم إلى قسمين: خير وشر، وأن العبد يفعل الخير ابتداء وجزاء، ويفعل الشر ابتداء وجزاء، وأن الله تعالى يفعل الخير ابتداء وجزاء ولا يفعل الشر إلا جزاء لا غير، فمن علم هذا الأصل الأصيل انحل عنه كلُّ إشكال. وجميع ما في كتب الله تعالى شاهد بذلك.

وقوله، استزلهم، من الزلة. والذنبُ يجرّ الذنبَ. فلما أذنبوا مِن قبلُ تولوا مِن بعد. ولقد عفا الله عنهم، إذ لم يؤاخذْهم بكل ما كسبوا بل ببعضه. ولقد صرح نصُّ القرآن بقوله: مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ[1] ولم يأت في كتاب الله أن الله يبدأ بشرّ، بل سائرُ ما أتى فيه هو بضد ذلك. إن الله غفور حليم. ومن عارض بقوله: وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ،[2] فقد بينا أن ذلك / هو محض الخير، فافهم ذلك عند قوله تعالى: وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ.[3] [٨٣و]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦﴾

يٰأيها الذين ءامنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوٰنهم إذا ضربوا فى الأرض، وهو السفر، وتقديره فماتوا، ولم يعين المقدّر لجواز وقوع الموت في الغزاة والقتلِ في السفر فقال: أو كانوا غزى، أي فقُتلوا، وهو جمع مثل غُزاة وهو على وزن قُوَّل من "قائل"، لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا. ليجعل، لام العاقبة، الله ذٰلك حسرة فى قلوبهم والله يحيۦ ويميت والله بما تعملون بصير.

﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ١٥٧﴾

ولئن قُتلتم فى سبيل الله أو متم، في سبيله، لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون، في الحياة الدنيا.

---

١ ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ (سورة النساء، ١٢٣/٤).

٢ سورة الأنبياء، ٣٥/٢١.

٣ سورة الذاريات، ٥٦/٥١.

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

ويجب أن تَفهم حكمةَ تكرار الموت[١] والقتل، والتقديم والتأخير.[٢] فقوله: وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ، يريد [به] الجهاد. وقدم ذكر القتل فيه لأنه الغالب وقوعا، ثم قال: أَوْ مُتُّمْ،[٣] أي في الجهاد، وهو أقل وقوعا. ثم قال بواو الحال: ولئن متم، وتمامه. والمعنى أن القتل والموت في الجهاد خيرٌ من الموت أو القتل في غيره، لأن ذلك لصاحبه مغفرةٌ ورحمة وليستا للآخر. وإذا كان الحشر إلى الله لا بد منه على كل تقدير فالمغفرة والرحمة من الله خير مما يجمعون من الدنيا. والحالة هذه أعني الحشر، فافهمه جيدا متأنيا.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾

وقوله: فبما، قال الحسين بن علي المغربي:[٤] عندي أن "ما" بمعنى أيّ.[٥] وتقديره فبأيّ، رحمة من الله لنت لهم. وهذا الكلام هو بصورة الاستعظام كما تقول: فلان رجل وأيُّ رجلٍ. ولو كنت فظا غليظ القلب، والفظّ هو الجافي في الكلام، والغليظُ القلبِ هو الذي لا يَرِقّ لأحد وإن كان لا يؤذي أحدا. لانفضوا من حولك فاعف عنهم، مما[٦] ظهر، واستغفر لهم، فيما يُظن، والكلام عام بعد التخصيص. وشاورهم في الأمر، الذي ليس لك فيه وحي من أمور الحرب رفعا لقدرهم[٧] ومحوًا لما بدا[٨] منهم، وهو رتبة بعد العفو. وهذا فيه من التعليم للأمة مّا لا خفاء به. فإذا عزمت، على فعل أمر ما، فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

---

١ ش: تكرار حكمة الموت.

٢ أي بين ﴿قُتِلْتُمْ... أَوْ مُتُّمْ﴾ في الآية الأولى وبين ﴿مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ في الآية الثانية.

٣ من الآية السابقة.

٤ لم يتبين لي من هو.

٥ لم أعثر على هذا الرأي فيما بين يدي من المصادر.

٦ ر: فيما.

٧ ر: لدرهم.

٨ ش: لما بدأ.

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾

وما كان لنبى أن يغل، من الغُلول، وليس من الغِلّ في القلب. **ومن يغلل**، باطنا أو ظاهرا،[1] **يأت بما غل يوم القيٰمة. ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون.** الواو في "ومن يغلل" واو الحال، وهو[2] تنزيه لسائر الأنبياء، أي ليس لنبي أن يغل. وقد علم أنه[3] من يغلّ فإنه يأتي يوم القيامة ومعه ما غلّه. ولهذا بعده: **أفمن اتبع رضوٰن الله كمن باء بسخط من الله ومأوٰه جهنم وبئس المصير.**

﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

هم درجٰت عند الله، جاء على صورة التمثيل. يقال: خذ الأمر على تدريج، أي أولا فأولا؛ كما تقول: هم أسد، تمثيلا لهم في الإقدام والشجاعة مع إفراط في إلحاق الصفة بالموصوف حتى كأنه هو. وهذا يشير إلى تفاوت منازل[4] المُثابين والمعاقَبين كتفاوت الدرجات. فسماهم لتفاوتهم في ذلك درجاتٍ، فسمى المتمكِّن باسم المكان. وإذا غلب الوصف عند العرب أُسقط الموصوفُ في الذكر وأقيم الوصفُ مقامَه كقوله: وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ،[5] أي كالهواء. **والله بصير بما يعملون.**

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾

ولما برّأه الله من الغُلول وبرأ سائرَ الأنبياء مما ظن الجهالُ قال ما معناه: إني[6] لأكتفي بإعلامكم ذلك بل، **لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم ءايٰته ويزكيهم ويعلمهم الكتٰب**، القرآن، **والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلٰل مبين.**

---

١ ش ك: وظاهرا.
٢ ش ك: فهو.
٣ ر: علم أن.
٤ ر – منازل، صح هـ.
٥ ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/٤٣).
٦ ر: إنني.

والمعنى في نظم هذه الآية بما بعدها أنهم لمّا نسبوه[١] إلى الغلول[٢] حَكى عنهم شبهة أخرى حين أصابهم مصيبةُ الانهزام فأرادوا أن / ينسبوها إليه. فتلا هذه الآية بقوله: [٨٣ظ] أولما. والألف في أولما للاستفهام، والواو بعدها لعطف الجملة التي أولها الاستفهام على ما قبلها، كقول القائل: تكلم فلانٌ بكذا؛ فتقول: مجيبا له أَوَ هو[٣] ممن يتكلم بكذا. وانضاف إلى ما قلناه أنه تمم الكلامَ الأول الذي هو خطاب المؤمنين وهو قوله: وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ[٤] لتزول شبهةُ الجبر من الأنفس بكلام محكم لا دافعَ له. فنسق على ذلك قولَه ههنا: أولما أصٰبتكم مصيبة قد أصبتم مثلَيْها قلتم أنىٰ، من أين، هٰذا. قل هو من عند أنفسكم إن الله علىٰ كل شيء قدير. ذكر القدرة ههنا بمعنى أنه ليس ما أصابكم من الهزيمة لِخلل في قدرته أو لعجزٍ عن القيام بالوعد بل لشُؤم معصيتكم.[٥]

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٦٦ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ۝١٦٧﴾

وكذلك قوله: وما أصٰبكم، أي وكل شيء، أصٰبكم يوم التقى الجمعان، إذ استزلكم الشيطان، فبإذن الله، أصابكم من عند أنفسكم أيضا. لأن الأول بإذن الله، أعني ما قبل هذه الآية. فحذف الإذنَ أولا ليزول الاشتباه من الآية الأولى ويَثبت أنه من عند أنفسكم،[٦] وأثبت الإذن في الثاني ليزول الاشتباه الذي قد يقع من قوله: قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ،[٧] لأن هذا يبين أنه بأمره وقعت عليكم الكَسْرةُ وبإذنه، وذلك الشر بعلمه[٨] كان، لكنه جزاء على ما جئتم به من المعصية فهو من عند أنفسكم. ويجب أن نتأمل[٩] في هذه الآية لطيفةً في زيادة حرف فيها، وهي كون الإذن جاء بالفاء التي هي فاء التعقيب، فهي عقيب[١٠] الثاني المُظْهَرِ على الأول المضمر، فافهم فائدتها. ثم عطف بقية الآية على ما تقدم وهو قوله: وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ.[١١] وقد بيّنّا أن تلك منسوقة بقوله من قبل:

[١] أي النبي عليه السلام.
[٢] ر: الغلو.
[٣] ر – هو، صح هـ.
[٤] الآية ١٥٢ من هذه السورة.
[٥] ر: مصيبتكم.
[٦] ش ك: عند أنفسهم.
[٧] الآية ١٥٤ من هذه السورة.
[٨] ر: يعمله.
[٩] ك: أن تتأمل.
[١٠] ر: فهي عقبت.
[١١] الآية ١٥٤ من هذه السورة.

لِكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ.[1] وكما قلنا: إن المنسوق على [قوله:] لِكَيْلَا، وَلِيَبْتَلِيَ، وَلِيُمَحِّصَ. فكذلك المنسوق[2] على وَلِيُمَحِّصَ ما ذكره ههنا، وهو[3] قوله: وليعلم المؤمنين، أي جرى ذلك كله لكيت وكيت وليعلم الله المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا. ومعنى [قوله:] ليعلم، ليكون عندكم عالما إذا ظهر نفاقُ المنافقين. وقيل لهم تعالوا قٰتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا، عن أنفسكم أو قومكم إن لم يكن عن الإسلام. قالوا لو نعلم قتالا لاتبعنٰكم. هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمٰن، اللام بمعنى إلى. يقولون بأفوٰههم ما ليس فى قلوبهم. والله أعلم بما يكتمون.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾

الذين قالوا لإخوٰنهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا، مَثْنى هذه الآية لَوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ.[4] واعلم أن كل كلام يحتاج إلى تبيين فله في القرآن مَثْنَى مِثلَه، هو أمّه يبينه ويزيدنا معنًى آخرَ. فافهم كلا في موضعه وإن لم أُنبِّهْ عليه خوفَ التطويل. قل فادرءوا، فادفعوا، عن أنفسكم الموت إن كنتم صٰدقين.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١٧٠﴾

ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أموٰتا بل أحياء عند ربهم، كما تقول: هذا عند أبي حنيفة صحيح، أي في علمه ونظره، يرزقون، فرحين بما ءاتٰهم الله من فضله ويستبشرون، يشير إلى الذين قُتلوا في تلك الوقعة[5] صبرا وإن كان الكلام مطلقا أيضا؛ بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٧١﴾

---

١ الآية ١٥٣ من هذه السورة.

٢ ش – لكيلا وليبتلى وليمحص فكذلك المنسوق، صح هـ.

٣ ك – هو.

٤ الآية ١٥٦ من هذه السورة.

٥ انظر لمعرفة المزيد: زاد المسير لأبي الفرج ابن الجوزي، ٤٩٩/١-٥٠٠.

يستبشرون بنعمة، تكرار البِشارة الأول بالذين لم يلحقوا بهم في الشهادة، والثاني بما لأنفسهم من النعمة، من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ١٧٢﴾

ثم عرّفنا بهؤلاء المذكورين فقال: الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا، مطلقا، منهم واتقوا أجر عظيم.

واعلم أن العلم حياة النفس الناطقة والجهلَ موتُها. فقوله: بَلۡ أَحۡيَآءٌ، يريد أنهم يترقَّون في المعارف الباقية. ولهذا لم يقل: إحياء الأجساد لأن تلك معبَّر عنها بالقتل. ولهذا قال: يُرۡزَقُونَ،[1] ولم يقل: يأكلون ويشربون. وحقيقة الحياة في الدنيا هي الترقي في المعارف / بلا شك. وهي المعارف التي تؤدي إلى البقاء بالله سبحانه وإلا فهي [٨٤و] حياة الحيوان غيرِ الناطق. فالشهداء لهم هذا الترقي من حين مفارقة الجسد. والشهادة ليست[2] بالسيف فقط. وأما قوله: للذين أحسنوا، فهو يعم الدخولَ تحت الأوامر. وقوله:[3] واتقوا، يعم الخروجَ عن النواهي.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾

ثم زادهم وصفا آخرَ للتعريف والتعليم فقال: الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمٰنا، أي ذلك التحذيرُ. وقالوا حسبنا الله، أي هو يكفينا.[4] ونعم الوكيل.

﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾

فانقلبوا، إلى قومهم، بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوٰن الله والله ذو فضل عظيم. وقد علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذه الكَسْرة أخرجهم

[1] الآية ١٦٩ من هذه السورة.
[2] جميع النسخ: والشهداء ليس.
[3] ك - وقوله، صح هـ.
[4] ش - أي هو يكفينا، صح هـ.

إلى قتال آخر، فأطاعوه مع قلتهم. وكان [مَن] قُتل منهم و[من] هَرب منهم، وخوّفهم من العودة بعضُ المنافقين. فمدح الله من قُتل ثم من[1] استجاب له ونهاه أن يطيع المخوِّفين وذم المخوَّفين وسماهم أولياء الشيطان فقال: **إنما ذٰلكم الشيطٰن يخوف أولياءه**، أي بأوليائه. وهو مثل قوله: لِّيُنذِرَ بَأۡسًا،[2] أي ببأس. ولهذا لم يقل ههنا بعده: فلا تخافوه بل،[3] **فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين.**

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦﴾

ولا يحزنك الذين يسٰرعون فى الكفر، أي في العودة إلى الكفر بعد الإيمان. **إنهم لن يضروا الله شيئا**، بكفرهم. **يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة ولهم عذاب عظيم.** قيل: الفرق بين العجلة والسرعة أن السرعة هي أن لا تترك الأمرَ بتأخر عن وقته، والعجلةَ أن تُقدمه على وقته.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٧ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨﴾

إن الذين اشتروا الكفر بالإيمٰن لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم. المشار إليهم ههنا بالآية الأولى منافقون لقوله في المائدة: لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡ، ثم قال:[4] وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ.[5] وكذلك ههنا أتبع ذكر المنافقين بذكر اليهود في الآية الثانية، لأنه كقوله: أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ،[6] ومثل ذلك كثير. وهذا التخصيص مفهوم بعد الإطلاق. فبيَّن أولا بقوله عنهم: لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا،[7] حال المنافقين مع بقائهم على الإسلام ظاهرا، وبقوله: يُسَٰرِعُونَ،[8]

---

١ ر ك – من.

٢ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ﴾ (سورة الكهف، ١٨/١-٢).

٣ ر – بأوليائه وهو مثل قوله... ولهذا لم يقل ههنا بعده فلا تخافوه بل، صح هـ.

٤ ك – ثم قال، صح هـ.

٥ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ (سورة المائدة، ٥/٤١).

٦ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٦).

٧ الآية ١٦٧ من هذه السورة.

٨ من الآية السابقة.

عن المنافقين الذين ارتدّوا، وبقوله: اشتروا الكفر، من لم يسلم. فهذه رُتَب ثلاثةٍ يقتضيها العقل وتَلزم في القسمة.

ثم قال: ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

ما كان الله ليذر المؤمنين، بغير امتحان، علىٰ ما أنتم عليه. والمراد أن الخطاب للمؤمنين وما هم عليه من الهدى. فهو كقوله: أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ.[١] حتىٰ يَمِيزَ الخبيثَ من الطيب، أي إلى أن يميز الكافر من المؤمن بالوقائع والحروب المُظهِرة لنفاق المنافق وارتدادِ المرتدِّ. والامتحان بالشدائد عظيم النفع كما قيل:

وما السيف إلا زُبْرةٌ لو تركتَها على الحالة الأولى لما كان يقطع.[٢]

وما كان الله ليطلعكم على الغيب، أي حتى إنكم تَعلمون المنافقين. ولٰكن الله يجتبى من رسله من يشاء، فيُطلعهم على ما يشاء بالوحي. فئامنوا بالله ورسله، فيما يُخبرون به ويأمرون. وإن تؤمنوا وتتقوا، مخالفتَهم، فلكم أجر عظيم.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

ولا يحسبن الذين يبخلون بما ءاتنهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم، أي هو بعينه. سيطوقون ما بخلوا به يوم القيٰمة، أي يصير لهم طَوْقا يَمنع عن الالتفات إلى نعيم الآخرة، لأن الذي بَخِلوا به في الدنيا كان قد منعهم عن الالتفات إلى[٣] الخيرات

---

[١] سورة العنكبوت، ٢/٢٩.

[٢] هذا البيت لأبي تمام. انظر: التمثيل والمحاضرة للثعالبي، ص ٢٩٠.

[٣] ش – نعيم الآخرة لأن الذي بخلوا به في الدنيا كان قد منعهم عن الالتفات إلى، صح هـ.

والعملِ بها لشدة التفاتهم إليه، فكانوا في الآخرة كذلك. ولله ميرٰث السمٰوٰت والأرض. والله بما تعملون خبير.

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾

لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير، أي بزَعْمك وبلازم ما طلبته[1] من أموالهم. ونحن أغنياء، أي حين قال: وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ[2] وأمثاله، لأنهم قالوا: إذا كان الله يقدر أن يعطي ما / شاء لمن يشاء فما بالُه يطلب له من أموالنا؟ وهذا كقول أمثالهم: [٨٤ظ] أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥ.[3] فلم يفقهوا أن عائد ذلك عليهم وأن الفقراء نعمة على الأغنياء ورحمة. وهذا أشبه بكلام اليهود. ولهذا بعده: سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

فإن كذبوك، وفي سورة الملائكة: وَإِن يُكَذِّبُوكَ.[4] والمعنى[5] أن الكلام ههنا عن الماضي والإخبار عن الرسل أنهم نُسبوا إلى الكَذِب، وفي سورة الملائكة جاء الكلام عن المستقبل والإخبار عن الأمم أنهم كذبوا الرسل، فافهمها جيدا. فذلك من أبلغ ما تَحصل به التسليةُ، أي مثلُك كذِّب ومثلهم كُذِّبوا، فقد كذب رسل من قبلك جاءو بالبينٰت والزبر والكتٰب المنير، التوراة والإنجيل، لقوله: وَكُذِّبَ مُوسَىٰ.[6] والزبر بفتح الباء القطع.

[1] ر: بزعمك وبما طلبته.

[2] ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (سورة المزمل، ٢٠/٧٣).

[3] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ (سورة يس، ٤٧/٣٦).

[4] ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ (سورة الملائكة / فاطر، ٤/٣٥).

[5] ش: المعنى.

[6] ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ (سورة الحج، ٤٤/٢٢).

وأما بالضم كما ههنا[١] فهي الزواجر. يقال: زبره أي[٢] زجره، ومعناها عائد على القطع، أي قطعه بالزجر عن ذلك الأمر. لكنّ تسميةَ الزُّبُر بالزواجر أولى وكذلك الزبور. ولهذا لم يقل: والزبر بالفتح بل بضم الباء. ولما أراد زبر الحديد[٣] ذكر الحديد ولم يكتف بلفظ الزبر، وذكر الباء مفتوحة، فههنا هي الزواجر.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾

ثم لمّا خوّفهم ووعظهم بذكر المكذبين ذكرهم بالموت الذي هو من أكبر العِظات، فقال: **كل نفس ذائقة الموت**، يدل على أن النفس لا تموت لأنها حالَ الموت ذائقة له.[٤] فلا بد أن يكون الذائق موجودا حالَ حصول الذوق. وضروب الموت مختصة بالحياة الجسمانية، وذلك يعم الشهيدَ وغيرَه.[٥] وأما قوله: وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ،[٦] فالمراد أن تموت عن جسدها؛ لأن الموت في العرف هو موت الجسد، وإنما عبّر بالنفس ليعم الذكرَ والأنثى؛ ومثله إِنَّكَ مَيِّتٌ،[٧] أي عن جسدك. **وإنما تُوَفّون أجورَكم يوم القيٰمة**، أي وافيةً. **فمن زُحْزِح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز**. ثم بين لنا أن ذلك الموت الذي تذوقه كلُّ نفس إنما هو موت الجسد عن الحياة الدنيا فقال: **وما الحيوٰة الدنيا إلا متٰع الغرور**؛ استعار المتاعَ للغرور كقوله: مَكْرُ ٱلَّيْلِ،[٨] وهذا ههنا هو لذة تغرُّ المتمتّع بها حين التمتع. وعرّفنا إِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ،[٩] وفيها يكون الشهداء أحياء بصورة يعلمها الله تعالى، وهو أصدق القائلين.[١٠] ولهذا قال: بَلْ أَحْيَآءٌ، ثم أتبعها بقوله: عِندَ رَبِّهِمْ،[١١] وإن كانوا عندكم أمواتا. والكلام ههنا منسوق في المعنى بقوله:

---

[١] ر: كما هنا.

[٢] ر: زبره إذا.

[٣] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ (سورة الكهف، ٩٦/١٨).

[٤] ر – له.

[٥] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ (سورة البقرة، ١٥٤/٢).

[٦] الآية ١٤٥ من هذه السورة.

[٧] ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ (سورة الزمر، ٣٠/٣٩).

[٨] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ (سورة سبأ، ٣٣/٣٤).

[٩] ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة العنكبوت، ٦٤/٢٩).

[١٠] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ (سورة النساء، ١٢٢/٤).

[١١] الآية ١٦٩ من هذه السورة. | ر + أي.

قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ.[1] فقال: كل نفس ذائقة الموت. وأما قوله: إِنَّكَ مَيِّتٌ،[2] أي فيما سيأتي.

﴿۞ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾

ثم قال: لتبلون فى أمولكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا. وهذا كقوله: وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ،[3] وتمامِه؛ غير أن تلك البلوى من الله وهذه من الله بيد الناس. وإن تصبروا وتتقوا، وقوله في آخر الآية: فإن ذلك من عزم الأمور، أي من الأمور التي بان للعاقل منها الرشدُ والهدى فوجب أن يَعزِم عليها.

[حكمة ابتلاء العبد]

ولما كان الابتلاء وجميع ما يجري على المؤمن إما أن يكتب اللهُ له بالصبر عليه حسنة أو يمحوَ الله به عنه سيئة عاد الجميع في حق المؤمن خاصة إما توفيرا أو تكفيرا.[4] ويدخل في ذلك كلُّ مؤمن مِن وليّ ونبي ومُحسنٍ ومسيء. لكن يختص الابتلاء الذي هو للتوفير بالأنبياء، ويختص ما هو من الابتلاء الذي هو للتكفير بمن عداهم من بقية المؤمنين. كما سأل بعضُ المريدين سيدَه -وقد وقعت عليه / واقعةٌ عظيمةُ الخطرِ من [٨٥و] مَلِك الوقت، أعني وقعت على السيد فسأله المريد-: يا سيدي ما هذا أَمِن باب التوفير أو التكفير، فقال: أما الآنَ من حيث قد سألتني فلا بد أن أقول. ثم قال: اعلم يا بُنَيَّ أنك إن رأيتها أنت من باب التكفير هلكتَ، وإن رأيتها أنا من باب التوفير هلكتُ. وهذا من بابِ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ.[5] فقد لزم أن كل ما يصاب به المؤمنُ كائنا ما كان هو من باب التكفير الذي لا يكون إلا بما كسبتْ يداه، لقوله تعالى: إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ،[6] أي بالابتلاء بالوقائع. ولكن المرء

---

١ الآية ١٦٨ من هذه السورة.

٢ سورة الزمر، ٣٩/٣٠.

٣ ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٥٥).

٤ أي تكثير حسنات المؤمن أو تكفير سيآته.

٥ سورة النجم، ٥٣/٣٢.

٦ سورة النساء، ٤/٣١.

لا يَعلم تفصيلَ الوقائع الموجِبة لكل مصيبة جرت عليه فيقابِلها بما جرى منه، وقد يَظن في الخير شرا وبالضد. فلهذا عرّفه الله أنه يجب أن يَصبر على ما يُبتلى به وما يصيبه ويرجعَ إلى الله بالتوبة المحيطة بما يعلمه من نفسه وبما لا يعلمه، كقوله [عليه السلام]: «رَبِّ اغْفِرْ لي ما قدمتُ وما أخّرت وما أسْررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني».[1]

واعلم أن الابتلاء للتوفير هو يُشبه الابتلاءَ للتكفير، لأن العبد لمّا قصر عمله عن رتبة علية كفّر الله بالبلاء تقصيرَه ورفعه إلى تلك الرتبة. فالاختصاص منه تعالى لعبد بالبلاء هو اختصاص بالرحمة والنعمة. ومن تحقق ما قلناه علم أن مهما أصاب المصابَ فإنما هو بما كسبت يداه، وبان له أن المظلوم إنما هو مظلوم بالنسبة إلى الظالم. وأما هو في نفسه أعنى المظلوم فليس بمظلوم بل معفوٌّ عنه في كثير. وإنما أصابه ما أصابه من نفسه ببعض ما كسبت يداه، سواء كان ذلك بيد عباد الله أو بلا واسطة، بل من الله. وأما الظالم فلم يَظلم غيرَه، بل هو لِما كان السببَ في وقوع المصيبة على مستحقها من حيث لا يعلم أنه يستحقها ولم يقصد ظلْمَه عقابا ونيابة عن الله تعالى، بل كان ظلمُ الظالم تبعا للهوى، وكان المظلوم مستحقا لِما وقع عليه من الظالم. فالظالم متعدٍّ على أمر الله في نفسه لا في غيره، إذ ما وقع منه على غيره جاء في موضعه بإذن الله، فعاد الظالم هو المخطئ أو الخاطئَ فقط، وذلك لكونه خالف الأمر. وأما[2] المظلوم فإنه من قبلُ قد ظَلم نفسَه بما كسبت يداه، فوصل إليه مما كسبت يداه بيد ظالِمه بعضُ ما يستحقه. فوجب الصبر والاستغفار والعفو على المظلوم، ووجب امتثال الأمر والانتهاءُ عن الظلم على الظالم. وهذه عقيدة المؤمن، وهي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي التي بها أمر الله. وقد بينا كلا في موضعه. وحسبنا الله.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

وإنما أوجبتُ على نفسي بيانَ هذا ومثله لقوله[3] تعالى: وإذ أخذ الله ميثٰق الذين أوتوا الكتٰب لتبيننه للناس ولا تكتمونه. وقوله: فنبذوه وراء ظهورهم، بمعنى لم يتخذوه أمامهم، فأراد عكس الجهة التي كان يجب عليهم اتخاذُه بها دائما. والمعنى أنهم

[1] صحيح البخاري، التوحيد ٨، ٣٥، والتهجد ١؛ وصحيح مسلم، صلاة المسافرين ١٩٩، ٢٠١.

[2] ش: وأنا.

[3] ر: كقوله.

لم يعملوا بما فيه، إذ لو أن تاليا جعل القرآن أمامه وقرأ، كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟،[1] وهو قد أسرف في الأكل مثلا، فذلك الذي هو لم يقرأ ما هو قارئ، بل قد نبذ ما هو أمامه فجعله وراء ظهره. فإذا لم يعمل فكأنه[2] لم يعلم. وكذلك سائر الأقوال والأفعال في كل آنٍ وحالة يجب أن يكون [موافقا] للقرآن[3] فيكون القرآن هو الإمامَ. وهذا معنى قوله عليه السلام: «إذا أُنزل عليكم البلاءُ كقِطَع الليل المظلم فعليكم بالقرآن».[4] المراد أن أشد ما يكون من البلاء قد جعل الله للعبد منه مَخرجا، وأن ذلك المخرج هو في القرآن مبيَّنٌ، فليعتمدْه يَنْجُ. وليس المرادُ الاقتصارَ على تلاوته. وكذلك من يتفاءل بالفتح في القرآن، وإن جاز ذلك. فالأولى أنه ينظر قضيتَه في القرآن في أيّ موضع منه جاء مثلُها، فحيث وجد ذلك فليأتمر به. فهذا هو الفتح الحقيقي لا ما يعمله الناس من باب التفاؤل به وقد نبذوه، **واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون.**

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾

[٨٥ظ] **لا تحسبن الذين / يفرحون بما أتوا.** يقال: "فلان أتى الأمر الفلاني" إذا جاء إليه باقتصاد منه ففعله. والمراد ههنا ما فعله علماءُ اليهود مما تضمنته الآيةُ المتقدمة. فإنهم فرحوا لمّا اتبعهم قومُهم في الضلال الذي زعموا أنه الهدى. فلما حمدهم قومُهم على ذلك أحبّوا منهم الحمدَ مع علمهم بأنهم لا يستحقونه، لأنهم كتموا منهم[5] الحق وهم يعلمون.[6] **ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا**، وهذا وإن كان مخصَّصا فالإطلاق مفهوم منه ولازم عنه. **فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب**، إذ لم يعذَّبوا في الدنيا. والواو واو الحال في قوله: **ولهم عذاب أليم**، في الآخرة. وكذلك واو، **ولله ملك السمٰوٰت والأرض والله علىٰ كل شيء قدير.**

---

[1] سورة الأعراف، ٣١/٧.

[2] ر: كأنه.

[3] جميع النسخ: قرآنا.

[4] لم أهتد إليه بهذا اللفظ. لكن روي عن المقداد أنه قال: يا نبي الله ما الهُدْنَة؟ قال: «بلاء وانقطاع، فإذا التبست الأمور عليكم كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن...». انظر: كنزل العمال لعلاء الدين الهندي، ٢٨٩/٢. | الهُدْنَة: المصالحة بعْدَ الحَرْبِ والمُوادَعَةُ بين المسلمين والكفار، وبين كل مُتحاربين. وأصل الهدنة السكون بعد الهَيْج (تاج العروس للزبيدي، «هدن»).

[5] جميع النسخ: لأنهم كتموهم، والمثبت من م.

[6] ك - وهم يعلمون؛ ش- يعلمون.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾

ولمّا ذكر الملك والقدرة أتبعه ببرهان فقال: **إن فى خلق السمٰوٰت والأرض واختلٰف اليل والنهار لآيٰت لأولى الألبٰب**. في هذا دليل على بطلان قول مَن زعم أن الإيمان لا يكون إلا تقليدا وبالخبر. وفيه من الأمر بالتفكر ما لا يخفى عن ذي لب قدرُ ما ندب الله إليه[1] سبحانه من التفكر الذي هو سُلَّم يَسمُو به ذو اللب الصادق. فمِن أيِّ جزء من أجزاء العالم تفكر فيه وأدام الفكرةَ رَقِيَ إلى الله تعالى. وفي غاية المجهود غايةُ مطلب يُخَص بها مَن رام كُلًّا بكله. فالبارئ تعالى ذكر المجموعَ المرئيَّ وهو السماوات والأرض. ومثال التفكر في خلق السماء أنه خلقها بغير عمدٍ ولا دعائم.[2] ولو اجتمع العالَم بأسرهم على أن يمسكوا جسما صغيرا في الجو بلا دِعامة ولا علاقة[3] لَمَا قدروا. وكذلك لو اجتمعوا أن يزيدوا في النهار جزءً من الليل أو بالعكس لَمَا أمكن ذلك. فهذه العلامات وأمثالها آيات[4] دالَّات على صنع قديرٍ عالم.

فاعلم أن رأس الأمر حفظُ العمر، وحفظه بحفظ الفكر، وحفظ الفكر أن يكون لك لا أن تكون له. وهنا أقوى الجهاد ومن ههنا يَعرف المرءُ نفسَه. فالفكر كالعبد، إذا لم تكُدَّه[5] الخدمةُ مَرَدَتْه البطالة. وإنما تنقسم الأفكار بتقسم المآرب.[6] ومن وحّد فكرته جعل الهموم همّا واحدا فتفكرَ فيه. وأول الفكر وأَولاه أن يفكِّر في عيوب نفسه ومساقط هواه وما يحتاج إلى تكملتها به. فإن الواجب سلوك سبيل الأنبياء. وسبيلهم سياسة البلدان والسُّكَّان. ومن لم يَسُسْ نفسَه كيف يسوس العبادَ. ومن لم[7] يسس بدنه كيف يسوس البلاد. فالفكر يَنبوع الحياة ومَشْعَب الأفعال وأول الفعل، كما نبّه بعضُهم على شرف الفكر فقال:

إن خير الدارين في الفكر، والفكر إلى كل غاية معراج،
فَاحْرُس الفكر دائما وارصد المطلوب تظفرْ بكل ما تحتاج.[8]

---

[1] ش ر: إليه الله.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ (سورة الرعد، ٢/١٣).

[3] ر – ولا علاقة، صح هـ.

[4] ر – آيات، صح هـ.

[5] ش – أنه الهدى فلما حمدهم قومُهم على ذلك أحبوا منهم الحمدَ مع علمهم بأنهم لا يستحقونه لأنهم كتموهم الحق وهم يعلمون ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا وهذا وإن كان مخصَصا فالإطلاق مفهوم منه ولازم عنه فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب... فاعلم أن رأس الأمر حفظ العمر وحفظه بحفظ الفكر وحفظ الفكر أن يكون لك لا أن تكون له وهنا أقوى الجهاد ومن ههنا يعرف المرءُ نفسَه فالفكر كالعبد إذا لم تكدّه، صح هـ.

[6] ر ش: المأرب.

[7] ش – نفسه كيف يسوس العباد ومن لم، صح هـ.

[8] شجون المسجون لابن عربي، ص ١٢٦.

فتفكر وشاهِدْ وتفكر، فقد دلك بقوله تعالى: **ويتفكرون**، على طريق قريب. ولو أخذ الخبيرُ من الناس أن يتكلم في هذه الآية لما وسعته الأوراقُ وضاق الزمانُ وكَلَّ اللسانُ وتاهت العقولُ وأعيا المنقولُ. فخذْ أنت بحسبك وتَعَلَّقْ بنسبك وابتَدِئ الاستدلالَ بالتفكر منك وبك. فإذا دمتَ كذلك مع تطهير سرِّك بعد تطهير الظاهر أشرق لك نورٌ باطن تَرى به ما يجب لك وعليك، فهو أول وارد إليك. فإذا دمت ونوّر الله سرّك رأيتَ في الحركات والسكنات من سائر الموجودات باطنا وظاهرا آياتٍ بينات هي ألسُنٌ تناديك إلى الموصوف بالصفات بحسب نظرك وقوتِك لا بحسب المدعوِّ إليه. ثم بعد ذلك يَحرم عليك الفكرُ والاختبار وتقف مع الأمر فحسب، فتبقى مُفَعَّلا لا فاعلا، وفاعلا لا مفعَّلا بوجه ووجه.[1] وهذا حد العبارة، وبعده لا عبارة. وأما قبله فهو مقام الرجال.

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾

الذين يذكرون الله قيٰما وقعودا وعلىٰ جنوبهم، ذكر أكثرَ الصور، والإشارةُ إلى ذكرٍ دائم على كل حال. والمراد هو[2] الإعلام بأن الأفكار لا يتسلط[3] عليه تعالى ولا سبيل إليه إلا بالذكر. وأما التفكر فهو في مصنوعاته. لهذا قال: **ويتفكرون فى خلق السمٰوٰت والأرض**، فيقولون.[4] وهذا ذكر مرتَّب على التفكر الذي تقدمه، فهو بعد الذكر الأول من ذي اللب. فكل لامحٍ يقول بحسبه: **ربنا ما خلقت هٰذا بٰطلا**. فلما شاهد ما سوى المذكور مخلوقا عنه بأمره نزّه توجهَه عن الانصراف إلى غيره فقال بعد الإشارة إلى ما سواه من خلقه:[5] **سبحٰنك**.

ثم سأل الستر والوقاية من عذاب النار لِما رأى من فرط التقصير فيما يجب من عبادته تعالى، إذ كل عبد يجب عليه ويختص به[6] من العبادة بحسب رتبته من المشاهدة والعلم. ولمّا كان المشهود غيرَ متناهٍ وجب أن ينظر ذو الرتبة التي هي أعلى محلِّه من التقصير فقال مضطرا: **فقِنا عذاب النار**.

---

[1] ر – وفاعلا لا مفعّلا بوجه ووجه، صح هـ.

[2] ش ك – هو.

[3] ر: لا تتسلط.

[4] أي يقولون: رَبَّنا ما خَلَقْتَ هٰذا بٰطلا.

[5] ر ك + بقوله ما خلقت هذا.

[6] ر ك: ويخصص به.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾

ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمٰن. هذا المنادي ههنا يريد به الأنبياء خاصة وكلَّ منادٍ ظاهرا وباطنا عامة. ولهذا جاء منكَّرا، أن ءامنوا بربكم فئامنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا، أبرارا، مع الأبرار.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾

ربنا وءاتنا ما وعدتنا علىٰ، ألسن،[١] رسلك ولا تخزنا يوم القيٰمة إنك لا تخلف الميعاد.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾

فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عٰمل منكم من ذكر أو أنثىٰ. وقوله: بعضكم من بعض، لأن الذكور من الإناث والإناثَ من الذكور، فبرهن بذلك وعلل ما وعد من أنه لا يضيع عمل عامل منكم. فالاعتبار للأعمال والاعتقادات لا للذكورية والأنوثية، كأنه قال: بعضُكم هو من بعض؛ فكيف يضيع عملَ البعضِ ويجزي على العمل للبعض وبعضكم هو من بعض. ثم عرّفنا أن بعض المؤمنين من بعض وكذلك الكفارُ بعضهم من بعض.[٢] فقال: فالذين هاجروا وأخرجوا من ديٰرهم وأُوذُوا / فى سبيلى وقٰتلوا وقتلوا، [٨٦و]
ولا يَلزم أنه لا يكفِّر إلا سيئات من حصر جملةَ الأوصاف، بل لكلٍّ نصيبُه، والهجرة هي الرتبة العليا، فقدمها. وقال: لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنّٰت تجرى من تحتها الأنهٰر ثوابا من عند الله. والله عنده حسن الثواب.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾

[١] ك - السن، صح هـ.
[٢] ش - وكذلك الكفار بعضهم من بعض، صح هـ.

ثم قال: **لا يغرنك تقلب الذين كفروا**، كأنه قال: فالذين هاجروا لهم كذا، والذين كفروا لا يَغُرَّنَّك تقلُّبهم وتنقلهم، في البلد، أي بالتحكم فيها والتملك لها. فإنما ذلك، **متع قليل**، ويذهب عنهم. **ثم مأوىٰهم جهنم وبئس المهاد**.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾

ثم عطف على من اتصف بصفة الأولين المذكورين، فاستثناه من الكفار إن تاب بعد كفره فقال: **لٰكن الذين اتقوا ربهم لهم جنّٰت تجرى من تحتها الأنهٰر**، فهؤلاء كالأوائل لأنهم بعض أولئك، إذ المؤمنون بعضهم من بعض. **خٰلدين فيها**. وقوله: **نزلا من عند الله**. النزل ما يُهيَّأ للنزيل[1] من الكرامة والضيافة والمشرب وغيره، والكأسُ المملوءة يقال لها: نُزُلٌ أيضا. والمعنى خالدين في نُزُلٍ. ويَلزم أن يكون النزل خالدا أيضا لهم. وذلك جميعه نعمة[2] من عند الله سبحانه، لأن أعمالهم لم تَكُ تفي ببعض[3] ذلك. ثم قال: **وما عند الله خير للأبرار**، مما قد وصفناه لكم وضربنا به المثل.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾

وقوله: **وإن من أهل الكتٰب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خٰشعين لله لا يشترون بـٔايٰت الله ثمنا قليلا**، فهؤلاء هم المهتدون الذين سيُسلمون من حين نزول القرآن إلى يوم القيامة. فألحقَ مَن يؤمن في مستقبل الزمان بالذين اتقوا، لئلا يدخل المهتدون في زمرةِ مَن قال في حقهم: سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.[4] هذا في غاية الحُسْن. لهذا قال: **أولٰئك لهم أجرهم عند ربهم. إن الله سريع الحساب**.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

يٰأيها الذين ءامنوا اصبروا، في أنفسكم، **وصابروا** غيرَكم، وهو من المفاعلة.

---

[1] النزيل: الضيف (لسان العرب، «نزل»).
[2] ش ك – نعمة.
[3] ر – ببعض، صح هـ.
[4] سورة البقرة، ٦/٢؛ وسورة يس، ١٠/٣٦.

وليس ذلك إشارةً إلى مصابرتهم للكفار فقط بل إلى كل صورة أمر الله بالصبر فيها.[١] ورابطوا، من رِباط الخيل للغزو. وهي من فاعَلَ، وأيضا مرابطة المؤمنين للكفار. واتقوا الله، مطلقا في المصابرة والمرابطة وغير ذلك باطنا وظاهرا، **لعلكم تفلحون**. "لعلكم" تُستعمل للترجي، لا أنه أراد بها التشكيك بل قد تُستعمل في موضع يقوِّي الطِّلْبَةَ ويقوي[٢] الفاعل للفعل.

[١] وقوله تعالى: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ أي إِحْبَسُوا أنفسكم على العبادة وجاهدوا أهواءكم (المفردات للراغب الإصفهاني، «صبر»).

[٢] ر: وتقوي.

سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ①﴾

لمّا ختم بذكر التقوى خاصًا[1] افتتح بذكرها عامًا فقال:[2] **يٰأيها الناس اتقوا ربكم**، بدأ بالأمر بالتقوى والتحذير قبل ذكره للشيء الذي ينبغي أن يحذَّر منه ويُتَّقى تعظيما لهذا الذنب وتنبيها لنا أنه ذنبٌ عظيم كيما نَحْذَره ونبعد[3] منه. ولعظمه لم يقل: يا أيها الذين آمنوا بل قال: **يٰأيها الناس**، تنبيها لنا أنه يجب العمل به مع جميع الناس. ولهذا أتبعه بقوله: **خلقكم من نفس وٰحدة**، لينبهنا على فعله مع كل مَن خلق مِن تلك النفس، لأن النسب قد عمّنا وحقّت القرابة. وذلك لفضيلة العمل بهذا الأمر ولعظم التعدي عليه. ولذلك وصفه بقوله: حُوبًا كَبِيرًا.[4] ومِثلُه قوله: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ،[5] كما نبين ذلك في موضعه. ومن حكمة هذا اللفظ عمومه للناس لتقع الحجة عليهم فيتنبهوا للعمل به، وإن كانت الحجة[6] واقعة بقوله: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا.[7]

وقوله تعالى: **الذى خلقكم من نفس وٰحدة**، تنبيه[8] لنا أننا أبناء رجل واحد، أعني آدم، فيجب علينا أن يُشفق بعضنا على بعض كشَفَقَتنا على إخواننا من أب واحد.[9] والإشارةُ إلى اليتامى في حفظ أموالهم ورعايتهم،[10] فعرّفنا أنه وإن لم يكن لهم أب حاضر فكلنا له أب واحد. وقوله: **وخلق منها زوجها**، حواء، لأنها خُلقت من ضِلْع من أضلاع آدم،[11]

---

[1] أي لما ختم الله تعالى سورة آل عمران بذكر التقوى خاصا.

[2] ك – لما ختم بذكر التقوى خاصا افتتح بذكرها عاما فقال، صح هـ.

[3] ك: وتبعد.

[4] من الآية التالية.

[5] سورة الحجرات، ٤٩/١٣.

[6] ك – عليهم فيتنبهوا للعمل به وإن كانت الحجة، صح هـ.

[7] سورة الأعراف، ٧/١٥٨.

[8] جميع النسخ: تنبيها.

[9] ر – أعني آدم فيجب علينا أن يشفق بعضنا على بعض كشفقتنا على إخواننا من أب واحد، صح هـ.

[10] سيأتي في الآية التالية.

[11] لعل المؤلف رحمه الله يشير هنا إلى ما ورد في التوراة: «وبنى الربُّ الإلٰهُ الضِّلعَ التي أخذها مِن آدمَ امرأةً وأحضرها إلى آدمَ» (التكوين، ٢/٢٢).

فأصلها مُعوَجٌّ. ومنه قوله عليه السلام: «المرأة ضِلْعٌ أَعْوَج، إن قوّمته كسرته وإن
[٨٦ظ] تركته انتفعْتَ به / على عوج».[١] وفي التوراة ما هذا مقلوبه إلى الآن: وأوقع الله سُباتا
على آدم فنام فأخذ أحدَ أضلاعه وسدَّ لحما مكانه.[٢] فصدق الله، إذ قال: **من نفس وٰحدة**، لأن آدم خُلق من طين[٣] وحواء خُلقت منه. **وبث منهما رجالا كثيرا ونساء**، فعاد الخَلق إلى، **نفس وٰحدة**. وهذه مبالغة في تعريف قرابة نوع الإنسان ليلزم بعضه بعضا بالإحسان.

ثم كرر: **واتقوا الله**، تأكيدا في التحذير والتخويف لعظم الذنب. وقوله: **الذى تساءلون به**، يحتمل أن أراد كما تقول: سألتك بالله إلا ما رَفَقت بولدي. ومعناها تتساءلون، فأدغمت التاء الثانية في السين، وهذه التاء الثانية نسميها تاء الاختيار لأنها إنما تدل على هذا المعنى، وكذلك تاء الافتعال كما سنبين. فالأولى للاستقبال والثانية للاختيار. ووزنها تتفاعلون. وتصريفها من فاعل يفاعل الذي يراد به المبالغة في ذلك المعنى مثل سابق يسابق الذي يقال منه: تَسابَق يتسابق ويتسابقون. والفرق بين سابق وتسابق أن الأول يجوز أن يكون باختيارهما وبغيره، والثاني لا يكون إلا باختيارهما. فقس على ذلك. وقوله: **والأرحامَ**، منصوبة على المفعول معه كقولك: استوى الماءُ والخشبةَ الذي معناهما أنهما استويا في البرد، وُضع مثلا لإفراط وصفِ البرد. وفرقٌ بين قولك: قمت وزيدا وبين قولك: قمت وزيد.[٤] فالأول يدل على المعية والثاني على العطف. وأصل نصبِه على فقدان الخافض، لأن تقديره: قمت مع زيد. وكذلك تقديره: واتقوا الله مع الأرحام، أي اتقوا الله في معاملتهم. فافهمه جيدا. يحذّرنا من الأرحام التي تتصل بها من الأيتام. فخوَّفَنا أولا من أموال اليتامى حال تربيتهم وثانيا حال اتصالنا بهم. وقوله: **إن الله كان عليكم رقيبا**، إشارةٌ إلى مراقِب في كل وقت لأن الرقيب هذا وصفُه.

---

[١] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن المرأة كالضلع إذا ذهبت تقيمها كسرتها وإن تركتها استمتعت بها وفيها عوج» (صحيح البخاري، النكاح ٧٩؛ وصحيح مسلم، الرضاع ٦٥).

[٢] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «فأوقع الرب الإلٰه سباتا على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما. وبنى الرب الإلٰه الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم» (التكوين ٢/٢١-٢٢).

[٣] ورد هذا اللفظ في آيات كثيرة، منها ما ذُكر في سورة الأنعام، ٦/٢؛ وسورة الأعراف، ٧/١٢؛ وسورة المؤمنون، ٢٣/١٢ وغير ذلك.

[٤] ش - وبين قولك قمت وزيد.، صح هـ.

﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ۝٢﴾

ولما أتبع هذه الأقوالَ بقوله: وءاتوا اليتمىٰ أموٰلهم، عُلم أن التحذير بلفظ التقوى إنما هو من أجلهم. وهذه عادة النص في كثير من المواضع، وهي سنة العربية في الإيجاز. وقوله: ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب. الخبيث ههنا يريد به مال اليتامى إذا أُكل ظلما، لقوله: إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗا،[1] ولا أخبثَ من طعام النار. والطيّب هو أموالنا لقوله تعالى: فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا.[2] فقال: ولا تتبدلوا الخبيث، من أموال اليتامى فتأكلونه بالطيب من أموالكم فتجمعونه. لأن بدل الشيء بغيره إذا أُخذ الشيء عوضا عن غيره. وانظر إلى حكمة قوله: تتبدلوا، ولم يقل: تبدلوا بالتاء المضمومة والباء المفتوحة والدال المكسورة، إذ لو قال كذلك لفسد المعنى. وذلك أنه إذا كانت الإشارة بالخبيث إلى مال اليتيم الذي لا يمكن خلافه فيصير معنى القول أنه لا يجوز أن نبدل الخبيث بمالنا الطيب، وهو خلاف مراد الله تعالى. وانظر إلى حكمة إتيان الكلمة بالتائين التي هي الأصح، وقد كانت الواحدة تغني إذا فُتحت التاءُ وما بعدَها. وذلك كيلا يقرب من شِبْه تُبدّلوا المضمومةِ التاءِ فقال: تتبدلوا بالتائين ليزول الإشكال الذي [يحدث] عن الاشتباه. فانظر إلى هذا التحرير في كلام الله تعالى. وهذا التحقيق في العبارة [هو] الذي يشهد كل عالِم باللغة بأنه لا سبيل للبشر أن يحترزوا في كلامهم هذا الاحترازَ الدال على حقائق المعاني المقصودة.

وقوله تعالى: ولا تأكلوا أموٰلهم إلىٰ أموٰلكم، أي مضافةً إلى أموالكم. فنهانا أولا أن نبتدل[3] أموالهم فنأكلَها ونتركَ أموالنا، ونهانا[4] بعده أن نأكل أموالهم حال كونها مضافةً إلى أموالنا. لأننا إذا تزوجنا باليتامى أضفنا أموالهم إلى أموالنا فيكون / النهي [٨٧و]
عن أموال اليتامى حتى ولو صاروا زوجاتٍ لنا. وحد اليتيم إلى بلوغ الحلم. وقوله: إنه كان حوبا كبيرا، هذه اللفظة في العربية كمثلها في السريانية والعبرانية، وهي تدل هناك على الإثم العظيم.

[1] الآية ١٠ من هذه السورة.
[2] سورة النحل، ١٦/١١٤.
[3] ك: أن تتبدل.
[4] ش: فنهانا.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتمىٰ، أي في نكاح اليتامى فتأكلوا أموالَهم حالَ كونها مضافةً إلى أموالهم، ويعم هذا غيرَ المال أيضا. وهو مُشعرٌ بأن لا تُتَّخذ مع الزوجة اليتيمة زوجةٌ ثانية، ولهذا بعده:[1] فانكحوا ما طاب لكم، من بقية النساء غير اليتامى. وفَهمْنا أن الكلام في نكاح اليتامى من قوله: فانكحوا، فافهم جيدا. فبهذا ينحل ما تَاهَ فيه كثير كما سيأتي في هذه السورة. ويتامى في الوزن مثلُ أيامى. والأصل أيائم، ويتائم.[2] وتقول: أقْسَطَ إذا عدل في القسط،[3] وقَسَطَ إذا ظلم [كقوله]: وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا.[4] وحقيقة القِسط النصيب على سبيلِ العدالة. وقوله: "قسط" إذا جار، معناه أخذ قِسْطَ غيرِه، وذلك جور. و"أقسط" إذا أعطى غيره قِسْطَه، وذلك عدل.

وقوله: فانكحوا ما طاب لكم من النساء، تقديره مما طاب. وقد كان يغني قولُه: فانكحوا، من النساء، إذ مقصود الآية إنما هو[5] إباحة الرُّبَاع فقط. فنبّهَنا بقوله: ما طاب، أن هذا هو الطيب، أعني نكاح المسلمات الأحرارِ وأن ما سواهن ليس بطيب. وقوله: مثنىٰ وثلٰث وربٰع، وهذا البناء يُعرف منه التكرير. ومثله أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ،[6] وتقديره مثنى مثنى وثلاث ثلاث ورباع رُبَاع. وهذه العبارة لا تُلزم الجمعَ، بل هي كقوله: فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ،[7] أي هي مع ما تقدم أربعةٌ، والثُّلاث[8] فيها مثنى، ولا يكون الرباع إلا بعد ثُلاث. والمعنى إباحة اثنين أو ثلاثٍ أو أربعَ لا غيرَ.

وقوله: فإن خفتم ألا تعدلوا فوٰحدة، منصوبة على تقدير فانكحوا واحدةً، أو، انكحوا، ما ملكت أيمٰنكم، أي من الفَتَيات، بعضكم من بعض. وهذا العطف له[9] اعتباران. أحدهما لجواز ترك العدل في مُلْك اليمين، والثاني لئلا نعولَ.[10] والمراد الزواج من ملكِ يمينِ الغير لا الوطء لما ملكت يمينُ المالك. وقوله: ذٰلك أدنى ألا تعولوا،

---

[1] ر – وهو مشعر بأن لا تتخذ مع الزوجة اليتيمة زوجة ثانية ولهذا بعده، صح هـ.

[2] ش: وأتائم.

[3] ر – في القسط.

[4] سورة الجن، ١٥/٧٢.

[5] ر – هو.

[6] ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ (سورة سبأ، ٤٦/٣٤).

[7] ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ (سورة فصلت، ١٠/٤١).

[8] ر: والثلث.

[9] ش ك – له.

[10] ر: لئلا تعول.

تنبيه على أن لا نَطَأَ بملك اليمين أكثرَ من واحدة وإن جاز أكثر من أربع. ونبَّه أيضا على ترك الوطء جملةً بطريق الأولوية لمن له الطيّبُ، أعني الحرة، فافهمه، وإن كان جائزًا مَا شاء. وذلك لأن العائلة تكون من ملك اليمين كما تكون من غيره. فالمراد بقوله: **فانكحوا**، هو الزَّواج بعقد لا الوطء، سواء كان الزواج مما طاب أو من جواري المؤمنين. وقوله: **ذٰلك أدنىٰ أن لا تعولوا**، عائد على قوله: **فإن خفتم ألا تعدلوا فوٰحدة**، وعلى قوله: **أو ما ملكت أيمٰنكم**، وهن الفتيات جواري المؤمنين. ولهذا جاء بعد ذكر الواحدة مما طاب ومما ملكت الأيمان، ولم يذكره قبلها عند ذكر الأربع، فالواحدة أدنى والأربع مما ملكت الأيمان أدنى أيضا ألا نعول. ولا تَفهمْ أن الأربع مما طاب هي الأدنى ألا نعول[1] عائلةً كثيرة. بل الغرض من الاقتصار على الواحدة أو ما ملكت الأيمان يتعلق به معنيان. أحدهما زوال خوفنا من أنا لا نعدل، والمعنى الثاني هو أنا لا نعولُ. وذلك لأن الولد لسيد الجارية مملوك، وهذا مما لم أَرَهُ لأحد. والاختلاف في هذه الآية كثير، فافهم الواجب من العبارة وأَعْطِ الحقَّ لأهله. وأما تحريم أكثرَ من الأربع فلأمر آخر، الله أعلم به.

وليس لقائل أن يقول: لِم وقف عند الأربع؟ والله عليم حكيم. ولنذكر كلَّ صورة. لو فرضنا أن قائلا يقول: لو كان المراد ما ذكرتَه لكان الأولى أن يعبر سبحانه بكيت وكيت؟ ونبين أن ما قاله سبحانه هو[2] الأولى بما شرحناه فنقول: لو قال موضع "أو ما ملكت": وما ملكت، **أيمٰنكم**، لكان المفهوم منه فانكحوا مما طاب لكم مثنى وثلاث ورباع، ومما ملكت أيمانكم كذلك. فكان لنا أن نجمع ثمانية أو أن نأخذ الأربع مما طاب ونأخذ مما ملكت الأيمان مهما شئنا تارة مع الأربع وتارة / بغير الأربع. لأن تحديد العدة [٨٧ظ] إنما وقف في الأربع مع ما طاب. وأما ما ملكت الأيمان إذا لم يَعطفه على الأربع بقي عاما على إطلاقه، وليس كذلك. بل لمّا قيد الكلامَ بالنكاح تخصص الكلامُ وتميز عن الوطء المباح بملك اليمين وعاد إلى النكاح المحدود بالأربع: إما مما طاب، وإما من جواري المؤمنين، أو منهما. فهذه صورة. فلو قال: "مما" موضعَ "ما طاب"، وموضعَ "أو ما" أيضا "أو مما"، لأشار إلى أشخاص معيَّنين من النساء لا إلى غيرهم. لأن "مما" تقتضي التبعيضَ، والمراد ليس بعضَ المسلمات بل سائرُهن لكن بشرط العِدّة. ولو قدم وقال: فانكحوا ما طاب لكم من النساء أو ما ملكت أيمانُكم مثنى وثلاث ورباعَ،

---

[1] ش: ألا تعول.

[2] ر: وهو.

فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة لسقط عودةُ قوله: **ذٰلك أدنىٰ أن لا تعولوا**، عن ملك اليمين واختص بالواحدة فقط، ولسقط الحكمُ الأول عن ملك اليمين،[1] أعني سقوط حكمِ جواز تركِ العدل في تزويج أحدنا أربعا من جواري المؤمنين الذي نبّه به ولزم عنه أنه يجوز لنا أن لا نعدل في الوطء بملك اليمين إذا لم يكن زواجٌ. لأنه متى كان تركُ العدل جائزا مع الزواج من ملك اليمين فهو جائز مع الوطء بملك اليمين[2] دون الزواج بغير شك. فافهم الصوَرَ كلَّها جيدا لتَعلم[3] حكمةَ هذا الكلام العليّ الذي لزم عند العاقل أن تكون العبارة به كما جاء من غير تغيير. وأما بيع أمّ الولد من ملك اليمين أو بيع الولد الذي هو من الحر لإلحاقه بالعَبْدَة فقد ذكرنا ذلك في مواضعه من هذه السورة[4] ومن سورة النور[5] وسورة المؤمنون[6] والأحزاب[7] كُلًّا في الموضع الأليق به. ولمّا كان الكلام ههنا فيما يتعلق بالزواج خاصة من الأحرار أو من الفتيات، أعني الإماء وليس ههنا ما يتعلق بصريح اللفظ بالوطء دون الزواج قال بعد ذلك عن جميع النساء المشار إليهن بقوله: **فانكحوا ما طاب... أو ما ملكت أيمٰنكم**.

﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ۝٤﴾

وءاتوا النساء صدقٰتهن، ليزول الاشتباه ويَتحقق أن الإشارة ههنا بما ملكت الأيمانُ إلى زَواج مِن جواري[8] المؤمنين، بعضُنا من بعض، كما سيأتي مثله بيّنا. ومن ههنا وجب أن لا يكون نكاح إلا بأجر مُعَجَّل أو صَداق.

والصدقات جمع صَداق وهي مأخوذة من الصداقة، والصداقة مأخوذة من الصِّدْق، وصَداق هو مذكر صداقة، وجمعها صداقات. فلما أريد جمْعُ صداق جُمِع بضم الدال [صدُوق] ليقع الفرق بينهما وبين الصدقات[9] التي هي جمع صدقة. وأصلُ تصريف هذا الاسم هو من صادق يصادق مصادقة. والواجب في هذا المصدر أن يكون صداقا بكسر الصاد قياسا على أمثاله من فاعل يفاعل فعالا بكسر الفاء. وإنما استُعمل في المصدر مصادقة

١ ر – واختص بالواحدة فقط ولسقط الحكم الأول عن ملك اليمين، صح هـ.

٢ ش – إذا لم يكن زواج لأنه متى كان تركُ العدل جائزا مع الزواج من ملك اليمين فهو جائز مع الوطء بملك اليمين، صح هـ.

٣ ك: لنعلم.

٤ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى الآية ٢٤ و٢٥ من هذه السورة.

٥ لعله يشير إلى الآية ٣٢ وَ٣٣ من هذه السورة.

٦ لعله يشير إلى الآية ٥ وَ٦ من هذه السورة.

٧ لعل المؤلف يشير إلى الآيات ٥٠-٥٢ من هذه السورة.

٨ ش ك: من جوار.

٩ جميع النسخ: صدقات.

ولم يُستعمل صداق[١] بكسر الصاد لقربه من صيغة صداق بفتحها. لأنه إنما فُتحت صادُ هذا الاسم ليمتاز عن المصدر. وإنما وُضع هذا الاسمُ على الصداق لأنه سبب أوجب الصداقةَ، ولا صداقةَ أعظمَ من صداقة المرء وزوجه. وإنما سمِّيت الصداقةُ صداقةً لاستعمال كل واحد من الصَّديقين الصِّدقَ مع صاحبه. وكذلك الصدقة، فإن مرجعها إلى الصِّدق، لأن صدق الإنسان في إيمانه بالله وأنه يقبل الصدقات ويجزي عليها إنما يتحقق ذلك منه بالصدقات وأمثالها. فإنها لا تسهُل على الشخص إلا إذا اعتقد أن الله يكتبها له ويجزيه عليها فسُميت بذلك لتصديقها له في دعواه. وأصل تصريف صادق إنما هو للمبالغة في صَدَقَ يَصْدُق صِدْقا. ولهذا أُخذ منه الصداق ليدل على المبالغة، فافقه ذلك.

وقوله تعالى: نِحْلَةً، وهي مصدر نَحَل يَنحَل نِحْلَة، ومذكره نِحلا بكسر النون. وإنما لم يُستعمل لقربه من شبهِ "نَحْل" الذي هو اسم للحيوان. ولما استُعمل مؤنثُه كُسرت نونه كيلا يشتبه باسم النحلة ولأن مذكَّره مكسورُ النون. ونحلة، منصوب على المصدرية، أي نحلهم الله إياها نحلة، قصد بذلك التأكيد كحكم كل مصدر. ولمّا كان النَّحْلُ يأخذ الناس مِن جَناه[٢] بلا تعب ولا كدٍّ / فكأنه قد نحلهم إياه فهو كالنِّحلة -أعني [٨٨و]
الوِراثة التي تأتي الوارثَ من غير أن يتعب- سمي نِحْلا اشتقاقا من فعله. فقوله: وءاتوا النساء صدقتهن نحلة، أي نحلة[٣] نحلهم الله إياها من غير تعب، لأن انتفاع الرجل بالمرأة كانتفاعها به. وإنما نحلها الله بالصَّداق نِحلة منه وإن كان الله قد سماه أجرا بقوله: فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ.[٤] لكن هذه الأجرة نِحلة من الله لأن الغرامة عليهن كانت تقوم بالأجور، فزادهن الله الصداقَ نحلة. فهذه حكمة هذه اللفظة. وهي من نحَل ينحِل كما ذكرنا وهو ثلاثي ماضيه مفتوحُ الحاء ومستقبله مكسورها، وهما بخلاف نَحَل ينحُل الذي هو من النحول والسقمِ، ونقول: منه رباعيّ أنحل النَّحْلُ يُنحل إنحالا إذا ولد نحلا.

وقوله: فإن طِبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه، ولم يقل: فإن طبن لكم عنه إشارة إلى أنه لا يَحسن أخذُ الكل وإن جاز، وأنه لا يؤخذ بحيلة ولا بإلجاء. ولهذا لم يقل: فإن وهَبْنَكم لئلا يظن الظانّ أنها متى وهبت جاز، ليس كذلك بل لا يجوز

---

١ جميع النسخ: صداقا.

٢ الجَنَى: ما يُجْنِى من الشجر. قال ابن سِيدَه: و الجَنَى كل ما جُنِيَ حتى القُطْنُ والكَمْأَةُ... ويُجْمعُ الجَنَى على أَجْنٍ، وقد يجمع على أَجْناء (لسان العرب، «جنى»).

٣ ش: أي نحله.

٤ الآية ٢٤ من هذه السورة.

إلا أن تتحقق طِيبةُ نفسها، فافهم. هنيّئا مريئا، منصوب على الدعاء، وهو مهموز، وقد استُعمل بلين الهمزة استخفافا. فقيل: هَنأَك الأمرُ يَهْنُئك وهَنِيء على وزن فعيل الذي يُؤتَى به للمبالغة. وهو بمعنى فاعل، تقول: هنَأك الشيء مخفف، وهنّأك الله بالشيء مشدد مهموز، ومثله مرئ يمرأ قد استُعمل بلين الهمزة أيضا. قال الشاعر:

مَرَتْـك ابـنَ إبـراهـيم صـافـيـةُ الـخـمـر.[1]

وقوله: فكلوه، يُشعر أن يكون المهر الذي يأخذه الرجل عن طيبة نفسِ المرأة عينا لا دَينا، أعني يُحضره عينا بين يديها وتعطي عن طيبة نفسٍ مَا شاءت منه. فهذا هو الأَولى وإن جاز غيره بالتأويل.

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٥﴾

وقوله تعالى: ولا تؤتوا السفهاء أموٰلكم، الإشارة إلى أموال السفهاء من الأيتام، فإنه لا يجوز للوصي أن يعطيهم إياها ولو إلى الممات فهي له على أن يقوم لهم[2] فيها بالقسط. ولما كان أحقَّ بالتصرف فيها منهم دائما مهما أنهم سفهاء نسبها الله إليه مبالغة كي لا يطول عليه الأمد فيعطيهم إياها. وكل ذلك شفقةٌ على أموالهم وحفظٌ لها. وقد بين الله المقصود بالحُكم في قوله: التى جعل الله لكم قيٰما، منصوب على الحال، أي جُعلت لكم حال كونكم قياما لهم بالقسط، فليست لهم على الإطلاق. وانظر إلى سر قوله: جعل الله، ولم يقل: جعلها كيلا يعبر بالعبارة الصريحة التي يعبَّر بها إذا كان لهم على التحقيق. فأتى[3] بالعبارة التي تدل على الجعل الناقص دون التمام. وقوله: وارزقوهم فيها، ولم يقل: وارزقوهم منها، لأن المقصود هو الأمر للوصي بالتكسب فيها مهما أمكن، فكأنه قال: وارزقوهم مما تكسبون فيها. وإنما لم يصرح النص بذلك كيلا يكون أمرا واجبا مؤكَّدا فيشقَّ ذلك على بعض الأوصياء. وهذه طريقة النص في مثل هذا الحكم. وقوله: واكسوهم، يعني من الكسب فيها وإلا فذلك معلوم؛ لأنه داخل في القسط المأمور به، إذ لا غِنًى عن المَئُونَة والكِسْوَة والجِذْوَة.[4]

---

[1] تمام البيت:
مَرَتْـك ابـنَ إبراهيـم صـافيـةُ الخمر
وهُـنِّئْتَـهـا مـن شـارب مُسكر السُّكر.
انظر: العرف الطيّب لناصيف اليازجي، ١/٢٠٧.

[2] ر – لهم.

[3] ر + لهم.

[4] الحذوة: العطيّة (تاج العروس للزبيدي، «حذو»).

وقوله تعالى: **وقولوا لهم قولا معروفا**، أمرَنا بلين الكلمة لهم ولو كانوا سفهاء رعايةً من الله لهم وعناية بهم. ويدخل فيه كل أمر بمعروف كتعليم الصلاة والدين والأدب وكلُّ نهي عن منكر.

﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾

وقوله: **وابتلوا اليتمىٰ حتىٰ إذا بلغوا النكاح**، أي واختبِروا، أي اعتبِروا حالهم إعتبار ذي خِبْرَة كيلا نَقضي[١] على الشخص بظاهره أنه رشيد فنُعطيَه ماله ويكون في نفس الأمر غير رشيد. فلهذا قال: **فإن ءانستم منهم رشدا**، ولم يقل: "إن رأيتم" كيلا نعتمد على ما نراه منهم ظاهرا، بل على ما نأنس إليه إذا[٢] رأيناه منهم مما يدل على الرشد وعلى ما نحققه، وإلا فلا يجوز دفع الأموال إليهم. وذلك حِراسَة من الله تعالى لأموالهم كيلا يضيِّعوها. **فادفعوا إليهم أموٰلهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا**، هي مصدر بادر يبادر بِدارا أتى به للمبالغة في البُدور. وأصله بَدَرَ يَبْدُر. وقوله: / **أن يَكْبَرُوا**، أي [٨٨ظ]
خوفا أن يكبروا فيأخذوا المال منكم، وهي مفتوحة الباء. **ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف**، أي بوجه يستحق به الأكل، وهو مبني على قوله: وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا،[٣] ولم يقل: "منها"، فربما كان المتعيِّش بمال اليتيم يَتوهم أنه لا يجوز أن يأكل من المال جملة كافية، فجاء هذا الكلام مبيحا عقيبَ ذلك المنع ليُعلم ذلك ومثله. وأمر الغنيَّ بالاستعفاف استحبابا. **فإذا دفعتم إليهم أموٰلهم فأشهدوا عليهم وكفىٰ بالله حسيبا**، يعني يحاسبكم على ما أكلتم من أموالهم أو فرّطتم فيه. وعند الوفاء حاسبتموهم بما عسى أن تَسُدّوا به بعضَ ما فرّطتم فيه. فأعلمَنا أنه لا تفيد محاسبتنا لهم بل الله هو الذي يحاسبنا عنهم. فافهم.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾

---

[١] ك: كيلا نقتضي؛ ش: كيلا تقتضي.
[٢] ر ك: إذ.
[٣] من الآية السابقة.

وقوله: **للرجال نصيب**. لمّا فرغ من ذكر مال الأيتام والوصية عليهم أخذ يعرِّفنا الوُرَّاثَ[1] مجملا، وأنهم الأقربون دون أولي القربى، وأنهم قد عيّن لكل منهم نصيبا كما عين الفروض، فقال: **للرجال نصيب مما ترك الوْلدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوْلدان والأقربون**. فههنا ذكر الميراث مجملا، وفصله بقوله: يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ.[2] وذكر الأقربين، ثم ترك أولي القربى، لأن الأقربين هم الأولى وهم أولوا الأرحام، أعني الذين بينهم وبين الميت مشاركةٌ في رَحِم واحد. وإليهم أشار النص بقوله: وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ.[3] وذلك كالآباء والأبناء فإنهم اشتركوا في رحم واحد، أي إن كل واحد من الأب أو الابن اتصل برحم الأم. فإن الابن وُجد به والأب باشره، وكذلك الإخوة[4] وكذلك الزوج. لكن الزوج[5] وإن كان من أُولي الأرحام فليس من الأنساب، لقوله تعالى: نَسَبًا، ثم قال وَصِهْرًا.[6] ولهذا لا يُردُّ عليه بعد فرضه بقيةُ الميراث كما يرد على النسب ما بقي بعد أخذِهم فروضَهم، إلا إن وُجد وحده فيعود من أُولي الأرحام فيكون أَولى من المؤمنين.[7] فإن وُجد مَن له نسب ورحمٌ فهو الأَولى من الزوج بِرَدِّ الباقي بعد الفرض عليه. ولهذا لمّا ذكر الله الفروضَ وعيَّن أصحابها لم يعين غير هؤلاء. وأما مَن سوى هؤلاء فإنهم أولو قربى. ولهذا قال عنهم: وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ،[8] فدل[9] على أن هؤلاء ليس لهم مع الأقربين المذكورين في النص فرضٌ. ولو كان لهم شيء لذكرهم الله تعالى وذكر فروضَهم أو إرثَهم. وإذا كان أولو القربى ليس لهم مع النسب والصهر شيء فكيف يكون للمؤمنين والمهاجرين، أعني لبيت المال. فافهم هذا جيدا. وأولو القربى كالجد مع وجود الأب، فإن الأب أقرب؛ فإن عُدم الأب فالجد [يقوم] موضعَه، وكذلك فافهم في الجميع. فلهذا قال تعالى[10] ما عم به أصحابَ الفروض من النسب والصهر، وعم به سائرَ من يُمكن أن يقوم مقام النسب وهم أولو القربى من النسب،

---

[1] ر ك: الوارث.

[2] الآية ١١ من هذه السورة.

[3] سورة الأنفال، ٧٥/٨.

[4] ك - وكذلك الإخوة، صح هـ.

[5] ك - لكن الزوج.

[6] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ (سورة الفرقان، ٥٤/٢٥).

[7] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ (سورة الأحزاب، ٦/٣٣).

[8] من الآية التالية.

[9] ش: تدل؛ ك: ندل.

[10] أي عرّفنا الله تعالى.

وذلك العموم هو المشار إليه بقوله: وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ،[١] أي لكل من التَّرِكَة المخلَّفة عن الميت جعلنا موالي، أي من هو أولى بها من بقية المؤمنين. ولهذا بعده: **مما قل منه**، أي مما ترك الوالدان والأقربون، **أو كثر نصيبا مفروضا**.

وهذا يعطي أن جملة المتروك عن الوالدين والأقربين قليلا كان أم كثيرا قد جعل الله منه نصيبا للرجال ونصيبا للنساء. وهذا قد عاد فرضا يجب العمل به. وقولنا "جملة الميراث" نريد به أنه لا يبقى لبيت المال شيء مهما وُجد من هؤلاء ولو واحدةٌ؛ فإن واحدتهن تأخذ الجميع، فهو هناك نصيبها وهو فرضها. وأما إذا كان معها غيرُها فلها غيرُ هذا النصيب، ولا أدلَّ على هذا الكلام مما قد قال الله تعالى ههنا: وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ. وينضاف إلى هذا قوله في سورة الأحزاب: وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ، أي أولى بالميراث، مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ.[٢] فهذا أبلغ دليل. وعلى هذا الحكم يجب أن يُعتمد في هذا الكتاب لا على ما يناقضه. / ولهذا لم يذكر الله تعالى في كتابه[٣] [٨٩و] بيتَ المال، فافهم هذا جيدا. و[قوله:] **نصيبا مفروضا**، منصوب على فقدان الخافض، وتقديره: للرجال نصيب وللنساء نصيب لازم مبيَّن كنصيب مفروض. وذلك أن الله تعالى لمّا ذكر الفروض وذكر أصحابها لم يذكر الباقي من المال بعد الفرض ولا ذكر أصحابه، لأن معرفته ومعرفة أصحابه لازمة مما ذكر. فبين الله تعالى لنا ههنا أنه قد بين نصيبَ كلِّ واحد من التَّرِكَة ممن لم يذكره كما بين النصيب المفروض، فافقه ذلك.

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨﴾

وقوله: **وإذا حضر القسمة أولوا القربىٰ واليتمىٰ والمسٰكين فارزقوهم منه**. هذا الأمر ههنا للوُرّاث بأن يواسوا المذكورين بشيء من ذلك على وجه البر والإحسان. ويعضده [قوله:] وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ،[٤] وليس هذا الأمر ههنا للوصي، فافهمه. **وقولوا لهم قولا معروفا**، أي يعرفون صحته، وليكن لطيفا حسنا ليكون المعروف قولا وفعلا.

---

١ الآية ٣٣ من هذه السورة.

٢ ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ (سورة الأحزاب، ٦/٣٣).

٣ ر – في كتابه.

٤ ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ (سورة الإسراء، ٢٦/١٧).

فعلمنا الله مكارم الأخلاق مع هؤلاء كي لا نَغْلُظ عليهم القولَ فتنكسر قلوبُهم بالقول بعد انكسارها بحِرْمان المال.

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩﴾

ثم أكد هذا بعد ذلك مخوِّفا لنا فقال: **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعْفا خافوا عليهم**، من مثل فعلهم بهؤلاء. وهذا أمر يعم الأوصياءَ ليَتواصَوْا[1] بالأيتام، وهو أمر للوَرَثَة بأولي القربى واليتامى ليرضَخُوا[2] لهم خِيفةَ أن لو خَلَّفوا يتامى ذريةً لهم وصلوا إلى حال الحاضرين. **فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا**، بوزن فعيل من ذوات المثلين، أعني من سَدَّ يَسُدّ الذي تقديره سَدْدَ يَسْدُدُ سَدْدا، وإنما أُثبت الدّالَانِ في مصدره للتمييز بين معناه وبين معنى سد البابَ يَسُدّه سَدّا. وكلا المعنيين يرجِعان إلى معنًى واحدٍ، لان معنى القول السديد هو الذي يَسدّ الخللَ غير أن هذا سدٌّ معنوي، وذلك جسماني.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾

إن الذين يأكلون أموٰل اليتٰمىٰ ظلما، لمّا لم يجز أكلُه ظلما لم يبق إلا بالعدل وهو المعروف المشهور في العقول، فافهم. ولما أشار بالأكل إلى الأخذ وإن لم يؤكل في البطن بيّن أن الأخذ كمن أكل في بطنه نارا. ولو لم يقل: **فى بطونهم**، لكان يعطي لفظُ الأكل ههنا الأخذَ فقط، إذ لزم أن ما لا يؤكل بالفم يسمى آخذُه آكلا له، فهذه فائدة قوله: **فى بطونهم**، فافهمها. وفيه فائدة أخرى أن من أضاف مالا حراما إلى ماله الحلال فقد حرّم حلالَه. فإذا أكل منه فقد أكل الحرام، والحرام نار في البطن من حيث لا يعلم الآكِلُ. فلهذا قال تعالى: **إنما يأكلون فى بطونهم نارا**، ولم يقل: في أفواههم لأنها طيبة في الأفواه. ولكن عاقبتَها أنها تكون نارا في بواطنهم. وفي ذلك ما معناه في جميع بطونهم، أي ملئوها. وغير بعيد أن الله تعالى يعفِّن[3] في أبدانهم تلك المآكلَ فتتولد[4] منها

[1] ر: ليتوصوا.

[2] ر: ليرضحوا؛ ش: ليوضحوا.

[3] عَفِنَ الشيءُ يَعْفَن عَفَنا فهو عَفِنٌ وهو الشيء الذي فيه نُدُوَّة يُحبس في موضع فيَفْسُد فإذا مَسِسْتَه تفتّت (كتاب العين للخليل بن أحمد، «عفن»).

[4] ش: لتيولد.

حَمِيّاتٌ تُحرقهم كالنار فيحترقون دُنْيا وآخرةً. ولهذا قال بعد ذلك: وسيصلون سعيرا، فإن السين تُعطي وقوعَ ذلك في المستقبل.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١﴾

ثم بدأ بعد ذلك بذكر الفروض فقال: يوصيكم الله فى أولٰدكم.

[أقسام الدلالات: المطابقة، والالتزام، والتضمن]

ولنُقدِّم[1] قبل ذلك أصلا ينبغي أن تعلمه،[2] وهو أن أقدم الدلالات وأولاها المطابقةُ لظهورها وسَبْقِها إلى الفهم ابتداءً، وبعدَها الالتزام. وأما التضمن فلا يجوز لك أن تستلزم به[3] معنى يناقض معنى المطابقة، إذ القصد الأول من اللفظة إنما هو ما دلت عليه. وما أحدٌ من العقلاء يَقصد أن يتكلم بكلام له ظاهر بيِّنٌ ويقصد أن يُعقبه بما يَنقضه، فكيف أن يَلزم عنه ما ينقضه؟ فلا ينبغي للعقلاء أن يستلزموا ذلك من لفظِ عاقلٍ. لأن العاقل لا يقول قولا وهذا قصدُه فيه، فكيف بخالق العقول سبحانه. وأكثر ما يقع هذا من المعارِض إنما هو في محتمَلات اللفظ وما تضمنه من الوجوه فيظن أن ذلك المعنى لازم فيبادر إلى المعارضة به، وذلك غير جائز. ألا ترى لو قصد مدْحَ شخص وأتى بكلام يحتمل أن يكون مدحا وذمّا، فلا ينبغي أن يُحتسب له ذلك إلا بالمدح / لاحتماله للمدح، ولأن سياق الكلام -وهو ما بعده- وسباقه -وهو ما قبلَه- ينافي [٨٩ظ] الذم. وهذه سنة العربية والمعلوم منها. وكذلك يجب أن تَستعمل في كلام الله تعالى إذا صَعُب عليك بأن تُوجِّهه إلى الوجه الأليق به، وهو الذي به يزول الإشكال والمعارضة إذا كان ذلك الوجه من محتمَلات اللفظ، وتتركَ المحتمَل المناقضَ لكونه ليس من قصدِ المتكلم. وإنما يأتي الفصيح بمثل هذه الصورة تنبيها للعقول لتَحيا بالتفكر والاستنباط ويثبتَ فيها الحقُّ إذا ظَفِرتْ به لكونها تعبتْ قبل الظفر [به] وفرحتْ بعده.

---

[1] ش ك: ولتقدم.
[2] ش ك: أن يعلمه.
[3] ش: أن نستلزم به.

وأيضا قد يأتي الفصيح بمثل ذلك لتَظهر قدرتُه وحكمته على الكلام المتوجّه إلى وجوه تُعجز، وليَحْجُب الغِرَّ الجاهل السيءَ الظنِّ بالمتكلم بتلك الوجوه المتناقضة[1] ويتنبهَ[2] الذكيُّ الفَطِن العاقل المستحق للهداية والاطلاعِ على الحق على الوجه الأصوب منها الذي قَصدَه المتكلم فينجو من الوقوع في الباطل ويظفرَ بالسلامة. وهذا المعنى يُعلم من قوله تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[3] كما سنبينه.

وهذا المعنى هو مفتاح أقفالِ أبواب كثيرة من القرآن، فاحفظه واستعمله تكسبْ إن شاء الله. وقد يأتي العقلاءُ بهذا الطريق والضرب من الكلام لإظهار مقدار فهمِ السامع واستعلام نباهتِه وفطانته. وقد يأتي بمثل ذلك لتعجيز الغير وإن لم يكن التعجيز هو المقصود الأولَ من ذلك الكلام بل الإفهامَ، فيكون بيّنا في نفسه عند العلماء، مُشكلا في ظاهره عند غيرهم. وتلك طريقةُ القرآن، فإنه أتى فيه مثلُ ذلك مع كونه أتى بصورة من العبارة اشتملت على معان يَعجز[4] الفصحاءُ عن فهمها، فكيف عن الإتيان بمثلها مع أنها أوضح العبارة وأبينها. ولكنها أتت على وجه من الدلالة والإتقان في العبارة المطابِقة للمعنى المقصود بحيث يَعجز البشرُ عن الإتيان بمثله، كما سنبين لك فيما نذكره في هذه الآيات ومثلِها.

* * *

[أقسام الوُرّاث]

فقوله تعالى: [يوصيكم الله] فى أولٰدكم. اعلم أنه إنما ذكر الله من الوُرّاث أربعةَ أجناسٍ، وهم آباء وأبناء وإخوة وأزواج، فهؤلاء هم المذكورون في النص لا غير. وكلُّ جنس منهم ينقسم إلى نوعين: ذكور وإناث. وكلُّ نوع ينقسم إلى أشخاص. وقد وضعنا لكل جنس لوحا مفردا كان أو مركبا، وسواء كان التركيب ثنائيا أو ثلاثيا أو رُباعيا. وذلك يقتضي أن تكون الألواح خمسةَ عشرَ لوحا حسب عدة صور المفردات والمركبات. وسنُبَرْهن على حصر هذه العدة. وكل لوح ينقسم إلى مُربَّعات. كل مربع يشتمل على أضلاع قد[5] تختلف عدتُها، كلُّ ضِلْع فيه صورةٌ جزئية. وهذه الأضلاع محيطة بكل صورة يُمكن وقوعها في الوجود في معنى الفرائض. قد حصرناها حصرا واجبا

---

[1] جميع النسخ: المناقضة.
[2] ش: وينبه.
[3] سورة الحج، ٢٢/٥٣.
[4] ش: تعجز.
[5] ر – قد.

بحيث إنه لا يمكن أن يُنقَص عنها صورة ولا يزاد عليها. وأثبتنا حُكمَ كلِّ مَن وُجد فيها فرضا وإرثا قصدنا بذلك راحة سرِّ كل عالم وفقيه فيستغنى بذلك عن التفقه في وجه يطلبه،[١] لأنه يراه مثبتا في ضِلْع من الأضلاع. وقد وضعنا للفروض علامات، وهي الحرف الأخير من اسم كل فرض. فجعلنا عن الثلُثين ياءً ونونا متصلة بها، وعن النصف فاءً، وعن الثلُث ثاء، وعن الرُّبع عينا، وعن السُّدس سينا، وعن الثمن ن، وعن الكل ل، وعن القيراط ط، وعن الشركاء كا، وعن قيراطين طين، وعن الباقي قي. وإذا رأيتها مع فرض فهي علامة الأولوية، أعني بعد الفرض كان الوارثُ أولى بالباقي من المؤمنين. فاعرف ذلك متى رأيتهم مثبتا في الألواح.

[عدد أجناس أولي الأرحام]

فأما بيان أن أجناس أولي الأرحام أعني الأنساب المفردة والصهرَ ومركباتها خمسةَ عشرَ فهو أني أقول:[٢] إن الأجناس المفردة هي أربعة، لأنه إما أن يوجد آباء فقط أو أبناء أو إخوة أو أزواج، وإما يوجد جنسان. وذلك يقتضي وجودَ ستِّ صورٍ ثُنائية، وهي آباء وأبناء، أو آباء وإخوة،[٣] أو آباء وأزواج، أو أبناء وإخوة، أو أبناء وأزواج، أو إخوة وأزواج. فهذه الصور التي يمكن أن توجَد في الثنائيات لا غير. وأما الصور / الثلاثية فهي أربعة. وذلك إما أن يوجَد آباء وأبناء وإخوة، أو آباء وأبناء [٩٠و] وأزواج، أو آباء وإخوة وأزواج،[٤] أو أبناء وإخوة وأزواج. وأما الرباعية فصورة واحدة وهي وجود الأجناس الأربعة. فإذا جُمع الجميع بلغ خمسةَ عشرَ صورة. وقد أثبتنا كلَّ صورة في لوح. وأثبتنا لوحا آخر فيه برهانُ هذا الحصر هو موضوع في مربع اثنين في اثنين.

وقد علمتَ أن الدلالات اللفظية الدالة على المعاني هي ثلاثة كما ذكر القدماء، وهي دلالة المطابقة والالتزام والتضمن. فالمطابقة هي ما يدل عليه اللفظ بصريحه وظاهره. والالتزامُ هو ما يدل عليه اللفظ بتلويحه وهو ما يَلزم من دلالة الصريح في نفسه. وكل واحد من الدلالتين حكمه واجب، إذ اللازم حكمه كحكم الملزوم في الوجود.[٥]

---

[١] ر – فرضا وإرثا قصدنا بذلك راحة... بذلك عن التفقه في وجه يطلبه، صح هـ.

[٢] "فهو أني أقول"، هذا القسم خبر "فأما بيان".

[٣] ش – أو أزواج وإما يوجد جنسان وذلك يقتضي وجودَ ست صور ثنائية وهي آباء وأبناء أو آباء وإخوة، صح هـ.

[٤] ك – أو آباء وإخوة وأزواج، صح هـ.

[٥] ك – في الوجود، صح هـ.

وأما دلالة التضمن فإنها لا تكون واجبةً إلا إذا قُصد بها الإشارةُ إلى كل ما تضمنته من الممكنات، لأن التضمن إنما هو عبارة عن لفظ يتضمن أشياءَ كثيرةً. فمتى قَصد القائل منها معنًى غيرَ معيَّن لم يعرفه السامع لاحتمال كون الإشارة إلى غيره. فلهذا كانت غيرَ واجبة الدلالة إلا[1] على ما قلنا أو أن[2] يعيّن المتكلم ما أشار إليه بلفظ مبيّن، أو بما يميز به مرادَه. وحينئذ تعود الدلالة إلى المطابقة أو الالتزام. واعلم أن دلالة المطابقة هي كدلالة المقدَّمات على أنفسها، ودلالةَ الالتزام هي كدلالة المقدَّمات على النتائج. ولمّا كانت دلالة اللزوم تُستعمل عند طلب الإيجاز وكانت بينةَ الوجوب استعملها الله تعالى كثيرا وخصوصا في أحكام المواريث ليوجِز ويُعجز مع[3] البيان التام كما سيتضح لك إن شاء الله تعالى. وقد يدل اللفظ على اللازم وعلى لازم اللازم، فتنبه لذلك.

وإذ قد علمت ذلك فاعلم أنه متى اعتبرتَ فرائض الميراث وجدت أنه لم يصرح النص منها بغير ثمان صورٍ فقط. وهي أربع مفردة، وأربع ثنائية، وبقية الصور لم يصرح[4] بذكرها لاستغنائه بظهور لزومها عن التصريح بها. ولما غفل أكثرُ العلماء عن ذلك ألجأهم إلى العَوْل كونُهم ألزموا أنفسَهم إعطاءَ أصحاب الفروض فروضَهم على كل تقدير. وذلك ليس بلازم بل غير جائز عندهم أيضا، لأنهم قد سلكوا الصواب في بعض المواطن[5] دون البعض. لأنهم أعطوا البنتين الثلُثين في البعض ولم يجعلوا ذلك جاريا على كل حال. لأن قولنا: إن البنتين لهما الثلُثان، إذا لم نفهم أن هذا الفرض لهما مقيَّدٌ بأن لا يكون معهما ذَكَرٌ هو أخ لهما لزم التناقض. وذلك أن قوله: **للذكر مثل حظ الأنثيين**، يعطي أن يكون للذكر الثلُثان، وليس كذلك. وقد فهموا منها الواجب فأعطوهما معه[6] النصف وهو حظ الواحدة. وأيضا لو لم نفهم أن النصف حظ الواحدة بشرط الانفراد للزم أن يكون للبنتين الكلُّ وللابن كلٌّ آخر. وعارض ذلك قولُه: فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ.[7] ولٰكنا[8] فهمنا أنه لو اجتمع اثنا[9] عشر ذكرا وأنثى[10] واحدة أزواج.[11] فهذا هو السر الذي مُنح بفهمه

[1] ر ك - إلا.

[2] ر - وأن.

[3] ش - مع، صح هـ.

[4] ر - النص منها بغير ثمان صور... وأربع ثنائية وبقية الصور لم يصرح، صح هـ.

[5] ش: المواضع.

[6] ش - معه، صح هـ.

[7] الآية ١٧٦ من هذه السورة.

[8] ر: ولٰكننا.

[9] ش: اثني.

[10] ك: أو أنثى.

[11] ر: ثم ولد وإخوة بغير أزواج.

من انحلّ له ما اختُلف فيه ما شاء الله من الخلق. فافقه[1] جيدا. واحفظ وصيتي هذه عندما تتأمل آيات الفرائض، وهي أن تفهم كلَّ كلام في موضعه متتابعا على مقتضى التقديم والتأخير، فلا تتعرضْ إلى تقديم المؤخَّر وبالعكس. ومثال ذلك أنك لا تتعرضْ إلى فهم حُكم الآباء قبل فهم حكم الأبناء، ولا تزد على ما تجد بين يديك. وفرِّغْ ذهنك لفهم ما يلزم عندك الآن. ولا تَقِفْ مع ما سمعتَه طولَ الزمان بل افرض كأن هذا الكلام قد أنزله الله في وقتك على النبي صلى الله عليه وسلم، وليس إلا أنت من[2] يجتهد. فافهمه،[3] ثم ما شئت بعد الفهم اعتقد. فقد كررتُ له كثيرا ليقوَى منك الإيمان بالقرآن. وتتحقق أن هذا إيجاز وإبلاغ عن مثله يَعجز سائرُ الأنام. والسلام.[4]

مثال فهم النص على التتابع هو أن تعلم متفهما عند قراءتك الآيات أن الله تعالى بيّن أولا حُكمَ الأولاد بمفردهم، ثم الآباء والأولاد، ثم الآباء بمفردهم، ثم الآباء / والإخوة، ثم الأزواج بمفردهم، ثم الازواج والأولاد، ثم الإخوة والأولاد ثم الإخوةِ [٩٠ظ] بمفردهم آخر النساء.

* * *

واعلم أن قوله: يُورَثُ كَلَٰلَةً،[5] يدل على وجود وارث مع الإخوة. ولما لم يعيِّنْه النص جاز في العقل أن يكون إما الأولاد وإما الآباء أو كلاهما، لأن الزوجة قد تَكِلّ مع وجود هؤلاء. ولكنه لمّا كان قد عرّفَنا انتفاء الإخوة[6] مع الآباء والبنين، ثم عرفنا حُكمَ الآباء مع الإخوة وأن الفرض للآباء قال ههنا: يُورَثُ، ليدل على وجود وارث، ولا جائز أن يكون إلا من الأبناء دون الآباء ودون إناث فقط بل ذكور، وهذا مع الكلالة. فالكلالة مع وجود الآباء لا يجوز[7] أن يُقضَى[8] فيها بالفرض للإخوة، لأن الآباء قد وُجدوا معهم. وقد تقدم حُكمُ النص بأنهما متى وُجدا معا فالفرض للآباء والباقي للإخوة. والقول مع الآباء مطلق سواء وُجدت الأزواج أو عُدمت. وذلك رعاية من الله تعالى للإخوة في هذه الصور،[9] لأنه يصح لهم أكثرُ من الفرض. وأما متى ورث الأبناءُ بمفردهم

---

[1] ش: فافهم.
[2] ر ك: أنت ممن.
[3] ك: فافهم.
[4] ش ك – والسلام.
[5] من الآية التالية.
[6] ر – إما الأولاد وإما الآباء أو كلاهما لأن الزوجة قد تكل مع وجود هؤلاء ولكنه لما كان قد عرفنا انتفاء الإخوة، صح هـ.
[7] ر: لا تجوز.
[8] ك: أن يقتضي.
[9] ش: في هذه الصورة.

وكان هناك إخوة فالفرض للإخوة الثلُثُ رعايةً من الله تعالى للأبناء وتوفيرا عليهم. فإن قلت: زدنا بيانا ودليلا على ما قلتَه، وبيِّنْ لنا ما المانع أن يكون قوله تعالى: يُورَثُ كَلَالَةً، يدل على وجود آباء وإخوة؟ ولِم قيِّدتَ هذه الصورة بالبنين فقط مع إخوة فقط؟[1] فالجواب أنه يلزم التناقض. وذلك أن الآباء والإخوة إذا وُجدوا كان للآباء النصفُ وللإخوة[2] النصف الآخر. فكيف يكون للإخوة الثلُثُ مع ذكر الكلالة إن كان الوارث ههنا[3] آباءً؟ فافقه هذا جيدا لينحلّ الإشكال.

واعلم أن أجناس[4] الوُرّاث أربعة،[5] بعضهم أولى من بعض، فبعضهم أولى بأكثر التَّرِكَة، وبعضهم أولى بالفرض من بعض. يُعلَم ذلك من مقدار الفرض أو الباقي للوارث من التركة، أو تقدمِ صاحب الفرض، وإيثارِ الله له به دون غيره، فافهم. فالأبناء أولى الفِرَق بالتَّرِكَة. ولهذا قدم الله ذكْرَهم. ثم الأزواج أَولى من الآباء ومن الإخوة بزيادة فرضهم، يدلك على ذلك إيثارُهم للزوج بالنصف مع وجود الأبوين وإيثارُ الزوجة بالربع على الأم متى وُجدت مع الآباء والإخوة. وبعدهما في الرتبة الأبوان، فإنهما أَولى بفرضهما من الإخوة متى كانوا مع البنين، ولهما النصف مع الإخوة ولو كانوا مائة. وهذا الإيثار من الله تعالى يوجب أنه متى وُجد شطرٌ من المال بعد أخذِ ذوي الفروضِ فروضَهم أن يأخذه الأولى في تمام فرضه الأكبر، لأنه إنما نُقص فرضه كيلا يزاحم مَن هو أولى منه بالكل. فإذا لم يكن ثَمّ من يؤذيه بالزحمة فيكون الأولى أحقَّ[6] بفرضه الأكبر، لأنه إنما نُقص[7] فرضه لأجل المزاحمة، وقد عُدمت الزحمة والتضيّق. وبحسب هذا الأصل الأصيل الذي يقتضيه النظر الصحيح اللازم من أحكام الله تعالى أنه يجب متى وُجد من وفّر الله فرضه كالزوج مع وجود بنت فقط أن يكون للزوج معها النصف. إذ ليس لها إلا النصف والنصف الآخر ليس له من يزاحمه فيه وهو أحق من المؤمنين بالربع الآخر. ألا ترى أنه أحق به نصا مع وجود مَن هو أحق من المؤمنين كالآباء أو الإخوة[8] أو كليهما. فكيف لا يكون أحقَّ من المؤمنين[9]

---

[1] ر – مع إخوة فقط.

[2] ش ك: والإخوة.

[3] ر – ههنا، صح هـ.

[4] ش: أن الأجناس.

[5] ش ك: الأربعة.

[6] ك: حق.

[7] ر ك: إنما نقض.

[8] ش ك: والإخوة.

[9] ك – الآخر ألا ترى أنه أحق به نصا مع وجود من... كليهما فكيف لا يكون أحق من المؤمنين، صح هـ.
| أحق من المؤمنين: أي أحق من بيت المال.

وهو أحق من الأحق منهم. وهذا كقوله تعالى: وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ.[1]

واعلم أن الولد إنما يشير به النص إلى الذكور دون الإناث إلا أن يقترن به لفظٌ يدل على ذلك أو ينبّه[2] عليه. فقوله تعالى: وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ،[3] هو إشارة إلى من يرث من الذكور كيلا يضيِّق الزوجُ عليهم بفرضه لأنهم أحق منه. وأما إذا لم يكن ثَم من يرث الكُلّ فهو ربّ فرضٍ لا إرثٍ، لأن الوارث عبارة عمن يرث الكلَّ إذا وَجده. ولا يُشكلْ عليك قولُه تعالى: إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ.[4] / فتظنَّ [٩١و]
أنه على خلاف ما قلناه، لأنه لمّا كان الولد من شأن النص أن يشير به إلى الذكور قدّم قوله: هَلَكَ، وقال بعده: لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ. وقد كان يغني قولُه: لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ، عن قوله: هَلَكَ. لكنه لما كان لفظ الولد إنما يُستعمل والمراد به أنه الوارث من الأولاد، أعني الذكور دون الإناث بيّن عند إرادته ههنا أن يكون الولد دالا على الذكور والإناث بقوله: هَلَكَ. إذ لم تَبقَ له ذريةٌ يُذكَر بها بعد موته فقد هلك جملة بَتّةً. وكذلك قوله: **يوصيكم الله في أولٰدكم**، لمّا أتبعها بقوله: **للذكر مثل حظ الأنثيين**، تبيّن[5] أن المقصود باللفظ النوعان، بخلاف قوله في الآباء: **إن كان له ولد**، فإنه يريد به الذكور، لأن الأبوين مع البنت[6] يفضل لهما النصف فلا يجوز أن يُقضَى لهما ههنا بالفرض وخصوصا للأب، لأنه ذو وراثة لِما يجده لا فرض[7] فقط. وفي هذه العبارة معنى آخر تعطيه الضرورةُ عند وجود أبوين وزوجٍ وبنت. فلا بد أن يأخذ الزوجُ الرُّبعَ والأبوان الثُّلُثَ. فلهذا عبّر بلفظ الولد الدال على الذكور والإناث.

وأما قوله: **فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه**، بين بقوله: **وورثه**، أنه يريد نفيَ الذكور والإناث معا، لأنهما لا يرثان الجميعَ إلا إذا لم يكن له ولدٌ أصلا. ولمّا كان المقصود من الحكم إنما هو التوسيع على الولد لا التضييقُ على الزوج، إذ هذا المعنى قد انتفى بفرض الله تعالى له النصفَ، فلزم من ذلك أنه متى وجدنا ولدا لا يرث وليس معه ذو فرض

---

[1] ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ (سورة الأحزاب، ٦/٣٣).

[2] ر ك: وينبه.

[3] الآية التالية.

[4] الآية ١٧٦ من هذه السورة.

[5] ر: بين.

[6] ش: مع البيت.

[7] ك: لا فرط.

يضيّق عليه أنه[1] يكون له ما يتمم فرضه الأكبر، لأن الله تعالى لم يقصد تنقيصَه بل لأَخْذِه[2] بحق أقل من قيراط. فبان لنا جواز نقص نصيب البنتين. فلمّا علِمْنا أنه إذا انفرد أصحاب الفروض كان لهم نصيبهم المُعَيَّن، وإذا اجتمعوا بغيرهم ربما نقص، زال الحرج. وإذا سلكنا هذا المسلك بعينه في مواضع العَول بطل وعُدنا إلى كتاب الله تعالى. فهذه الصورة حجة عليهم منهم لا محيصَ لهم عنها، فأحكِمْها واحكُمْ بها محقًّا إن شاء الله تعالى.

[نقاش حول عمل العول]

ومن أبلغ الحجج في نفي العول[3] وإبطاله مما[4] هو عند القائلين به[5] أنه إذا وُجد أبوان وزوج وبنت جعلوا القسمة بالعول. فإن اتفق مع البنت ابنٌ جعلوا الباقي وهو عشرة قراريط[6] لها وللأخ، فعاد نصيب البنت ثلث العشرة. وقد كانوا من قبل لا يَقنعون لها بالعشرة بل يَنقصون الأبوين والزوج بالعول من أجلها. وكان الواجب على رأيهم أن يجعلوا لها الإثنى عشر وللابن أربعةً وعشرين لتعود القسمة من خمسين قيراطا. فلم يفعلوا ذلك بل سلكوا فيه الصواب. وإذا[7] كانت التي من أجلها نقصنا الزوجَ والأبوين، إذ حُكمنا بالعول موجودة، فكيف يجوز أن نُكمل للأبوين والزوج، وتلك بعينها موجودة وقد انضاف إليها من يستحق مثلي نصيبها معها وبمفرده. فهل لعاقل أن يَحكم بهذا من غير نص ولا لازمِ نص. فلو أقاموا البنت مقام الابن في هذه الصورة لسقط العول. ومن البَيِّن عقلا أنهم لم ينقصوا الأبوين والزوجَ مع وجود بنت إذا[8] حكموا بالعول إلا توفيرا للبنت. فكان الواجب أنه إذا وُجد معها ابنٌ أن ينقصوا الأبوين والزوجَ أيضا أكثر مما نقصوهما مع البنت كما لو كان موضعَ الابن بنتٌ أخرى. وإذا كانوا لم يجعلوا حظ الذكر مثلَ حظ الأنثيين في مثل[9] هذه الصورة ولا مثل حظ الواحدة

---

[1] ر ك: أن.

[2] جميع النسخ: لأخذت.

[3] العول في اللغة الميل إلى الجور والرفع، وفي الشرع زيادة السهام على الفريضة، فتعول المسألة إلى سهام الفريضة، فيدخل النقصان عليهم بقدر حصصهم (التعريفات للجرجاني، «العول»). وهو ضد الرد. انظر: كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، «الرد».

[4] ر: بما.

[5] ش ك – به.

[6] القيراط الجمع القراريط: جزءٌ من أجزاء الدينار وهو نصف عُشره في أكثر البلاد، وأهل الشام يجعلونه جزءا من أربعة وعشرين (لسان العرب، «قرط»).

[7] ر: وإذ.

[8] جميع النسخ: إذ.

[9] ر – مثل.

فلِمَ أنكروا علينا إذا جعلنا حظ الواحدة مثل حظه أو مثل حظ عشرين من الذكور والإناث وهو العشرة قراريط الفاضلة عن الزوج والأبوين. فافقه هذا.

فإن قالوا: فعلنا ذلك لأن الله عيَّن للبنت النصفَ ولم يعيِّن للابن شيئا؟ قلنا: بل عيَّن بقوله: **للذكر مثل حظ الأنثيين**، وقد علمتم به في الجمع بيْن الأخ والأختين. وبعد هذا قلنا: الحجة البالغة عليكم لكونكم سلكتم سبيلا لم يأت في كتاب الله ولا فعله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، / وهو العَول. ولهذا قال ابن عباس: من باهلني [٩١ظ] باهلته.[١] وإذا كانت القسمة بالعول تنقص أصحابَ الفروض من فروضهم ويسمى ذلك الناقص باسم الكامل مع مخالفة الكتاب والخروجِ عن الحقيقة إلى لفظ المجاز، إذ لا يكون السدُس مِثْلا رُبعا لمال واحد أبدا[٢] بالحقيقة ولو سميناه رُبعا، فلِم أنكرتم علينا التنقيص مع موافقة الكتاب؟ وهل زدتمونا إلا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان،[٣] وهل أنتم متبعون إلا الظن؟ وهذا الغلط إنما نشأ لعدم فهمِ اللازم عن الصور الثمانية والمصرحِ بها، وقد أثبتناه في موضعه.

وأما أدلة ما ذكره من الصور فذلك قوله تعالى: **يوصيكم الله فى أولٰدكم للذكر مثل حظ الأنثيين**. فهذا ذكر صورةٍ مصرَّحة، أعني جنس[٤] الأبناء. فذكر حكم النوعين إذا وُجدوا معا بمفردهم. ثم صرَّح بذكر حكم[٥] البنات ثم الواحدة. ولم يذكر حكم البنين ولا حكم الواحد منهم، لأنه لزم معرفةُ ذلك مما تقدم، ولأنه متى حاز الذَّكرُ والأنثى جملةَ التركة كان الذُّكرَانُ أولى بذلك. ولمَا رأينا للأنثى وحدها النصف علمنا أن للذكر وحده الكلّ بقوله: **للذكر مثل حظ الأنثيين**، ومن مواضعَ أخرى سنذكرها إن شاء الله تعالى. ولما لم يرجِّح النصُّ إحدى البنات في قسمة الثلُثين[٦] علمنا أنهن متساويات، ولزم من ذلك أن الذكور أيضا متساوون في الكل، إذ[٧] لا أولوية في ترجيح أحدهم على الآخر كما لا أولوية[٨] في رجحان إحدى البنات على الأخرى.

---

[١] ر – ومن أبلغ الحجج في نفي العول وإبطاله بما هو عند القائلين به أنه إذا وجد أبوان وزوج وبنت جعلوا القسمة بالعول... رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو العول ولهذا قال ابن عباس من باهلني باهلته، صح هـ.

[٢] ش – أبدا.

[٣] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قول يوسف عليه السلام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ (سورة يوسف، ١٢/٤٠). وانظر أيضا: سورة الأعراف، ٧/٧١.

[٤] ر ك: أعني ذكر.

[٥] ش – النوعين إذا وجدوا معا بمفردهم ثم صرح بذكر حكم، صح هـ.

[٦] ر: في قسمه على الثلثين.

[٧] ر – إذ.

[٨] ش: على الآخر كالأولوية.

واعلم أنه متى ذكر الله فريقا وذكر فرْضَه فإنما نقضي له بذلك الفرض متى كان ذلك الفريقُ أو نوعُه[1] موجودا وحده. وأما متى كان معه غيرُه فقد يكون له ذلك الفرض وقد لا يكون، لأن النص قد بين فرض الغير مع ذلك الفريق أو نوعه. ولهذا[2] لا يجوز أن يُقضَى بالثلُثين للبنات متى وُجد معهن زوجٌ وأبوان، لأن النص قد صرح للزوج بالرُّبُع ولكل واحد من الأبوين بالسدس متى وُجد الولدُ، ولم يصرح للبنات والبنت بفروضهن متى وُجد الزوج والأبوان. فافقه ذلك ولا تنْسَ فتضلّ عن سواء السبيل. وقد يَتوهم غيرُ الخبير بالعربية أن قوله لو قال: "يوصيكم الله بأولادكم" أولى من قوله: فى أولٰدكم، وليس كذلك لدلالة حرف "في" على معنى زائد على دلالة الباء، وهو أنها دلت على أن هذا الحكم، أعني، للذكر مثل حظ الأنثيين، إنما هو: فى أولٰدكم، خصوصا.[3] وأما في غيرهم من الأجناس فقد يكون ذلك كذلك وقد لا يكون. فإن الأبوين أو الأخَ[4] والأختَ متى وُجدا مع البنين ورث كلُّ واحد سدسا، وفيما سوى ذلك بالحظ. وأما الأولاد فلا يقع لهم مثلُ ذلك أبدا، فكانت هذه العبارة أولى لما ذكرناه. ومن حكمة هذا اللفظ أيضا وفقهِه قولُه: فى أولٰدكم، فقط، ولم يقل: إذا ورثوكم، بل سكت عن ذلك ومثلِه ليكون اللفظ صالحا للدلالة على أولادكم إذا ورثوكم أو ورثتموهم بأن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين.

وقوله تعالى: فإن كن نساء فوق اثنتين، قد بيناه في موضعه اللائق به،[5] فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت وٰحدة فلها النصف. اعلم أن قوله: للذكر مثل حظ الأنثيين، إنما هو لفظ مطلق يلزم عند وجودهما معا وعند وجود أحدهما. لكن الأنثى صرح الله لها بالنصف وحدها ليلزم من ذلك أن يكون له الكلُّ لقوله أولا: للذكر مثل حظ الأنثيين. ولو لم يبيِّن الله حظها وحدها لَمَا لَزم معرفةُ حظه وحده من هذا الموضع، ولا يجوز أن نستلزم[6] من ههنا فنقولَ: يحتمل أن يكون قوله: مثل حظ الأنثيين، أنهما البنتان إذ لهما الثلثان، لأن ذلك مناقض لصريح النص. ولا يجوز استلزامه لأن صريح النص[7] أوجب له مع أخته الثلُثين ولهما الثلث. فكيف يلزم أن يكون له مع عدمها الثلثان

١ ش ك: ونوعه.
٢ ش: وهذا.
٣ جميع النسخ: خصوصة.
٤ ر: والأخ.
٥ وانظر أيضا الآية ١٧٦ من هذه السورة.
٦ ر: أن تستلزم؛ ك: أن يستلزم.
٧ ك – ولا يجوز استلزامه لأن صريح النص، صح هـ

ويبقى الثلث لبيت المال. وأيضا إن الثلثين هو نصيب الأنثيين، وهو أيضا نصيب جماعة من الإناث، فيقع الاشتباه. / فلهذه المعارضة ومثلِها يَلزم أن يكون الأنثيان [٩٢و] ههنا إشارةً إلى نصيب الأنثيين إذا كانت كلُّ أنثى وحدها مع الابن على ما قدمناه في الأصل المذكور، أو إذا كانوا جملةً، أعني الذكر مع الأنثيين. ولهذا أتى اللفظُ مُعرَّفا بالألف واللام في قوله: الأنثيين، وهو غير مشبِه لِلَّفظ الأول، إذ ليس في اللفظ الأول ذكرُ الأنثيين[١] فتعودَ الإشارة إليهما بل فوق أنثيين. ومن حكمة هذا اللفظ كونه قال: **فإن كن نساء**، ولم يقل: إناثا أو بناتٍ، لأنه لو قال ذلك لتَوهَّم بعضُ الخواطر أن هذه العبارة[٢] لا تدل على الكبار من النساء وإنما تدل على الصغار. فلما عين النساء دل اللفظ بحسب الاستعمال على الكبار منهن، ولزم من ذلك أن الصغار أولى، إذ احتياجهن إلى المال أكثر من الكبار لأجل التربية التي فاز بها النساء من مال أبيهن إن صِرْنَ كبارا أو افتقار[٣] الصغار إلى ذلك. ومثل هذا التأويل في قوله تعالى في الإخوة: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ [فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ]﴾.[٤] فانظر إلى هذه الآية وما اشتملت عليه من الإشارات والحِكَم التي يَعجز الناس عن الإتيان بمثلها.

واعلم أنه لما أراد الله تعالى تبيينَ هذين الحكمين، أعني التثنية وحكم الجمع وإيضاحَ ذلك صرّح بذكر أحدهما في البنات والثاني في الأخوات، لأن حكم البنت والبنات كحكم الأخت والأخوات. فصرح في البنات بالجمع، وذلك قوله: **فوق اثنتين**، وصرح في الأخوات بحكم التثنية فقال في آخر النساء: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾،[٥] لكون حكمهما واحدا. لأن العقل يَلزم من النص أنه لمّا كان نصيب الأختين الثلُثين كانت البنتان أولى بذلك لأنهما أقرب إلى الميت. ولما كان نصيبُ البنات الكثيرة لا يزداد على ذلك وجب أن لا يزداد نصيبُ الأخوات على ذلك، لأن البنت لمّا كانت أشدَّ اتصالا بالميت من الأخت امتنع جعلُ الأضعف زائدا على الأقوى. وأما كوننا نعطي الكلَّ للأخت فللأولية كما نبين.

فإن قلت: إذا كنت تعطي الأخت نصفا آخر للأولوية فما فائدة تعيين النص لها وهي بمفردها نصفا [كما] في آخر [سورة] النساء؟ قلنا: فائدة ذلك أن نَعلم نصيبها

---

[١] ش ك: انثيين.

[٢] ر – العبارة، صح هـ.

[٣] ر: وافتقار.

[٤] الآية ١٧٦ من هذه السورة.

[٥] الآية ١٧٦ من هذه السورة.

لنعلم منه نصيب الأم كما علمنا من نصيب الأخ نصا نصيب الأب لزوما. وقد عبّرت العرب عن التثنية بالجمع لسبب. وذلك أن التثنية في الأصل إنما هي جمع لأن الجمع يَصْدُق عليها. وذلك أن الجمع في مفهوم اللغة إنما هو عبارة عن مجموع آحاد وذلك يصدق على الاثنين، ولذلك لم يصرح الله تعالى بحكمٍ مفرد. ومما يؤكِّد ما قلناه -وإن كانت العربية كافية فيه- قولُه تعالى: **فإن كان له إخوة**، وأقل الإخوة اثنان وهو يَصدق على الاثنين من الذكور[1] دون الأخ والأخت لدلالة اللفظة على الذكور خاصة. ولا يوهمْك قولُه تعالى: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ﴾،[2] فتظنَّ أن الإخوة تدل على الذكور وعلى الإناث إذ كان[3] كل فريق وحده، لأنه إنما يَلزم ذلك لو لم يقل: **رجالا**. فلما قال: **رجالا**، دل على جمع إخوةٍ رجال فغلبهم في الذكر وإن صَحِبهم النساءُ. فلهذا اختصر ذكر حكم التثنية في الإخوة لدخولها في ضمن الجمع. فافقه ذلك.

واعلم أنه إنما عبرت العرب عن هذه الصورة المذكورة أولا وهي الجمع باسم التثنية دون غيرها لأنه أقل الجمع وأوله، فوَضعَت له هذا الاسمَ طلبا للإيجاز عند الإشارة إليه. ولم يمكن ذلك في كل عدد خيفةَ التطويل، لأن أصل الوضع إنما هو للإيجاز، ولا يحسن بالعقلاء أن يُبطلوا هذا الوضع أو يغيروا هذا الأصلَ وهو الأحسن. على أننا لا نحتاج إلى جعل التثنية جمعا ههنا بل قوله: **فوق اثنتين**، يريد ما زاد عليهما، وذلك لنفهم به حُكمَ ما زاد على الاثنتين من الأخوات. وقوله في الأخوات أَوضحَ لنا حُكم البنات، لأنه قال في آخر النساء: ﴿فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾،[4] ولم يقل: فوق، فافقه ذلك. / فقد كررناه ليتضح. [٩٢ظ]

واعلم أن هذه الفروض إنما هي واجبة للبنت والبنات، والأخت والأخوات متى وُجد كلُّ فريق وحدَه. وأما متى وُجد معه غيره من باقي الأنساب أو الصهر فقد يكون له هذا الحكم وقد لا يكون، كما لو وُجدت الكلالة فللأخوات حكمٌ آخر. وكذلك البنات مع وجود آباء وزوج كما سنبين. ولا تطمعْ مني في غير هذا المكان ببسط[5] الكلام في حكم الألفاظ فإن ذلك يوجب الإسهابَ ويطيل الكتاب. إنما تطمع بذلك عند ذكري للأحكام، فإني أُشبع فيها القولَ والبيان بحسب الإمكان. وإنما بسطت هذا ومِثلَه

---

١ ش ك: من المذكور.

٢ الآية ١٧٦ من هذه السورة.

٣ ر: إذا كان.

٤ الآية ١٧٦ من هذه السورة.

٥ ك: يبسط.

في مواضعَ قليلةٍ ليكون ذلك أُنْمُوذَجا تَستعمله في مواضعه عند احتياجك إليه وتستنبط مثله من نفسك إذا كنت قيما بمعرفة اللغة مفردها ومركَّبِها، أعني معرفة ما يتعلق منها بما أنت بصدده من الكلام.

وقوله تعالى: **ولأبويه لكل وٰحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد**، هذا تصريح بحكمٍ ثنائيٍ، وهو وجود الآباء والأبناء. وقوله: **فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث**، هذا تصريح بذكر فرضِ الآباء بمفردهم وهو الثلُث للأمّ. ولما عين أن الوُرّاث[1] هم الأبوان لم يحتج إلى أن يَذكر فرضَ الأب للزوم معرفته من تعيين فرض الأم، لأنهما إذا وُجدا معا ووجب لها الثلُث فقد لزم أن الثلثين للأب موافقا لقوله أيضا: **للذكر مثل حظ الأنثيين**. ولما ذكر حكم الأبوين مع تعيين نفي الولد ثم عطف عليه بذكر حكم الأبوين مع الإخوة علمنا أنه يريد ذلك أيضا مع عدم الولد. إذ لو كان مع وجوده لعيّنه كما عَيّنه مع الآباء أولا بقوله: **إن كان له ولد**، ولو كان مع وجوده لكان عيّن أيضا فرض الإخوة وتَركَ الباقي[2] للبنين كما ذَكَرَ فرْضَ الآباء وترك ذكر فرض[3] البنين. ولمّا صرح بفرض الأم دون الأب وكان قد لزم أن يكون للأب ضِعفُ الأم عَلِمنا أن الصورة الثانية مِثلُ الأولى، وأن للأب ضعفَ ما للأم. ولهذا قدم تلك الصورةَ ليكون المعطوف به كالمعطوف[4] عليه، لأن خاصية المعطوف به الاتصافُ بما اتصف به المعطوف عليه. وغيرُ هذا الوجه لا يجوز أن يُقْضَى به، إذ ليس له دليل يستند إليه ولم يعين النصُّ فيه شيئا.

ومن المحال أن يكون للأم السدس والباقي للأب وليس للإخوة شيء، لأنه يكون ذكرُهم لغوا بقوله: **فإن كان له إخوة**، لأن النص لم يعين للأب شيئا ولا للأخوة شيئا، ولأنه يكون مناقضا لقوله تعالى: **وورثه أبواه فلأمه الثلث**، لأنه لما وُجد الإخوة مع الأبوين ولم يورثهم شيئا فقد ورث الأبوانُ الجميعَ، وقد صرح الله تعالى بقوله: **فلأمه السدس**، وقد كان لها الثلث قبل ذلك. وفي كلا الصورتين هما الوارثان فقط. فلزم التناقض والاختلاف الذي لا يرضاه إلا مَن قصْدُه إبطالُ كلام الله تعالى والقدح فيه أو الغفلةُ[5] عن مفهوم النص ومفهوم لازمه. فَافْقَهْ وأعرض عما سواه

---

[1] ش: أن الوارث.

[2] ر ك: بالباقي.

[3] ر – فرض..

[4] ش ك + به.

[5] ك: والغفلة.

تَفُزْ بالحق إن شاء الله تعالى. ومن المحال أيضا أن يكون للأم مع الإخوة سدُسٌ والأبُ موجود معها وليس له شيء، فبقي أن يكون له إما مثلُها ولم يعيّن ذلك ولا دل عليه عطفٌ، وإما هذا فدل عليه العطف. ولهذا أتبعه الله بلفظ آخر بعده مؤكدا فيه إيثارَ الآباء مع الأبناء، وهو قوله: ءاباؤكم وأبناؤكم. فقد تبين لك أن للأب الثلثَ مع جمع الإخوة وللأم السدسَ. ولزم أن لا يكون لهما مع الأخ أو الأخوات أقلُّ من ذلك. وجاز أن يكون لهما مع الأخ أو الأخوات أكثرُ من ذلك، إذ لم يُعيِّنْ لهما النصُّ فرضَيْهما إلا مع جمع الذكور من الإخوة لا مع من دونهم، فبقي حكمهما مع من دون الجمع كحكم الوُرّاث، إذ ليس لهما فرض معين. ولما لزم أن لا يكون لهما مع إناث
[٩٣و] الإخوة أقلُّ من الفرض[١] وجب أن يُقضى لهما / بالموارثة مهما أنه يَحصل لهما أكثرُ من الفرض، والباقي للإخوة لتصريح النص بالفرض للآباء مع جمع[٢] الإخوة وللزومه مع من هو دونهم. فافقه ذلك. ومما يؤيِّد ذلك أننا لو قضينا للأم بالسدس وللأب بالثلث مع الأخ أو الأخت لحصل للأخ أو الأخت[٣] النصفُ مع الأبوين. وذلك بخلاف تخصيص النص للأبوين بالوصية، وبخلاف إيثار الآباء بالفرض على الإخوة متى وُجدا مع البنين ونفي الإخوة دونهم. وإنما يكون للأب الثلثُ متى وُجد مع الأخوين، فيحصل لكل واحد منهما مِثلُه لا أكثر. فإن كانوا أكثرَ كان هو الأرجح عليهم بفرضه. ولهذا الوجه بعينه يمتنع أن يكون فرضُه السدسَ لكونه يحصل للأخوين أضعافُه. وذلك مناقض لتخصيص النص له بالوصية مع البنين مع ما ذكرناه من أحكام النص. فهذا ذكرُ ثنائيّةٍ أيضا، وهي الآباء والإخوة.

ولنزدْ القولَ بيانا ونذكر وجهَ لزوم النصف للأم والكلِّ للأب وحكمَهما مع الأخت أو الأخوات[٤] فنقول: إنه لمّا صرح الله تعالى بفرض الأخ والأخت في آخر النساء لزم أن يكون للأبوين مثلُ ذلك الحكم. وكذلك لزم في الابن، لأنه إذا كان للأخ الكلُّ فقد لزم أن يكون ذلك للولد لأنه أَولى من الأخ وأحق به، ولهذا أُلغِيَ ذكرُ فرضه. وكذلك القول في الأبوين، لأنه متى وجب للاخ وحده الكلُّ وللأخت وحدها النصف لزم أن يكون ذلك للأب وحده وللأم وحدها لأولويتهما. ولا يقال: إن النص عيَّن للأخت وحدها نصفا ولم يعين للأم وحدها فبقيت على ما عيِّن لها، أعني الثلث. فالثلث لم يعيَّن لها إلا مع الأب،

[١] ش ك: من الفروض.
[٢] ز – جمع، صح هـ.
[٣] ش – لحصل للأخ أو الأخت.
[٤] ر: والأخوات.

وأما إذا كانت وحدها[١] فلها النصف لزوما. وذلك اللازم إنما وجب من كون الله تعالى لم يعيّن ما للأب وحده بل عين ما للأخ وحده. فلما كان الأخ وحده له الكل لزم أن يكون الأب وحده له الكل، لأنه الأولى. وكذلك لما كانت الأخت وحدها لها النصف لزم أن تكون الأم وحدها لها النصف، لأنها الأولى. وإذا لزم بالأولوية معرفةُ ما للأب مما نصّه الله للأخ لزم بالأولوية معرفةُ ما للأم مما[٢] نصه الله للأخ[ت].[٣] فافهم[٤] كونه استغنى عن تبيين نصيب الأب أو الأم إذا انفرد أحدهما بتبيين نصيب الأخ أو الأخت، إذا انفرد أحدهما، فليس لنا حينئذ أن نجعل نصيب الأم إذا انفردت كنصيبها مع الأب بل أرجحَ. وإذا كان نصيب الأم مع الأب كنصيب الأخت مع الأخ، فلا أقل من أن يكون للأم بمفردها كما للأخت بمفردها، لأن الأب والأم أرجح من الأخ والأخت. وذلك بما رجّحهما الله به من الفرض وبما خصّصهما به من الوصية دون الإخوة. فأما ترجيح فرض الأبوين على الإخوة فظاهرٌ، فإن لهما النصف وللإخوة[٥] النصف[٦] الآخرَ ولو كانوا مائة، وكذلك الأب وحده أو الأم. ولأن الإخوة قد يُمنعون الإرث جَلَمَةً[٧] بخلاف الآباء. وأما إذا كانت الأخوات أو الأخ أو الأخت فللآباء أكثر من الفرض. ولهذا المعنى أُلْغِيَ حكمُهما مع غير جمع الإخوة ليزدادوا على الفرض، إذ إنما الفرض مع جمع ذكور الإخوة، فبقي الأبوان أو أحدهما مع غيرهم ورثةً بعد الفرض للذكر مثل حظ الأنثيين.

فإن قيل: كيف لزم هذا الحكم، إذ لم يصرح النص فيه بشيء؟ قلنا: قد تقدم أنه لما كان فرض الأب بمفرده كفرض الأخ لزوما، ولزم أيضا أن حكم الأم كحكم الأخت وجب أنه متى وُجد أحدهما موضعَ صاحبه أن يكون له مثله لمساواة فروضهما. ولأنا لو وجدنا الأخوين لكان لكل واحد نصفٌ، فوجب أن يكون للأب النصفُ إذا وُجد مع أخ واحد لأولويته عليه. وكذلك القول في الأم والأخت، ومثله إذا وُجد أخ مع أم فإنها أولى من الأخت مع أخيها. ومثله إذا وجد الأخ والأب مع الأم لأولويتهما على الأخوين والأختِ. ومثله إذا وجد الأب والأم مع الأخ والأخت فللذكر مثل حظ الأنثيين. وأما متى كانت أختان وأخٌ فحكمُهما كحكم أخ آخر مع الأول.

---

[١] ر – وحدها، صح هـ.

[٢] ك – مما، صح هـ.

[٣] ش + لزم بالأولوية للأخت.

[٤] ر ك: فافقه.

[٥] ك – النصف وللأخوة.

[٦] ش: فإن لهما النصف.

[٧] الجَلَمة جميعُ الشيء، يقال: أَخَذَه بجَلَمَتِهِ، أي بأَجْمعِه (تاج العروس للزبيدي، «جلم»).

[٩٣ظ] وكذلك متى كثر الإناث بحيث تنقص فروضَ الأبوين فليس / إلا الفرض والباقي للأخ والأخوات كما تقدم من قبل، والسلام.

وهذه القسمة، **من بعد وصية يوصى بها**، كما قلنا في البقرة عند قوله: كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ،[١] وتمامه. فيقسم الباقي بعد الوصية المذكورة في البقرة، أو وصيةٍ ما، **أو دين**. وقدم الوصية في الذكر للاهتمام بها وجعلها كالدَّين بقوله: **أو دين**. وذلك أن الوَرَثَة يشق عليهم إخراجُ الوصية، لأنها قد[٢] أُخذت منهم. فقدّم الله ذكرَها ليسارَع إليها كالمسارعة إلى وفاء الدَّين بل أبلغَ لتقديمها في الذكْرِ.

وقوله: **ءاباؤكم وأبناؤكم**، أي قد بينا نصيب هؤلاء فلا يُذكَر أحدٌ منهم بعد ذلك بنصيب. واعلم أنه[٣] إنما قدم ذكر الآباء على الأبناء لأن فرضهم يتقدم على الأبناء، والباقي فللأبناء. ويُفهَم منه في المعنى آباؤكم وإن عَلَوْا، وأبناؤكم وإن سَفِلوا، كلٌّ في الميراث بمنزلة واحدة. وذَكَر الأقرب لنعلم أنه يقطع الأبعد. فإن لم يوجد الأقرب فقد قرب الأبعد. ثم أكد ما ذكره بقوله: **لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا**، تنبيها لنا بأن الله إنما آثر الآباء والأبناء على الإخوة لعلمه تعالى بأنهم أقرب نفعا. واعلم أنه تعالى لما بين أن الآباء أحق من الإخوة على ما هو ظاهر في النص، ثم بين ما للأخت الواحدة وما للأخ الواحد متى وُجد كل واحد وحدَه كما في آخر سورة النساء لم يُحتَج أن يذكر ما للأب وحده، لأنه لازم من الأخ أو ما للأم وحدها، فإنه لازم من فرض الأخت. وذلك للأولوية التي يتحققها[٤] العقل. ولهذا متى وُجد الأب وحده كان له الكلُّ، ومتى وُجدت الأم وحدها كان لها النصفُ كما للأخت، لأن الأبوين أَولى من الإخوة، ولهذا أُلْغِي ذكرُهما،[٥] والسلام.

وقوله تعالى: **فريضةً من الله**، نصبها على المصدر، أي فرضناها فريضة. والمعنى أن إيثار الله تعالى للآباء والأبناء بالفرض دون الإخوة إنما هو فريضة من الله، وإنه حَكَم بذلك لعلمه تعالى بالمستحقّ من غير المستحِق وبالأنفع من غير الأنفع. ولهذا أعقبه بقوله تعالى: **إن الله كان عليما حكيما**.

---

١ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٨٠).

٢ ر – قد.

٣ ر – أي قد بينا نصيب هؤلاء فلا يذكر... بعد ذلك بنصيب واعلم أنه، صح هـ.

٤ ك: تتحققها.

٥ ر: ذكرها.

﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: **ولكم نصف ما ترك أزوٰجكم إن لم يكن لهن ولد.** هذا يدل على حكم الأزواج بمفردهم. ثم يدل أيضا لكونه مطلقا غير مقيد بالأولاد أن يكون هذا الحكم مع وجود الآباء، أو مع وجود الإخوة، أو مع وجودهما معا؛ فهذه صورتان ثُنائيتان وصورة ثلاثية قد لزمت عن الفُراديّة. **فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين. ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد. فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين.** ولما قال: **فإن كان لكم ولد،** وكان هذا اللفظ مطلقا وجب أن يُقضى فيه بحكم الإطلاق، وأنه سواء كان الولد منه لا منها أو منه ومنها حكمُه واحد. وكذلك القول في ولدها. إذ هذا مفهوم اللفظ لا يَعدل عنه إلا من يذهل عن فهم اللغة ومفهومِ الألفاظ. ويجب أن لا تَغفل عن الميت في قوله: **لهن،** وفي قوله: **لكم،** فافقه هذا.

وقوله تعالى: **وإن كان رجل يورث كلٰلةً أو امرأةٌ وله أخ أو أخت فلكل وٰحد منهما السدس. فإن كانوا أكثر من ذٰلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصىٰ بها أو دين،** هذه صورة أخرى ثُنائيةٌ، وهي وجود أبناء وإخوة كما سنبين.

[تفصيل في أقسام الوُرّاث]

وها أنا أجمع لك ما صرح به النص وما يَلزم عنه، وأفصِّل[1] الجميع لئلا[2] تتعب في جمعه، وبالله التوفيق. فأقول: أما الصور الفرادية الأربعة فهي بينة في النص. وأما الثنائية التي صرّح بها النص فهي أربع صور: آباء وأولاد، ثم آباء وإخوة، ثم أزواج وأبناء،

[1] ش ك: وأفضل.

[2] ش ك: كيلا.

ثم إخوة وأولاد. وبقي سبعُ صُورٍ، صورتان ثنائية وهي آباء وأزواج، وإخوة[1] وأزواج، والأربعة الثلاثيات والرباعية. فأما الصورتان الثنائية / فتلزم من صورة الأزواج الفرادية [٩٤و]
من قوله تعالى: ولكم نصف ما ترك أزوٰجكم، فإنه لما قيّد الحكم بعدم[2] الأولاد فقط ولم ينْفِ غيرَهم لزم أن يكون ذلك الحكم مع من وُجد غيرَ الأبناء. فعرّفَنا فرضهم مع الآباء، ثم مع الإخوة، ثم معهما معا جميعا. فهذه ثلاثية عُرفت بعد الثنائيتين.[3] ثم لزم من معرفة حكم الأبناء مع الأزواج معرفةُ حكم الإخوة معهم وهو انتفاء الإخوة، إذ ليست كلالةٌ هناك. ولم يعين لهم النصُّ في هذه الصورة شيئا بل مع الكلالة كما تَفهم منها في موضعها. وهذه ثلاثية أخرى. وأما معرفة حكم الآباء والأبناء والأزواج فهو أيضا لازم من حكم الأزواج مع البنين،[4] فإنه لم يقيِّد الفرضَ بغير البنين فبقي حكم الآباء مع البنين بحاله. وأما الثلاثية الرابعة وهي حكم الآباء والأبناء والإخوة فلازمة من معرفة فرض الآباء مع الإخوة، لأنه لمّا عين فرض الآباء مع وجود الإخوة ولزم تعيينُ نفيِ الأولاد من قوله تعالى: فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ،[5] لزم أن يكون الباقي للإخوة. فلو وُجد الأبناء لم يكن الباقي إلا لهم. فلو كان للإخوة شيء مع وجود الأبناء مع الآباء لعيَّنه الله تعالى. فلما لم يعيّن شيئا علمْنا أنهم ليس لهم شيء كما بيّنّا. وأما الرباعية فهي ظاهرة اللزوم بأن ليس للإخوة شيء لوجود البنين والأزواج، فكيف وقد انضاف الآباء؟ فهذا بيان تفصيل الخمسَ عشرةَ صورةً. وسنُثبت برهان حصرها في لوح مع الألواح كما ذكرنا إن شاء الله.

واعلم أنه لما كان لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ[6] في كل جنس وجنس وجب أنه متى وُجدت أنثى من أيّ جنس كان وذَكَرٌ من جنس آخر ولم يعين الله لأحدهما فرضا أن يكون للذكر مثل حظ الأنثيين، إذ لا مِيزةَ في الحكم بين كل نوعين من كل جنس، وذلك بيِّن. فلهذا متى وقعت صورة لم يعين النص فيها فرضا ووجب أن يُقْضَى فيها بالإرث دون الفرض وكان فيها ذكور وإناث من جنسين فيجب أن يقضى للذكر مثل حظ الأنثيين. فافقه ذلك.

---

[1] ر: أو إخوة.
[2] ر ك: بعد.
[3] ر ش: بعد الثنائتين.
[4] ر – فهو أيضا لازم من حكم الأزواج مع البنين، صح هـ.
[5] من الآية السابقة.
[6] من الآية السابقة.

وأما معنى قوله تعالى: [وإن كان رجل] يُورَثُ كَلَالَةً، [فـ]ـاعلم أن "كلالة" لفظةٌ مؤنثة مشتقة من قولك: كلَّ الرجلُ عن حَملِ حِمله يَكِلّ كَلالا ومؤنثه[1] كلالة، وكان الواجب أن يكون المصدر كَلًّا. وإنما لم يُستعمل لاشتباهه بقولك: كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ،[2] فقيل: كَلَالا، وليست مأخوذة من تَكْلِلَة[3] النسب، لأن التكللة لفظة تصريفُها من كلّل يكلل تكليلا وتكللة الذي عينُ فعله مشددةٌ،[4] مثل كمّل يكمل تكميلا وتكملة. وتصريفها من الرباعي بخلاف تصريف كَلَّ يَكِلّ كَلَالا وبخلاف معناه. فلذلك لا يجوز أن تكون كلالةٌ من معنى "تكللة" للخُلْف بين التصريف الذي إنما اختلف لاختلاف المعنى، فافقه ذلك. وإنما استُعمل التأنيث في الكلالة لأن تقديره إن كان الميت رجلا له وارث وقد كلَّت عنه زوجتُه كلالةً، أو امرأةً قد كَلَّ عنها زوجها كلالا، أي انقطع انقطاعا.[5] فعبّر بلفظ المصدر اختصارا وإيجازا واكتفى بذكر الرجل ودل على زوجته بقوله: كلالةً، ودل بقوله: أو امرأةٌ، على جملة الكلام المذكور عن الرجل، فافهم ذلك. وقول الشاعر:

وَرِثْـتـم قـنـاةَ الـمـجـد لا عـن كَـلالـة؛[6]

أي لا عن شرف من جهة أحد الأبوين بل من جهة الأب ومن جهة الأم. ولا شك في أن هذا أفضل من أن يكون الإرث من جهة أحدهما. فتأمل هذا كلّه جيدا. ولما كانت هذه الكلمة تدل على العجز عن الحمل وعلى الانقطاع وكان "الحمل" في اللغة يُستعمل على الأشياء العينية المحسوسة وعلى الأشياء المعنوية المعقولة استعملها الله ههنا في الأمور المعنوية. تقول في المحسوسة: حمل فلان حملا من البُرّ إلى موضع كذا فكلَّ عن إيصاله إلى داره؛ وتقول في المعنوية: كَلَّ فلان عن حمل إحسانِ فلان وكَلَّ لسانُه عن شكره، فتريد الانقطاع في الصورتين. ولما كان انقطاع أحد الزوجين عن الآخر إنما يكون بموت أو بطلاق عَبّر عن ذلك بهذه / اللفظة. ولأنه لو لم يعبر [٩٤ظ] بها لوقع الاشتباه أو طال الكلام. فإنه لو قال: وإن كان رجل يورث ولم تكن له زوجة لجاز أن يُفهم من ذلك أنه رجل لم يتزوج وله ورثة غير الأبناء. فلما قال: كلالةً،

[1] ر: مؤنثة.

[2] سورة التكاثر، ١٠٢/٣-٤.

[3] ش: من تكلله.

[4] ك: مشدة.

[5] كلَل الرجلُ: ذهب وترك أهله وعيالَه بمضْيَعَةٍ؛ وكلَّل عن الأمر: أحجم (لسان العرب، «كلل»).

[6] البيت للفرزدق. وتمامه:
ورثـتـم قـنـاة الـمـجـد لا عـن كـلالـة
عن ابْـنَـيْ مَـنافٍ عبدِ شمسٍ وهاشمِ.
انظر: البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ١٩٧/٣؛ واللباب لابن عادل، ٢٢٤/٦-٢٢٥.

دل على رجل تقدم له وُصْلةٌ بامرأة له منها ورثةٌ أو وارث، وأن زوجته كَلَّت، أي انقطعت عنه بأحد الصورتين، وأنه لم يكن له حينَ الوفاة زوجةٌ. فافهم ذلك كُلَّه لتعلم أنه لمّا بين الله فروضَ الأزواج مع وجود الأولاد ومع عدمهم عطف في موضع ينبغي أن يقول فيه: فإن لم يكن له زوجة وله إخوة فللإخوة ثلُث، فلم يقل كذلك، لأنه لو قال كذلك لم يُفهم حكم الكلالة وكان يُحتاج أن يأتينا بنص آخر يبينها به. فلما ذكر الكلالة لزم منها معرفةُ حكم عدم الزوجة مع جميع الصور المتقدمة. واعلم أن الغلط نشأ من عدم فهمِ لازم اللفظ الدال على العطف في موضعين. الموضع الأول هو العطف على عدم الولد مع وجود آباء وإخوة، والثاني هو العطف على وجود الولد مع عدم أزواج ووجود إخوة. فالعطف الأول هو عطف حكم الآباء والإخوة على قوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾،[1] أي والحالة هذه، وهي أن ليس له ولد. والعطف الثاني هو عطف حكم الإخوة مع عدم الأزواج ووجودِ الولد عطف به على قوله قبله عن الميت من النساء: **فإن كان لهن ولد**، وعن الميت من الرجال. **فإن كان لكم ولد**، ودل على وجود الولد بقوله: **يُورَثُ**، كما سنبين بالحصر. وعطف على وجود الولد قولَه: **وإن كان رجل يورَث كلالةً**، وتمامه، وتقدير الكلام: يورث والحالة هذه، أي ثَم ولد وإخوة بغير التوسيع على غيره.[2] فمتى كان في المال سعة فهو أحق وأولى مِن باقي الأنساب لترجيحه عليهم كما بينا. ومثاله متى وُجد مع الزوج أبٌ وبنت، فإن الأب أولى بالفرض وله سدس، وبعده البنت ولها نصف، والثلث الباقي للزوج لأنه أحق من الوُراث[3] بتمام فرضه، لكنه لم يجد سوى الثلث. ولمثل هذا أيضا قال تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾،[4] حتى يدل على البنت وإن كان المراد الابنَ في أكثر الأحوال. فإن كان في هذه الصورة مع الأب أمٌّ فلها أيضا سدس والنقص على البنت، فلا يكون لها ههنا نصف، فإنها ليست وحدها، فللآباء الثلث، وللزوج الربع، ولها الباقي. فافهم ذلك كما بينا قبلُ في البنين.

فإن قلت: إذا فرضنا وجودَ بنت وزوجٍ وأب فجعلنا للأب السدس وللبنت النصف وللزوج الربعَ، فمن أين لك أن تعطي الزوج ما فَضَل وهو قيراطان؟ ولِم لا كان ذلك

---

[1] من الآية السابقة.

[2] ر: أي ثَم ولد وإخوة بغير أزواج فهذا هو السر الذي منح بفهمه من انحل ما اختلف فيه بغير التوسيع على غيره.

[3] ش: من الوارث.

[4] من الآية السابقة.

للأب[١] والزوج بنسبة فرضيتهما[٢] وهما السدس والربع ههنا؟ فكيف تعطى القيراطين[٣] للزوج في تكملة فرضه الأكبر وهو النصف وتَترك الأب على السدس فقط، فيعود للزوج ضعفُ ما للأب؟ فإن كان ذلك من أجل ذِكْر فرضِ الزوج مع الولد فقد ذكر الله فرض الأب مع الولد، وإن كان من أجل أن للزوج مع عدم الولد النصفَ فللأب مع عدم الولد الكلّ؟

والجواب أن الزوج أولى من الأب ومن الإخوة لعدة وجوه. فأما كونه أولى من الإخوة فظاهر من كون الأخ يَسقط عند وجود أب وابن، والزوج لا يسقط. وأما كونه أولى من الأب فذلك من أجل أن الله تعالى فضّل الزوج بما فرض له مع وجود الابن وهو الربع على الأب بما فرض الله[٤] له مع وجود الابن وهو السدس، فهذا وجه. والوجه الثاني أن الله تعالى فرض للزوج على كل تقدير سواءٌ وُجد الولد أو عُدم. وأما الأب فلم يَفرض له إلا سدسا مع وجود الولد. وأما مع عدمه فحكم الأب كحكم / الأخ مع عدم الولد، فهو يأخذ[٥] التركة من طريق أنه أولى من بقية المؤمنين لا لأنه أولى من جهة نفسه. فقد عاد حكم الأب كحكم الأخ[٦] الذي قد بان أن الزوج أولى منه. ولهذا جعل الله حكمَ الأب مأخوذا من حكم الأخ ولم يعكس، فافقه هذا. الوجه الثالث أن الفرض هو المعيَّن بالنص من جملة، فهو من الكل لا الكل. لأن الفرض في اللغة هو الحَز[٧] والشق في شيء متصل، فعُيِّن منه مُعيَّنٌ مّا كما عُيِّن للزوج نصفٌ مع وجود من يشاركه. وأما ما ليس بمعين ولو كان كلا فهو راجع إلى الأَولى مع عدم الشريك. ولهذا جعل الأخَ وحده في هذه الصورة كالأب وحده وكالابن وحده. ودليل ما قلناه في هذه الصورة هو أن الله تعالى لم يعيِّن للأب وحده ولا للابن وحده كلا لئلا يُعتقد أن ذلك فرض، بل عَيّن الكل للأخ وحده لنفهم من ذلك معنيين. أحدهما ما للأب أو الابن إذا انفرد كل واحد منهم، والثاني أن ذلك ليس من جهة استحقاقهما بل من جهة عدم الشريك الذي لو وُجد لم يكونا أولى منه بالجميع، بل لمّا عُدم كانا أولى من غيره الذي هو من بقية المؤمنين. [٩٥و]

---

١ ش ك + أو للأب.

٢ ش: فرضيهما.

٣ ك: القراطين.

٤ ر ك – الله.

٥ ر ك: فهو بأخذ.

٦ ش + مع العدم فهو يأخذ التركة من طريق أنه أولى من بقية المؤمنين لا لأنه أولى من جهة نفسه فقد عاد الأب كحكم الأخ.

٧ ش ك: الجزء. | الحز: القطع (كتاب العين للخليل بن أحمد «حز»).

فإن قلت: زد ما قلتَه بيانا ليتحقق بمثال، قلنا: لو وُجد أب وابن كان للأب سدس. فلو كان عوضَ الأب زوجٌ كان له أكثر من الأب. فإن قلت قَوِّ ما زدتَه، قلنا: لو وُجد أب وابن وزوج لكان للزوج أكثر مما للأب مع وجود الأب والابن. فإن قلت زد ما قد قوّيتَه، قلنا: لو وُجد أب وأم وبنت واحدةٌ أو ابن أو عشرون من البنين وزوجٌ لكان للزوج الربعُ على حاله، وللأم السدس، وللأب سدس. فهو مثلها ههنا ولكل ابن نصفُ قيراط. وهذا تخصيص ظاهر للزوج فيجب أن نَحذوَ حَذْوَ النص فيما بقي من التركة بعد أخذِ ذوي الفروض فروضَهم فنكمِّلَ به الفرضَ الأكبر للزوج. فإن لم يوجد زوج أو مَن هو أحق بفرضٍ أكبرَ فللوارث، وهذه قاعدة عليها يُبنى.

وقد كررنا بعض الكلام ليتضح، وأيضا لنضيف إليه مِثلَه في الدلالة على المقصود. ومما يدلك على إيثار الله تعالى للزوج كونُه لم يَجعل للإخوة فرضا معه بل جعل فرضَهم مع الكلالة التي هي عدم الزوج أو الزوجة مع موت الزوج الآخر الذي قد مات كيلا يضيّقوا عليه لو كان حيا. وإنما متى وقع لهم إرث لم يزاحموه فيه فهو لهم وإلا فهو أحق بتمام فرضه منهم مع عدم الكلالة وعدم مزاحمته للوُرّاث[1] من الأولاد؛ كما لو وُجد زوج وبنت وإخوة، فإن للبنت النصفَ وللزوج النصف وليس للإخوة شيء، إذ لا كلالة ولا زحمة منه للوارث الذي هو الولد ههنا. فلو كان مكانَ الزوج زوجةٌ لكان لها الربع، والربع[2] لمن وُجد من أخ أو أخت.

واعلم أن الله تعالى لم يذكر بيت المال، بل قال: وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ، تعالى، أي فيما سبق علمه به أزلا. وهكذا فافهم في مواضعه من القرآن. قوله:[3] أَوْلَىٰ، أي من المؤمنين والمهاجرين[4] كما بيناه في موضعه، فلزم أن نعطي الفرض الأصغر ثم الأكبر. فإن فضل شيء أعذناه على من وُجد إن كان وحده ذكرا كان أو أنثى. فإن وُجد اثنان من نسب وصهر نَرُدّ الباقي على النسب دون الصهر. وهذا سر كونه تعالى عبّر بلفظة "الكلالة" التي تدل على الانقطاع إما بموت أو بطلاق. فانظر كيف لمّا كان الصهر منقطعا عن النسب جعله أيضا في حياته منقطعا عن النسب فيما يُرَدّ عليهم من الفاضل بعد الفروض، فلا تردّ على الصهر شيئا إلا حال كونه وحده، فصارت العبارة بهذه اللفظة أولى لتشعر بهذا الحكم.

---

[1] ش: للوارث.
[2] ر – والربع.
[3] ش: قوله.
[4] ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ (سورة الأحزاب، ٦/٣٣).

ومما ذكره أبو الفضل الكرماني الحنفي[١] في فرائضه أنه قال: قال علي وعمر رضي الله عنهما: الفاضلُ عن فرض ذوي السهام يرَدّ عليهم بقدر سهامهم إلا على الزوج والزوجة. وقال عثمان رضي الله عنه: يرَدّ على الزوج والزوجة.[٢] وقال زيد:[٣] يوضع في بيت المال.[٤] وبه أخذ مالك والأوزاعي[٥] والشافعي. وكلٌّ منهم رحمهم الله تعالى نظر من وجه. والواجب أن النسب يَحجب الصهرَ إذا وُجدا معا، وهو مذهب علي وعمر. فإن بقي الزوج وحده يرَدّ عليه. / وهو مذهب عثمان رضي الله عنه. فإن لم يبق نسب ولا ذو رحم من زوج أو زوجة فبيت المال، وهو مذهب زيد رحمه الله. [٩٥ظ]

فهذه لوازم النص بحسب مقتضى العقل من مفهوم اللغة الذي لا يخفى[٦] إلا على من غفل[٧] عن مفهومها مطابقة ولزوما. ومن فقه هذا البيان ورجع عنه بغير دليل قاطع لِما أوضحناه ونَبذ[٨] عقله وراء ظهره واتّبع التقليد الذي[٩] ينبني على الجهل وترك التحقيق الذي ينبني على علم اليقين، وخالف طريق النص حيث يقول: إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ،[١٠] فالواجب على سالك السبيل أن يَتبع الدليلَ وإن[١١] كان واحدا ويَتركَ اتباعَ التقليد وإن كان لسائر العلماء.[١٢]

---

[١] لعله أبو الفضل عبد الرحمن بن محمد بن أمِيزوَيْه بن محمد الكرماني الحنفي، فقيه. نزيل مرو. روى لنا عن أبيه وعن أستاذه القاضي أبي بكر محمد بن الحسين الأرسابندي وأبي الفتح عبيد الله بن محمد الهشامي وغيرهم. مات بمرو سنة ٥٤٣هـ/١١٤٩م (الأنساب للسمعاني، ٥٧/٥؛ ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، ١٠٩/٢).

[٢] المبسوط للسرخسي، ١٩٢/٢٩.

[٣] أبو خارجة زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصاري الخزرجي، صحابي، من أكابرهم. كان كاتب الوحي. ولد في المدينة ونشأ بمكة، وقتل أبوه وهو ابن ست سنين. وهاجر مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ١١ سنة، وتعلم وتفقه في الدين، فكان رأسا بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض. وكان عمر يستخلفه على المدينة إذا سافر، فقلما رجع إلا أقطعه حديقة من نخل. وكان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم من الأنصار، وعرضه عليه. وهو الذي كتبه في المصحف لأبي بكر، ثم لعثمان حين جهز المصاحف إلى الأمصار. توفي سنة ٤٥هـ/٦٦٥م (الأعلام للزركلي، ٥٧/٣).

[٤] تبيين الحقائق للزيلعي، ٢٤٢/٦.

[٥] أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يُحْمِد الأوزاعي، من قبيلة الأوزاع، إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، وأحد الكتّاب المترسلين. ولد في بعلبك، ونشأ في البقاع، وسكن بيروت. وعرض عليه القضاء فامتنع. كان عظيم الشأن بالشام، وكان أمره فيهم أعز من أمر السلطان. له كتاب السنن في الفقه، والمسائل. وتوفي ببيروت سنة ١٥٧هـ/٧٧٤م (الأعلام للزركلي، ٣٢٠/٣).

[٦] ر: لا يحيد عنه.

[٧] ش ك: من عقل.

[٨] ك: ونبز.

[٩] ر – الذي.

[١٠] سورة يوسف، ٢/١٢.

[١١] ر ك – وإن.

[١٢] جميع النسخ: لسائر العالم.

وأما الخنثى فإنه أُلغِي ذكره ولم يُثبَت له فرضٌ ولم يُنفَ، إذ لم يُذكر بوجه، فللحاكم[1] أن يَتصرف في أمره بما يراه مما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيه. وحسبنا الله ونعم الوكيل. وأما طريق النظر فيُعطي أن الخنثى كالأنثى العاقرِ فهي تَرث، إلا إن غَلبت علامات الذكور فكالذكر.

وقوله تعالى: غَيْرَ مُضَارٍّ، فغير هي منصوبة ههنا على الحال. والمعنى أن الوصية التي أباحها الله تعالى للموصي إنما أباحها له حال[2] كون الموصي لم يقصد بالوصية مُضَارَرَة للوُرّاث،[3] بل قصدُه فيها الإحسان إلى من يريد النفع[4] له، ويكون ذلك بالمعروف. و"مضار" تقديرها مضارِر، فأُدغمت الراء في الراء استخفافا وتصريفا من ضَارَرَ يُضارِر مُضاررة فهو مضارِرٌ الذي يريد[5] به المضارة، أعني المبالغة في الضرر، مِن ضَرّ يَضُرّ ضرًا. وانظر إلى حكمته تعالى في قوله: غير مضارّ، ولم يقل: غير ضارّ، لأن الضرر لازم وقوعُه. وذلك أن الوصية للغير تنقص الوُرّاثَ[6] فتَضر[7] بهم. فأباح ذلك وإن ضر قليلا ونهى عن المضاررة لكثرتها. وقوله: وصيةً، منصوبة على المصدرية، وتقديره وصّيناه وصيةً من الله، قصد بذلك التوكيد. والله عليم حليم، ذكر الحلم دون غيره تنبيها للموصي أن يَحلُم[8] ولا يَستعمل المضاررةَ، لأنه ما يستعملها إلا عن غضب أو غيظ اغتاظه على الوارث، فنبهه الله تعالى بهذه الصفة ليَحلُم ولا يَغضب على الوراث[9] فيضاررهم.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾

ولهذا أعقب الكلام بقوله عن جميع ما تقدم: تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنّٰت تجرى من تحتها الأنهٰر خٰلدين فيها وذٰلك الفوز العظيم.

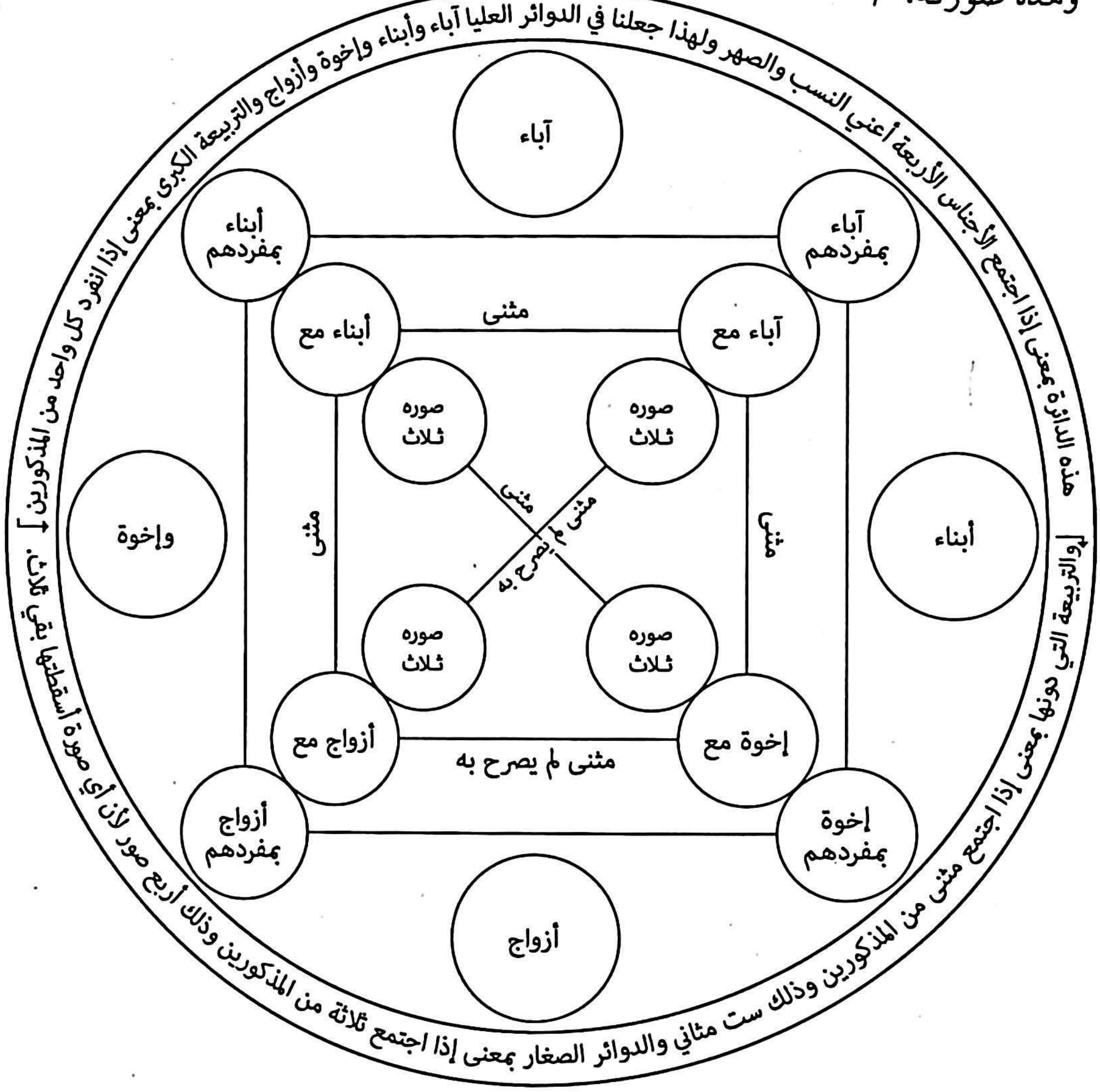
ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خٰلدا فيها. وقوله:[10] وله عذاب مهين، أي في النار. وهو زيادة على عذاب النار.

---

١ ر: فللحكم.
٢ ر – حال، صح هـ.
٣ ش: للوارث.
٤ جميع النسخ: والنفع.
٥ ر: الذي يراد.
٦ ش: للوارث.
٧ ك: فيضر.
٨ ش: أن يحكم.
٩ ش: على الوارث.
١٠ ش ك – وقوله، صح هـ.

وها أنا قد وضعت لك شكلا، هو برهان على حصر عدد الألواح وأقسامها وهو ما سميته لك مُرَبَّع اثنين في اثنين في الصحيفة الآتية بصورته إن شاء الله تعالى.[١]

وهذه صورته:[٢] / [٩٦و]



فنقول: إن من البيّن أن الفُراديّات أربع والثنائياتِ ست، لأن الخطّ الأيمن صورة، والأيسر صورة، والأعلى صورة، والأسفل صورة، والقُطْران صورتان. ومن البين أن الثلاثيات أربع، لأنك متى أَسقطت واحدةً من الأربع بقي ثلاث. ومن البين أن الرباعية واحدة. ومن أعجب العُجاب أنه لم يصرح الكتابُ إلا بأربعِ مفرداتٍ وأربعِ مركبات، فكأنها أمزجة الموجودات البسائط والمركبات. وقد اختصرت لك الفرض لتفهمه في ذكرِ واحدٍ من كل نسب أو صهر. فإذا فهمته فهمت الأقسام الباقية من ذلك النسب أو الصهر،

[١] ك – في الصحيفة الآتية بصورته إن شاء الله تعالى.

[٢] ر – وهذه صورته.

أو قاربت[1] الفهم. فاجعل ذلك أصلا ترجع إليه في الذكور فقط. وأما إن شاركهم إناثٌ أو كان الجميع إناثا فذلك يحتاج إلى بسط وإيضاح قد ذكرناه في مواضعه. مع أنك إذا فهمت هذا الموضع ههنا فهمت به كثيرا من ذلك.

اعلم أنه لما كانت ذكور الأنساب والصهر، أعني الأربعة وهي أب وابن وأخ وزوج قد تجتمع وقد تفترق، ثم فرض الله سبحانه للزوج مع الولد ومع لا ولدَ لزم أن يكون فرض الزوج لا منه مع وجود من وُجد من بقية الأنساب أو عدمهم. إذ لا يخلو إما أن يَكون مع الزوج ولدٌ فللزوج فرض، أو لا يكونَ معه ولد فللزوج فرض.[2] فهذا القسم من الأربعة علمناه. بقي ثلاثة وهم أب وابن وأخ. وينقسم الكلام فيهم إلى سبعة أقسام. ثلاثة منها أن يوجد كل واحد بمفرده فله الكل. والقسم الرابع وجود الثلاثة جملة فيسقط الأخ، أو يوجد[3] أب وابن فالفرض للأب والباقي للابن، أو أب[4] وأخ وللأب نصف وللأخ نصف. وقد علمت أن هذه الصور جميعَها متى وُجد الزوج أخَذ. وقد بقي صورة واحدة وهي ابن وأخ، فالفرض للأخ والباقي للابن / إذا لم يوجد زوج، وهي الكلالة، وإن[5] وجد زوج[6] فليست كلالة وليس للأخ في هذه الصورة شيء. فافهم ذلك وتأمله تنتفع به في فهم كثير من الفرائض إن شاء الله تعالى. [٩٦ظ]

والكلالة إذا فهمتها وجدتها عَدَمَ الأزواج، وقد وضعتُ لك صورةً حاصرة بعد عدم الأزواج بموت أو طلاق،[7] فالكلالة تختص بالأزواج فقط. وقد بين الله تعالى ما للحي منهما بولد وبغير ولد قبل ذكر الكلالة، فلزم أن يبيّن الحكم في ميراث من مات من الزوجين مع عدم الآخر، إذ لم يبق صورة يجب أن تعلمها إلا هذه، فقال: وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً،[8] وتمامه. وقوله: يُورَثُ، دال على أنّ ثَم وارثا فلزم أن لا يكون هناك زوج؛ لأن الزوج بيّن حكمَه قبل ذكر الكلالة. ولا يخرج أن يكون الوارث ههنا[9] بشرط عدم الزوج الآخر عن صورٍ سبعةٍ نصا، وهي إما أبناء فقط، وقد بينهم في أول آيات المواريث، أو آباء فقط، وقد بين ذلك بقوله: وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ،[10] أو إخوة فقط، وقد بينهم في آخر السورة. فهذه الفُراديّات من الورثة، أعني الورثة لجميع المال وهم ثلاثة

[1] ر: وقاربت.
[2] ر – أو لا يكون معه ولد فللزوج فرض.
[3] ر: ويوجد.
[4] ر: وأب.
[5] ر ك + لم.
[6] ر – وهي الكلالة وإن لم وجد زوج.
[7] ر: وطلاق.
[8] ألآية ١٢ من هذه السورة.
[9] ش: هنا.
[10] الآية ١١ من هذه السورة.

بقي الثنائيات وهم إما آباء وأبناء،[١] وقد بينهم بقوله: إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ؛ أو آباء وإخوة وقد بينهم بقوله: فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ،[٢] أو أبناء[٣] وإخوة، وقد بينهم بقوله: فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ،[٤] وبها هي الكلالة. وهذه[٥] الثلاثة هي الصور الثنائية ههنا لا غير. بقي صورة واحدة ثلاثية وهي آباء وأبناء وإخوة؛ فتسقط الإخوة[٦] لوجود الأبناء مع الآباء، لقوله تعالى: فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ، وبنى عليه قولَه: فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ.[٧] وإذا فكّرت فيما قد أثبتُّه لزم ما قدمته وصح عندك ما قد بينته. لكني قد اختصرته[٨] فتأنَّ لتَفْقَه ذلك إن شاء الله تعالى.

وهنا أنا قد وضعت لك صور الألواح المبسوطة الحاوية لجميع الفرائض المفهومة من القرآن،[٩] فأول ذلك الفراديات الأربع: آباء أو أبناء أو إخوة أو أزواج،

---

١ ر – وأبناء.

٢ الآية ١١ من هذه السورة.

٣ ش: أو آباء.

٤ الآية ١٢ من هذه السورة.

٥ ر: هذه.

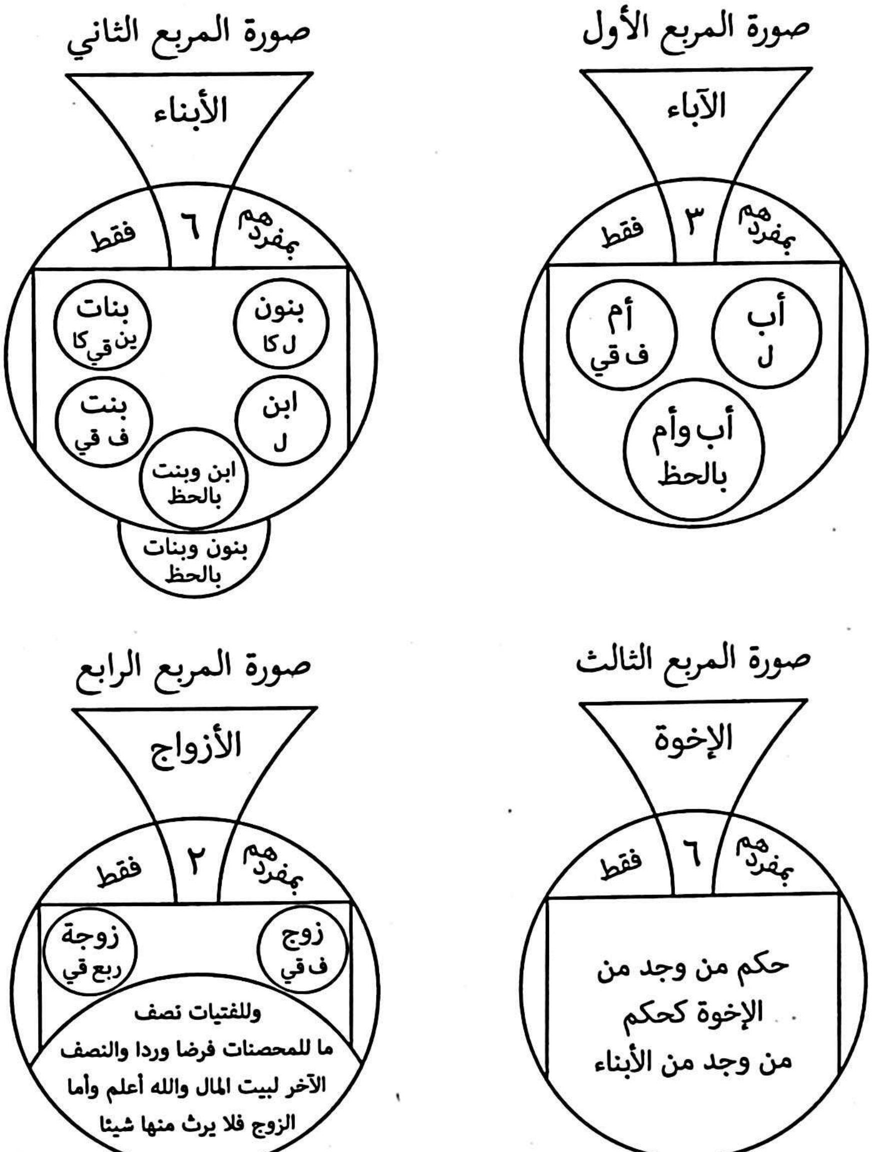
٦ ر – الإخوة.

٧ الآية ١١ من هذه السورة.

٨ ر ك: قد أخترته.

٩ توضيح لآراء الصفدي في الفرائض: للصفدي مفهوم خاص به في الميراث. من ذلك أنه تبنى تقسيما للميراث مبنيا على أحكام المواريث الواردة في القرآن وحدها. فهو يرى أن الرسوم البيانية التي قدمها شاملة لجميع الأوجه التي يمكن استخراجها من الأحكام القرآنية، ومواجهتِها في واقع الحياة. كما يرى أن مجموع أحوال الميراث المذكورة في الآيات ثمانية: أربعة أحادية، وأربعة ثنائية، وأن أحوال الميراث الأخرى لم ترد في القرآن؛ لأنها مفهومة صراحة من هذه. ويلفت الصفدي الانتباه إلى أن حصص أصحاب الفرائض الواردة في القرآن تتغير بوجود ورثة آخرين معهم، وأن حصص هؤلاء الأشخاص المذكورين في القرآن قد تتغير بشرط عدم الخروج عنها. من هذا أن البنت إذا انفردت كانت حصتها النصف، فإن زادت عن واحدة فهي الثلثان، ومن ثم تتغير حصص أصحاب الفرائض الآخرين حسب أحوالهم. ومن هذا أيضا أنه إذا بقي شيء من الميراث بعد تقسيمه على أصحاب الفرائض، ولم يكن أصحاب الأولوية الباقون (وهم على التوالي الأبناء والأزواج والآباء والإخوة) قد أخذوا في هذا التقسيم أكبر حصص أصحاب الفرائض المذكورة في نظام التوريث، فإن الباقي يقسم عليهم بحيث يتمم لهم حصصهم الكبرى. وعلى هذا النحو يأخذون أكبر الحصص المذكورة لهم في القرآن، وإذا فضل شيء بعد ذلك يعامل معاملة الباقي. ولا يعتبر الصفدي العول، فما يراه الجمهور من أن الأم والأب والزوج والبنت إذا اشتركوا في إرث برز حق العول في المسألة لتنقص حصة كل وارث لا يراه الصفدي. فيذهب إلى أن حصص من عدا البنت قد دل القرآن على أنها الحصص الدنيا وأنها لن تنقص. وذلك أن نصيب البنت قد نقص بحيث ستأخذ ما تبقى من أنصبة الآخرين بعد أخذهم إياها؛ لأن نصيب البنت كان سينقص لو اجتمعت بأخ واحد أو أخت أو أكثر، فينبغي أن يفهم من هنا أنها كانت ستأخذ أقل. لهذا رأى الصفدي أن نصيب البنت في هذه الحالة المذكورة لابد وأن ينقص. ومما تفرد به الصفدي أيضا تعاريف بعض المصطلحات، فمفهوم الموارثة، والإرث، و"إرثا" تدخل كلها عنده في معنى الباقي. والكلالة في رأيه هي الحالة التي يغيب فيها زوج الميت (بسبب الطلاق أو الموت أو ما شابههما من الأحوال). وفي هذه الحالة إذا اجتمع الأبوان والإخوة، ولم يكن الأبناء، كان الإخوة هم المستحقين للميراث. ولكنه يرى من ناحية أخرى أنه إذا عدم "الوارث نسبا" أمكن الرد على الزوج. هذا، ويرى الصفدي أن التركة لا تنتقل أبدا إلى بيت المال ما دام احتمال وجود وارث احتمالا قائما (مركز البحوث الإسلامية، إسام/İSAM).

وهو لوح واحد، عدد صوره ١٧:*



*الرموز التي استعملها الصفدي في المواريث

ين : ثلثين
ف : نصف
ث : ثلث
ع : ربع
س : سدس
ن : ثمن
ل : كل
ط : قيراط
طين : قيراطين
كا : شركاء
قي : باقي

[٩٧و] / بيان الباقي من الأزواج يرِدُ على مَن وُجد من زوج أو زوجة إذا لم يكن للميت أحد من الأنساب. وهذا حكم الصهر إذا وجد وحده دون نسب قد يكون معه، لأن النسب يردّ الباقي عليه مع وجود الصهر ولا يرد على الصهر مع وجود أحد من الأنساب، فلا يكون لبيت المال شيء إلا أنْ لم يكن[1] للميت أحد لا من نسب ولا من صهر. فافهم هذا بعد حكم الفتيات في جميع المواضع. وهذا الحكم مستنبَط[2] من عدة أماكن في القرآن، فمن ذلك قوله تعالى: وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ، أي في الميراث وإن كان الكلام مطلقا. فلما وُجد النسب كان أَولى من الصهر في نسبته إلى رَحِم الميت

[1] أي بأن لم يكن.

[2] ر: ينبسط.

بردّ ما بقي من التَّرِكَة بعد الفرض الذي استحقه بالنص. فإذا لم يوجد نسبٌ بل صهر فقط، فهو أولى من بقية المؤمنين لنسبته إلى رحم الميت بلا شك. ولهذا عبّر النص بلفظة أَوْلىٰ، لأن الرد إنما هو من طريق الأولوية. فإذا وجد الأُولى من الأولى كان أولى[1] بالرد دونه، فافقه هذا جيدا. والوجه الآخر مستنبَط من قوله تعالى: إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ.[2] فلما كان الرد إنما هو من جملة المعروف لأنه بعد الفرض فهو فرض معروفٍ لا فرض نصيبٍ، والأقربون أولى بالمعروف. فإذا وُجد الصهر كان أولى من بقية المؤمنين به. ووجه ثالث مستنبَط من قوله تعالى: كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ.[3] والمعنى الوصية بالمعروف، ولا شك أن الزوج أقرب من بقية المؤمنين. وقد أوصى الله[4] الميت أن يوصي بالمعروف للأقربين، فالوصية من الله فرض على الميت بالوصية للأقرب. فافهم هذا وما يلزم عنه من طريق الأولى عقلا ومن طريق ما أوجب الله نصا. وافهم أمثال ذلك كما تجده عند الاستنباط.

ولقد رأيتُ في الليلة التي فهمت هذا في صُبَيْحَتِها رؤيا طيَّرَت عقلي رَغَبا ورَهَبا.[5] ولم أعلم لها تأويلا حتى أصبحت وفهمت هذا فرأيته تأويل المنام بعينه لا يُخلّ بذَرّة فسطرته ولم أُطوّل بذكر الرؤيا.

واعلم أن أدلَّ دليلٍ على أن كل التركة تُصْرف إلى أولي الأرحام أو إلى من وُجد منهم هو قوله تعالى: وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ، وقوله: فَـَٔاتُوهُمۡ،[6] وهو عائد على جميع المذكورين. وتقديره فآتوا هؤلاء ما ترك هؤلاء، أي آتوا كُلًّا ما ترك كُلّ من المذكورين لكل واحد منهم نصيبه. وذكر النصيب لمّا ذكر الجمع، وبيَّن في أول الآية أنه[7] قد جعل لكل من التركة عن المذكورين[8] من هو أولى من بقية المؤمنين غير المذكورين، فافهم جيدا. فهذا ما يتعلق بالألواح الأربعة الفرادية، وعدد أقسامه ١٧ سوى الفتيات، يتلو ذلك الألواح وها هي مصورات بعده.[9]

---

١ ر - كان أولى.

٢ ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ (سورة الأحزاب، ٦/٣٣).

٣ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٨٠).

٤ ر - الله.

٥ ر ك: رهبا ورغبا.

٦ الآية ٣٣ من هذه السورة.

٧ ر - أنه.

٨ ش + من المذكورين.

٩ ش ك - الألواح وها هي مصورات بعده.

الألواح الثنائية الستة

أولها لوح الآباء والأبناء

وهو ثلاث مربعات جملة صوره ١٧

المربع الأول

أب	وأم	وبنون
أب	وأم	وابن
أب	وأم	وبنون وبنات بالحظ
أب	وأم	وابن وبنت بالحظ
أب	وأم	بنات
س	س	ين
أب	وأم	بنت
ث	س	ف

المربع الثاني

أب	وبنونن
أب	ابن
س	قي

حكم الثاني كحكم الثالث

المربع الثالث

أم	وبنون
أم	ابن
أم	وبنون وبنات
أم	وابن وبنت
س	قي
أم	وبنات
ث	ين
أم	وبنت
ف	ف

بيان على المربع الأول:

لو لم يكن قد عين النص فرض البنت لكان واجب القسمة في المربع الأول أخيرا للذكر مثل حظ الأنثيين. فاعرف مثل هذه ولا يلزم هذا في الأخت، بل كما تجده في موضعه ودليله هو أن النص عين لكل واحد من الأبوين السدس مع الولد ولم يعين ذلك مع الأخت وذلك لأولاوية الأم فلهذا كان

للأب	والأم	والبنت
ث	س	ف

يتلوه اللوح الثاني من الثنائيات الستة

وهو لوح الآباء والإخوة

وهو ثلاث مربعات جلمة صوره ١٨

المربع الأول

أب	وأم	وإخوة
أب	وأم	وإخوة وأخوات
أب	وأم	وأخ وأخت
ث	س	ف
أب	وأم	وأخ
	بالحظ	
أب	وأم	وأخوات
ث	س	ف
أب	وأم	وأخت
	بالحظ	
[ف	ع	ع]

المربع الثاني

أب	وإخوة
أب	وإخوة وأخوات
ث	ين
أب	وأخ
ف	ف
أب	وأخ وأخت
بالحظ	
أب	وأخوات
بالحظ ما لم ينقص الفرض وهو ثلث	
أب	وأخت
ين	ث

المربع الثالث

أم	وإخوة
أم	وإخوة وأخوات
س	قي
أم	وأخ وأخت
ع	ف ع
أم	وأخ
ث	ين
أم	وأخوات
ث	ين
أم	وأخت
ف	ف

بيان في المربع الأول:

إن كان الأخوات مع الأب والأم فوق اثنين فهذا حكمهم وإلا بالحظ لأن الأختين مقام أخ وذلك لئلا يبقى فرض كل واحدة من الأختين أكثر من فرض الأم فالقسمة بالحظ ما لم ينقص الفرض هو نصف للأب والأم، فافقه أنما كان للأخوات النصف ومع أب وأم لأن الآباء والإخوة لكل جنس نصف فكيف لا يكون للأبوين مع الأخوات مثل ما لهما مع الإخوة ولا جائز أن يكون للأبوين أكثر لئلا يكون فرضهما مع الأخوات أكثر مما لهما مع الإخوة ولا أقل من ذلك، أعني لكل واحد سدس فإن ذلك للأبوين مع الابن.

ثم يتلوه اللوح الثالث من الثنائيات الستة

وهي لوح الأبناء والإخوة

وهو ست مربعات عدد صوره ٢٦

المربع الأول

بنون وبنات		وإخوة
ابن وبنت		وإخوة
ابن		وإخوة
بنون	لأم	وإخوة
بنات		وإخوة
ين		ث
بنت		وإخوة
ف		ف

المربع الثاني

بنون وبنات		وأخ
ابن وبنت		وأخ
قي بالحظ		س
ابن	لأم	وأخ
بنون		وأخ
قي		س
بنات		وأخ
ين		ث
بنت		وأخ
ف		ف

المربع الثالث

بنون وبنات	وإخوة وأخوات
ين	ث
ابن وبنت	وإخوة وأخوات
ابن	وإخوة وأخوات
بنون	وإخوة وأخوات
بنات	وإخوة وأخوات
ين	ث
بنت	وإخوة وأخوات
ف	ف

المربع الرابع

بنون وبنات		وأخ	وأخت
ابن وبنت		وأخ	وأخت
ابن		وأخ	وأخت
بنون	لأم	وأخ	وأخت
بنات		وأخ	وأخت
ين		س	س
بنت		وأخ	وأخت
ف		ث	س

المربع الخامس

بنون وبنات		وأخوات
ابن وبنت		وأخوات
ابن		وأخوات
بنون	لأم	وأخوات
بنات		وأخوات
ين		ث
بنت		وأخوات
ف		ف

المربع السادس

بنون وبنات		وأخت
ابن وبنت		وأخت
ابن		وأخت
بنون	لأم	وأخت
بنات		وأخت
قي		س
بنت		وأخت
ف		ف

الكلالة ٢٤ صورة سواء كان المعدوم رجلا أو امرأة فافقه ما لم يفقه إلى الآن إلا من شاء الله

يتلوه اللوح الرابع من الثنائيات الستة

وهو لوح الآباء والأزواج

وهو مربع واحد وجملة صوره ٦

أب	وأم	وزوج
ث	س	ف
أب	وأم	وزوجة
ف	ع	ع
أب		وزوج
ف		ف
أب		وزوجة
ف ع		ع
أم		وزوج
ف		ف
أم		وزوجة
ف قي		ع

بيان: يرد على الأم ما بقي هو الربع في هذه الصورة الموضوعة في الأسفل، لأن الزوجة أخذت فرضها ولا يرد على الصهر إلا إذا كان وحده فإن وجد معه نسب فالرد على النسب من كان كما تجده مفصلا

يتلوه اللوح الخامس من الثنائيات الستة
وهو لوح الأبناء والأزواج

وهو مربعان جملة صوره ١٢

المربع الأول		المربع الثاني		
بنون وبنات	وزوج	بنون وبنات	وزوجة	
ابن وبنت	وزوج	ابن وبنت	وزوجة	
بالحظ		ابن	وزوجة	
ابن	وزوج	بنون	وزوجة	
بنون	وزوج	ف ع ن	ن	
ف ع	ع	بنات	وزوجة	ترد القيراطان على البنات وكذلك الربع على البنت دون الزوجة
بنات	وزوج	ين قي	ع	
ين	ث	بنت	وزوجة	
بنت	وزوج	ف ع	ع	
ف	ف			

يتلوه اللوح السادس من الثنائيات الستة
وهو لوح الإخوة والأزواج

وهو مربعان جملة صوره ١٢

المربع الأول		المربع الثاني		
إخوة	وزوج	إخوة	وزوجة	
ف	ف	أخ	وزوجة	بيان: الباقي وهو قيراطان يرد على الأخوات وكذلك الربع يرد على الأخت دون الزوجة على الأخت على النسب دون الصهر إذا وجدا معا.
أخ	وزوج	إخوة وأخوات	وزوجة	
إخوة وأخوات	وزوج	أخ وأخت	وزوجة	
أخ وأخت	وزوج	ف ع	ع	
أخوات	وزوج	أخوات	وزوجة	
أخت	وزوج	ين قي	ع	
ف	ف	أخت	وزوجة	
		ف قي	ع	

تمت الألواح الستة الثنائية بعد الأربعة الفرادية، يتلو ذلك أربعة ألواح ثلاثية.

* * *

اللوح الأول من الثلاثيات الأربعة
وهو لوح الآباء والأبناء والإخوة

وينقسم إلى ثمانية عشر مربعا
عدد جملة صوره ١٥٨

المربع الأول

أب	وأم	وبنون	وإخوة
س	س	ين	
		وابن	
		وبنون وبنات	
		وابن وبنت	
		وبنات	
س	س	ين	
أب	وأم	وبنت	
ب	س	ف	

جميع الإخوة يسقطون في هذا

المربع الثاني

أب	وبنون	وإخوة
أب	وابن	وإخوة
أب	وابن وبنت	وإخوة
أب	وبنون وبنات	وإخوة
س	قي	
أب	وبنات	وإخوة
ث	ين	
أب	وبنت	وإخوة
ث	ف	س

بيان لما في آخر المربع الثاني:
الثلث فرض الأبْ مع وجود الأم والإخوة لقوله تعالى: ﴿فإن كان له إخوة فلأمه السدس﴾ وقد لزم أن واجب ذلك وللأب ثلث، فلما عدمت الأم وأخذت البنت النصف أخذ الإخوة نصيب الأم، ولهذا لما وجدت الأم مكان الأب عاد نصيب الأب للإخوة وهو الثلث كما تجد بعد ذلك في آخر المربع الثالث.

المربع الثالث

أم	وبنون	وإخوة
أم	وابن	وإخوة
أم	وابن وبنت	وإخوة
أم	وبنون وبنات	وإخوة
س	ف ث	
أم	وبنات	وإخوة
س	ين	س
أم	وبنت	وإخوة
س	ف	ث

المربع الرابع

أب	وأم	وبنون	وأخوات
س	س	ين	

الحكم في جميع هذا المربع كالحكم في جميع المربع الأول مع الإخوة لا فرق

المربع الخامس

أب	وبنون	وأخوات
أب	وابن	وأخوات
أب	وبنون وبنات	وأخوات
أب	وابن وبنت	وأخوات
س	قي	
أب	وبنات	وأخوات
ث	ين	
أب	وبنت	وأخوات
ث	ف	س

المربع السادس

أم	وبنون	وأخوات
أم	وابن	وأخوات
أم	وبنون وبنات	وأخوات
أم	وابن وبنت	وأخوات
س	قي	
أم	وبنات	وأخوات
س	ين	س
أم	وبنت	وأخوات
س	ف	ث

المربع السابع

أب	وأم	وبنون	وأخ
أب	وأم	وابن	وأخ
أب	وأم	وبنون وبنات	وأخ
أب	وأم	وابن وبنت	وأخ
أب	وأم	وبنات	وأخ
س	س	ين	
أب	وأم	وبنت	وأخ
ث	س	ف	

المربع الثامن

أب	وبنون	وأخ
أب	وابن	وأخ
أب	وبنون وبنات	وأخ
أب	وابن وبنت	وأخ
س	قي	
أب	وبنات	وأخ
ث	ين	
أب	وبنت	وأخ
ث	ف	س

المربع التاسع

أم	وبنون	وأخ
أم	وابن	وأخ
أم	وبنون وبنات	وأخ
أم	وابن وبنت	وأخ
س	قي	
أم	وبنات	وأخ
س	ين	س
أم	وبنت	وأخ
س	ف	ث

المربع العاشر

أب	وأم	وبنون	وأخت
س	س	ين	

هذا كالمربع السابع في الجميع

المربع الحادي عشر

أب	وبنون	وأخت
س	قي	

هذا كالمربع الثامن في الجميع

المربع الثاني عشر

أم	وبنون	وأخت
أم	وابن	وأخت
أم	وبنون وبنات	وأخت
أم	وابن وبنت	وأخت
س	قي	
أم	وبنات	وأخت
س	ين	س
أم	وبنت	وأخت
ع	ف	ع

المربع الثالث عشر

أب	وأم	وبنون	وأخ وأخت
س	س	ين	
أب	وأم	وابن	وأخ وأخت
أب	وأم	وبنون وبنات	وأخ وأخت
أب	وأم	وابن وبنت	وأخ وأخت
أب	وأم	وبنات	وأخ وأخت
س	س	ين	
أب	وأم	وبنت	وأخ وأخت
ث	س	ف	

المربع الرابع عشر

أب	وبنون	وأخ وأخت
س	قي	
أب	وابن	وأخ وأخت
أب	وبنون وبنات	وأخ وأخت
أب	وابن وبنت	وأخ وأخت
أب	وبنات	وأخ وأخت
ث	ين	
أب	وبنت*	وأخ وأخت
ث	ف	س كا

المربع الخامس عشر

أم	وبنون	وأخ وأخت
أم	وابن	وأخ وأخت
أم	وبنون وبنات	وأخ وأخت
أم	وابن وبنت	وأخ وأخت
س	قي	
أم	وبنات	وأخ وأخت
س	ين	س كا
أم	وبنت	وأخ وأخت
س	ف	س س

* بيان: الأب له مع وجود الأم وجمع من الإخوة ثلث، فكيف لا يكو ن له ذلك مع عدم الأم ووجود أخ وأخت فقط.

المربع السادس عشر

أب	وأم	وبنون	وإخوة وأخوات
أب	وأم	وابن	
أب	وأم	وبنون وبنات	
س	س	ين	

والباقي مثل ما في المربع الثالث عشر

في جميع هذا المربع يسقطون

المربع السبع عشر

أب	وبنون	وأخ وأخت
س	قي	

بقية هذا المربع كما هو في المربع الرابع عشر

المربع الثامن عشر وهو آخرها

أم	وبنون	وإخوة وأخوات
أم	وابن	وإخوة وأخوات
أم	وبنون وبنات	وإخوة وأخوات
أم	وابن وبنت	وإخوة وأخوات
س	قي	
أم	وبنات	وإخوة وأخوات
س	ين	س كا
أم	وبنت	وإخوة وأخوات
س	ف	ث كا

تم اللوح الثلاثي الأول.

يتلوه اللوح الثلاثي الثاني
وهو لوح الأبناء والإخوة والأزواج

وينقسم إلى اثني عشر مربعا
عدد صوره ٧٢

المربع الأول

بنون وبنات	وإخوة	وزوج
ابن وبنت		وزوج
ابن		وزوج
قي		ع
بنات		وزوج
ين		ث
بنت		وزوج
ف		ف

(الإخوة يسقطون)

المربع الثاني

بنون وبنات	وأخ	وزوج
قي		ع

هذا كالذي قبله

المربع الثالث

بنون وبنات	وإخوة	وزوج
قي		ع

هذا كالذي قبله

المربع الرابع

بنون وبنات	وأخ وأخت	وزوج
قي		ع

هذا كالذي قبله

المربع الخامس

بنون وبنات	وأخوات	وزوج
قي		ع

هذا كالذي قبله

المربع السادس

بنون وبنات	وأخت	وزوج
قي		ع

هذا كالذي قبله

المربع السابع

بنون وبنات	وإخوة	وزوجة
ابن وبنت	وإخوة	وزوجة
ابن	وإخوة	وزوجة
بنون	وإخوة	وزوجة
قي		ن
بنات	وإخوة	وزوجة
ين	طين	ع
بنت	وإخوة	وزوجة
ف	ع	ع

المربع الثامن

بنون وبنات	وأخ	وزوجة
قي		ن

هذا كالذي قبله

المربع التاسع

بنون وبنات	وإخوة وأخوات	وزوجة
قي		ن

هذا كالذي قبله

المربع العاشر

بنون وبنات	وأخ وأخت	وزوجة
قي		ن

هذا كالذي قبله غير أن الأخ والأخت شركا في الربع الذي لهما مع البنت والزوجة لا بالحظ فافهم مثل ذلك متى نقص فرض الإخوة أعني لكل واحد السدس اشتركوا على السواء

المربع الحادي عشر

بنون وبنات	وأخوات	وزوجة
قي		ن

هذا كالذي قبله

المربع الثاني عشر

بنون وبنات	وأخت	وزوجة
قي		ن

هذا كالذي قبله

تم اللوح الثلاثي الثاني.

يتلوه اللوح الثلاثي الثالث
وهو لوح الآباء والأبناء والأزواج

وينقسم إلى ست مربعات
جملة صوره ٣٦

المربع الأول

أب	وأم	وبنون	وزوج
س	س	ع س	ع
أب	وأم	وابن	وزوج
أب	وأم	وبنون وبنات	وزوج
أب	وأم	وابن وبنت	وزوج
أب	وأم	وبنات	وزوج
س	س	ع س	ع
أب	وأم	وبنت	وزوج
س	س	ع س	ع

المربع الثاني

أب	وبنون	وزوج
س	قي	ع
أب	وابن	وزوج
أب	وبنون وبنات	وزوج
أب	وابن وبنت	وزوج
أب	وبنات	وزوج
س	قي	ع
أب	وبنت	وزوج
س	ف	ث

المربع الثالث

أم	وبنون	وزوج
س	قي	ع

هذا كالذي قبله في الجميع

المربع الرابع

أب	وأم	وبنون	وزوجة
س	س	قي	ن
أب	وأم	وابن	وزوجة
أب	وأم	وبنون وبنات	وزوجة
أب	وأم	وابن وبنت	وزوجة
أب	وأم	وبنات	وزوجة
أب	وأم	وبنت	وزوجة
س	س	ف	س

المربع الخامس

أب	وبنون	وزوجة
س	قي	ن
أب	وابن	وزوجة
أب	وبنون وبنات	وزوجة
أب	وابن وبنت	وزوجة
أب	وبنات	وزوجة
س	ين	س
أب	وبنت	وزوجة
ع	ف	ع

المربع السادس

أم	وبنون	وزوجة
س	قي	ن

هذا كالذي قبله

بيان: إنما كان أب وبنت وزوجة كأم وبنت وزوجة لأننا كملنا للزوجة فرضها الأكبر فبقي الباقي للأب أو الأم إرثا

تم اللوح الثلاثي الثالث.

* * *

يتلوه اللوح الثلاثي الرابع
وهو لوح الآباء والإخوة والأزواج

وهو ست مربعات
عدد صوره ٣٦

المربع الأول

أب	وأم	وإخوة	وزوجة
أب	وأم	وأخ	وزوجة
أب	وأم	وإخوة وأخوات	وزوجة
أب	وأم	وأخ وأخت	وزوجة
أب	وأم	وأخوات	وزوجة
ث	س	ع	ع
أب	وأم	وأخت	وزوجة
ع ن	س ونصف ط	س ونصف ط	ع

بيان على المربع الأول:
لما أخذت الزوجة فرضها الأكبر
بقي الباقي بين الأب والأم
والأخت بالحظ

المربع الثاني

أب	وإخوة	وزوجة
ث	ع س	ع
أب	وأخ	وزوجة
ع ن	ع ن	ع
أب	وإخوة وأخوات	وزوجة
أب	وأخ وأخت	وزوجة
ث	ع س	ع
أب	وأخوات	وزوجة
بالحظ ما لم ينقص الأب عن الثلث		ع
أب	وأخت	وزوجة
ف	ع	ع

المربع الثالث

أم	وإخوة	وزوجة
س	قي	ع
أم	وأخ	وزوجة
ع	ف	ع
أم	وإخوة وأخوات	وزوجة
س	قي بالحظ	ع
أم	وأخ وأخت	وزوجة
	بالحظ	ع
أم	وأخوات	وزوجة
شركا ما لم ينقص الأم من السدس		ع
أم	وأخت	وزوجة
ع ن	ع ن	ع

المربع الرابع

أب	وأم	وإخوة	وزوج
ث	س		ف
أب	وأم	وأخ	وزوج
للأب ثلث في الجميع	للأم سدس في الجميع	الإخوة تسقط في الجميع	النصف للزوج في الجميع

المربع الخامس

أب	وإخوة	وزوج
ث	س	ف

جميع هذ المربع
لا يتغير عن هذه القسمة

المربع السادس

أم	وإخوة	وزوج
س	ث	ف

هذا الحكم في جميع المربع
إلا فيما يذكر وهو

أم	وأخت	وزوج
ع	ع	ف

تمت الألواح الثلاثية، يتلوها لوح الرباعيات.

* * *

لوح الرباعيات

لوح الآباء والأبناء والإخوة والأزواج

وهو ست وثلاثون مربعا
عدد صوره ٢١٦
منها للزوج ١٠٨ ومنها للزوجة [١٠٨]

ولنبدأ بمربعات الزوج وله مع الأب والأم ست مرباعت، ومع الأب وحده كذلك.

[مربعات الزوج مع الأب والأم]

المربع الأول

أب وأم	وبنون	وإخوة	وزوج
س س	قي	الإخوة ههنا يسقطون	ع
الأب ههنا لا يتغير عن السدس وكذلك الأم	ابن		الزوج لا يتغير ههنا عن الربع
	بنون وبنات		
	ابن وبنت		
	بنات		
	بنت		
	قي		

المربع الثاني

أب وأم	وبنون	وأخوات	وزوج
س س	قي	الأخوات فيه كالإخوة فيما قبله	ع

هذا كحكم ما قبله

المربع الثالث

أب وأم	وبنون	وأخ	وزوج
س س	قي	والأخ فيه كالأخوات فيما قبله	ع

هذا أيضا مثل الأول

المربع الرابع

أب وأم	وبنون	وأخت	وزوج
س س	قي		ع

هذا أيضا كما قبله

المربع الخامس

أب وأم	وبنون	وأخ وأخت	وزوج
س س	قي		ع

هذا أيضا كما قبله

المربع السادس

أب وأم	وبنون	وإخوة وأخوات	وزوج
س س	قي		ع

هذا أيضا كما قبله

هذا آخر ما للزوج مع الأب والأم إذا اجتمعا. [ويتلوه ما للزوج] مع الأب وحده.

[مربعات الزوج مع الأب دون الأم]

المربع السابع

أب	وبنون	وإخوة	وزوج
أب	وابن	وإخوة	وزوج
أب	وبنون وبنات	وإخوة	وزوج
أب	وابن وبنت	وإخوة	وزوج
أب	وبنات	وإخوة	وزوج
س	قي		ع
أب	وبنت	وإخوة	وزوج
س	ف		ث

المربع الثامن

أب	وبنون	وأخوات	وزوج
س	قي		ع

هذا مثل ما قبله
وهو المربع السابع
دون ما قبل السابع

المربع التاسع

أب	وبنون	وأخ	وزوج
س	قي		ع

هذا أيضا كما قبله
وهو الثامن

المربع العاشر

أب	وبنون	وأخت	وزوج
س	قي		ع

هذا أيضا مثل التاسع

المربع الحادي عشر

أب	وبنون	وأخ وأخت	وزوج
س	قي		ع

هذا أيضا مثل العاشر

المربع الثاني عشر

أب	وبنون	وإخوة وأخوات	وزوج
س	قي		ع

هذا أيضا مثل العاشر

هذا آخر ما للزوج مع الأب وحده دون الأم معه.

مربعات الزوج مع الأم دون الأب

المربع الثالث عشر

أم	وبنون	وإخوة	وزوج
أم	وابن	وإخوة	وزوج
أم	وبنون وبنات	وإخوة	وزوج
أم	وابن وبنت	وإخوة	وزوج
أم	وبنات	وإخوة	وزوج
س	قي		ع
أم	وبنت	وإخوة	وزوج
س	ف		ب

المربع الرابع عشر

أم	وبنون	وأخوات	وزوج
س	قي		ع

هذا أيضا كما قبله

المربع الخامس عشر

أم	وبنون	وأخ	وزوج
س	قي		ع

هذا أيضا كما قبله

المربع السادس عشر

أم	وبنون	وأخت	وزوج
س	قي		ع

هذا أيضا كما قبله

المربع السابع عشر

أم	وبنون	وأخ وأخت	وزوج
س	قي		ع

هذا أيضا كما قبله

المربع الثامن عشر

أم	وبنون	وإخوة وأخوات	وزوج
س	قي		ع

هذا أيضا كما قبله

وهذا آخر مربعات الزوج، يتلو ذلك مربعات الزوجة ١٨.

[مربعات الزوجة مع الأب والأم]

المربع التاسع عشر

أب وأم	وبنون	وإخوة	وزوجة
أب وأم	وابن	وإخوة	وزوجة
أب وأم	وبنون وبنات	وإخوة	وزوجة
أب وأم	وابن وبنت	وإخوة	وزوجة
أب وأم	وبنات	وإخوة	وزوجة
س س	قي		ن
أب وأم	وبنت	وإخوة	وزوجة
س س	ف		س

المربع العشرون

أب وأم	وبنون	وأخوات	وزوجة
س س	قي		ن

هذا مثل الذي قبله
وهو التاسع عشر

المربع الحادي والعشرون

أب وأم	وبنون	وأخ	وزوجة
س س	قي		ن

هذا أيضا كما قبله

المربع الثاني والعشرون

أب وأم	وبنون	وأخت	وزوجة
س س	قي		ن

هذا أيضا كما قبله

المربع الثالث والعشرون

أب وأم	وبنون	وأخ وأخت	وزوجة
س س	قي		ن

هذا أيضا كما قبله

المربع الرابع والعشرون

أب وأم	وبنون	وإخوة وأخوات	وزوجة
س س	قي		ن

هذا أيضا كما قبله

هذا آخر ما للزوجة مع الأب والأم إذا اجتمعا. يتلو ذلك ما للزوجة مع الأب وحده دون الأم

مربعات الزوجة مع الأب دون الأم

المربع الخامس والعشرون

أب	وبنون	وإخوة	وزوجة
أب	وابن	وإخوة	وزوجة
أب	وبنون وبنات	وإخوة	وزوجة
أب	وابن وبنت	وإخوة	وزوجة
س	قي		ن
أب	وبنات	وإخوة	وزوجة
س	ين		س
أب	وبنت	وإخوة	وزوجة
ع	ف		ع

المربع السادس والعشرون

أب	وبنون	وأخوات	وزوجة
س	قي		ن

هذا مثل الذي قبله

المربع السابع والعشرون

أب	وبنون	وأخ	وزوجة
س	قي		ن

هذا أيضا كالذي قبله

المربع الثامن والعشرون

أب	وبنون	وأخت	وزوجة
ع	قي		ن

هذا أيضا كما قبله

المربع التاسع والعشرون

أب	وبنون	وأخ وأخت	وزوجة
س	قي		ن

هذا أيضا كما قبله

المربع الثلاثون

أم	وبنون	وإخوة وأخوات	وزوجة
س	قي		ن

هذا أيضا كما قبله

تم ما لها مع الأب وحده، يتلوه ما لها مع الأم وحده.

مربعات الزوجة مع الأم دون الأب

المربع الحادي والثلاثون

أم	وبنون	وإخوة	وزوجة
أم	وابن	وإخوة	وزوجة
أم	وبنون وبنات	وإخوة	وزوجة
أم	وابن وبنت	وإخوة	وزوجة
س	قي		ن
أم	وبنات	وإخوة	وزوجة
س	ين		س
أم	وبنت	وإخوة	وزوجة
س	ف	طين	ع

المربع الثاني والثلاثون

أم	وبنون	وأخوات	وزوجة
س	قي		ن

هذا مثل الذي تقدمه
وهو الحادي والثلاثون

المربع الثالث والثلاثون

أم	وبنون	وأخ	وزوجة
س	قي		ن

هذا مثل الذي تقدمه

المربع الرابع والثلاثون

أم	وبنون	وأخت	وزوجة
س	ب ع ن		ن

هذا أيضا كما تقدم

المربع الخامس والثلاثون

أم	وبنون	وأخ وأخت	وزوجة
س	قي		ن

هذا أيضا كما تقدم

المربع السادس والثلاثون

أم	وبنون	وإخوة وأخوات	وزوجة
س	قي		ن

هذا أيضا كما قبله

تمت الألواح ولله الحمد. عدد سائر الصور ٤٨٧

/ اعلم أن الفُراديّات لوح واحد وهو أربعُ مُرَبَّعاتٍ. والثنائيات ستة ألواح. اللوح [١٠٥و]
الأول منها ثلاث مربعات، إللوح الثاني ثلاث مربعات، اللوح الثالث ست مربعات، اللوح الرابع مرَبَّعٌ واحد، اللوح الخامس مربعان، اللوح السادس مربعان[١] وهو آخر الثنائيات. الثلاثيات أربعة ألواح. اللوح الأول ثمانية عشر مربعا، اللوح الثاني اثنا عشر مربعا، اللوح الثالث سِتٌّ مربعات، اللوح الرابع ست مربعات وهو آخر الثلاثيات. والرباعيات[٢] لوح واحد ينقسم إلى ستة وثلاثين مربعا. فجملة الألواح اثنا عشر لوحا بعدد أشهر السنة وبروج السماء. وجملة مربعاتها تسع وتسعون بعدد أسماء الله الحسنى. وجملة الصور ٤٨٧. استلزمها العقلُ من أربع مفردات وأربع مركبات بعدد الأمزجة المشتملة على سائر الموجودات. وهذا من أبلغ الإيجاز المُغرِب وأتم الإعجاز المطرِب لمن فهم. والله أعلم.

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾

قوله تعالى: والٰتى يأتين الفٰحشة من نسائكم، هذه اللفظة مفهومها في العربية أنها خطاب للمؤنثات اللاتي يأتين بعضُهن بعضا. فعرّفَنا الله أن هذه أيضا من الفواحش، ثم عرّفنا القصاص عليها إذا[٣] ثبتت. وذلك بالمَسْك، لكن بعد قوله: فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتىٰ يتوفٰهن الموت، اللهم إلا أن يُؤْثِر طلاقها وإخراجها عنه. ولهذا أعقبها بقوله: أو يجعل الله لهن سبيلا، وذلك إما بالطلاق من جهة البعل، أو من جهتها بأن تفتدي نفسَها منه -وهذا هو القسم الأظهر أنه سبيل جعله الله لها- أو بموتِ البعل. هذا مفهوم عربية هذا اللفظ حسب ما يمكن أن يقع في الوجود. فأما بأن تموت هي فهذا لا يقال له: سبيل لها، ولهذا فُصِل[٤] عما سواه، لأن السبيل أعني الطريق لا يكون إلا للحي،[٥] وليس ثَم وجه رابع. فلهذا عبّر الله عما سوى الوجه الواحد بقوله: أو يجعل الله لهن سبيلا، مخاطِبا لمن يعقل الوجوه الضرورية الواقعةَ في الوجود.

---

١ ش ك – اللوح السادس مربعان.
٢ ش: الرباعيات.
٣ ر: عليها إذ.
٤ ر – فصل.
٥ ك: إلا الحي.

﴿وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾

ولما كانت الفواحش لا يمكن أن تقع[1] في الوجود على أكثرَ من ثلاثِ صور. إحداها[2] أن تقع الفاحشةُ بين الذَّكر والأنثى، وذلك هو المسمى بالزنى، وقد ذكره الله تعالى في سورة النور،[3] وبيّن حُكمه؛ والثانية أن تقع بين الأنثى والأنثى؛ والثالثة أن تقع بين الذكر والذكر ذكر[4] ههنا هاتين الصورتين ليبين أنهما مثل الزنى في الفحش، فذكر: ٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ،[5] من النساء. ثم قال: واللّذان يأتيٰنها منكم، يعني من الرجال، ولهذا لم يقل: والذين. هذا مفهوم هذا اللفظ من حيث العربيةُ وهو ظاهر لا يَتوقف في فهمه إلا من قد غلب هواه على عقله فوقف مع النقل لا مع العقل. ولمّا بين الله ههنا هذين الحكمين وسماهما فواحشَ لم يحتج أن يذكر الزنى لظهور فحشه، فعَدَل عن ذكره ههنا. وقال عليه السلام: «إذا باشر الرجلُ الرجلَ فهما زانيان، وإذا باشرت المرأة المرأة فهما زانيتان».[6] وقوله: فـٔاذوهما، الأذى يريد به الإخراق[7] بالقول، وأكثر ما يُستعمل في كتاب الله كذلك قال تعالى: لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ.[8] وقوله: فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما، يعني فإن انتقلا عن هذا الوصف وظهر منهما التقيةُ والصلاح فينبغي أن يُعرَض عنهما ولا يؤذَيا بكلام ولا بإخراق. لهذا بعده: إن الله كان توابا رحيما، ليعلِّمنا التوبة والرحمة للتائبين من الذنوب.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧﴾

ثم بين ذلك بقوله: إنما التوبة على الله، أي حقٌّ واجب عليه سبحانه لمن تاب أن يقبله. وهذا وجوب كرم لا وجوب استحقاقٍ، للذين يعملون السوء بجهْلة، أي يجهلون أنه حرام فإذا علموا تابوا. وهو معنى [قوله:] ثم يتوبون من قريب، أي من قريب العلم. ولو فرضنا أنه يعمل السوء طول عمره، وتاب عند[9] علمه به أنه سوء فهو من قريب،

[1] ش ك: أن يقع.

[2] جميع النسخ: أحدها.

[3] انظر لمعرفة المزيد: سورة النور، ٢/٢٤، ١٩، ٢١، ٣٢-٣٣.

[4] جميع النسخ: فذكر.

[5] من الآية السابقة.

[6] المعجم الأوسط للطبراني، ٢٦٦/٤-٢٦٧؛ والسنن الكبرى للبيهقي، ٢٣٣/٨.

[7] أخْرَقْتُه: أدْهَشْته (لسان العرب، «خرق»).

[8] سورة الأحزاب، ٦٩/٣٣.

[9] ك - عند، صح هـ.

لأن الجهالة حاصلة في المدة ولم ينف أنه يتوب على الأواخر، بل بين أن ليس ذلك عليه حقا، فافهم. وذلك أن الشخص إذا عمل بالمعصية / عن علم منه بأنها معصية، [١٠٥ظ] ثم تكرر ذلك منه مرارا ودام على ذلك الحال، فإن ذلك يدل على قلة تقواه وقلة خوفه من الله سبحانه، فيَقْسو قلبُه عن التوبة لتكرار المعصية عليه. ولو تاب فإنه يرجع بنقض[١] التوبة، لأن فعل المعصية يُبقي له ملكة والملَكَات يَعسُر زوالها. وأما المتقون، **فأولٰئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما.**

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾

وليست التوبة، أي ليست حقا على الله، **للذين يعملون السيئات**، وهذا لا يمنع أن يتوب عليهم بل يمنع أن يكون لهم حق كما كان لمن قبلهم. فافهم ذلك لئلا يناقض الحديثَ وهو «ما لم يُغَرْغِرْ»،[٢] أي يمكن أن يتوب عليه إلى أن[٣] يغرغر، فالعمل بالحديث واجب في كل مكان ما لم يعارضه نصٌّ، فمتى عارض وناقَض وكان النص محرَّرا محققا لزم تأويل الحديث. وهذا الكلام في عمل السوء مع الإيمان. وأما الكفر والإيمان فقد بيّنه في قوله تعالى: إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟. وأما تكريره "ثم" في قوله: ثُمَّ كَفَرُوا۟، فالكفر في قوله: ثُمَّ كَفَرُوا۟، معطوف على الكفر الأول الذي كان قبل الإيمان، وكذلك الإيمان الثاني معطوف على الإيمان الأول، وكذلك قوله: ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا،[٤] معطوف على الكفر في المرتين، فافقه ذلك على ما بيناه في آل عمران من أمر الزيادة.[٥]

وقوله تعالى: **حتىٰ إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الـٰٔن ولا الذين يموتون وهم كفار أولٰئك أعتدنا لهم عذابا أليما**، يريد الكفار. وأما من تاب ممن يعمل السيئات إلى حين الموت فإنه ليس له على الله حق أن يتوب عليه، لكنه لا يمنع أن يغفر الله له إن شاء. فأما إن لم يغفر له وعذّبه فإنه لا يكون خالدا في النار، والله أعلم. وهذا إن كان

---

[١] ر ك: بنقص.

[٢] عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» (مسند أحمد بن حنبل، ١٣٢/٢، ١٥٣، ٤٢٥/٣؛ وسنن ابن ماجه، الزهد ٣٠؛ وسنن الترمذي، الدعوات ٩٨).

[٣] ر – إلى أن، صح هـ.

[٤] الآية ١٣٧ من هذه السورة.

[٥] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ (سورة آل عمران، ٩٠/٣).

قد اجتنب الكبائرَ تُكَفَّر عنه الصغائر في الدنيا، وإن كان غير مجتنب للكبائر لكنه مات مؤمنا فإنه يدخل النار ويخرج بعد ما شاء الله إلا مَن عيَّن الله في حقه الخلودَ كأكل الربا إذا عاد.[1] وهذا إذا كانت التوبة من عمل السيئات. فأما إذا كانت عن عقائدَ ولا تتعلق بعمل فإنها مقبولة كالإيمان بعد الكفر، يفهم ذلك من قوله: **ولا الذين يموتون وهم كفار**، دل على أن الذين يموتون وهم مؤمنون فإنهم مقبولون إلا إن كفروا ثلاث مرات كما قلنا، فما دون ذلك مقبول بالتوبة. وكذلك من أسلم قبل موته فإنه مقبول غير أنه ليس له عمل صالح بعد إسلامه. فإن كان له عمل صالح قبل إسلامه فيُكتب له، لقوله تعالى: إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا.[2] ومما يلزم أيضا من النص أن يُكتب له ما وعده الله به في قوله:[3] فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ،[4] والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ١٩﴾

وأما ما قلناه في قوله تعالى: أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا،[5] فدليله تفصيل ما جاء به ههنا من الكلام الذي لا يجوز أن يكون في النظم بعد ما تقدمه إلا أن يكون معطوفا في المعنى على المَسْك في البيوت. فافهمه جيدا متأنيا، وهو قوله تعالى: **يأيها الذين ءامنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها**، تقديره: على كره. ويحتمل أن يكون الكره منها له، أو منه لها، أو منهما معا. فلما[6] قال أخيرا: **فإن كرهتموهن**، دل القسم الواحد وهو الذي هو منه على القسم الآخر الذي هو منها. وهذا فائدة إثبات هذه اللفظة أعني الكراهة أخيرا وإضافتِها إلى الرجال، لكنه يلزم أن تكون الكراهةُ منهما معا، لأن الله تعالى قد حَسَّن له أن يبقيها مع كراهته لها بما في آخر الآية. ولأنه ليس عليه أن يطلّقها إذا كرهتْه[7] بمفردها، فلم يبق إلا أن تكون الكراهة حصلت منهما معا،

[1] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٧٥).

[2] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (سورة الكهف، ١٨/٣٠).

[3] ر – في قوله، صح هـ.

[4] ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ (سورة الفرقان، ٢٥/٧٠).

[5] الآية ١٥ من هذه السورة.

[6] ش ك – فلما.

[7] ر: إذا كراهته.

فأمسكها بعد ذلك فلم يطلقها لأجل أن تموت عنده فيرثها. ولما اقتضت القسمة ثلاثَ صورٍ: إما أن تموت، أو تبقى معه، أو يطلقها نهى الله أن يكون مقصودُ الرجل أخْذَ مالِ المرأة في المواضع الثلاث. ففي الموت لا يجوز له أن يرثها كَرْها، وفي بقائها معه لا يجوز له أن يَعضُلها ليَذْهب بالبعض، وفي الاستبدال بها / لا يجوز له أن يأخذ منها[١] شيئا.[٢] فإن مات الزوج فلها أن ترثه كَرْها، لأن الأمر في الطلاق كان إليه لا إليها. فافهم ذلك. وقيل: كان الرجل في الجاهلية إذا مات قام ابنه لغير زوجته أو قرابتُه ألقى ثوبه على زوجة الميت فيملكها بذلك، فإن شاء تزوجها بصَداق الميت وإن شاء زوجها لغيره. وهذا مما نقله البغوي[٣] في تفسيره، قال: فنهى الله عن ذلك.[٤] وأقول: هذا غير جائز، وليس مفهوم اللفظ ما قاله البغوي ومَن وافقه، لأن الكلام فيما يأخذه الرجل من المرأة لا في نفس المرأة لجواز[٥] ارتفاع الكَرْه[٦] فيلزمَ جواز فعل الجاهلية. وإنما الكلام في مالها بعد وفاتها هي أو في حياتها[٧] بدليل قوله تعالى بعده: **ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما ءاتيتموهن**، أي قبل الطلاق بمعنى لا تقدحوا فيهن بمُعْضِلة من الفواحش لتذهبوا ببعض حقِّهن وهو الصداق. وهذا الذهاب إنما هو من جهة الضِّرار لتفتدي نفسَها أو عِرضَها ببعض ما آتاها من صداق أو غيره. وأما حقها فلا يسقط بوجه ولو كَفرت، فإن لها مع الكفر ما كانت تملكه. وليس له أن يرثها إذا كفرت وقُتلت بكفرها. فافهم أن هذا الذهاب ببعض ما آتيناهن هو على جهة الفِداء كما بينا في قوله: فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ.[٨] وهذا الحكم في هذه الجملة هو بيانٌ شافٍ موضِّح لما يجب فعلُه مع اللاتي يأتين الفاحشة من النساء وإن اشتمل على غيرهن. فافقه ذلك. [١٠٦و]

وأما معنى المُعْضَلَة فإنها مأخوذة من قولك: عَضله يَعضِله إذا أصابه في عَضَلِه، فإنه يُبطل ذلك العضو الذي أصيبت عَضَلَتُه. وذلك أن العضلة عبارة عن اللحم الذي

---

١ جميع النسخ: أن يأخذ لها.

٢ انظر: الآية التالية.

٣ أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد، الفراء، أو ابن الفراء، ويلقب بمحيي السنة، فقيه، محدث، مفسر. نسبته إلى بغا من قرى خراسان، بين هراة ومرو. له التهذيب في فقه الشافعية، وشرح السنة في الحديث، ولباب التأويل في معالم التنزيل في التفسير، ومصابيح السنة، والجمع بين الصحيحين وغير ذلك. توفي سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م (الأعلام للزركلي، ٢/٢٥٩).

٤ معالم التنزيل للبغوي، ٢/١٨٦.

٥ ش – لجواز.

٦ ر: الكرة.

٧ ر – لجواز ارتفاع الكرة فيلزم جواز فعل الجاهلية وإنما الكلام في مالها بعد وفاتها هي أو في حياتها، صح هـ.

٨ ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٢٩).

قد خالطه عَصَبٌ وأغشية ورباطات. وانتهى ذلك إلى آخره فصار وترا واتصل بالعضو الذي يليه فيقبضه ويبسطه كعضلة الفخذ المحرِّكة للساق وعضلِ الساق المحرك للقدم وعضل الزَّنْد[1] المحرك لليد. فإنه متى أصيبت العضلةُ بطلت حركة ذلك العضو، وبطلان العضو هو آفة عظيمة. ولهذا يُنسب إليه كلُّ داء عظيم، فيقولون: داء عُضالٌ[2] تشبيها له بداء العضلة إذا أصيبت بشيء فانقطعت. ولمّا كان الاستعمال في العربية كذلك خوطبوا في الكتاب العزيز بما هو مستعمل فيها لسانه.[3]

وقوله: **إلا أن يأتين بفْحشة مبينة**، فيجوز الذهاب بالبعض، ويريد بهذا الاستثناء معنى قوله: فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ، فهو يأخذ ذلك هناك ليطلقها وهنا ليصالحها كما نبين في قوله: فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا.[4] ولهذا بعده ههنا: **وعاشروهن بالمعروف**، أي من المودّة والرحمة والنفقة والإكرام حسب ما يليق به وبها مما هو معروف مشهور بيْن الناس. وقوله: **فإن كرهتموهن**، نَسَبَ الكراهة إليه ليكون التصرف في إخراجها إذا كرهها، وذلك لضعف عقلها وقلة نظرها في عواقب الأمور. ولهذا أتبع قولَه تعالى: **فإن كرهتموهن**، بقوله: **فعسىٰ أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا**، لينبّه الرجال على التأني في الأمر وأن لا يعملوا بأول خاطر بل ينظروا في عواقب الأمور. ولما كان النساء أضْعفَ عقلا وأقل نظرا في العواقب لم يُجعل حكمُ الطلاق إليهن كما جُعل إلى الرجال.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾

وقوله: **وإن أردتم استبدال زوج**، نبّه في أول الآية إذا كان معه أربع زوجات وأراد[5] استبدالَ واحدةٍ منهن بغيرها فله ذلك دائما. لأن قوله: **إحدٰهن**، دليل على جمع المؤنث. ولو أنهن أقل من أربع لقال: وإن أردتم أخْذَ زوجٍ بعد زوج، أو ما أشبه ذلك من العبارة الدالة على فِراق وزَواج، أو فراق فقط. فلما قال: **استبدالَ زوج مكانَ زوج وءاتيتم إحدٰهن قنطارا**، أشعرَنا بأنه إذا كان معه أربع يجوز له استبدال ما شاء منهن بغيرها.

---

[1] الزَّنْد: موصل طرف الذراع في الكفّ (تاج العروس للزبيدي «زند»).

[2] داء عضال: شديدٌ مُعيٍ غالبٌ (لسان العرب، «عضل»).

[3] ر ك: لبيانه.

[4] الآية ١٢٨ من هذه السورة.

[5] ش ك: أراد.

فأما إذا كُنَّ دون الأربع فما يَضطرّ إلى استبدالٍ لجواز[1] أن يأخذها / مضافة إلى ما معه، [١٠٦ظ]
فبين لنا جوازَ الاستبدال. وفهمنا من هذا البيان حكم المطَلَّقة وإن لم يكن استبدالا. ولو قال: وآتيتم إحداهما لكان قد نفى الأخذَ أيضا من التي أخذناها كما نفاه من التي تركناها. فأشار بقوله: إحدىٰهن، إلى[2] أيِّ زوج فارقناه[3] وبيّن ما قلناه من جواز الاستبدال إلى حين الممات. وقوله: **فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتٰنا**، هذه صيغة المبالغة من قولك: بَهَتَ يَبْهَت بَهْتا وبُهْتانا. فأشار إلى أن أخْذَ ذلك منهن هو كأشد ما يكون من البَهْت والتعدي بالباطل والزور. وسمي البهتان بهتانا لأن قائله يبهت إلى المقول له، وكذلك المقول له[4] يبهت عند ذلك ويتحير. ثم قال معظِّما للمنع: **وإثما مبينا**.

﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾

ثم علله[5] مُنْكرا فقال: **وكيف تأخذونه وقد أفضىٰ**، حل في فضاء وهو السعة، **بعضكم إلىٰ بعض**، والمعنى باشر بعضكم بعضا بما آتيتموهن. ويقال: أفضى بيده إلى الأرض، إذا باشر الأرض بباطن كفه. **وأخذن منكم ميثٰقا غليظا**، وهو عقد النكاح. فحلّ بالأخذ ذلك العقدَ الذي هو عهد وميثاق على ما أمر الله تعالى، لأنه إذا طلق حَلّ العقدَ مع الزوجة ولم يَحلَّ العقد مع الله لأنه مع الأمر في حالتي الزواج والطلاق.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾

ولا تنكحوا ما نكح ءاباؤكم، وقوله: **من النساء**، يظن الظان أنه لو حذفها لكان الكلام كافيا، وليس كذلك؛ إذ لو حذفها لكان يُفهم من ذلك أن مراد الآية راجع إلى ما فصّله في الآية التي بعدها بقوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ،[6] أعني أنه كان يكون. كأنه قد[7] قال: لا تفعلوا أفعالَ[8] الجاهلية في أمر النكاح كما كان ينكح آباؤكم. وذلك أنهم[9] كانوا يَنْكِحون العمة والخالة وغيرَ ذلك. فلما قال: **من النساء**، أراد من بقية النساء

---

[1] ر: الجواز.
[2] ش – إلى.
[3] ر: فرقناه.
[4] ش ك – وكذلك المقول له.
[5] ر ك: ثم علل.
[6] من الآية التالية.
[7] ش – قد.
[8] ش: فعال.
[9] ر: لأنهم.

المباح نكاحُهن لكم وللآباء. وإيضاح ذلك يُفهَم من قوله تعالى في أول السورة: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾، الذي معناه كما بيّنا ما تقديره فانكحوا ما طاب لكم من النساء، أي غير اليتامى؛ فلما قال أولا مبيحا:[١] ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾،[٢] قال ثانيا محرِّما: **ولا تنكحوا ما نكح ءاباؤكم من النساء**، أي المباح نكاحهن. فذكر النساء أولا، ثم ذكر النساء[٣] ثانيا على طريق المحاذاة[٤] إعلاما أن النهي ثانيا إنما هو عن بعض المباح أولا، وهو ما عقد عليه الأب بعد الإسلام من المباحات،[٥] لأن النهي هو عما تقدم قبل الإسلام أو عما حرمتْه الآية الثانية. فذلك محرَّم بقوله: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ﴾،[٦] وتمامِه. فلمّا كان مراد الآية تحريمَ ما نكح الآباء بعد الإسلام قال: **من النساء**، واستثنى بقوله: **إلا ما قد سلف**، أي قبل الإسلام.

وليس لقائل أن يقول: فإن كان قبل نزول هذه الآية قد نكح مما تضمنته الآية الثانية[٧] يجوز أن يبقى عليه ويجعل حجته، **إلا ما قد سلف**، فذلك لا يصح. لأن تقدير الكلام ولا تنكحوا من الآن ما نكح آباؤكم في المستقبل إلا ما قد سلف في الماضي قبل التحريم، فلكم أن تستمروا به بعد التحريم ما لم يكن من المذكورات المحرمات بل من بقية النساء المباحات. ولهذا جاءت الآية الثانية بعد النهي وبعد الاستثناء، فجاءت بتبيين المحرَّم بعد التشريع الأول بالمنهيّ عنه. فافهم ذلك متأنيا جيدا يَزِد إيمانك.

وقوله: **ولا تنكحوا**، يريد الزَّواج بلفظ النكاح. فافهمه في جميع المواضع لينحلّ لك ما عسى أن يقع من الإشكال الذي يقع إن جعلتَ الوطء بملك اليمين والنكاحَ واحدا. وسيأتيك البيان فيما بعد. واعلم أن الوطء بملك اليمين للجارية التي ملكها
[١٠٧و] الأب بعد ما وطأها الأب حرامٌ على الابن وبالعكس / كما سنبين. فافهمه ولا تخرج بالفقه عن النص إلى القياس فتغلط. وقوله: **إلا ما قد سلف**، أي فلا جناح عليكم فيه. ولا تَفهمْ من ذلك إلا ما قد سلف ومات من النساء المحرَّمات أو طلقتموهن من قبل التحريم، بل ما سلف زَواجه وأنتم الآن على ما سلف، إذ من حين نزول الآية

---

١ ر ك + أولا.
٢ الآية ٣ من هذه السورة.
٣ ر: ثم ذكرهن.
٤ ر ك: المجازاة.
٥ ر: من المباحاة.
٦ الآية ٢٣ من هذه السورة..
٧ أي الآية التالية.

وجب التحريم فيما يأتي فقط، لا فيما معهم، بل أباح لهم ما معهم من المحرَّم الذي كان نكاحهم له من قبل التحريم. وتقديره لا تنكحوا ما نكح آباؤكم فتأثموا إلا ما سلف، فلستم عليه بآثمين. فمن كان منكم على شيء من ذلك فله ما سلف وما هو عليه، لأنه مما سلف أيضا. ولم يقل:[١] وَذَرُواْ مَا بَقِيَ، كما قال في الربا بعد قوله: فَلَهُۥ مَا سَلَفَ[٢] وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ.[٣] ولما بيّن ههنا هذا الحكمَ وصف المخالف ووصف الفعل بوصف الزنى وإن كان نكاحا، فقال: إنه كان فٰحشة، أي عند الله وفي شرعِ مَن تقدم، ومقتا، بينكم وإلا فالفاحشة عند الله ممقوت فاعلُها، وساء سبيلا.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

ثم قال: حرمت عليكم، وهذا تحريم مطلقٌ يدل على الوطء بملك اليمين، أو بالزَّواج للمذكورات خاصة. وهنَّ، أمهٰتكم، جمع، لأن زوجة الأب[٤] صارت أمًّا لابن الأب ولغير ذلك. وبنٰتكم وأخوٰتكم وعمٰتكم وخٰلٰتكم وبنٰت الأخ وبنٰت الأخت. قوله عليه السلام: «لا تَنكحوا المرأة على خالتها»،[٥] لأن الأخت أمٌّ بدليل أن الأخ أب، من قوله: نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ،[٦] فعدّ إسماعيل أبا وهما إخوة. وأمهٰتكم الّٰتى أرضعنكم وأخوٰتكم من الرضٰعة، يَحرُم من ذلك ما سَمّى رضاعة. وأما أن يكون رضعاتٍ معدودةً كخمس أو أكثر فلا يَظهر ذلك

---

١ ش – وما هو عليه لأنه مما سلف أيضا ولم يقل، صح هـ.

٢ ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٧٥).

٣ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٧٨).

٤ ش ك: للأب.

٥ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تنكح المرأة على عمتها ولا خالتها» (صحيح البخاري، النكاح ٢٧؛ وصحيح مسلم، النكاح ٣٧-٤٠).

٦ ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٣٣).

من كتاب الله تعالى. والمرجع في ذلك وأمثالِه إلى الفقه والنقل الذي لا يخالفه نص. وَافْقَهْ كونَه قدّم ذكر تحريمِ بنات الأخ وبنات الأخت من النسب ولم يذكرْهن بعد ذكر أمهاتنا وأخواتنا من الرضاعة. فلو ذكرهن بعدُ لَكُنَّ محرماتٍ، أعني بنات الأخوات من الرضاعة كتحريم بنات الأخوات من النسب، فبالتقديم[١] زال التحريم.[٢] فافقه.[٣]

وقوله: **وأمهٰتُ نسائكم وربٰئبكم الّٰتى فى حجوركم من نسائكم الّٰتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم**، أي إن لم يكن حصل الدخول بالنساء إلى الخلوة فلا تَحرُمُ أمهاتُهن ولا ربائبُ في حجوركم منهن. ومعنى "فى حجوركم" إشارة إلى البنت الربيبة التي تكون في حِجْر زوج الأم. فأباح الله زواجَ المؤمن بالربيبة التي ربّاها إن لم يكن دخل بالأم. ولو كان قد[٤] عقد عقدة نكاحِ الأم فقط لكنه لم يدخل بها فهي حلال. وذلك أن العرب كانت إذا ربّت ابنا أو بنتا يسمي المربي للمربّى أبا.[٥] يُعلم ذلك من قوله: ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ [هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ].[٦] فأباح الله نكاح هذه البنت ما لم يحصل الدخول بالأم وإن كانت ربيبته وفي حِجْره من قبل. ولا تفهم أن البنت إن كانت [في] تربية رجل آخر وفي حجره يجوز لزوج أمها نكاحُها، فالشرط قوله: **فإن لم تكونوا دخلتم بهن**. والربيبة مشتقة من التربية؛ ويقال لواحدة[٧] الغنم: ربيبة وهي التي يربّيها الناس في البيوت لألبانها. والربيبة أيضا الحاضنة،[٨] كأنها تربي ما حَضَنته. وربيبة على وزن فعيلة. وهذا الوزن صالح لأن يدل على فاعل في موضع ومفعول في موضع. وإن أخذتَ أصلَه من "رب البيت" فتكون الربيبة بمعنى المربوبة، أي مربوبتُكم التي زوجُ أمّها رَبُّها، أي صاحبُها والحاكم عليها، فذلك حسنٌ،[٩] ولهذا قال: **فى حجوركم**. فتحريم أمهات النساء مذكور مع المحرَّمات، فتحرم الأم بنفس العقد على البنت فقط، ولا تحرم البنت إلا بالدخول على الأم دون العقد فقط. فتأمل العبارة جيدا لتفهم أنه لو قال: وأمهات نسائكم اللاتي دخلتم بهن كما قال بعده كان قوله:

---

١ ر: فالتقديم.

٢ ر – كونه قدم ذكر تحريم بنات الأخ وبنات الأخت من النسب ولم يذكرهن... أعني بنات الأخوات من الرضاعة كتحريم بنات الأخوات من النسب فبالتقديم زال التحريم، صح هـ.

٣ ر – فافقه.

٤ ش – قد، صح هـ.

٥ ش ك: ابنا.

٦ سورة الأحزاب، ٥/٣٣.

٧ ك: الواحدة.

٨ الحاضنة هي المُوَكَّلَةُ بالصَّبيّ تَحفظُه وتُربّيه (تاج العروس للزبيدي، «حضن»).

٩ جميع النسخ: ربها فحسن، والمثبت من م.

فإن لم تكونوا دخلتم بهن، عائدا على النساء / وعلى أمهاتهن، أعني أن الأمهات ما [١٠٧ظ]
كانت تَحرم بالعقد على البنات فقط بل بالدخول. فلما لم يقل في حق الأمهات شرطا بقي مضافا إلى المحرمات، ويخصّص[١] الشرط بالبنات، فتأمله جيدا.

ولما تقدم قوله للأبناء: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾[٢] قال للآباء ما معناه: ولا تنكحوا ما نكح أبناؤكم. وغيَّر العبارة توسعا[٣] فهو قوله: وحلٰئل أبنائكم، يريد به المحلولات، وهو من الحَلّ الذي هو ضد العقد. وهن النساء اللاتي كُنّ في عقد نكاح أبنائنا، ثم انحلّ ذلك العقد إما بموت الابن أو بطلاقه لهن. وهذا إذا كان الابن من الأبناء، الذين من أصلٰبكم، فمتى انحلت عن عقد الابن وإن لم يكن وطأها بل عقد وحل فقط فقد حُرِّمت على الأب، فافهم. وأما الربيبة فلا تَحرم بمجرد العقد على أمها بل بالدخول إلى الخلوة، ويريد بالدخول الوطء. والذي[٤] يلزم من ظاهر النص الدخولُ فقط وإن لم يكن حصل وطءٌ. والواحدة مِن، حلٰئل، حليلة بمعنى محلولة. ومن حيث عبّر بلفظ حليلة دل على عقد تقدم، ومن حيث عَقْدُ الابن حَرُم على الأب العقدُ أيضا على تلك أبدا. ومتى حرم العقد فما بعده حرام، إذ لا يجوز إلا به فيَحرم من ملكِ اليمين وطئا كما حرُم من هذا نكاحا ووطئا. وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف، قبل التحريم فليبق على حاله، لأنه لا فائدة في إزالة الحرج عنا فيما عملناه قبل التحريم إذ لا ذنب لنا في ذلك. فلزم أن يكون لا حرج علينا بعد التحريم في الجمع بين الأختين إذا كان ذلك الجمع بين الأختين[٥] أوله متقدما على زمن التحريم. فافهم ذلك، وكذلك افهم في قوله: إلا ما قد سلف، الأُولى[٦] كما بيناه. ولهذا حسن أن يقول بعده: إن الله كان غفورا رحيما.

﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٢٤﴾

---

١ ر: وتخصص.
٢ من الآية السابقة.
٣ ر: توسعها.
٤ ر: الذي.
٥ ش - إذا كان ذلك الجمع بين الأختين.
٦ أي في الآية السابقة.

وقوله: **والمحصنٰت من النساء**، أي حرام، فهو معطوف على قوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ،[1] وهو تحريم النكاح، لقوله أولا: وَلَا تَنكِحُواْ.[2] والاستثناء في قوله: **إلا ما ملكت أيمٰنكم**، أي من النساء المحصَنات، ويريد به المزوَّجات من غير المؤمنين، لأن السبي طلّقها والملك أباحها. وأما إباحة الوطء بملك[3] اليمين فمن موضع آخر وإن دل عليه ما ههنا أيضا. ويقال: أحصن يحصن إحصانا وهو من المتعدي، كقوله تعالى: وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا.[4] والمحصَنات هن المزوَّجات. وقد تكون الحِصانة بالأهل أيضا، أي لهن مُحصِنٌ أحصنهن. **والمحصنٰت**، بكسر الصاد[5] هن اللاتي أحْصَنّ فروجهن عن البعل[6] كابنة عمران.[7] فحرّم الله نكاح المذكورات من قوله: حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ، إلى قوله: **إلا ما ملكت أيمٰنكم**، أي فهو حلال وطئا ونكاحا، لكن لو ملكت الأيمانُ واحدةً من المحرمات المذكورات فلا جائز وطؤُها. فما نكحه الآباء حرام على الأبناء، وما وطأه الآباء بملك اليمين حرام على الأبناء[8] وينعكس، وما سوى ذلك من ملك اليمين حلال. والزواج مبيح للوطء. فتحريم ما هو متقدم على الوطء تحريم للوطء. ولهذا لما حرم الله الزواج استغنى بتحريمه عن تحريم الوطء لأنه مبيحه ومتقدمٌ[9] عليه، ومتى[10] تقدم النكاح لزم الوطء أو جاز. فلم يحتج إلى ذكر تحريمِ الوطء في موضع من المواضع، فلزم الابنَ أن يَحرُم عليه بملك اليمين لما وطئه أبوه[11] بملك اليمين أو بنكاح. ففكر جيدا ولا تعجل. ولو لم يكن ما حَرُم زواجُه فقد حرم وطؤه بملك اليمين لجاز وطء الأخت بملك اليمين. وإنما حَرُم النكاح من أجل الوطء، ودليله قوله: فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ.[12] ولا يشتبهْ عليك فتقول: قد حرّم الله نكاح ما فوق الأربع مما ملكت أيمانُنا من بعضنا لبعض فيلزم تحريمُ ما فوق الأربع للشخص نفسِه

---

[1] من الآية السابقة.

[2] الآية ٢٢ من هذه السورة.

[3] ر – بالملك، صح هـ.

[4] سورة الأنبياء، ٩١/٢١.

[5] قرأ الكسائي بكسر الصاد، والباقون بفتحها (البدور الزاهرة للقاضي عبد الفتاح، ص ٨٩).

[6] ر ك: من البعل.

[7] وهي مريم عليها السلام. لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ (سورة التحريم، ١٢/٦٦). وانظر أيضا: سورة الأنبياء، ٩١/٢١.

[8] ر – وما وطأه الآباء بملك اليمين حرام على الأبناء، صح هـ.

[9] ش ن ك: متقدّم.

[10] جميع النسخ: إذ متى، والمثبت من م.

[11] ش ن ر: وطئ على ما وطئه أبوه، ك: وطئه ما وطئه أبوه، والمثبت من م.

[12] من الآية السابقة.

مما يستبيحه بملك يمينه وطئا. ليس كذلك، فإن تحريم نكاح المذكورات المعيَّنات في القرآن هو من قوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ،[1] فهو تحريم للوطء والنكاح، أعني إن كان الوطء بملك اليمين أو بنكاح.

ثم بعد ذلك استثنى إلا ما ملكت أيمٰنكم. وما ملكت الأيمانُ ينقسم إلى قسمين. أحدهما ما ملكت أيمانُ بعضِنا فلا يجوز / إباحة الوطء منه لغير المالك إلا بنكاح، ولا [١٠٨و] يجوز بالنكاح أكثر من الأربع. والقسم الآخر وهو ما ملكت أيماننا لأنفسنا وهو الذي جاز[2] وطؤه بغير نكاح، فالإباحة فيه باقية على حالها من غير تقييد بعدة. فتأنَّ لتفهم إن أشكل عليك ذلك. وإنما لو ملك جاريةً وابنتها فوطأ إحداهما حرم وطء الأخرى. ومثله وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ،[3] ولم يعيِّنه ليَحرم وطئا بملك اليمين ونكاحا. لكن في الأمَة يكون التحريم مستمرا، أعني تحريم الأمة إذا وطئ ابنتها وبالعكس. وأما الأُختان فلا تحرم إحداهما بوطء الأخرى، وإنما يَحرم الجمع بينهما لا غير. وقوله: كتٰب الله عليكم، منصوب على المصدر كما في سورة الروم عند قوله: وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ.[4] والإشارة إلى أن تحريم ما عدده قد وجب وجُعل كتابا من الله، أي كتبه كتابة عليكم كما كَتب الصيام[5] والقِصاص.[6]

ثم قال: وأحل لكم، أيضا، ما وراء ذٰلكم أن تبتغوا بأمٰولكم محصنين غير مسٰفحين، والكلمتان منصوبتان على الحال، أي إن تبتغوا من الأحرار ابتغاءَ مَن أراد أن يُحصن لا ابتغاءَ مَن يريد أن يسافح. والسِّفاح هو من قولك: سفح الماءَ إذا أراقه وبدّده. فنهى أن يكون المقصود مجرد اللذة بأن يسفح كلُّ واحد من الزوجين ماءَ الآخر من غير نكاح شرعي. وزواج المتعة وإن كان أصله في ظاهر الشرع صحيحا، لكنه من هذا القبيل، فجاز خوف العَنَت. وقال بعضهم: إن مباشرة الزوجة في غير المحل حيث كان إلا الدبرَ[7] إذا قصد الرجل سفحَ الماءِ فهو كالسفاح، لكنه جاز؛ لأنه بعد نكاح شرعي، والنهي إنما هو عن مثل ذلك إذا كان بغير نكاح. فلو باشر الزوجةَ

---

[1] من الآية السابقة.

[2] ك – جاز، صح هـ.

[3] من الآية السابقة.

[4] سورة الروم، ٦/٣٠.

[5] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (سورة البقرة، ١٨٣/٢).

[6] يشير المؤلف إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ (سورة البقرة، ١٧٨/٢).

[7] ر – إلا الدبر، صح هـ.

متمتعا بجسدها فلا جناح عليه، لكن فيه تنبيه على الأولى. وإذا عُدت إلى عقلك وعلمت أيَّ شيء أضعت من قوتك ومما خلقه الله وأعدّه فيك لأمر عظيم، وهو أن يكون منه نفسٌ من أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا؛[1] ثم أعدمت ذلك في زمن يسير لِلَذةٍ يمكن دفعها وأنت ممتحَن بها، [و]استقبحت سلوكَ سبيل البهائم وأَنِفْتَ عقلا، فكيف وقد نُبِّهتَ عليه شرعا والعزل من هذا القبيل أيضا. فكل ذلك مفهوم من قوله: غير مسٰفحين، وإن لم يكن محرَّما، لأن التمتع جائز لقوله: **فما استمتعتم به منهن فئاتوهن أجورهن فريضةً**. واعلم أن لفظة "ما" ههنا بمعنى الذي، والمراد بها ههنا المال، ولهذا قال: به، وبين أنه هو الأجور المفروضة. وتقديره فالذي استمتعتم به منهن، أي بسببه منهن فأعطُوهن ذلك أجورا لهن، وتلك هي التي جعلتموها فريضة لهن عليكم. ولهذا بعده: **ولا جناح عليكم فيما ترٰضيتم به من بعد الفريضة**، أي التي فرضتموها لهن. **إن الله كان عليما حكيما**.

وقوله: **فئاتوهن أجورهن**، أي كاملة. لأن ذلك لا يخلو من أن يكون الذي استمتعنا به منهن عجّلناه فقد آتيناهن ذلك أو أجّلناه، فإليه أشار بقوله: **فئاتوهن أجورهن**، التي فرضتموها. ومن ههنا لا يجوز النكاح بلا عوض، لقوله: **فما استمتعتم به منهن**، فافهم به. ويدلك على أن المراد بالفريضة ههنا ما فرضناه نحن لهن، لا أنه يريد فريضة من الله عليكم لهن [كما في] قوله في موضع آخر: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾.[2]

واعلم أن الرفث والمباشرة والإتيان والمسّ والتمتع والوطء والنكاح، كل كلمة لها معنى تختص به. وقد أتى ذلك جميعُه[3] في كتاب الله تعالى. وجاءت كل كلمة في موضع هي أليق به من غيرها فيه مع الإيماء بها إلى الوطء والكناية عنه بها[4] كما سترى إذا تأملته. وأيضا إن المفهوم من تلك الكلمة، وإن كان دون الوطء، فقد لزم عنه لازم. فإذا حصل الوطء فذلك اللازم أشد وآكد[5] لزوما. فإنا إذا تأملنا لفظةَ التمتع وفهمنا منها الالتذاذ كالضمّ والتقبيل ومثله مما هو دون الوطء ولزم أن يكون لها

---

[1] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (سورة المائدة، ٥/٣٢).

[2] سورة البقرة، ٢/٢٣٧.

[3] ش ك – جميعه.

[4] ك – إلى الوطء والكناية عنه بها، صح هـ.

[5] ك: وأكد.

على ذلك أجرٌ فهو بالوطء أشد / لزوما. لكن قد تدل الكلمة على وطء بالكناية، وفي [١٠٨ظ]
موضع آخر لا تدل عليه بل لها مفهوم خاص بها، كقوله تعالى: فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ.[١] فذلك يدل على وطء[٢] لقوله بعده: فئاتوهن أجورهن، لأنه يدل على وطء حصل به جملةُ الأجور. وقد يدل على نكاح بغير وطء، كقوله: ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ.[٣] وكذلك قوله: دَخَلۡتُم بِهِنَّ،[٤] فهو يدل على الوطء بالكناية لا بصريح اللفظ. إذ صريح اللفظ يُفهم منه الدخول بها إلى خلوة هي مظنة الوطء. والذي يلزمه إذا كان من جهة الدخول فهو بالوطء أشد لزوما. ويجب أن تعلم أن قوله: فما استمتعتم به منهن فئاتوهن أجورهن، لا يدل على أنا لا نعطي الأجورَ إلا إن استمتعنا، بل يدل على أننا نعطي إذا استمتعنا وطئا أجورا كاملة، وإن لم يكن مسيسٌ فنصف[٥] الفريضة. فلو حصل استمتاع بغير مسيس كما يُفهَم من ظاهر لفظة[٦] الاستمتاع لوَجبَ النصف وهو الأجر. ولهذا قال: أجورهن، ليحتمل الواجبين: أحدهما ما فرضناه وهو الكل، والثاني ما فرضه الله وهو النصف.

﴿وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِكُمۚ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذۡنِ أَهۡلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ مُحۡصَنَٰتٍ غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖۚ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ ٱلۡعَنَتَ مِنكُمۡۚ وَأَن تَصۡبِرُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٥﴾

ولما بيّن حُكمَ نكاح الحرة قال بعده: ومن لم يستطع منكم طولا، من التطول وهو التفضل بالمال. والمعنى من عَجَزت استطاعته فلم يكن له طول، أي مال يتزوج به حرةً، فعجز، أن ينكح المحصنٰت المؤمنٰت. ومن هنا فهمنا أن الحِصانة قد تكون بالأهل. وقوله: فمن ما، أي فلينكح مما، ملكت أيمٰنكم، أيمان المسلمين

[١] الآية ٢٥ من هذه السورة.
[٢] ك - بالكناية وفي موضع آخر لا تدل عليه... فذلك يدل على وطء، صح هـ.
[٣] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَا﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٤٩).
[٤] من الآية السابقة.
[٥] ش: نصف.
[٦] ر - لفظة، صح هـ.

بشرط أن يكون ذلك النكاح، **من فتيٰتكم المؤمنٰت**، دون المشركات أو الكافرات من أهل الكتابيَين.[1] لهذا الشرط المقدَّم فلا يجوز أن ينكح مؤمنة هي لكافر ولا كافرة هي لمؤمن، لأن الولد في الأُولى يبقى للكافر، وفي الثانية مَنع منه صريحُ النص. فلو كانت الكافرة غير مملوكة وهي من أهل الكتابين جاز نكاحها، لأن الله أباح المحصنات من أهل الكتاب. ولا يجوز وطءُ المشركات بملك اليمين لتحريم نكاحهن. ويجوز نكاح الكتابيات لا من بعضنا بعضا بل من أهلهن. وجاز وطؤهن بملك اليمين من جواز نكاحهن من أهلهن.

وقوله: **والله أعلم بإيمٰنكم بعضكم من بعض**، أي بعضكم ينكح فتيات بعض. ومالك بن أنس ومجاهد وسعيد[2] لا يُجيزون نكاحَ الأمة،[3] وأكثر الجماعة كذلك، لقوله: **من فتيٰتكم المؤمنٰت**. واعلم أنه لا يجوز العقد على الأَمة إلا لمن لا يستطيع طولا أن ينكح حرة وخشي العنت أيضا وهو مذهب الشافعي.[4] وقوله: **والله أعلم بإيمٰنكم**، لمّا أراد أن يكون الزواج بالمؤمنات من فتيات المؤمنين، وكان ذلك أعني الإيمان لا يتحقق لنا لأنه من أفعال القلوب، لقوله: **قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا**[5] قال الله تعالى: **والله أعلم بإيمٰنكم**، إشارةً إلى أنه تعالى يتولى السرائر ولنا الظواهر. والمراد ههنا [والله] أعلم بإيمان المؤمنين من مُلّاك الفتيات وبإيمان الفتيات، وغلّب الذكورية، ولهذا لم يقل: بإيمانهن.

وقوله: **فانكحوهن بإذن أهلهن**، وأهلهن ههنا مُلّاكهن، **وءاتوهن أجورهن**، ذكر في الآية التي قبل هذه **فَرِيضَةً**.[6] وفي هذه لمّا كانت أجورُ ما ملكت الأيمانُ تختلف باختلاف أثمانهن[7] وغير ذلك قال: **بالمعروف**، أي بالمعروف من العدل والواجب، فهو معروف في العقل غير مُنكَر عند العقلاء. وقوله: **مُحْصَنٰتٍ**، أي أَحصنَّ فروجهن وأحصنهن أهلُهن. وسمّاهن الفتيات إشارةً إلى الصِبا وصِغرِ السِنّ، ومنه الفتى. وقوله: **غيرَ مسٰفحٰت ولا متخذٰت أخدان**، الخِدْن هو الصَّديق. فأمرَنا أن نتزوج محصنين غير مسافِحين بمحصنات غيرِ مسافِحات. وهذا أكبر دليل على ما بيناه في سورة النور في قوله:

---

[1] ر: الكتاب.

[2] لعله سعيد بن المسيب.

[3] أحكام القرآن للجصاص، ١١٠/٣. | ر + لا كتابية.

[4] المبسوط للسرخسي، ١١٠/٥.

[5] ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ (سورة الحجرات، ١٤/٤٩).

[6] من الآية السابقة.

[7] ش ك: أيمانهن.

وَمَن يُكۡرِههُّنَّ،[١] وأنه أراد على التحصن لا على البغاء، لأنه ههنا حَرَّم تزويج المؤمن بهن إذا كنّ مسافِحات أو متخذاتِ أخدانٍ، فكيف يكون غفورا مع الإكراه على البِغاء وقد حرّمه ههنا؟ ولو كان ذلك جائزا لمّا احتاج المؤمن إلى نكاح الفتيات إن لم يستطع طولا، بل كان يغنيه ما أبيح / في سورة النور لمُلَّاك الفتيات. وكان يكون حكم [١٠٩و]
هذه الآية ههنا ساقطا ومناقِضا، مع ما فيه من الإغراء للمؤمن الذي يخشى العنت بالزنى، وهذا غير جائز في العقل ولو لم يأت[٢] بالنهي عنه شرع. ولكنه تعالى نهاهم في النور عن الاستمرار على حالة كانوا عليها قبل الإسلام وعوّضهم عنها بالنكاح.[٣] ولهذا قال ههنا: **فإذا أُحْصِنّ**، أي بالزوج، **فإن أتين بفٰحشة فعليهن نصف ما على المحصنٰت**، الحرائر، **من العذاب**. ومن ههنا يُعلم أنه لا رَجْمَ في الكتاب، إذ الرجم لا يُنَصَّف. وليس لقائل أن يقول: **المحصنٰت**، ههنا بالأهل دون البعل، إذ[٤] لا مرجِّحَ له على مذهبه بل الكل واحد في الحد. ولا يقال: إن القتل ليس بعذاب، بل القتل بالرجم عذاب وقتل، وليس في الكتاب ما يدل عليه، ونحن إنما نذكر مفهومَ النص.

وقوله: **ذٰلك لمن خشى العنت منكم**، أي خشي من نفسه أن يقع هو في العنت، وهو الإثم وما ينحو نحْوَه ويؤدي إليه. ولما كان الزنى وما يؤدي إليه إثما عبر بلفظ العنت، وهو الوقوع في الأمور الشاقّة، وأصله من العَنَت، يقال: جاء فلان متعنتا، أي جاء يطلب زلة. فقال تعالى ما تقديره: ذلك النكاح من الإماء المؤمنات اللاتي للمؤمنين منكم إنما هو مباح لمن خشي العنتَ من نفسه. هذا إذا لم يستطع طَولا كما تقدم. بعد هذا كله قال: **وأن تصبروا**، أي عن نكاح الإماء مع خشية العنت، **خير لكم**. والمقصود صَقْلُ العقل وقَمْعُ الشهوة. ثم قال: **والله غفور رحيم**، أي إن لم تصبروا مع الخوف من العنت وعدمِ الاستطاعة للطول. ولا تفهم أنه **غفور رحيم**، مع الاستطاعة وعدمِ العنت، فذلك خلاف مراد الله سبحانه. ثم نبّه في آخر الآية بذكر الغفران والرحمة، وقد فهمت أن الغفران والرحمة[٥] إنما يكون عما لو تركناه لكان أفضلَ.

---

١ ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا لِّتَبۡتَغُواْ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَمَن يُكۡرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعۡدِ إِكۡرَٰهِهِنَّ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ (سورة النور، ٣٣/٢٤).

٢ ر – يأت، صح هـ.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ (سورة النور، ٣٢/٢٤).

٤ ر: إذا.

٥ ك – وقد فهمت أن الغفران والرحمة، صح هـ.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٢٦﴾

ولمّا كان بعد النهي والتشريع والإعلام بما هو خير قد قال: وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ،[1] عرَّفنا أنه إنما عرَّفنا بما عرفنا به ليبين لنا الأصلحَ فقال: **يريد الله ليبين لكم**، الأصلحَ وإن كان[2] هو الغفور الرحيمَ لمن فعل مع خشية العنتِ. وقوله: **ويهديكم سنن الذين من قبلكم**، أي يبيّن لكم سننَ مَن هداهم من قبلكم. وقدّم لفظ الهدى إعلاما أن هذا البيان وإن كان بيانَ سنّةٍ من تقدم، لكنْ لنا فيه هدى لأنه سنة مَن قبلنا من المهتدين بهَدْيه[3] دون غيرهم. فقال مجملا ما معناه: يريد بما أنزله إليكم ليبيّنَ ويهديَ ويتوب عليكم إذا اتبعتم ما هداكم به.

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ۝٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾

ثم بين ما به فضَّلَنا على من كان قبلنا فقال بعد قوله: وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ،[4] مكررا: **والله يريد أن يتوب عليكم**، أي مما لم يتب على مَن قبلكم مِن مثله، بل ثقّل عليهم وخفّف عنكم. لهذا قال في آخر الآية الثالثة عند آخر الكلام: **يريد الله أن يخفف عنكم**. فقوله في الثانية مكررا: **والله يريد أن يتوب عليكم**. وقد تقدم وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ،[5] معنى التوبة الأولى بما هدانا من سنن الأولين،[6] والثانيةِ بما خفف وبينه بما بعده فليس بتكرار، فافهمه. وقوله: **ويريد الذين يتبعون الشهوٰت**، أي والله يريد الذين يتبعون الشهوات منكم ليتوب عليهم. فافهم هذا المعنى الغريب فإنه لازم من قوله: **والله يريد أن يتوب**، فإن لم يكن يريد الذين يَتبعون الشهوات فعلى من يتوب، فالكلام معطوف على مثله وهو قوله: **يريد، ويريد**. وفي ذلك إشعار بأن كلَّ ما يُطلَق عليه اسم الشهوة تجب[7] عنه توبةٌ، فافهم. ولا تفهم أنه يريد الله الذين يتبعون الشهوات منكم أن يتبعوها، فيريدهم مع اتباعهم لها، بل يريدهم ويريد أن يتوب عليهم ولا يكون ذلك إلا إذا تابوا. وتقديره: حَذَرا، **أن تميلوا ميلا عظيما**،

---

[1] من الآية السابقة.
[2] ر ك: وإن كانوا.
[3] ر + به.
[4] من الآية السابقة.
[5] ك – وقد تقدم ويتوب علكيم، صح هـ.
[6] ر: من سنن المتقدمين.
[7] ش: يجب.

فتصِلوا[1] بعد الصغائر من الشهوات إلى الكبائر من الذنوب، وهو كقوله: يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ.[2] فإن الذي يَتبع الشهوات إذا علم أن الله لا يتوب عليه ولا يريده مالَ بكليته إلى الشهوات / وتَركَ الآخرة، إذ لا طمع له فيها، ومالَ أعظمَ ميلٍ إلى الدنيا لئلا تفوته [١٠٩ظ]
الدنيا.[3] إذ[4] قد فاتته الآخرة. ولهذا قال تعالى مُقوِّيا لرجاءِ[5] عبيده: لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا.[6] ولهذا حسُنَ قوله: يريد الله أن يخفف عنكم، وحسن تكرارُ إرادة التوبة منه سبحانه، فافهمه، وذَرِ الهوى تجدِ اللفظ محتملا لِما قلتُه وإن احتمل غيرَه، فخذ الأحسنَ دون الحسن، فإنك تجد عودة الإرادة إلى الذين يتبعون الشهوات ليس لها فائدة. ولهذا لم يقل: ويريد الكفارَ، بل الجملة في موضع نصب بوقوع الإرادة من الله سبحانه عليهم. وأنت إذا فكّرت في قصاص اللاتي يأتين الفاحشةَ[7] وقصاص الزاني والزانية وأن لا رجم في الكتاب وحديثِ الشهداء وأن لا تُقبل لهم شهادةٌ أبدا إذا شهدوا على صورة غير الصورة المشروطة ولو احتمل أن يكونوا صادقين علمت أن الله قد خفَّف، فلا تثقِّل أنت وتخالفِ الله تعالى فهو أعلم وأحكم. ولهذا قال من قبل:[8] وَٱللَّهُ عَلِيمٌ، أي بضعف عباده، حَكِيمٌ،[9] ذو حكمة فيما يفرضه عليهم ويُنزله إليهم، ثم قال ههنا في آخر الكلام: وخُلِقَ الإنسٰنُ ضعيفا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

ثم ابتدأ بكلام عاطفا بالنهي على قوله: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ،[10] فقال: يٰأيها الذين ءامنوا لا تأكلوا أموٰلكم بينكم بالبٰطل. ثم استثنى استثناء منقطعا فقال: إلا أن تكون تجٰرة، بالرفع، وقرئت منصوبة.[11] ولا يجوز أن يكون الاستثناء متصلا بل هو كقوله:

[1] ش ك: فاتصلوا.

[2] الآية ١٧٦ من هذه السورة.

[3] جميع النسخ + والآخرة.

[4] ر - إذ.

[5] ش: بالرجاء.

[6] ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٥٣).

[7] ش ك + وقصاص الذين يأتينها. | انظر: الآية ١٥ من هذه السورة.

[8] ك: من قتل.

[9] الآية ٢٦ من هذه السورة.

[10] الآية ٢٣ من هذه السورة.

[11] قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بنصب تجارة على أن "تكون" ناقصة واسمها ضمير الأموال، وافقهم الحسن والأعمش، والباقون بالرفع على أنها تامة (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٢٤٠).

إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً،[1] فهو استثناء منقطع. ولهذا أتبعه ههنا بقوله: **عن تراض منكم**، وهذا كلام مطلق. وأشار به ههنا إلى سلوك الحلال في المعاملة بين الزوجين من قوله: لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا،[2] وتمامه. وجاء اللفظ مطلقا ههنا تأكيدا ودالا على ما يؤكل بباطل وأن مَن ظلم غيره فأكل ماله بالباطل فكأنما قتل نفسه، وأن المال عديل النفس. فقوله: **ولا تقتلوا أنفسكم**، أي أنفس بعضكم بعضا كما جاء في البقرة؛[3] وإن دل أيضا على نفس أكل المال وهو الأظهر ههنا، وإن دل أيضا على مطلق النهي عن قتل النفس بكل صورة هي باطل. **إن الله كان بكم رحيما**. ومتى رأيت لفظا له مفهوم ويحتمل غير ذلك المفهوم أيضا[4] مما لا يناقضه شرعٌ ولا عقل فاعلم أنه إنما جاءت تلك الألفاظ على تلك الصورة من التصريف ليكون ما احتملته من المعاني أيضا بعد المقصود الأول الخاص بها مقصودا أيضا للمتكلم لينبّه بالكلمة أو الكلمات على حِكَم كثيرة ومعانٍ جَمّةٍ. فلا تغفل عن مثل ذلك بعد فهم المعنى المقصود الذي من أجله كان مجموع[5] اللفظ على تلك الصورة وتلك الصيغة، وهو الأحسن وما عداه من المحتملات حسن. فافهم ولا تعدل عن وصيتي تضلّ.

ومن يفعل ذٰلك عدوٰنا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذٰلك على الله يسيرا، سهلا، من اليسر.

﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

إن تجتنبوا كبٰئر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم، وهي ههنا الصغائر، وهما في المنهي عنه خاصة. والفرق بينهما، والله أعلم، أن كل ما نهى الله عنه وتواعد فاعلَه بعقاب فهو من الكبائر، وما نهى عنه ولم يتواعده عليه فهو من الصغائر، وهي السيئات التي تُذهبها الحسنات.[6] فالصغائر كقوله: وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا.[7]

---

1 ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ (سورة آل عمران، ٣/٢٨).

2 الآية ١٩ من هذه السورة.

3 لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ (سورة البقرة، ٢/٥٤).

4 ك - أيضا، صح هـ.

5 ر - مجموع، صح هـ.

6 لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (سورة هود، ١١/١١٤).

7 سورة الإسراء، ١٧/٣٧.

واعلم أن الحسنة تعم ما يحسن في العقل ولو لم يأت به شرع، والسيئةَ ما يسوء وإن لم يَنْهَ عنه شرعٌ. ويجب أن تعلم أن التكفير إنما يكون ببلوى أو عقاب، فهذا معنى الكفّارة. ولما لم يكن هذا المسيء ههنا قد أتى بحسنة وعده الله تعالى أنه يبلوه في الدنيا بما يكفِّر به عنه سيئاته إذا اجتنب الكبائرَ. ولهذا قال فيمن أتى بالحسنة: إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ،[1] وفي الذي اجتنب وأصلح معا: يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ.[2] فهذه ثلاث مراتب. فالأولى حسنات وسيئات، فالحسنات يذهبن السيئات بغير تكفير إذا لم تكن كبائر. وأما سيئات بغير حسنات لكن مع اجتناب الكبائر فهذه تُكفَّر بالابتلاء في الدنيا وإن لم يكن معها من النوافل عملٌ / صالح. وأما حسنات بعد التوبة والإسلامِ بغير سيئات فهؤلاء يبدّل الله لهم، فافهم [١١٠و]
جيدا مكرّرا متأنيا. ولما كفّر السيئات سبحانه ببلاء قال: ونُدخِلْكم مُدْخَلًا كريما.
واعلم أنه من تمام الحكمة أنه لم يبيِّن لنا بصريح النص ما الكبائر من الصغائر لئلا يكون ذلك سببا لانتهاك الصغائر فيتأدّى[3] الأمر إلى الكبائر وتزول فائدة النهي عن الصغائر، بل لا بد من التحفظ الشديد. واعلم أنه لا يغني عظمُ النعمة الباطنة والظاهرة متى لم تكن هناك مجاهدةٌ للنفس واستعمالٌ للصبر كما لم يُغْنِ آدمَ، فافتح عينيك لهذا أبدا.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾

ثم لما أمر بحسن المعاملة أمر بمكارم الأخلاق وتركِ الحسد وندَب إلى القناعة، وذلك جميعه بصورة النهي. فلزم من النهي[4] أمرٌ مع ظهور لزوم النهي، وهو قوله: **ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم علىٰ بعض**، يُفهم من هذا الكلام مهما كان في الصورة والمعنى، والظاهر والباطن وغيرِ ذلك فافهمه مطلقا، وإن كان[5] المراد به مال الميراث، لقوله: **ما فضل الله به**، ولِما يأتي بعده وهو أمر للنساء والرجال لقوله: **للرجال نصيب مما اكتسبوا**

---

[1] سورة هود، ١١٤/١١.
[2] ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ (سورة الفرقان، ٧٠/٢٥).
[3] ش ك: فتادى.
[4] ش - فلزم من النهي.
[5] ر - كان.

وللنساء نصيب مما اكتسبن، أي إنما يحصل لأحدهم نصيب من جملة كسبه سواء كان ذلك إرثا أو غيره، والباقي إنما هو لغيره إما للوَرَثَة أو لطوارق[1] الحَدَثان. فلا تتمنوا الفانيَ ولكن اسألوا الله الباقي. ولهذا بعده: وسئلوا الله من فضله، والدليل على أن المراد هو ما قلناه قوله تعالى: قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ،[2] وتمامُه. إن الله كان بكل شيء عليما.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾

ثم بين ذلك فقال: ولكل جعلنا مولى، أي ولكل شيء، مما ترك الولدان والأقربون، جعلنا موالى، والموالي ههنا هم الوَرَثَة الذين هم أَولى للوراثة.[3] ولهذا وجب ردُّ الباقي على البنت الواحدة من إرث وهو النصف يُردُّ عليها؛ وكقوله: وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ.[4] والذين عقدت أيمٰنكم، وهم الأزواج ولم يقل: واللاتي لتغليب الذكورية، ولأن المعاقدة لا تكون إلا للولي المزوِّج. والأيمان ههنا جمعُ يَمينٍ وهي اليد اليمنى. وأصل اليمين في الحِلْف هو[5] العهد بأخذ اليد اليمنى.[6] فئاتوهم، أي فآتوا الموالي، نصيبهم. فالأنساب أولى من الصِهْر ببقية الميراث بعد النصيب إذا وُجدوا معا. فأما إذا لم يوجد أحدٌ من الأنساب بل الصهرُ وحده فيُرَدُّ[7] عليه بعد نصيبه، لأنه إن لم يكن من الأنساب فهو من أُولي الأرحام فنعطيه[8] لقوله: وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ. والدليل على أنه لا يكون لبيت المال شيء مهما وُجد أحد من الأنساب أو الصهر[9] إذ الكل من أُولي الأرحام قولُه في أول الآية: ولكلٍّ، فهذا دليل على أنه قد بين من هو الأولى بالكل من التركة التي تركها كلُّ واحد من المذكورين. فافهم هذا جيدا. والكلام في الأزواج وإن لم يحصل الدخول بهن بل حصل العقد فقط بيناه عند النص. إن الله كان علىٰ كل شيء شهيدا.

---

[1] ك: أو الطوارق.
[2] سورة يونس، ١٠/٥٨.
[3] ر ك: بالوراثة.
[4] ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٦).
[5] ر: وهو.
[6] ش ك: اليمين.
[7] ر: فنرد.
[8] ش: فتعطيه.
[9] ك: والصهر.

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾

ولما ذكر التفضيل، أعني تفضيل الرجال على النساء في قسمة المواريث ذكر سبب ذلك فقال: **الرجال قوّٰمون على النساء**، أي لأجل ذلك نصيبُهم من الميراث أكثر. وقوله: **بما فضل الله بعضهم علىٰ بعض**، أي في الميراث، **وبما أنفقوا من أموٰلهم**، أي على النساء قبل موتهن من ميراث وكسب. **فالصّٰلحٰت قٰنتٰت**، أي مطيعات لله ولأزواجهن، وهو من قوله في سورة الأحزاب: وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ.[1] فالقنوت قيام على وجه الطاعة، وقد يُستعمل في كل واحد منهما بمفرده، فاعرفه. وقوله: **حٰفظٰت للغيب**، أي لِما غاب عن أزواجهن عِلمُه، **بما حفظ الله**، أي بما أمرهن الله بحفظه، ومنه قوله تعالى: وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ.[2] فإذا حَفِظْنَ[3] ما أمرهن الله بحفظه مما غاب عن الرجال علمُه فهن الحافظات للغيب، **بما**، أي بالذي، **حفظ الله**. ويدخل في / ذلك الحفظ ما يتعلق [١١٠ظ]
بالحيض، لأن ذلك معلوم لها وهو غيب عن الرجل وهو مقلدها إذا أراد إتيانَها، ولا سبيل مع الطهر إلى إتيانها وهي غير حافظة لفرجها بما حفظ الله. وستزيده بيانا عند قوله: وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ.[4]

وقوله: **والّٰتى تخافون نشوزهن**. الناشز هي[5] التي تُخالف أمرَ زوجها كأنها تخرج عنه وتنشز بغير إذنه، ومنه قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ،[6] أي اخرُجوا وارتفعوا من مكانكم. وأصله النَّشْز من الأرض وهو العالي البارز منها. **فعِظُوهن وَاهْجُروهن فى المضاجع واضربوهن**. والمرأة التي لم تُطِع الرجلَ قد استعلَتْ عليه، وكل مصيبة داخلة تحت المخالفة والاستعلاءِ عليه، كما أن كل خير داخل تحت الطاعة والتواضع منها له. ولهذا أتبعها بقوله: **فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا**، وهو من البغي والعدوان.

---

[1] ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾ (سورة الأحزاب، ٣١/٣٣).

[2] ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ...﴾ (سورة النور، ٣١/٢٤).

[3] جميع النسخ: حفظوا.

[4] سورة الممتحنة، ١٢/٦٠.

[5] ر: هو.

[6] ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ (سورة المجادلة، ١١/٥٨).

ونصب "سبيلا" لفقدان الخافض، تقديره في سبيل، أي في طريقة من الطرق المذكورة، أعني الهجر والضرب وغير ذلك. فأمرنا أن نتفقد أحوالَهن ونعتبرها، فإن خفنا نشوزهن عن طاعة الله التي من جملتها طاعتنا فيما لا يخرج عن أمر الله. وهذا لا يخفى عن الرجل من زوجته وإن جاز أن يخفى مدةً فلا يستمر خفاؤه أبدا، بل كل واحد من الزوجين أدرى الناس بدين زوجه. وإنما قال: **فإن أطعنكم**، لأنهن يَجْهَلْن طاعةَ الله، وفي طاعتهن لنا كفايةٌ لهن إذا كنا مطيعين لله تعالى. فطاعة المطيع لله طاعة لله ولمن أطاعه.

فإن خِفنا نشوزَهن فهنالك نبتدئ بالوعظ، فإن لم يُفد فبالهَجْر في المضجع. وليس ذلك الهجر يشير به إلى ترك الوطء [فقط]، بل نفس النوم معها في الفراش فإن لذلك أثرا عندها ويلزم عنه ترك الوطء. فإن لم يُفِدْ فاضربوهن. فقد عرّفَنا متى يكون الضرب، فافهم ولا تَتَعَدَّ إلى رتبة قبل أن تترقى إلى ما قبلَها، فذلك أتم وأنفع لإصلاح مَن رُمْتَ إصلاحَه. والله أدرى منكما بما يُصلحكما. ويحسن أن يتدرج أيضا في كل رتبة من الرتب الثلاثة شيئا بعد شيء. ولهذا قال تعالى: **فعظوهن**، الذي هو ههنا خصام لطيف فيه توبيخ وتعنيف وتنبيه. وإن بعضهن يكفيها الوعظ فلا ينبغي أن يترقى معها إلى الزجر والتوبيخ فضلا عن الخصومة، أو القول، أو الفعل المُوغِر[1] للصدور. فإن أذى قلوبهن عائدُه[2] علينا أكثر، ومراعاة[3] قلوبهن مراعاة لقلوبنا في حقيقة الأمر. وأما من يحتاج منهن إلى الضرب فيجب أن نتدرج معه أولا من الوعظ إلى أن نَصِل إلى الضرب، فإن لم يُفد وإلا فالاستبدال. ولهذا قال عليه السلام: «عليك بذات الدِّين».[4] ومن جملة الرحمة لهن ولنا علّمَنا الله تعالى أننا متى خفنا نشوزَهن فعلنا ذلك. وأما إذا نشزن فعلى قدر ما بدا منهن[5] يكون عقابهن بل طلاقهن. وأما قوله: **إن الله كان عليا كبيرا**، أي تعالى الله أن يكلّفهن بعد الطاعة ما يَشقّ عليهن، فلا تكلفوهن ولا تتكبروا عليهن وتستعلوا فالله هو العلي الكبير، وكلكم[6] عباده سبحانه.

---

[1] وَغِرَ صدرُه عليه يَوْغَرُ وَغَراً ووَغَر يَغِرُ إذا امتلأ غيظا وحقدا. وقيل: هو أن يحترق من شدة الغيظ (لسان العرب، «وغر»).

[2] ش ك: عائدة.

[3] ش ك: مراعات.

[4] عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تنكح النساء لأربعة: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظْفَرْ بذات الدِّين تَرِبَتْ يداك» (صحيح مسلم، الرضاع، ٥٤؛ وسنن ابن ماجه، النكاح ٦؛ وسنن الترمذي، النكاح ٤).

[5] ر ك: بدا منه.

[6] ر ك: وكلهم.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ۝٣٥﴾

وإن خفتم شقاق بينهما، أضاف الشقاق إلى البين، أي ما بينهما من الوصلة. فتلك الوصلة التي بينهما جُعلت اسما يشار إليه كقوله: لَقَد تَّقَطَّعَ.[١] ويحتمل أن تكون الإشارة بلفظة "بينهما" إلى البين الذي هو الفراق، فإن الشقاق قد يكون بين الزوجين، ولكنه لا يكون شقاقَ فراق وقد يكون شقاق[٢] بَيْنٍ، وهذا جيد، والله أعلم. والشقاق مشتق من الشَّقِّ، وهو أن يكون كل واحد في شِقٍّ، أي في ناحية فتكون العداوة حينئذ لازمةً للمتشاقِقَيْن، وقد يقع بينهما البَينُ. وقوله تعالى: **فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها**، أشار إلى ذي حُكم. ولهذا لم يقل: حاكما بل حكَما، كما تقول: رجلٌ صنَعٌ إذا كان موصوفا بكثرة الصنائع. وقوله: **من أهله**، لا يدل على الأقارب فقط، وإنما من يكون عند الزوج أهلا لإصلاح / شأنه، وله عليه حُكم وليس له هوى، وكذلك [١١١و]
عند الزوجة، وكذلك عندكم أيها الباعثون. وقد علمت أنه ربما لا يكون لهما أو لأحدهما أقاربُ، فلا يلزم أن يكون الحَكَم ذا قرابة وإن سَمّى، **من أهله**. وهذا كقوله في الفتيات: فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ[٣] كما تقدم.

وقوله: **إن يريدا إصلٰحا**، يحتمل عودة الكلام على الحَكَمين، ويحتمل على الزوجين. فإن قيل: هو أولى بالحكمين لقوله: إصلٰحا، ولم يقل: صُلْحًا، فقد قال: وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا.[٤] لكنا إن أعدنا الإرادة ههنا إلى الزوجين لم يبق للحَكَمين فائدة، فرَجَحَ أن الإرادة للحَكَمين. **يوفق الله بينهما**، ولهذا قال بعده: **إن الله كان عليما خبيرا**، أي بما في أنفس الحكمين وبما قصدا وأرادا، وهو العليم الخبير سبحانه فيما حكم به لكم وشرع من الدين. وهذه الآية تدل على فساد قول المجبرة، إذ لم يقل: إن يوفق الله أو[٥] إن[٦] يُرد. ولا يلزم [من] هذا القول أنه إن[٧] أراد لم يكن، بل يلزم أنه قد أراد أن تكون الإرادة لهما فيُمِدّهما سبحانه بما أراداه.[٨]

---

١ ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٩٤/٦).

٢ ش ك – وقد يكون شقاق.

٣ الآية ٢٥ من هذه السورة.

٤ ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا﴾ (سورة البقرة، ٢٢٨/٢).

٥ ر: الله و.

٦ ر – إن، صح هـ.

٧ ك – إن، صح هـ.

٨ ر ك: بما أراده.

﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾

وقوله: واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، أمر عام. وقوله: وبالوٰلدين إحسٰنا، يُفهم منه الترتيب وعموم الإحسان إلى المذكورين.[1] وقوله: وبذى القربىٰ، أي الأقارب منكم. وهذا يعم سواء كانوا بعيدين في بلد آخر أو قريبين عند المحسن. واليتمىٰ والمسٰكين. ثم قال: والجار ذى القربىٰ، وبعده قال:[2] والجارِ الجنب، أي الأجنبي ولا يلزم أن يكون الجار فقيرا بل جارا. والجارِ ذى القربىٰ، هو الذي له أقارب يَستغني بهم عنكم، والجارِ الجنب، هو الأجنبي الذي[3] ليس له أقارب. وأما أقاربكم فقد تقدم ذكرهم سواء كانوا جيرانا أو لم يكونوا. والصاحبِ بالجَنْب، هو الذي صحِبَك بجنبه كالذي رافقك في سَفَر أو في مجلس، أو في غيره ولو أدنى صُحبةٍ فإنه إنما[4] صحِبَك بجنبه خاصة. ولهذا يُسأل عن صحبةِ ساعةٍ. وابنِ السبيل، وهم الذين يتكفّفون الناس ويسألون في الطرقات وعلى الأبواب، ذكرهم في آخر الآية. وقيل: فيه إشارة إلى الولد الذي يوجَد قد رُمي في الطريق، فإنه لا يُعرَف له أب ولا أم سوى السبيل. ولما كان عابر[5] السبيل، أعني المسافر إنما كان سببُ إيجاده عندنا أعني السبب الأقرب هو السبيلَ،[6] سميناه ابن السبيل أيضا. فأمرَنا بالإحسان إلى من ينطلق عليه هذا الاسمُ من حيث عمومُه. وما ملكت أيمٰنكم، فعرَّفَنا مراتبَ كلٍّ لنعلم من هو أولى بتقديم الإحسان إليه، وأوجبَ الإحسان إلى الجميع. ثم قال: إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا، يُفهم منه الإطلاق وخصوصا على هولاء المذكورين ولو عمهم إحسانُه مستمرًّا.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾﴾

ثم تمم وصفَ المختالين المذكورين فقال: الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما ءاتىٰهم الله من فضله، ليكون الكتمان عذرا لهم في بُخلهم. والكلام في الكتمان

---

[1] ر: إلى مذكورين.
[2] ر – قال.
[3] ر – الذي.
[4] ش ك – إنما.
[5] ش ك: عابري.
[6] ر – ولما كان عابر السبيل أعني المسافر إنما كان سبب إيجاده عندنا أعني السبب الأقرب هو السبيل، صح هـ.

مطلق فهو يحتمل ما قلناه ويُخَصِّص ما هم[١] عليه اليهود، إذ هو صفتهم فيما كتموه من التوراة مما يوجب اتباعَ محمد صلى الله عليه وسلم. ولهذا بعده: **وأعتدنا للكٰفرين عذابا مهينا**. ويُفهم من هذه الآية ومن التي بعدها ذمُّ المختال المُعجَب بالمال، الفخور به فهو يبخل به ولا يرى إنفاقه، ويرى كتمه خشية الإنفاق منه، وإن أنفق منه شيئا أنفقه رياءً. فهو غير ممتثل ما أمره الله تعالى من الإحسان إلى المذكورين في الآية المتقدمة، فدخل في حكم من أشرك بعبادة الله عبادةَ المال. ولهذا ابتدأ الله تعالى: **وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ / بِهِۦ شَيۡـٔٗا**،[٢] أي كان ما كان. وإنما ذكر المال لأنه معبود لأكثر الناس في أكثر الأحوال. [١١١ظ]
ولقد رأيتُ مكتوبا معنى هذا الكلام في التوراة، وهو ما مقلوبه: لا تتخذوا معي إلٰهَ فِضّةٍ وإلٰه ذهب.[٣] فظن العبرانيون أنه أشار إلى أصنام مصوَّرة. وإنما أشار إلى ما بأيديهم وخزائنهم، فهم لا يفقهون. ولهذا عيَّن الحجرين دون الحجر والخشب وغير ذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾﴾

وقوله: **والذين**، معطوف على [قوله:] **ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ**،[٤] أي فإن أنفقوا، **ينفقون أموٰلهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر**، إشارةٌ إلى أنه لو كان قد آمن بذلك لكان يعلم أن له مُجازيا، ويوما[٥] يُجزى فيه بحسب عمله. فكونه لم يعمل دل على أنه لم يعلم فهو لم يؤمن. وإذا كان كذلك فهو مقرون بالشيطان في حياته وبعد وفاته، لقوله تعالى: **ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ**.[٦] **ومن يكن الشيطٰن له قرينا فساء قرينا**.

﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾

وماذا عليهم لو ءامنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان، بمعنى ولو كان، **الله**، في معتقدهم،[٧] **بهم عليما**، لأنهم لا يعتقدون ذلك. وقوله: **وماذا عليهم**،

---

[١] ك - ما هم، صح هـ.
[٢] من الآية السابقة.
[٣] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «فقال الرب لموسى: هكذا تقول لبني إسرائيل: أنتم رأيتم أنني من السماء تكلمت معكم. لا تصنعوا معي آلهة فضة، ولا تصنعوا لكم آلهة ذهب» (الخروج ٢٠/٢٢-٢٣).
[٤] من الآية السابقة.
[٥] ر - ويوما.
[٦] ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗا﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٦٨).
[٧] ر - في معتقدهم، صح هـ.

يدل على بطلان قول المجبرة، فلو أنهم مجبَرون على الكفر لكان لهم أوضح عذرٍ. ولو أنهم لا يمكنهم الإيمانُ لَمَا جاز أن يقال لهم: وماذا عليهم، فافهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٤٠﴾

ولما ذكر النفقة عرّفهم أنه سبحانه يَجزيهم على أدنى شيء منها ولا يضيّعه. ولهذا قال بعده: **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضعفها**. ولم يعيّن الأضعاف لأنه يضاعِف بحسب كرمه الذي لا ينقطع. **ويؤت من لدنه أجرا عظيما**. والأجر لا يكون إلا على[1] عمل[2] مأجور عليه، لكن وصفه بالعظمة وبيّن أنه من لدنه، فهو فوق استحقاق المأجور. وإنما قال: أجرا، ولم يقل: نعمة أو مِثلَ ذلك ليعرّفنا أنه إنما يؤتي ذلك الخير ويضاعفه ويُعظمه لمن بدأ بأمر يستحق عليه أجرا لئلا يطمع غير العامل أو يعتمد فيبطل العمل جملة. فافهم.

﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ۝٤١ يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ۝٤٢﴾

ثم تمم الكلام الأول عن البخلاء[3] فقال ما تقديره: وإذا كانوا على هذه الحالة المذمومة في الدنيا **فكيف**، حالهم، **إذا جئنا من كل أمة بشهيد**، يَشهد على أمته بما بلّغهم وأنذرهم وهو رسولهم. وأما الأنبياء فهم يشهدون للرسل بالصدق، **وجئنا بك على هؤلاء**، هذه الأمة، **شهيدا**. والدليل على أن الشهيد ههنا هو الرسول إلى أمته قولُه: **يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول**، يعني كل أمة عصت رسولَها تود، **لو تسوى بهم الأرض**، التي قد فُتحت حين قاموا منها[4] فهم يودّون أن يعودوا إلى حالة الموت وأن يكونوا ترابا. وقوله: **ولا يكتمون الله حديثا**، أي ولا يمكنهم ولا يَقدرون أن يَكتموا؛[5] لأن في ذلك اليوم تشهد عليهم الأيدي والأرجلُ والجلود.[6] ولما ذكر الكفر بالله ومعصيةَ الرسول ذكر نوعا من أنواع المعاصي، وهو السكر فنهى عنه المؤمنين. لأنه كثيرا ما يجرّ إلى الكفر وإلى أفعال الكفار.

---

١ ك – على، صح هـ.

٢ ر + من.

٣ ك: عن النحلاء.

٤ أي يوم البعث.

٥ ش: أن يكتمون.

٦ لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (سورة النور، ٢٤/٢٤).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ٤٣﴾

ولمّا كان الذي يبخل ويأمر بالبخل لفرطِ حبه للدنيا قد عاد بمنزلة السكران نهى الله[1] عن مطلق السكر لينبه على أن محبي الدنيا سكارى وما هم بسكارى من خمر، فقال قولا في ظاهر الأمر يدل على الخمر وأمثالها، وفي باطنه يدل على النهي عن كل ما يُسكر، فنادى: **يٰأيها الذين ءامنوا لا تقربوا الصلوٰة وأنتم سكُرىٰ حتىٰ**، إلى أن، **تعلموا ما تقولون**. فأشار بقوله: **سكُرىٰ**، إلى أي نوع عَرَض منه سكرٌ من نوم، أو عِشق، أو تشويش في الذهن لمرض أو لاشتغالِ صادٍّ كغيظ،[2] أو مأكول، أو مشروب كائنا ما كان.

فإن قلت: كيف يدخل الخمر فيما ذكرته والآية إنما تدل على نهي للسكران أن يَقْرُب الصلاةَ ولا تدل على النهي عن مطلق السكر؟ فالجواب أنه لمّا تقدم علمُه تعالى بأن مِن عباده المسلمين مَن يعصي باستعماله المسكِرَ / كان النهي له عن القرب من [١١٢و] الصلاة نهيا عن السكر. وأيضا لمّا كان السكر قد يَعرِض عن أشياءَ منها ما لا يمكن اجتنابُه ومنها ما يعرض اتفاقا بغير قصد أزال الحرج عنا بكونه نهى عن القرب من الصلاة حيث يكون بنا سكرٌ تعظيما للصلاة ولمن نُصَلّي له سبحانه، إذ لا يَحْسُن بأحد أن يقف بين يدي مخدومه وهو لا يعلم ما يقول، فكيف بين يدي بارئه. ولمّا كان النهي عن مطلق السكر عند الصلاة واجبا وكان الخمر من جملة المسكرات، ولكنه الأشهر كان عودة الكلام على الشيء الأشهر الأَولى بالصفة المنهي عنها أَوّلا أَوْلى، وبعد ذلك فهمنا الباقي. فالخمر وإن كان من جملة ما تضمنه السكرُ فهو أولا أَولى به خصوصا، وقد صح تحريمه من مواضعَ أُخَر.[3] لكنه ههنا جاء معروفا بصفة[4] في ضمن الموصوفات بصفته وفي ضمن ما هو محرَّم عند الصلاة وهو السكر ولو صدر عن شيء يجوز استعماله. فعرفنا الله معنى آخر بعد تحريم الخمر في موضعه وهو أن لا نقرب الصلاةَ ونحن سكارى ليكون الاجتنابُ أشدَّ وأبلغ.

[1] ش ك – الله.
[2] ك: كغرظ؛ ش: كغوط.
[3] انظر مثلا: سورة المائدة، ٥/٩٠.
[4] ر: بصفته.

ومما يُفهَم ههنا معنيان. أحدهما كأنه قال: اجتنبوا الخمر وكلَّ ما يُسكر أيضا وإن لم يكن خمرا، فنهى عن وصفه حتى ولو صدر عن غيره.[1] والثاني أنه قيَّدَنا بقيد عظيم وهو أن لا نقرب الصلاة التي لا بد لنا من إقامتها في وقتها فلا نقربها[2] عند السكر الذي هو من الخمر ومن غيره، لكنه من الخمر أشد وأشهر. فلزم اجتنابُه واجتناب ما يؤدّي إلى صفته كيلا نمتنع[3] من الصلاة التي لا بد منها فنكونَ قد عصينا الله تعالى بصورتين. أحدهما استعمال ما حرّم الله ونهى عنه، والآخر تركُ ما أمر به[4] وحرّض عليه. فكأنه قال: لا تَقْربِ الخمر، فإن خالفتَ وقربتَه فلا تقرب الصلاة. وهذا يُلحَظ منه غايةٌ في النهي عن الخمر خاصة وعن صفته عامة. وإن في الخمر أمرا علمه الله سبحانه يتعلق بالنفس وهو إثم. والإثم لا يَظهر للحس، لأنه حجاب للنفس خفيٌّ ينجِّس النفسَ[5] كما ينجّس خروج الجنابة البَدَن. ولهذا قرن السكر بالجنابة، وقال: حتى وحتى. ثم يجب أن تعلم -هداك الله- أنه إذا كنت قد تحققت النهي عن السكر حين الحضور بين يدي الله والتضرعِ والدعاء، أعني في مجموع الصلاة، فيجب أن تعلم أن السكر في غير وقت الصلاة ممقوت أيضا محذور وإن لم يكن صرّح بالنهي عنه. وإنما لم يصرح بذلك لاحتمال أنه يكون من غير الخمر ومثلِه فيكون ذلك حَرَجا.

وقوله: **ولا جنبا إلا عابرى سبيل حتىٰ تغتسلوا**، يُفهم منه أن عابر السبيل ليس عليه اغتسال مع وجود الماء لِما في ذلك من الحرج كما سنبين. **وإن كنتم مرضىٰ**، أي فالحكم كذلك مع وجود الماء. وقوله: **أو علىٰ سفر**، تقديره: فتيمموا، يعني من الجنابة لكن مع عدم الماء. ولهذا غيّر العبارة بلفظ السفر ليَفصِل الحكمَ عن عابري السبيل كما سنوضح. واعلم أن عابر السبيل هو سالك الجادّة، وليس هذا في حكم الاغتسال كالمسافر وإن سمي مسافرا، إذ السفر يتضمن عبورَ السبيل والحلولَ في منزلة من منازله. فبيَّن سبحانه بالاستثناء ههنا أنه أراد إخراج عابري السبيل من حكم الاغتسال من الجنابة في حال عبوره في الجادة، فبقي مفصولا لا نعلم[6] حكمه إلى أن قال: **فتيمّموا**. ودليل ما قلناه هو كونه لم يقل: ولا جنبا إلا على سفر بل غيّر العبارة ليدل بتغييرها[7] على حالة مخصوصة هي في جملة السفر، لكن الحرج فيها

---

[1] ر ك: من غيره.
[2] ر - فلا نقربها، صح هـ.
[3] ر: كيلا يمتنع.
[4] ر - به.
[5] ر ك - خفي ينجس النفس.
[6] ش: لا تعلم.
[7] ر: بتغيرها.

على المغتسل من الجنابة[1] ظاهر، بخلاف النازل في المنزلة من الطريق. والدليل الثاني كونه قال بعد ذلك: وإن كنتم [مرضىٰ أو] علىٰ سفر، فلو أن عبور السبيل هو السفر بعينه لاستغنى عن ذكره أولا بذكره ثانيا.[2] لأن قوله لو قال: "ولا جنبا حتى تغتسلوا" فيه كفايةٌ كما قاله في المائدة: وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟.[3] ثم ذكر السفر هناك / كما ذكره [١١٢ظ] ههنا. لكنه لمّا كان الحكم في عابري السبيل غير الحكم في المسافر غيّر العبارة وفصّل في الذكر بينهما بذكر المرضى إعلاما أن هذين لهما أن يتيمّما من الجنابة مع وجود الماء. ولهذا لمّا ذكر المسافر الذي هو ههنا جنب كما سنبين فيما سيأتي ألحق به ما بعده مِمن تيمّمه من الحدث لا من الجنابة، إعلاما لنا أن الحكم في هذه الثلاثة واحد وهو التيمم للمسافر من الجنابة ولمن بَعده من الحدث بشرط عدم الماء لهؤلاء الثلاثة دون المريض وعابر السبيل، فإنهما في عدم الماء ووجودِه مع هؤلاء الثلاثة في التيمم سواء، ففي حال الجنابة كالمسافر الجنبِ، وفي حال الحدث كمن بعده، ولهذا قرنهما معهم في آية واحدة.

فإن قيل: ما الدليل على أن مراد قوله: إلا عابرى سبيل، هو جواز التيمم مع وجود الماء لعابري السبيل، وكذلك المرضى كما ادعيت؟ فالجواب أنه لا يخلو إما أن يكون عابرُ السبيل الجنبُ يجد الماء أم لا. فإن كان لا يجد فلا فائدة في ذكره، لأنه يعود لغوا لكونه قد بيّن حكْمَ مَن لم يجد الماء بعده ومنهم المسافر. ولقد كان يكفيه أن يُسقط ذكْرَه بسبب أنه قد وجب على المسافر الجنبِ أنه حيث كان. وكيف كان لا يجوز له أن يقرب الصلاة إلا أن يتطهر أو يتيمم[4] مع عدم الماء؟ فلمّا لم يُسقط ذكرَ عابر السبيل لزم من ذكره مع الاستثناء بعد الجنابة وقبل الاغتسال أنه[5] سيحكم له بحكم لا يكون إلا مع وجود الماء. كأنه قال: الجنب يغتسل إلا هذا لا يغتسل مع وجود الماء بل يتيمم كما يتيمم[6] المسافر الجنبُ وغيره مع عدم الماء. ولو لم يكن كذلك لكان يُجزئ[7] لو قال ما معناه: الجنب يغتسل، فإن لم يجد ماء فليتيمم. وكانت هذه الكلمات تُغني في السفر

---

١ ك: من الجنابة.

٢ ك - ثانيا، صح هـ.

٣ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ (سورة المائدة، ٥/٦).

٤ ك: أو يتمم.

٥ ر: أن.

٦ ش - كما يتيمم.

٧ ك: يجزي.

والحضر وعبورِ السبيل والصحةِ والمرض. وكما دل النص بلازمه على حُكم المريض، فكذلك دل بلازمه على حكم عابر السبيل وإلا لا فائدة في ذكرهما، فافهمه متأنيا. وإذ قد بان ذلك لك[1] وصح لزوما من اللفظ بنفس العبارة وموضعه في الذكر، وبدليل قوله في الآية المماثلة لهذه: مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ،[2] وظهر للعقل حُسنُ ما جاء به النص وتبديلُ العسر باليسر؛ فافهم مِثلَه مما وقع فيه الغلط[3] لعدم التأني، وقف أنت في فهم هذا ومِثلِه متأنيا متكررا متأمِّلا حالَ التكرار بالتأني. وانظر إلى هذا الكلام العجيب لتَعِيَ[4] حِكَمَهُ المودَعَة فيه بتصرف[5] المتكلم به القادرِ سبحانه. فإنّ ذِكْر المرضى يلزم عنه التيممُ مع وجود الماء وإلا فلا فائدة في ذكر المرضى كما تَفهم إذا فكَّرتَ، إذ الأصحّاء إذا لم يجدوا الماء تيمموا. وإنما قدّم قوله:[6] **إلا عابرى سبيل**، ليستثني عابري سبيل من الاغتسال. ولزم أن يكون قوله: **إلا عابرى سبيل**، أي مع وُجود الماء كما لزم بما بعده، وهو قوله: **وإن كنتم مرضىٰ**، وأن ذلك مع وجود الماء أيضا. ومن البيِّن في العقل أن وجود الماء عند من لا يستطيع استعمالَه كعدمه عند من يستطيع استعماله. وقولنا "لا يستطيع" أي لِما فيه من الخطر والعسر المحذور شرعا وعقلا كما يجد المريض وعابر السبيل أحيانا دون المسافر كما قدمنا. فافقه ذلك وحاقِقْ من لم يقل به ولا تقلِّدْه كما تُحاقق القائلَ به مُنصفًا من نفسك تَظفرْ بالحق إن شاء الله تعالى.

وقوله: **أو جاء أحد منكم من الغائط**، المكانِ المنخفِض.[7] وذلك أن الإنسان يختاره عند التبرز تستّرا. **أو لٰمستم النساء**، يفهم من هذه القراءة المفاعلة، أي لَمَسَها ولمسته. والمشار إليه لمسُ استلذاذٍ، وهذا ينقض الوضوء. وأما إذا ناولها حاجةً، أو لمسها بطريق الغرض،[8] أو لمسته من غير قصد للذة أو لِما يتعلق بالجماع فلا بأس. ومن قرأ لَمَسْتُم،[9] يُفهم من قراءته إشارةٌ إلى ما يبدو منه بمفرده كما لو كانت غافلة، ويلزم عما يبدو منها كذلك فيكون التحريم لازما لِلّامِس سواء كان واحدا أو اثنين.

---

[1] ش ك – لك.

[2] سورة المائدة، ٦/٥.

[3] ك: فيه ألفاظ.

[4] ش: لنفي.

[5] ك: يتصرف.

[6] ش – قوله.

[7] ك: المنخفظ.

[8] ر ك: العرض.

[9] قرأ حمزة والكسائي وكذا خلف بغير ألف، وافقهم الأعمش، والباقون بالألف (إتحاف فضلاء البشر لابن عبد الغني الدمياطي، ص ٢٤٢).

ولمّا كان الجماع يوجب الغسل والجنابةُ هي الجماع بعينه وقد تقدم حكمها قلنا: إن المراد باللمس ليس كنايةً عن الوطء وهو مذهب الشافعي.[١] ولما رآه أبو حنيفة كنايةً عن الوطء أجاز[٢] اللمس.[٣] ولما ذكر الله تعالى المجيء من الغائط والملامسةَ بعد ذكر / السفر دل على جواز التيمم لذلك كله في الحضر لمن عُدم الماء أو خاف الضرر. [١١٣و] وما جاز في الحضر لزم في السفر.

وقوله: فلم تجدوا ماء فتيمموا، أي فاقصدوا، صعيدا طيبا. يقال: أمّ الشيءَ إذا قصده أمامه، ويممه إذا قصده من جميع الجهات. والصعيد بمعنى المفعول، أُصعد من الأرض ليكون طاهرا. فامسحوا بوجوهكم وأيديكم، وبين في الموضع الآخر فقال: مِنْهُ، وذلك ليبيحنا أن نحمل القليل معنا أو ندّخره عندنا لأجل التيمم به. والباء في قوله: بوجوهكم، قيل: هي باء التبعيض، كقوله: بِرُءُوسِكُمْ،[٤] أي ببعض رءوسكم، وهي أولى أن تكون بمعنى الظرفية في الموضعين، أي امسحوا بُقْعة مّا في رءوسكم. لأنه لو قال: فامسحوا وجوهكم لزم مسحُ جميع ما هو من الوجه. ولما قال: بوجوهكم، فهمنا أنه أيّ موضع كان من الوجه فهو في الوجه، لأن الغرض ما يوقّع اسم المسح. وقد علمت أن الله لا يريد بنا حرجا، وما قلناه في الباء يزيل الحرج، وهو دال على البعض الذي قبل،[٥] وهو باللغة أولى.

وقوله: إن الله كان عفوا غفورا، إشارةٌ إلى أنه إذا تيممتم يُكتب لكم بالتيمم كما يكتب لكم بالماء. والمراد بذكر العفو والمغفرة إذا تيممنا مع وجود الماء لعابر السبيل وللمريض. وأما من لم يجد فذلك ظاهر وعذرُه واضح. وإنما هذا ههنا كحكم الأكل في رمضان للمريض والمسافرِ مع القدرة على الصوم، لكن مع وجود العسر، ولهذا قال هناك: وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ.[٦] وأشعرَنا ههنا أن العفو والمغفرة لا تكون إلا عن شيء، لو تركتموه لكان أولى، فافهم.

---

١ انظر لمعرفة المزيد: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٣٧١/٦-٣٧٤.

٢ ش: جاز.

٣ انظر لمعرفة المزيد: معالم التنزيل للبغوي، ٢٢٢/٢؛ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ٤٠٠/٦.

٤ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ (سورة المائدة، ٦/٥).

٥ ش: الذي قيل.

٦ ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة، ١٨٤/٢).

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ۝٤٤﴾

ولمّا فرغ الكلام ههنا عاد إلى ذكر اليهود ليعرّفنا أن الأوصاف التي تقدمت، أعني البخل وكتمانَ الهدى ومثلَ ذلك هو أوصاف اليهود، فقال: **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتٰب**، اسم الجنس، ونصيبهم منه التوراة. ويحتمل أن يكون تحقيرا لهم، أي ما تَعلّموا إلا القليل وجهلوا الكثير. ويشير إلى العلماء منهم، وبيّنه بما جاء بعده وهو قوله: مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ.[1] وقد تقدم في البقرة كلام في لفظة[2] "أَلَمْ" ولفظة "إلى".[3] وقوله: **يشترون الضلٰلة**، أي بالهدى، وحذفه لأنه بينه في موضع آخر، وتقديره: **ويريدون**، بكم، **أن تضلوا السبيل**، أي عن السبيل.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ۝٤٥﴾

والله أعلم بأعدائكم، أي هم العدو، فلا تتخذوا منهم أولياء، **وكفىٰ بالله وليا وكفىٰ بالله نصيرا**، تنتصرون به على عدوكم.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٤٦﴾

ثم أخذ يعرفنا من هم، ويصف أوصافهم فهي منسوق بقوله: ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ.[4] **من الذين هادوا**، وهم فريق، **يحرفون الكلم عن مواضعه**؛ ولم يقل: في مواضعه، ولم يقل أيضا: يبدّلون، لأن التبديل لِلَّفظ والتحريفَ للمعاني؛ وإلا لو بُدّلت الكلمات نفسُها في مواضعها لم يكن على من أتى بعد المبدّلين الأُوَلِ حجةٌ، لكن الحجة باقية لأن الكَلِم غير مبدَّل في مواضعه، بل حرفوه عن مواضعه من المعاني التي وُضع لها. فحرفوا معنى الموضوع عن مقتضى الوضع الذي في الموضع، ولم يبدَّل في الموضع صورةً. وقوله في المائدة: مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦ، أي من بعد ما وضعناه[5] على الوضع الأَولى به في الأفهام ليكون مبيّنا لمرادنا به من الإفهام.

---

[1] الآية ٤٦ من هذه السورة.
[2] ك: على لفظة.
[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: سورة البقرة، ٢/٢٥٨-٢٥٩. وانظر لذلك أيضا: سورة البقرة، ٢/٢٤٣، ٢٤٦.
[4] الآية ٤٤ من هذه السورة.
[5] ر: ما وضعنا.

واعلم أن الإشارة ههنا هي إلى فئة من اليهود أظهروا الأسلام وأسرّوا النفاقَ، وقصدوا بذلك إفساد الدين. فهم يحرِّفون الكَلِم الردية المَخْفِيَة في أنفسهم من كلامهم فيَلْوُون بها ألسنتَهم إلى الكَلِم الحسنة. ويحرفون[1] أيضا كلماتِ القرآن الحسنةَ للمؤمنين طعنا في دينهم وطلبا لإضلالهم. فالتحريم منهم هو بصورتين. إحداهما في كلامهم، والأخرى في كلام الله تعالى: تارةً كلامِ الله في التوراة وتارة كلامِه تعالى في القرآن. فجاء اللفظ مطلقا ليُفهَم منه صورة حالهم وصفةُ مقالهم إرادةً منهم لإضلال المسلمين. لهذا قال أولا: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾،[2] **ويقولون سمعنا**، ثم ذكر الطعن في الدين. وأما في المائدة فالمراد قومٌ من اليهود هم على إظهار اليهودية باقون. ولهذا قال عنهم: ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾. وأما في / هذه السورة فهم الذين أتوا نفاقا مُظهِرين [١١٣ظ] الإسلامَ. ولهذا في المائدة لمّا ذكر المنافقين نسبهم إلى أنهم سمّاعون من الذين ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾. وأما تحريفهم الكلِمَ فالمراد في المائدة تحريف كلم التوراة. لهذا بعده فيها: ﴿يَقُولُونَ﴾، بغير واو، ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾[3] وتمامه. وأما ههنا ذكر ما هو من جنس تحريفهم لكلامهم. ولهذا قال ههنا بالواو: **ويقولون**، فافهم. إن الكلام هنا هو عن المنافقين من اليهود حرّفوا كلامهم للمسلمين وحرّفوا كَلِما من القرآن في التأويل. وإليهم أشار بقوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾.[4] وفي المائدة المراد اليهود حرفوا كلام التوراة للمنافقين ولبقية اليهود. وهؤلاء المنافقون هم قوم من اليهود أسلموا نفاقا. ومن المستفاض بين اليهود أن أكابرهم لمّا جاء محمد صلى الله عليه وسلم اختاروا جماعة منهم وضمّنوا لهم الجنةَ على أن يُسلموا ظاهرا ويُفسدوا الدينَ ويَطعنوا فيه ويَبذلوا جهْدَهم في الإضلال عنه بكلِّ ممكن. ومنهم من وصفهم الله بقوله: ﴿ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ﴾.[5] وهؤلاء وأمثالهم هم المذكورون ههنا، والذين ضُمّنوا هم المذكورون في المائدة. فتأنَّ لتفهم جيدا، فقد كررناه ليتضح.

---

[1] ك: ومحرفون.

[2] الآية ٤٤ من هذه السورة.

[3] ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ (سورة المائدة، ٥/٤١).

[4] ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (سورة الصف، ٦١/٨).

[5] ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٧٢).

وقوله: ويقولون سمعنا وعصينا، يحتمل أن يكون هذا الإخبار عن الحال لا عن المقال بالأفواه، كما تقول: هذه دعوى الرافضة ومقالتهم. وقد بينا مثل ذلك في قوله تعالى: إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ.[1] ويحتمل أن يكون المعنى من قوله تعالى: يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ،[2] أي بالأفواه سمعنا وبالقلوب عصينا، إذ هذه صفة المنافق. ويحتمل، سمعنا، أمرك، وعصينا، مَن خالفك، وقصدُهم وعصيناك. وقوله: واسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ، قال بعضهم: كأنهم يريدون اسمع غير مسمعٍ ما تكره،[3] وقصدهم الدعاء بالصمم. ولهذا قالوا: لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ.[4] والمعنى اسمع منا. ورٰعنا، من المراعاة كما تقدم.[5] وقوله: ليًّا بألسنتهم، أي دون قلوبهم؛ ولويت الشيء ليًا إذا ميّلته. فهم كانوا يقولون بألسنتهم قولا حسنا للرسول عليه السلام وقد لَوَّوْا ألسنتَهم به إلى المليح الذي ظهر عن القبيح الذي بَطَنَ. ويحتمل أن معنى [قوله:] بألسنتهم، أي بلغاتهم، إذ هم يتكلمون بلغات عبري وسرياني ولسان السَّمرة. فيكون هذا من قوله تعالى: وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ.[6] وفي لغة التوراة لفظةُ "راع"، تفسيرها الشرير،[7] يقولونها للمسلمين في السبّ والشتم ولمن لا يعرف بلغتهم تحذيرا لمن يعرف بلغتهم.[8] وكذلك إذا دعوا على أحد ولمن يسخرون به باطنا مظهرين له[9] ضد ذلك، وهذه صفتهم إلى يومنا هذا. وقوله: وَطَعْنًا فى الدين، أي ويَطعنون طعنا. وكان يجب على من قال الخير أن لا يَطعن فيما قال الخير به. ويحتمل أن الكلمتين جاءتا بالنصب على الحال من قوله: رٰعنا، وهو الأولى. واعلم أن قوله: ليا بألسنتهم، محتمل لِما قدمناه من الصورتين.

ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا، بالألسن والقلوب، أو بالأقوال والأفعال. واسمع وانظرنا، أي اسمع ما نقول وانظر ما نفعل. ويحتمل قوله: وانظرنا، أي وانتظرنا، فسوف نُظهر الإسلامَ، لكان خيرا لهم وأقوم، أي إن الليَّ كان إلى المقوَّم، فلمّا خالفته القلوب

---

١ سورة الأنعام، ٩١/٦.

٢ سورة آل عمران، ١٦٧/٣.

٣ ش: ما نكره.

٤ ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ (سورة المجادلة، ٨/٥٨).

٥ لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟﴾ (سورة البقرة، ١٠٤/٢).

٦ سورة إبراهيم، ٤/١٤.

٧ وهذه الكلمة وردت في التوراة في مواضع كثيرة، منها ما ذُكر في أمثال ١٢/١٢، ١٣/٥، ١٧، ١١/١٧، ٢٣، ١٠/٢١، ٢٩/٧؛ وحَبَقُّوق ٤/١.

٨ ش + منه.

٩ ر: مظهرين به.

لم يُفِدهم. فلو وافقت القلوبُ الألسنَ فيما قالته لكان أقوم مما قصدوه. ولٰكن لعنهم الله بكفرهم، بسبب كفرهم، فلا يؤمنون، أي لأجل ذلك. ولو أزالوا الكفر لزالت اللعنة ولأمكن الإيمان. لكنهم لمّا أصروا على كفرهم دامت عليهم اللعنة، فهم لا يؤمنون. وقوله: إلا قليلا، يحتمل إلا قليلا منهم أو إلا[1] قليلا من الإيمان. والقسمان واجبان في حقهم، مفهومان من أحوالهم؛ فإن من يؤمن منهم قليلٌ، والإيمانُ الذي عندهم بالنسبة إلى كفرهم قليلٌ أيضا. وإيمانهم هو ما يدّعونه / من الإيمان بالله [١١٤و] والتوراة.[2] وذلك لا يفيدهم لقلته بالنسبة إلى عِظَمِ كفرهم بأنبياء الله وكتبِه بعد موسى. ولأنهم يؤمنون ببعض الكتاب، أعني التوراة كما أخبر الله عنهم.[3] فالذي آمنوا به من التوراة قليلٌ أيضا بالنسبة إلى ما كفروا به منها. ولو آمنوا بجميع ما في التوراة لآمنوا بالقرآن منها أيضا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾

ولهذا قال بعده: يٰأيها الذين أوتوا الكتٰب، وهذه للنصارى خاصةً وما قبلها مخصَّص باليهود وما بعدها بالنصارى. وجُلُّ الخطاب ههنا للنصارى أيضا. ويشتمل على اليهود، فخوّفهم بما جرى على بعضهم. ولهذا جاء النداء مطلقا باسم الجنس وهو قوله: **أوتوا الكتٰب ءامنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها علىٰ أدبارها.** لو قال: ونردها[4] دل على أنه يطمسها ويَرُدّها مطموسة على الأدبار وهي القفا،[5] بل[6] دل على أنه يطمسها من قُدّام وتكون من خلف غير مطموسة بل على ما[7] كانت عليه من قُدّام. فلهذا قال بفاء التعقيب وأشار بذلك إلى أنهم يكونون بمنزلة مَن حوّل بصره إلى خلف قفاه. فهو كلما مشى وهو يظن أنه يمشي إلى قدام يكون قد مشى إلى خلف. وكلما زاد في العدْو والسير والتقدم زاد في التأخر والبُعْد عن المقصود.

١ ش ك: منهم و إلا.

٢ ش: وبالتوراة.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ (سورة البقرة، ٨٥/٢).

٤ ش ك: نردها.

٥ ر ك: وهي القفي.

٦ ش - بل.

٧ ش - على الأدبار وهي القفا بل دل على أنه يطمسها من قدام وتكون من خلف غير مطموسة بل على ما، صح هـ.

وكذلك هؤلاء في المعنى. وذلك أنه تعالى تواعدهم[1] أنهم إن لم يؤمنوا وإلا سَدّ عليهم باب الإيمان عقابا لهم، وهو بعينه كقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾.[2] ومتى انقلب النظر بانقلاب البصر لزم أن المقلوبَ بصرُه يمشي إلى وراء. فذلك قوله: فنردها علىٰ أدبْرِها، فلا تُقبِل على الله. وقوله: نطمس، وقد كان يغني قولُه: "مِن قبلِ أن نرد وجوها على أدبارها". فالمعنى أن الوجوه من قدام على حالها لكنها مطموسةٌ بالمعنى لا بالصورة. وذلك لأن المعنى المقصود ههنا بالوجه الذي هو البصر مردودٌ على الأدبار، وهو جمع دُبر. وقوله: علىٰ، ولم يقل: إلى، فلو قال إلى[3] دل على أنها على الإقبال ملتفِتة إلى الأدبار. وقوله: علىٰ، دل على أنه حوّلها فصارت مشرِفةً على الأدبار[4] في المعنى المقصود بها لا في الصورة. فافهم ذلك ومثله. ودليله ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾.[5] ولهذا يؤتى كتابَه بشماله،[6] لأنها تعود يمينا له، فافهم. وقوله: أو نلعنهم، نلعن أصحاب الوجوه،[7] كما لعنّا أصحٰب السبت، مثل النصارى واليهود بما جرى لبعض اليهود. والمراد بالوجوه جملة النصارى وجملة اليهود. ولما كان ذلك الذي جرى عظيما عرّفهم أنه لا يَصعُب عليه شيء فقال: وكان أمر الله مفعولا، أي عند الأمر يكون ما يريد كما يريد إشارةً إلى عظم القدرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾

ثم قال: إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذٰلك لمن يشاء. اعلم أن الشرك والكفر والنفاق جزاؤهم النار. وليس أحدها،[8] وهو الكفر، دون الشرك من حيث إن المصير إلى النار. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ومنهم المشركون، ﴿فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.[9] فقوله: إن الله لا يغفر أن يشرك به، إذا فرضْنا زوال الشرك عن المشرك بإسلامه زال الشرك، فلا يكون شركٌ حينئذ ولا مشرك. ولهذا لم يقل: لمن أشرك به، فافهمه،

---

[1] ر: تواعدتم.

[2] ﴿... وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٦/١١٠).

[3] ر: – فلو قال إلى، صح هـ.

[4] ر: على أدبار.

[5] سورة الانشقاق، ٨٤/١٠.

[6] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ (سورة الحاقة، ٦٩/٢٥).

[7] ر ك: الوجه.

[8] جميع النسخ: أحدهم.

[9] الآية ١٤٠ من هذه السورة.

إذ الكلام عن أقوام منافقين أسرّوا الشرك وأظهروا الإسلام، ومن المنافقين يهود ونصارى. وقد بيّنا مثل ذلك في سورة آل عمران.[١] فالخطاب ههنا للنصارى وإن عم اليهودَ، كقوله: ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ، ثم قال: وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ، وتمامه إلى قوله: عَمَّا يُشۡرِكُونَ.[٢] ولمّا كان المنافقون فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ[٣] والكافرون معهم في النار، والكفر أعم من الشرك كان قوله: ما دون ذٰلك، لا يدل على كفر أو نفاق، بل على السيئات، فهي ما دون ذلك. والمراد أنه يغفر ما دون ذلك للمؤمنين من غير توبة. وقوله: إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا،[٤] أي مع التوبة، ويكون الشرك من الجملة. لهذا بعده: وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ.[٥] وقوله: لمن يشاء، ليعرِّفنا أنه تعالى ليس / عليه أن يغفر ما دون ذلك [١١٤ظ] إلا لمن يشاء. وأما من تاب فإنه يغفر له الجميعَ كما وعده سبحانه، لأنه لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ.[٦] وهذا كلام يقوِّي الرَّجاءَ ويقوي الخوف.

ومن يشرك بالله فقد افترىٰ إثما عظيما، وفي الثُّلُث الأخير من هذه السورة وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا.[٧] المعنى أن الكلام ههنا عن النصارى[٨] والوصف للمشركين، لكنّ وَصْف النصارى في عيسى مثلُ وَصْف المشركين، لهذا قال: فقد افترىٰ، لأنهم افتروا بألسنتهم كما افترى المشركون. والكلام في الموضع الثاني يريد به من آمن وارتد إلى المشركين فقد ضل بعد الهدى. ولهذا قدم ههنا يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ،[٩] وفي الثاني تقدم وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ،[١٠] وبين أن الفريقين مُلحَقون بالمشركين.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ٤٩﴾

ثم كرر وصفهم بقوله: ألم تر إلىٰ، جهل، الذين يزكون أنفسهم، بدعواهم، بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون، أي في الجزاء على ما بدا منهم، فتيلا، قيل: هو الذي في شق النَّواة، والنقير هو النقطة[١١] التي في ظهرها.

---

[١] انظر: سورة آل عمران، ١٧٧/٣.

[٢] ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ (سورة التوبة، ٣١/٩).

[٣] ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ (الآية ١٤٥ من هذه السورة).

[٤] سورة الزمر، ٥٣/٣٩.

[٥] ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (سورة الزمر، ٥٤/٣٩).

[٦] انظر: سورة آل عمران، ٩/٣؛ وسورة الرعد، ٣١/١٣.

[٧] الآية ١١٦ من هذه السورة.

[٨] ش: من النصارى.

[٩] من الآية السابقة.

[١٠] الآية ١١٥ من هذه السورة.

[١١] ش ك: هو النقرة.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ۝٥٠﴾

ثم قال: **انظر كيف يفترون**، الافتراء افتعال من فَرَى يَفْرِي، وهو الشق والقطع، **على الله**، ولم يقل: على أنفسهم، **الكذب وكفىٰ به**، بالكذب **إثما مبينا**. فالإشارة بقوله: **يفترون**، ليست إلى تزكيتهم لأنفسهم، وإنما الإشارة بالافتراء إلى الشرك بعيسى. وأما تزكيتهم لأنفسهم فلكون الله تعالى لم يأمرهم بما هم عليه، فابتدعوا هم لأنفسهم من الدين ما لا يجوز أن يكون إلا من الله. ولهذا كرر الله تعالى أوّلَ الآية المتقدمة منبئا عنهم ومبيّنا لحالهم فقال:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ۝٥١ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ۝٥٢﴾

ألم تر، وهو من رؤية القلب في أكثر القرآن، **إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتٰب**. وعرّفَنا أنهم النصارى بقوله: **يؤمنون بالجبت**، اسم يقع على الصنم، **والطّٰغوت**، وهو ما يَطغى، مشتق من طغى كالجالوت من جال. **ويقولون للذين كفروا**، أي إن النصارى المذكورين يقولون عن اليهود: **هٰؤلاء أهدىٰ من الذين ءامنوا**، بمحمد صلى الله عليه وسلم، **سبيلا**. وهذا القول هو صورة ما عندهم وإن لم يكن بالأفواه بل عقيدتُهم وزعمهم ذلك، كما تقول: هذا قول الصابئة.[1] فأخبر الله تعالى عن المقول لهم وهم اليهود. وجعل القولَ مطلقا ليعم القائلين لهم أيضا بقوله: **أولٰئك الذين لعنهم الله**، فاليهود أولى بهذه الصفة. **ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا**. وقوله: **ألم تر إلى الذين**، ليست "إلى" زائدةً؛ وإنما الفرق بين قولك: نظرت القمر أو نظرت إلى القمر، إن النظر الأول يحتمل أن يكون من غير دوام، والنظر إلى الشيء لا يكون إلا مع مدة أدَمْتَ فيها النظر إليه، كأنك تقول: نظرت إلى القمر زمانا مّا. فكأنه تعالى أمره بنظرٍ متفكّرٍ بقلبه متعجّب مديم للرؤيا، وهو من رؤية القلب. هذا مع ما قلناه مما تقديره إلى جهل الذين.[2]

---

[1] الصابئة: قوم، دينهم التعصب للروحانية، أي الملائكة، وضد الحنفاء الذين دعوتهم الفطرة، يقولون: إن للعالم صانعا حكيما، والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله. وقالوا: والأنبياء أمثالنا، فمن أين لنا طاعتهم (دائرة المعارف للأعلمي الحائري، «الصابئة»).

[2] يشير المؤلف إلى تفسير الآية المتقدمة برقم ٤٩ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝٥٣ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤﴾

وقوله: **أم لهم نصيب من الملك**، يشير إلى النصارى، أي هل لهم في ملك الله تعالى شيءٌ؟ لهذا بعده: **فإذًا لا يؤتون الناس نقيرا**، أي لو كان لهم شيء في ملكه سبحانه؛ ويريد أن الملك لله وحده، فهو يؤتي من ملكه وفضلِه ما يشاء لمن يشاء. والإشارة إلى الكتب المنزلة فهي الفضل. وبينه بقوله بعده: **أم يحسدون الناس**، يريد بالناس ههنا المؤمنين، **علىٰ ما ءاتىٰهم الله من فضله**، وهو القرآن، لقوله بعده:[1] **فقد ءاتينا ءال إبرٰهيم الكتٰب**، التوراة، **والحكمة وءاتينٰهم ملكا عظيما**.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۝٥٥﴾

فمنهم من ءامن به، بالكتاب، **ومنهم من صد عنه**، صدّ هنا لازم. والصد كالسد إلا أن السد بحائلٍ محسوسٍ من الأجسام، والصدَّ بمانع معقول من المعاني لإرادة وكراهة. وربما كان الصد في الظاهر بسبب هذا المنع الموجود / في الباطن، وأصله [١١٥و] البعد. **وكفىٰ بجهنم سعيرا**.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٥٦﴾

ثم قال عن كل كافر في كل زمن: **إن الذين كفروا بأيٰتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم**، ولم يقل: احترقت، لأنه يُصبُّ من فوق رءوسهم الحميمُ.[2] والإحراق يكون[3] سريعا والإنضاج[4] مع تراخٍ ومدةٍ. **بدّلنٰهم جلودا غيرها**. وكل ذلك جاء على مذاهب العرب تهويلا أو تخويفا بما جرت لهم العادة في المخاطبة به،[5] لكنهم يقولون: فوق ما يمكن، والله تعالى يقول: بعض ما يمكن؛ إذ الأمر عنده وفي قدرته أشد وأبلغ، فهو صِدْق. واعلم أنه لمّا كان أولُ ما يُحسّ بالألم الجلدُ حين الإحراق خصصه بالذكر دون غيره من اللحم والعَظْم. ولما كانوا لا يفقهون العذاب

[1] ر: لقوله عن أمثالهم.
[2] ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ (سورة الحج، ١٩/٢٢).
[3] ك – يكون، صح هـ.
[4] ر + يكون.
[5] ر ك – به.

إلا بواسطة الأجسام خاطبهم بما يفقهونه مما يريد أن يعذب به مَن كفر. وليس المقصود في الدارين بالأجسام إلا أرواحَها في العقاب والثواب. ولهذا قال: **ليذوقوا العذاب**، ولم يقل: لتذوق. ثم أخبر عن أعظمَ من ذلك بقوله: **إن الله كان عزيزا حكيما**. ولا يقال: إنه لا يكون للأنفس هياكلُ جسمانيةٌ، فإنَ الذي يُبدِّل الأرض غير الأرض والسماواتِ[1] يبدل الأجسام والجلود في البعث وبعده بأجسام باقية كما يشاء، ويعيد ما بدأه ويبدل مما أعاده بلا كيف. لأنه مبدع[2] الكيف والأين. وإنما القصد أصحاب الأجسام ليذوقوا الحميمَ أو النعيمَ. وإن لم يكن كذلك فما ذَنْبُ الجلود المُبدَّلة التي هي غيرُ الأُولى العاصية. وإنما ألمُ الأنفس وعذابها هو المقصود بما في هذا الوجود وذلك الوجود، فأزال المعاوضة[3] بقوله: **ليذوقوا**.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾

﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨﴾

ولما ذكر المؤمنين ومآلهم نبههم على ما يؤديهم إلى ذلك فقال آمرا لهم: **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمٰنٰت إلىٰ أهلها**، سواء كانوا كفارا أو مؤمنين. ولا تظنَّ أن الخائن إذا استودعك مالا سرقه من جارك مثلا أن الخائن هو أهل ما استأمنك عليه، بل جارك أهله إذا حققتَ، وهو معنى قوله: **إلىٰ أهلها**، لزوما. **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعِمَّا**، نِعْمَ مَا فاستُثقِلتْ فأُدغمت، **يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا**. وقوله ههنا: **سميعا**، لاحتمال أن تكون الأمانة كلاما أو علما، فافهم، ولا تدعْه إلى غير أهله إن كنت مؤمَنا أمينا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾

---

[1] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/٤٨).

[2] ش ك: لأنه مبدئ.

[3] ش: المعارضة.

يٰأيها الذين ءامنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، تقدم تكرار ذكر الطاعة، **وأولى الأمر منكم**، أي لا من الكفار إن استولَوا عليكم فأمروكم بالمعصية ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.[1] وذَكَر الطمأنينة مع الكفر ليكون الأمر فيما دون الكفر لازما.

فإن تنٰزعتم فى شىء، بينكم أو مع أُولي الأمر، لأنهم منكم، **فردوه**، أنتم وأولو الأمر منكم، **إلى الله والرسول**، أي إلى كتاب الله وسنة رسوله. ولم يقل: أو الرسول لأن السنة تُبيّن الكتاب ولا[2] تصادمه. وهذا الكلام أعني قوله: **والرسولِ**، الأَولى من ظاهر اللفظ أن يكون المراد به في حياة الرسول. وأما الآنَ فالأصل الجامع -لِما جاء في الحديث وغيره من ضروب الاختلاف في جميع المواطن- هو قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.[3] وأولو الأمر ليس هم الملوكَ فقط، بل من له على مأموره طاعةٌ كائنا مَن[4] كان إذا كان مسلما لقوله: **منكم**، ولم يقل: عليكم. وهذا مفهومُ مطلقِ اللفظ. وأما مراده ههنا فهو العلماء ومن يأمر بما أمر الله / ورسوله به سواء كان العلماء [١١٥ظ]
أحياء أم من الأوائل. فإن تنازعنا مع الأوائل عُدنا إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله الذي صح أنها سنة لا من جهة التقليد،[5] بل من جهة الدليل.[6] والدليل هو شهادة الكتاب له إما بما يوافقه أو بأن لا يخالفه ويصادمه. ولا يُحتَجّ بأن الحديث جاءنا[7] ناسخا للكتاب، فقد نفينا ذلك وصح ما قلناه فيه. **إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر. ذٰلك خير وأحسن تأويلا**، أي أحسن من تأويلكم أنتم. وهذا يدل على أن الاختلاف فيما له تأويلان أو أكثر، كآيات القرآن.

ثم تلا ذكر النصارى واليهود بحديثِ مَن أظهر الإسلام منهم خاصة وهو منافق فقال:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾

---

[1] ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة النحل، ١٦/١٠٦).

[2] ر - تبين الكتاب ولا، صح هـ.

[3] سورة الشورى، ٤٢/١٠.

[4] ر: كائنا ما.

[5] ك: التقليل.

[6] ك - بل من جهة الدليل، صح هـ.

[7] ر: جاء.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾

وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول، ليحكم بينكم،[١] **رأيت المنفقين**، المعنى رأيتهم، وإنما ذكر[٢] لفظ "المنفقين" ليعم بهذه الصفة كلَّ مَن يصد فقال: **يصدون**، وهو لازم، **عنك صدودا**، أي صدودا كثيرا. والمراد بالصد الامتناع عن المجيء إليك.

﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾

فكيف، يكون حالهم، **إذا أصٰبتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسٰنا وتوفيقا**، أي بالصد[٣] وغيرِه مما أصابتهم المصيبة بسببه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾

أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرِضْ عنهم، أي إعراضَ عفوٍ. لهذا قال بعده: **وعظهم وقل لهم فى**، أمر يعود نفعُه على، **أنفسهم**، بالوعظ وغيرِه، **قولا بليغا**، يبلغ مبلغا له أثرٌ في أنفسهم. وهذا وصف للقول، ومنه البلاغة. قيل: سُئل العبدي[٤] ما البلاغة؟ قال: أن تجيب ولا تُبطئ، وتصيب ولا تُخطئ. ثم قال لمعاوية: أَقِلْني، قال: أَقَلْتك، قال: لا تبطئ ولا تخطئ.[٥]

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾

١ ر: بينهم.
٢ جميع النسخ: كرر.
٣ ش ك: أي بصد.
٤ هو أبو عبد الرحمن صُحَار بن عيَّاش أو عباس بن شَراحيل بن منقذ العبدي من بني عبد القيس، خطيب مُفَوَّه، كان من شيعة عثمان. له صحبة، وأخبار حسنة. وهو أحد النسابين. وكان ممن شهدوا فتح مصر. ولما قتل عثمان قام صحار يطالب بدمه. وشهد صفين مع معاوية. وسكن البصرة، ومات فيها قبل سنة ٦٠هـ/ ٦٨٠م فيها (الأعلام للزركلي، ٣/٢٠١).
٥ كتاب الحيوان للجاحظ، ١/٩٠-٩١.

وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع، وقوله: بإذن الله، إشارة إلى أن مِن الناس مَن طبع الله على قلبه بذنبه فلا يَخرج من العقاب ولا يطيع الرسول إلا بإذن الله. وقد علمت أن الطاعة والمعصية لا تكون إلا بإذن الله. فالعبد يختار والرب يأذن لمن يشاء في الطاعة ويثيبه، وفي المعصية ويعاقبه على ما تقدم به اختيارُ العبد. فمعنى قوله بإذنه ليس عائدا على الإرسال بإذنه وإن جاز، بل على طاعة العباد بإذنه. فمن الناس مَن ظلم نفسه وعصى الرسول، كما ظلم هؤلاء فعصوك. ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم، الكلام عائد على هؤلاء وعلى الظالمين من الأوائل، جاءوك فاستغفروا الله، ولو أن الأوائل جاءوا إلى رسولهم، واستغفر لهم الرسول، المرسَل إليهم، لوجدوا الله توابا رحيما. فلا تغفل عن مثل هذا المقدَّر المحذوف، فهو بيّن مما لم يُحذف.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

وقوله: فلا وربك، مثل قوله تعالى: لَآ، ثم قال: أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ.[1] وإذا أراد الفصيحُ أن يتكلم بكلام يَنهى فيه خصمَه عن شيء أو يَنفي شيئا فإنه يقدّم على كلامه "لا"، وذلك لفرط اهتمامه بالنهي أو النفي، فيأتي بما يدل عليه قبل ذكر المنهي عنه، لأن العرب تُقدِّم الشيء للاهتمام به كما أوضحناه.[2] والواقع في كلامنا من مثل ذلك كثيرٌ،[3] خصوصا إذا كان ما ننهىٰ عنه حاضرا بين أيدينا. وربما يكرر[4] "لا" مراتٍ قبل ذكر المنهي عنه تأكيدا للمنع. وربما اقتنع بقوله: "لا" ثم أمر بضد ذلك المنهي عنه. وربما قال: "لا" ثم يقول: يا فلان لا تغفل عن كيت وكيت. فيَعْجَلُ بالنهي، كما قلنا، قبل جملة كلامه، ثم / يُفصح عنه. فتأمل ذلك لتفهمه جيدا من قوله: فلا وربك. [١١٦و]
ثم كرر قوله: "لا" عند قوله بعده: لا يؤمنون، أي فلا تطمع في إيمانهم وهم على هذه الأحوال المذمومة. ولهذا أقسم بنفسه أنهم، لا يؤمنون حتىٰ يحكّموك فيما شجر بينهم، لأنهم كانوا يحكِّمون الطاغوت. وقوله: شجر، من المشاجرة، وهي الخصومة، وسميت مشاجرةً لتداخل كلام المتخاصمَين[5] وتفريعِ ما مِن جهة أصله كان الخصام.

---

[1] سورة القيامة، ١/٧٥.
[2] ر: كما أوضحنا.
[3] ش ك: كثيرا.
[4] ر ك: نكرر.
[5] ر: المخاصمين.

ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا، الحرج ضيق في الباطن؛ ومنه قوله تعالى: يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا،[1] مما قضيت ويسلموا تسليما. والتسليم ما لا يُحتاج معه إلى دليل. وليس المراد به التقليدَ، فالتقليد ينبني[2] على الشك، والتسليم ما يصح بعد زوال الشك ووضوحِ أبيضِ البرهان للخصم. فلهذا قال: تسليما، بصورة المصدر. فليس أنهم يطلبون دليلا على صحة قوله بل وَقَر في صدورهم من الإيمان بقوله ما يغنيهم عن[3] الدليل على صحته.[4]

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾

ولو أنا كتبنا عليهم، على المنافقين من المذكورين. وقوله: كتبنا، بمعنى فرضنا، أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دِيْركم ما فعلوه، بحق، أي وهم الآن يفعلون ذلك بغير حق ويَخرجون في نصرة المشركين بالباطل، إلا قليل منهم. ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به، يحتمل أن تكون الإشارة إلى ما يوعَظون به من رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله قبلُ في حقهم: وَعِظْهُمْ.[5] ويحتمل أن يكون الوعظ ما كتبناه عليهم، أي في التوراة. ولهذا لم يقل: ولو أنهم يفعلون. وقد ذكر الله تعالى عن الألواح أنها موعظة.[6] والمعنى أنهم لو اتبعوا التوراة لكان خيرا لهم. وإنما نُذهبهم[7] إلى ذلك لكونهم لم يتبعوا القرآن. فاتباعُهم للتوراة أولى من اتباعهم للمشركين وميلِهم إليهم على قومهم ونفاقهم للمسلمين. لهذا قال: لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا، وإذًا لآتينٰهم من لدنا أجرا عظيما، ولهدينٰهم صرٰطا مستقيما، أي باتباع التوراة إلى اتباع القرآن. وهذه الدعوى

---

[1] ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ (سورة الأنعام، ١٢٥/٦).

[2] ر: يتبنى.

[3] ر – عن، صح هـ.

[4] ش – صحة قوله بل وقر في صدورهم من الإيمان بقوله ما يغنيهم عن الدليل على صحته، صح هـ.

[5] الآية ٦٣ من هذه السورة.

[6] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ (سورة الأعراف، ١٤٥/٧).

[7] ر: وإنما مذهبهم.

عندهم مصدَّقة، أعني قوله: **ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم**، وإلا يعود الكلام كما قال بعض المفسرين: إني لا أجد هذا إلا كما يقول القائل: العسل أحلى[١] من الخلّ.[٢] أي إذا كان الكلام عن الشيء الذي لو فعلوه لكان خيرا لهم عبارةً عن القرآن، لأن هذا وإن كان صحيحا فهو عندهم غير مسلَّم، بخلاف أن تكون الإشارة إلى التوراة. ولهذا قال: **صرٰطا**، منكَّرا. ولهذا بعده: **ومن يطع الله والرسول**، أي في كل زمن وزمن. وقد علمت أنه متى أطاع الرسول الأول لزمه طاعة الثاني دائما. فجاء القول ههنا مطلقا في طاعة الرسول ومخصَّصا لمحمد صلى الله عليه وسلم. ولهذا قال: **فأولٰئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين**، الصدِّيق فِعِّيل، وأصله من الصدق، وهو مبالغة في كثرة الصِّدْق، **والشهداء والصٰلحين وحسن أولٰئك رفيقا**.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

ذٰلك، مبتدأ، خبره، **الفضل من الله وكفىٰ بالله عليما**، كُتب لهم الجزاء بما تقدم به علمُه من أعمالهم. فافقه هذا[٣] جيدا ما تضلّ بعده لتفرّق بين قول القائل: كتب ما يعملون، وبين قوله: يعملون ما كتب. فإن الثاني يُفهم منه أنهم يعملون ما شاء، والأول يفهم منه أنه يعلم ما يشاءون، فافهم واحذر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾

يٰأيها الذين ءامنوا خذوا حذركم، أي ما تُحذَرون به يعني استعِدّوا لدفع[٤] ما يُحذَر بأخذ السلاح وتقدمِ العلم بما سيجري. والرابطة بين الآيتين أنه لما تقدم ذِكْرُ المنافقين ذكر الجهادَ الذي يجب على المؤمنين للكافرين والمنافقين فقال: **فانفروا**؛ يقال نفر الوحش / إذا هرب بغتة بخوف، **ثُبَاتٍ**، جماعات متفرقين فرقة بعد فرقة، وهو جمع [١١٦ظ]
ثُبة وهي الجماعة، مشتقة من قولك: ثَبَّيتُ[٥] على الرجل تثبية إذا جمعت محاسنَه في الثناء عليه. ولهذا بعده: **أو انفروا جميعا**.

---

[١] ش: أحلا.

[٢] قال الآلوسي: ألا ترى أن المعنى في قولهم: العسل أحلى من الخل أن للعسل حلاوة، وأن تلك الحلاوة ذات زيادة، وأن زيادة حلاوة العسل أكثر من زيادة حموضة الخل، وقد قال ذلك ابن هشام في حواشي التسهيل وهو بديع جدا (روح المعاني للآلوسي، ٥٩/٩).

[٣] ش – هذا.

[٤] ك: استعد الدفع.

[٥] ش ك: تثبت.

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾

وإن منكم لمن ليبطئن، بُطْأَ متعدٍّ، وأبطأ ضد أسرع. فإن أصٰبتكم مصيبة، في الجهاد. قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيدا، شاهدَ القضية.

﴿وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

ولئن أصٰبكم فضل من الله، يريد النصر والغنيمة، وهو مطلق، ليقولن، تقديره إذا رأى، كأنْ لم تكن بينكم وبينه مودة. إن شئت أن تعرف هذا المعنى فيجب أن تفرِّق بين قوله: كأن لم يكن بينكم وبينه، وبين قوله لو قال: كأن لم يكن بينه وبينكم. والمعنى أنه لمّا أصابكم الفضلُ والنصر والغنيمة فذلك المبطّئ يجد منكم هذه الحالة وسمي مبطِئا، لأنه يبطِئ غيره. ومتى كان يبطِئ فهو لا يخرج إلى الجهاد. فهو إذا عُدتم من الجهاد وحضر معكم لا يجد له نصيبا من فضل الله الذي آتاكم ولا يجد بُشْرا منكم، بل يرى أنكم قد عاملتموه في ذلك الوقت معاملةَ مَن كأن لم يكن بينكم وبينه مودة من قبل. فهذا الكلام هو صفة ما صدر إليه منكم. لهذا قدم "بينكم". ولو قدم "بينه" لكان الإخبار عما صدر إليكم منه، وليس كذلك. بل لمّا رأى حالكم معه حالَ مَنْ كأن لم يكن بينكم وبينه مودة فهو حينئذ يقول: يٰليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما.

﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾

ولذلك حَسُنَ أن يقول بعده: فليقٰتل فى سبيل الله الذين يشرون، يبيعون، الحيوٰة الدنيا بالآخرة. والمعنى أن هذا المتخلِّف المبطّئ إذا رأى أنه ليس له في المغنم الدنيوي نصيب فندم وقال: يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ[1] فبالأولى أنه سيندم في الآخرة أضعافَ ذلك الندم ويقول: يا ليتني. وإذا كان ذلك كذلك، فليقاتل في سبيل الله. ومن يقٰتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب، ولم يقل: أو يَقْتُلْ ولا غير ذلك لينبه على أنه إذا قاتل فقُتل قبل أن يَغلب أحدا وقبل أن يَقتل فله أجر عظيم. فإن غلب أحدا قبل أن يُقتل ثم قُتل فهو لازم.

[1] من الآية السابقة.

فإن قَتل أحدا قبل أن يُقتل ثـم قُتل فهو أشد لزوما. فعبر عن جميع الصور بعبارة واحدة يلزم عنها ما شرحناه وهو قوله: فيُقتل، وقوله: أو يَغلب. هذا دل على مَنْ ربما غلب واحدا فله أجر عظيم، فإن غلب أكثر من واحد فذلك لازم، فإن قَتل من عدو المسلمين واحدا أو أكثر فذلك أشد لزوما. فقوله: فيقتل أو يغلب، تقديره أو يُقتلُ أو يَغلب. فحَذَفَ نظير كل واحدة لدلالتها عليه. غير أن ههنا نكتةً وهي معلومة من قوله تعالى: فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ. فلما لزم المؤمنَ أنه إذا وجب اللقاءُ ولزم القتال أنّه لا يولي الأدبار وجب ههنا أنه إما أن يقاتل حتى يُقتل أو حتى يَغلب. وأما أن يهرب فليس له ذلك. ومتى لم يولِّ الأدبار فلا بد من أحد القسمين المذكورين. فانظر إلى حكمة هذا الكلام وحصرِ هذه العبارة لِما يمكن تفصيله من الإسلام. وهذا الأجر الموعود به ههنا هو في الآخرة، لهذه عبر بقوله: فسوف نؤتيه أجرا عظيما. فهذه النكتة إنما تلزم إذا وجب القتال. ولهذا قال في تلك الآية: إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا[١] ولم يقل: إذا لقيكم الذين كفروا.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

وما لكم لا تقٰتلون فى سبيل الله والمستضعفين، أي وفي سبيل[٢] المستضعفين فتذبُّون عنهم؟ لأن القوي يجب عليه أن يقاتل للضعيف،[٣] **من الرجال والنساء والولدٰن الذين يقولون ربنا أخرجنا من هٰذه القرية الظالم أهلها**، مكة وإن عم. **واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا**، وتكرار قوله: **واجعل**، يدل على تكرار الاستغاثة منهم بالجعل مرات.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾

[١١٧و] ثم أخبر تعالى مفصِّلا مرغِّبا مخوِّفا فقال: **الذين / ءامنوا يقٰتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقٰتلون فى سبيل الطٰغوت**. وقوله بعده: **فقٰتلوا أولياء الشيطٰن**، يدل على أن كل طاغوت -وهو ما يُطغي- شيطان. **إن كيد الشيطٰن كان ضعيفا**، لأنه ليس له سوى أن يدعوَ.

---

١ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ (سورة الأنفال، ١٥/٨).

٢ ش ك: أي في سبيل.

٣ ر: يقاتل عن الضعيف.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

ألم تر إلىٰ، جهل، الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلوٰة وءاتوا الزكوٰة، تقديره فطلبوا أن يقاتلوا. والإشارة ههنا إلى الأعراب المؤمنين كما سنبين لك فيما بعد. فلما كتب عليهم، وهو قوله: كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ،[1] إذا فريق منهم، وهو الذي يعود عليه الذم دون الباقين، لأنهم، يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، تقدم عند قوله: أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً.[2] وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال، لولا، بمعنى هلا، أخرتنا إلىٰ أجل قريب. يريد بالأجَل ههنا مدةً مَا، أي إلى حين الكثرة والقوة. وأما أجل الموت فللعبد أجلٌ قضاه الله عند وقوعِ شروطه من العبد متى وقعت، فهو أجل العبد لا من جهة الرب بل بإذن الرب؛ لأنه تعالى كذا قضى، فلا يقال لهذا: أجل الله بل بإذن الله. وهذا هو الذي يؤخَّر العبد بعده إلى أجل الله المسمى الذي لا يؤخَّر. ولهذا قالوا: لولا أخرتنا، ولم يقولوا: أخَّرتَ الأجلَ. وكذلك قال تعالى: وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ،[3] ولم يقل: يؤخِّر الأجلَ. فالعبد يؤخَّر عند وقوع شروط التأخير منه. وللرب أجلٌ مسمًّى قضاه من جهته سبحانه بمقتضى الحكمة. وهو الذي لا يؤخَّر من جهة العبد ولا من جهة الرب. لهذا قال بما لم يُسمَّ فاعلُه: لا يُؤَخَّرُ[4] بوجه من الوجوه. وسيأتيك تمام الكلام في أول سورة الأنعام.

قل متٰع الدنيا قليل، يا هذا! انظر إلى مدة عمرك بين الأزل والأبد ما أقلّه، وقد قال تعالى: قل متٰع الدنيا قليل، فعُمرك قليلُ القليل. وأي نعمة أبلغ من حصول الكسب الكثير الذي لا يفنى في العمر[5] القليل الذي لا يبقى. فانتبه لقوله تعالى: والآخرة خير لمن اتقىٰ ولا تُظْلَمون فتيلا.

---

[1] سورة البقرة، ٢/٢١٦.

[2] ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ (سورة البقرة، ٢/٧٤).

[3] ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/١٠). وانظر أيضا: سورة نوح، ٧١/٤.

[4] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة نوح، ٧١/٤).

[5] ر - القليل وأي نعمة أبلغ من حصول الكسب الكثير الذي لا يفنى في العمر، صح هـ.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝٧٨﴾

أينما تكونوا يدرككم الموت، أي[١] والجهاد أولى بمن لا بُدّ أن يدركه الموت. ولو كنتم فى بروج مشيدة، مَبْنِيّة[٢] بالشِّيد،[٣] والبرج ما بَرَج أي ظهر عن البَدْنة[٤] في سُور الحصن. وقوله: وإن تصبهم حسنة يقولوا هٰذه من عند الله. الضمير في قوله: وإن تصبهم حسنة يقولوا،[٥] عائد على الذين قالوا: رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ.[٦] وإن تصبهم سيئة يقولوا هٰذه من عندك، أي لولا أنت ما أصابتنا. وهذه من المتشابه، ومحكمُها في سورة الروم: وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ.[٧] وهذه الآية تكلم فيها أكثر العلماء بالواجب، ومنهم الواحدي[٨] في كتابه المعروف بالوسيط.[٩] وكذلك في التفسير المنقول عن ابن عباس.[١٠] ومعنى الآية يعطي [نتيجة] أن الله تعالى يذمّهم ويعرِّفنا أنه من قال مثل مقالتهم فهو مذموم. ولهذا لمّا قال: قل كل من عند الله، قال بعده ذما لهم ولأمثالهم: فمَا لِ هٰؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا. فقوله تعالى: قل كل من عند الله، أي هو يصيب بالحسنة ابتداء وبالسيئة جزاءً لما جَنَتْه النفسُ الأمّارة بالسوء،

---

[١] ر ك – أي.

[٢] ك: مبينة.

[٣] الشِّيد كلُّ ما طُلِي به الحائطُ من جِصٍّ أو بَلاط (لسان العرب، «شيد»).

[٤] أي الضخامة.

[٥] ش – هذه من عند الله الضمير في قوله وإن تصبهم حسنة يقولوا، صح هـ.

[٦] من الآية السابقة.

[٧] ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ (سورة الروم، ٣٦/٣٠).

[٨] أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، مفسر، عالم بالأدب. كان من أولاد التجار، أصله من ساوة (بين الري وهمذان) ومولده ووفاته بنيسابور. له البسيط، والوسيط، والوجيز، كلها في التفسير، وشرح ديوان المتنبي، وأسباب النزول وغير ذلك. توفي سنة ٤٦٨هـ/١٠٧٦م (الأعلام للزركلي، ٢٥٥/٤).

[٩] وقال الواحدي في تفسيره: وقوله ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ إلى قوله ﴿مِنْ عِندِكَ﴾ هذا من قول اليهود والمنافقين عند مقدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وكان قد بسط عليهم الرزق، فلما كفروا أمسك عنهم بعض الإمساك فقالوا: ما رأينا أعظم شؤما من هذ، نَقَصَتْ ثمارنا وغلَت أسعارنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه، فذلك قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ يعني الخِصْبَ ورُخْصَ الأسعار ﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جدب وغلاء الأسعار قالوا: ﴿هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ من شوم محمد. ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾... و معنى ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما أصبتم من غنيمة أو أتاكم من خصب فمن تفضُّل الله عليك ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾ أي من جدب وهزيمة في حرب ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾ أي أصابكم ذلك بما كسبت أيديكم (الوسيط، ٨٣/٢، ٨٤).

[١٠] قال ابن عباس: أما الحسنة فأنْعَم الله بها عليك، وأما السيئة فابتلاك بها (تنوير المقباس، ص ٧٥).

كقوله: فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟.[1] فالسيئة التي أصابتِ العبدَ من الله هي جزاء ما بدا من نفسه، فهي وإن كانت من الله فهي من نفس العبد.

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾

وجاء الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ليعم مَن دونه مِن سائر الناس. وقد علمت أنه فرقٌ بين قولك: ما أصابك وبين قولك: ما أصبت. وتقديره، **ما أصابك**، الله به، **من حسنة فمن الله**، أي من فضله وكرمه وجوده. وليس ذلك جزاءً على عملك كما سنبين. **وما أصابك**، الله به، **من سيئة فمن**،[2] جناية، **نفسك**، عليك، أي الذي بدا[3] من نفسك من السيئة عاقبك الله عليه بمثله كقوله تعالى: مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ.[4] ولمّا كان ما يصيب العبدَ قد يكون تارة بيد الحق وتارة بيد الخلق لم يُثْبِت الجلالة ههنا ليعم بمعنى مهما أُصبتَ به. وأما تفصيل ما يتعلق بهذه المسألة فقد بينه الله في مواضعه من القرآن. وليس المقصود بكلامه سبحانه ههنا إلا بيان / ما اشتبه عليهم وأنه من عند [١١٧ظ]
أنفسهم كسبا وجناية، وهو من[5] الله عقابا. فالمعاقِب على السيئة بالسوء لا شك أنه هو[6] البارئ سبحانه، والمثيب على الحسنة بأضعافها لا شك أنه هو الله سبحانه. فهو المعاقب والمثيب لا غيره، فكلٌّ من عنده لا من عند[7] عبيده ولو كان بأيديهم. غيرَ أنه سبحانه لم يعاقب ظلما بل الذي رده عليك من السيئة كان أصله من نفسك، فـلَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ.[8]

والمعنى مبني في الخطاب على قوله تعالى لنبيه عليه السلام: **قُلْ**، أي قل لمن يعتقد ويقول: إن السيئة التي تصيبه هي منك يا محمد، قل له: ليس ذلك مني بل كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ[9] الحسنةُ والسيئة. فالحسنة من لدنه سبحانه لأنها لا تأتي إلا مضاعفةً إن كانت جزاء، فهي أولى أن تكون منسوبة إليه، وإن كانت ابتداء فالأولوية أشد.

[1] ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ (سورة التوبة، ٩/٧٧).

[2] ر – فمن، صح هـ.

[3] ر ش: بدأ.

[4] الآية ١٢٣ من هذه السورة.

[5] ك + عند.

[6] ر – هو.

[7] ر + غيره.

[8] ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٨٦)

[9] من الآية السابقة.

وهذا الجزاء بالعشر إنما هو في الآخرة. وأما الدنيا فكل ما يؤتى المؤمنَ فيها من الحسنات والخيرات والنعم[1] الإلٰهية فهو من لدن الله سبحانه كرَما غيرَ محسوب عليه في الدنيا. وأما عمله الصالح فيوفّيه اللهُ أجره يوم القيامة ويزيده كما وعد سبحانه.[2] فقد تحقق لك أن ما أصابك من حسنة في الدنيا هي من الله بلا شك. والسيئة التي أصابتك منه هي عقاب على ما بدا[3] من نفسك ولا تكون ابتداء منه بوجه إلا أن تكون ابتلاء[4] للأعواض. وقد بينا ذلك عند قوله تعالى: وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ.[5] وتلك لا تُعَدُّ سيئةً بل هي كالدواء المُرّ الذي تحلو عاقبتُه أضعافَ مَرارته وتتم للمرء به عافيتُه في دنياه وآخرتِه.

ولما نفى عن رسوله عليه السلام ما نسبوه إليه قال: **وأرسلنٰك للناس رسولا**، أي إنك لم تحملهم على سيئة، وإنما أنت رسول، وما أصابهم الله به إنما هو من جهة أنفسهم. **وكفىٰ بالله شهيدا**، أي على هذه الدعوى، وهو مطلق بعد هذا التخصيص.

[الرد على الجبرية والحشوية]

فانظر إلى هذا الكلام البيّن الواضح الواجبِ نصا وعقلا كيف قد غلط فيه ما شاء الله من الجهال، فضلوا وأضلوا واستمر الضلالُ في الضمائر والأقوال وإن خالفته الأفعال. وإنما وقع الغلط من قلة الفقه، ولهذا عابهم الله سبحانه بذلك. ومما أوقعهم فيما وقعوا فيه أن البارئ تعالى أراد نفي السيئة عن أن تكون من عند رسوله ولا بوجه. فظنوا أنه أراد إثباتَ أنها من عند الله بكل وجه ونفيَها عن أنفسهم وعما سوى الله من كل وجه. ولم يفقهوا أن إضافة شيء[6] إلى مذكور لا يلزم تخصيصُه به ونفيه عما سواه إلا بتفصيل دالٍّ. فلمّا فصّل بقوله: **وما أصابك من سيئة فمن نفسك**، صدّهم سوءُ النظر في الكلام الأول عن حسن النظر في الكلام الثاني. ثم استمروا حتى إذا جاء أحدُهم بالحسنة نسبها إلى نفسه فقال: صُمْتُ وصليت وتصدقت. وإذا جاء بالسيئة نسبها إلى ربه حتى خالفوا بصريح كلامهم صريحَ كلام الله تعالى. ثم ادّعوا أن مَن قال غير مقالتهم فقد خرج عن السنة. وعلماء السنة على ضد ما قال[7] هؤلاء.

---

[1] ش: فالنعم.

[2] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ (سورة النساء، ١٧٣/٤).

[3] ش: على ما بدأ.

[4] ر: ابتداء.

[5] سورة الذاريات، ٥٦/٥١.

[6] ر: الشيء.

[7] ش ك – قال.

وحاشا العالِمِ أن يخالف الله تعالى أو يؤمن ببعض القرآن دون بعض. والكلام محتمل الوجوه[1] جميعها لا يلزم عنه الإجبار. فمن ذلك ما جاء في تفسير ابن عباس رضي الله عنه.[2] وذلك أنه تعالى لمّا قال أولا: كُلٌّ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ،[3] فسره مفصلا بقوله[4] بعده: ما أصابك، وتمامِه. ومن ذلك أيضا أن قوله: كُلٌّ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ، هو بصورة الابتلاء، قال الله تعالى: وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ.[5] فالابتلاء بالحسنات كقوله: هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ،[6] وبالسيئات كقوله: وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ،[7] الآية. ومثل هذه الآية: وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ.[8] فالجميع ابتلاءٌ، غير أنه تعالى لا يبتلي بالشر إلا عقابا لعلهم يرجعون وهذا للكافرين؛ أو تكفيرا للصغائر وهذا لأصحاب اليمين، أو توفيرا وهذا للمقرَّبين. فهذا تقسيم أحد الأمرين وهو الابتلاء بالشر. والقسم الآخر هو الابتلاء بالخير فهو للكفار عذابٌ، كقوله: فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ،[9] الآية؛ ولأصحاب اليمين عدلٌ، كقوله: فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ؛[10] / وللمقربين فضلٌ، كقوله: لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ.[11] وإذا علمتَ أن جميع ما في العالم فتنة وابتلاء وأخذتَ نفسَك بذلك فقد وصلت إلى عظيم من المعاملة وفهمت هذا الموضع وغيره. [١١٨و]

والكلام في هذه الآية إنما هو فيما أصابك لا فيما أصبت. وههنا غلطُ مَن غلطَ. ولقد ذكر محمد بن الحسن بن فورك[12] رحمه الله في كتابه المعروف بالإرشاد[13] كلاما

---

١ ر: لوجوه.

٢ تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، ١٠١٠/٤. وانظر أيضا: جامع البيان للطبري، ٢٣٨/٧-٢٤١؛ والوسيط للواحدي، ٨٤/٢.

٣ من الآية السابقة.

٤ ر - بقوله، صح هـ.

٥ سورة الأعراف، ١٦٨/٧.

٦ ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾ (سورة النمل، ٤٠/٢٧).

٧ ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾ (سورة البقرة، ١٥٥/٢).

٨ سورة الأنبياء، ٣٥/٢١.

٩ ﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ (سورة التوبة، ٥٥/٩).

١٠ ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (سورة النحل، ٩٧/١٦).

١١ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ (سورة فاطر، ٢٩/٣٥-٣٠).

١٢ أبو بكر ابن فورك محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الإصبهاني، واعظ عالم بالاصول والكلام، من فقهاء الشافعية. سمع بالبصرة وبغداد. وحدّث بنيسابور، وبنى فيها مدرسة، وتوفي على مقربة منها سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م، فنقل إليها. له كتب كثيرة. منها: مشكل الحديث وغريبه، والنظامي في أصول الدين، والحدود في الاصول، وأسماء الرجال، والتفسير، وحل الآيات المتشابهات، وغريب القرآن (الأعلام للزركلي، ٨٣/٦).

١٣ لم أجد هذا الكتاب.

هذا نصه، فأثبتُّه ههنا وإن لم أكن ممن يقلِّد أحدا ولا دعوت إلى تقليدي أحدا، قال: تفسير[١] القدري أنه هو الذي يزعم أنه يقدِّر أعماله من دون الله ويخترعها بقدرته أرادها الله أو كرهها. وتفسير الجبري أنه هو الذي يزعم أن لا استطاعة للإنسان ولا كسْبَ، فإنه بمنزلة الباب الذي يُرَدّ والشجرة التي تُحرَّك، وأنه مضطر إلى كل ما هو فيه مُجبَر عليه. والجبرية خلاف القدرية، وكلاهما بدعتان.[٢] والصواب مخالفتهما، وهو القول بأن الله تعالى خالق لأعمالنا، ونحن مكتسبون لها، قادرون عليها، مختارون لها غير مجبَرين عليها ولا مضطرين إليها، وأن المكتسِب منا قادر على الحقيقة، مكتسِب على الحقيقة[٣] لِما خلقه الله كسبا له؛ هذا كلامه. فقد علمت أنه شاء الله أن تكون للإنسان مشيئةٌ يَشاء الإنسان بها ما شاء من خير أو شر فيما مكّنه الله فيه بدليل قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾؛[٤] وقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾.[٥] فلا تعتقدْ أن الله شاء أن يشاء الإنسان خيرا دون شر، أو شرا[٦] دون خير. فلا يقال لذلك مشيئة بل إلزام من الله لعبده بما لا بد له منه وهو الإجبار. ولمّا شاء الله أن يشاء العبد أَمَره باكتساب الطاعة لأن ذلك ممكن له، ونهاه عن ارتكاب المعصية لأن ذلك ممكن له[٧] مما مكّنه الله من القدرة على الشيء وضده من غير إلزام.

[القدر وعلم الله تعالى]

وأما ما علمه الله منه أنه سيكون بكسبه فلا بد أن يكون. لكن علم الله تعالى بما سيكون من زيد ليس هو السبب الموجبَ لِما سيكون من زيد، بل السببُ أن دعاه الشيطانُ فأجابه. والله تعالى عَلِمَ بما سيكون من إجابة زيد لشيطانه. فعلمُه سبحانه غيرُ موجِب ولا سبب لكون ما يكون من سيئات العباد. فإن العلم يَتّبع المعلوم ولا يغيّره ولا يكون سببا له. ولو كان سببا لكان تعالى أعدل من أن يأمرهم أو ينهاهم. وقد تقدم منه سببٌ لِما سيكون منهم خلافَ أمره ونهيِه. ولأنه تعالى لا يأمر بالمستحيلات التي ليست في مقدور المأمور، بل أَمَرهم بما مكّنهم منه وإن كان يعلم أنهم لا يفعلونه مع التمكين. ولكنه لا تزول حجة العباد عن الله إلا بالرسل ولا تَثبُت حجته عليهم إلا بتمكينهم.

---

١ ر: وتفسير.

٢ ر: بدعيان.

٣ ك - مكتيب على الحقيقة، صح هـ.

٤ سورة فصلت، ٤٠/٤١.

٥ سورة الكهف، ٢٩/١٨.

٦ ش ك: وشرا.

٧ ر - ونهاه عن ارتكاب المعصية لأن ذلك ممكن له، صح هـ.

ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾،[١] وتمامه، وقال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.[٢] وضَرب بعده المثلَ بإبليس وآدم لكونه مكّنهما.[٣]

فإن قلت: من المستحيل أن لا يكون ما علم الله أنه يكون من ذنوب العباد، فأمرُه لهم بأن لا يكون ما لا بد من كيانه أمرٌ بالمستحيل، ومن المستحيل أن يأمر الله بالمستحيل؟ فالجواب أن استحالة ذلك المستحيل إنما هي من حيثُهم مع قدرتهم وتمكينهم على ذلك وضده. والله تعالى علم ذلك فأمرهم لزوال الحجة بإيضاح المَحَجَّة.[٤] ولو كانت الاستحالة من حيثه لَمَا جاز أن يأمرهم. ولمّا كانت الاستحالة من حيثُهم أمرهم بغير مستحيل لهم قدرةً وإن كان مستحيلا منهم وقوعا. ومن المتّفَق عليه في سائر العقول أن المباح خالٍ عن الأمر والنهي، والتكليفَ مقيدٌ بهما. فالمباح يَلزم أن لا يلتزم العمل بأحد طرفيه فتلحقه الكلفة. وهذا مما لا يمكن دفعُه. وإذا لزم هذا لزم الكسبُ وانتفى الإجبار، وتحقق أن للعبد اختيارا في المباح بلا شك. فافقه هذا جميعه. وبهذا تَصحُّ جميعُ آياتِ القرآن ويزول الإشكال. فامْحُ من ذهنك آثارَ العوائد[٥] والتقليدِ يتضح عندك ما ذكرته لك إن شاء الله تعالى. وها أنا قد ضربت لك مَثَلا ترجع إليه في قوله تعالى: **ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك،** وفَهْمِ أمثال ذلك من جميع القرآن. فأقول: / لو أن ضالًّا في البَيْداء جاءه رسول من [١١٨ظ]
صاحب تلك الأرض رحمة له، فقال:[٦] اذهب يمينا تجد ماءً وثمرا، واحذر أن تذهب شمالا فهنالك سموم وحميم. فذهب الضال يمينا فوجد الماء والثمر. أليس[٧] ما وجده يُنسب إلى من وعده، فإن ذهب شمالا هل ينسب ما وجده إلى من حذّره وتواعده؟ والعلة في ذلك أن ما وجده الضال من الماء والثمر له نسبتان؛ إحداهما إلى من دلّ والأخرى إلى من ضلّ لكونه قَبِل، فإن خالف ذهبت إحدى النسبتين وبقيت الأخرى.[٨]

---

١ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (سورة الأحقاف، ٢٦/٤٦).

٢ ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (سورة الأعراف، ١٠/٧).

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير هنا إلى جملة الآيات الكريمة من سورة الأعراف، ١١/٧-٢٧.

٤ ر: الحجة.

٥ العادة (الجمع: عادات وعوائد): ما يعتاده الإنسان، أي يعود إليه مرارا متكررة (المنجد لِلُويس المَعْلُوف، «عود»).

٦ ش ك + له.

٧ ر: ليس.

٨ ر – وها أنا قد ضربت لك مثلا ترجع إليه في قوله تعالى... إحداهما إلى من دل والأخرى إلى من ضل لكونه قبل فإن خالف ذهبت إحدى النسبتين وبقيت الأخرى، صح هـ.

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ٨٠﴾

من يطع الرسول فقد أطاع الله، إنما سمي الرسول رسولا لرسالةٍ حملها. فلو فرضنا أن الرسول يأمر[1] بأمر من تلقاء نفسه خارجا عن الرسالة المحمولة معه من مرسِله، فهذا لا يقال له في ذلك الأمر المخصص "رسولا" لكون ذلك الأمر ليس من الرسالة، ولا يكون رسولا إلا بمحض الرسالة أو ما ينحو نحوها [و]لا يخالفها، فلهذا قال: **من يطع الرسول**. فقد علمت أن حديث الرسول لا يمكن أن يكون مناقضا للكتاب. ولهذا قال[2] [عليه السلام]: «فاعرضوه على كتاب الله فإن وافق فهو عني».[3] فما خالف فليس بحديث الرسول. ونحن إنما يجب علينا طاعةُ الرسول لأنها طاعة الله، فافهم ذلك. **ومن تولىٰ فما أرسلنٰك عليهم حفيظا.**

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١﴾

ويقولون، تقديره: أمرك، **طاعة**، أي طاعةٌ منا لك. **فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول**، لَمّا كانت عندك. **والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم**، إعراضَ صفحٍ. **وتوكل على الله وكفىٰ بالله وكيلا.**

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾

[القرآن: معنى عدم الاختلاف فيه]

يا هذا! تَدَبّرْ هذه الآية لتَفهمَ ما أراد الله تعالى بها. فإنها تدل على معان. منها بطلان التقليد وصحة الاستدلال في أصول الدين، لأنه حثّ ودعا إلى التدبر، ولا يكون ذلك إلا بالتفكر والنظر. ومنها أن ذلك يدل على فساد قول من يزعم أن القرآن لا يُفهَم معناه إلا بتفسير الرسول، وأن تفسيره نقلٌ سواء خالف المعنى المفهومَ من اللفظ أو لم يخالف، ووافق اللغة أو لم يوافق. فيدعي أن السنة فسرت لنا هذه الآية مثلا.

---

[1] ك - يأمر.

[2] ش - من يطع الرسول فقد علمت أن حديث الرسول لا يمكن أن يكون مناقضا للكتاب ولهذا قال، صح هـ.

[3] عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا إن رحى الاسلام دائرة»، قال: فكيف نصنع يا رسول الله؟ قال: «أعرضوا حديثي على الكتاب فما وافقه فهو مني وأنا قلته» (المعجم الكبير للطبراني، ٩٧/٢؛ وأحكام القرآن للجصاص، ٢٥٣/٢، ٢٠١/٤؛ وجامع بيان العلم لابن عبد العبر، ١١٩١/٢؛ وبغية الرائد للهيثمي، ٤١٤/١؛ وكشف الخفاء للعجلوني، ٨٦/١، ٤٢٣/٢).

مع أننا نجد[1] لفظ الآية له معنى غير معنى ما جاءت به السنة المشار إليها بأنها مفسِّرة. ومن ذلك أنه لو كان من عند غير الله لكان على قياس كلام العباد من وجود الاختلاف فيه. ومنها أنه يدل على أن كل مختلِف من كلام فليس بكلام الله تعالى ولا من فعله، إذ لو كان من فعله لكان من عنده؛ بل هو من كسب العباد وأفعالهم ومن عند أنفسهم بالقوة التي وهبهم الله التصرفَ بها في ذلك وضدِّه. ومنها أنه تدلك هذه الآية على أن ليس في القرآن منسوخ كما قيل -وإن جاز أن يكون فيه منسوخ كما شرطنا[2]- لأنه تعالى أشار إليه جميعِه،[3] ولا معنى للمنسوخ إلا أن يكون الناسخ مخالفا له. فمتى كان فيه منسوخ وناسخ لزم أن يكون فيه اختلاف، والله تعالى قد نفى ذلك وتحدى به. والذين وجدوا في الكتاب ذلك وجدوه لتقصير الأذهان فاضطروا إلى نسخ بعضه ببعض لئلا يلزم الاختلافُ. واشتبه عليهم عدة مواضع، ولهذا اختلفوا أيضا في المنسوخ؛ وبعضهم[4] يزعم أنه غير منسوخ، وبعضهم لا يوافقه. وإذا لم يكن معهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم نقلٌ فلا تقليد لغيره. فاختلفت الأقوال لاختلاف الأذهان. ومن تدبر هذه الآية نجا من جميع ما قدمنا في الكلام عنها. والحمد لله رب العالمين.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٣﴾

قوله تعالى: وإذا جاءهم، أي في القرآن،[5] أمر من الأمن أو الخوف، تقديره يزعمون أن فيه اختلافا، أذاعوا به، أي بالاختلاف. لأنهم كانوا يعتقدون ذلك سرًا ولا يذيعون ذلك، فلمّا جاءهم موجب ظاهرٌ يقيم عذرَهم فيما أسرّوه من اعتقاد الاختلاف أذاعوا به. والمراد إذا جاءهم في القرآن، وهو كقوله في الأنعام: وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ.[6] وقوله: أمرٌ، أي شيءٌ كما تقول: جرى أمر عجيب. ولمّا كان[7] جُلُّ ما جاءهم في القرآن إما أن يعود إلى أمنٍ أو خوف قال ما معناه: وإذا جاءهم في الكتاب شيء من الأمن،

---

[1] ك: تجد.

[2] انظر: تفسير الآية ١٠٦ من سورة البقرة.

[3] أي في هذه الآية.

[4] ش: فبعضهم.

[5] ش - أي في القرآن، صح هـ.

[6] ﴿وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ﴾ (سورة الأنعام، ١٢٤/٦).

[7] ر: ولما جاء.

/أو من الخوف، أي مما يوجب أحدَهما وهو مختلف في أذهانهم. فالإشارة إلى ما [١١٩و]
كان ينزل من الوحي، وهو ما يوجب الخوف أو الأمنَ[١] من الله أو من الناس. وهذا مبالغة في الحصر، إذ كل ما يأتي في كتاب الله لا بد أن يصل إلى أحد هذين القسمين. وقوله: **أذاعوا به**، هو كما تقول: أعلنوا به. والمعنى أذاعوا[٢] بالاختلاف. ولهذا لم يقل: أذاعوه لئلا يعود على الأمر، ودليله قوله بعده: **ولو رَدّوه إلى الرسول**، أي ولو رَدّوا الاختلافَ. وهذا في المعنى ملحق ومماثل لقوله من قبل: فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ.[٣] وقوله: **وإلىٰ أولى الأمر منهم**، يعني بعد الرسول. **لعَلِمَه الذين يستنبطونه منهم**، أي من أولي الأمر، أي إنّ[٤] من جملة أولي الأمر قوما يستنبطون العلم من أنفسهم. فلو رد هؤلاء[٥] القوم ما ظنوا أنه مختلف في كلام الله إلى أولي الأمر منهم بعد الرسول لَعَلِمَه مِن أولي الأمر قومٌ يستنبطون عِلمَه من أنفسهم وأعلموهم به لزال الاختلافُ الذي أوجبه في كتاب الله سوءُ فهمِ هؤلاء. ولم يقل: لَتعَلَّمه بل، **لَعَلِمَه**. فتَأَنَّ لتفهمَ تفصيلَ ذلك.

ولمّا كان أولو الأمر بعضُهم قد لا يعلم فضلا عن أنه يستنبط التأويلَ والمعنى المقصودَ ذكر من يستنبط منهم لِيَلزم أن يكون عالِما ولئلا يعود العلم منسوبا إلى جميع أولي الأمر. بل العلم المقصودُ الذي يزول به الاختلاف هو عند العالِم المستنبِط. ولو قال: ولو ردوه إلى المستنبِطين لعلموه لكان كافيا لكنه لم يقل. لأن الجمهور لا يعرفون المستنبِطَ من العلماء ولا يفرِّقون بينه وبين غيره منهم وإن عرفوا العلماءَ الذين منهم المستنبطُ وغيره. فافهم. والنَّبَط أول ماء[٦] يخرج من البئر الجديدة إذا حُفرت. فهو يشير بهذه اللفظة إلى قومٍ علماءَ مِن أولي الأمر يظهر منهم علمٌ لم يكن ظهر من قبلُ فتحيا به قلوبُ المتعلمين كما تحيا الأرض بالماء. وكما أن هذا الماء نَبَطٌ كذلك ما علموه مما أزال الاختلافَ من كلام الله نبَطٌ استنبطوه من أنفسهم. ومن هذا القبيل يكون[٧] ظهور الإمام القائم بالحجة، وهو الذي يزيل الاختلاف من بين الأئمة رضي الله عنهم، لأن اختلافهم إنما هو مبني[٨] على ما فهموه من الكتاب في أكثر الأمر

[١] ش: الأمن أو الخوف.
[٢] ر: ادعوا.
[٣] الآية ٥٩ من هذه السورة.
[٤] ر – إن، صح هـ.
[٥] ش: لهؤلاء.
[٦] ش ك: أول ما.
[٧] ر – يكون.
[٨] ش: هو منبئ.

لا على اختلاف هو في الكتاب. ولمّا لم يجز لأحدهم أن يقلِّد ولا أن يكتمَ ما فهمه سَطَرَه وسَطَر الدليل عليه. فجاء المجتهد من بعدهم فوجد الأدلة فنظر فيها بغير تعب على تحصيلها، فعاد اختلاف الأئمة رحمة على المذكور وعلى متبعيه من هذا القبيل -وإن جاز من وجوه أُخَر- فصار المفهوم من هذه الآية مرتبطا بما تقدمها. وذلك أنه تعالى لمّا قال: **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلٰفا كثيرا**، حذف ما معناه: "وإنهم الآنَ وفي مستقبل الزمان ليزعمون أن فيه اختلافا؛ وإذا جاءهم فيه شيء سواء كان مما يؤمِّن أو يُخيف ورأوا الاختلاف فيه بحسب نظرهم أذاعوا به وأظهروا ما خطر ببالهم من الاختلاف". فهذا هو مدلول اللفظ.[١]

وكل لفظ يترجح فيه إفهامٌ ظاهر فلا يجوز لنا أن نحمله على مؤوَّله الأخفى[٢] إلا بمرجِّح يصير به الأخفى أرجح من الظاهر، وإلا لزم ترجيح المرجوح. فالمقصود هو الإنباء بهذه الآية عن اختلافهم في القرآن بسبب عدم التدبر ولزوم التكبر على العلماء المستنبطين. ودليل ذلك قوله تعالى: عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ،[٣] وتمامُه. فإن قيل: إن تلك الآية تدل[٤] على اختلاف في جملته، وهذه الآية في سورة النساء تدل على اختلاف يوجد في بعضه؟ قلنا: متى وُجد في البعض لزم في الكل، وليس كذلك، ولكنهم ظنوا ذلك اختلافا. ولو ردوا ذلك الذي ظنوه اختلافا إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم بعد الرسول لَعَلِمَه من جملةِ أولي الأمر قومٌ أفرادٌ خصهم الله بالاستنباط، ثم أعلموهم به فآمنوا. ولهذا قال بعد ذلك: **ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطٰن إلا قليلا**، أي لاتبعتموه في جُلّ أموركم. وقال / الجرجاني:[٥] المعنى ولولا فضل الله [١١٩ظ]
عليكم ورحمته إلا قليلا منكم لاتبعتم الشيطان. فالقليل متّبِع لكونه لم يستحقّ الفضل والرحمةَ.[٦] والأول أرجح مع جواز الثاني.

﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾

---

١ ر ك: للفظ.

٢ ش ك: على مؤوله إلا خفي.

٣ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ (سورة النبأ، ٧٨/١-٣).

٤ ك: يدل.

٥ أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، واضع أصول البلاغة. كان من أئمة اللغة. من أهل جرجان (بين طبرستان وخراسان). من كتبه: أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، والجمل في النحو، وإعجاز القرآن. توفي سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م (الأعلام للزركلي، ٤/٤٨-٤٩).

٦ لم أهتد إلى هذا القول فيما بين يدي من المصادر.

ولمّا كان أول الكلام أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ، ثم قال: فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ... وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ،[١] وتمامه نسق عليه بالفاء [قوله:] **فقتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا**، أي عسى الله أن يكف بأسهم بغير قتال. **والله أشد بأسا**، من بأسهم، **وأشد تنكيلا**، بهم من تنكيل المؤمنين بهم، فإما أن يكفَّ بأسهم أو يَنصرَكم عليهم.

﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾

وقوله: **من يشفع شفٰعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفٰعة سيئة يكن له كفل منها**. لمّا أمر الله تعالى بأن يقاتل ويحرّض المؤمنين -والتحريض أبلغ من التحريض فهو الحَثّ والإحماء- كان ذلك إنباءً[٢] على أن كل إنسان مكلف بنفسه ومُثابٌ على عمله وكسبِه في قوله وفعله. فأمره بالفعل أولا ثم مثّل له بالقول وهو أدنى مراتب القول الذي يجوز أن يقع منه نفعٌ للغير تنبيها على أن الله يجزي على الشفاعة، فكيف لا يجزي على بذل النفس في القتال. ولما قال أولا: **نصيب**، قال ثانيا: **كِفْلٌ**، لئلا يتكرر. وهذا كقوله في البقرة: وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ،[٣] وهو النصيب، ثم قال: أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ؛[٤] فغيّر اللفظ لئلا يتكرر أيضا. ومعنى "كِفْل" حِمْلٌ، ومنه كافل اليتيم،[٥] ومنه الكفيل، وهو ضامن المال من[٦] المديون لرب الدَّين. وإذا كان بضم الفاء في المستقبل[٧] فهو من كافل اليتيم، [كقوله:] هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ.[٨] فذو الشفاعة السيئة له حمل يحمله منها كقوله: فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا،[٩] وكقوله: وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا.[١٠] ولهذا بعده ههنا: **وكان الله علىٰ كل شىء مقيتا**، وهو من القُوت. والقوت عبارة عما يسدّ الرَّمق وهو لا بد منه بمقدار لا يزيد ولا ينقص. فهو استعارة تدل على جزاء. فافهمه.

١ الآية ٧٧ من هذه السورة.
٢ ك: إنباء.
٣ ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٠٠).
٤ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٠٢).
٥ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم: «أنا وكافلُ اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرّج بينهما شيئا» (صحيح البخاري، الأدب ٢٤؛ وصحيح مسلم، الزهد ٤٢).
٦ ش: عن.
٧ أي في صيغته المضارع.
٨ ﴿إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾ (سورة طه، ٢٠/٤٠).
٩ الآية ١١٢ من هذه السورة.
١٠ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٨٦).

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ٨٦﴾

ثم ذكر بعد القول الحسن الذي هو الشفاعة الحسنة قولا آخر هو دونه في الرتبة وهو السلام. إذ الشفاعة قد تُقبل فتَدفع بها عن صاحبك سوءَ ما، والتحيةُ إنما هي لفظ فقط، وليست كسؤال في إنسان أخطأ ليُصْفَح عنه مثلا. فذكر ما نبّه به على هذا المعنى الذي هو لفظ فقط لكنه حسنٌ فقال: **وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها.** وقوله: **أو رُدُّوها**، ذلك حسنٌ بحسن[1] والأحسن أفضل. ثم قال: **إن الله كان علىٰ كل شيء حسيبا**، أي محاسبا، حتى القول الحسن إذا قيل لكم فلم تُعطُوا صاحبه حقه بخير منه أو بمثله فإنه يحاسبكم ويجازيكم على ذلك. وقدم الأحسنَ ليأمر به. ثم قال: **أو ردوها**، لنعلم أن ردَّها بعينها حق واجب علينا لا أقلَّ منه، ولنعلم أنه إذا كان ذلك في هذا فكيف في غيره، وليعرِّفَنا أن بعض الناس هو أولى بأن نُحَيِّيه[2] بأحسن مما حيّانا به، كالمؤمن وكمن يعلو علينا بالعلم والدين، أو السن وغير ذلك، ولِيُنَبِّهْ على أن البادئ أكرم. فالأولى أن يقابل بالأحسن. وإن من الناس من نرد عليه تلك التحية بعينها كأهل الكتاب وبعض المؤمنين أيضا. وكل ذلك تعريف لنا بالجزاء للإنسان على ما يصدر منه كان ما كان. وهذا الكلام في المعنى راجع إلى قوله: فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَ،[3] أي فإن الله لا يُضيع لأحد شيئا حتى ولو كانت شفاعةٌ، حتى ولو سلام. لهذا قال: إنه تعالى على كل شيء حَسِيب ومُقيت.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾

ثم قال: **الله**، هو الذي، **لا إلٰه إلا هو**،[4] أي فكيف لا يكون على كل شيء حسيبا ومُقيتا ليجزي عليه؟ ولهذا بعده:[5] **ليجمعنكم**، في القبور، **إلىٰ يوم القيٰمة**، ويجازيكم بما[6] أسلفتم في الدنيا وعدا، **لا ريب فيه ومن أصدق من الله**، أي لا أحدَ أصدقُ منه، **حديثا**.

---

١ ك: يحسن.
٢ ك: بأن نحيّه.
٣ الآية ٨٤ من هذه السورة.
٤ ش ك – هو الذي لا إلٰه إلا هو، صح هـ.
٥ ك + هو الذي لا إلٰه إلا هو.
٦ ش ك: بهما.

﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾

[١٢٠و] ثم قال ما تقديره: / وإذا كان الأمر كذلك وقد تحقق عندكم أيها المؤمنون، **فما**، ذا، **لكم في المنفقين فئتين والله أركسهم**، الركس رد الشيء مقلوبا، **بما كسبوا. أتريدون أن تهدوا من أضل الله.** اعلم أن هذا الكلام[١] جُلّه في المنافقين. وذلك من عند قوله: أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ...[٢] ثم نسق الكلام على هؤلاء وأمثالهم ثم بيّن ههنا بعد قوله: إن الله حسيب[٣] ومقيت[٤] وجامع الناس[٥] ليجازيهم،[٦] فقال: **فماذا لكم في فئتين منافقين**، أي ما لكم في موالاتهم ولم تَبُثّوا[٧] القولَ بكفرهم. وبين أنهم فئتان، ونَصَب على البدل[٨] وأوضح حالهم في المستقبل بقوله بواو الحال: **والله قد أركسهم** بذنوبهم. **ومن يضلل الله**، في الدنيا عقابا له، **فلن تجد له سبيلا**، إلى هدى. وآخر الآية الثانية يدل[٩] على أن المؤمنين كانوا يتخذون منهم أولياء وأنصارا. فنهاهم الله بقوله أولا وقوله أخيرا.

﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾

ثم أخذ يصف المنافقين بما يحذّر به المؤمنين في إخباره عن المنافقين وينبئهم ببواطنهم فقال: **ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء**؛ وهذا دليل لقوله: فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ.[١٠] **فلا تتخذوا منهم**، [من] لتبيين الجنس، **أولياء حتىٰ يهاجروا في سبيل الله.** عرّفنا أن أقوالهم لا تَفيء لهم بدعوى الإيمان حتى تتبعها أفعالُهم بالهجرة. **فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم**، [من] للتبعيض، أي ولا واحدا، **وليا ولا نصيرا**، أي إن لم يهاجروا.

---

١ ر – الكلام، صح هـ.

٢ الآية ٦٠ من هذه السورة.

٣ يشير المؤلف إلى الآية ٨٦ من هذه السورة.

٤ رك: مقيت. | يشير المؤلف إلى الآية ٨٥ من هذه السورة.

٥ يشير المؤلف رحمه الله إلى الآية السابقة.

٦ رك: ليجازيكم.

٧ ر: ولم نبثوا.

٨ بل كلمة "فئتين" في موضع الجر على البدل من "المنافقين".

٩ ر: تدل.

١٠ ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ (سورة فصلت، ٩/٤١-١٠).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾

ثم استثنى من القتل لا من النهي عن الموالاة فقال: **إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثق**. ثم استثنى مفصلا بقوله: **أو جاءوكم**، تقديره وقد، **حصرت**، ضاقت، **صدورهم**، عن، **أن يقتلوكم**، مضافين إلى قومهم، **أو يقتلوا قومهم**، مضافين إليكم، أو على الإفراد.[1] فعرّفنا أولا أن من الذين أمَرنا بقتالهم حيث وجدناهم قوما نجدهم[2] قد وصلوا إلى قوم بيننا وبينهم ميثاق وعهدٌ، فلا نقتل أولئك بل حكمهم حكم المعاهدين. ثم عرّفنا بعد ذلك بقوله: **أو جاءوكم**، أي جاءوكم معتزلين قتالكم، **وألقوا إليكم السلم**، وهو من السِّلْم الذي هو ضد الحرب. وقوله: **ولو شاء الله لسلّطهم عليكم فلقتلوكم**، إشارةٌ إلى القسمين أنهم قوم أولو بأس يمكنهم قتالكم. واللام في "لسلطهم" جواب "لو". وقوله: **فلقتلوكم**، تقديره ولو سلطهم لقاتلوكم، فاستثنى بالفاء عن "لو" التي قدمها. فانظر إلى هذه الفصاحة واعرف بها مثلَها. ثم بعد ذلك قال: **فإن اعتزلوكم فلم يقتلوكم وألقوا إليكم السلم**، دائما، **فما جعل الله لكم عليهم سبيلا**، طريقا إلى قتال بوجه من الوجوه. وهذا لجواز أنهم قد يرجعون إلى الإسلام وليس لنا في بقائهم مضرة. وإنما عبر بهذه العبارة وقال: **فما جعل الله لكم عليهم سبيلا**، أي في أزواجهم وأموالهم وغير ذلك ليعرّفنا أن هؤلاء ليسوا من القوم المشركين الذين [قال الله تعالى] في حقهم: ٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ،[3] لأن هؤلاء ما جعل لنا عليهم سبيلا. وهذا أيضا من جملة الحكمة الإلٰهية والرفق بهم وبنا، لأنهم إذا علموا مثل ذلك كَفُّوا أيديهم عن القتال كلُّهم أو بعضهم فكفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ.[4] فافهم وقف وتدبر الآيات لئلا تظن هذه الآية منسوخةً.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾

---

١ ر: أو على الانفراد.

٢ ش ك – نجدهم.

٣ ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ (سورة التوبة، ٩/٥).

٤ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٢٥).

ثم قال: **ستجدون ءاخرين يريدون أن يأمنوكم**، حيلةً منهم عليكم، **ويأمنوا قومهم**، وهؤلاء غير الأول وهم القسم الثاني من المنافقين المشارُ إليهم قبلُ بقوله: فِئَتَيۡنِ.[١] فافهم. وهؤلاء هم المذكورون في آخر الأنفال،[٢] وهم المنهي عن موالاتهم حتى يهاجروا، وهم المذكورون في أول براءة،[٣] فاعرفهم. وكرر الآيات ههنا وهناك إلى أن تَفهم من النص لا من كلامي. وافهم ههنا أن[٤] مِن الفئة الواحدة قوما وصلوا إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق فلهم أسوة بهم. ومنهم قوم جاءوكم وقد حصرت صدورهم عن القتال لا لكم ولا لقومهم مع قدرتهم على القتال. وقوله: جَآءُوكُمۡ،[٥] أي جاءت رسلهم. وأما الفئة الثانية ما حَصِرت صدروهم عن القتال بل أرادوا الأمان لأنفسهم / حينا مّا حيلةً عليكم. ولهذا قال: **كلما رُدُّوا إلى الفتنة أُركسوا فيها**، [١٢٠ظ]
أركسهم الكفار في الفتنة التي هي ههنا فتنة القتال. ولما كان هؤلاء قد يقاتلون بعد طلب الأمان مدةً وإن لم يكونوا مضافين إلى الكفار قال: **فإن لم يعتزلوكم ويُلْقُوا إليكم السّلَم ويكُفُّوا أيديهم فخذوهم**، بكل صورة، **واقتلوهم حيث ثقفتموهم**، في الحرب وغيره.[٦] وهؤلاء قوم إذا استنجدهم الكفار أنجدوهم[٧] على المؤمنين. والفئتان من أقسام المنافقين. لكن الفئة الأولى تنقسم إلى قسمين. وانظر إلى حكمة قوله عن هؤلاء: **حيث ثقفتموهم**، ولم يقل كما قال عمن تقدم: حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ،[٨] يريد ههنا حيث ثقفتموهم في الحرب خاصة، أي[٩] ولا تأسروهم. ويُفهَم من هذا أن هؤلاء أيضا لو وصلوا إلى قوم بيننا وبينهم ميثاق فوجدناهم لا نقتلهم إلا حيث ثقفناهم. فافهم ذلك وحكمتَه لئلا تتناقض الآيات. ثم قال: **وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطٰنا مبينا**.

---

١ الآية ٨٨ من هذه السورة.

٢ يشير المؤلف رحمه الله إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ﴾ (سورة الأنفال، ٧٢/٨).

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ﴾ (سورة التوبة، ٥/٩).

٤ ر – أن، صح هـ؛ ش ك – إلى أن تفهم من النص لا من كلامي وافهم ههنا أن.

٥ من الآية السابقة.

٦ ش ك – وغيره.

٧ أنجد: أغاث (لسان العرب، «نجد»).

٨ الآية ٨٩ من هذه السورة.

٩ ر ك – أي.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾

ولما ذكر اقسام الكفار والمنافقين قال بعده: **وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا**، أي متعمدا، **إلا خطئا**، والخطأ ضد التعمد، والمعنى إلا إن قتله خطأ. **ومن قتل مؤمنا خطئا فتحرير**، من الحرية، **رقبةٍ مؤمنة**، لمّا لم يقل: مسلمة دل على أنها بالغة، لأن غير البالغ هو على الفطرة، والإيمان غير ذلك. ويجب أن يكون تحرير الأنثى بالأنثى[١] والذكر بالذكر، فإما بالمِثْل أو بخير منه. **وديةٌ**، أيضا، **مسلمة إلى أهله**. وقوله: **مسلمة**، ولم يقل: يسلّمها إشعارا لنا أن القاتل خطأً إن قدر على الدية أداها أو بعضها بحسب قدرته، والباقيَ يُتَمّم بعضُ المسلمين تكملتَه من بيت المال أو من بينهم. وإن لم يكن له شيء فالجميع من المسلمين إن لم يكن في بيت المال ذلك أو بعضُه، **إلا أن يَصَّدَّقوا**، أهلُ المقتول على القاتل بالدية سواء كان القاتل[٢] غنيا أو فقيرا. **فإن كان**، المقتول، **من قوم عدو لكم**، أي عدو كان من الكفار وقد أسلم دون قومه، لهذا قال: **وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة**، فقط. ولا يقال: إن المسلمين عدو للمسلمين لقوله تعالى: هُمُ ٱلْعَدُوُّ.[٣] ويزيدك بيانا أنه لم يجعل لهم ههنا ديةً لأن المال يقوّيهم على المسلمين، فإن كانوا مسلمين لكنهم بغوا فقد أباح الله قتالَهم وقتْلَهم في ميدان الحرب. وههنا فقهٌ لا يخفى على الفقيه إذا نظر في كتاب الله تعالى وفَقِه منه. ثم قال: **وإن كان**، ذلك المقتول ولم يشرط الإيمان بل، **من قوم بينكم وبينهم ميثق**، أي وهم غير مسلمين[٤] أيضا كاليهود وغيرهم من المعاهدين إذا كانوا غير أعداء في ذلك الوقت بل تحت ميثاق، **فدية مسلمة إلى أهله**. هذا إذا كان كافرا من معاهدين، وإن كان مؤمنا من معاهدين فهم كالأعداء وليس لهم دية. ويزيدك بيانا أن الكافر لا يرث المؤمنَ.

---

١ ر – بالأنثى.

٢ ش – بالدية سواء كان القاتل، صح هـ.

٣ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (سورة المنافقون، ٦٣/٤).

٤ ك: مسلمون.

ولو كانت الدية تجب ههنا لبيت المال لوجبت على قاتل المؤمن خطأً من عدو، فلم يذكرها فيه بل ذكرها إذا كان المقتول كافرا من معاهدين.

وقوله: **وما كان لمؤمن**، ليس المقصود بالآية بيانَ حرمة القتل حتى يكون الاستثناء يقتضي الإباحةَ، لكن المقصود بيان المؤاخذة كما بينه أخيرا. فكأنه قال: وما كان أبدا في زمن أو شرع لمؤمن أن يقتل مؤمنا فلا يؤاخذَه الله[1] إلا إن قتله خطأً فلا يؤاخذه[2] عليه كيت وكيت. **وتحرير رقبة مؤمنة. فمن لم يجد**، الرقبة المذكورة في ثلاثة[3] مواضع، **فصيام شهرين متتابعين توبة من الله**. لأن ذلك لم يقع على يده، أعني قتل المؤمن خطأً إلا بسبب قدّمه وظلم نفسه فيه فعاقبه الله تعالى بأن قبض على يده حتف ذلك المؤمن أو ذي الميثاق، فليتب من كل ذنب وليتب من حركة تشبه الصورة التي وقع منه بها الخطأ الموجب للقتل بأي صورة كان.

فإن قيل هذا الكلام قد بان منه حكمُ مَن قتل مؤمنا خطأً. فإن قتله عمدا وكان المقتول ممن لا يجوز أن يُقتل به قاتلُه فماذا[4] عليه؟ قلنا: عليه غضب الله ولعنتُه في الدنيا، / وأَعدّ له في الأخرى ما ذكره في الآية. ولكنه على كل حال يجب أن يتوب [١٢١و]
ويرجع فتكونَ عليه الديةُ وتحرير الرقبة المؤمنة بصورة ما قاله الله تعالى في قتل الخطأ، وأمرُه إلى الله فيما يعاقبه به أو يعفو عنه. وإنما يلزم من أراد التوبة أن يفعل فِعْلَ مَن قتل خطأً وعلى ترتيبه. وذلك أنه[5] إذا لزم ذلك في قتل الخطأ فلا أقل من مثله في العمد، لأن الحكم في ذلك ليس إلا إما قصاص أو دية وتحرير. وقد امتنع القصاص إلا ما بينه الله في المثلية وما يلزم عن قوله: ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ[6] وتمامه. فهذا حكمه إن تاب. ومن لم يتب، **فجزاؤه جهنم خُلدا فيها**. ويَبين لك أن له توبةً من آخر الفرقان وآخر الزمر في قوله: إِلَّا مَن تَابَ[7] وفي قوله: لَا تَقْنَطُواْ.[8] وما أحسن ما أفتى الرجلين إذ سألا سؤالا واحدا: هل يُغفر لقاتل المؤمن عمدا، فقال لأحدهما: نعم، وللآخر: لا. فلما سُئل عن ذلك قال: إن الأول كان قد قتل والثاني يريد أن يقتل.

---

١ ش: فلا يؤخذه إليه.
٢ ش - إلا أن قتله خطأ فلا يؤاخذه، صح هـ؛ ك - الله إلا أن قتله خطأ فلا يؤاخذه، صح هـ.
٣ جميع النسخ: الثلاث.
٤ ش ك: فما.
٥ ك - أنه، صح هـ.

٦ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ (سورة البقرة، ١٧٨/٢).
٧ ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ (سورة الفرقان، ٧٠/٢٥).
٨ ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (سورة الزمر، ٥٣/٣٩).

فإن قيل: من أين نعلم[1] دليل حكم المقتول إن كان كافرا؟ قلنا: لا يخلو إما أن المقتول الكافر من قوم عدوٍّ أو معاهَدين. فإن كان من عدو فذلك قربة إلى الله إذا قُتل في الحرب. فأما إن كان قد أتى مستجيرا بنا أو على حالة غير حالة الحرب فقُتل فحكمه حكم المؤمن من عدو، أعني التحريرَ دون الدية. وإن كان من معاهدين فعلى قاتله ديةٌ مُسلَّمة إلى أهله، وتحريرُ رقبةٍ مؤمنةٍ في الخطأ والعمد.[2] ولكن في العمد يجب عليه تأديبُ الحاكم بما يراه أيضا. والدليل على ما قلناه كونُه تعالى لم يشترط الإيمان فيُثْبِتَه في القسم الثالث، وذلك لنعلم[3] ما يجب على قاتل المعاهَد الكافر. ولا يلزم من ذلك مثلُه إذا كان المقتول مؤمنا وقد قُتل خطأ لما بيناه من أن قتْل المؤمن من الكفار العدو ليس[4] على قاتله سوى التحرير، والكافر المعاهد لا يرث المسلم. ولو وجبت دية على قاتل المؤمن من القوم المعاهدين لبيت المال لوجبت لبيت المال[5] على قاتل المؤمن من قوم عدو. فافهم متأنيا محرَّرا ولا تَغْلَط. فإن قُتل المؤمن من المعاهَدين عمدا وكان القاتل ممن لا يُقتل به فقد بيناه.

فإن قيل: ما الدليل على أن القول في "من لم يجد" أراد به مَن[6] لم[7] يجد الرقبة ولِم لا يكون عائدا على الدية والرقبة، أو على الدية فقط كما جعلتَه على الرقبة فقط؟ قلنا: الرقبة قد ذُكرت مع دية ومع غير دية، وتحريرها[8] هو لله سبحانه والصوم أيضا لله. وأما الدية فهي مسلَّمة إلى أهل القتيل، ولا يكون صوم القاتل توبةً عليه من أهل المقتول. ولهذا قال: **توبةً من الله**، أي يتوب الله بها على القاتل. والدليل الواضح نصا أنه أخّر ذكْرَ الرقبةِ الأخيرة في هذه الآية،[9] وقد قدمها أولا وذكرها وسطا بين الرقبتين بغير دية، وعبر عن المواضع الثلاثة بقوله: **فمن لم يجد**. فافهم هذا جيدا، وانظر إلى هذا الكلام التام المشتمل في فنِّه على سائر الأحكام في هذا الأمرِ المخصِّصِ العامَّ مع الإيجاز والإعجاز والإفحام. فقد بان لك حكمُ قتلِ المؤمن خطأ من مؤمنين أو من عدو، وقتلِ الكافر خطأً أو تعمدا من الكافرين أو من المعاهَدين. ولزم منه ومما قبله معرفةُ الحكم إن كان المقتول من المعاهَدين مؤمنا وقُتل[10] خطأ. ولهذا قَيّد في الموضعين بقوله:

---

١ ش: تعلم.
٢ ر: أو العمد.
٣ ش: لتعلم.
٤ ش ر: وليس.
٥ ش ك – لوجبت لبيت المال.
٦ ش ك – من.
٧ ر – لم.
٨ ش ك: وتحرير ههنا.
٩ ر ك – الآية.
١٠ ش: وقيل.

وهو مؤمن، ولم يقيد في الثالث. فذكر أولا مؤمنا من مؤمنين، ثم مؤمنا من كفارِ عدو، ثم مقتولا من قومٍ بيننا وبينهم ميثاقٌ، ولم يعين الإيمان، فلزم أن يكون كافرا، لقوله: إِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۚ،[١] وعُلم حكمه إن كان مؤمنا مما تقدمه. فافهم جيدا. ولا تقل: إذا أَوْجَبْنا[٢] الديةَ والرقبة على قاتل الكافر من المعاهدين، فذلك على قاتل المؤمن من المعاهدين[٣] أوجبُ. ولما بين هذه الأحكام العجيبة قال أخيرا: وكان الله عليما حكيما، فلا تظنَّ العليمَ الحكيم أغفل حكما فلا تَغْفُلْ في كلامه عن حكم. ويجب أن تعلم أن ما ذكره في البقرة من القصاص في القتلى[٤] بيَّن فيه قتلَ العمد دون الخطأ، وذكر من يستحق القتل هناك. ولما كان من لم يستحق القتلَ / ممن ذكره في البقرة وقد قتل عمدا تَلزمه [١٢١ظ] ديةٌ وتحرير بيّن حكمه في هذه السورة بطريق المفهوم فهو لازم من حكمِ مَن قتل خطأ. إذ القاتل خطّاءً قد لزمه ذلك، فبالأولى أن يلزم المتعمّد الذي لا يلزمه القتل. فمن البقرة يُعلم حكم القتل الذي هو القصاص دون الدية، ومن ههنا يُعلم حكم ذي الدية دون القصاص بالقتل. وفي البقرة إذا تَعمَّد مَن دونه عليه الدية من ههنا، إذ لا قتل عليه، وههنا إذا أخطأ فيمن فوقه أو مَن دونه عليه الدية والتحرير.

فأما الدية فلا أَعرِف من الكتاب ما مقدارها ولم يعين المقدارَ، بل ذكر اللهُ دية منكَّرة لا معرَّفة لتقع المراضاة على مقدار الإمكان والوسع، وإلا فقيمة المؤمن أغلى[٥] وقدره أعلى. وأَوْلى ما عاد المحقِّقُ إليه في ذلك سنةُ الرسول صلى الله عليه وسلم فيما استفاض عنه كما استفاض مقدارُ الزكاة وركعاتِ الصلاة وإن لم يكن المرء مقلِّدا في الأصل في المقدار والتفصيل. واللفظ يعطي مع العقل أن لكل قتيل ديةً بحسب المقتول والقاتل، ولكل عضو قيمةً بحسبها. وكلٌّ يقال له دية ولا يخالف الكتابَ، كما أن التحرير واحد وإن اختلفت أثمانُ الرقاب. والله أعلم بالحق وأحكم بالصواب.

﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ٩٣﴾

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ (سورة المائدة، ٥/٥١).

٢ ك: إذا أوحينا.

٣ ش – فذلك على قاتل المؤمن من المعاهدين، صح هـ.

٤ يشير المؤلف رحمه الله إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٧٨).

٥ ش ك: أعلى.

هذا هو جزاؤه. ويغفر الله ما دون الشرك لمن يشاء،[١] ويغفر الذنوب جميعا،[٢] لكن مع الإنابة والإسلام واتباعِ أحسن ما أُنزل. وهو في صريح كلام القرآن وفي المفهوم من باطن المعنى أحسنُ التأويلات التي تلوح في الأذهان من المفهوم عن ألفاظ القرآن. والذي يلزم هو أن تكون هذه الآية مخصوصة بمن لم يتب ومات[٣] عن غير توبة. وأما التائب فحكمُه في آخر الفرقان.[٤] وإنما جاء هذا الكلام ههنا على صورة التخويف العظيم وهو غير مناقِض. وذلك أنه تعالى أخبر أن جزاء القاتل متعمدا هذا فهو يستحقه، ولله تعالى أن يعفوَ عنه. فلا يلزم من كون أن هذا هو الجزاءَ أن الله لا يغفر لمن يشاء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾﴾

ولمّا حذّر مِن قتل المؤمن قال تعالى: **يٰأيها الذين ءامنوا إذا ضربتم**؛ الضرب في الأرض السير، فههنا هو، **في سبيل الله**، أي الجهاد، **فتبينوا**، أي[٥] فاعرفوا معرفةً بينة لِمن تقتلون[٦] في سبيل الله تعالى. يقال:[٧] تبين واستبان، يتعدى ولا يتعدى. **ولا تقولوا لمن ألقىٰ إليكم السلٰم لست مؤمنا**، فتقتلونه لتأخذوا دنياه، **تبتغون عرض الحيوٰة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة**، حلال غير[٨] الحرام. وتقديره ولا تعجبوا من كونه ادّعى الإيمانَ ولا تكذِّبوه في دعواه. **كذٰلك كنتم من قبل**، كفارا،[٩] **فمنّ الله عليكم**، وكذلك منّ الله عليه. **فتبينوا**، كلاهما من البيان والتحقيق. **إن الله كان بما تعملون خبيرا.**

---

١ يشير المؤلف رحمه الله إلى الآية ٤٨ و١١٦ من هذه السورة.

٢ لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٥٣).

٣ ر: لم يتب بل مات.

٤ لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ (سورة الفرقان، ٢٥/٦٨-٧٠).

٥ ر – أي.

٦ ر: يقتلون؛ ك: تقتلون.

٧ ر – يقال، صح هـ.

٨ ر + ذلك.

٩ ك – كفارا، صح هـ.

وتكرار قوله: فتبينوا، يحتمل أن الأولى يشير بها إلى معرفة الكافر من المؤمن، ولهذا بعدها: ولا تقولوا، وتمامه، والثانيةَ يشير بها إلى ما قدّمه عليها من قوله: كذٰلك كنتم من قبل، أي فاعرفوا ذلك. ويحتمل أنه لمّا بعُد الكلام الذي قدّمه للاهتمام به كرره أخيرا ليعطف[1] عليه ما أخّره من تمام الآية لأجل الوِزان وتخويفا لذوي الإيمان.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

ولما ذكر الجهاد والمغانم قال: لا يستوى، في الدنيا ولا في الأخرى، القٰعدون، عن الجهاد، من المؤمنين، الذين هم، غير، سوى، أولى الضرر، المانع، بأي صورة كان الضرر إذا منع من الضرب[2] في سبيل الله ظاهرا أو باطنا في نفس، أو جسد، أو مال، أو غير ذلك. ولهذا لم يأت "الضرر" منكّرا. ولو قال "إلا" موضع "غير" لكان المفهوم ما معناه: إلا أولو الضرر. والمجٰهدون، يستوون، وليس المراد ذلك بل سوى من يُقعده ضررٌ فصار المفهوم لا يستوي من أقعده غيرُ الضرر. والمجٰهدون فى سبيل الله بأمٰولهم وأنفسهم فضل الله المجٰهدين بأمٰولهم وأنفسهم على القٰعدين، / بغير الضرر، درجة، في الدنيا وهي المغنم. وكُلًّا، وهم ثلاث[3] فِرَق، وعد الله الحسنىٰ، في الآخرة. وفضل الله المجٰهدين على القٰعدين أجرا عظيما، أي بأجر عظيم في الآخرة. فالتفضيل الأول في الدنيا بدرجة والوعدُ لثلاث[4] فرق، والتفضيل الثاني للمجاهدين على القاعدين بغير الضرر هو في الآخرة. ولهذا ذكره بعد الوعد وجعله بأجر، والأجر إنما يكون في الآخرة. [١٢٢و]

ثم شرح الأجر وبينه بقوله: درجٰتٍ منه ومغفرةً ورحمة، أي بدرجات. ويحتمل أنه لمّا كان تعالى قد وعد الحسنى في الآخرة لثلاث[5] فِرَق وفضّل المجاهدين شرح الحسنى فبينها ثلاثة للثلاثة: درجاتٌ للمجاهدين، ومغفرة لغير أولي الضرر وهم القاعدون،[6]

[1] ش ك: يعطف.
[2] ر: من الضرر.
[3] جميع النسخ: الثلاث.
[4] جميع النسخ: للثلث.
[5] جميع النسخ: للثلاث.
[6] ر – وهم القاعدون، صح هـ.

ورحمة لأولي الضرر. ولهذا قال بعده: **وكان الله غفورا رحيما**، والأول أولى إذا فكرت. وإنما أذكر مثل هذه النُكَت لئلا تَظنَّ أني أغفلت مثلها في حكم من الأحكام أو أنها هي الأَولى لدقة المعنى. فإن وجدتَ الأَولى غير ما قلته بدليل شاف فلك العَود إن كنت من أهل التحقيق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ۝٩٧ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ۝٩٨﴾

إن الذين توفٰهم، تتوفاهم، **الملٰئكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم**، أيْ في أيِّ شيء كنتم حتى لم تعملوا للآخرة؟ **قالوا كنا مستضعفين فى الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله وٰسعة فتهاجروا فيها**، أي لتتمكّنوا[1] من إقامة الدين في الأرض التي تهاجرون إليها. **فأولٰئك مأوٰهم جهنم وساءت مصيرا**. وهذا من أدلّ دليل على إبطال مذهبِ المجبرة. ولا يقال: إن قلنا: إنه لم يَقضِ في الأول و[لم] يُقدِّر عليهم أنهم لا يهاجرون فقد ذهب إيماننا بالقضاء والقدر؛ وإن قلنا: إنه قضى وقدّر عليهم ذلك فأي حيلة لهم؟ فالجواب أن القضاء والقدر منه تعالى هو بعدل لا بظلم ولا عن هوى، فهو تابع للعلم بما سيكون منهم باختيارهم مع قدرتهم على الهجرة وتَمكنِهم من فعلها. فلمّا كان القضاء والقدرُ تابعا للعلم والعلمُ يَتْبع المعلومَ من أعمالهم ولا يعمل المعمولَ من أعمالهم ولا يغيّرها ولا يُجبِرهم عليها عاد الإيمان بالقضاء والقدر صحيحا غيرَ قادحٍ في هذه العقيدة وعادوا غير مجبَرين به. ولو كانوا مجبَرين،[2] أو معذورين لَمَا كان مأواهم جهنم. ولهذا بعده ما يُزيل الشبهةَ وهو قوله: **إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدٰن لا يستطيعون حيلة**، فدل على استطاعةِ مَن قبلهم، **ولا يهتدون سبيلا**.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ۝٩٩﴾

﴿۞ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝١٠٠﴾

---

١ ش ك: أي ليتمكنوا.

٢ ك – به ولو كانوا مجبرين، صح هـ.

ومن يهاجر فى سبيل الله، ليس المقصود بالهجرة الجهادَ فقط، بل المراد العموم، **يجد فى الأرض مرٰغما كثيرا**: المراغم على وزن مُفاعَل، وأصله من الرَّغام وهو التراب والأرض. قال الشاعر:

فكم ماجدٍ أمسى الرَّغامُ محلَّه ومسكنَه بالرغم رمس ملازم.[١]

فالمراغَم كالمهاجَر وهو الموضع الذي يَصل إليه المهاجِر، وكذلك المراغَم هو الموضع الذي يصل إليه[٢] المراغِم. وإنما سمي المراغَم والمهاجَر بهذه الصيغة[٣] التي تقتضي الإنباءَ عن المفاعلة لعظم هذه الصفة فيه، كأنه فَاعَل غيرَه لينظر أيهما أشد هَجرا لأوطانه من الآخر، فسمي بهذا الاسم لشدة اتصافه بهذه الصفة. وكذلك المراغِم، أي الذي يسير على الرَّغام سيرا كثيرا كأنه راغمَ غيرَه فهو مراغِم إلى أن يجد مراغَما. فأشار إلى أن الإنسان متى كان مستضعَفا بأرض ولا يستطيع أن يقيم بها دينَه على حدوده فليخرجْ من بيته وَلْيُهاجر وليراغمْ في الأرض إلى أن يجد، فإنه إذا هاجر وراغمَ وجد مراغمًا كثيرًا في رزقه وسعة،[٤] إعلاما أنه قد يكون المانع له ضيق الرزق عن إقامة الدين فحبسه[٥] صرفُ وقته في تحصيله. فلو هاجر لوجد سعة. ويُفهَم من ذلك أيضا أنه قد[٦] يجد سعة في رزقه مع فساد دينه، كما قد يكون كثير من الناس / ساكنا في بلد من بلاد الكفار مع سعة في رزقه ويُسْرٍ في معيشته، فهو [١٢٢ظ] يخاف من الخروج من أرضه لئلا يذهب عنه ما تهيأ له من تلك السعة. فوعده الله أنه إن هاجر وجد سعة أبلغ من سعة رزقه في بلده الأول. فمتى كانت هجرته لله فلا بأس عليه بها. وينبغي للعاقل أن تكون أسفاره وحركاته كلُّها مقيدةً بهذا الأصل وعلى هذه النية لَيتِمّ له الوعد بقوله: **ومن يخرج من بيته مهٰجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله**، أي ولو كان الموت عند خروجه من بيته فذلك الرجل قد حصل له المقصود الذي لو وصل إلى المُراغَم لَما ظفر فيه بأكثر من ذلك، فيُكتب[٧] له أجرُ المهاجِر وتُغفر ذنوبُه التي تقدمت من قبل. **وكان الله غفورا رحيما**.

---

[١] لم أعثر عليه فيما بين يدي من المصادر.

[٢] ش – المهاجر وكذلك المراغم هو الموضع الذي يصل إليه، صح هـ.

[٣] ر: بهذه الصفة.

[٤] جميع النسخ: وَلْيُهاجر إلى أن يجد وعده أنه إذا هاجر وجد وقوله وسَعَةً يريد في رزقه، والمثبت من م.

[٥] جميع النسخ: فحسبه.

[٦] ك – قد، صح هـ.

[٧] ش ك: فكتب.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾

وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلوٰة، وهذه إباحة لا إلزام، وذلك، إن خفتم. فقد علمت بهذه الآية أن الضرب في الأرض وإن لم يكن في الجهاد [فهو] متى خفنا. قلنا: أن تقصروا، لا يلزم أن يكون، إذ لا خوف لا قصر. فهذه الصورة يجب أن تفهم أمثالها. وذلك أنه متى كان الشيء الواحد قد ذُكر بالأمر وذكر بالنهي فهو غير ما إذا ذكر بأحدهما.[1] مثاله: وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا، أمرٌ، ثم نهى عن ضده فقال: وَلَا تَفَرَّقُوا۟؛[2] وكذلك قوله تعالى: فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ،[3] ثم قال: وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ.[4] فأما ما جاء فيه أحد الصورتين ثم رأينا في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ما لم يلزم[5] من القرآن ضدُّه فإنا نمتثله. وذلك مثل هذا الموضع لأنه قد بين أنه لا جناح إن خفنا،[6] ولا يلزم أن يكون جناح إن لم نخف. فلما جاء الحديث بما لم يناقضه الكتابُ جاز اتباعُه. فأما في الجهاد فالحد أن نخاف فتنة من عدو، لا أن ذلك[7] يكون مشروطا بمسيرة. ويفهم من ذلك، إن خفتم، في غير الجهاد، أن يفتنكم الذين كفروا إن الكٰفرين كانوا لكم عدوا مبينا.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾

ثم ذكر صورة في القتال ليُفهَم بالخاصِ العامُّ في القصر عن الخوف فقال: وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلوٰة، أي وهم في حالة خوف. وبين في صلاة الخوف

---

١ ر ك: بأحدهم.

٢ سورة آل عمران، ١٠٣/٣.

٣ ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الأنعام، ١١٨/٦).

٤ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ (سورة الأنعام، ١٢١/٦).

٥ ر: ما لا يلزم.

٦ ر: إن خفناه.

٧ ر: ولأن ذلك.

عظمَ فضيلةِ صلاة الجماعة خصوصا مع إمام صالح. وليس على الإمام في الخوف أن يستقبل القبلة إلا إن أمكن. فقال: **فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرىٰ لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم**. نقول: لا يخلو إما الأمر بأخذ الأسلحة هو للمصلين، أو لغير المصلين، أو للجميع. فإن قيل: للجميع فمنفي لقوله مرتين: **وليأخذوا أسلحتهم**. وإن قيل:[١] هو لغير المصلين فمنفي. وذلك لأن الجميع صلوا معه جملةً في الركعة الثانية كما ستعلم بعد. وإن قيل: الأمر بأخذ السلاح للمصلين فهو الصحيح لوجوه. منها أن نعلم أن الصلاة في الخوف يجب أن تكون بالسلاح لجواز توهم مَن لا يعلم فيظن أنها قد لا تجوز[٢] بالسلاح ومنها أنه إذا أمرَ المصلين بحمل السلاح فذلك لغير المصلين أولى، لأنهم وراء المصلين يحرسونهم ولا ينعكس، أعني لو قيل: ويلزم المصلين إن أمَر غير المصلين، ولا حاجة إلى تعدد وجوه أُخَر لظهور ما قلناه. فقد علمت أن الطائفة الأولى[٣] أمرَهم بالقيام معه وعيّن وقتا يكون فيه غيرُ المصلين وراء المصلين، وهو قوله: **فإذا سجدوا**، وهم المصلون، **فليكونوا [وراءكم]** وهم الباقون، وهذه ركعة واحدة.

ثم قال: **ولتأت طائفة أخرىٰ لم يصلوا**، ثم قال: **فليصلوا معك**. فقد علمت أن الركعة الأولى صلى معه نصفُ القوم بالتقدير، ولهذا قال: **طائفة**. وقد علمت أن النصف الآخر حرس المصلين في الركعة الأولى. وفي الركعة الثانية صلى النصفُ الآخر معه، وهو من لم يصل في الأولى معه. فلما سلّم قام النصفُ الأول [و] حرس النصفَ الآخر في الركعة الثانية لهم كما حرس النصفُ الآخر للنصف الأول في الركعة الأولى. ويُحقَّق عندك / صحة ما قلناه بعد لحوظ الأنصاف وحسنِ [١٢٣و]
الترتيب العجيب. قوله في الأولى: **وليأخذوا أسلحتهم**، وفي الثانية: **وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم**، فزادهم الحذرَ، إذ لم يبق مَن يحرس. فافهم ذلك وانظر كيف حَظِيَ الجميع في صلاة واحدة مقصورة ببركات الإمام وحَظِيَ الجميع[٤] ببركة الجمع. وعرَّفَنا أن القصر هو ركعتان من أربع. وأما كوننا لم نقصُر صلاة المغرب فذلك اقتداء لا مَدخلَ فيه للاجتهاد.

---

١ ر: فإن قيل.
٢ ش: قد لا يجوز.
٣ ش: الأخرى.
٤ ر ك: الجمع.

وإن قيل: قوله: طائفة، لا يلزم أن تكون نصفَ القوم بل يحتمل أن يكون هناك عدةُ طوائف؟ قلنا: ويصح احتمال ما قلناه بل هو أولى لقوله:[١] ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾،[٢] ولم تكن ثَم[٣] طائفة ثالثة، فافهم ذلك.

وَدّ الذين كفروا لو تَغْفُلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة وٰحدة. ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضىٰ أن تضعوا أسلحتكم، أي عنكم، ويحتمل بين أيديكم وقريبا منكم. ولهذا عبر بهذه العبارة، ولم يقل: ألّا تأخذوا أسلحتكم، ودل على ذلك بقوله: **وخذوا حذركم. إن الله أعد للكٰفرين عذابا مهينا.**

﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ فَإِذَا ٱطۡمَأۡنَنتُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾

فإذا قضيتم الصلوٰة، أي[٤] المقصورة، **فاذكروا الله قيٰما وقعودا وعلىٰ جنوبكم**، أي حال كونكم في وقت يجوز لكم القصرُ فيه فلزم الذكرُ بعد بقية الصلوة.[٥] وإنما أمر بالذكر تعظيما له حتى لا يخلو الإنسان من ذكر الله، فيَظن أن الصلاة كافية. فأمر الله سبحانه عند أعظم شاغل للقلب وهو القتال والخوف المانع عن إقامة الصلاة تماما بل مع القصر. وذلك لتمكُّن الإنسان من الذكر على كل حال. والدليل على أنها أعني الصلاة ههنا هي المقصورة قولُه بعد ذلك: **فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلوٰة**، أي غيرَ مقصورة مع الطمأنينة. ثم علل ما ذكره ونبّه به على أول الوقت وعلى الصلاة مع الجماعة وراء الإمام فقال: **إن الصلوٰة كانت على المؤمنين كتٰبا موقوتا**، أي في وقت معين. وفهمنا من ذلك أنه لو فات أولُ الوقت بمقدارِ ركعة لكان الأولُ أفضلَ. وهذا مما يوجب للمؤمن أن لا يزالَ ذاكرا لله مراصِدا لأوقات الصلوات، فهو إذًا لا يَغفل عن ربه سبحانه.

﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٠٤﴾

---

١ ر – لقوله، صح هـ.
٢ سورة الصف، ٦١/١٤.
٣ ر – ثم.
٤ ش ك – أي.
٥ ر ك: الصلوات.

وقوله: **ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون**، أي إن كان بكم ألمٌ من جِراح أو غيرِه فلا يُوجِبَنَّ لكم ذلك وهْنا في طلب القوم بالقتال، فأمرهم أن يبتغوا القوم، أي قتالَ القوم. ثم قال معللا: **فإنهم يألمون كما تألمون**، أي لم يصبكم ألمٌ منهم إلا وقد أصابهم ألم منكم. **وترجون من الله ما لا يرجون**، وهو النصر والثواب. وذلك لأن الكفار إنما يقاتلون رَجاءَ الدنيا، والمؤمنون يرجون الآخرة قَتلوا أو قُتلوا. ولمّا أثبت للمؤمنين رجاء وللكفار رجاءً فهمنا أن المؤمنين يرجون ما لا يرجونه الكفارُ زيادة على ما يرجونه، إذ كلٌّ منهما يرجو النصرَ ولكنَّ المؤمنين يرجون النصر والأجرَ، فافهم ذلك. **وكان الله عليما حكيما.**

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ١٠٥﴾

هذا من باب إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ،[١] وكقوله: وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ،[٢] أي أرسلناك لتحكم لا لتكون خصما لهم عنا ولا خصما لنا عنهم، كما ستفهم مما نبينه.[٣] والخائنون هم الذين خانوا الله ورسولَه، وخانوا أنفسهم أو المؤمنين، وإلا فرسول الله صلى الله عليه وسلم أجلّ من أن يكون خصما يشدّ من الخائنين ويسلِّطهم على المؤمنين. ولهذا لم يقل: "فلا تكن". فتنبه[٤] لهذه الكلمة كونَها جاءت بالواو. ولهذا لم يقل: عن الخائنين كما جاء[٥] بعده. وقولهم: نزلت في حق فلان، فاللفظ مطلق ويدخل فيه فلان المخصَّص وأمثاله.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧﴾

وقوله: **واستغفر الله**، أي لهم، لأن المذكورين على الإسلام. ولهذا جاء أخيرا: وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا،[٦] وتمامُه. **إن الله / كان غفورا رحيما.** ولو كان الأمر هٰهنا بالاستغفار [١٢٣ظ]
مخصوصا بالرسول صلى الله عليه وسلم لم يَلزم أنه بدت منه نقيصة، بل كما أمره سبحانه بالذكر والاستغفار في بقية المواضع وإن لم يكن أتى ذنبا. ولهذا قدم ذكر الغرض

---

١ ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ (سورة الشورى، ٤٢/٤٨).

٢ سورة الأنعام، ٦/١٠٧؛ وسورة الزمر، ٣٩/٤١؛ وسورة الشورى، ٤٢/٦.

٣ ش ك: مما يبينه.

٤ ك: فتنة.

٥ ر - جاء.

٦ الآية ١١٠ من هذه السورة.

في أول الآية وجاء بصورة النهي ليكون الخطاب له صلى الله عليه وسلم والمراد الأمة. فالإخبار من الله تعالى لرسوله هو بصفة حالهم. فإذا كان النهي له فهو لهم. وهذا يأتي تعظيما للنهي عن المنهي عنه. ولا يلزم أن المنهيَّ عنه وقع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بل، كقوله: وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ [لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ]،[1] ولا شك أنه عليه السلام لم يَدْعُ وإن كان النهي له. وكذلك ههنا كما سيأتيك دليله الواضح وهو قوله عنهم: هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ.[2] والدليل على أن قوله: وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ،[3] ليست بمعنى "عن" قوله بعده: **ولا تجْدل عن الذين يختانون أنفسهم**. فقال أولا: لهم وثانيا: عنهم، وهؤلاء هم الأوائل لكنه غير اللفظ. فقال أولا: **للخائنين**، وثانيا: **عن الذين يختانون**، ولم يقل: ولا تجادل عنهم لئلا يتخصص النهي في حق قوم، بل المراد أن يعم حكْمُ النهي له عنهم وعن أمثالهم، كأنه قال: لم نرسلك خصما لهؤلاء ولا مجادِلا عن هؤلاء[4] ولا عن أمثالهم، بل لتحكم بالحق. فلفظ الجدل مشتق من الجديلة، وهي من قولك: جدلت الحبْلَ، أي أحكمت فتْلَه. وجديلة بمعنى مجدولة. والمراد ههنا لا تُشدِّد. **إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما.**

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾

ثم عرّفَنا صفة هؤلاء وأنهم، **يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم**، وقد تقدم ذكرهم أو ذكر أمثالهم بقوله: وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ. فدل على أنهم بيتوا غير طاعة وهو قوله ههنا: **إذ يبيتون ما لا يرضى من القول**، كأنه يريد الرأي، كما تقول: هذا قول أبي حنيفة. وقال هناك: وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ،[5] وههنا: **وكان الله بما يعملون محيطا**، فكأنه جاء على صورة الإخبار عما تقدم.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾

---

١ سورة القصص، ٨٨/٢٨.
٢ الآية ١٠٩ من هذه السورة.
٣ الآية ١٠٥ من هذه السورة.
٤ ك – ولا مجادلا عن هؤلاء، صح هـ.
٥ الآية ٨١ من هذه السورة.

ولمّا كان بعض المؤمنين قد يجادل عن بعض المنافقين لصلة القرابة نهى[١] الناس عن المجادلة عن المذكورين فقال: **هٰأنتم هٰؤلاء جٰدلتم عنهم فى الحيوٰة الدنيا فمن يجٰدل الله عنهم يوم القيٰمة أم من يكون عليهم وكيلا**. قوله: عليهم، كما تقول: هذا وصيٌّ على أولاد فلان، بمعنى الذبِّ عنهم والقيامِ لهم بدفع ما يُتوقع ضررُه وجلبِ ما يُتوقع نفعُه. والمفهوم من قوله: عليهم، أنه جُعل عليهم وكيلٌ، ومن قوله: "لهم"، أنهم هم جعلوه، فلهذا قال: عليهم. ولما كان عليه السلام إذا أعلمه الله بهم وبحالهم وعاملهم بما يستحقونه أو ببعضه مما يعامَل به الخَوَنَةُ لِعلمه بهم ربما جادله عنهم بعضُ المؤمنين ممن لا يعلم خيانتَهم نهى[٢] الله الناس عن مجادلة الرسول صلى الله عليه وسلم. فجاء النهي أولا للرسول من أجل الأمة، ثم صرح بذكر المجادِلين عن الخائنين بعد ذلك النهيِ الأول لكي يمتثل الجميعُ أمر اللهِ تسليما لما يُنزله في الخائنين، ولا يعارَض الرسولُ صلى الله عليه وسلم ولا يجادَل فيما يأمر الله سبحانه فيهم على لسانه. وفي ذلك رحمة لهم ليقطع أطماعَ الخائنين من جهة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن جهة المؤمنين ليعودوا إلى الله مِن ظلمِ أنفسهم ومن أعمال السوء ويستغفرونه فيغفر لهم. ولهذا قال هٰهنا: **ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما**، وهذا يدل على أن الله تعالى يغفر الشرك مع التوبة لقوله: إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ.[٣]

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾
وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾

ومن يكسب إثما فإنما يكسبه علىٰ نفسه وكان الله عليما، أي بما يُبطنه الكاسبُ، **حكيما**، حاكما عليه بالجزاء. **ومن يكسب خطيئة**، يريد: وهو لا يعلم، كقوله: وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا.[٤] وقوله: أو إثما، يريد: وهو يعلم. وقوله: **ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتٰنا وإثما مبينا**، يدل على تحريم ذلك الفعل ولو مع المشرك.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾

---

١ ر: ينهى.
٢ هذا جواب "ولما كان".
٣ سورة لقمان، ١٣/٣١.
٤ الآية ٩٢ من هذه السورة.

[١٢٤و] ولولا فضل الله / عليك ورحمته، ومن جملته أن أعلمك بهم، لهمت طائفة منهم أن يضلوك، ليس المراد يضلوك عن الله، لكن يضلوك بقولهم: "طاعة" عما بيّتوا وعن مرادهم ونفاقهم. ولم يقل: لأضلوك، بل هموا بذلك وظنوا أنه سيقع. ولهذا قال بعده: **وما يضلون إلا أنفسهم**، أي عن الله، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لما أعلمه الله بحالهم بطل ما عملوا عليه وما هموا به. **وفضل الله**، هو القرآن، وفي جملته ما أعلمه الله به من حالهم. ثم أخبره بقوله عنهم: **وما يضرونك من شيء**، أي لا يكون ذلك وقد أنزل. **وأنزل الله عليك الكتب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم**، من حال المنافقين وغير ذلك، فبطل غرضهم حينئذ وبطل اهتمامهم لمّا علموا بأنه قد علم. **وكان فضل الله عليك عظيما**، في جميع الأمور. والواو في **وأنزل**، **وعلمك**، واوا الحال.

﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ١١٤﴾

ثم قال: **لا خير في كثير من نجوىٰهم**، والنجوى هو الكلام المرتفع بالخصام في أكثر الأمر. وقد لا يكون بخصام. وهو من النجوة، وهي ما ارتفع من الأرض. ومنه قوله تعالى: إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ،[١] يعني النجوى[٢] بالإثم. ولمّا كان الأصل فيه رفعَ الصوت وقد قال: وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ،[٣] دل على أن رفع الصوت مكروه. **إلا من أمر بصدقة أو معروف**. يقال: لكل ما استحسنه العقل واعترف بقبوله: "معروف"، ولكلِّ ما أنكره مُنكَر. لأن جِبِلّة العقل مركوز فيها ذلك[٤] وإن لم يأت بتفصيلها شرعٌ. **أو إصلٰح بين الناس**. ومما أُوصيك به من لازم هذه الآية أن لا ترفعَ صوتك في خصام أو جدل أو عقاب. وفي كل صورة أنت فيها مغتاظٌ لنفسك مقطِّبُ[٥] الوجه. وإنما يجوز أن ترفعه للضرورة وأنت متبسم،[٦] فاحذر [من أن] ترفعه وأنت غضبان إلا لله، ويجوز رفعه وأنت فَرِحان. **ومن يفعل ذٰلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما**. ويدلك على أن الله نهاهم عن مجادلة الرسول بقوله: هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ.[٧]

١ ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (سورة المجادلة، ١٠/٥٨).

٢ ر – النجوى.

٣ ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ (سورة لقمان، ١٩/٣١).

٤ ش ك – ذلك.

٥ قطَّب وجهَه تقطيبا: عَبَس وغَضِب (لسان العرب، «قطب»).

٦ ر: مبتسم.

٧ الآية ١٠٩ من هذه السورة.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾

قوله ههنا: **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدىٰ**. اعلم أن القاطع من الأدلة لا يعارضه المظنون، فهما كالواجب والممكن. والكلام ههنا يشير به إلى من آمن وارتدّ إلى الشرك، سواء كان ذلك مع إظهار الإسلام فيكون منافقا وهو أولى بأن يكون هو المرادَ ههنا، أو إظهارِ[١] الرِدَّة. ولهذا بعده: **ويتبعْ غيرَ سبيل المؤمنين**، نعاقبه بأننا، **نُوَلِّهِ ما تولىٰ**، إليه، أي ونسدّ[٢] باب الهدى فيكون عقابه في الدنيا ذلك. **ونصله**، في الأخرى، **جهنم وساءت مصيرا**.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾

ثم قال: **إن الله لا يغفر أن يُشرَك به**. لمّا قدم قوله: نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ،[٣] وقع في الأنفس أن الذي هو معاقَب بالإضلال في الدنيا لم يبق له طمعٌ في الرحمة. فبين الله تعالى أنه أعني هذا[٤] المعاقَبُ له طمعٌ في الرحمة من جواز إمكان أن يقع تحت لطف المشيئة بشرط عدم الشرك، فقال: **ويغفر ما دون ذٰلك لمن يشاء**. فبقي الخوف والرجاء على حال واحد. واعلم أنه لمّا ذكر ههنا مشاققة الرسول من بعد ما تبين له الهدى للمشاقِق، ثم أتبعه بشرط آخر وهو قوله: وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ،[٥] ذكر عقابين على الصورتين. فعقاب المشاققة وحده قوله:[٦] نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ،[٧] وعقاب الاتباع: وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَ.[٨] ثم ذكر السبب في الجزاء بجهنم وهو قوله: **إن الله لا يغفر أن يشرك به**. وفتح باب الرجاء فيما دون ذلك بقوله: **ويغفر ما دون ذٰلك لمن يشاء**، كما قدمنا. واعلم أن الآية الأولى[٩] في حق النصارى لافترائهم على الله بما نسبوا عيسى عليه السلام إليه،[١٠] وهذه في حق منافقي العرب لميلهم إلى المشركين. لهذا آخر تلك الآية

---

[١] ش ك: وإظهار.
[٢] ش ك: وتسد.
[٣] من الآية السابقة.
[٤] ر - هذا، صح هـ.
[٥] من الآية السابقة.
[٦] ش - قوله.
[٧] من الآية السابقة.
[٨] من الآية السابقة.
[٩] أي الآية السابقة.
[١٠] لعل المؤلف يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ (سورة التوبة، ٩/٣٠).

فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ،[1] وآخر هذه ومن يشرك بالله فقد ضل ضلٰلا بعيدا.

﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ١١٧﴾

إن يدعون من دونه إلا إنٰثا، بمعنى إن يعبدون، لأن مَن عبد شيئا فإنه يدْعوه

[١٢٤ظ] عند الحاجة إليه ولا يزال / الإنسان محتاجا فلا يزال داعيا بالحال. وكأن[2] أول الآية[3] ههنا أَولى بالنصارى وباقيها أولى بالمشركين من العرب وإن كان الجميع واحدا في الكفر، لقوله أولا: وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ،[4] ولقوله ههنا: **وإن يدعون إلا شيطٰنا مريدا.** والعرب تقول لكل مصنوع صنعه الناس: أنثى، فتقول: حديدٌ ذكرٌ إذا لم يكن مصنوعا، وحديدٌ أنثى لما كان مصنوعا، وكذلك الأرض الذكر وغير ذلك. فأشار إلى أن كل ما يدْعونه هو مصنوع من صنعتهم، كقوله: أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ،[5] لأن القسمة تقتضي ثلاثةً: صانعٌ غير مصنوع هو الله تعالى، وصانع مصنوع هو الإنسان، ومصنوع غير صانع وهو ما عدا ذلك. فمتى كان ذلك المصنوعُ الغيرُ صانعٍ مصنوعا للإنسان سمي أنثى، ومتى كان مصنوعا لله تعالى سمي ذكرا، والمراد فيما عدا الحيوان. والمَريد قيل: هو الضعيف، ومنه التمر ينقع[6] في اللبن يسمى مريدا لرخاوته وضعفه. ومنه قوله تعالى: إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا.[7] والمراد ما لا نبت فيه من الأرض. ومنه الأمرد.[8] والمَريد أيضا في اللغة هو العاتي المتمرِّد.[9]

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ١١٨﴾

لعنه الله، وهذا هو المقصود ههنا. واللعن إخبار بصورة دعاءٍ. ثم أخذ يخبر عما يتعلق بالشيطان ويحذِّر منه بقوله: **وقال لأتخذن من عبادك،** الكلُّ عباد الله من حيث إنه خالقهم. وأما من حيث العبادُ فالأمر مختلف، فمنهم من يعبد الله ومنهم من يعبد هواه. وإنما المخلص منهم هو المشار إليهم بقوله: إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ.[10]

---

١ الآية ٤٨ من هذه السورة.

٢ ر: وكان.

٣ أي الآية الأولى وهي الآية السابقة.

٤ الآية ١١٥ من هذه السورة.

٥ سورة الصافات، ٩٥/٣٧.

٦ نقع الشيء نقعا: تركه في الماء ونحوه حتى انحلّ (المعجم الوسيط، «نقع»).

٧ الآية ٧٦ من هذه السورة.

٨ الأمْرَدُ الشابُّ الذي بلغَ خروج لِحيته وطَرَّ شاربه ولم تبد لحيته (لسان العرب، «مرد»).

٩ ر: الممرد.

١٠ ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ (سورة الحجر، ٤٢/١٥).

ولهذا قبله: إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ.[١] ومن أطاع الشيطان فقد عبده وإن كان عبدا لله في الحقيقة. والمفروض يريد به من الأشخاص. لهذا بعده: وَلَأُضِلَّنَّهُمْ.[٢] ثم ذكر ما فرضوه من أموالهم لغير الله مثل البحيرة والسائبة[٣] وغير ذلك. وليس المراد لأتخذن من أموال عبادك، ولهذا لم يقل: نصيبا من عبادك بل، من عبادك نصيبا مفروضا. والمفروض هو من الفرض في الشيء وهو الحزّ والقطع.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾

وقوله: **ولأضلنهم**، إشارة إلى مواطن الشيطان وسُبُلِه والمواضع التي ينبغي لنا أن نحترز[٤] منه فيها كما سنبين. فذكر الأخطر أولا وهو ما يتعلق بالعقول من الضلال. ثم قال: **ولأمنينهم**، وهو من المَنْي كما في آخر الآية.[٥] ويحتمل أنه يقوّلهم من الأُمْنِيَّة، وهو القول إشارةً إلى ما يصدر من أقوالهم بالإثم، كقوله: إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ.[٦] فقال: إنه يحكم عليهم في العقول بالضلال، ثم في الأقوال، ثم في الأفعال. ولهذا بعده: **ولآمرنهم فليبتكن**، فلَيقطعنّ. والسيف الباتك هو القاطع. وكانوا يقطعون، **ءاذان الأنعٰم**، يُعْلمونها[٧] بذلك لآلهتهم فيبقى القطع علامةً، ويقولون: هَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا،[٨] أي لآلهتهم التي أشركوا بها. فنسب الشركاء إليهم، كقوله: أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ [تَزْعُمُونَ]،[٩] تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ.[١٠] وقوله: **ولآمرنهم فَلَيُغَيِّرُنَّ خلق الله**. وهذا مطلق يدل على النهي عن تغيير ما خلق الله تعالى. فكذلك فافهمه عن الكل كقوله: هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ

---

١ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة الحجر، ١٥/ ٣٩-٤٠).

٢ من الآية التالية.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ (سورة المائدة، ١٠٣/٥).

٤ ش: أن نحرز؛ ك: أن نحرض.

٥ أي بعدها.

٦ ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (سورة المجادلة، ٥٨/ ١٠).

٧ أَعْلَمَ الفرس: جعل له علامة.

٨ ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (سورة الأنعام، ١٣٦/٦).

٩ سورة الأنعام، ٢٢/٦.

١٠ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (سورة فاطر، ٣٥/ ٤٠).

فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ.[١] فكل ما أفسده المرءُ مما خلق الله مما في الأرض، أو في الأفهام، أو مما بثّ من كل دابة،[٢] ومما أنبت وغير ذلك على جميع أنواع الفساد حذّر الله منه ونهى عن أننا نتبع الشيطان بعقولنا، أو بأقوالنا أو أفعالنا[٣] في تغيير شيء من سائر ما خلق الله تعالى. وذلك أنه تعالى لمّا عرّفنا أنه أحسن كلَّ شيء خَلَقه،[٤] أي أحسن خَلْقَ كل شيء لزم أن مَن غيّره فلا يغيره إلا إلى فساد متى كان التغيير بغير الأمر فيكون الشيطان وليَّه. **ومن يتخذ الشيطٰن وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا.**

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾

يعدهم، بما يُخلفه، لقوله: وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ.[٥] **ويمنيهم**، من المَنْي، لأنه من جنس الوعد، أي يمنيهم في الوعد، كما تقول: أيَّ شيء شئتَ أعطيتُك. فهو جامع بين الوعد والتمني. والأَولى / أنه من القول كما تقدم. ولهذا أتبعه من جنسه بقوله: لَيْسَ [١٢٥و]
بِأَمَانِيِّكُمْ،[٦] **وما يعدهم الشيطٰن إلا غرورا.**

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾

أولٰئك مأوٰهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا. المحيص طلب التنحي في الموضع الضيّق، وجهنمُ[٧] عليهم أضيقُ ما يكون، لقوله تعالى: وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا.[٨] ويقال: فلان لا يحيص ولا يَفيض[٩] من موضعه، أي لا يقدر أن يتنحى ولا يَحيدَ.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾

لمّا قدّم وعْدَ الشيطان لأوليائه أتبعه بذكر وعد الرحمن لأوليائه، والوعدان خبر، ولكنّ كَذِبَ الشيطان مقابلٌ[١٠] لصدق الرحمن.

---

١ سورة لقمان، ٣١/١١.

٢ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ (سورة الشورى، ٤٢/٢٩).

٣ ر: وأفعالنا.

٤ ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ (سورة السجدة، ٣٢/٦-٧).

٥ ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/٢٢).

٦ الآية ١٢٣ من هذه السورة.

٧ ش ك: جهنم.

٨ ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (سورة الفرقان، ٢٥/١٣).

٩ ش: ولا يغيص؛ ك: ولا يفيص.

١٠ ش: مقاصد.

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾

ثم قال: **ليس بأمانيكم**، أي بأقوالكم ودَعاويكم، أي ليس الثواب من الله بأقوالكم. وإنما كانت الأماني أقوالا لأنه يشير بها إلى ما يقال على وجه التمني من المَني[1] لا على وجه الاستحقاق والوجوب، بل كالذي يَعمل فاسدا ويتمنى جزاء حسنا. فهو قولٌ من مُدَّعٍ. والخطاب للمشركين لقوله: **بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتٰب**. ثم قال: **من يعمل سوءًا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا**.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾

ومن يعمل من الصّٰلحٰت من ذكر أو أنثىٰ وهو مؤمن، أي بالله ورسوله، فهذا هو الشرط، ومتى جاء رسول آخر فالثاني هو رسوله. فلزم، **وهو مؤمن**، بهذا الرسول. وعلّم الإطلاق ممن تقدم من قبلُ إلى من أتى من بعد.[2] **فأولٰئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا**، فأشار إلى أن عمل غيرِ المؤمن لا يُدخله الجنة وإن جاز أن يكون له عليه أجرٌ في الدنيا.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾

ولمّا لزم من قوله: وَهُوَ مُؤْمِنٌ،[3] أن المراد هذا النبيُّ محمد صلى الله عليه وسلم، إذ لم يبق مؤمن إلا من آمن به تلاه بقوله: **ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبرٰهيم حنيفا**، مائلا إلى الله عما سواه. **واتخذ**، أي وقد اتخذ، **الله إبرٰهيم خليلا**، من الخُلّة، أي الصحبة. أشار إلى أن إبراهيم عليه السلام قطع كل صاحب فلم يَصحب إلا الله، فاتخذه الله صاحبا جزاء. وهذه كانت صفتَه عليه السلام لأنه لم يكن من قومه وعشيرته وأهل عصره إلا وهو يدعو غير الله تعالى. فجاء هو بمفرده بمفارقة الجميع، فلم يبق له خليل إلا الله سبحانه، فكان جزاؤه من الله كذلك.

---

١ ش – من المني.

٢ جميع النسخ: إلى أن أتى من بعد، والمثبت من م.

٣ من الآية السابقة.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ١٢٦﴾

ولمّا قال تعالى: وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا،[1] قال: **ولله ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض**، إشارةً إلى أنه تعالى وإن كان قد اتخذه خَلِيلًا، لكنه غني عنه، غيرُ محتاج إلى خُلّته كما يحتاج الخليل إلى خليله، بل إبراهيم هو المحتاج إليه سبحانه. لأنه مما في الأرض، وسائر ما في السماوات وما في الأرض مملوك لله، فهو محتاج إلى مالكه. **وكان الله بكل شىء محيطا**.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِۚ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ١٢٧﴾

ولما فرغ هذا الكلام عطف بالواو على ما تقدم من كلام يحتاج إلى بيان كما سيأتي فقال: **ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن**. والمعنى يستهدونك، أي يطلبون منك أن تُبَيِّن لهم[2] ما أمرهم[3] الله به مما يتعلق بالنساء ومما[4] يجب عليهم في نكاحهن. وسماهن[5] النساء ولم يقل: الإناث أو مثل ذلك ليعرّفَنا أن هذا الكلام هو في المرأة التي قد تزوجنا بها فهي من النساء. ولم يقل: ويسألونك، لأن السؤال يكون منهم ابتداءً كقوله: وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ.[6] وأما قوله: **ويستفتونك**، يدل على أنه قد قال لهم كلاما لم يتبين لهم،[7] فاحتاجوا أن يطلبوا الفتوى المبيَّنة فيه من الرسول صلى الله عليه وسلم. فقال تعالى آمرا له:[8] **قل الله يفتيكم فيهن**. وقال الفتوى بعد ذلك وهو قوله: **وما يتلىٰ عليكم فى الكتٰب**، أي والذي / يُتلى عليكم في القرآن هو، **فى يتٰمىٰ النساء**. فبيَّن بذكر اليتامى إذا صاروا لنا نساء ما ذكره من قبل مما احتاجوا فيه إلى بيان. ثم زاد البيان عنهن[9] بقوله: **الّٰتى لا تؤتونهن ما كتب لهن**، من فرض الميراث الذي هو عندكم لهن. **وترغبون أن تنكحوهن**، فتأكلوا أموالهن مضافة إلى أموالكم [١٢٥ظ]

---

[1] من الآية السابقة.
[2] ش – لهم.
[3] ش ك: ما أمره.
[4] ش: مما.
[5] ك: وسماهم.
[6] سورة البقرة، ٢/٢٢٢.
[7] ش – لهم.
[8] ش ك – آمرا له.
[9] ر: عنهم.

كما تقدم النهي عنه في أول السورة، ولهذا قال هناك: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ،[١] بمعنًى في نكاح اليتامى. فلا تنكحوهن بل انكحوا ما طاب لكم من النساء، أي من غير اليتامى خوفا من أن تأكلوا أموال اليتامى بعد النكاح. فحذّرنا أن نأكل أموال اليتامى حتى ولو صاروا[٢] نساء لنا وانضافت أموالُهن إلى أموالنا. ولمّا أنْ أَشْكلتْ هذه الآية على كثير من المفسرين والنَّقَلَة -إلا مَن شاء الله- وكثر فيها الكلام واختلف النقل، وكان الله سبحانه قد علم أنه سيكون ذلك منهم أنزل في كتابه لمن سأل ولمن يسأل مستفتيا ما إذا تدبره زال الإشكال عنه. فطالعْ ما قيل لتفهم ما قلناه مطابقا لكلام الله تعالى.

وقوله: **والمستضعفين من الولدٰن**، أي الذي[٣] يُتلى عليكم في القرآن هو في يتامى النساء وفي المستضعفين من الولدان، فالجميع في اليتامى. **وَأَنْ**، تقديره وأمرناكم أن، **تقوموا لليتمىٰ بالقسط**، أي للذكور والإناث. ولهذا قال في أول السورة: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ،[٤] باللفظ الدال على الذكور والإناث وإن كان التخصيص هناك للإناث.[٥] وحَدُّ اليتيم أن يبلغ الحُلُمَ ولا يجوز له أن يَتصرف في ماله إلا مع الرشد. وقوله: **وما**، بمعنى ومهما وهو من تمام الكلام، أي وإن فعلتم غير ذلك من التفضُّل عليهم بعد القيام بالقسط لهم فهو خير لكم. فذلك قوله: **وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما**، فيجازيكم به، فالتخصيص باليتامى وهو مطلق.

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾

واعلم أنه تعالى لمّا قال في البقرة: فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ[٦] احتمل ذلك اللفظُ أن المؤمن إذا تزوج باليتيمة له أن يُجريَها مجرى الزوجة غيرِ اليتيمة فيما يأخذه من مالها أو صَداقها. فعرّفَنا الله تعالى بقوله: وَيَسْتَفْتُونَكَ،[٧] وبما بعده أن نقوم لليتامى بالقسط،

---

[١] الآية ٣ من هذه السورة.

[٢] ر: لو صاروا.

[٣] ش: أي والذي.

[٤] الآية ٣ من هذه السورة.

[٥] ش ك: الإناث.

[٦] ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٢٩).

[٧] من الآية السابقة.

وأن لا نأخذ من مال اليتيمة الزوجة ما جاز لنا أن نأخذه من مال الزوجة غير اليتيمة. وزاده بيانا بعد ذكر اليتامى بقوله: **وإن امرأة**، ولم يقل: وإنْ[1] زوجةٌ لئلا تدخل فيه اليتيمةُ بل قال: **وإن امرأة**، أي غير اليتيمة، **خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا**، من غير نشوز. والمعنى تَوقعتْ منه ذلك لِمَا لاح لها من أماراته ومَخَايِله،[2] **فلا جناح عليهما أن يصلحا**. تقديره بما يتفق بينهما من أنها تعطيه شيئا من مالها، **فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ**، وإلا فالصلح معلوم، فالجناح أيّ شيء يوجبه إن وقع الصلح؛ بل هو كما قلناه، أي بشيء من مالها، أو من صداقها مثلا. وإنما أمر الرجال بالقسط للنساء وقال: **لا جناح عليهما**، أي هي فيما أعطت وهو فيما أخذ لكن بشرط أن يكون ذلك من أجل الصلح، وهذا الحكم في هذا الموضع، أعني النشوز أو الإعراض.[3] وأما في ذلك المكان[4] فهو مع الفُرْقة، ولهذا سماه فداء. فعرّفَنا ههنا أنه لا يجوز أن نأخذ منهن في هذه الصورة إلا أن يكون المقصود بالأخذ منهن يوجب صلحا ويكون العطاء منهن لا بوجه إلجاء منا لهن. وهذا الحكم هو عن غير اليتيمة إذا خافت فأعطت فلا جناح عليهما. لهذا قال: **أنْ يُصلحا بينهما صلحا**، كأنه قال: أن يصالحا بينهما بشيء يوجب صلحا يعني مستمرا، فلا يفترقان بل صُلْحًا يزيل النشوز أو الإعراض. ففي البقرة أزال الجناح عنهما مع الفرقة، وههنا مع الاستمرار.

والصلح خير، أي مما بذلتْ له بتقدير أنها لو لم تبذله لحصل نشوز أو استمرارُ إعراض.[5] ودليل ما قلناه قوله بعده: **وأُحضرت الأنفس الشحَّ**، وهو رتبة في البخل بالشيء اليسير. يقال: فلان عنده مشاحّة إذا أعطى / ما عليه مائلا إلى نقص يسير في [١٢٦و]
الميزان، أو أَخَذ ماله فلم يسامح بأدنى ما يكون من النقصان. والشَّحّ في الوزن ضد الراجح بفتح الشين.[6] وتقديره والصلح ببعض المال خير، وقد، **أحضرت الأنفسُ الشُّحَّ**، أي حين أحضرت. فلمّا حضر الشح في نفسها ونفسه[7] أمرهما بالصلح لتَبذُل هي ويقنع هو. ثم خاطب الجميع بقوله: **وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا**.

---

[1] ر – وإن، صح هـ.
[2] يقال: ظَهرتْ فيه مخايلُ النجابة، جَمْعُ مَخِيلَةٍ: أي المَظِنَّة (تاج العروس للزبيدي، «خيل»).
[3] ر: والإعراض.
[4] أي في آية الطلاق: ٢/٢٢٩.
[5] ر: أو استمرار أو إعراض.
[6] الشُّحّ والشَّحّ: البخل، والضم أعلى (لسان العرب، «شحح»).
[7] ش: في نفسه ونفسها.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٢٩﴾

ثم خاطب الرجال بقوله: **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء**، إشارةً إلى مَن معه منهن[1] أكثرَ من واحدة. **ولو حرصتم**، من[2] الحرص، ماضيه مفتوح الراء، ومستقبله مكسورها: إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ.[3] والمعنى ولو حرصتم أن تعدلوا. وذلك لأن العدل منه هو أن لا ميل[4] إلى الواحدة أكثر من الأخرى بوجه، وهذا مما لا يقع. وإنما أتى بهذا الكلام ههنا ليبيِّن لنا رتبة في العدل تعود على قوله: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ،[5] فالعدل ههنا هو[6] من جملة القسط المأمور به هناك. وإنما ذكره أيضا بعد ذكر الإعراض والنشوز من الرجال ليعرِّفَنا أن الرجل قد يكون إعراضُه عن الواحدة إلى زوجته الأخرى لا إلى غير زوجته. فإن كانت غير يتيمة وخافت من بعلها ذلك فأعطته من مالها فلا جناح عليهما. وقوله: **فلا تميلوا كل الميل**، أي إلى الواحدة ويلزم أن يكون عن الأخرى، **فتذروها كالمعلقة**، أي التي تميلون عنها. والمعلقة، قيل: إنها[7] سُمّيت عن بعل، أو عَقَد بعلها عُقْدَةَ نكاحها ولم يدخل بها ولم يطلقها. وقيل: هي التي أمسكها بعلُها ليتعدى[8] عليها مع زهده[9] فيها إلى أن تفتدي نفسَها منه وتخرج[10] بغير صداق، كقوله: وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ.[11] فهي غير مطلقة وكأنها ليست بذات بعل لكنها معلقة به. ولمّا كان المعلق لا يستقر على حالة ولا يكاد يَثبت في جهة، ولكن له سبب هو عالقٌ به لا يمكنه الانفصال عنه عادت سائرُ الصور التي تقتضي ذلك مفهومةً[12] من هذه اللفظة. **وإن تصلحوا**، بين النساء، **وتتقوا**، الميل، هذا هو الأَولى بما يُفهم من اللفظ ههنا وإن كان الكلام مطلقا في الإصلاح والتقوى. **فإن الله كان غفورا رحيما**. لما قدّم قوله: **ولن تستطيعوا أن تعدلوا**، أي كلَّ العدل، ثم قال: **فلا تميلوا كل الميل**، دل على أنه لا بد من ميل مّا. وإن الله غفور رحيم مع ذلك الميل، لأنه ليس من الاستطاعة، فجعل قبالتَه التقوى والطاعة المفهومة من مطلق الإصلاح.

---

[1] ر – منهن، صح هـ.
[2] ش – من.
[3] ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ (سورة النحل، ١٦/٣٧).
[4] جميع النسخ: إذ لا ميل.
[5] الآية ٣ من هذه السورة.
[6] ر – هو.
[7] ش + التي.
[8] ر: ليعتدي.
[9] ر: مع هذه.
[10] ك: ونخرج.
[11] سورة البقرة، ٢/٢٣١.
[12] ش: مفهومه.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾

ثم قال: وإن يتفرقا، فدل على أن المراد بالصلح عكس الفُرْقة. فإن تفرقا، يغن الله كلا من سعته وكان الله وٰسعا، لمّا قدم قوله: من سعته، قال: وٰسعا. وذلك على صورة الاستعارة للتمثيل المراد به التفهيم، وأصلها من قوله: وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ، ثم قال: رَّحْمَةً وَعِلْمًا.[1] وقوله: حكيما، بمعنى "حاكم" من الحُكْم. ولم يُرِد به ههنا الحكمةَ وإن جاز، بل المراد أنه يحكم بما شاء[2] لمن شاء.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾

ثم بيّن أن مَن له ما في السماوات وما في الأرض لا يتعذر عليه ذلك، بل يحكم بما يشاء ويعطي من سعته ما يشاء لمن يشاء. فقال: ولله ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض، أي فهو يَقدر أن يعطي كُلًّا من المتفرقين ما شاء ويُغنِيَهم من سعته. ثم لمّا ذكر ذلك قال: ولقد وصينا الذين أوتوا الكتٰب من قبلكم وإياكم، أيضا، والوصية أن اتقوا الله، وإن تكفروا فإن لله ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض، أي فلا يضره كفرُكم به ولا ينفعه إيمانكم. ولهذا بعده: وكان الله غنيا حميدا، أي محمودا في ذاته وإن لم يحمده من وجب عليه الحمدُ له. فالكريم محمود والمقصِّر مذموم.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾

ثم بعد هذا الإخبار بأنه غنيٌّ كرّر اللفظ الذي أخبر به أنه وصى به لمن قبلهم ولهم، فقال مطلقا لسائر الناس أجمعين: ولله ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض. والمعنى أنه تعالى قبل أن تكفروا به / لم ينقص من ملكه ولا زاد شيء، وبعد أن كفرتم فالأمر [١٢٦ظ]
كذلك من بعدُ كما كان من قبل. وفيه ما دلت عليه "إن" الشرطية بقوله: وَإِن تَكْفُرُوا۟،[3] الذي يلزم عنه "وإن تؤمنوا"، أي إن كفرتم أو آمنتم لا يتغير من ملكه شيء. فقد علمت

---

١ ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ (سورة المؤمن، ٧/٤٠).

٢ ر: بما يشاء.

٣ من الآية السابقة.

أنه إذا أعيد الكلام لأسباب مختلفة لم يُسَمَّ تكرارا. فإن الأول هو بعد الإذن للزوجين إن يَتَفَرَّقَا،[١] سلَّاهما[٢] بأنه هو الذي يغني المحتاج، لأن له ما في السماوات والأرض. والثاني أظهر به الاستغناء عنهم[٣] إن يكفروا، إذ من له ما في السماوات[٤] وما في الأرض غنيٌّ بلا شك، لكنه بين أنه كان غنيا قبل السماوات والأرض. ثم أوضح في الثالث أنه مع غناه في الأزل أيضا له ما في السماوات وما في الأرض. فافهم ذلك. مثاله[٥] فلان غني، لأن له الملكَ، وفلان غني وله الملك، أي غنيٌّ بنفسه عن الشيء لا بالشيء.[٦] ومنه قول الشاعر:

غَنِيتُ بلا شيء عن الشيء كلِّه وإن الغِنَى الأعلى عن الشيء لا به.[٧]

وكفىٰ بالله وكيلا، على ما في السماوات وما في الأرض. والوكيل القادر هو الذي لا يمكن أحدا أن يفسد عليه شيئا أو ينقضه بما يبدو منه مِن كفر أو غيره. ولهذا بعده: **إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بئاخرين. وكان الله علىٰ ذٰلك قديرا.**

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ١٣٤﴾

ثم قال: **من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة**، أي إذا كان له ما في السماوات وما في الأرض فيجب على من يطلب الدنيا أن يطلبها منه لأنه صاحبها، ولأن الطالب إنما يطلب مطلوبه ممن يملكه. ثم نبّه على أن الطالب لثواب الدنيا والآخرة إنما يكون طلبه بالقول والفعل أو بأحدهما، فهو تعالى سميع للقول بصير بالفعل فقال: **وكان الله سميعا بصيرا.**

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١٣٥﴾

---

١ الآية ١٣٠ من هذه السورة.

٢ ر: سلاهم.

٣ ر: عنه.

٤ ش – والأرض والثاني أظهر به الاستغناء عنهم إن يكفروا إذ من له ما في السماوات، صح هـ.

٥ ش ك: ومثاله.

٦ ش – لا بالشيء.

٧ لم أجده بهذا اللفظ فيما بين يدي من المصادر. وقال القُهُسْتَانِي نحوه:

غني بلا دنيا عن الخلق كلهم وإن الغنى الأعلى عن الشيء لا به.

انظر: المستطرف للأبشيهي، ١/٧٠.

ثم أخذ يوصينا بما يجب من الأقوال والأفعال التي تدل على التقوى ليكون لنا ثواب الدنيا والآخرة معا فقال: **يٰأيها الذين ءامنوا كونوا قوّٰمين**، ولم يقل: قائمين، **بالقسط**، أي في الأفعال، **شهداء**، به، **لله**، في الأقوال، أي لوجه الله سبحانه، **ولو**، كانت الشهادة، **علىٰ أنفسكم أو الوٰلدين والأقربين**، **إن يكن**، المشهود عليه، **غنيا أو فقيرا**. لمّا كان يمتنع الشاهد أن يشهد على الغني اتقاء شره وعلى الفقير رحمة لفقره قال: **فالله أولىٰ بهما**، منكم. **فلا تتبعوا الهوىٰ**، أي ليكن تركُ اتباع الهوى خوفا، **أن تعدلوا**، [مِن] عَدَل عن الطريق، أي مال عنه. وتقديره أمرناكم لئلا تعدلوا عن القسط إلى الهوى. **وإن تلوۥا**، من الليّ بالألسنَة والتميل،[1] **أو تعرضوا**، بالقلوب وهو كل الميل، والمعنى وإن تميلوا إلى الهوى قليلا أو كثيرا عن القسط في القيام به في سائر الأمور، تقديره: جازيناكم. لهذا بعده بالفاء: **فإن الله كان بما تعملون خبيرا**.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾

ثم قال بعد خطاب المؤمنين لمحمد[2] صلى الله عليه وسلمْ مخاطِبا لمن آمن بالأنبياء المتقدمة ولمن أظهر الإسلامَ من المنافقين: **يٰأيها الذين ءامَنوا**، بالتوراة والإنجيل والأنبياء من قبل، **ءامِنوا بالله ورسوله**، هذا محمدٍ صلى الله عليه وسلم. لهذا بعده: **والكتٰب الذى نزل علىٰ رسوله، والكتٰب الذى أنزل من قبل**، وهذا الخطاب للمنافقين هو خطاب لأهل الكتابين، لكنه أخص بالمنافقين الذين من أهل الكتابين. ولمّا كانوا متى كفروا بالقرآن فقد كفروا بالتوراة والإنجيل، لأنهما والأنبياءَ المتقدمة أَمَروا باتباع المبعوث في آخر الزمان بعلائمه قال بعده: **ومن يكفر بالله وملٰئكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلٰلا بعيدا**. لأن الضالّ قد يضل ويكون قريبا إلى السبيل. وهؤلاء إذا كفروا بهذا الرسول فقد كفروا بمن تقدم، فلزم أن يكونوا قد كفروا بالله وملائكته وكتبه ورسوله، لأنهم لو صدّقوا الكتبَ والرسل لأسلموا. ومتى كفروا بهؤلاء المذكورين في الآية فإن ضلالهم بحسب كفرهم فهو بلا شك بعيد جدا عن سبيل الهدى.

---

[1] ش ك: والتمثيل.

[2] ر: بمحمد.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلَۢا ١٣٧﴾

تقدم في آل عمران.[١] وعن علي رضي الله عنه: لا يستتاب المرتدُّ أكثرَ من / ثلاث مرات.[٢] [١٢٧و]

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨﴾

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ١٣٩﴾

أي جميع العزة لله. وأخِّر للوِزان.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠﴾

وقد نزل عليكم فى الكتٰب، أيها المؤمنون، **أن إذا سمعتم ءايٰت الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتىٰ**، إلى أن، **يخوضوا فى حديث غيره**. هذه الآية لها مفهومان. أحدهما لا تقعدوا معهم منتظرين أن يَفرَغ كلامهم في الكفر ويخوضوا في غيره. والثاني لا تقعدوا من أول ما سمعتم. فمعنى الأول لا تطيلوا، ومعنى الثاني لا تلبثوا. ومحكم هذه الآية ما أحال عليه في أولها بقوله: **وقد نزل عليكم فى الكتاب**، وذلك هو قوله: وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ. وعلله بما بعد ذلك وهو قوله: وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ.[٣] فمراد الآية ههنا هو المعنى الثاني. ولهذا بعده: **إنكم إذًا مِثْلُهم**، إن قعدتم. وهذا يدل على أن أجر السامع كأجر القارئ أو القائل، ووزرَه كوزره إذا اقتصد القعود. **إن الله جامع المنٰفقين والكٰفرين**، [الواو] واو المعية، **فى جهنم جميعا**، أي كلهم في مرة واحدة لا في زمانين. فقوله: **جامع**، من الاجتماع.

[١] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ (سورة آل عمران، ٣/٩٠).

[٢] لم أهتد إليه فيما بين يدي من المصادر.

[٣] ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (سورة الأنعام، ٦/٦٨-٦٩).

ففرقٌ بين الجمع العظيم من الناس وبين الجمع الذي هو ضد التفريق أيضا. ولهذا قال: يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ [ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ].[١]

﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾

الذين يتربصون بكم، أي ما يَحِلّ بكم من الدوائر. **فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم، وإن كان للكفرين نصيب**، أي ما هو نصيبهم من الدنيا دون الآخرى ليزيد الله به في فتنتهم، **قالوا**، لهم: **ألم نستحوذ**، نحترز، **عليكم ونمنعكم من**، بأس، **المؤمنين. فالله يحكم بينكم يوم القيٰمة. ولن يجعل الله للكفرين على المؤمنين سبيلا**، بل بكسب المؤمنين كان النصيب للكفار، ولا يكون ذلك إلا بكسب المؤمنين، كقوله: إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا.[٢] لا لأن الله جعل للكافرين نصيبا من النصر على المؤمنين، أو من أموالهم بغير كسب المؤمنين. لهذا قال: **فإن كان لكم** [فتحٌ]، ثم قال: **من الله**. فافهمه ليتحقق[٣] أن نصيب الكافرين هو من كسب المؤمنين، لا أن الله جعله، بل جعل كسب المؤمنين موجبا له فهو من جعلهم، أعني جعل المؤمنين لا [من] جعل الله، وإلا يعارض[٤] آخرُ الآية ما قبله.

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾

إن المنٰفقين يخدعون الله وهو خٰدعهم، بما يخادعونه به بعينه. ولهذا لم يقل: وهو يخادعهم، بل حالَ مخادعتِهم له هو الخادع لهم بخِداعهم له. **وإذا قاموا إلى الصلوٰة قاموا كسالىٰ**، إِحْذَرْ صفة المنافقين فإنه ربما كَمَنَ في الطباع ما يخفى عن صاحبه. فليكن الوزن[٥] بالكتاب معلوما من قوله: **يراءون الناس**، أي من الفريقين المؤمنِ والكافر، **ولا يذكرون الله إلا قليلا**، من الذكر.

---

[١] سورة التغابن، ٦٤/٩.
[٢] سورة آل عمران، ٣/١٥٥.
[٣] ش: لتتحقق؛ ك: لتحقق.
[٤] ر: ولا يعارض.
[٥] أي الموازنة والمقابلة.

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾

مذبذبين، أي مطرودين من الله، وهو من باب العقاب لهم، وهو من الذَّبّ المضاعَف. وقوله: بين ذٰلك، ليس أنهم بين هؤلاء وهؤلاء، بل بيْن أوصافهم المتقدمة من الرياء والخِداع والكسل. فهم منتقلون من حالة رديّة إلى مثلها قهرا. وقدم قوله: لا إلىٰ هٰؤلاء ولا إلىٰ هٰؤلاء، وأخّر: ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾

فمن فعل ذلك فهو منافق.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾

إن المنٰفقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا. إلا الذين تابوا وأصلحوا، بواطنَهم وما أفسدوا. واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولٰئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما.

[معنى إخلاص الدين]

اعلم أن إخلاص الدين لا يصح إلا بالمعرفة، وأول ما يجب معرفة الصانع سبحانه. فنقول: كل ما في الوجود من الأفعال ينقسم إلى قسمين: قسم يُدرَك بالمعالجة والتعليم وهو صناعات الآدميين كالخياطة والكتابة، وقسم لا يدرك بتعليم ولا معالجة كتصوير البشر من الماء. والقسم الذي يدرك بالمعالجة والتعليم لا يصح وجوده من غير فاعل. وإذا ثبت / بضرورة العقل أن الخياطة والكتابة لا بد لها من صانع ثبت [١٢٧ظ] أيضا بضرورة العقل أن الأشياء التي لا تُدرك بالتعليم كتصوير البشر من الماء لا بد لها من صانع. وإذا صح أن الصنعة لا تقوم من ذاتها إلا بصانع صح أن الماء الذي خُلق منه الإنسان يستحيل في العقل أن يصوِّر من نفسه يدًا أو رِجلا أو بصرا أو كلاما من غير صانع. فثبت أنه لا بد من الصانع. والمخلوقات ثلاثة أقسام حيوان يَعقل،

وحيوان لا يعقل، وجماد لا يدرك. ولو اجتمع الحيوان العاقل على أن يَرُدّ إلى الجسد إصبعا واحدا بعد زواله لعجز. وإذا عجز الحيوان العاقل فغيرُ العاقل أعجزُ. وإذا عجز العاقل وغير العاقل فالجمادُ الذي بمنزلة الموت أعجزُ.[1] وإذا عجز[2] الخلائق عن الشيء المخلوق أن يَرُدّوا ما زال منه فهم عن نشأة التصوير من أوله أعجز. فثبت أن الصانع قادر لا بمعالجة ولا بمثال، وهو الله ذو الجلال. ولو فرضنا معرفة ذاته ولم نمتثل أمْرَه لم يُفِدْنا ذلك. وأما هذا القدر من المعرفة فلا شك أنه يلزم عنه إخلاصُ الدين، وهو اتباع الأمر، فإذا لم يتبع كان من تمام الرحمة ومقتضى الحكمة أن يعذبنا وهو الغني عن ذلك سبحانه.

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾

ما يفعل الله، أيَّ شيء يفعل، بعذابكم إن شكرتم وءامنتم وكان الله شكرا عليما، شاكرا مَن شكره، عليما بإيمان من آمن به ممن نافق.

[هل يمكن إحاطة حقيقة الحق؟]

واعلم أنه قد أَجمعتْ أفراد المحققين من أهل الشرائع والأذواق والعقول السليمة أن حقيقة الحق مجهولة لا يحيط بها علمُ أحد سواه لعدم المناسبة بين الحق من حيث ذاتُه وبين الخلق.[3] إذ لو ثبتت المناسبة من وجه لكان الحق من ذلك الوجه مشابها للخلق مع امتيازه عنهم بما عدا ذلك. وما به الاشتراك غير ما به الامتياز، فلزم[4] التركيب المُؤْذِن[5] بالفقر، وذلك ضد الأحدية. وأما تأثير الحق في الخلق فغير مشكوك فيه. فمن اجتهد بعد العناية الالٰهية فعَطَّل من حواسه حتى بلغ إلى تعطيل القوى الجزئية الظاهرة والباطنة، وفرغ المحل عن كل علم وعن كلّ ما عدا الحق تعالى بتوجهٍ كلي مع توحد العزيمة والإخلاصِ والدوام دون فترة فهذا إنما يُكشَف له بحسبه لا بحسب المتجلي له سبحانه. وهذا لا بد له من أحد قسمين، وهما مُفعَلّ تارة ولا حكم له ولا عليه، وفاعل تارة فهو مأمور بالشرع مخاطَب بأدائه، ولا يُخرجه امتيازه

---

١ ك - وإذا عجز الحيوان العاقل فغير العاقل أعجز وإذا عجز العاقل وغير العاقل فالجماد الذي بمنزلة الموت أعجز، صح هـ.
٢ ك: وإذا أعجز.
٣ ر: وبين خلقه.
٤ ر: فيلزم.
٥ ش - المؤذن، صح هـ.

عن أبناء جنسه عن أن يلتزم في أقواله وأفعاله ظاهرا وباطنا بالدقيق والجليل من الأوامر الشرعية، بل هو أولى بذلك لمحبته لله سبحانه. والمُحب يحب ما أحب له محبوبَه.

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾

لا يحب الله الجهر بالسوء من القول، أي من المظلوم، وفرغ الكلام ثم قال: **إلا**، أي لكن يحب، **من ظُلم**، ولا يَجهر بالسوء من القول لظالمه.[1] ولهذا[2] ذكر لفظة "الجهر" ولفظة "القول"، لأن باطن المظلوم لا بد أن يتغير، لكن هذا موطن الصبر، فافهمه جيدا. وأما[3] الظالم فإنه يُبغضه كلَّه فضلا عن أنه لا يحب بعض أقواله، فالكلام ليس عنه. ودليله ما بعد الآية فهو سبحانه يحب المظلوم ولا يحب الظالم بوجه أبدا. فافهم ذلك، ولا تظنَّ أن الاستثناء ههنا غير منقطع فيكون الله يحب الجهر بالسوء، تعالى عن ذلك. ولهذا لم يقل: إلا ممن ظُلم،[4] ولو أحبه ممن ظُلم[5] لما قال: وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ،[6] وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ،[7] ومثل ذلك كثير.[8] **وكان الله سميعا عليما**.

﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾

ولهذا قال بعده: **إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء**، أي فذلك هو الأفضل ولكم عليه الجزاء. قال صاحب تفسير الغريب العجيب: إنما قال ههنا: **إن تبدوا خيرا**، وفي الأحزاب: إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا،[9] لمقابلة السوء ههنا في قوله: **لا يحب الله الجهر بالسوء**. وقوله: **أو تعفوا عن سوء**، وهناك وقع بعد قوله: وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ،[10] فاقتضى العمومَ وشيء من أعم العموم.[11] **فإن الله كان عفوا قديرا**، على / الانتقام ممن يعفو [١٢٨و]
عنه. ويجب على المؤمن أن يتشبه بصفات الحق التي هي الأسماء الحسنى فيعفو عن المسيئ إليه مع القدرة منه عليه. ومن أبلغ النِّعَم تعليم الخلق صفات الحق.

---

[1] ك: الظالمة.
[2] ش: وهذا.
[3] ش: فأما.
[4] ش ك: إلا من ظلم.
[5] ك - ولو أحبه ممن ظلم، صح هـ.
[6] ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ (سورة النحل، ١٦/١٢٦).
[7] سورة لقمان، ٣١/١٧.
[8] انظر مثلا: سورة البقرة، ٢/٤٥، ١٥٣؛ وسورة آل عمران، ٣/٢٠٠؛ وسورة الأعراف، ٧/١٢٦؛ وسورة الأنفال، ٨/٤٦.
[9] ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣/٥٤).
[10] سورة الأحزاب، ٣٣/٥١.
[11] البرهان للكرماني، ص ١٥٧-١٥٨.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢﴾

والذين ءامنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما، لما تقدم منهم إذا كفروا بعد الإيمان ثم عادوا إلى الإيمان[1]

﴿يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ١٥٣﴾

﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤﴾

ورفعنا فوقهم الطور بميثٰقهم، الباء للظرفية، أي في حال أخذِنا الميثاقَ منهم. وقلنا لهم، في الميثاق: ادخلوا الباب سجدا، وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثٰقا غليظا، وهو بمعنى لا تتعدَّوا ما أمرناكم به في يوم السبت. ومثله فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ.[2]

﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥٥﴾

فبما نقضهم ميثٰقهم وكفرهم بئايٰت الله، في التوراة. ولفظة "ما" ههنا بمعنى "الذي"، فيكون ههنا مقدّر محذوف دل عليه ما عدّد عليهم بعده. وتقديره: فبالذي بدأ من نقضهم ميثاقَهم ومِن كفرهم بآيات، الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف، أي مخلوقة كذلك فليس لنا ذنب بل حجة وعذر. وليس[3] كذلك، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا، منهم، فإنه يؤمن. فافهم هذه وأمثالَها،

---

١ ش – ثم عادوا إلى الإيمان، صح هـ.

٢ ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ (سورة المعارج، ٧٠/٣١).

٣ ش: فليس.

لأنه لمّا سَلب الإيمان عنهم استثنى من يؤمن منهم من ذلك الحين إلى يوم القيامة، وهم قليل في جنب مَن لم يؤمن، وهذا كقوله: لَاتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا،[1] ومثل ذلك كثير.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾

وقوله مكررا: وبكفرهم، أي بالمسيح؛ وإن كان الآخرون من بني إسرائيل غيرَ الأولين لكن أشار إلى أن القلوب واحدة في الكفر، والأفعالُ كالأفعال فالعقاب واحد. وقولِهم علىٰ مريم بهتٰنا عظيما. ومثال هذه الباء كما تقول لصاحبك: بماذا فعلت مع فلان ما فعلته فيقول: بما نقض الميثاقَ وبما فعل وكفر. ثم تقول:[2] فبظلم منه، أي بسبب ظلم بدأ منه عاقبتُه.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾

وقولِهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله، أي المشهور بهذه الدعوى عندهم. وما قتلوه وما صلبوه ولٰكن شبّه لهم، افهم هذه العبارة واعرف الفَرق بينها وبين قوله لو قال: ولكن شبهه الله لهم، أو اشتبه عليهم. فإنه[3] لو قال: شبهه الله لدل على كرامتهم، إذ شبه لهم بعيسى واحدا ليرضيهم[4] بقتلِ واحد وإن لم يكن عيسى. ولقد كان تعالى قادرا على إكرام عيسى عليه السلام وأن ينجيه منهم بغير ذلك. ولو قال: اشتبه [لكان] دل على أنهم اشتبه عليهم كلهم مثلا. ومتى اشتبه الشيء[5] فيجوز أن يكون هو المشارَ إليه في نفس الأمر وقد اشتبه، كما يجوز أن يكون غيره وقد اشتبه أيضا. وقد نسب الضمير إلى عيسى، أعني أشار إليه فلزم أن لا يقول شيئا من ذلك. فقوله: شُبِّهَ، بهذه العبارة وما بعدها يدل على ما نقله الجُبّائي[6] أنه لما رُفع عيسى عليه السلام خاف رؤساءُ اليهود من اتّباع اليهود لعيسى وميلهم إلى من مال معه منهم.

---

[1] الآية ٨٣ من هذه السورة.

[2] ر: فتقول.

[3] ر ك: فإن.

[4] ر ك: ليرضهم.

[5] ر ك – الشيء.

[6] أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلّام الجبائي، من أئمة المعتزلة ورئيس علماء الكلام في عصره. وإليه نسبة الطائفة الجبائية. له مقالات وآراء انفرد بها في المذهب. نسبته إلى جُبّى من قرى البصرة. اشتهر في البصرة. ودفن بجُبّى. له تفسير حافل مطول. رد عليه الاشعري. توفي سنة ٣٠٣هـ/٩١٦م (الأعلام للزركلي، ٦/٢٥٦).

فعمدوا إلى رجل فقتلوه وصلبوه على مكان عالٍ بعد قتله. ولم يمكّنوا أحدا من الدنوّ منه فتغيرت[١] حليته وتنكرت صورته، وقالوا: قتلنا عيسى، وموّهوا[٢] على بقية قومهم فاختلفوا.

وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، وذلك أنه من حين رُفع. **ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه**، ثم قال: **يقينا**، فهم عن يقين منهم، أعني من ادعى قتله يتيقنون أنهم ما قتلوه. وهم الذين شَبّهوا لبقية الناس منهم، وبقيةُ الناس هم الذين شبّه لهم رجلٌ بعيسى ممن قد كان يُشْبهه. فجاءت / العبارة منبئة بصورة الواقعة. ولو شبه[٣] [١٢٨ظ]
الله لهم إنسانا بعيسى فقتلوه لم يكن قولهم: **إنا قتلنا المسيح**، هُجْنَة[٤] ولا كَذِبا، إذ لو أتى إنسانٌ امرأة تُشبه زوجتَه بحيث لا يشك فيها لم يكن زانيا. وقوله تعالى: **وما قتلوه وما صلبوه**، دل على أنهم قتلوا إنسانا أولا ثم صلبوه بعد القتل، وهذا القصد[٥] منهم. ولهذا لم يقل: اشتبه، فإنه لم يشتبه عليهم بل الرؤساء شَبّهوا، وغيرُهم شبّه لهم. ولم يقل أيضا: شبهه الله كما تقدم. وأما الذين اختلفوا فيه فهم غير الرؤساء لأنهم كلهم كانوا يهودا،[٦] غير أن بعضهم خالفَ بعضا في الإيمان به. فأخبر الله عن بقية اليهود والنصارى بقوله: **وإن الذين اختلفوا فيه**، أي في الإيمان به لا في قتله، **لفي شك منه**. فعاد قوله: **وما قتلوه**، راجعا إلى الرؤساء المتيقنين بأنهم لم يقتلوه بل شبّهوا.[٧] وقوله: **وإن الذين اختلفوا فيه**، راجعا إلى اليهود والنصارى معا. ولهذا لم يقل: اختلفوا في قتله. وقوله: **ما لهم به من علم**، عائد على اليهود والنصارى غير الرؤساء. و"مِن" ههنا تدل على استغراق الجنس. وقوله: **إلا اتباعَ الظن**، أي إن اتّباعَهم لِمَا فعله الرؤساءُ وادّعَوه اتّباعُ ظن. ولمّا ذكر الظن من المتبعين أتبعه بذكر اليقين من القائلين للمشبَّه مع نفي القتل عن عيسى. فقال: **وما قتلوه**، أي وذلك الإخبار منا بقولنا: **ما قتلوه**، هو عن يقين منهم. ولا تفهم أنهم قتلوه شكا، **بل رفعه الله إليه. وكان الله عزيزا حكيما**.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾

---

١ ر ك: فغيرت.

٢ مَوَّهَ الخبرَ عليه تمويها إذا أَخْبَره بخِلافِ ما سألَه (تاج العروس للزبيدي «موه»).

٣ ر: لو شبه.

٤ الهُجْنة من الكلام ما يَعِيبُك (لسان العرب، «هجن»).

٥ ر: هذا لقصد.

٦ جميع النسخ: يهود.

٧ ر ك: بل شبه.

وقوله: **وإنْ من أهل الكتٰب**، أي وإنْ واحدٌ منهم، **إلا ليؤمنن به قبل موته**. والذي اختلف فيه المفسرون من أن هذه الهاء في "موته" ضمير عائد على عيسى. فظاهرٌ في العقل أن الذين يبقَون من أهل الكتاب إلى حين ظهور عيسى عليه السلام قليل ومضمون الآية يقتضي العمومَ. ومن قال بنزوله في الدنيا فإن نزل وهو غير نبي فلا فائدة في نزوله، وإن نزل وهو نبي فلا جائز، لأن ممحدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين،[١] والكتاب لم يشهد بنزوله. وإن صح الحديث[٢] بنزوله فله تأويل يعلمه من يعلم قوله تعالى في التوراة: الله من سيناء جاء وتمامَه.[٣] وقد بينا قوله تعالى: **إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ**.[٤] فلزم أن تكون الهاء في قوله: **قبل موته**، عائدةً على كل واحد من أهل الكتاب لانتفائها عن العودة إلى عيسى من الوجوه المذكورة وغيرها، ومن الوجوه ما ذكره بعضهم من أن الإيمان به يكون يوم القيامة عند حضور الناس كلهم. فلزمه أن عيسى يموت يوم يحيا الناسُ. وهذا بخلاف العقل والنص أيضا لأن النص صرّح بأن عيسى يُبعث حيا. ولا حاجة إلى الإطالة فيما إذا فكّرت فيه بغير هوى عرفته. فلم يبق سوى إما أن يكون المقصود بهذا الكلام جاء تعريفا لنا من الله سبحانه بأن كل واحد من أهل الكتاب قبل الموت، أي عند حضوره قبل المفارقة يُكشف له فيرى الدار الآخرة والأنبياء، أو يرى عيسى عليه السلام ولو بمفرد عيسى، فيشاهد بعين اليقين ما يوجب له الإيمانَ بعيسى حيث لا ينفعه الإيمان، كقوله تعالى عن فرعون: **فلما أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ**،[٥] وكقوله: **فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا**،[٦] وإما أن يكون الكلام يدل على ما سنقوله والله أعلم.

[المسيح عند اليهود]

وذلك أن اليهود جميعَهم ينتظرون مجيءَ رجل يسمونه المسيح بن داود، أي من نسلِ داود النبي عليه السلام، وهم إلى[٧] الآن كذلك. ويعتقدون أن لا بد أن يظهره الله

---

١ ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ (سورة الأحزاب، ٤٠/٣٣).

٢ انظر مثلا: مسند أحمد بن حنبل، ٦/٤؛ وصحيح مسلم، الإيمان ٢٤٧؛ وسنن الترمذي، الفتن ٥٤.

٣ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى ما ورد في التوراة: «جاء الرب من سيناء» (التَّثْنِية ٣٣/٣٣).

٤ سورة آل عمران، ٥٥/٣.

٥ ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة يونس، ٩٠/١٠).

٦ سورة المؤمن، ٨٥/٤٠.

٧ ر – إلى، صح هـ.

في بني إسرائيل، وقد نطقت به التوراةُ والزبور وكثير من أنبيائهم مثل يَشْعِيَه وغيره. وإنما أشاروا جميعُهم إلى هذا ابنِ مريم عليه السلام، غير أن جميع اليهود اتفقوا على ضد ما قالته الأنبياء عندهم. وذلك أنهم يدّعون أن المشار إليه ينتظرونه ليس هو هذا، وأن هذا وُلد من الزنى. فهم كل واحد يؤمن في الدنيا قبل الموت بعيسى عليه السلام الذي اسمه المسيح. وهذا هو الذي يؤمنون / به في حقيقة الأمر. ولكنهم لا يعلمون [١٢٩و] أنه هو، فينتظرون غيره. والذي عَلم في زمانه منهم آمن به والباقون يتناقلون الاسم والصفات وهم ينتظرونه ويؤمنون به ويجحدون أنه هو[١] هذا ابن مريم الذي جاء إليهم، فينتظرون غيره.

ولمّا علم الله منهم أن كل واحد منهم يؤمن بالمسيح وكلّ واحد يَكفر به لاعتقاده أنه ليس هو هذا كان في هذه القضية أمر عجيب يَحِقّ له أن يُنزله الله في كتابه العزيز[٢] ليعرِّفَنا أن كل واحد من أهل الكتاب يؤمن بعيسى في الدنيا قبل موت كل واحد، والجميع متفقون على الكفر به، وأن المشار إليه غير هذا بزعمهم. فلهذا قال: ويومَ القيٰمة يكون عليهم شهيدا، يشهد عليهم بأنهم كانوا ينتظرونه ويؤمنون به ويكفرون به. فيكذّبهم في كفرهم[٣] وفي دعواهم عنه أنهم قتلوه، ومن أنهم ادعوا فيه الإلٰهية. والله أعلم بكتابه وأدرى بصوابه. ولا يُشكل عليك قوله: قبل موته، وتعتقد[٤] أنه[٥] عند موته ظاهر[٦] وقبل موته، أي[٧] في حياة[٨] كل واحد منهم قبل أن يموت. ولفظة "قبل" قد جاءت في عدة مواضع لا تدل على "عند". فإن قوله: بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ[٩] بيّنهم ما شاء الله تعالى. وإنما عبر بلفظة "قبل" لئلا تعتقد أن الإيمان به إنما يكون عند الموت أو بعده يوم القيامة، فافهم ذلك. فما أحد منهم يبلغ عقلُه حتى النساء والصبيانُ إلا وهو قبل الموت يعتقد أن المسيح يأتي ويخلِّص اليهود من الجزية والذلّ ويقيم فيهم المُلْكَ. فهم ينتظرونه ولا يزالون كذلك. فهم يؤمنون به من حيث لا يعلمون أنه هو إلى أن يشهد عليهم أنه جاءهم بأمر الله. فكفروا وتولوا واستغنى الله.

١ ش ك – هو.
٢ ر – العزيز.
٣ ر: فيكذّبهم كفرهم.
٤ ش: ويعتقد.
٥ ر: بل.
٦ ش: ظاهرا.
٧ ش – أي.
٨ ش ك: في حياته.
٩ الآية ٦٠ و١٦٢ من هذه السورة.

[رفع عيسى عليه السلام]

وأما قوله تعالى: بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ،[١] فهو كقوله تعالى: وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا،[٢] وكقوله عن إبراهيم: إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي [سَيَهۡدِينِ]،[٣] ومثله يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٍ.[٤] ونفس قوله تعالى: بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ، يعطي أن هذا الرفع ليس بالجسد، لأن الله تعالى ليس في مكان وحيّزٍ بل كما قيل في الشهداء: عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ،[٥] وأجسامهم في التراب جِيَفٌ. وقد روي أن إبراهيم وموسى وغيرَهما رآهم النبي عليه السلام ليلة المعراج،[٦] ولا شك أنه ما منهم أحد رُفع بالجسد. ونحن فلا يجوز لنا أن نَحمل على عقولنا ما ليس في وسعها، لأنها مبدَعة متناهية. وأما الإسراء فلا شرف إذا كان بجسد النبي عليه السلام بعد أن قد رأى ما رآه وصدّقه الله تعالى بقوله: مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰ،[٧] ولا نَقْصَ إذا كان الإسراء بالروح دون الجسد، أو كان[٨] نوما. ولا خلاف في أن إبراهيم وآدم وموسى لم يكونوا في السماء بأجسادهم،[٩] وكذلك رآهم بأجسادهم مِن ورائهم،[١٠] وهذا إنما نقوله لأنه الأقرب في الأذهان. مع أننا لا ننكر أن الله تعالى يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ من رفعِ جبلٍ في الهواء أو بحرٍ من الماء في السحاب وغيره، فكيف لا يَرفع جسدَ نبي له؟ ولكنّ شرفَ الرسول ثابت بما لا يدفعه الخصم. وكذلك الاعتراف بقدرة البارئ تعالى، فلا نزاع إذا حصل المراد، وكذلك الكلام في عيسى عليه السلام. والله أعلم بأنبيائه وأدرى بأنبائه.[١١]

ويجب أن تعلم أن الله تعالى إنما أذن للرؤساء ومكّنهم مما[١٢] فعلوه من أنهم قتلوا إنسانا وشبهوه لبني إسرائيل وادعوا أنه عيسى، جميعُ ذلك بحكمة إلٰهية من الله سبحانه وتعالى. وذلك أن هذا الأمر بعينه رحمةٌ في حق مَن آمن بعيسى وفتنةٌ في حق من كفر به. أما من آمن فلعلم الله سبحانه وتعالى بما سيكون مِن دعوى مَن يدعي فيه الإلٰهية.

---

١ من الآية السابقة.

٢ ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (سورة مريم، ١٩/٥٦-٥٧).

٣ سورة الصافات، ٣٧/٩٩.

٤ سورة المجادلة، ٥٨/١١.

٥ ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٦٩).

٦ انظر لمعرفة المزيد: صحيح البخاري، الأنبياء ٥، وتفسير القرآن ١٧/٣ (سورة الإسراء ٣)؛ وصحيح مسلم، الإيمان ٢٦٣-٢٦٩.

٧ سورة النجم، ٥٣/١١.

٨ ش: وكان.

٩ ر ك: بأجسد.

١٠ ر ك - بأجسادهم من ورائهم.

١١ ش - وأدرى بأنبائه.

١٢ ش ك: بما.

فإذا رأى في الإنجيل مكتوبا أنه أُخذ وصُلب[1] تحقق أن الإلٰه الخالق لا يكون مقهورا من خلقه. فيكون نص الإنجيل وما أجمع عليه أهلُ دين النصرانية مبيّنا لمن يفقه ويعتبر ولا يشك في أن عيسى ليس بإله، وأن ما يدّعونه / فيه النصارى ليس بحق في [١٢٩ظ] عقل كل عاقل. فتكون هذه الدعوى منهم من أكبر موجب يوجب الإسلام لمن يؤمن منهم ولمن له نظر. وإذا صح كَذِبُهم بدعوى الإلٰهية في عيسى فهم أولى بالكذب في أنه قُتل بلا شك. فهذا حكم مَن آمن بعيسى. فأما حكم مَن كفر به فإن ما جرى من الرؤساء كما قدمنا هو فتنة له، أضله الله بها هو ومن يأتي بعده من ذريته ومتبعيه إذا اتبع أباه[2] مقلِّدا له فيما تأباه العقول. فأرسل الله محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ومبيّنا للفريقين ليَعلم من آمن بعيسى ومن كفر به أن عيسى ليس كما ادّعى هؤلاء المؤمنون به من الإلٰهية، وأنه لم يُقتل كما ادعى هؤلاء الكفارُ به من الأمة اليهودية. وذَمّ المقلدين الذين يتبعون آباءهم مع كون الآباء لا يعقلون ولا يهتدون.[3] فإن من يعقل لا يدعي الإلٰهية في بشرٍ خصوصا إذا ألزم نفسه فالتزم أن إلٰهه قد استولى عليه بعضُ خلقه وقتلوه. فقد صح ما قدمناه من أنه تعالى إنما أذن في ذلك كله لحكمة منه سبحانه وقامت الحجة له على سائر خلقه بمحمد صلى الله عليه وسلم.

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾

ولما كان الكلام في عيسى معترِضا بين كلامه سبحانه عن الذين هادوا عاد إلى تمامه بعد ما شرح ما عدّده من ذنوبهم بقوله: فَبِمَا [نَقْضِهِم].[4] ثم كرر الفاء لبُعدِ الكلام وأتى بالجواب لهذا وقال: **فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبٰت أحلت لهم**. بيان ذلك أن هذا[5] التحريم هو بعد نزول القرآن، لأن القرآن[6] أحل لهم الطيبات فأبوا أن يؤمنوا به فعاد التحريم منهم بعد التحليل منه عقابا. وذلك لأن الله تعالى

---

[1] الإنجيل، لوقا ٢٣/٣٣؛ ويحنا ١٩/١٧-١٨.

[2] ش: آباءه.

[3] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة، ٢/١٧٠).

[4] الآية ١٥٥ من هذه السورة.

[5] ر - هذا، صح هـ.

[6] ك - لأن القرآن، صح هـ.

تعبَّدَهم في التوراة بتحريم بعضِ الذبائح وبعضِ الشحوم ووعَدهم بمجيء نبيّ من إخوتهم يُحِلّ لهم الطيبات.[١] فكفروا به فعاقبهم إلى أن يؤمنوا [به]. ومن جِبِلَّة العقاب لهم[٢] أن حُرِموا أيضا من الحلال ما يذبحه المسلم وغير ذلك، وهو ما حرّمه عليهم علماؤهم، فهم وإن كان العلماء حرموا ما حرموه عليهم بعد التوراة فذلك عقاب من الله أن سلّط عليهم أهلَ الضلال فأضلوهم. فكأنه سبحانه هو الذي حرم عليهم ذلك، كقوله تعالى: وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ،[٣] أي عقابا له. وهذا كلام مطلق يعم مَن يتولى مِن كل قوم وقوم. فافهم كيف يكون الفعل الواحد قد صدَر من فاعله وهو من الله سبحانه بعينه عقاب لفاعله عليه. وهذا تجده في كثير من المواضع في القرآن. فهذا هو ما عاقبهم الله به. وذلك **بظلمهم، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا،** من سالكيها. **وَأَخۡذِهِمُ الربوٰا وقد نُهوا عنه،** في التوراة، إذ من المكتوب فيها: للأجنبي تُرابي ولأخيك لا ترابي،[٤] ولم يكن في ذلك الزمان أمةٌ تعبد الله تعالى سوى بني إسرائيل فقط. فظنوا الآن أن الربا يجوز على المسلم والنصرانيّ، ولا يحل لهم ذلك إذا وقفوا مع التوراة لأن النصارى منهم والمسلمين إخوتهم في النسب. وإنما أباح لهم في ذلك الزمان دمَ المشركين والكفار، فكيف لا يبيح أموالَهم بكل صورة. مع أنه[٥] يحتمل أن يكون هذا مما بدلوه في التوراة. وعلى كل حال إنما حملهم على جواز[٦] أكلِ مال الربا اعتقادُهم بأن مَن سواهم كافر. وهذا بخلاف ما في التوراة، فهم يخالفونها بإباحة أخذ الربا من المسلم، **وأَكْلِهم أموٰلَ الناس بالبٰطل وأعتدنا للكٰفرين منهم،** بهذا النبي، **عذابا أليما.**

---

١ لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ (سورة الأعراف، ١٥٧/٧).

٢ ش ك + أيضا.

٣ الآية ١١٥ من هذه السورة.

٤ لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «لا تُقرض أخاك بربا، ربا فضة، أو ربا طعام، أو ربا شيء ما مما يُقرض بربا، للأجنبي تقرض بربا، ولكن لأخيك لا تقرض بربا، ليباركك الربُّ إلهك في كل ما تمتد إليه يدُك في الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها» (التثنية ١٩/٢٣-٢٠). وانظر أيضا: «وإذا افتقر أخوك وقَصُرت يده عندك، فَاعْضُده غريبا أو مستوطنا فيعيش معك لا تأخذ منه ربا ولا مرابحة، بل اخش إلهك، فيعيش أخوك معك. فِضَّتَكَ لا تعطه بالربا، وطعامَكَ لا تعط بالمرابحة» (التوراة، اللاويّين ٢٥/ ٣٥-٣٧).

٥ ر: مع الله.

٦ ر - جواز.

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾

لٰكن الرّٰسخون فى العلم منهم. العلم ضربان: تصورٌ، كمن يَعرف الصلاة وإن لم تَثبت صحتُها عنده؛ وتصورٌ وتصديق، وهو ما يُعرف وتُثْبت صحته بحيث لا تُمكن معارضتُه. فرسوخ هذه المعرفةِ في القلب هو رسوخُ صاحبها في العلم. فهو يشير إلى الذين يُسلمون عن علم / منهم بما في التوراة. والمؤمنون، تقديره: منهم وإن لم [١٣٠و] يكونوا من الراسخين، يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك. وقوله: والمقيمين الصلوٰة، مجرور بواو المعية، أي مع المقيمين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم. وقوله بالرفع: والمؤتون الزكوٰة، عطف على الأول وهو في موضع ابتداء. وتقديره: وهؤلاء والمؤتون. والمؤمنون بالله واليوم الآخر، أي من سائر الخلق يوم القيامة؛ فهو عام، وقوله أولا: والمؤمنون، خاص ببني إسرائيل. ولما أضاف المرفوعَ بعد النصب إلى ما قبله جَمَع الجميع بقوله: أولٰئك، أي كلُّهم ولم يحذفها، سنؤتيهم أجرا عظيما. فافهم هذا التفصيل الواضح.

﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾

ولهذا بعده: إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلىٰ نوح والنبيين من بعده، إلى إبراهيم. وإذا كان الوحي إلى الجميع إنما هو من الله فالمؤمنون بالوحي في كل زمن وزمن هم على ملة واحدة. وأوحينا إلىٰ إبرٰهيم وإسمٰعيل وإسحٰق ويعقوب والأسباط وعيسىٰ وأيوب ويونس وهٰرون وسليمٰن، وهذا الترتيب يدل على صور[١] من الوحي لنوح ومن بعده مِن الأنبياء إلى إبراهيم، أوحى الله إليهم كما أوحى لنوح.[٢] ثم يدل على بقية المذكورين أنه أوحى إليهم كما أوحى إلى إبراهيم. ولهذا لم يذكر موسى عند ذكر هارون وقال: أوحينا، وأوحينا، أعنى نوحا وإبراهيم. ثم قال: وءاتينا داود زبورا. والزبور، مشتق من الزُبْرة

[١] ر: على صورة.
[٢] ش + ومن بعده من الأنبياء.

وهي القطعة. وكذلك تجد الزبور قِطَعا، كل واحدة يقال لها بلسانهم: "مزمور يتضمن" حِكَما وأمثالا وغيرَ ذلك، ويعود في الأصل إلى الزبرة. ولكنها ههنا في المعنى من قولك: زَبَره إذا زَجَره بقطعة من كلام، فهو من الزَّبْر وهو الزجر والوعظ.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾

وقوله: ورسلا، أي و[أوحينا] إلى رسل، **قد قصصنٰهم عليك من قبل**، أي في القرآن، **ورسلا لم نقصصهم عليك. وكلم الله موسىٰ تكليما**، أي لا وحيا بل كان يسمع كلاما من وراء حجاب. وجاء في التوراة: فَمًا بِفَمٍ أُكلِّمه،[1] يقول الله تعالى في موضع[2] آخر منها: كما يكلِّم المرءُ صاحبه.[3]

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾

وقوله: **رسلا مبشرين ومنذرين**، نُصب على الحال. وقَطَع حجة كل من يحتج من الناس بقوله: **لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. وكان الله عزيزا حكيما.**

﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾

لٰكن الله يشهد بما أنزل إليك، هذا معطوف على محذوف لازم من قوله تعالى: إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ،[4] وتمامِه. تقديره: فكفروا فهم لا يشهدون لك، **لكن الله يشهد، [بما أنزل إليك] أنزله بعلمه والملٰئكة يشهدون وكفىٰ بالله شهيدا.**

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾

إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلٰلا بعيدا، عن الهدى.

---

[1] لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «وجها لوجه تكلم الرب معنا» (التَّثْنِيَة ٥/٤).

[2] جميع النسخ: وفي موضع.

[3] لعل المؤلف يشير إلى ما ورد في التوراة: «ويكلم الرب موسى وجها لوجه، كما يكلم الرجل صاحبه» (الخُرُوج ٣٣/١١).

[4] الآية ١٦٣ من هذه السورة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨﴾

إن الذين كفروا وظلموا، أنفسهم وغيرهم، لأنه مطلق لكن المراد ههنا بالظلم إنما هو للغير لكونه قدّم "وصدوا". فالآية الأولى صفتهم من جهة كسبهم، والآية الثانية جزاؤهم على ذلك. ولو تابوا تاب الله عليهم. وإنما بين لنا أنه هو[1] سبحانه لا يَبْدأهم بالهدى والمغفرة كما كان أوجب على نفسه أول مرة. فافهمه من موضعه المفصل فيه وهو في آل عمران[2] لئلا تظن أن هؤلاء ممن طُبع على قلبه بقوله عنهم: **لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا.**

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ١٦٩﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠﴾

يٰأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فئامنوا، نصب على إضمار "يكن الإيمان"، **خيرا لكم**، أي لأن عائد ذلك الإيمان عليكم. **وإن تكفروا فإن لله ما فى السمٰوٰت والأرض**، وسائر ما في هذه السورة ما في السماوات وما في الأرض. والوجه في ذلك أنه لمّا كان مراد الآية إعلامَ العباد بأن أفعالهم عائدة عليهم من الكفر والإيمان جاء فيها ذكرُ السماوات والأرض بصورة الإجمال لا التفصيل. لأن الاهتمام وقع فيها بذكر ما يتعلق بالخلق لا بذكر ما / يتعلق بالحق، [١٣٠ظ] وفي غيرها إما بالعكس وإما بالجمع، فافهم. **وكان الله عليما حكيما**، أي فهو غني عن الإيمان فلا ينفعه وإنما هو خير لكم؛ وكفركم به شر لكم ولا يضره ذلك؛ لأنه غني بما له سبحانه وإن كان غنيا[3] بنفسه، لكن في أفهامكم أن من له ملك السماوات والأرض هو غني عنكم. فذكر في نصف الآية أولا إيمانَهم وأنه خير لهم، فلزم أن يكون كفرهم شرا لهم. وذكر في نصفها الآخر أن الله غني، أي لا يضره كفرُكم، فلزم أنه[4] لا ينفعه إيمانكم. فتأمل ما ذكرته لك متأنيا لتفهمه جيدا وتفهم به مثلَه.

---

[1] ر – هو.

[2] لعل المؤلف رحمه الله يشير إلى تفسير الآية ١٥٥ من سورة آل عمران.

[3] ر – غنيا.

[4] ش: فلزم أن.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾

يٰأهل الكتٰب لا تغلوا فى دينكم، الغلوّ في كل شيء تجاوزُ حدِّه. **ولا تقولوا على الله إلا الحقّ. إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقىٰها إلىٰ مريم وروح منه.** مفهوم من قوله تعالى: وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ،[١] فلا تدل [مِن] على التبعيض بل معناها: من أمره. وقد علمت قوله تعالى: ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ،[٢] وهو الإنسان مطلقا. ولا يكون هذا حجةً للنصارى كما يدعي بعضُهم لجهله. فليس المراد ههنا تشريف عيسى عليه السلام وتمييزَه عن بقية الخلق أو تخصيصَه بهذه النسبة، بل ضدُّ ذلك وهو أنه كبقية الخلق. فإن قوله: **وروح منه،** هو معنى [قوله:] فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي.[٣] فعيسى لمّا ادعى فيه النصارى ما نسبوه إليه من الإلٰهية كذّبهم الله بقوله ما معناه: ليس المسيح إلا مخلوقا[٤] كأحد البشر المخلوقين الذين هم روح من الله خُلقت فيهم بنفخة. وستفهم في قوله: وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ،[٥] تمامَ ذلك. وأما من قال إن قوله: **وروح منه،** بمعنى وعِلْمٌ منه فلا جائزٌ هذا، لأن العلم قديم وروح عيسى مخلوقة محدَثة، والعلم لا يتبعض. **فـٔامنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلٰثة انتهوا خيرا لكم. إنما الله إلٰه وٰحد سبحٰنه أن يكون له ولد. له ما فى السمٰوٰت وما فى الأرض وكفىٰ بالله وكيلا.**

﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ١٧٢﴾

لن يستنكف، أي لن يَأنف؛ وهو تكبرٌ في تركه أَنَفَةٌ، وليس الاستكبار كذلك. وأصله من نَكَفْتُ الدمعَ إذا نحّيتَه[٦] من خدك. فمعناه لن يَتَنحَّ[٧] ولن يمتنع، **المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملٰئكة المقربون. ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر،** من بقية خلقه،

[١] سورة الجاثية، ١٣/٤٥.
[٢] سورة السجدة، ٩/٣٢.
[٣] سورة ص، ٧٢/٣٨.
[٤] جميع النسخ: مخلوق.
[٥] ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ (سورة الإسراء، ٨٥/١٧).
[٦] ك: إذا تحيته.
[٧] ر: لن ينتح.

لأن هذا[1] المعنى لا يُتصوَّر أن يقع من المذكورين، فسيحشرهم إليه جميعا، ويجزيهم.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾

يٰأيها الناس قد جاءكم برهٰن، قيل: فيه تقديم وتأخير في الحروف فهو من بُهْران وهو ما يَبهر لشدة ظهوره، من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا. والمعنى برهان في هذا الكتاب.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾

ولما كان البرهان هو الذي يصحِّح الدعوى ويصدِّق الدليل ولا مَدفع له ذكره ههنا مطلقا وأشار به مع الإطلاق إلى هذه الآية الأخيرة التي بها يتضح في الفرائض ما لم يكن واضحا. ولهذا قال: فأما الذين ءامنوا. ولم يقل:[2] وأما الذين كفروا، بل كأنه قال: آمنوا بهذا النور. والذي أوضح بهذه الآية هو ما ذكرناه من قوله في البنات: فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ،[3] وهنا[4] في الأخوات وإن كانتا[5] اثنتين. وبيَّن أيضا من أمر الكلالة ما لم يكن بيِّنا. ولهذا قال في آخر الآية: يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ،[6] لأنه ذكر النور في الآية الأولى وذكر البيانَ في الأخيرة، وهذا وجه الرابطة بين هذه الآية الآخرة وما قبلها. والله أعلم.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾

---

[1] ر ك – هذا.
[2] أي في دوام هذه الآية.
[3] الآية ١١ من هذه السورة.
[4] ر: وهذا.
[5] ر: وإن كانت.
[6] من الآية التالية.

يستفتونك، أي في الكلالة وما تضمنته بقية الآية. ولهذا لم يقدم قولَه في الكلالة لئلا تتخصص الفتوى بها وحدها، بل قال: **قل الله يفتيكم فى الكلٰلة إن امرؤ هلك.** وانظر إلى قوله: / **ليس له ولد**، الذي يدل على أن الأُولى بولد. وانظر إلى قوله: **هلك**، [١٣١و]
ولم يقل: مات. **وله أخت فلها نصف ما ترك، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد. فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك. وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين. يبين الله لكم**، حَذَرًا، **أن تضلوا. والله بكل شىء عليم**، سبحانه وتعالى.

واعلم أن القدرة والعلمَ من أشرفِ أوصاف البارئ سبحانه في الأفهام. فبدأ هذه السورةَ بقوله: ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ،[١] إخبارا عن عظم القدرة. وختم بقوله: **والله بكل شىء عليم**، إخبارا عن كمال العلم. وهذه الآية قد احتوت على بيان عدةِ أحكام بلازمها بعد صريحها. فمن ذلك معرفة ما للأب وحده أو للأم وحدها، لأنهما أولى من الأخ أو الأخت مع الانفراد. ومنه بيان ما للابن وحده، لأنه أولى من الأخ وحده. ومنه بيان ما للبنتين، لأنهما أولى من الأختين. ومنه بيان لزوم تكملة الفرض الأكبر للصِّهْر إذا لم يكن ثَمّ مُزاحِمٌ بفرض دون إرث لأوْلَوِيّة الصهر على الأخ فيما عَيّن له من فرض دون إرث. ومنه بيان أن الكلالة الأُولى بولد، لأن الثانية بلا أحد. ومنه بيان حكم السدس للأخ مع الولد الوارث، كما بان أن للأب السدسَ مع الولد الوارث، وذلك لكون النص عَيّن للأخ في الأول سدسا وفي الآخِر كُلًّا. ومنه بيان لزوم ردِّ ما فَضَل عن الفرض على النسب دون الصهر إذا اجتمعا لكون النص عيَّن للأخ وحده ما لم يعينه للصهر وحده. وللمتفقه المستنبِط نظرٌ يحقِّق به كثيرا من الأحكام اللازمة عن فهم هذه الآية بعد ما ذكرناه. فإلى هذه الآية يُرَدّ كثير مما يُشكل، إذ بفتوى العالم يَنحلّ الإشكالُ. ولهذا أُفرِدت وتقدم عليها ذكر البرهان عموما إشارة إلى القرآن وخصوصا إشارة إليها، لأنها من خواص علوم القرآن. وجاء في أولها ذكرُ سؤال الفتوى من الخلق وفي آخرها بعد الجواب ذكرُ كمال العلم من الحق. وخُتمت بها السورة، لأن غالب ما يبقى في الأفهام ما جاء في آخر الكلام. والحمد لله العلام، والصلاةُ على سيدنا محمد وآله وصحبه، والسلام.

---

[١] الآية ١ من هذه السورة.

مركز البحوث الإسلامية
إستانبول

سلسلة عيون التراث الإسلامي

- أحكام القرآن الكريم، أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوي (ت. ٣٢١هـ/٩٣٣م)، تحقيق: سعد الدين أونال، ١، ١٩٩٥؛ ٢، ١٩٩٨.
- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي (ت. ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م)، تحقيق: طيّار آلتي قولاج، ١-٤، ١٩٩٥.
- كتاب التوحيد، أبو منصور محمد بن محمد الماتريدي السمرقندي (ت. ٣٣٣هـ/٩٤٤م)، تحقيق: بكر طوپال أوغلي - محمد آروتشي، ٢٠٠٣؛ (ط٤) ٢٠١٩.
- لباب الكلام، علاء الدين محمد بن عبد الحميد السمرقندي الأسمندي (ت. ٥٥٢هـ/١١٥٧م [؟])، تحقيق: محمد سعيد أوزرْوَارلي، ٢٠٠٥؛ (ط٢) ٢٠١٩.
- العقيدة الركنية في شرح لا إله إلا الله محمد رسول الله، أبو محمد ركن الدين عبيد الله بن محمد السمرقندي (ت. ٧٠١هـ/١٣٠١م)، تحقيق: مصطفى سنان أوغلي، ٢٠٠٨.
- ترجمة كتاب التوحيد، أبو منصور محمد بن محمد الماتريدي السمرقندي (ت. ٣٣٣هـ/٩٤٤م)، المترجم إلى اللغة التركية: بكر طوپال أوغلي، ٢٠٠٢؛ (ط١٢) ٢٠١٨.
- أحكام السوق، أبو زكريا يحيى بن عمر الكناني الأندلسي (ت. ٢٨٩هـ/٩٠٢م)، تحقيق: إسماعيل خالدي، ٢٠١١.
- ترجمة إظهار الحق، رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي (ت. ١٣٠٨هـ/١٨٩١م)، المترجم إلى اللغة التركية: علي ناملي - رمضان مصلو، ١-٢، ٢٠١٢.
- الكفاية في الهداية، أبو محمد نور الدين أحمد بن محمود الصابوني (ت. ٥٨٠هـ/١١٨٤م)، تحقيق: محمد آروتشي، ٢٠١٣.
- المنتقى من عصمة الأنبياء، أبو محمد نور الدين أحمد بن محمود الصابوني (ت. ٥٨٠هـ/١١٨٤م)، تحقيق: محمد بولوط، ٢٠١٣.
- لوامع البرهان وقواطع البيان في معاني القرآن، أبو الفضائل محمد بن الحسن المعيني (ت. ٥٣٧هـ/ ١١٤٣م)، تحقيق: سفر حسنوف، ١-٢، ٢٠١٣.
- التمهيد في بيان التوحيد، أبو شكور السالمي (ت. بعد ٤٦٠هـ/١٠٦٨م)، تحقيق عُمَرْ تركمان، ٢٠١٧.
- كتاب القواعد الكلّيّة في جملة من الفنون العلميّة، محمد بن محمود الإصفهاني (ت. ٦٨٨هـ/١٢٨٩م)، تحقيق: مَنْصُور كُوشِينْكَاغْ - بِلَال تَاشْقِينْ، ٢٠١٧.
- سلامة الإنسان في محافظة اللسان، ميرزا زاده محمد سالم الباطومي الرومي (ت. ١١٥٦هـ/١٧٤٣م)، تحقيق: مُرَاد صُولَا، ٢٠١٨.
- معاني الأسماء الإلٰهيّة، عفيف الدين سليمان بن علي التِّلِمْسَانِي (ت. ٦٩٠هـ/١٢٩١م)، تحقيق: أُورْخَانْ مُوسَى خَانْ أُوزْ، ٢٠١٨.
- شرح الفاتحة وبعضِ سورة البقرة، عفيف الدين سليمان بن علي التِّلِمْسَانِي (ت. ٦٩٠هـ/١٢٩١م)، تحقيق: أُورْخَانْ مُوسَى خَانْ أُوزْ، ٢٠١٨.
- رسالة في أدب المفتي، محمد فقهي العيني الحنفي (ت. ١١٤٧هـ/١٧٣٥م)، تحقيق: عثمان شاهين، ٢٠١٨.

- كتاب تقريب الغريب، قاسم بن قطلوبغا (ت. ٨٧٩هـ/١٤٧٤م)، تحقيق: عثمان كَسْكِينْ أَزْ، ٢٠١٨.
- كشف الأسرار وهتك الأستار، يوسف بن هلال الصفدي (ت. ٦٩٦هـ/١٢٩٦م)، تحقيق: بَهَاء الدِّين دَارْتَمَا، ١-٥، ٢٠١٩.
- التسهيل، الشيخ بدر الدين ابن قاضي سماونة (ت. ٨٢٠هـ/١٨-١٤١٧م)، تحقيق: مصطفى بُولَنْدْ دَادَاشْ، ١-٣، ٢٠١٩.
- جامع الأصول، ركن الدين عبيد الله السمرقندي (ت. ٧٠١هـ/١٣٠١م)، تحقيق: عصمت غريب الله شِمْشَك، ١-٢، ٢٠٢٠.
- تسديد القواعد في شرح تجريد العقائد - حاشية التجريد - منهوات الجرجاني والحواشي الأخرى، محمود بن عبد الرحمن الإصفهاني (ت. ٧٤٩هـ/١٣٤٩م) - السيد الشريف الجرجاني (ت. ٨١٦هـ/١٤١٣م)، تحقيق: أشرف آلطَاش - محمد علي قُوجَا - صالح كُونْ آيْدِن - محمد يتيم، ١-٣، ٢٠٢٠.
- لبّ الأصول، ابن نجيم زين الدين بن إبراهيم المصري (ت. ٩٧٠هـ/١٥٦٣م)، تحقيق: محمد فال السيد الشنقيطي، ٢٠٢٠.
- التسديد في شرح التمهيد، حسام الدين حسين بن علي السغناقي (ت. ٧١٤هـ/١٣١٤م)، تحقيق: علي طارق زياد يلماز، ١-٢، ٢٠٢٠.
- حاشية علي القوشجي على شرح الكشاف للتفتازاني، علي القوشجي علاء الدين علي بن محمد السمرقندي (ت. ٨٧٩هـ/١٤٧٤م)، تحقيق: مَحمَد جِيجَكْ، ٢٠٢١.
- شرح عقود رسم المفتي، ابن عابدين محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز الحسيني الدمشقي (ت. ١٢٥٢هـ/١٨٣٦م)، تحقيق: شَنُولْ صَيْلان، ٢٠٢١.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، شيخ الإسلام أبو السعود بن محمد العمادي (ت. ٩٨٢هـ/١٥٧٤م)، تحقيق: محمد طه بويالق - أحمد أيتب - ضياء الدين القالش - محمد عماد النابلسي، ١-٩، ٢٠٢١.
- شرح الجامع الصغير، شمس الأئمة أبو بكر محمد بن أبي سهل أحمد السرخسي، (ت. ٤٨٣هـ/١٠٩٠م)، تحقيق: أَرْطُغْرُلْ بُويْنُوكَالِنْ، ١-٢، ٢٠٢١.
- التمهيد لقواعد التوحيد، أبو المعين ميمون بن محمد النسفي (ت. ٥٠٨هـ/١١١٥م)، تحقيق: علي طارق زياد يلماز، ٢٠٢١.
- الفتاوى الصغرى، نجم الدين يوسف بن أحمد بن أبي بكر الخاصي الخوارزمي (ت. ٦٢٠هـ/١٢٢٣م)، تحقيق: عبد الخالق أُويْغُورْ، ١-٢، ٢٠٢٢.
- الهوادي في شرح المسالك، حمزة بن دُرْغُود الآيديني (ت. ٩٨١هـ/١٥٧٤م)، تحقيق: علي بولوط، ٢٠٢٢.
- اللمعة في الحدوث والقدم والقضاء والقدر وتحقيق التكليف، إبراهيم بن مصطفى الحلبي المَداري (ت. ١١٩٠هـ/١٧٧٦م)، تحقيق: منذر شيخ حسن، ٢٠٢٢.
- الغُرَف العليّة في تراجم متأخّري الحنفيّة، شمس الدين ابن طُولُون (ت. ٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، تحقيق: علي السيد عبد اللطيف، ١-٣، ٢٠٢٣.

- İbn Kutluboğa, Kāsım (ö. 879/1474), *Kitâbü Takrîbi'l-garîb* (thk. Osman Keskiner), 2018.
- Safedî, Yûsuf b. Hilâl (ö. 696/1296), *Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr* (thk. Bahattin Dartma), I-V, 2019; 2021
- Şeyh Bedreddin (ö. 820/1417-18), *et-Teshîl* (thk. Mustafa Bülent Dadaş), I-III, 2019; 2021
- Rükneddin Ubeydullah es-Semerkandî (ö. 701/1301), *Câmiu'l-usûl* (thk. İsmet Garibullah Şimşek), I-II, 2020; 2021
- Mahmûd b. Abdurrahmân el-İsfahânî (ö. 749/1349) - Seyyid Şerîf el-Cürcânî (ö. 816/1413), *Tesdîdü'l-kavâid fî şerhi Tecrîdi'l-akāid - Hâşiyetü't-Tecrîd - Cürcânî'nin minhüvâtı ve başka haşiye notlarıyla birlikte* (thk. Eşref Altaş, Muhammet Ali Koca, Salih Günaydın, Muhammed Yetim), I-III, 2020; I-II, 2021.
- İbn Nüceym (ö. 970/1563), *Lübbü'l-usûl* (thk. Muhammed Fâl Seyyid eş-Şinkītî), 2020.
- Hüsâmeddin Hüseyin es-Siğnâkī (ö. 714/1314), *et-Tesdîd fî şerhi't-Temhîd* (thk. Ali Tarık Ziyat Yılmaz), I-II, 2020.
- Alî Kuşçu Alâeddîn Alî b. Muhammed es-Semerkandî (ö. 879/1474), *Hâşiyetü Alî el-Kuşcî alâ Şerhi'l-Keşşâf li't-Teftâzânî* (thk. Mehmet Çiçek), 2021.
- İbn Âbidîn (ö. 1252/1836), *Şerhu Ukūdi resmi'l-müftî* (thk. Şenol Saylan), 2021.
- Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî (ö. 982/1574), *İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm* (thk. Mehmet Taha Boyalık, Ahmet Aytep, Ziyaüddin el-Kaliş, Muhammed İmâd el-Nabulsî), I-IX, 2021.
- Şemsüleimme es-Serahsî (ö. 483/1090), *Şerhu'l-Câmii's-sagīr* (thk. Ertuğrul Boynukalın), I-II, 2021
- Ebü'l-Muîn Meymûn b. Muhammed en-Nesefî (ö. 508/1115), *et-Temhîd li kavâidi't-tevhîd* (thk. Ali Tarık Ziyat Yılmaz), 2021.
- Necmeddin Yûsuf b. Ahmed el-Hâsî el-Hârizmî (ö. 620/1223), *el-Fetâva's-sugrâ* (thk. Abdulhalik Uygur), I-II, 2022.
- Hamza b. Turgut Aydınî (ö. 981/1574), *el-Hevâdî fî şerhi'l-Mesâlik* (thk. Ali Bulut), 2022.
- İbrâhim b. Mustafa el-Halebî el-Medârî (ö. 1190/1776), *el-Lüm'a fi'l-hudûs ve'l-kıdem ve'l-kazâ ve'l-kader ve tahkīki't-teklîf* (thk. Münzir Şeyhhasan), 2022.
- Şemseddin İbn Tolun (ö. 953/1546), *el-Gurefü'l-aliyye fî terâcimi müteahhiri'l-Hanefiyye* (thk. Ali es-Seyyid Abdüllatîf), I-III, 2023.

İSAM
TÜRKİYE DİYANET VAKFI
İSLAM ARAŞTIRMALARI MERKEZİ
مركز البحوث الإسلامية

KLASİK ESERLER DİZİSİ

- Tahâvî, Ebû Ca'fer Ahmed b. Muhammed (ö. 321/933), *Ahkâmü'l-Kur'âni'l-Kerîm* (thk. Sadettin Ünal), I, 1995; II, 1998.
- Zehebî, Ebû Abdullah Muhammed b. Ahmed (ö. 748/1348), *Ma'rifetü'l-kurrâi'l-kibâr ale't-tabâkāt ve'l-a'sâr* (thk. Tayyar Altıkulaç), I-IV, 1995.
- Mâtürîdî, Ebû Mansûr Muhammed b. Muhammed (ö. 333/944), *Kitâbü't-Tevhîd* (thk. Bekir Topaloğlu, Muhammed Aruçi), 2003; (4. bs.) 2019.
- Üsmendî, Ebü'l-Feth Muhammed b. Abdilhamîd (ö. 552/1157[?]), *Lübâbü'l-Kelâm* (nşr. M. Sait Özervarlı), 2005; (2. bs.) 2019.
- Semerkandî, Ebû Muhammed Ubeydullah b. Muhammed (ö. 701/1301), *el-Akîdetü'r-Rükniyye fî şerhi lâ ilâhe illâllah Muhammedün Resûlullah* (thk. Mustafa Sinanoğlu), 2008.
- Mâtürîdî, Ebû Mansûr Muhammed b. Muhammed (ö. 333/944), *Kitâbü't-Tevhîd Açıklamalı Tercüme* (trc. Bekir Topaloğlu), 2002; 2021.
- Kinânî, Ebû Zekeriyyâ Yahyâ b. Ömer el-Endelüsî (ö. 289/902), *Ahkâmü's-sûk* (thk. İsmâil Hâlidî), 2011.
- Hindî, Rahmetullah b. Halîlürrahmân (ö. 1308/1891), *İzhârü'l-hak* (trc. Ali Namlı, Ramazan Muslu), I-II, 2012; 2021.
- Sâbûnî, Ebû Muhammed Nûreddin Ahmed b. Mahmûd (ö. 580/1184), *el-Kifâye fi'l-hidâye* (thk. Muhammet Aruçi), 2013.
- Sâbûnî, Ebû Muhammed Nûreddin Ahmed b. Mahmûd (ö. 580/1184), *el-Müntekā min ismeti'l-enbiyâ* (thk. Mehmet Bulut), 2013.
- Muînî, Ebü'l-Fezâil Muhammed b. Hasan (ö. 537/1143), *Levâmiu'l-burhân ve kavâtiu'l-beyân fî meâni'l-Kur'ân* (thk. Sefer Hasanov), I-II, 2013.
- Sâlimî, Ebû Şekûr (ö. 460/1068'den sonra), *et-Temhîd fî beyâni't-tevhîd* (thk. Ömür Türkmen), 2017.
- İsfahânî, Muhammed b. Mahmûd (ö. 688/1289), *Kitâbü'l-Kavâidi'l-külliyye fî cümletin mine'l-fünûni'l-ilmiyye* (thk. Mansur Koçinkağ, Bilal Taşkın), 2017
- Mirzazâde Mehmed Sâlim Efendi (ö. 1156/1743), *Selâmetü'l-insân fî muhâfazati'l-lisân* (thk. Murat Sula), 2018.
- Tilimsânî, Afîfüddin (ö. 690/1291), *Meâni'l-esmâi'l-ilâhiyye* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018.
- Tilimsânî, Afîfüddin (ö. 690/1291), *Şerhu'l-Fâtiha ve Ba'zı Sûreti'l-Bakara* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018.
- Mehmed Fıkhî Efendi (ö. 1147/1735), *Risâle fî edebi'l-müftî* (thk. Osman Şahin), 2018.

9. Esere yaptığımız ilaveleri metnin bağlamına uygun şekilde köşeli parantez [ ] içerisinde gösterdik.

10. Okunmasında güçlük çekilen kelimelerin zaptını yaptık.

11. Eserde geçen kitap ve müellif adlarını dipnotlarda kısa künyeleriyle ve meşhur adlarıyla göstermeye çalıştık.

12. Tahkik çalışmasının sonunda âyet, hadis, şiir, kavram ve özel adları içeren dizinlere yer verdik.

Kaynakça

Brockelmann, Carl, *Geschichte der arabischen Litteratur Supplementband (GAL Suppl.)*, I-III, Leiden: E. J. Brill, 1937-42.

Safedî, *A'yânü'l-asr*, nşr. Ali Ebû Zeyd v.dğr., I-VI, Beyrut-Dımaşk: Dârü'l-fikr, 1418/1998.

Safedî, *el-Vâfî bi'l-vefeyât*, nşr. Ahmed el-Arnaût - Türkî Mustafa, I-XXIX, Beyrut: Dâru ihyâi't-türâsi'l-İslâmî, 1420/2000.

Zehebî, *Târîhu'l-İslâm ve vefeyâtü'l-meşâhîr ve'l-a'lâm*, nşr. Ömer Abdüsselâm Tedmürî, Beyrut: Dârü'l-kütübi'l-Arabî, 1421/2000.

Ziriklî, Hayreddin, *el-A'lâm: Kâmûsü terâcim*, nşr. Züheyr Fethullah, I-VIII, Beyrut: Dârü'l-ilm li'l-Melâyîn, 1990.

- Topkapı Sarayı Müzesi Kütüphanesi (Revan Köşkü, nr. 179)

Meryem sûresinden Zümer sûresinin sonuna kadar olan kısımdır. İki yüz yirmi iki (222) yapraktır. On dokuz (19) satır halinde nesih yazıyla yazılmıştır. Âyetler kırmızı olarak yazılmıştır.

Tahkikte Takip Edilen Yöntem

1. Metnin tahkikinde *İSAM Tahkikli Neşir Esasları* (İTNES) takip edilmiştir. Çalışmaya konu olan metni, seçtiğimiz nüshalar içerisinden kelime ve cümle bakımından en uygun olanını tercih etmek suretiyle inşa etmeye ve müellifin kaleme aldığı esere en yakın olacak şekilde tahkikli bir metin ortaya koymaya çalıştık.

2. Tüm çalışma boyunca âyetleri kalın bir fontla gösterdik.

3. Âyet tahriçlerini dipnotta gösterdik. Tamamı verilmeyen âyetlerde gerekli gördüklerimizi tamamlamaya çalıştık. Âyetleri çiçekli parantez ﴿...﴾ içerisinde gösterdik.

4. Hadis ve âsâr tahriçlerini dipnotta gösterdik. Hadisleri iktibas işareti «...» içerisinde gösterdik. Tamamı verilmeyen hadislerde gerekli gördüklerimizi tamamlamaya çalıştık. Müellifin metnine yer vermeyip işaret etmekle yetindiği hadislerin de kaynaklarını göstererek tahriçlerini yaptık.

5. Eserde adları geçen şahısların kısa biyografilerine yer verdik.

6. Eserde adları geçen grup, fırka, şehir, yer ve kabileler hakkında gerekli bilgiyi vermeye çalıştık.

7. Eserdeki kavramların sözlük ve ıstılahî anlamlarına kısa bir şekilde değindik.

8. Eserde geçen hataları düzelttik.

satır halinde nesih yazıyla yazılmıştır. Dış ve iç ebadı 260x185, 195x135 mm.'dir.

Bu nüsha da Murad Molla Kütüphanesi'ndeki (nr. 159, 160) nüshalar gibi müsvedde bir nüshaya benzemektedir.

- Murad Molla Kütüphanesi (nr. 162)

Zümer sûresinin 7. âyetinden Nâs sûresinin sonuna kadardır. Tefsirin IV. cildidir. İki yüz elli üç (253) yapraktır. Yirmi (20) satır halinde nesih yazıyla yazılmıştır. Dış ve iç ebadı 260x185, 195x135 mm.'dir.

Bu nüsha da Murad Molla Kütüphanesi'ndeki (nr. 159, 160, 161) nüshalar gibi müsvedde bir nüshaya benzemektedir.

Murad Molla Kütüphanesi'nde (nr. 159, 160, 161, 162) kayıtlı olan bu nüshaların müsvedde nüsha olduğunun bir başka önemli delili de şudur: Bu nüshaların satırları, çift sayı halinde yazılmıştır (yirmişer satır). Halbuki İslamî yazmalarda satırlar umumiyetle tek sayılıdır. Yani satır sayısının birler basamağı 1, 3, 5, 7, 9'dur. Daha açık bir ifade ile satır sayısının son rakamı -21, 25, 33, 39, 41 gibi- tek olur.

- Topkapı Sarayı Müzesi Kütüphanesi (Koğuşlar, nr. 603)

Tefsirin II. cildidir. Meryem sûresinden Nâs sûresinin sonuna kadardır. Âyetleri kırmızı olarak yazılmıştır. İki yüz yetmiş altı (276) varaktır. Nesih yazıyla otuz bir (31) satır halinde yazılmıştır. 691 h./1292 m. yılında istinsah edilmiştir.

- Topkapı Sarayı Müzesi Kütüphanesi (Revan Köşkü, nr. 178)

Tefsirin I. cildidir. Fâtiha sûresinden Kehf sûresinin sonuna kadardır. Âyetler kırmızı olarak yazılmıştır. İki yüz altmış dokuz (269) yapraktır. Otuz bir (31) satır halinde nesih yazıyla yazılmıştır.

Otuz üç (33) satır halinde nesih yazıyla yazılmıştır. Dış ve iç ebadı 330x245, 205x140 mm.'dir.

- Murad Molla Kütüphanesi (nr. 159)

Fâtiha'dan Nisâ sûresinin sonuna kadardır. Âyetler kırmızı mürekkeple yazılmıştır. Sayfaların çoğunda karalama veya iptal etme anlamında bazı satırların üzeri çizilmiştir. Bu çizme işlemi bazı sayfaların satırlarının tamamında yapılmıştır. Bu çizilen kısımların yerine kenarlara notlar yazılmış, bazan bu notlar da iptal etme anlamında çizilmiş, tekrar ok işaretiyle gösterilerek notlar yazılmıştır. Bazı sayfaların kenarlarına bir sayfa tutacak not yazılmıştır. Bazı yerlerde metin yazısıyla kenardaki notların yazısı birbirine benzememektedir. Dolayısı ile bu nüsha müsvedde bir nüshaya benzemektedir.[3]

İki yüz doksan (290) varaktır. Tefsirin I. cildidir. Yirmi (20) satır halinde nesih yazıyla yazılmıştır. Dış ve iç ebadı 260x190, 190x135 mm.'dir.

- Murad Molla Kütüphanesi (nr. 160)

Mâide sûresinin başından Kehf sûresinin sonuna kadardır. Tefsirin II. cildidir. İki yüz doksan dört (294) varaktır. Yirmi (20) satır halinde nesih yazıyla yazılmıştır. Dış ve iç ebadı 265x185, 190x135 mm.'dir.

Bu nüsha da Murad Molla Kütüphanesi'ndeki (nr. 159) nüsha gibi müsvedde bir nüshaya benzemektedir. Aynı şekilde bunun da hemen bütün sayfalarında iptal etmek amacıyla satırların üzeri karalanmış, kenarlara fazla miktarda notlar düşülmüş, bazan kenardaki bu notlar da karalanmıştır.

- Murad Molla Kütüphanesi (nr. 161)

Meryem sûresinin başından Sâd sûresinin sonuna kadardır. İki yüz otuz beş (235) varaktır. Tefsirin III. cildidir. Yirmi (20)

---

[3] Yayıncının notu: Murad Molla nüshası (nr. 159-162), tahkikte kullanılan ve *Keşfü'l-esrâr*'ın ikinci versiyonunu temsil eden dört nüshanın aksine eserin ilk versiyonunun müellif müsveddesidir. Ayrıca bk. dipnot 2 (İSAM).

- Süleymaniye Kütüphanesi (Fatih, nr. 392)

Enfâl sûresinin başından Kehf sûresinin sonuna kadardır. Âyetler kırmızı mürekkeple yazılmıştır. Âyetler ve tefsirin metni harekelidir. Yüz doksan sekiz (198) varaktır. Nesih yazıyla on dokuz (19) satır halinde yazılmıştır. Dış ve iç ebadı 260x175, 190x120 mm.'dir.

- Süleymaniye Kütüphanesi (Fatih, nr. 394)

Yâsîn sûresinden Hadîd sûresinin sonuna kadardır. Âyetler kırmızı mürekkeple yazılmıştır. Âyetler ve tefsirin metni harekelidir. Yüz doksan sekiz (198) varaktır. On dokuz (19) satır halinde nesih yazıyla yazılmıştır. Dış ve iç ebadı 265x178, 190x120 mm.'dir.

- Süleymaniye Kütüphanesi (Fatih, nr. 395)

Mücâdele sûresinin başından Nâs sûresinin sonuna kadar olan kısımdır. Âyetler kırmızı olarak yazılmıştır. Âyetler ve tefsirin metni harekelidir. Yüz yetmiş iki (172) varaktır. On dokuz (19) satır halinde nesih yazıyla yazılmıştır. Dış ve iç ebadı 292x172, 192x120 mm.'dir.

- Nuruosmaniye Kütüphanesi (nr. 415)

Fâtiha'dan Nâs sûresine kadar tam bir nüshadır. Beş yüz otuz yedi (537) varaktır. Otuz üç (33) satır halinde nesih yazıyla yazılmıştır. Dış ve iç ebadı 286x169, 195x088 mm.'dir.

- Âtıf Efendi Kütüphanesi (nr. 260)

Fâtiha'dan Nâs sûresine kadar tam bir nüshadır. Ta'lik yazıyla otuz bir (31) satır halinde yazılmıştır. Beş yüz kırk bir (541) varaktır. Dış ve iç ebadı 320x200, 225x107 mm.'dir.

- Murad Molla Kütüphanesi (nr. 158)

Fâtiha'dan Kehf sûresini sonuna kadar olan kısımdır. Âyetler kırmızı mürekkeple yazılmıştır. Üç yüz on bir (311) varaktır.

ise iki yüz yirmi sekiz (228) varak olup Meryem sûresinden Zümer sûresine kadardır.

Kalın nesih hattıyla harekeli olarak istinsah edilen bu nüshanın sayfa satır sayısı on dokuzdur (19). Sayfa kenarlarına düşülmüş kıymetli tashihlerden eserin ilim sahibi birileri tarafından okunduğu anlaşılmaktadır. İstinsah tarihi ve müstensihi bilinmemektedir. Bu nüshayı "ر" rumuzuyla gösterdik.

Tahkikte Kullanılmayan Nüshalar

- Süleymaniye Kütüphanesi (Süleymaniye, nr. 133)

A'râf sûresinin başından Şuarâ sûresinin sonuna kadar olan kısmı içine almaktadır. Âyetlerin üzeri kırmızı çizgi ile çizilmiştir. Bazı yerlerde yapraklar, beyaz-kırmızı şeklinde devam etmektedir. Yani beyaz bir varaktan sonra kırmızı bir varak konmuştur. Ancak bu durum nüshanın tamamında değil bazı yerlerindedir. Nüsha iki yüz kırk dokuz (249) varaktır. Arabî yazı türüyle yirmi beş (25) satır halinde yazılmıştır. Dış ve iç ebadı 272x178, 183x123 mm.'dir.

- Süleymaniye Kütüphanesi (Fatih, nr. 390)

Fâtiha sûresinden Âl-i İmrân sûresinin sonuna kadardır. Âyetler kırmızı mürekkeple yazılmıştır. Tefsirin metni harekelidir. İki yüz on sekiz (218) varaktır. Nesih yazıyla on dokuz (19) satır halinde yazılmıştır. Dış ve iç ebadı 265x175, 190x118 mm.'dir.

- Süleymaniye Kütüphanesi (Fatih, nr. 391)

Nisâ sûresinden A'râf sûresinin sonuna kadardır. Âyetler kırmızı mürekkeple yazılmıştır. Âyetler ve tefsirin metni harekelidir. İki yüz otuz (230) varaktır. On dokuz (19) satır halinde nesih yazıyla yazılmıştır. Dış ve iç ebadı 265x175, 162x122 mm.'dir.

1089 yılında istinsah edilen bu yazmayı varak numaralarına işaret etme noktasında asıl nüsha olarak belirledik ve dipnotlarda kendisine "ش" rumuzuyla işaret ettik.

2. Nuruosmaniye Kütüphanesi (nr. 416)

Aynı şekilde Fâtiha sûresinden Nâs sûresine açık ve güzel bir nesih hattıyla yazılmış olan bu nüsha otuz dokuz (39) satır olup dört yüz yirmi (420) varaktır. İsmâil b. Receb el-Hassânî el-Halebî tarafından istinsah edilen nüsha rutubete veya herhangi bir fizikî bozulmaya maruz kalmamıştır. Tefsiri yapılan âyetler ve sûre başlıkları kırmızı ile, diğer yazılar ise siyah mürekkeple kaleme alınmıştır.

1159 yılında istinsah edilen bu nüshayı "ن" rumuzuyla gösterdik.

3. Süleymaniye Kütüphanesi (Reîsülküttâb Mustafa Efendi, nr. 63-64)

Fâtiha sûresinden Nâs sûresine kadar ta'lik hattıyla istinsah edilen ve toplamda dokuz yüz on yedi (917) varaktan müteşekkil bu yazmanın 63 numaralı cildi dört yüz altmış yedi (467) varak ve 64 numaralı cildi ise dört yüz elli (450) varaktır.

Bu nüshanın sayfa satır sayısı yirmi birdir (21). Sayfa kenarlarında düşülmüş kıymetli tashihlerden eserin bazı âlimler tarafından okunduğu anlaşılmaktadır. Ne istinsah tarihi ne de müstensihi bilinmektedir. Bu nüshayı "ك" rumuzuyla gösterdik.

4. Süleymaniye Kütüphanesi (Rüstem Paşa, nr. 45-46)

Toplamda beş yüz on dört (514) varaktan müteşekkil bu yazmanın 45 numaralı cildi iki yüz seksen altı (286) varak ve Bakara sûresinden Nisâ sûresine kadardır. 46 numaralı cildi

olduğu düşünülen âyetlerle ilgili olarak aslında bunlar arasında herhangi bir çelişki bulunmadığına ve tam tersine âyetlerin birbirini beyan ettiğine vurgu yapılmaktadır.

15. Eserde "her müteşâbih âyetin mutlaka bir muhkeminin bulunduğu ve müteşâbihattan olan âyetlerin de muhkem âyetlerle tefsir edildiği" görüşü savunulmaktadır.

16. Eserde çok sayıda şairin şiirleriyle istişhatta bulunulmaktadır. Biz, her ne kadar zikri geçen şiirlerin kaynaklarını tespit etmeye gayret göstermiş olsak da bazı şiirlerin kaynaklarını tespit edemedik. Bulamadığımız şiirlerin müellifin kendisine ait olmasının muhtemel olduğunu da belirtmeliyiz.

Kitabın Nüshaları

Çalışmaya konu metni, elimizdeki farklı nüshalardan seçerek oluşturmak suretiyle tahkik ettik. Tahkikte Türkiye kütüphanelerinde bulunan dört nüshadan yararlandık.[2]

1. Süleymaniye Kütüphanesi (Şehid Ali Paşa, nr. 157)

Fâtiha sûresinden Nâs sûresine kadar nesih hattıyla yazılmış olan bu nüsha otuz üç (33) satır olup beş yüz yirmi (520) varaktır. Sayfa kenarlarında kaydedilmiş kıymetli tashihler eserin bazı âlimler tarafından okunduğunu göstermektedir. Müstensih adı belirsiz olan bu nüshada sûre başlıkları kırmızı, diğer metinler ise siyah mürekkeple yazılmıştır.

---

[2] Yayıncının notu: Tahkik çalışmasının sona ermesinden sonra, müsvedde halinde bulunduğu gerekçesiyle tahkikte kullanılmamış olan Murad Molla (nr. 159, 160, 161, 162) nüshasının, -eserin ilk versiyonuna ait müellif müsveddesi olmakla birlikte- özellikle tahkikte esas alınan dört nüshanın hepsinde birden problemli olan yerlerin düzeltilmesinde hayli faydalı olacağı anlaşılmıştır. Bunun üzerine İSAM Tahkik Yayın Kurulu tarafından bu problemli yerlerin Murad Molla nüshası ile mukabelesi yapılmış ve bu nüshaya "م" remziyle işaret edilmiştir. Ayrıca tahkikte kullanılan nüshaların fotoğraflarının konulduğu sayfaların sonunda Murad Molla nüshasının fotoğrafına da yer verilmiştir (İSAM).

4. Müellif Kur'an'da neshi kabul etmemekte ve bunu "Kur'an hiçbir sözle neshedilemez" ifadesiyle ortaya koymaktadır.

5. Eserde Ehl-i sünnet'in görüşleri savunulmakta, ancak zaman zaman kelamcıların ve felsefecilerin görüşlerine de yer verilmektedir.

6. Eserde hadîs-i şeriflere, sahâbe ve tâbiîn sözlerine çok az yer verilmektedir. Hatta mezkûr hadisler içerisinde zayıf olan hadisler de bulunmaktadır.

7. Eser Kur'an ile Peygamber sözleri arasında bir çelişki bulunabileceğini reddetmekte ve Kur'an ile çelişen hadislerin asla hadis olamayacağını savunmaktadır. Şayet Kur'an âyetleriyle hadisler arasında görünürde bir çelişki varsa bu durumda hadislerin âyetlere uyumlu olabilmesi için ya hadislerin tevil edilmesi ya da ceme gidilmesi gerektiğini dile getirmektedir. Yazar, "Sünnet Kur'an'ı açıklar, onunla çelişmez" görüşündedir.

8. Eserde âyetler ile sûrelerin birbirleriyle uyumu açıklanmaktadır.

9. Eserde "vahyin akıldan daha öncelikli olduğu" görüşü desteklenmektedir.

10. Eserde yeri geldikçe fıkhî görüşler zikredilmektedir.

11. Eserde Tevrat'tan ve İncil'den nakiller yapılmaktadır. Nakledilen metinler/bölümler içerisinde tahrife uğramış olanlara dikkat çekilmektedir.

12. Bu tefsir çalışmasının en belirgin özelliği nakli ve aklı iki asıl kaynak olarak kabul etmesidir.

13. Eserde müteradif lafızlar arasındaki mâna farklılıkları açıklanmaktadır.

14. Eserde âyetler arasında bir zıtlık olduğu kabul edilmediği gibi ehl-i re'yden bazılarının zannettiği üzere aralarında çelişki

Safedî ve *Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr*'ı

Prof.Dr. Bahattin Dartma

Kitabın Müellifi

Tam adı "Ebû'l-Fezâil Yûsuf b. Hilâl b. Ebi'l-Berekât Cemâlüddîn el-Halebî el-Hanefî et-Tabîb es-Safedî"dir. Fakirlerle ilgilenir, onları tedavi eder ve onların hastalık durumlarına uygun sıvı ve katı ilaçlar hazırlardı. Edebiyat ve fıkıh ilminde malumat sahibi olan Safedî'nin Ebû Hanîfe ve Şâfiî arasındaki hilafiyata dair yazdığı bir urcûzesi ile *Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr* adını verdiği bir tefsiri bulunmaktadır.

Safedî 23 Muharrem 696 (20 Kasım 1296) tarihinde Kahire'de vefat etmiştir.[1]

Tefsirin Özellikleri

1. Eser, Kur'ân-ı Kerim'de geçen garip lafızlara ve onların köklerine dair bilgi vermektedir.

2. Eserde geçen kelime ve cümlelerin çok nadir de olsa irabî durumu açıklanmaktadır.

3. Eserde yer yer çeşitli kıraatlere değinilmekte ve bunlar arasında tercih yapılmaktadır. Ancak bunlardan bir kısmının mütevâtir olmadığını söylemeliyiz.

[1] Zehebî, *Târîhu'l-İslâm*, LII, 314; Safedî, *A'yânü'l-asr*, V, 671-672; a.mlf., *el-Vâfî bi'l-vefeyât*, XXIX, 164; Ziriklî, *el-A'lâm*, VIII, 256; Brockelmann, *GAL Suppl.*, I, 738.

Keşfü'l-esrâr'ın ilmî neşrinin gerçekleştirilmesi yolunda en fazla çaba sarfeden isimlerin başında kurumumuzda tahkik çalışmalarının neşvünema bulmasında önemli katkıları olan İSAM Tahkik Yayın Kurulu eski başkanı merhum Bekir Topaloğlu (1932-2016) hocamız gelmektedir. Eserin tahkikli neşrinin İSAM tarafından yapılmasını teşvik eden, tahkikli metni birkaç defa satır satır okumak suretiyle ilmî kontrolünü yapan hocamız, ne yazık ki onun neşredildiğini göremeden aramızdan ayrılmıştır. Bu vesile ile kendisini rahmetle yâdediyor ve sa'yinin meşkûr olmasını diliyoruz.

Merhum hocamızın dışında bu eserin zahmetli ve uzun süren yayına hazırlık çalışmaları kapsamında emeği geçen ve hepsinin adını anamayacağımız başka birçok isim daha bulunmaktadır. Bunlardan özellikle eseri yayına hazırlayan İSAM Tahkik Yayın Kurulu üyelerinden Orhan Ençakar ile Okan Kadir Yılmaz'ı, *Keşfü'l-esrâr*'ın, müsvedde halinde bulunduğu gerekçesiyle tahkike esas alınmamış olan ve fakat Tahkik Yayın Kurulu tarafından -eserin ilk versiyonuna ait olmakla birlikte- metindeki kimi problemli yerlerin düzeltilmesinde hayli faydalı bir müellif müsveddesi olduğu tespit edilen Murad Molla nüshasının bu iki isimle birlikte bazı açılardan gözden geçirilmesini gerçekleştiren Dr. Orkhan Musakhanov'u, ferâiz şemalarının kontrolünü yapan Prof.Dr. Abdurrahman Haçkalı'yı, keza tashih aşamalarında katkıları olan Dr. Abdülcebbâr ez-Zeydî ve Prof.Dr. Üsâme el-Hamevî ile eserin konu dizinini hazırlayan Muhammed Şahin'i ve eserin tasarımını gerçekleştiren Ali Haydar Ulusoy'u anmak isterim. Bu isimlere ve eserin neşrinde ilmî ve teknik aşamalarda katkısı bulunan herkese şükranlarımı sunarım.

Bu çalışmanın ilim ve düşünce mirasımızı keşfetme çabalarına katkı vermesi dileğiyle.

Doç.Dr. M. Suat Mertoğlu
İSAM Yayın Kurulu Başkanı

dönemlerde farklı ihtiyaçları karşılamak üzere büyük bir çeşitlilik sergileyen ve farklı telif anlayış ve geleneklerinin ürünü olan çok geniş bir literatür teşekkül ettiği bilinmektedir. *Keşfü'l-esrâr* da bu zengin literatürün bugüne kadar dikkatlerden uzak kalmış örneklerinden biridir. Asıl mesleği tabiplik olan, Süryânîce ve İbrânîce gibi önceki bazı kutsal kitapların dillerini bilen, tefsirde aklın önemini ve taklit karşıtlığını vurgulayan bir müellifin kaleminden çıkmış olması hasebiyle dikkat çekici olan bu eserin, yer yer sade anlatımı ve yaklaşımı açısından kendi döneminin sınırlarını zorladığı, hatta günümüz okuyucusuna âdeta modern bir metinle karşı karşıya olduğu izlenimi verdiği bile söylenebilir.

Eser, Safedî'nin, âyetlerin tefsirine aklı ve nakli dinde iki temel delil olarak kabul etmek suretiyle yaklaşması, Tevrat ve İncil'in muharref olduklarını kabul etmekle birlikte onlardan iktibaslarda bulunması, başta *nesih*, *müteşâbih* ve *hurûf-ı mukattaa* kavramları olmak üzere temel ulûmü'l-Kur'ân alanlarında kendine mahsus ve klasik dönem müfessirleri arasında fazla örneğine rastlanmayan, neshin inkârı gibi tartışmaya açık birtakım kabullere yer vermesi ve âyetleri bu kabuller çerçevesinde yorumlamasıyla temayüz etmektedir. *Keşfü'l-esrâr*'ın dikkatlerden uzak kalmasının, eserin bu türden tartışmalı bazı görüşleri içermesi yanında tedrise konu edilmemesi, müellifinin şer'î ilimlerde tanınmış bir âlim olmaması sebebiyle kendi döneminde makbul bir çerçevede yaygınlaşmaması ve tefsir literatüründe büyük bir şöhrete sahip olan çağdaşı Beyzâvî'nin (ö. 685/1286) eserinin gölgesinde kalması gibi bazı faktörlerle alakalı olduğu tahmin edilebilir. İSAM'ın tefsir tarihinin ve literatürünün zenginliğini yansıtan bir örnek olarak *Keşfü'l-esrâr*'ı araştırmacıların dikkatine sunması, diğerlerinin yanı sıra eserin şu ana kadar gördüğü ihmali bir ölçüde telafi etme arzusuyla da bağlantılıdır.

Takdim

Elinizdeki eser, TDV İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM) olarak İslam medeniyet birikiminin müteahhirîn dönemini (7-13/13-19. asırlar arası) ilmî ve fikrî boyutlarıyla ortaya çıkartmak üzere 2012 yılında başlattığımız İkinci Klasik Dönem Projesi çerçevesinde yayımlanmıştır. Geçmiş entelektüel mirasımızın aydınlatılması ve yeni dönemin inşası için sağlam bir zeminin oluşmasını hedefleyen bu projenin temel uğraş alanlarından biri, söz konusu dönemde ortaya konmuş olup önemli bir kısmı hâlâ gün ışığına çıkmayı bekleyen yazma eserlerin ilmî esaslara uygun tahkikli neşrini gerçekleştirmektir. İslam ilim ve düşünce tarihinin, özellikle yazma halinde bulunan eserler dikkate alınmaksızın sağlıklı ve derinlikli bir şekilde yazılamayacağı, bu yazmaları incelemeksizin yapılacak değerlendirmelerin genellemeci ve yüzeysel kalacağı âşikârdır.

Proje kapsamında ilk defa neşredilen bu eser, hayatı hakkında fazla malumat bulunmayan 7. (13.) yüzyıl tabip, edip, müfessir ve fakihlerinden Ebü'l-Berekât Yûsuf b. Hilâl es-Safedî (ö. 696/1296) tarafından kaleme alınmış *Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr* adlı Kur'ân-ı Kerim tefsiridir.

İslam'ın temel kaynağı olan Kur'ân-ı Kerim'i anlamak, açıklamak ve yorumlamak amacıyla ortaya konan çabalar tarih boyunca kesintisiz sürmüştür. Bu çabaların sonucu olarak farklı

Kısaltmalar

b.	bin, ibn
bk.	bakınız
GAL Suppl.	*Geschichte der arabischen Litteratur Supplementband*
h.	hicri
İTNES	İSAM Tahkikli Neşir Esasları
m.	miladi
nr.	numara
ö.	ölümü, ölüm tarihi

İçindekiler

Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları
Yayın No. 766-1
İSAM Yayınları 227
Klasik Eserler Dizisi 37

KEŞFÜ'l-ESRÂR ve HETKÜ'l-ESTÂR
Yûsuf b. Hilâl es-Safedî

Cilt 1

Tahkik
Prof.Dr. Bahattin Dartma
İlmî kontrol Prof.Dr. Bekir Topaloğlu

Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr
TDV İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM)
Tahkik Yayın Kurulu ilmî kontrolünde hazırlanmıştır.
İcadiye-Bağlarbaşı Cad. 38 Üsküdar/İstanbul
Tel. 0216. 474 08 50
www.isam.org.tr yayin@isam.org.tr

Yayın yönetmeni M. Suat Mertoğlu
Yayın koordinasyon Erdal Cesar
Tahkik editörü Okan Kadir Yılmaz, Orhan Ençakar
İnceleme kısmı son okuma (Türkçe) Mustafa Demiray
Tashih (Arapça) Orhan Ençakar, Okan Kadir Yılmaz
(Türkçe) İsa Kayaalp, İsmail Özbilgin
Tasarım Ali Haydar Ulusoy, Hasan Hüseyin Can (Kapak),
Ramzi Haj Mustafa (Kapak Hattı)
Yayın takip Sema Doğan

Bu eser
TDV İslam Araştırmaları Merkezi'nin (İSAM)
İkinci Klasik Dönem Projesi
kapsamında yayımlanmıştır.

Proje koordinatörü Tuncay Başoğlu

Bu kitap
İSAM Yönetim Kurulu'nun
21.12.2018 tarihli ve 2018/18 sayılı kararıyla basılmıştır.

Birinci Basım: İstanbul - Beyrut, Mart 2019 m. / 1440 h.
Üçüncü Basım: Ankara, Ağustos 2023 m. / 1445 h.
ISBN 978-625-7672-69-6 (Tk.)
978-625-7672-70-2 (1. Cilt)

Basım Yayın ve Dağıtım
TDV Yayın Matbaacılık ve Tic. İşl.
Ostim OSB Mahallesi, 1256 Cadde, No. 11
Yenimahalle/Ankara
Tel. 0312. 354 91 31 Faks. 0312. 354 91 32
bilgi@tdv.com.tr
Sertifika No. 48058

Yûsuf b. Hilâl es-Safedî
Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr [كشف الأسرار وهتك الأستار] / Yûsuf b. Hilâl es-Safedî ; tahkik Bahattin Dartma. 3. bs. – İstanbul ; Ankara : İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM) ; Türkiye Diyanet Vakfı, 2023.
Birinci Cilt, 25, 571 s. ; 24 cm. – (Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları ; 766-1. İSAM Yayınları ; 227. Klasik Eserler Dizisi ; 37)

Dizin ve kaynakça var.
ISBN 978-625-7672-69-6 (Tk.) 978-625-7672-70-2 (1. Cilt)

İSAM
TÜRKİYE DİYANET VAKFI
İSLAM ARAŞTIRMALARI MERKEZİ
مركز البحوث الإسلامية

Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr

Yûsuf b. Hilâl es-Safedî
(ö. 696 h. / 1296 m.)

Tahkik
Prof.Dr. Bahattin Dartma

İlmî Kontrol
Prof.Dr. Bekir Topaloğlu

Birinci Cilt

TÜRKİYE DİYANET VAKFI YAYINLARI

İKİNCİ KLASİK DÖNEM PROJESİ

"İslam medeniyetinin İkinci Klasik Dönemi" olarak adlandırılabilecek olan h. 7-13. (m. 13-19.) yüzyıllar arası entelektüel birikimin gereği gibi araştırma mevzuu edilmesi ve yaklaşık yedi asırlık bu dönemin ilmî ve fikrî boyutlarıyla ortaya çıkarılması hedefiyle Türkiye Diyanet Vakfı İslam Araştırmaları Merkezi (İSAM) tarafından, bünyesinde pek çok alt projeyi ihtiva edecek bir çerçeve proje olan İkinci Klasik Dönem Projesi gündeme alınmıştır. Günümüz tarih yazıcılığında İslam medeniyeti tarihi, Moğol istilası sonrası genelde İslam medeniyetinde özelde İslam düşüncesi ve ilimlerinde gelişmenin inkıtaa uğradığı varsayımıyla yazılmaya çalışılmıştır. Batı'da 19. yüzyılda oluşturulan, sömürgeleşme süreciyle birlikte müslümanlar arasında da yaygınlık kazanan bu bakış açısı İslam tarihiyle ilgili yargılarımızı eksik bırakmıştır. Neticede İslam tarihi, düşüncesi, sanatı, kurumları, önde gelen şahsiyetleri, literatürü ve olaylarıyla insicamlı bir bütünlük içinde ele alınamamı ştır.

Bu alandaki çalışmalarla sadece İslam medeniyet tarihinin bir dönemi değil aynı zamanda insanlık tarihinin çok önemli bir devresi aydınlanmış olacaktır. Bu proje vasıtasıyla İkinci Klasik Dönem'de tartışılan ilmî meseleler yeniden kazanılarak günümüz ilim ve fikir dünyasının gündemi haline getirilecek ve böylece yeni dönemin inşasında, hâlihazırdaki sorunların tespit, tahlil, tenkit ve hallinde geçmiş birikimden azami ölçüde istifade edilmesi sağlanacaktır.

Bu dönemle ilgili çalışmalar kapsamında İslam ilimleri, İslam düşüncesi, İslam bilim tarihi, İslam medeniyetinde beşerî ilimler ve sanat alanlarına dair çalışmaların yanı sıra İslam ile diğer medeniyetler arası mukayeseli çalışmalar yer alacaktır. Gerçekleştirilecek projeler Osmanlı coğrafyası, Sahrâaltı Afrikası, Delhi Sultanlığı döneminden itibaren Hint alt kıtası ve Moğol istilası sonrası Orta Asya ve İran'a yoğunlaşacaktır. Proje kapsamında kataloglama, telif, tahkik, tercüme türünden yayınlar yapılması öngörülmektedir.

M. Sait Özervarlı, *İbn Teymiyye'nin Düşünce Metodu ve Kelâmcılara Eleştirisi*, 2008; 2017
Yavuz Köktaş, *Fethu'l-bârî ve Umdetü'l-kârî'nin Metin Tahlili Açısından İncelenmesi*, 2009; 2020
Fatih Yahya Ayaz, *Memlükler Döneminde Vezirlik*, 2009; 2017
Halil İnalcık, *Osmanlı İdare ve Ekonomi Tarihi*, 2011; 2018
Tuncay Başoğlu, *Fıkıh Usulünde Fahreddin er-Râzî Mektebi*, 2011; 2014
Adalet Çakır, *Abdülkādir-i Geylânî ve Kādirîlik*, I-II, 2012; 2021
İslâm Düşüncesinin Dönüşüm Çağında Fahreddin er-Râzî (ed. Osman Demir-Ömer Türker), 2013
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Kifâye fi'l-hidâye* (thk. Muhammet Aruçi), 2013; 2022
Nûreddin es-Sâbûnî, *el-Müntekā min ismeti'l-enbiyâ* (thk. Mehmet Bulut), 2013; 2022
Türkiye'de Tarikatlar: Tarih ve Kültür (ed. Semih Ceyhan), 2015
Semih Ceyhan, *Üç Pîrin Mürşidi: Halvetiyye, Ramazâniyye Kolu ve Köstendilli Ali Alâeddin Efendi*, 2015
Şükrü Maden, *Tefsirde Hâşiye Geleneği ve Şeyhzâde'nin Envârü't-Tenzîl Hâşiyesi*, 2015
İstanbul Şer'iyye Sicilleri Vakfiyeler Katalogu (haz. B. Aydın, İ. Yurdakul, A. Işık, İ. Kurt, E. Yıldız), 2015
Muhammed el-İsfahânî, *Kitâbü'l-Kavâidi'l-külliyye* (thk. Mansur Koçinkağ - Bilal Taşkın), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Kādî Beyzâvî (ed. Müstakim Arıcı), 2017
İslâm İlim ve Düşünce Geleneğinde Adudüddin el-Îcî (ed. Eşref Altaş), 2017
Osman Güman, *Nahiv ve Fıkıh Usulü İlişkisi*, 2017
Mirzazâde Mehmed Sâlim Efendi, *Selâmetü'l-insân fî muhâfazati'l-lisân* (thk. Murat Sula), 2018
Tilimsânî, *Meâni'l-esmâi'l-ilâhiyye* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
Tilimsânî, *Şerhu'l-Fâtiha ve ba'zı sûreti'l-Bakara* (thk. Orkhan Musakhanov), 2018
İSAM Tahkikli Neşir Kılavuzu (haz. Okan Kadir Yılmaz), 2018
Mustafa Bülent Dadaş, *Şeyh Bedreddin: Bir Osmanlı Fakihi*, 2018
Mehmed Fıkhî el-Aynî, *Risâle fî edebi'l-müftî* (thk. Osman Şahin), 2018
Kāsım b. Kutluboğa, *Kitâbü Takrîbi'l-garîb* (thk. Osman Keskiner), 2018
Safedî, *Keşfü'l-esrâr ve hetkü'l-estâr* (thk. Bahattin Dartma), I-V, 2019
M. Taha Boyalık, *el-Keşşâf Literatürü: Zemahşerî'nin Tefsir Klasiğinin Etki Tarihi*, 2019
Şeyh Bedreddin, *et-Teshîl Şerhu Letâifi'l-işârât* (thk. M. Bülent Dadaş), I-III, 2019
Rükneddin es-Semerkandî, *Câmiu'l-usûl* (thk. İsmet Garibullah Şimşek), I-II, 2020
Mahmûd el-İsfahânî, *Tesdîdü'l-kavâid fî şerhi Tecrîdi'l-akāid*; Cürcânî, *Hâşiyetü't-Tecrîd; Cürcânî'nin minhüvâtı ve başka hâşiye notlarıyla birlikte* (thk. E. Altaş, M.A. Koca, S. Günaydın, M. Yetim), I-III, 2020; I-II, 2021
İbn Nüceym, *Lübbü'l-usûl* (thk. Muhammed Fâl Seyyid eş-Şinkītî), 2020
Siğnâkī, *et-Tesdîd fî şerhi't-Temhîd* (thk. Ali Tarık Ziyat Yılmaz), I-II, 2020
M. Âkif Aydın, *Osmanlı Hukuku: Devlet-i Aliyye'nin Temeli*, 2020
Mehmet Sami Baga, *İslam Felsefesinde Cisim Teorisi: Hikmetü'l-ayn Geleneği*, 2020
Güllü Yıldız, *Siyerde Şerh-Haşiye Geleneği: Moğultay b. Kılıç Örneği*, 2020
Mehmet Çiçek, *Müfessir Olarak Ali Kuşçu*, 2021
Alî Kuşçu, *Hâşiyetü Alî el-Kuşcî alâ Şerhi'l-Keşşâf li't-Teftâzânî* (thk. Mehmet Çiçek), 2021
İbn Âbidîn, *Şerhu Ukūdi resmi'l-müftî* (thk. Şenol Saylan), 2021
Şeyhülislâm Ebussuûd b. Muhammed el-İmâdî, *İrşâdü'l-akli's-selîm ilâ mezâya'l-Kitâbi'l-Kerîm* (thk. M.T. Boyalık, A. Aytep, Z. el-Kaliş, M.İ. el-Nabulsî), I-IX, 2021
İslam İlim Geleneğinde Nevevî (ed. Nail Okuyucu), 2022
Necmeddin Yûsuf b. Ahmed el-Hâsî el-Hârizmî, *el-Fetâva's-sugrâ* (thk. Abdulhalik Uygur), I-II, 2022
Tenkitli Neşir Kılavuzu (Osmanlı Türkçesi Metinleri İçin) (haz. B. Açıl, S. Yazar, K. Turgut, Ö. Kavak), 2022
Hamza b. Turgut Aydınî, *el-Hevâdî fî şerhi'l-Mesâlik* (thk. Ali Bulut), 2022
Mustafa Ateş, *Bir Osmanlı Fakihi İbn Âbidîn*, 2022
İbrâhim b. Mustafa el-Halebî el-Medârî, *el-Lüm'a fi'l-hudûs ve'l-kıdem ve'l-kazâ ve'l-kader ve tahkīki't-teklîf* (thk. Münzir Şeyhhasan), 2022
Şemseddin İbn Tolun, *el-Gurefü'l-aliyye fî terâcimi müteahhirî'l-Hanefiyye* (thk. Ali es-Seyyid Abdüllatîf), I-III, 2023